الرافدين على الجلالين

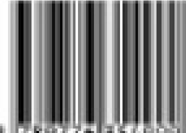
بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

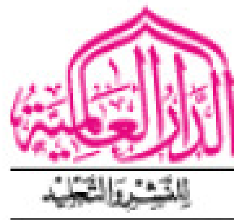
١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٨٣٤٠/ ٢٠١٣م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٥٤-٢٥-٨







 002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

الرافدين على الجلالين

تأليف
محمد بن نصر أبي جبل

الجزء السادس والثلاثون




بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَة الحشر(١)

(١) **قال ابن عطية:**"هذه السورة مدنية باتفاق من أهل العلم، وهي سورة بني النضير".

قال ابن الجوزي:"هي مدنية كلها بإجماعهم، وذكر المفسّرون أنّ جميعها نزل في بني النّضير".

القرآن.

عن سعيد بن جبير؛ قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم، ومنهم؛ حتى ظنوا أنها لم تبق أحداً منهم إلا ذكر فيها، قال: قلت: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر، قال: قلت: سورة الحشر؟ قال: نزلت في بني النضير.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (٨/ ٦٢٨، ٦٢٩ رقم ٤٨٨٢)، ومسلم في "صحيحه" (٤/ ٢٣٢٢ رقم ٣٠٣١) به.

❋ آياتها أَربع وعشرون. كلماتها أَربعمائة وخمس وأَربعون. حروفها أَلف وتسعمائة وثلاث عشرة. فواصل آياتها (مَن برّ) على الباءِ آيتان: العقاب فى موضعين.

❋ أسماء السورة:

سُمِّيت «سورة الحشر» بهذا الاسم للحديث عن الحَشر وورود هذا اللفظ فيها، ولأنَّه ورد فيها ذِكر حَشر بني النَّضير، إذ إنَّ هذه السُّورة نَزلت عقب إخراج بني النَّضير من المدينة إلى الشَّام في السَّنة الرَّابعة من الهجرة، فاشتُهرت هذه السُّورة باسم «سُورة الحَشر»، لقوله تعاليفيها: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} [الحشر: ٢]، والمراد بالحشر حشران؛ الحشر =

=

الأوَّل: هو جمع بني النَّضير وإخراجهم من المدينة المنورة إلى الشَّام في عهد النبوَّة، والحشر الثَّاني: المراد فيه إجلاؤهم من خيبر إلى الشَّام في عهد عمر بن الخطَّاب -رضي الله.

وتُسمَّى سُورة الحشر أيضاً باسم آخر وهو: سُورة بني النَّضير، وهو الاسم الذي أَطلقه ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لئلَّا يُظَنّ أنَّ المَقصود بالحَشر يوم القَيامة؛ ويظهر هذا في قوله تعاليفيها: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} [الحشر: ٢]، أي: إنَّ المقصود بالحَشر هو إخراج بني النَّضير، وقد ورد في الأثر عن سعيد بن جبير قال: "قلت لابن عباس سورة الحشر قال: قال: سورة النضير"، وفي رواية:"نزلت في بني النضير".

* معظم مقصود السّورة: الخبر عن جلاءِ بنى النَّضير، وقَسْم الغنائم، وتفصيل حال المهاجرين والأَنصار، والشكاية من المنافقين فى واقعة قُرَيظة، وذكر بَرْصِيصاء العابد، والنّظر إلى العواقب، وتأْثير نزول القرآن، وذكر أَسماءِ الحقِّ تعالى وصفاته، وبيان أَنَّ جملة الخلائق فى تسبيحه وتقديسه فى قوله: {لَهُ الأسمآء الحسنى} إلى آخر السّورة.

* المتشابهات: قوله تعالى: {وَمَآ أَفَآءَ الله} وبعده: {مَآ أَفَآءَ الله} بغير واو؛ لأَنَّ الأَوّل معطوف على قوله: {مَا قَطَعْتُمْ} والثَّانى استئناف ليس له به تعلُّق. وقول من قال: إِنَّه بدل من الأَوّل مزيّف عند أَكثر المفسّرين.

قوله: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ} وبعده: {قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُوْنَ} لأَنَّ الأَوّل متّصل بقوله: {لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ الله} لأَنَّهم يرون الظَّاهر، ولا يفقهون على ما استتر عليهم، والفقه معرفةُ ظاهر الشئ وغامضه بسرعة فِطنة، فنَفَى عنهم ذلك. والثانى متَّصل بقوله: {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شتى} أَى لو عَقَلوا لاجتمعوا على الحقِّ، ولم يتفرّقوا.

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١).

{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْض} أَيْ نَزَّهَهُ فَاللَّام مَزِيدَة وَفِي الْإِتْيَان بِمَا تَغْلِيب لِلْأَكْثَرِ {وَهُوَ الْعَزِيز الْحَكِيم} فِي ملكه وصنعه.

هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ (٢).

{هُوَ الَّذِي أَخرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْل الْكِتَاب} هُمْ بَنُو النَّضِير مِنْ الْيَهُود {مِنْ دِيَارهمْ} مَسَاكِنهمْ بِالْمَدِينَةِ {لِأَوَّلِ الْحَشْر} هُوَ حَشْرهمْ إِلَى الشَّام وَآخِره أَنْ أَجْلَاهُمْ عُمَر فِي خِلَافَته إِلَى خَيْبَر {مَا ظَنَنْتُمْ} أَيّهَا الْمُؤْمِنُونَ {أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتهمْ} خَبَر أَنْ {حُصُونهمْ} فَاعِله تَمَّ بِهِ الْخَبَر {مِنْ الله} مِنْ عَذَابه {فَأَتَاهُمْ الله} أَمْره وَعَذَابه {مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا} لَمْ يَخْطِر بِبَالِهِمْ مِنْ جِهَة الْمُؤْمِنِينَ {وَقَذَفَ} أَلْقَى {فِي قُلُوبهمْ الرُّعْب} بِسُكُونِ الْعَيْن وَضَمّهَا الْخَوْف بِقَتْلِ سَيِّدهمْ كَعْب بْن الْأَشْرَف {يُخْرِبُونَ} بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيف مِنْ أَخْرَبَ {بُيُوتهمْ} لِيَنْقُلُوا مَا اسْتَحْسَنُوهُ مِنْهَا مِنْ خَشَب وغيره {بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار}.

وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

النَّارِ (٣).

{وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ الله} قَضَى {عَلَيْهِمْ الْجَلَاء} الْخُرُوج مِنْ الْوَطَن {لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا} بِالْقَتْلِ والسبي كما فعل بقريظة من اليهود {ولهم في الآخرة عذاب النار}.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤).

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا} خَالَفُوا {الله وَرَسُوله وَمَنْ يُشَاقّ الله فَإِنَّ الله شَدِيد الْعِقَاب} لَهُ.

مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥).

{مَا قَطَعْتُمْ} يَا مُسْلِمُونَ {مِنْ لِينَة} نَخْلَة {أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَة عَلَى أُصُولهَا فَبِإِذْنِ الله} أَيْ خَيَّرَكُمْ فِي ذَلِكَ {وَلِيُخْزِيَ} بِالْإِذْنِ فِي الْقَطْع {الْفَاسِقِينَ} الْيَهُود فِي اعْتِرَاضهمْ أَنَّ قَطْع الشَّجَر الْمُثْمِر فَسَاد[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ قالت: كانت غزوة بني النضير -وهم طائفة من اليهود- على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، وكان منزلهم ونخلهم بناحية المدينة؛ فحاصرهم رسول الله ﷺ؛ حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة؛ يعني: السلاح؛ فأنزل الله فيهم: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ
=

=

كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤)}؛ فقاتلهم النبي ﷺ حتى صالحهم على الجلاء، فأجلاهم إلى الشام، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا، وكان الله قد كتب عليهم ذلك، ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي. وأما قوله: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤)}؛ فكان جلاؤهم ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام.

أخرجه الحاكم في "المستدرك" (٢/ ٤٨٣) -وعنه البيهقي في "دلائل النبوة" (٣/ ١٧٨) -من طريق زيد بن المبارك نا محمد بن ثور عن معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة به.

وهذا سند صحيح رجاله ثقات. والحديث صححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

وأخرجه عبد الرزاق في "المصنف" (٥/ ٣٥٧، ٣٥٨ رقم ٩٧٣٢) عن معمر عن الزهري في حديثه عن عروة؛ قال: ثم كانت غزوة بني النضير، وهم طائفة من اليهود، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، وكانت منازلهم ونخلهم بناحية من المدينة، فحاصرهم رسول الله ﷺ؛ حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة؛ يعني: السلاح؛ فأنزل الله تعاليفيهم: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي

=

=

أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ}؛ فقاتلهم النبي ﷺ حتى صالحهم على الجلاء، فأجلاهم إلى الشام، فكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا، وكان الله قد كتب عليهم الجلاء، ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسباء، وأما قوله: {لِأَوَّلِ الْحَشْرِ}؛ فكان جلاءهم ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام. وهذا مرسل صحيح، وتقدم موصولاً عن عائشة بسند صحيح.

وأخرجه البيهقي في "الدلائل" (٣/ ١٧٦، ١٧٧) بسند صحيح إلى الزهري به.

فجعله من مرسل الزهري لا عروة.

وأخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٨٢) عن معمر عن الزهري بنحوه.

وهو مرسل صحيح الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٨٩) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن أبي حاتم، ونقل عن البيهقي قوله: "وهو المحفوظ"؛ أي: المرسل.

وعن عروة بن الزبير وموسى بن عقبة؛ قالا: هذا حديث رسول الله ﷺ حين خرج إلى بني النضير يستعينهم في عقل الكلابيين، وكانوا زعموا قد دسّوا إلى قريش حين نزلوا بأحد لقتال رسول الله ﷺ، فحضوهم على القتال، ودلوهم على العورة، فلما كلمهم رسول الله ﷺ في عقل الكلابيين؛ قالوا: اجلس يا أبا القاسم؛ حتى تُطعم، وترجع بحاجتك، ونقوم فنتشاور ونصلح أمرنا فيما جئتنا له، فجلس رسول الله ﷺ ومن معه من أصحابه في ظل جدار ينتظرون أن يصلحوا أمرهم، فلما خلوا والشيطان معهم؛ ائتمروا بقتل رسول الله ﷺ، فقالوا: لن تجدوه أقرب منه الآن فاستريحوا منه؛ تأمنوا في دياركم ويرفع عنكم البلاء، فقال رجل منهم: إن شئتم ظهرت فوق البيت الذي هو تحته فدليت عليه حجراً فقتله، وأوحى الله ﷻ إليه فأخبره بما ائتمروا به من شأنهم؛ فعصمه الله ﷻ، وقام رسول الله ﷺ كأنه يريد أن يقضي حاجة، وترك أصحابه في مجلسهم، وانتظره أعداء الله فراث عليهم،

=

=

فأقبل رجل من المدينة فسألوه عنه، فقال: لقيته قد دخل أزقة المدينة، فقالوا لأصحابه: عجل أبو القاسم أن يقيم أمرنا في حاجته التي جاء لها، ثم قام أصحاب رسول الله ﷺ فرجعوا، ونزل القرآن والله أعلم بالذي أراد أعداء الله، فقال ﷻ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ} إلى قوله: {وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١)} [المائدة: ١١].

فلما أظهر الله ﷻ رسوله ﷺ على ما أرادوا به وعلى خيانتهم؛ أمر الله ﷻ رسوله ﷺ بإجلائهم وإخراجهم من ديارهم، وأمرهم أن يسيروا حيث شاءوا، وقد كان النفاق قد كثر في المدينة، فقالوا: أين تخرجنا؟ قال: "أخرجكم إلى الحبس"، فلما سمع المنافقون ما يراد بإخوانهم وأوليائهم من أهل الكتاب؛ أرسلوا إليهم فقالوا لهم: إنا معكم محيانا ومماتنا، إن قوتلتم؛ فلكم علينا النصر، كان أخرجتم؛ لم نتخلف عنكم، وسيد اليهود أبو صفية حُيَيّ بن أخطب، فلما وثقوا بأماني المنافقين؛ عظمت غِرّتهم، ومناهم الشيطان الظهور؛ فنادوا النبي ﷺ وأصحابه: إنا والله لا نخرج ولئن قاتلتنا لنقاتلنك.

فمضى النبي ﷺ لأمر الله تعالى؛ فأمر أصحابه فأخذوا السلاح ثم مضى إليهم، وتحصنت اليهود في دورهم وحصونهم، فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى أزقتهم وحصونهم؛ كره أن يمكنهم من القتال في دورهم وحصونهم، وحفظ الله ﷻ أمره وعزم على رشده؛ فأمر بالأدنى فالأدنى من دورهم أن تُهدم، وبالنخل أن تُحرق وتُقطع، وكف الله تعاليأيديهم وأيدي المنافقين فلم ينصروهم، وألقى الله ﷻ في قلوب الفريقين كلاهما الرعب، ثم جعلت اليهود كما خلص رسول الله ﷺ من هدم ما يلي مدينته ألقى الله ﷻ في قلوبهم الرعب، فهدموا الدور التي هم فيها من أدبارها ولم يستطيعوا أن يخرجوا على النبي ﷺ، وأصحابه يهدمون ما أتوا عليه الأول فالأول، فلما كادت اليهود أن تبلغ آخر دورها وهم ينتظرون المنافقين وما

=

كانوا منوهم، فلما يئسوا مما عندهم؛ سألوا رسول الله ﷺ الذي كان عرض عليهم قبل ذلك؛ فقاضاهم رسول الله ﷺ على أن يجليهم ولهم أن يتحملوا بما استقلت به الإبل من الذي كان لهم إلا ما كان من حلقة أو سلاح؛ فطاروا كل مطير، وذهبوا كل مذهب، ولحق بنو أبي الحقيق طير معهم آنية كثيرة من فضة قد رآها النبي ﷺ وأصحابه والمسلمون حين خرجوا بها، وعمد حيي بن أخطب حين قدم مكة على قريش فاستغواهم على رسول الله ﷺ واستنصروهم، وبيّن الله ﷻ لرسوله ﷺ حديث أهل النفاق وما بينهم وبين اليهود، وكانوا قد عيّروا المسلمين حين يهدمون الدور ويقطعون النخل، فقالوا: ما ذنب شجرة وأنتم تزعمون أنكم مصلحون؟ فأنزل الله ﷻ: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ} إلى قوله: {وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ}.

ثم جعلها نفلاً لرسول الله ﷺ ولم يجعل فيها سهماً لأحد غيره، فقال: {وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ} إلى قوله: {وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

فقسمها رسول الله ﷺ فيمن أراه ﷻ من المهاجرين الأولين، وأعطى منها الأنصار رجلين سماك بن أوس بن خرشة، وهو أبو دجاجة، وسهل بن حنيف، وأعطى -زعموا- سعد بن معاذ سيف بن أبي الحقيق، وكان إجلاء بني النضير في المحرم سنة ثلاث، وأقامت قريظة في المدينة في مساكنهم لم يؤمر النبي ﷺ فيهم بقتال ولا إخراج حتى فضحهم الله ﷻ بحيي بن أخطب، وبمجموع الأحزاب.

أخرجه البيهقي في "دلائل النبوة" (٣/ ١٨٠ -١٨٢). وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ حرَّق نخل بني النضير وقطع، وهي البويرة؛ فأنزل الله تعالى: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ

=

اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)}.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤٠٣١، ٤٨٨٤)، ومسلم (رقم ١٧٤٦/ ٩) وغيرهما.

وفي رواية لمسلم (١٧٤٦/ ٣٠) وهو عند البخاري (رقم ٣٠٢١ -مختصر): أن رسول الله ﷺ قطع نخل بني النضير وحرق، ولها يقول حسان:

وهان على سراة بني لؤي ... حريق بالبويرة مستطير

وفي ذلك نزلت: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)}.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قول الله عز وجل: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)}؛ قال: اللينة: النخلة، {وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ}؛ قال: استنزلوهم من حصونهم، قال: وأمروا بقطع النخل؛ فحك في صدورهم، فقال المسلمون: قد قطعنا بعضًا وتركنا بعضًا، فلنسألن رسول الله ﷺ: هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله تعالى: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)}.

أخرجه الترمذي (٥/ ٤٠٨ رقم ٣٣٠٣)، والنسائي في "تفسيره" (٢/ ٣٩٦، ٣٩٧ رقم ٥٩٤)، وفي "السير"؛ كما في "تحفة الأشراف" (رقم ٥٤٨٨) من طريق عفان بن مسلم الصفار عن حفص بن غياث ثنا حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به. وسنده صحيح.

والحديث قال عنه الترمذي: "حديث حسن غريب". وصححه العلامة الألباني رحمه الله في "صحيح الترمذي" (رقم ٢٦٣١).

ثم أخرج الترمذي عقبه من طريق مروان بن معاوية عن حفص به مرسلاً لم يذكر

=

=

ابن عباس، والموصول أصح.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: رخّص لهم في قطع النخل ثم شدد عليهم؛ فأتوا النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله! علينا إثم فيما قطعنا أو علينا فيما تركنا؟ فأنزل الله: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ}.

أخرجه أبو يعلى في "المسند" (٤/ ١٣٥ رقم ٢١٨٩): ثنا سفيان بن وكيع ثنا حفص عن ابن جريج عن سليمان بن موسى الأشدق عن أبي الزبير عنه به. وهذا سند ضعيف جداً؛ مسلسل بالعلل:

الأولى: أبو الزبير؛ مدلس وقد عنعن.

الثانية: سليمان؛ فيه ضعف، وفي "التقريب": "صدوق فقيه، في حديثه بعض لين وخلط قبل موته بقليل".

الثالثة: ابن جريج؛ مدلس وقد عنعن.

الرابعة: سفيان بن وكيع؛ قال في "التقريب": "كان صدوقاً؛ إلا أنه ابتلي بوراقه فأدخل عليه ما ليس من حديثه؛ فنصح؛ فلم يقبل؛ فسقط حديثه".

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٢٢): "رواه أبو يعلى عن شيخه سفيان بن وكيع وهو ضعيف".

وقال البوصيري في "إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ١٧٣): "هذا إسناد ضعيف؛ لضعف سفيان بن وكيع".

وقال السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢٠٨): "وأخرج أبو يعلى بسند ضعيف عن جابر".

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن سورة الحشر نزلت في النضير، وذكر الله فيها الذي أصابهم من النعمة وتسليط رسول الله ﷺ عليهم حتى عمل بهم الذي عمل بإذنه، وذكر المنافقين الذين كانوا يراسلونهم ويعدونهم النصر؛ فقال: {هُوَ الَّذِي

=

=

أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} إلى قوله: {وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ} من هدمهم بيوتهم من تحت الأبواب، ثم ذكر قطع رسول الله ﷺ النخل وقول اليهود له: يا محمد! قد كنت تنهى عن الفساد؛ فما بال قطع النخل؟! فقال: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)} يخبرهم أنها نعمة منه، ثم ذكر مغانم بني النضير؛ فقال: {وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦)} أعلمهم أنها لرسول الله ﷺ يضعها حيث يشاء، ثم مغانم المسلمين مما يوجف عليه الخيل والركاب ويفتح بالحرب؛ فقال: {مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧)}؛ فهذا مما يوجف عليه الخيل والركاب، ثم ذكر المنافقين عبد الله بن أُبيّ بن سلول ومالكاً وداعساً ومن كان على مثل رأيهم؛ فقال: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ} إلى: {كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا}؛ يعني: بني قينقاع الذين أجلاهم رسول الله ﷺ.

أخرجه ابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تخريج الكشاف" (٣/ ٤٣٨)، و"الفتح السماوي" (٣/ ١٠٣٥) من طريق ابن إسحاق ثني محمد بن السائب الكلبي ثني أبو صالح عن ابن عباس به.

والكلبي كذاب، ونحوه شيخه أبو صالح؛ فإنه متهم بالكذب.

وعن يزيد بن رومان؛ قال: لما نزل رسول الله ﷺ؛ يعني: ببني النضير؛ تحصنوا منه في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخل، والتحريق فيها، فنادوه: يا محمد! قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه؛ فما بال قطع النخل

=

=

وتحريقها؟! فأنزل الله ﷻ: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٢٣): ثنا ابن حميد ثنا سلمة بن الفضل ثنا ابن إسحاق ثنا يزيد بن رومان به. وهذا سند ضعيف جداً؛ فيه علتان:

الأولى: ابن حميد؛ ضعيف، بل اتّهم بالكذب.

الثانية: الإرسال.

وعن قتادة؛ قوله: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)}؛ أي: ليغظهم، فقطع المسلمون يومئذ النخل، وأمسك آخرون؛ كراهية أن يكون إفساداً، فقالت اليهود: آلله أذن لكم في الفساد؛ فأنزل الله تعالى: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٢٣): ثنا بشر بن معاذ العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن عبد الله بن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: أن كفار قريش كتبوا إلى عبد الله بن أُبيّ بن سلول ومن كان يعبد الأوثان من الأوس والخزرج -ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة، قبل وقعة بدر- يقولون: إنكم آويتم صاحبنا، وإنكم أكثر أهل المدينة عدداً، وإنا نقسم بالله؛ لتقتلنه أو لتُخرجُنّه، أو لنستعين عليكم العرب، ثم لنسيرنّ إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أُبيّ ومن كان معه من عبدة الأوثان؛ تراسلوا، فاجتمعوا، وأرسلوا، وأجمعوا لقتال النبي ﷺ وأصحابه، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ فلقيهم في جماعة، فقال: "لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت لتكيدكم بأكثر مما تريدون أن يكيدوا به أنفسكم، فأنتم هؤلاء تريدون أن تقتلوا

=

=

أبناءكم وإخوانكم".

فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ؛ تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش، وكانت وقعة بدر، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء وهي الخلاخيل، فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ؛ أجمعت بنو النضير [على] الغدر، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ: أخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك، ولنخرج في ثلاثين حبراً؛ حتى نلتقي في مكان كذا، نصف بيننا وبينكم، فيسمعوا منك، فإن صدقوك، وآمنوا بك؛ آمنا كلنا، فخرج النبي ﷺ في ثلاثين من أصحابه، وخرج إليه ثلاثون حبراً من يهود، حتى إذا برزوا في براز من الأرض؛ قال بعض اليهود لبعض: كيف تخلصون إليه، ومعه ثلاثون رجلاً من أصحابه، كلهم يحب أن يموت قبله؟ فأرسلوا إليه: كيف تفهم ونفهم، ونحن ستون رجلاً؟ أخرج في ثلاثة من أصحابك، ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا فليسمعوا منك، فإن آمنوا بك؛ آمنا كلنا وصدقناك، فخرج النبي ﷺ في ثلاثة نفر من أصحابه، واشتملوا على الخناجر، وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ، فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى بني أخيها، وهو رجل مسلم من الأنصار، فأخبرته خبر ما أرادت بنو النضير إلى بني أخيها، فأخبرته خبر ما أرادت بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ؛ فأقبل أخوها سريعًا، حتى أدرك النبي ﷺ فساره بخبرهم قبل أن يصل النبي ﷺ إليهم؛ فرجع النبي ﷺ، فلما كان من الغد؛ غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب، فحاصرهم وقال لهم: "إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه"؛ فأبوا أن يعطوه عهداً؛ فقاتلهم يومهم ذلك هو والمسلمون، ثم غدا الغد على بني قريظة بالخيل والكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه؛ فعاهدوه، فانصرف عنهم، وغدا إلى بني النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما

=

=

أقلت الإبل إلا الحلقة، والحلقة: السلاح، فجاءت بنو النضير، واحتملوا ما أقلّت الإبل من أمتعهم وأبواب بيوتهم وخشبها، فكانوا يخربون بيوتهم، فيهدمونها فيحملون ما وافقهم من خشبها، وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام، وكان بنو النضر من سبط من أسباط بني إسرائيل لم يصبهم جلاء منذ كتب الله على بني إسرائيل الجلاء؛ فلذلك أجلاهم رسول الله ﷺ، فلولا ما كتب الله عليهم من الجلاء؛ لعذبهم في الدنيا كما عذبت بنو قريظة؛ فأنزل الله: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)} حتى بلغ: {وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، وكانت نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة، فأعطاه الله إياها وخصه بها، فقال: {مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ} يقول: بغير قتال، قال: فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين وقسمها بينهم، وقسم منها لرجلين من الأنصار كانا ذوي حاجة لم يقسم لرجل من الأنصار غيرهما، وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ في يد بني فاطمة.

أخرجه عبد الرزاق في "المصنف" (٥/ ٣٥٨ -٣٦١ رقم ٩٧٣٣) -ومن طريقه أبو داود في "سننه" (٣/ ١٥٦، ١٥٧ رقم ٣٠٠٤) -ومن طريقه البيهقي في "دلائل النبوة" (٣/ ١٧٨، ١٧٩) -عن معمر عن الزهري عن عبد الرحمن به. وهذا سند صحيح رجاله ثقات.

وصححه شيخنا الألباني رَحِمَهُ اللهُ في "صحيح أبي داود".

وعن الأوزاعي؛ قال: أتى النبيَّ ﷺ يهوديٌّ فسأله عن المشيئة؛ فقال: "المشيئة لله تعالى"، قال: فإني أشاء أن أقوم، قال: "قد شاء الله أن تقوم"، قال: فإني أشاء أن أقعد، قال: "فقد شاء الله أن تعقد"، قال: فإني أشاء أن أقطع هذه النخلة، قال: "فقد شاء الله أن تقطعها"، قال: فإني أشاء أن أتركها، قال: "فقد شاء الله أن تتركها"، قال: فأتاه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: "لقنت حجتك كما لقنها إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ"،

=

=

قال: ونزل القرآن؛ فقال: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)}.

أخرجه البيهقي في "الأسماء والصفات" (١/ ٣٦٧ رقم ٢٩٦): ثنا أبو عبد الله الحافظ ثنا أبو العباس الأصم ثنا العباس بن الوليد بن مزيد عن الأوزاعي به.

وسنده صحيح إلى الأوزاعي؛ لكنه معضل؛ فالأوزاعي من أتباع التابعين.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قسم بين قريش والمهاجرين، النضير؛ فأنزل الله تعالى: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ}؛ قال: هي العجوة والفنيق والنخيل، وكانا مع نوح في السفينة، وهما أصل التمر، ولم يعط رسول الله ﷺ من الأنصار أحداً إلا رجلين: أبا دجانة، وسهل بن حنيف.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٩٩) ونسبه لابن مردويه.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: جاء يهودي إلى النبي ﷺ، قال: أنا أقوم فأصلي، قال: "قدر الله لك ذلك أن تصلي"، قال: أن أقعد، قال: "قدر الله لك أن تقعد"، قال: أنا أقوم إلى هذه الشجرة فأقطعها، قال: "قدر الله لك أن تقطعها"، قال: فجاء جبريل عليه السلام فقال: "يا محمد! لقنت حجتك كما لقنها إبراهيم على قومه"، وأنزل الله تعالى: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)}؛ يعني: اليهود.

أخرجه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٨٠) وفيه من لم نعرفه.

وعن عكرمة: أن رسول الله ﷺ غدا يوماً إلى النضير؛ ليسألهم كيف الدية فيهم؟ فلما لم يروا مع رسول الله ﷺ كثير أحد؛ أبرموا بينهم على أن يقتلوه ويأخذوا أصحابه أسارى؛ ليذهبوا بهم إلى مكة ويبيعوهم من قريش، فبينما هم على ذلك؛ إذ جاء من اليهود من المدينة، فلما رأى أصحابه يأتمرون بأمر النبي ﷺ؛ قال لهم: ما تريدون؟ قالوا: نريد أن نقتل محمداً ونأخذ أصحابه، فقال لهم: وأين محمد؟

=

=

قالوا: هذا محمد قريب، فقال لهم صاحبهم: والله لقد تركت محمداً داخل المدينة؛ فأسقط بأيديهم، وقالوا: قد أخبر أنه انقطع ما بيننا وبينه من العهد، فانطلق منهم ستون حبراً ومنهم حيي بن أخطب والعاص بن وائل حتى دخلوا على كعب، وقالوا: يا كعب أنت سيد قومك -ومدحهم-، احكم بيننا وبين محمد، فقال لهم كعب: أخبروني ما عندكم؟ قالوا: نعتق الرقاب ونذبح الكوماء، وإن محمداً انبتر من الأهل والمال، فشرفهم كعب على رسول الله ﷺ؛ فانقلبوا؛ فأنزل الله: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ} إلى: {فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا} [النساء: ٥١، ٥٢] ونزل عليه لما أرادوا أن يقتلوه: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ} [المائدة: ١١]؛ فقال رسول الله ﷺ: "من يكفني كعباً؟ "، فقال ناس من أصحابه فيهم ابن مسلمة: نحن نكفيك يا رسول الله! ونستحل منك شيئاً، فجاؤوه فقالوا: يا كعب إن محمداً كلفنا الصدقة فبعنا شيئاً.

قال عكرمة: فهذا الذي استحلوه من رسول الله ﷺ، فقال لهم كعب: أرهنوني أولادكم، فقالوا: إن ذاك عار فينا، غداً تبيح أن يقولوا: عبد وسق ووسقين وثلاثة، قال كعب: فاللامة، قال عكرمة: وهي السلاح، فأصلحوا أمرهم على ذلك فقالوا: موعد ما بيننا وبينك القابلة، حتى إذا كانت القابلة؛ راحوا إليه ورسول الله ﷺ في المصلى يدعو لهم بالظفر، فلما جاؤوا؛ نادوه: يا كعب! -وكان عروساً- فأجابهم، فقالت امرأته -وهي بنت عمير-: أين تنزل؟ قد أشم الساعة ريح الدم، فهبط وعليه ملحفة مورسة وله ناصية، فلما نزل إليهم؛ قال القوم: ما أطيب ريحك؛ ففرح بذلك، فقام محمد بن مسلمة: فقال قائل المسلمين: أشمونا من ريحه، فوضع يده على ثوب كعب، وقال: شموا فشموا، وهو يظن أنهم يعجبون بريحه؛ ففرح بذلك، فقال محمد بن مسلمة: بقيت أنا -أيضاً-، فمضى إليه فأخذ

=

=

بناصيته ثم قال: اجلدوا عنقه، فجلدوا عنقه، ثم إن رسول الله ﷺ غدا إلى النضير، فقالوا: ذرنا نبك سيدنا، قال: "لا"، قالوا: فحزة على حزة، قال: "نعم، حزة على حزة"، فلما رأوا ذلك؛ جعلوا يأخذون من بطون بيوتهم الشيء لينجوا به، والمؤمنون يخربون بيوتهم من خارج ليدخلوا عليهم، فلولا أن كتب الله عليهم الجلاء.

قال عكرمة: والجلاء يجلون منهم ليقتلهم بأيديهم، وقال عكرمة: إنا ناساً من المسلمين لما دخلوا علي بني النضير؛ أخذوا يقطعون النخل، فقال بعضهم لبعض: {وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا} [البقرة٢٠٥]، وقال قائل من المسلمين: {وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا} [التوبة:١٢١]، {وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ} [التوبة:١٢٠]؛ فأنزل الله: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ} وهي النخلة، {أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ} قال: ما قطعتم؛ فبإذني، وما تركتم؛ فبإذني.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٩٥ -٩٧) ونسبه لعبد بن حميد. وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن مقاتل بن حيان، قول الله ﷻ: {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ}، قال: كان النبي ﷺ يقاتلهم، فإذا ظهر على درب أو دار؛ هدم حيطانها؛ ليتسع المكان للقتال، وكانت اليهود إذا غلبوا على درب أو دار؛ نقبوها من أدبارها ثم حصنوها ودربوها، يقول الله ﷻ: {فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ}، قوله: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ} إلى قوله: {وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ}؛ يعني: باللينة: النخلة، وهي أعجب إلى اليهود من الوصيف، يقال لثمرها: اللون، فقالت اليهود عند قطع النبي ﷺ نخلهم وعقر شجرهم: يا محمد! زعمت أنك تريد الإصلاح، أفمن الإصلاح: عقر الشجر، وقطع النخل، والفساد؟! فشق ذلك على النبي ﷺ ووجد المسلمون من

=

=

قولهم في أنفسهم من قطعهم النخل؛ خشية أن يكون فساداً، فقال بعضهم لبعض: لا تقطعوا؛ فإنه مما أفاء الله علينا، فقال الذين يقطعونها: نغيظهم بقطعها؛ فأنزل الله ﷻ : {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ} ؛ يعني: النخل، {فَبِإِذْنِ اللهِ} وما تركتم {قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ} ؛ فطابت نفس النبي ﷺ وأنفس المؤمنين، {وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} ؛ يعني: أهل النضر، فكان قطع النخل وعقر الشجر خزياً لهم.

أخرجه البيهقي في "الدلائل" (٣/ ٣٥٨، ٣٥٩) من طريق يزيد بن صالح عن بكير بن معروف عن مقاتل به. وهذا سند ضعيف جداً؛ لإعضاله، وضعف بكير.

وعن مجاهد في قوله: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ} ؛ يعني: من نخلة، قال: نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل؛ وقالوا: إنما هي من مغانم المسلمين، وقال الذين قطعوا: بل هو غيظ للعدو؛ فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه، وتحليل من قطعه من الإثم، فقال: إنما قطعه وتركه بإذن الله ﷻ .

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٨/ ٢٢، ٢٣)، والبيهقي في "الدلائل" (٣/ ١٨٥) من طريقين عن ابن أبي نجيح عن مجاهد به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

* افتتحت سورة «الحشر» بالثناء على الله تعاليوبتنزيهه عن كل ما لا يليق بذاته الجليلة، فقال-ﷻ: سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

وأصل التسبيح لغة: الإبعاد عن السوء. وشرعا: تنزيه الله تعاليعن كل ما لا يليق بجلاله وكماله.

والذي يتدبر القرآن الكريم، يجد أن الله تعاليقد ذكر فيه أن كل شيء في هذا الكون يسبح بحمده تعالى، كما في قوله: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ كما ذكر-سبحانه-أن الملائكة تسبح له، كما في قوله: وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ....

=

=

وكذلك الرعد، كما في قوله: وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ....

وكذلك الجبال والطير قال تعالى: إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ .

والتسبيح حقيقى، ولكن بلغة لا يعلمها إلا الله تعالى.

والمعنى: سبح لله تعاليونزهه عن كل ما لا يليق به، جميع ما في السموات وجميع ما في الأرض من كائنات ومخلوقات. وهو-ﷻ الْعَزِيزُ الذي لا يغلبه غالب الْحَكِيمُ في أقواله وأفعاله.

وقد افتتحت بعض السور-كسورة الحديد والحشر والصف-بالفعل الماضي، لإفادة الثبوت والتأكيد، وأن التسبيح قد تم فعلا.

وافتتحت بعض السور، كسورة الجمعة والتغابن-بالفعل المضارع «يسبح» لإفادة تجدد هذا التسبيح في كل وقت، وحدوثه في كل لحظة.

قال الطبري: يعني: " صلى لله، وسجد له، {مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ} من خلقه".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى أن جميع ما في السموات وما في الأرض من شيء يسبح له ويمجده ويقدسه، ويصلي له ويوحده كقوله: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ} [الإسراء: ٤٤]".

قال الزجاج:"افتتح الله السورة بذكر تقديسه وأن له أشياء تبرئه من السوء، ومثل ذلك قوله: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ} [الإسراء: ٤٤]".

قال ابن عباس: "صلى لله {ما في السماوات} ممن خلق من الملائكة {والأرض}، من شيء فيه روح أولا رو فيه".

عن الضحاك:"أنه الصلاة، سميت تسبيحا لما تتضمنه من التسبيح".

=

=

قوله تعالى: {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الحشر: ١]، أي:"وهو العزيز الذي لا يغالَب، الحكيم في قَدَره وتدبيره وصنعه وتشريعه، يضع الأمور في مواضعها".

قال الطبري: " يقول: وهو العزيز في انتقامه ممن انتقم من خلقه على معصيتهم إياه، الحكيم في تدبيره إياهم"

قال ابن كثير:"{وَهُوَ الْعَزِيزُ} ، أي: منيع الجناب {الْحَكِيمُ} في قدره وشرعه".

قال محمد بن إسحاق: " العزيز: في نصرته ممن كفر به إذا شاء"، الحكيم: في عذره وحجته إلى عباده".

قال أبو العالية:"{عزيز} في نقمته إذا انتقم". وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

عن أبي العالية:"{حكيم} ، قال: حكيم في أمره".

قال محمد بن جعفر بن الزبير" الحكيم في عذره، وحجته إلى عباده".

ثم بين -سبحانه- جانبا من مظاهر فضله على المؤمنين، حيث نصرهم على أعدائهم، فقال: (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ....)

والمراد بالذين كفروا من أهل الكتاب هنا: يهود بنى النضير، وقصتهم معروفة في كتب السنة والسيرة، وملخصها: أن هؤلاء اليهود كانوا يسكنون في ضواحي المدينة فذهب إليهم النبي ﷺ ليستعين بهم في دفع دية لقتيلين قتلهما بعض المسلمين خطأ، فاستقبلوه استقبالا حسنا، وأظهروا له ﷺ استعدادهم للمساعدة فيما يطلبه منهم، ثم خلا بعضهم ببعض وقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، فمن منكم يصعد إلى أعلى هذا البيت الذي يجلس تحته محمد ﷺ فيلقى عليه حجرا فيريحنا منه، فتعهد واحد منهم بذلك، وقبل أن يتم فعله، نزل جبريل -عليه السلام- على النبي ﷺ فأخبره بما أضمره اليهود من غدر وخيانة فرجع ﷺ

=

=

إلى المدينة-وأخبر أصحابه بما أضمره له يهود بنى النضير، ونزل قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ، إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ، فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ.

ثم أمر النبي ﷺ أصحابه أن يستعدوا لحصار بنى النضير، وتأديبهم على غدرهم.. فحاصرهم المؤمنون بضعا وعشرين ليلة، وانتهى الأمر بإجلائهم، عن المدينة، فمنهم من ذهب إلى خبير، ومنهم من ذهب إلى غيرها.

واللام في قوله تعالى: لِأَوَّلِ الْحَشْرِ متعلقة بأخرج، والحشر: الجمع، يقال: حشر القائد جنده إذا جمعهم، ومنه قوله تعالى: وَحُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ.

أى: هو-سبحانه-الذي أخرج-بقدرته-الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم، وهم يهود بنى النضير عند مبدأ الحشر المقدر لهم في علمه، بأن مكنكم-أيها المؤمنون-من محاصرتهم وجمعهم في مكان واحد، ثم طردهم من المدينة المنورة إلى أماكن أخرى، بسبب غدرهم وسوء صنيعهم.

قال صاحب الكشاف: اللام في قوله: لِأَوَّلِ الْحَشْرِ تتعلق بأخرج، وهي مثل اللام في قوله: يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَياتِي وفي قولك: جئته لوقت كذا..

والمعنى: أخرج الذين كفروا عند أول الحشر. ومعنى أول الحشر: أن هذا أول حشرهم إلى الشام، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط.. أو المعنى: هذا أول حشرهم، وآخر حشرهم: إجلاء عمر-رضى الله عنه-لهم من خيبر إلى الشام.

وقيل معناه: أخرجهم من ديارهم لأول ما حشر لقتالهم، لأنه أول قتال قاتلهم رسول الله ﷺ.. ا.هـ.

وقصر-سبحانه-إخراجهم عليه فقال: هو الذي أخرج الذين كفروا، مع أن المسلمين قد اشتركوا في إخراجهم عن طريق محاصرتهم للإشعار بأن السبب

=

=

الحقيقي في إخراجهم من ديارهم، هو ما قذفه الله تعاليفي قلوبهم من الرعب.. أما محاصرة المؤمنين لهم فهي أسباب فرعية، قد تؤدى إلى إخراجهم، وقد لا تؤدى، وللإشعار -أيضا- بأن كل شيء إنما هو بقضاء الله وقدره..

ووصفهم -سبحانه- بالكفر وبأنهم من أهل الكتاب، للتشنيع عليهم وزيادة مذمتهم، حيث إنهم جمعوا بين رذيلتين: رذيلة الكفر بالحق، ورذيلة عدم العمل بكتابهم الذي أمر باتباع الرسول ﷺ الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، والذي يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر.

و «من» في قوله تعالى: مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ للبيان، حتى لا يظن بأن المراد بالذين كفروا هنا، مشركو قريش، وإن كان الجميع يشتركون في الكفر والفسوق والعصيان.

قال الطبري: يقول:"الله الذي أخرج الذين جحدوا نبوّة محمد ﷺ من أهل الكتاب، وهم يهود بني النضير من ديارهم، وذلك خروجهم عن منازلهم ودورهم،. حين صالحوا رسول الله ﷺ على أن يؤمنهم على دمائهم ونسائهم وذراريهم، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من أموالهم، ويخلو له دورهم، وسائر أموالهم، فأجابهم رسول الله ﷺ إلى ذلك، فخرجوا من ديارهم، فمنهم من خرج إلى الشام، ومنهم من خرج إلى خيبر".

قال ابن زيد:"هؤلاء النضير حين أجلاهم رسول الله ﷺ". " {لأَوَّلِ الْحَشْرِ}، قال: الشام حين ردهم إلى الشام".

قال يزيد بن رومان:"نزلت في بني النضير سورة الحشر بأسرها، يذكر فيها ما أصابهم الله ﷻ به من نقمته، وما سلط عليهم به رسول الله ﷺ وما عمل به فيهم، فقال: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ} ... الآيات".

=

=

عن مجاهد، في قول الله ﷻ : {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ} ، قال: النضير حتى قوله: {وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} ".

عن قتادة: " {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ} ، قيل: الشام، وهم بنو النضير حيّ من اليهود، فأجلاهم نبيّ الله ﷺ من المدينة إلى خيبر، مرجعه من أحد".

قال الزهري:"هم بنو النضير قاتلهم النبي ﷺ حتى صالحهم على الجلاء، فأجلاهم إلى الشام، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من شيء إلا الحلقة، والحلقة: السلاح، كانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما مضى، وكان الله ﷻ قد كتب عليهم الجلاء، ولولا ذلك عذبهم في الدنيا بالقتل والسباء".

وفي قوله تعالى: {لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} [الحشر: ٢]، وجوه:

أحدها: لأنهم أول من أجلاه النبي ﷺ من اليهود، قاله ابن حبان.

الثاني: لأنّهم أوّل من حشروا من أهل الكتاب ونفوا من الحجاز. قاله الكلبي.

الثالث: لأن هذا كان أوّل الحشر من المدينة، والحشر الثاني من خيبر وجميع جزيرة العرب إلى أذرعات وأريحا من الشام في أيام عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وعلى بدنه. قاله مرّة الهمداني.

الرابع: إنّما قال: {لِأَوَّلِ الْحَشْرِ} ، لأنّ الله سبحانه فتح على نبيّه -عليه السلام-في أول ما قاتلهم. قاله يمان بن رباب.

الخامس: أنه أول حشرهم، لما ذكره قتادة: أنه"تجيء نار من مَشرِق الأرض، تَحْشُر الناس إلى مغاربها، فتبيت معهم حيث باتُوا، تَقِيل معهم حيث قالوا، وتأكل من تَخَلَّف".

السادس: لأنه أول حشرهم، لأنهم يحشرون بعدها إلى أرض المحشر في القيامة، قاله الحسن، والزهري.

=

=

قال الزهري:"يقول تعالى ذكره: لأوّل الجمع في الدنيا، وذلك حشرهم إلى أرض الشام".

وروي عن النبي ﷺ أنه لما أجلى بني النضير قال لهم: «امضوا فهذا أول الحشر وأنا على الأثر».

عن ابن عباس، قال: من شك في أن أرض المحشر هاهنا -يعني الشام فَلْيَتْل هذه الآية: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ}، قال لهم رسول الله ﷺ: "اخرجوا". قالوا: إلى أين؟ قال: "إلى أرض المحشر".

عن عكرمة، قال:"مَن شكّ أنّ المَحْشَر إلى بيت المقدس فليقرأ هذه الآية: {هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الكِتابِ مِن دِيارِهِمْ لِأَوَّلِ الحَشْرِ}، فقد حُشِر الناسُ مرة، وذلك حين ظهر النبي ﷺ على المدينة أجلى اليهود".

عن قتادة بن دعامة -من طريق معمر-قال: "تجيء نارٌ مِن مَشرق الأرض، تَحشر الناس إلى مَغربها، تسوقهم سَوق البَرق الكسير، تَبيتُ معهم إذا باتوا، وتَقيل معهم إذا قالوا، وتأكل مَن تَخَلَّف منهم".

عن قيس، قال: "قال جريرٌ لقومه فيما يَعِظُهم: واللهِ، إني لَوَدِدتُ أنّي لم أكن بَنيتُ فيها لَبِنة، ما أنتم إلا كالنّعامة استَتَرتْ، وإنّ أول أرضكم هذه خرابًا يُسراها، ثم يَتبعها يُمناها، وإنّ المَحْشَر ههنا. وأشار إلى الشام".

وقوله تعالى: ما ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ... تذكير للمؤمنين بنعم الله تعاليعليهم.

أى: ما ظننتم-أيها المؤمنون-أن يهود بنى النضير سيخرجون من ديارهم بتلك السهولة، وذلك لتملكهم لألوان من القوة، كقوة السلاح، وكثرة العدد، ووجود من يحميهم ممن يسكنون معكم في المدينة، وهم حلفاؤهم من بنى قومهم، كبني قريظة وغيرهم، ومن غير بنى قومهم كالمنافقين الذين وعدوهم ومنوهم.

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره للمؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ: ما ظننتم

=

=

أن يخرج هؤلاء الذين أخرجهم الله من ديارهم من أهل الكتاب من مساكنهم ومنازلهم".

قال ابن كثير:"أي: في مدة حصاركم لهم وقصَرها، وكانت ستة أيام، مع شدة حصونهم ومنعتها".

وقوله: (وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ)معطوف على ما قبله.

أى: أنتم-أيها المؤمنون-ظننتم أن اليهود لن يخرجوا من ديارهم لما معهم من قوة، وهم-أيضا-ظنوا أن حصونهم ستمنع بأس الله عنهم، وأنها ستحول بينهم وبين خروجهم منها، ونصركم عليهم.

قال الطبري: " وإنما ظن القوم فيما ذكر أن عبد الله بن أَبي، وجماعة من المنافقين بعثوا إليهم لما حصرهم رسول الله ﷺ يأمرونهم بالثبات في حصونهم، ويعدونهم النصر".

قال الزجاج: "هؤلاء بنو النضير، كان لهم عز ومنعة من اليهود، فظن الناس أنهم لعزهم ومنعتهم لا يخرجون من ديارهم، وظن بنو النضير أن حصونهم تمنعهم من الله، أي: من أمر الله".

عن يزيد بن رومان:"أن رهطًا من بني عوف بن الخزرج، منهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول، ووديعة ومالك، ابنا نوفل، وسويد وداعس، بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنَّعوا، فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم، فتربصوا لذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وكانوا قد تحصنوا في الحصون من رسول الله ﷺ حين نزل بهم".

وقوله-سبحانه-: فَأَتاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ... متفرع عن الظن السابق، الذي ظنه المؤمنون، والذي ظنه أعداؤهم وهم بنو النضير.

=

=

أى: أنتم ظننتم أنهم لن يخرجوا من ديارهم، وهم ظنوا-أيضا-أن حصونهم ستمنعهم من نصركم عليهم، فكانت النتيجة أن أتاهم بأس الله وعقابه من حيث لم يحتسبوا ومن حيث لم يخطر ببال، بأن قذف في قلوبهم الرعب والفزع فخرجوا من حصونهم التي تمنعوا بها، ومن ديارهم التي سكنوها زمنا طويلا صاغرين أذلاء.

والتعبير بقوله: مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا إشارة إلى أن ما نزل بهم من هزيمة، لم يكونوا يتوقعونها أصلا، إذ الاحتساب مبالغة في الحسبان، أى: أتاهم عقاب الله تعاليمن المكان الذي كانوا يعتقدون أمانهم فيه، وفي زمان لم يكونوا أصلا يتوقعون حلول هزيمتهم عنده.

وعبر-سبحانه-بالقذف، لأنه كناية عن الرمي بقوة وعنف وسرعة. والرعب: شدة الخوف والفزع، وأصله: الامتلاء. تقول: رعبت الحوض إذا ملأته.

أى: وقذف-سبحانه-في قلوبهم الرعب الذي ملأها بالجزع والفزع فاستسلموا بسبب ذلك لما حكم به الرسول ﷺ عليهم.

قال الطبري: " فأتاهم أمر الله من حيث لم يحتسبوا أنه يأتيهم، وذلك الأمر الذي أتاهم من الله حيث لم يحتسبوا، قذف في قلوبهم الرعب بنزول رسول الله ﷺ بهم في أصحابه".

قال ابن كثير:"أي: جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال، كما قال في الآية الأخرى: {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ} [النحل: ٢٦]".

وفي قوله تعالى: {فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا} [الحشر: ٢]، وجهان:

أحدهما: لم يحتسبوا بأمر الله. حكاه الماوردي.

الثاني: من حيث لم يحتسبوا بقتل ابن الأشرف. قاله ابن جبير، والسدي.

=

=

قوله تعالى: {وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ} [الحشر: ٢]، أي:"وألقى في قلوبهم الخوف والفزع الشديد".

قال الطبري: " بنزول رسول الله ﷺ بهم في أصحابه".

قال ابن كثير:"أي: الخوف والهَلَع والجَزَع، وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذي نُصر بالرعب مسيرةَ شهر، صلوات الله وسلامه عليه".

وقال الثعلبي:"بقتل سيّدهم كعب بن الأشرف".

قال الزجاج:"كان بنو النضير لما دخل النبي عليه السلام المدينة عاقدوه ألا يكونوا عليه ولا معه، -فلما كان يوم أحد وظهر المشركون على المسلمين نكثوا ودخلهم الريب، وكان كعب، بن الأشرف رئيسا لهم فخرج في ستين رجلا إلى مكة وعاقد المشركين على التظاهر على النبي عليه السلام، فأطلع الله نبيه عليه السلام على ذلك، فلى ما صار إلى المدينة وجه رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة ليقتله، وكان محمد بن مسلمة رضيعا لكعب، فاستأذن محمد بن مسلمة رسول الله ﷺ في، أن ينال منه ليعتر كعب بن الأشرف، فجاءه محمد ومعه جماعة فاستنزله من منزله وأوهمه أنه قد حمل عليه في أخذ الصدقة منه فلما نزل أخذ محمد بن مسلمة بناصيته وكبر، فخرج أصحابه فقتلوه في مكانه، وغدا رسول الله ﷺ غازيا بني النضير فأناخ عليهم، وقيل إنه غزاهم على حمار مخطوم بليف".

ثم بين-سبحانه-ما حدث منهم خلال جلائهم فقال: (يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ، فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ) والتخريب: إسقاط البناء وهدمه أو إفساده.

أى: أن هؤلاء اليهود، بلغ من سوء نيتهم، ومن اضطراب أمرهم، أنهم عند ما أجمعوا أمرهم على الرحيل عن المدينة، أخذوا يخربون بيوتهم بأيديهم، عن طريق إسقاط بنائها، وهدم السليم منها، وإزالة ما اشتملت عليه من أبواب

=

=

وغيرها.. حتى لا ينتفع المسلمون بها من بعدهم..

وأخذوا يخربونها -أيضا- بأيدى المؤمنين، أى: بسبب أن المؤمنين كانوا يزيلون من طريقهم كل عقبة حتى يقتحموا عليهم ديارهم، فترتب على ذلك أن هدموا بعض بيوت بنى النضير من الخارج، ليستطيعوا التمكن منهم.

قال صاحب الكشاف: ما معنى تخريبهم لها بأيدى المؤمنين؟ قلت: لما عرّضوهم لذلك، وكانوا السبب فيه. فكأنهم أمروهم به، وكلفوهم إياه ... ا.هـ.

أى: أن يهود بنى النضير بسبب تحصنهم في ديارهم، ومحاولتهم عدم النزول على حكم الرسول ﷺ حملوا المؤمنين على تخريب هذه الحصون من الخارج، ليدخلوا عليهم..

والخطاب في قوله تعالى: فَاعْتَبِرُوا يا أُولِي الْأَبْصارِ لكل من يصلح له.

قال الجمل في حاشيته: والاعتبار مأخوذ من العبور والمجاوزة من شيء إلى شيء، ولهذا سميت العبرة عبرة، لأنها تنتقل من العين إلى الخد. وسمى علم التعبير بذلك، لأن صاحبه ينتقل من المتخيل إلى المعقول، وسميت الألفاظ عبارات، لأنها تنقل المعاني من لسان القائل إلى عقل المستمع، ويقال: السعيد من اعتبر بغيره، لأنه ينتقل بواسطة عقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه.

ولهذا قال القشيري: الاعتبار هو النظر في حقائق الأشياء، وجهات دلالتها، ليعرف بالنظر فيها شيء آخر.. ا.هـ

أى: إذا كان الأمر كما بينا لكم -أيها الناس-، فاعتبروا واتعظوا يا أصحاب العقول السليمة، والعيون الناظرة، بما جرى لهؤلاء اليهود، حيث دبر الله -تعالى أمر إخراجهم من ديارهم تدبيرا حكيما، ونصر المؤمنين عليهم بأيسر طريق، وجعل ديارهم من بعدهم، خير عبرة وعظة لكل ذي بصر، فقد خلفوها من بعدهم شاهد صدق على أن الغدر نهايته الخسران.. وعلى أن النصر إنما هو لمن اتبع الصدق

=

=

والوفاء بالعهد..

قال الآلوسي: واشتهر الاستدلال بهذه الجملة، على مشروعية العمل بالقياس الشرعي، قالوا: لأنه تعاليأمر فيها بالاعتبار، وهو العبور والانتقال من الشيء إلى غيره، وذلك متحقق في القياس، إذ فيه نقل الحكم من الأصل إلى الفرع.. ا.هـ.

قوله تعالى: {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ}

قال الطبري: يعني:"بني النضير من اليهود، وأنهم يخربون مساكنهم، وذلك أنهم كانوا ينظرون إلى الخشبة فيما ذُكر في منازلهم مما يستحسنونه، أو العمود أو الباب، فينزعون ذلك منها بأيديهم وأيدي المؤمنين".

وفي قوله تعالى: {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ} [الحشر: ٢]، وجوه من التفسير:

أحدها: بأيديهم بنقض الموادعة، وأيدي المؤمنين بالمقاتلة، قاله الزهري.

قال الزجاج:"معنى إخرابها بأيدي المؤمنين أنهم عرضوها لذلك".

الثاني: بأيديهم في تركها، وأيدي المؤمنين في إجلائهم عنها، قاله أبو عمرو ابن العلاء.

الثالث: بأيديهم في إخراب دواخلها وما فيها لئلا يأخذها المسلمون، وبأيدي المؤمنين في إخراب ظواهرها ليصلوا بذلك إليهم. وهذا قول قتادة.

قال قتادة:"جعلوا يخربونها من أجوافها، وجعل المؤمنون يخربون من ظاهرها".

قال عكرمة: "كانت منازلهم مزخرفة فحسدوا المسلمين أن يسكنوها فخربوها من داخل، وخربها المسلمون من خارج".

عن معمر، عن الزُّهريّ، قال: "لما صالحوا النبي ﷺ كانوا لا يعجبهم خشبة إلا أخذوها، فكان ذلك خرابها. وقال قتادة: كان المسلمون يخربون ما يليهم من ظاهرها، وتخربها اليهود من داخلها".

=

=

وقال مقاتل ابن حيان: "كان رسول الله ﷺ يقاتلهم، فإذا ظهر على دَرْب أو دار، هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال. وكان اليهود إذا علوا مكانًا أو غلبوا على درب أو دار، نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودربوها".

الرابع: معناه: أنهم كانوا كلما هدم المسلمون عليهم من حصونهم شيئًا نقضوا من بيوتهم ما يبنون به من حصونهم، قاله ابن عباس، والضحاك.

قال ابن عباس:"يعني بني النضير، جعل المسلمون كلما هدموا شيئًا من حصونهم جعلوا ينقضون بيوتهم ويخربونها، ثم يبنون ما يخرب المسلمون، فذلك هلاكهم".

الخامس: أن تخريبهم بيوتهم أنهم لما صولحوا على حمل ما أقلته إبلهم جعلوا ينقضون ما أعجبهم من بيوتهم حتى الأوتار ليحملوها على إبلهم، قاله عروة بن الزبير، وابن زيد.

قال ابن زيد:"هؤلاء النضير، صالحهم النبيّ ﷺ على ما حملت الإبل، فجعلوا يقلعون الأوتاد يخربون بيوتهم".

قال يزيد بن رومان:"احتملوا من أموالهم، يعني بني النضير، ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به، قال: فذلك قوله: {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ}، وذلك هدمهم بيوتهم عن نجف أبوابهم إذا احتملوها".

وقرئ: «يخرّبون»، بالتشديد في الراء، بمعنى: يهدّمون بيوتهم.

قوله تعالى: {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} [الحشر: ٢]، أي:"فاتعظوا يا أصحاب البصائر السليمة والعقول الراجحة بما جرى لهم".

قال ابن عباس: "يريد يا أهل اللب والعقل والبصائر".

قال الفراء: " يا أولي العقول، ويقال: يا أولي الأبصار: يا من عاين ذلك بعينه".

=

قال الطبري: يقول: "فاتعظوا يا معشر ذوي الأفهام بما أحلّ الله بهؤلاء اليهود الذين قذف الله في قلوبهم الرعب، وهم في حصونهم من نقمته، واعلموا أن الله وليّ من والاه، وناصر رسوله على كلّ من ناوأه، ومحلّ من نقمته به نظيرَ الذي أحلّ ببني النضير. وإنما عنى بالأبصار في هذا الموضع أبصار القلوب، وذلك أن الاعتبار بها يكون دون الإبصار بالعيون".

قال السمعاني: "الاعتبار: هو النظر في الشيء ليعرف به جنسه ومثله. وقيل معناه: فانظروا وتدبروا يا ذوي العقول والفهوم، كيف سلط الله المؤمنين عليهم، وسلطهم على أنفسهم؟ وقد استدل بهذه الآية على جواز القياس في الأحكام، لأن القياس نوع اعتبار؛ إذ هو تعبير شيء بمثله بمعنى جامع بينهما ليتفقا في حكم الشرع".

ثم بين-سبحانه-جانبا من حكمته في إخراجهم فقال: (وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ، لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا، وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ).

ولفظ «لولا» هنا حرف امتناع لوجود أي: امتنع وجود جوابها لوجود شرطها.. و «أن» مصدرية، وهي مع ما في حيزها في محل رفع على الابتداء. لأن لولا الامتناعية لا يليها إلا المبتدأ، والخبر محذوف.

والجلاء: الإخراج. يقال: جلا فلان عن مكان كذا، إذا خرج منه. وأجلاه عنه غيره، إذا أخرجه عنه:

قال القرطبي: والجلاء مفارقة الوطن، يقال جلا بنفسه جلاء، وأجلاه غيره إجلاء، والفرق بين الجلاء والإخراج-وإن كان معناهما في الإبعاد واحدا-من وجهين:

أحدهما: أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد.

الثاني: أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة، والإخراج يكون لواحد ولجماعة ... ا.هـ.

أي: ولولا أن الله تعاليقد قدر على هؤلاء اليهود، الجلاء عن ديارهم، لولا أن ذلك موجود، لعذبهم في الدنيا عذابا شديدا، استأصل معه شأفتهم.

ولكن الله تعاليكتب عليهم الجلاء دون القتل والإهلاك لمصلحة اقتضتها حكمته، لعل من مظاهرها أن يغنم المسلمون ديارهم وأموالهم، دون أن تراق دماء من الفريقين، ودون أن يعرض المؤمنون أنفسهم لمخاطر القتال.

وجملة «ولهم في الآخرة عذاب النار» مستأنفة. أى: أن هؤلاء اليهود إن نجوا من القتل والإهلاك في الدنيا، فلن ينجوا في الآخرة من العذاب الذي يذلهم ويهينهم، بل سيحل بهم عذاب مقيم، لا فكاك لهم منه.

قوله تعالى: {وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا} [الحشر: ٣].

عن عائشة -رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا-؛ قالت: كانت غزوة بني النضير -وهم طائفة من اليهود-على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، وكان منزلهم ونخلهم بناحية المدينة؛ فحاصرهم رسول الله ﷺ ؛ حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة؛ يعني: السلاح؛ فأنزل الله فيهم: {سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١) هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا ياأولي الأبصار (٢) ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار (٣) ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب (٤)}؛ فقاتلهم النبي ﷺ حتى صالحهم على الجلاء، فأجلاهم إلى الشام، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء فيما خلا، وكان الله قد كتب عليهم ذلك، ولولا ذلك لعذبهم في الدنيا بالقتل والسبي. وأما قوله: {سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم

=

(١) هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا ياأولي الأبصار (٢) ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار (٣) ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب (٤)}؛ فكان جلاؤهم ذلك أول حشر في الدنيا إلى الشام.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولولا أن الله قضى وكتب على هؤلاء اليهود من بني النضير في أم الكتاب الجلاء من أرضهم وديارهم، لعذّبهم في الدنيا بالقتل والسَّبْي، ولكنه رفع العذاب عنهم في الدنيا بالقتل، وجعل عذابهم في الدنيا والجلاء. و «الجلاء»: هو الانتقال من موضع إلى موضع، وبلدة إلى أخرى".

قال الزمخشري:"يعنى: أنّ الله قد عزم على تطهير أرض المدينة منهم وإراحة المسلمين من جوارهم وتوريثهم أموالهم، فلولا أنه كتب عليهم الجلاء واقتضته حكمته ودعاه إلى اختياره أنه أشق عليهم من الموت لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيا بالقتل كما فعل بإخوانهم بنى قريظة".

وفي معنى: «الجلاء»، أقوال:

أحدها: أن «الجلاء»: الفناء. قاله عكرمة.

قال ابن كثير:"أي: لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء، وهو النفي من ديارهم وأموالهم، لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبي".

الثاني: أنه القتل. قاله عكرمة-أيضا-.

الثالث: يعني بـ «الجلاء»: خروج الناس من أرض إلى اخرى. وهذا قول ابن عباس، وقتادة.

قال قتادة: الجلاء: " خروج الناس من البلد إلى البلد".

=

=

قال ابن عباس:"الجلاء: إخراجهم من أرضهم إلى أرض أخرى".

قال أبو عبيدة:"جلوا من أرض إلى أرض جلاء وأجليتهم أنا".

قال الثعلبي: «الجلاء»: " الخروج عن الوطن".

قال ابن خالويه:"يقال: استعمل فلان على الجالة والجالية، وهو الذي يأخذ الجزية من أهل الذمة".

قال الواحدي:"معنى «الجلاء» -في اللغة-: الخروج من الوطن والتحول منه، يقال منه: جلا القوم عن منازلهم. وتقول: أجليناهم عن بلادهم فجلوا، كما قال الشاعر:

وأجلوا عن مساكن فارقوها... كما جلت الفراخ من العشاش

يقول: لولا أن الله قضى عليهم أنهم يخرجون عن أوطانهم بالمدينة إلى الشام وخيبر، قوله تعالى: {لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا} بالقتل والسبي، ولسلطكم عليهم كما فعل بقريظة، والمعنى: أنه رفع العذاب عنهم في الدنيا بالقتل وجعل عذابهم في الدنيا الجلاء".

قال الزهري:"كان النضير من سِبْطٍ لم يصبهم جلاء فيما مضى، وكان الله قد كتب عليهم الجلاء، ولولا ذلك لعذّبهم في الدنيا بالقتل والسبي".

والفرق بين «الجلاء والإخراج» -وإن كان معناهما في الإبعاد واحد -من وجهين:

أحدهما: أن «الجلاء»: ما كان مع الأهل والولد، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد.

الثاني: أن «الجلاء»: لا يكون إلا لجماعة، والإخراج يكون لجماعة ولواحد.

عن يزيد بن رُومان: " {وَلَوْلا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ}، وكان لهم من الله نقمة، {لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا}، أي: بالسيف".

قال ابن عباس:"كان رسول الله ﷺ قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ، فأعطوه

=

=

ما أراد منهم، فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم، وأن يخرجهم من أرضهم وأوطانهم، ويسيرهم إلى أذرعات الشام، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيرًا وسقاء".

قال السمعاني:"واستدل بعضهم بهذه الآية على أن الإخراج من الدار بمنزلة القتل؛ وعليه يدل قوله تعالى: {أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ} [النساء: ٦٦]".

قوله تعالى: {وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ} [الحشر: ٣]، أي:"ولهم في الآخرة عذاب النار".

قال الطبري:"مع ما حلّ بهم من خزي الدنيا بالجلاء عن أرضهم ودورهم".

قال الزمخشري:"{وَلَهُمْ} -سواء أجلوا أو قتلوا- {عَذابُ النَّارِ}، يعنى: إن نجوا من عذاب الدنيا لم ينجوا من عذاب الآخرة".

قال ابن كثير:"أي: حتم لازم لا بد لهم منه".

عن يزيد بن رُومان: " {وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ}، مع ذلك".

واسم الإشارة في قوله تعالى(ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ) يعود إلى ما نزل وسينزل بهم من عذاب.

وقوله تعالى: شَاقُّوا من المشاقة بمعنى المعاداة والمخاصمة، حتى لكأن كل واحد من المتخاصمين في شق ومكان يخالف شق صاحبه ومكانه.

أى: ذلك الذي حل بهم في الدنيا من عقاب، والذي سيحل بهم في الآخرة من عذاب، سببه أن هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب، عادوا الله تعاليوخالفوا دعوة رسوله ﷺ.

وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ بأن يخالف ما أمر به، أو نهى عنه. يعذبه الله تعاليويخذله، فإنه- سبحانه-شديد العقاب.

وجملة فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ قائمة مقام جواب الشرط، أى: ومن يخالف أمر الله

=

=
تعاليعذبه، فإنه-سبحانه-شديد العقاب، لمن أعرض عن طاعته وذكره.
قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللهَ وَرَسُولَهُ} [الحشر: ٤]، أي:"ذلك -الذي أصاب اليهود في الدنيا وما ينتظرهم في الآخرة-لأنهم خالفوا أمر الله وأمر رسوله أشدَّ المخالفة، وحاربوهما وسعَوا في معصيتهما".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هذا الذي فعل الله بهؤلاء اليهود ما فعل بهم من إخراجهم من ديارهم، وقذف الرعب في قلوبهم من المؤمنين، وجعل لهم في الآخرة عذاب النار بما فعلوا هم في الدنيا من مخالفتهم الله ورسوله في أمره ونهيه، وعصيانهم ربهم فيما أمرهم به من اتباع محمد ﷺ".

قال يحيى بن سلام:"يعني: عَادَوُا الله ورسوله. وكقول شعيب: {لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شقاقي} يقول: لا تحملنَّكم عدواتي".

قال القشيري:"ذلك بأنهم خالفوا أمر الله. و «المشاقّة»: أن يتحول المرء إلى شقّ آخر".

قال السمعاني:"أي: نازعوا الله ورسوله".

قال السعدي:"عادوهما وحاربوهما، وسعوا في معصيتهما".

قال ابن كثير:"أي: إنما فَعلَ الله بهم ذلك وسَلَّط عليهم رسوله وعباده المؤمنين؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله، وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين في البشارة بمحمد ﷺ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم".

قال الزجاج:"{شَاقُّوا} : جانبوا، صاروا في شق غير شق المؤمنين، ومثل شاقوا جانبوا وحازبوا وحاربوا، معنى «حازبوا»: صار هؤلاء حزبا وهؤلاء حزبا".

قال ابن عباس:"يريد: حاربوا الله وحاربوا رسوله".

قال قتادة: "الشقاق: الفراق".

قوله تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الحشر: ٤]، أي:"ومن
=

=

يخالف الله ورسوله فإن الله شديد العقاب له".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ومن يخالف الله في أمره ونهيه، فإن الله شديد العقاب".

قال السعدي:"عادوهما وحاربوهما، وسعوا في معصيتهما".

عن علي بن زيد، قال: "تلا مطرف هذه الآية: {شديد العقاب}، قال: لو يعلم الناس قدر عقوبة الله، ونقمة الله، وبأس الله، ونكال الله، لما رقأ لهم دمع، وما قرت أعينهم بشيء".

ثم ساق-سبحانه-ما يغرس الطمأنينة في قلوب المؤمنين، الذين اشتركوا في تخريب ديار بنى النضير، وفي قطع نخيلهم، فقال تعالى: (ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ).

و «ما» شرطية في موضع نصب، بقوله: قَطَعْتُمْ وقوله: مِنْ لِينَةٍ بيان لها..

وقوله: فَبِإِذْنِ اللهِ جزاء الشرط. واللام في قوله تعالى: وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ متعلقة بمحذوف.

قزله تعالى: (اللينة): ذهب أبو عبيد القاسم بن سلام إلى أن المراد باللينة في قوله تعالى: { ما قطعتم من لينة } نوع من أنواع النخل يسمى الدقل.

يقول الأخفش: (وهو ضرب من النخل).

وروي عن عكرمة، وقتادة، والزهري، ومالك أن المراد باللينة: جميع النخل سوى العجوة، وإلى هذا القول ذهب كثير من المفسرين، وبه قال أبو عبيدة معمر بن المثنى، ورجحه الطبري، وابن العربي، والقرطبي.

وروي عن مجاهد، وابن زيد أن النخل كله لينة، العجوة منه وغير العجوة.

وروي عن سفيان أن المراد باللينة كرام النخل.

قال ابن العربي: (والصحيح ما قاله الزهري ومالك لوجهين:

=

=

أحدهما: أنهما أعرف ببلدهما، وثمارها، وأشجارها.

الثاني: أن الاشتقاق يعضده، وأهل اللغة يصححونه).

وقال الآلوسى ما ملخصه: اللينة هي النخلة مطلقا.. وهي فعلة من اللّون، وياؤها مقلوبة عن واو لكسر ما قبلها-فأصل لينة: لونة ...

وقيل: اللينة: النخلة مطلقا.. وقيل: هي النخلة القصيرة، وقيل: الكريمة من النخل..

ويمكن أن يقال: أراد باللينة النخلة الكريمة ... ا.هـ.

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآية روايات منها: أن المسلمين عند ما أخذوا في تقطيع نخيل اليهود، قال اليهود للنبي ﷺ: يا محمد إنك تنهى عن الفساد، فما بالك تأمر بقطع النخيل؟ فأنزل الله هذه الآية.

وقيل: إن المسلمين بعد أن قطعوا بعض النخيل، ظنوا أنهم قد أخطئوا في ذلك، فقالوا:

لنسألن رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية.

وقيل: إن المسلمين نهى بعضهم بعضا عن قطع النخيل، وقالوا إنما هي مغانم المسلمين، فنزلت هذه الآية لتصديق من نهى عن القطع، وتحليل من قطع من الإثم.

والمعنى: لا تختلفوا-أيها المؤمنون-في شأن ما فعلتموه بنخيل بنى النضير، فإن الذي قطع شيئا من هذه النخيل لا إثم عليه، والذي لم يقطع لا إثم عليه-أيضا-لأن كلا الأمرين بإذن الله تعاليورضاه، وفي كليهما مصلحة لكم.

لأن من قطع يكون قد فعل ما يغيظ العدو ويذله، ويحمله على الاستسلام والخضوع لأمركم..

ومن ترك يكون قد فعل ما يعود بالخير عليكم، لأن تلك النخيل الباقية، منفعتها

=

=

ستئول إليكم ...

وقد شرع -سبحانه- لكم كلا الأمرين في هذا المقام وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ عن أمره، وهم يهود بنى النضير، ومن ناصرهم، وأيدهم، وسار على طريقتهم في الخيانة والغدر.

فالآية الكريمة المقصود بها: إدخال المسرة والبهجة في قلوب المؤمنين، حتى لا يتأثروا بما حدث منهم بالنسبة لنخيل بنى النضير، وحتى يتركوا الخلاف في شأن هذه المسألة، بعد أن صدر حكم الله تعاليفيها، وهو أن القطع والترك بإذنه ورضاه، لأن كلا الأمرين يغرس الحسرة في قلوب الأعداء..

وعبر -سبحانه- باللينة عن النخلة، لأن لفظ «لينة» أخف لفظا، وأدخل في كونها نخلة من كرام النخل.

وقال -سبحانه-: أَوْ تَرَكْتُمُوها قائِمَةً عَلى أُصُولِها لتصوير هيئتها وحسنها وأن فروعها قد بقيت قائمة على أصولها، التي هي جذورها وجذوعها.

قال الآلوسى: وقوله: وَلِيُخْزِيَ الْفاسِقِينَ متعلق بمقدر على أنه علة له، وذلك المقدر عطف على مقدر آخر. أى: ليعز المؤمنين، وليخزى الفاسقين أى: ليذلهم..

والمراد بالفاسقين: أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب. ووضع الظاهر موضع المضمر، إشعارا بعلة الحكم -أى أن فسقهم هو السبب في إخزائهم.. ا.هـ.

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : أن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير وقطع، وهي البويرة؛ فأنزل الله تعالى: {ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين} أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤٠٣١، ٤٨٨٤)، ومسلم (رقم ١٧٤٦/ ٩) وغيرهما.

وفي رواية لمسلم (١٧٤٦/ ٣٠) وهو عند البخاري (رقم ٣٠٢١ -مختصر): أن

=

=

رسول الله ﷺ قطع نخل بني النضير وحرق، ولها يقول حسان:

وهان على سراة بني لؤي... حريق بالبويرة مستطير

وفي ذلك نزلت: {ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين}.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قول الله ﷻ: {ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين (٥)}؛ قال: اللينة: النخلة، {وليخزي الفاسقين}؛ قال: استنزلوهم من حصونهم، قال: وأمروا بقطع النخل؛ فحك في صدورهم، فقال المسلمون: قد قطعنا بعضا وتركنا بعضا، فلنسألن رسول الله ﷺ: هل لنا فيما قطعنا من أجر؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر؟ فأنزل الله تعالى: {ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين}.

وعن عبد الله بن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي ﷺ: أن كفار قريش كتبوا إلى عبد الله بن أبي بن سلول ومن كان يعبد الأوثان من الأوس والخزرج -ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة، قبل وقعة بدر-يقولون: إنكم آويتم صاحبنا، وإنكم أكثر أهل المدينة عددا، وإنا نقسم بالله؛ لتقتلنه أو لتخرجنه، أو لنستعين عليكم العرب، ثم لنسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان؛ تراسلوا، فاجتمعوا، وأرسلوا، وأجمعوا لقتال النبي ﷺ وأصحابه، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ فلقيهم في جماعة، فقال: "لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت لتكيدكم بأكثر مما تريدون أن يكيدوا به أنفسكم، فأنتم هؤلاء تريدون أن تقتلوا أبناءكم وإخوانكم" فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ؛ تفرقوا، فبلغ ذلك كفار قريش، وكانت وقعة بدر، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل

=

الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شيء وهي الخلاخيل، فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ ؛ أجمعت بنو النضير [على] الغدر، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ : أخرج إلينا في ثلاثين رجلا من أصحابك، ولنخرج في ثلاثين حبرا؛ حتى نلتقي في مكان كذا، نصف بيننا وبينكم، فيسمعوا منك، فإن صدقوك، وآمنوا بك؛ آمنا كلنا، فخرج النبي ﷺ في ثلاثين من أصحابه، وخرج إليه ثلاثون حبرا من يهود، حتى إذا برزوا في براز من الأرض؛ قال بعض اليهود لبعض: كيف تخلصون إليه، ومعه ثلاثون رجلا من أصحابه، كلهم يحب أن يموت قبله؟ فأرسلوا إليه: كيف تفهم ونفهم، ونحن ستون رجلا؟ أخرج في ثلاثة من أصحابك، ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا فليسمعوا منك، فإن آمنوا بك؛ آمنا كلنا وصدقناك، فخرج النبي ﷺ في ثلاثة نفر من أصحابه، واشتملوا على الخناجر، وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ ، فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى بني أخيها، وهو رجل مسلم من الأنصار، فأخبرته خبر ما أرادت بنو النضير إلى بني أخيها، فأخبرته خبر ما أرادت بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ ؛ فأقبل أخوها سريعا، حتى أدرك النبي ﷺ فساره بخبرهم قبل أن يصل النبي ﷺ إليهم؛ فرجع النبي ﷺ ، فلما كان من الغد؛ غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب، فحاصرهم وقال لهم: "إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه"؛ فأبوا أن يعطوه عهدا؛ فقاتلهم يومهم ذلك هو والمسلمون، ثم غدا الغد على بني قريظة بالخيل والكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه؛ فعاهدوه، فانصرف عنهم، وغدا إلى بني النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحلقة، والحلقة: السلاح، فجاءت بنو النضير، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعهم وأبواب بيوتهم وخشبها، فكانوا يخربون بيوتهم، فيهدمونها فيحملون ما وافقهم من خشبها، وكان جلاؤهم ذلك أول حشر

=

الناس إلى الشام، وكان بنو النضر من سبط من أسباط بني إسرائيل لم يصبهم جلاء منذ كتب الله على بني إسرائيل الجلاء؛ فلذلك أجلاهم رسول الله ﷺ، فلولا ما كتب الله عليهم من الجلاء؛ لعذبهم في الدنيا كما عذبت بنو قريظة؛ فأنزل الله: {سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم (١)} حتى بلغ: {والله على كل شيء قدير}، وكانت نخل بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة، فأعطاه الله إياها وخصه بها، فقال: {ما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن} يقول: بغير قتال، قال: فأعطى النبي ﷺ أكثرها للمهاجرين وقسمها بينهم، وقسم منها لرجلين من الأنصار كانا ذوي حاجة لم يقسم لرجل من الأنصار غيرهما، وبقي منها صدقة رسول الله ﷺ في يد بني فاطمة).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ما قطعتم من ألوان النخل، أو تركتموها قائمة على أصولها، فبأمر الله قطعتم ما قطعتم، وتركتم ما تركتم، وليغيظ بذلك أعداءه، ولم يكن فسادًا".

قال السعدي:"لما لام بنو النضير رسول الله ﷺ والمسلمين في قطع النخيل والأشجار، وزعموا أن ذلك من الفساد، وتوصلوا بذلك إلى الطعن بالمسلمين، أخبر تعالى أن قطع النخيل إن قطعوه أو إبقاءهم إياه إن أبقوه، إنه بإذنه تعالى، وأمره {وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} حيث سلطكم على قطع نخلهم، وتحريقها، ليكون ذلك نكالا لهم، وخزيا في الدنيا، وذلا يعرف به عجزهم التام، الذي ما قدروا على استنقاذ نخلهم، الذي هو مادة قوتهم".

قال يزيد بن رومان:"أي: فبأمر الله قطعت، ولم يكن فسادًا، ولكن نقمة من الله، وليخزي الفاسقين".

وفي معنى: «اللينة»، أقوال:

=

=

أحدها: أن «اللينة»: ما دون العجوة من النخل. قاله ابن عباس، وعكرمة، وقتادة، والزهري، ويزيد بن رومان.

قال ابن عباس:"النخلة دون العجوة".

قال قتادة:"اللينة: ما خلا العجوة من النخل".

قال الزهري:"ألوان النخل كلها إلا العجوة".

قال يزيد بن رومان:"اللينة ما خالف العجوة من التمر".

قال أبو عبيدة:"أي: من نخلة، وهى ألوان النخل ما لم تكن العجوة أو البرنيّ".

قال الزجاج:"أي: ما قطعتم من نخلة، والنخل كله ما عدا البرني والعجوة يسميه أهل المدينة: الألوان، وأصل لينة: لونه، فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها فقيل لينة".

الثاني: النخلة من أي الأصناف كانت من غير استثناء، العجوة منه وغير العجوة. وهذا قول مجاهد، وعمرو بن ميمون، وعطية، وابن زيد، وابن حبان.

قال ابن زيد:"اللينة: النخلة؛ عجوة كانت أو غيرها، قال الله: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ}، قال: الذي قطعوا من نخل النضير حين غدرت النضير".

وقال مجاهد:"نهى بعض المهاجرين بعضا عن قطع النخل، وقالوا: إنما هي مغانم المسلمين، ونزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه، وتحليل من قطعه من الإثم، وإنما قطعه وتركه بإذنه".

الثالث: أن اللينة: لون من النخل. رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

الرابع: أنها كرام النخل، قاله سفيان.

قال سفيان:"من كرام نخلهم".

الخامس: أنها العجوة خاصة، قاله جعفر بن محمد، وذكر:"أن العتيق والعجوة كانا مع نوح في السفينة، والعتيق الفحل، وكانت العجوة أصل الإناث كلها ولذلك

=

=

شق على اليهود قطعها".

الرابع: أن اللينة: الفسيلة، لأنها ألين من النخلة، حكاه الماوردي، وأنشد قول الشاعر:

غرسوا لينها بمجرى معين... ثم حفوا النخيل بالآجام

الخامس: أنها ضرب من النخل ثمره أجود الثمر يرى نواه من ظاهره، النخلة منها أحب إليهم من وصيف. قاله المقاتلان.

السادس: أن اللينة جميع الأشجار للينها بالحياة، حكاه الماوردي-أيضا-، وأنشد قول ذي الرمة:

طِرَاقُ الخَوَافِي وَاقِعٌ فَوْقَ لِيَنةٍ... نَدَى لَيْلِهِ فِي رِيشِهِ يَترَقْرَقُ

قال الأخفش: سميت لينة اشتقاقًا من اللون لا من اللين.

قال الطبري:"الصواب من القول في ذلك قول من قال: اللينة: النخلة، وهن من ألوان النخل ما لم تكن عجوة، وإياها عنى ذو الرُّمَّة بقوله:

طِرَاقُ الخَوَافِي وَاقِعٌ فَوْقَ لِيَنةٍ... نَدَى لَيْلِهِ فِي رِيشِهِ يَترَقْرَقُ".

قال السعدي:"اللينة: اسم يشمل سائر النخيل على أصح الاحتمالات وأولاها".

قال الشَّافِعِي رَحِمَهُ اللَّهُ: ولا بأس بقطع الشجر المثمر -وغير المثمر -. وتخريب العامر، وتحريفه من بلاد العدو، وكذلك لا بأس بتحريق ما قدر لهم عليه من مال وطعام لا روح فيه؛ لأن رسول الله ﷺ حرق نخل بني النضير، وأهل خيبر، وأهل الطائف، وقطع، فأنزل الله -عَزَّ وَجَلَّ -في بني النضير: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا}، فأما ماله روح: فإنه يألم مما أصابه فقتله محرم، إلا بأن يذبح فيؤكل، ولا يحل قتله لمغايظة العدو؛ لأن رسول الله ﷺ قال: «من قتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها سأله الله عنها». قيل: وما حقها يا رسول الله؟ قال: "يدعها فيأكلها ولا يقطع رأسها فيرمي به». الحديث".

=

=

وفي قراءة عبد الله: «ما قطعتم من لينة ولا تركتم قوما على أصوله إلا بإذن الله».

قوله تعالى: {وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ} [الحشر: ٥]، أي:"وليُذلَّ بذلك الخارجين عن طاعته المخالفين أمره ونهيه، حيث سلَّطكم على قطع نخيلهم وتحريقها".

قال الطبري:"وليذلّ الخارجين عن طاعة الله ﷻ، المخالفين أمره ونهيه، وهم يهود بني النضير".

قال الزجاج:"بأن يريهم أموالهم يتحكم فيها المسلمون كيف أحبوا".

قال ابن عباس:"يخبرهم أنّها نِقمة منه.

قال ابن شهاب:"لتغيظوهم.

عن محمد بن شهاب الزُّهريّ، قال: "بلغني: أنّ رسول الله ﷺ أحْرَق بعضَ أموال بني النَّضِير، فقال قائل:

فهان على سَراةِ بني لؤي... حريقٌ بالبُوَيْرة مستطير".

قال مقاتل بن حيان:"يعني يهود أهل النضير وكان قطْع النّخل وعقْر الشجر خِزيًا لهم".

(فائدة): ومن الأحكام التي أخذها العلماء من هذه الآية: أن تخريب ديار العدو، وقطع الأشجار التي يملكها، وهدم حصونه ومعسكراته.. جائز مادام في ذلك مصلحة تعود على المسلمين، وما دامت هناك حرب بينهم وبين أعدائهم.

وقد اختلف العلماء في جواز إتلاف حرث العدو المحارب ودورهم، على قولين:

ذهب جماعة: إلى جواز ذلك إن كان فيه مصلحة للمسلمين؛ كأن يعلموا أن هذا المال لن يؤول إلى المسلمين ولن ينتفعوا منه؛ وبهذا قال أبو حنيفة ومالك والشافعي؛ أخذا من ظاهر فعل النبي ﷺ في بني النضير، ولم ينهه الله ولم يعاتبه على ذلك.

وقد أجاز أحمد الحرق إذا كان بلا عبث؛ وإنما لمصلحة؛ كالمواضع التي لا بد

=

وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦).

{وَمَا أَفَاءَ} رَدَّ {الله عَلَى رَسُوله مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ} أَسْرَعْتُمْ يَا مُسْلِمُونَ {عَلَيْهِ مِنْ} زَائِدَة {خَيْل وَلَا رِكَاب} إبِل أَيْ لَمْ تُقَاسُوا فِيهِ مَشَقَّة {وَلَكِنَّ الله يُسَلِّط رُسُله عَلَى مَنْ يَشَاء وَاَللَّه عَلَى كُلّ شَيْء قَدِير} فَلَا حَقّ لَكُمْ فِيهِ وَيَخْتَصّ بِهِ النَّبِيّ ﷺ وَمَنْ ذُكِرَ مَعَهُ فِي الْآيَة الثَّانِيَة مِنْ الْأَصْنَاف الْأَرْبَعَة عَلَى مَا كَانَ يَقْسِمهُ مِنْ أَنَّ لِكُلٍّ مِنْهُمْ خُمُس الْخُمُس وَلَهُ ﷺ الْبَاقِي يَفْعَل فِيهِ مَا يَشَاء فَأَعْطَى مِنْهُ الْمُهَاجِرِينَ وَثَلَاثَة مِنْ الْأَنْصَار لِفَقْرِهِمْ.

مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى

=

منها، وبنحوه قال إسحاق؛ فقد جوزه نكاية، بل جعله سنة بذلك القيد.

وذهب الأوزاعي في قول وغيره: إلى المنع من ذلك، وجعل فعل الناس في بني النضير منسوخا، وأنه قضية عين نهي عنها بعد ذلك، واستدل بما روى مالك، عن يحيى بن سعيد؛ أن أبا بكر الصديق بعث جيوشا إلى الشام، فخرج يمشي مع يزيد بن أبي سفيان، وكان أمير ربع من تلك الأرباع، فقال: "إني موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة، ولا صبيا، ولا كبيرا هرما، ولا تقطعن شجرا مثمرا، ولا تخربن عامرا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة، ولا تحرقن نخلا، ولا تغرقنه، ولا تغلل، ولا تجبن"، وهو مرسل، وقد جاء من وجه آخر؛ فرواه عثمان بن عطاء، عن أبيه، عن أبي بكر؛ وهو مرسل أيضا.

وهذا لا يتعارض مع قول من أجاز؛ لأن من قال بجواز ذلك، لم ينف منعه عند تحقق كونه إفسادا، أو لم يكن العدو منتفعا من الزرع، ولا أثر عليه بحرقه، فإن كانت الحال كذلك، فيقال فيه كما قاله أبو بكر.

وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧).

{مَا أَفَاءَ الله عَلَى رَسُوله مِنْ أَهْل الْقُرَى} كَالصَّفْرَاءِ وَوَادِي الْقُرَى وَيَنْبُع {فَلِلَّهِ} يَأْمُر فيه بما يشاء {وللرسول وَلِذِي} صَاحِب {الْقُرْبَى} قَرَابَة النَّبِيّ مِنْ بَنِي هَاشِم وَبَنِي الْمُطَّلِب {وَالْيَتَامَى} أَطْفَال الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ هَلَكَتْ آبَاؤُهُمْ وَهُمْ فُقَرَاء {وَالْمَسَاكِين} ذَوِي الْحَاجَة مِنْ المسلمين {وبن السَّبِيل} الْمُنْقَطِع فِي سَفَره مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَيْ يَسْتَحِقّهُ النَّبِيّ ﷺ وَالْأَصْنَاف الْأَرْبَعَة عَلَى مَا كَانَ يَقْسِمهُ مِنْ أَنَّ لِكُلٍّ مِنْ الْأَرْبَعَة خُمُس الْخُمُس وَلَهُ الْبَاقِي {كَيْ لَا} كَيْ بِمَعْنَى اللَّام وَأَنْ مُقَدَّرَة بَعْدهَا {يَكُون} الْفَيْء عِلَّة لِقَسْمِهِ كَذَلِكَ {دُولَة} متداولا {بين الأغنياء منكم وما آتاكم} أعطاكم {الرسول} من الفيء وغيره {فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب}.

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨).

{لِلْفُقَرَاءِ} مُتَعَلِّق بِمَحْذُوفٍ أَيْ اعْجَبُوا {الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارهمْ وَأَمْوَالهمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ الله وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ الله وَرَسُوله أُولَئِكَ هُمْ الصادقون} في إيمانهم.

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩).

{والذين تبوؤوا الدَّار} أَيْ الْمَدِينَة {وَالْإِيمَان} أَيْ أَلِفُوهُ وَهُمْ الْأَنْصَار {مِنْ قَبْلهمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورهمْ حَاجَة} حَسَدًا {مِمَّا

أُوتُوا} أَيْ آتَى النَّبِيّ ﷺ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَمْوَال بَنِي النَّضِير الْمُخْتَصَّة بِهِمْ {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسهمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَة} حَاجَة إلَى مَا يُؤْثِرُونَ بِهِ {وَمَنْ يوق شح نفسه} حرصها على المال {فأولئك هم المفلحون.

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠).

{والذين جاؤوا مِنْ بَعْدهمْ} مِنْ بَعْد الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَار إلَى يَوْم الْقِيَامَة {يَقُولُونَ رَبّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا} حقدا {للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم}[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: أتى رجل رسول الله ﷺ، فقال له: يا رسول الله! أصابني الجهد؛ فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا -وفي رواية: فأرسل إلى بعض نسائه؛ فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى الأخرى؛ فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا، والذي بعثك بالحق؛ ما عندنا إلا ماء-، فقال رسول الله ﷺ: "ألا رجل يضيفه الليلة، يرحمه الله؟ "؛ فقام رجل من الأنصار (يقال له: أبو طلحة) فقال: أنا يا رسول الله، فذهب (به) إلى أهله (وفي رواية: رحله)، فقال لامرأته: (هل عندك شيء؟)، ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئًا، فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء؛ فنوميهم، وتعالي فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت (وفي رواية: فعلّليهم بشيء، فإذا دخل ضيفنا؛ فأطفئي السراج وأريه أنا نأكل، فإذا أهوى ليأكل؛ فقومي إلى السراج حتى تطفئيه، قال: فقعدوا وأكل الضيف)، وفي رواية أخرى: (فقال: هيئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونوّمي صبيانك إذا أرادوا
=

=

عشاء؛ فهيئت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومّت صبيانها، ثم قامت كأنها تفتح سراجها؛ فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين)، ثم (وفي رواية: فلما أصبح) غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: "لقد عجب الله ﷻ، -أو ضحك- من فلان وفلانة"، (وفي رواية: ضحك الله الليل -أو عجب-من فعالكما)، (وفي رواية أخرى: قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة)؛ فأنزل الله ﷻ: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٣٧٩٨، ٤٨٨٩)، ومسلم في "صحيحه" (رقم ٢٠٥٤).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ قال: أهدي لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة، فقال: إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منا، قال: فبعث إليه، فلم يزل يبعث به واحداً إلى آخر؛ حتى تداولها سبعة أبيات، حتى رجعت إلى الأول؛ فنزلت: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

أخرجه الحاكم في "المستدرك" (٢/ ٤٨٣، ٤٨٤) -وعنه البيهقي في "شعب الإيمان" (٧/ ٩٢، ٩٣ رقم ٣٢٠٤) -، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٨١) من طريق عبيد الله بن الوليد الوصافي عن محارب بن دثار عن ابن عمر به.

وهذا إسناد ضعيف؛ فيه عبيد الله بن الوليد وهو ضعيف.

قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"؛ وتعقبه الذهبي بقوله: "قلت: عبيد الله ضعفوه".

وعن أبي المتوكل الناجي: أن رجلاً من المسلمين عبر ثلاثة أيام صائماً لا يجد ما يفطر عليه، ويصبح صائماً، حتى فطن له رجل من الأنصار يقال له: ثابت بن قيس

=

=

-رضي الله تعالى عنه-، فقال لأهله: إني أجيء الليلة بضيف، فإذا وضعتم طعامكم؛ فليقم بعضكم إلى السراج كأنه يصلحه؛ فليطفئه، ثم اضربوا بأيديكم إلى الطعام كأنكم تأكلون، فلا تأكلوا حتى يشبع ضيفنا، فلما أمسى؛ ذهب فوضعوا طعامهم، فقامت امرأته إلى السراج كأنها تصلحه؛ فأطفئته، ثم جعلوا يضربون بأيديهم في الطعام كأنهم يأكلون ولا يأكلون؛ حتى شبع ضيفهم، وإنما كان طعامهم ذلك خبزة وهي قوتهم، فلما أصبح ثابت بن قيس؛ غدا إلى رسول الله ﷺ، فقال: "يا ثابت! لقد عجيب الله ﷻ البارحة منكم ومن صنيعكم"، وأنزلت هذه الآية: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

أخرجه مسدد في "مسنده"؛ كما في "المطالب العالية المسندة" (٩/ ٥٦ رقم ٤١٤٥)، وابن بشكوال في "غوامض الأسماء المبهمة" (رقم ١٤٨)، وابن أبي الدنيا في "قرى الضيف" (٢١/ ١١)، والخطيب في "الأنباء المحكمة"(ص ٣٩٩)، وابن المنذر في "تفسيره"؛ كما في "فتح الباري" (٨/ ٦٣٢) من طريق إسماعيل بن مسلم العبدي عن أبي المتوكل به. وهو مرسل صحيح الإسناد.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}؛ قال: نزلت في رجل من الأنصار، أرسل النبي ﷺ معه ضيفاً من أضيافه، فأتى به منزله، فقالت له امرأته: ما هذا؟ قال: هذا ضيف لرسول الله ﷺ، قالت: والذي بعث محمداً بالحق؛ ما أمسى عندنا إلا قرص، فذلك القرص لي أو لك، أو للضيف، أو للخادم؟! قال: اثردي هذا القرص، وآدميه بسمن ثم قرّبيه، وأمري الخادم يطفئ السراج،، وجعلت تتلمظ هي وهو؛ حتى رأى الضيف أنهم يأكلون، وأصبح فصلى مع رسول الله ﷺ، فانصرف رسول الله ﷺ، فقال: "أين صاحب الضيف؟ " -ثلاث

=

=

مرات-والرجل ساكت، قال: أنا صاحب الضيف، قال: "حدثني جبريل: أن الله تعاليضحك حين قلت لخادمك أطفأ السراج"، ونزلت: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}.

أخرجه ابن أبي الدنيا في "قرى الضيف" (١٠/ ١٩، ٢٠) من طريق سعيد بن مسلم عن عبد الوارث عن أنس. وهذا حديث منكر؛ عبد الوارث مولى أنس؛ منكر الحديث؛ كما قال البخاري، والمحفوظ أنه من مسند أبي هريرة كما تقدم قريبًا -والله أعلم-.

وعن يزيد بن الأصم: أن الأنصار قالوا: يا رسول الله! اقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين الأرض نصفين، قال: "لا، ولكن يكفونكم المؤنة وتقاسمونهم الثمرة، والأرض أرضكم"، قالوا: رضينا؛ فأنزل الله تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٠٦) ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر.

* قوله تعالى: (وَما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ، فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ ...)

معطوف على قوله تعالى: ما قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ ... لبيان نعمة أخرى من النعم التي أنعم بها-سبحانه-على المؤمنين، في غزوة بنى النضير.

وأَفاءَ من الفيء بمعنى الرجوع، يقال: فاء عليه، إذا رجع، ومنه قوله تعاليفي شأن الإيلاء: فَإِنْ فاؤُ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ..

والمراد به هنا معناه الشرعي: وهو ما حصل عليه المؤمنون من أموال أعدائهم بدون قتال، كأن يكون هذا المال عن طريق الصلح، كما فعل بنو النضير، فقد

=

=

صالحوا المؤمنين على الخروج من المدينة، على أن يكون لكل ثلاثة منهم حمل بعير-سوى السلاح-وأن يتركوا بقية أموالهم للمسلمين.

والضمير في قوله مِنْهُمْ يعود إلى بنى النضير، الذي عبر-سبحانه-عنهم بقوله: هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ....

وقوله: فَما أَوْجَفْتُمْ ... من الإيجاف بمعنى الإسراع في السير يقال: وجف الفرس يجف وجفا ووجيفا، إذا أسرع في سيره. والجملة خبر «ما» الموصولة في قوله: وَما أَفاءَ ... وما في قوله فَما أَوْجَفْتُمْ نافية.

والركاب: اسم جمع للإبل التي تركب، وفي الكلام حذف أغنى عنه قوله-سبحانه-:

فَما أَوْجَفْتُمْ....

والمعنى: اعلموا-أيها المؤمنون-أن ما أعطاه الله تعاليلرسوله ﷺ من أموال بنى النضير التي صالحوه عليها، فلا حق لكم فيها لأنكم لم تنالوها بقتالكم لهم على الخيل أو الإبل، وإنما تفضل بها-سبحانه-على نبيه ﷺ بلا قتال يذكر، فقد كانت ديار بنى النضير على بعد ميلين من المدينة، فذهب إليها المسلمون راجلين، وحاصروها حتى تم استسلام بنى النضير لهم..

قال الآلوسى: روى أن بنى النضير لما أجلوا عن أوطانهم، وتركوا رباعهم وأموالهم.

طلب المسلمون تخميسها كغنائم بدر، فأنزل الله تعالى: وَما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكابٍ ... فكانت لرسول الله ﷺ خاصة.

فقد أخرج البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وغيرهم عن عمر بن الخطاب-رضى الله عنه-قال: كانت أموال بنى النضير، مما أفاء الله تعالى: على رسوله ﷺ مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، وكانت لرسول

=

=

الله ﷺ خاصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة في سبيل الله تعالى.

وقال الضحاك: كانت أموال بني النضير لرسول الله ﷺ خاصة، فآثر بها المهاجرين. وقسمها عليهم، ولم يعط الأنصار منها شيئا، إلا ثلاثة منهم أعطاهم لفقرهم.. ا.هـ.

وقوله-سبحانه-: وَلكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلى مَنْ يَشاءُ ... استدراك على النفي في قوله تعالى: فَما أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ....

أي: ليس لكم الحق-أيها المؤمنون-في أموال بنى النضير، لأنكم لم تظفروا بها عن طريق قتال منكم لهم، ولكن الله تعاليسلط رسوله ﷺ عليهم وعلى ما في أيديهم، كما كان يسلط رسله على من يشاء من أعدائهم، والله تعاليقدير على كل شيء ...

وما دام الأمر كذلك، فاتركوا رسولكم ﷺ يتصرف في أموال بنى النضير بالطريقة التي يريدها ويختارها بإلهام من الله-ﷻ.

قوله تعالى: {وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ} [الحشر: ٦]، أي:"وما أعاد الله وردَّه غنيمة على رسوله من أموال يهود بني النضير".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والذي ردّه الله على رسوله منهم، يعني من أموال بني النضير. وقيل: إنه عنى بذلك أموال قُرَيظة".

عن يزيد بن رومان: " {وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ}، يعني: بني النضير".

وقال الضحاك:"يعني: يوم قريظة".

قوله تعالى: {فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ} [الحشر: ٦]، أي:"فلم تركبوا لتحصيله خيلا ولا إبلا".

قال الطبري: "يقول: فما أوضعتم فيه من خيل ولا في إبل وهي الركاب. وإنما

=

=

وصف جلّ ثناؤه الذي أفاءه على رسوله منهم بأنه لم يوجف عليه بخيل من أجل أن المسلمين لم يلقوا في ذلك حربًا، ولا كلفوا فيه مئونة، وإنما كان القوم معهم، وفي بلدهم، فلم يكن فيه إيجاف خيل ولا ركاب".

قال ابن كثير:"الفيء: كلّ مال أخذ من الكفار بغير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب، كأموال بني النضير هذه، فإنها مما لم يُوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، أي: لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة، بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ، فأفاءه الله على رسوله؛ ولهذا تصرف فيه كما شاء، فردّه على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله، ﷻ ، في هذه الآيات".

قال مقاتل:"يقول لم تركبوا فرسا، ولا بعيرا، ولكن مشيتم مشيا حتى فتحتموها، غَيْر أن النَّبِيّ -ﷺ-ركب حمارا له".

قال الزجاج:"يعني: ما أفاء الله على رسوله من بني النضير مما لم يوجفوا عليه خيلا ولا ركابا -والركاب الإبل والوجيف دون التقريب من السير، يقال: وجف الفرس وأوجفته، والمعنى أنه لا شيء لكم فيه إنما هو

لرسول الله ﷺ خالصا يعمل فيه ما أحب، وكذلك كل ما فتح على الأئمة مما لم يوجف المسلمون عليه خيلا ولا ركابا".

فل مجاهد:"يذكر ربهم أنه نصرهم، وكفاهم بغير كراع، ولا عدة في قريظة وخيبر، ما أفاء الله على رسوله من قريظة، جعلها لمهاجرة قريش".

قال قتادة:"يقول: ما قطعتم إليها واديا، ولا سرتم إليها سيرا، وإنما كان حوائط لبني النضير طعمة أطعمها الله رسوله، ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان يقول: "أيما قرية أعطت الله ورسوله، فهي لله ولرسوله، وأيما قرية فتحها المسلمون عنوة فإن لله خمسه ولرسوله وما بقي غنيمة لمن قاتل عليها".

=

=

قال الزهري:"صالح النبي ﷺ أهل فدك وقرى قد سماها لا أحفظها، وهو محاصر قوما آخرين، فأرسلوا إليه بالصلح، قال: {فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ}، يقول: بغير قتال. قال الزهري: فكانت بنو النضير للنبي ﷺ خالصةً لم يفتحوها عنوة، بل على صلح، فقسمها النبي ﷺ بين المهاجرين لم يعط الأنصار منها شيئا، إلا رجلين كانت بهما حاجة".

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ} [الحشر: ٦]، أي:"ولكن الله يسلِّط رسله على مَن يشاء مِن أعدائه، فيستسلمون لهم بلا قتال".

قال الطبري:"يخبر بذلك جلّ ثناؤه أن ما أفاء الله عليه من أموال لم يُوجف المسلمون بالخيل والركاب، من الأعداء مما صالحوه عليه له خاصة يعمل فيه بما يرى. يقول: فمحمد ﷺ إنما صار إليه أموال بني النضير بالصلح لا عنوة، فتقع فيها القسمة".

قوله تعالى: {وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الحشر: ٦]، أي:"والله على كل شيء قدير لا يعجزه شيء".

قال الطبري:"يقول: والله على كلّ شيء أراده ذو قدرة لا يُعجزه شيء، وبقُدرته على ما يشاء سلَّط نبيه محمدًا ﷺ على ما سلط عليه من أموال بني النضير، فحازه عليهم".

قال ابن كثير:"أي: هو قدير لا يغالب ولا يمانع، بل هو القاهر لكل شيء".

وقوله تعالى: ما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى، فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى ... يرى كثير من العلماء أنه وارد على سبيل الاستئناف الابتدائى، وأنه سيق لبيان حكم شرعي جديد، يختلف عن الحكم الذي أوردته الآية السابقة على هذه الآية..

إذ أن الآية السابقة، واردة في حكم أموال بنى النضير بصفة خاصة، وهذه في حكم

=

=

الفيء بعد ذلك بصفة عامة.

وعليه يكون المعنى: لقد بينت لكم -أيها المؤمنون- حكم أموال بنى النضير، وهي أنها لرسولنا ﷺ يضعها حيث يشاء.

أما ما أفاءه الله تعاليعلى رسوله ﷺ من أموال أهل القرى الأخرى، كقريظة وفدك وغيرهما فحكم هذا الفيء أنه يقسم إلى خمسة أقسام:

قسم للرسول ﷺ ينفق منه على نفسه وأهله وما تبقى منه يكون في مصالح المسلمين.

وقسم لأقاربه ﷺ وهم: بنو هاشم وبنو المطلب..

وقسم لليتامى: وهم أطفال المسلمين الذين مات آباؤهم عنهم قبل أن يبلغوا.

وقسم للمساكين: وهم الذين ليس لهم مال يكفيهم ضروريات الحياة.

وقسم لأبناء السبيل: وهم المسافرون المنقطعون عن مالهم في سفرهم، ولو كانوا أغنياء في بلدهم..

وقد رجح الإمام ابن جرير هذا الرأى، فقال بعد استعراضه للأقوال: والصواب من القول في ذلك عندي أن هذه الآية حكمها غير حكم الآية التي قبلها وذلك أن الآية التي قبلها، مال جعله الله -عز وجل- لرسوله ﷺ خاصة دون غيره. لم يجعل فيه لأحد نصيبا..

فإذا كانت هذه الآية التي قبلها مضت، وذكر المال الذي خص الله به رسوله ﷺ ولم يجعل لأحد منه شيئا، وكانت هذه الآية خبرا عن المال الذي جعله الله لأصناف شتى، كان معلوما بذلك أن المال الذي جعله لأصناف من خلقه. غير المال الذي جعله للنبي ﷺ ا.هـ.

وقال الآلوسى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه: قوله تعالى: مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ... بيان لحكم ما أفاءه الله على رسوله من قرى الكفار على

=

=

العموم، بعد بيان حكم ما أفاءه من بنى النضير ...

فالجملة جواب سؤال مقدر ناشئ مما فهم من الكلام السابق، فكأن قائلا يقول: قد علمنا حكم ما أفاءه الله تعاليمن بنى النضير، فما حكم ما أفاء الله-عَزَّ وَجَلَّ من غيرهم؟ ...

فقيل: ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى. ولذا لم يعطف على ما تقدم، ولم يذكر في الآية قيد الإيجاف ولا عدمه....

وسهمه-سبحانه-وسهم رسوله واحد، وذكره تعالى: افتتاح كلام للتيمن والتبرك. فإن لله ما في السموات وما في الأرض، وفيه تعظيم لشأن الرسول ﷺ.

وأهل القرى المذكورون في الآية هم: أهل الصفراء، وينبع، ووادي القرى، وما هنالك من قرى العرب، التي تسمى قرى عرينة، وحكمها مخالف لحكم أموال بنى النضير ا.هـ.

ومن العلماء من يرى أن الآية التي معنا، بمنزلة البيان والتفسير للآية التي قبلها، لأن الآية الأولى لم تبين المستحقين للفيء الذي أفاءه الله تعاليعلى رسوله من أموال بنى النضير، فجاءت الآية الثانية وبينت المستحقين له.

وعلى رأس المفسرين الذين قالوا بهذا الرأى صاحب الكشاف، فقد قال عند تفسيره لهذه الآية:

لم يدخل-سبحانه-العاطف على هذه الجملة-وهي قوله: ما أَفاءَ ... -لأنها بيان للأولى، فهي منها غير أجنبية عنها. بين لرسوله ﷺ ما يصنع بما أفاءه الله عليه، وأمره أن يضعه حيث يضع الخمس من الغنائم، مقسوما على الأقسام الخمسة ا.هـ.

وقال ابن كثير: قوله تعالى: ما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى: أى جميع البلدان التي تفتح هكذا، فحكمها حكم أموال بنى النضير، ولهذا قال: فَلِلَّهِ

=

=

وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ. فهذه مصارف أموال الفيء ووجوهه.. ا.هـ.

ومن هذا نرى أن أصحاب الرأى الأول، يقولون: إن الآيتين في حكمين مختلفين، لأن الآية الأولى في بيان حكم أموال بنى النضير، وأن الله تعاليقد جعلها للرسول ﷺ يضعها حيث يشاء، وأما الآية الثانية فهي في حكم أموال القرى الأخرى التي أفاءها الله تعاليعلى رسوله ﷺ، وأن الله تعاليقد حدد له وجوه صرفها، فقال: فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى....

وأما أصحاب الرأى الثاني فيرون أن الآية الثانية مفصلة لما أجملته الآية الأولى، وأن كل فيء يقسم بالطريقة التي بينتها الآية الثانية.

والثابت في السنة الصحيحة: أن أموال بنى النضير، لم يخمسها ﷺ بل كانت له خاصة، يوزعها كما يشاء، وقد آثر بها المهاجرين، وقسمها عليهم: ولم يعط الأنصار منها شيئا سوى ثلاثة رجال منهم، كانت بهم حاجة فأعطاهم، وبذلك نرى أنه ﷺ لم يتقيد في التوزيع لهذه الأموال، بمن ورد ذكرهم في الآية الثانية.

وما دام الأمر كذلك، فلا حاجة إلى القول بأن الآية الثانية، بيان وتفصيل للآية الأولى.

قوله تعالى: {مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} [الحشر: ٧]، أي:"ما أفاءه الله على رسوله من أموال مشركي أهل القرى من غير ركوب خيل ولا إبل".

قال الطبري: يعني:"الذي ردّ الله ﷻ على رسوله من أموال مشركي القرى".

قال ابن كثير:"أي: جميع البلدان التي تُفتَح هكذا، فحكمها حكم أموال بني النضير".

قال مقاتل:"يعني: قريظة والنضير، وخيبر، وفدك، وقريتي عرينة".

اختلف العلماء في المراد بهذا «الفيء»، على أقوال:

=

=

أحدها: عني بذلك الجزية والخراج. وهذا قول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وابن شهاب الزُّهريّ، ومعمر.

قال معمر:"بلغني أنها الجزية، والخراج: خَراج أهل القرى".

روي عن مالك بن أوس بن الحدثان، قال: "قرأ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ}، حتى بلغ: {عَلِيمٌ حَكِيمٌ}، ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قال: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى}... الآية، ثم قال: هذه الآية لهؤلاء، ثم قرأ: {مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى}، حتى بلغ: {لِلْفُقَرَاءِ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ}، ثم قال: استوعبت هذه الآية المسلمين عامة، فليس أحد إلا له حق، ثم قال: لئن عشت ليأتين الراعي وهو يسير حُمُرَه نصيبهُ، لم يعرق فيها جبينه".

الثاني: عنى بذلك الغنيمة التي يصيبها المسلمون من عدوّهم من أهل الحرب بالقتال عنوة. وهذا قول يزيد بن الرومان.

عن يزيد بن رومان: " {مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ}، ما يوجف عليه المسلمون بالخيل والركاب، وفتح بالحرب عنوة، {فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ}، قال: هذا قسم آخر فيما أصيب بالحرب بين المسلمين على ما وضعه الله عليه".

الثالث: أنه الغنيمة التي يأخذها المسلمون من أموال الكفار عنوة، وكانت في بدء الإسلام للذين سماهم الله ها هنا دون الغالبين الموجفين عليها، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى في الأنفال: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ} [الأنفال: ٤١]، الآية. وهذا قول قتادة.

قال قتادة:"فنسخت هذه ما كان قبلها في سورة الأنفال، وجعل الخمس لمن كان

=

=

له الفيء في سورة الحشر، وكانت الغنيمة تقسم خمسة أخماس، فأربعة أخماس لمن قاتل عليها، ويقسم الخمس الباقي على خمسة أخماس، فخمس لله وللرسول، وخمس لقرابة رسول الله ﷺ في حياته، وخمس لليتامى، وخمس للمساكين، وخمس لابن السبيل؛ فلما قضى رسول الله ﷺ وجه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما هذين السهمين: سهم رسول الله ﷺ، وسهم قرابته، فحملا عليه في سبيل الله صدقة عن رسول الله ﷺ".

الرابع: أنه ما صالح عليه أهل الحرب المسلمين من أموالهم، وقوله: {مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ} ... الآيات، بيان قسم المال الذي ذكره الله في الآية التي قبل هذه الآية، وذلك قوله: {مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ}. حكاه الطبري عن بعض المتفقهة من المتأخرين.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك عندي أن هذه الآية حكمها غير حكم الآية التي قبلها، وذلك أن الآية التي قبلها مال جعله الله عز وجل لرسوله ﷺ خاصة دون غيره، لم يجعل فيه لأحد نصيبًا، وبذلك جاء الأثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه".

عن مالك بن أوس بن الحدثان، قال: "أرسل إليّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فدخلت عليه، فقال: إنه قد حضر أهل أبيات من قومك وإنا قد أمرنا لهم برضخ، فاقسمه بينهم، فقلت: يا أمير المؤمنين مر بذلك غيري، قال: اقبضه أيها المرء فبينا أنا كذلك، إذ جاء يرفأ مولاه، فقال: عبد الرحمن بن عوف، والزبير، وعثمان، وسعد يستأذنون، فقال: ائذن لهم؛ ثم مكث ساعة، ثم جاء فقال: هذا عليّ والعباس يستأذنان، فقال: ائذن لهما؛ فلما دخل العباس قال: يا أمير المؤمنين اقض بيني وبين هذا الغادر الخائن الفاجر، وهما جاءا يختصمان فيما أفاء الله على رسوله من

=

=

أعمال بني النضير، فقال القوم: اقض بينهما يا أمير المؤمنين، وأرح كلّ واحد منهما من صاحبه، فقد طالت خصومتهما، فقال: أنشدكم الله الذي بإذنه تقوم السموات والأرض، أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: "لا نُورَثُ ما تَرَكْنَاهْ صَدَقَةٌ" قالوا: قد قال ذلك؛ ثم قال لهما: أتعلمان أن رسول الله ﷺ قال ذلك؟ قالا نعم؛ قال: فسأخبركم بهذا الفيء، إن الله خصّ نبيه ﷺ بشيء لم يعطه غيره، فقال: {مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ}، فكانت هذه لرسول الله ﷺ خاصة، فوالله ما احتازها دونكم، ولا استأثر بها دونكم، ولقد قسمها عليكم حتى بقي منها هذا المال، فكان رسول الله ﷺ ينفق على أهله منه سنتهم، ثم يجعل ما بقي في مال الله".

قوله تعالى: {فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ} [الحشر: ٧]، أي:"فحكمها أنها لله تعالى يضعها حيث يشاء، ولرسوله يصرفها على نفسه وعلى مصالح المسلمين".

قال الزجاج:"معنى {فَلِلَّهِ}، أي: له أن يأمركم فيه بما أحب".

قال ابن الجوزي: "واختلف العلماء فيما يصنع بسهم الرسول ﷺ بعد وفاته، فقال قوم: هو للخليفة بعده، وقال قوم: يصرف في المصالح، فعلى هذا تكون هذه الآية مبينة لحكم الفيء والتي في الأنفال مبينة لحكم الغنيمة فلا يتوجه نسخ".

عن علي بن الحسين، قال:"روى لنا الثقة أن عمر بن عبد العزيز، قال: دخلت آية الفيء في آية الغنائم، قال أحمد بن شبويه هذا أشبه من قول قتادة، وسورة الحشر نزلت بعد الأنفال بسنة فمحال أن ينسخ ما قبل ما بعد".

عن ليث بن أبي رقية، قال:"كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمراء الأجناد، أن سبيل الخمس سبيل الفيء".

قوله تعالى: {وَلِذِي الْقُرْبَى} [الحشر: ٧]، أي:"ولأقرباء الرسول من بني هاشم وعبد المطلب".

=

=

قال الطبري:"يعني: ذوي قرابات النبي ﷺ لأنهم قد منعوا الصدقة فجعل لهم حق في الفيء".

قال الزجاج:"معنى {فَلِلَّهِ}، أي: له أن يأمركم فيه بما أحب".

قوله تعالى: {وَالْيَتَامَى} [الحشر: ٧]، أي:"ولليتامى الذين مات آباؤهم".

قال الطبري:"وهم أهل الحاجة من أطفال المسلمين الذين لا مال لهم".

قوله تعالى: {وَالْمَسَاكِينِ} [الحشر: ٧]، أي:"وللمساكين ذوي الحاجة والفقر".

قال الطبري:"وهم الجامعون فاقة وذلّ المسألة".

قوله تعالى: {وَابْنِ السَّبِيلِ} [الحشر: ٧]، أي:"وللغريب المنقطع في سفره".

قال الطبري:"وهم المنقطع بهم من المسافرين في غير معصية الله ﷻ ".

قوله تعالى: {كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ} [الحشر: ٧]، أي:"وذلك حتى لا يكون المال ملكًا متداولا بين الأغنياء وحدهم، ويحرم منه الفقراء والمساكين".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه. وجعلنا ما أفاء على رسوله من أهل القرى لهذه الأصناف، كيلا يكون ذلك الفيء دُولة يتداوله الأغنياء منكم بينهم، يصرفه هذا مرّة في حاجات نفسه، وهذا مرّة في أبواب البرّ وسُبلُ الخير، فيجعلون ذلك حيث شاءوا، ولكننا سننا فيه سنة لا تُغير ولا تُبدّل".

قال ابن كثير:"أي: جعلنا هذه المصارف لمال الفيء لئلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها، بمحض الشهوات والآراء، ولا يصرفون منه شيئًا إلى الفقراء".

قال الزمخشري:"كيلا يكون الفيء الذي حقه أن يعطى الفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها جدا بين الأغنياء يتكاثرون به. أو كيلا يكون دولة جاهلية بينهم. ومعنى الدولة الجاهلية: أن الرؤساء منهم كانوا يستأخرون بالغنيمة لأنهم أهل

=

=

الرياسة والدولة والغلبة، وكانوا يقولون من عزّ بزّ. والمعنى: كيلا يكون أخذه غلبة وأثرة جاهلية. ومنه قول الحسن: «اتخذوا عباد الله خولا، ومال الله دولا»، يريد: من غلب منهم أخذه واستأثر به. وقيل: «الدولة» ما يتداول، كالغرفة: اسم ما يغترف، يعني: كيلا يكون الفيء شيئا يتداوله الأغنياء بينهم ويتعاورونه، فلا يصيب الفقراء. والدولة-بالفتح-: بمعنى التداول، أي: كيلا يكون ذا تداول بينهم. أو كيلا يكون إمساكه تداولا بينهم لا يخرجونه إلى الفقراء".

عن سعيد بن المسيّب، قال: "قَسَم عمر ذات يوم قَسمًا مِن المال، فجعلوا يُثْنُون عليه، فقال: ما أحمقكم! لو كان لي ما أعطيتُكم منه درهمًا".

عن الحسن البصري، قال: "كتب عمر إلى حُذيفة: أنْ أعطِ الناس أعْطِيَتَهم وأرزاقهم. فكتب إليه: إنّا قد فعلنا، وبقي شيءٌ كثير. فكتب إليه عمر: إنّه فَيْئُهم الذي أفاء الله عليهم، ليس هو لِعمر، ولا لآل عمر، اقسِمه بينهم".

عن عبد الله بن أبي نَجِيح، قال: "المال ثلاثة: مَغنم، أو فيء، أو صدقة، فليس منه دِرهم إلا بيّن الله موضعه".

قوله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر: ٧]، أي:". وما أعطاكم الرسول من مال، أو شرعه لكم مِن شرع، فخذوه، وما نهاكم عن أَخْذه أو فِعْله فانتهوا عنه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وما أعطاكم رسول الله ﷺ مما أفاء عليه من أهل القرى فخذوه، {وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ} من الغلول وغيره من الأمور {فَانْتَهُوا}".

قال ابن كثير:"أي: مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر".

قال الحسن:"يؤتيهم الغنائم ويمنعهم الغلول".

عن أبي هُرَيرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: "إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم، وما

=

=

نهيتكم عنه فاجتنبوه".

عن ابن عُمَر وابن عباس: "أنهما شهدا على رسول الله ﷺ: أنه نهى عن الدُّباء والحَنْتَم والنَّقير والمزَفَّت، ثم تلا رسول الله ﷺ: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا}".

عن الهيثم بن عمران العبسيّ، قال: سمعت إسماعيل بن عبيد الله، يقول: "ينبغي لنا أن نحفظ ما جاءنا عن رسول الله ﷺ، فإنّ الله يقول: {وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا}، فهو عندنا بمنزلة القرآن".

قوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللهَ} [الحشر: ٧]، أي:"واتقوا الله بامتثال أوامره وترك نواهيه".

قال الطبري:"يقول: وخافوا الله، واحذروا عقابه في خلافكم على رسوله بالتقدّم على ما نهاكم عنه، ومعصيتكم إياه".

قال الزمخشري:"أن تخالفوه وتتهاونوا بأوامره ونواهيه".

قال ابن كثير:"أي: اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجره".

قال محمد بن إسحاق: {واتقوا الله}، أي: أطيعوا الله".

قوله تعالى:{إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الحشر: ٧]، أي:"إن الله شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره ونهيه".

قال الطبري:"لمن خالف رسوله، والأجود أن يكون عاما في كل ما أتى رسول الله ﷺ ونهى عنه، وأمر الفيء داخل في عمومه".

قال الزمخشري:"أن تخالفوه وتتهاونوا بأوامره ونواهيه".

قال ابن كثير: أي:"فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه، وارتكب ما عنه زجره ونهاه".

عن علي بن زيد، قال: "تلا مطرف هذه الآية: {شديد العقاب}، قال: لو يعلم

=

=

الناس قدر عقوبة الله، ونقمة الله، وبأس الله، ونكال الله، لما رقأ لهم دمع، وما قرت أعينهم بشيء".

* مسألة الفيء الذي يغنم بغير قتال قد اختلف في تقسيمه:

فمن العلماء: من جعله خالصا لرسول الله ﷺ يقسمه كما يشاء؛ لأن الله ذكر ذلك ولم يخمسه؛ كما في قوله: {ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل}.

ومن العلماء: من جعل الفيء يقسم كالغنيمة، وأن الآية ذكرت الخمس الخاص برسول الله ﷺ، وأما الأخماس الأربعة الباقية، فمسكوت عنها، وتلحق في حكمها حكم الغنيمة؛ لأن الله ذكر ذلك في الغنيمة؛ ذكر خمس النبي ﷺ، وسكت عن الباقي للعلم به؛ كما قال تعالى: {واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل} [الأنفال: ٤١]؛ ولهذا قال الشافعي؛ فجعل معنى آية الحشر كمعنى آية الأنفال، وذلك أن الفيء يخمس كالغنيمة، وأربعة أخماسها للنبي ﷺ يتصرف بها، وبعده تكون للمقاتلين، والخمس الباقي فيمن سمى الله.

وله قول آخر: أن ما كان لرسول الله ﷺ يكون بعد وفاته في بيت مال المسلمين ومصالحهم.

وقد عد بعض السلف آية الفيء هنا منسوخة بما في سورة الأنفال؛ وذلك أن الفيء يخمس كالغنيمة؛ وبهذا قال قتادة وغيره.

والأرجح: أن كلتا الآيتين محكمة، وأن المال الذي يكسب بلا قتال يختلف عن المال الذي يغنم بقتال، وفرق بين آية الغنيمة وآية الفيء؛ فآية الغنيمة بينت أن للنبي ﷺ الخمس بقوله تعالى: {فأن لله خمسه} [الأنفال: ٤١]، فبينت أن الباقي أربعة أخماس، وأما آية الفيء هنا، فلم تذكر أن للنبي ﷺ قدرا محدودا: {ما أفاء

=

=

الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول} الآية، ثم أكدت أن الفيء على الرسول لا على غيره، بخلاف آية الغنيمة، فنسبت الغنم للمسلمين؛ كما في قوله: {واعلموا أنما غنمتم من شيء} [الأنفال: ٤١]، فالغنيمة كسبوها فاستحقوها، وأما الفيء، فلم يكسبوه؛ وإنما هو فضل من الله خالص؛ ويدل على ذلك: ما رواه أحمد والشيخان، عن عمر رضي الله عنه؛ قال: "كانت أموال بني النضير مما أفاء الله على رسوله ﷺ مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة، وكان ينفق على أهله منها نفقة سنته -وقال مرة: قوت سنته- وما بقي جعله في الكراع والسلاح عدة في سبيل الله عز وجل". وبهذا قال مالك وأحمد وجماعة.

وقد حمل جماعة من المفسرين قوله تعالى في الفيء هنا: {وما أفاء الله على رسوله} على كل ما غنم بلا قتال؛ كالجزية وخراج أرض المشركين؛ كما نص على هذا معمر وغيره.

وقوله-سبحانه-: كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِياءِ مِنْكُمْ ... بيان لحكمة هذا التشريع الذي شرعه-سبحانه-بالنسبة للأموال التي أتت عن طريق الفيء..

والضمير المستتر في قوله: يَكُونَ للفيء.

و «الدّولة» بضم الدال المشددة اسم لما يتداوله الناس فيما بينهم من أموال، فيكون في يد هذا تارة، وفي يد ذاك تارة أخرى.

والدّولة-بفتح الدال المشددة-اسم للنوبة من الظفر والنصر في الحرب وغيرها.

يقال: لفلان على فلان دولة، أى: غلبة ونصر.

وبعضهم يرى أن الدولة-بالضم والفتح-بمعنى واحد، وهو ما يدور ويدول للإنسان من الغنى والنصر.

والمعنى: شرعنا لكم هذه الأحكام المتعلقة بتقسيم الفيء، كي لا يكون المال

=

=

الناجم عنه، متداولا بين أيدى أغنيائكم دون فقرائكم.

والمقصود بهذه الجملة الكريمة، إبطال ما كان شائعا في الجاهلية، من استئثار قواد الجيوش، ورؤساء القبائل، بالكثير من الغنائم دون غيرهم ممن اشترك معهم في الحروب، كما قال أحد الشعراء، لأحد الرؤساء أو القادة:

لك المرباع منها والصفايا ... وحكمك والنّشيطة والفضول

أى: لك-أيها القائد وحدك-من الغنيمة ربعها، والصفايا أى: والنفيس منها، ولك-أيضا ما تحكم به على العدو، ولك النشيطة، وهي ما يصيبه الجيش من العدو قبل الحرب، ولك-كذلك-الفضول، أى: ما يبقى بعد قسمة الغنائم.

وقد أبطل الإسلام كل ذلك، حيث جعل مصارف الفيء، تعود إلى المسلمين جميعا، بطريقة عادلة، بينها-سبحانه-في هذه الآية وفي غيرها..

قال بعض العلماء: والجدير بالذكر هنا: أن دعاة المذاهب الاقتصادية الفاسدة، يحتجون بهذه الآية على مذهبهم الفاسد، ويقولون: ويجوز للدولة أن تستولى على مصادر الإنتاج ورءوس الأموال، لتعطيها أو تشرك فيها الفقراء، وما يسمونهم طبقة العمال، وهذا على ما فيه من كساد اقتصادى، وفساد اجتماعي، قد ثبت خطؤه وظهر بطلانه مجانبا لحقيقة الاستدلال.

لأن هذا المال ترك لمرافق المسلمين العامة، من الإنفاق على المجاهدين، وتأمين الغزاة في الحدود والثغور، وليس يعطى للأفراد كما يقولون، ثم-هو أساسا-مال جاء غنيمة للمسلمين، وليس نتيجة كدح الفرد وكسبه الحلال.

ولما كان مال الغنيمة ليس ملكا لشخص، ولا هو-أيضا-كسب لشخص معين، تحقق فيه العموم في مصدره، وهو الغنيمة، والعموم في مصرفه وهو عموم مصالح الأمة، ولا دخل ولا وجود للفرد فيه، فشتان بين هذا الأصل في التشريع، وهذا الفرع في التضليل...

=

=

ثم أمر-سبحانه-المسلمين أن يمتثلوا أمر رسولهم ﷺ امتثالا تاما، فقال:
وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ.
وقوله: آتاكُمُ من الإتيان، والمقصود به هنا ما جاءهم به الرسول ﷺ من هدايات وتشريعات، وآداب. ويدخل في ذلك دخولا أوليا قسمته لفيء بنى النضير بين المهاجرين، دون الأنصار.
أى: ما أمركم الرسول ﷺ بفعله-أيها المؤمنون-فافعلوه، وما نهاكم عن فعله فاجتنبوه، واتقوا الله في كل أحوالكم، فإنه-سبحانه-شديد العقاب لمن خالف أمره.
ومنهم من جعل آتاكُمُ هنا بمعنى أعطاكم من الفيء، وجعل نَهاكُمْ بمعنى نهاكم عن الأخذ منه، وكأن صاحب هذا الرأى يستعين على ما ذهب إليه بفحوى المقام.
قال صاحب الكشاف: قوله: وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ من قسمة غنيمة أو فيء فخذوه وما نهاكم عنه، أى: عن أخذه منه فَانْتَهُوا عنه.
والأجود أن يكون-الأمر والنهى-عاما في كل ما آتى رسول الله ﷺ ونهى عنه، وأمر الفيء داخل في عمومه.. ا.هـ
وقال ابن كثير: وقوله تعالى: وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا.
أى: مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير، وينهى عن شر.
أخرج الشيخان عن ابن مسعود أنه قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، والمغيرات لخلق الله-عز وجل فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها أم يعقوب، وكانت تقرأ القرآن، فأتته فقالت: بلغني انك قلت كذا وكذا، فقال: ومالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله، فقالت: لقد قرأت ما بين لوحى المصحف فما وجدته. فقال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه،
=

=

أما قرأت: وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا؟ قالت: بلى، قال: فإن رسول الله ﷺ نهى عنه. قالت: إنى لأظن أهلك يفعلونه!!.. قال: اذهبي فانظرى، فذهبت فلم تر من حاجتها شيئا. فجاءت فقالت: ما رأيت شيئا. قال: لو كان كذا لم تجامعنا.. ا.هـ.

وقال بعض العلماء وفي الآية دليل على وجوب الأخذ بالسنن الصحيحة في كل الأمور.

وعن أبى رافع أن رسول الله ﷺ قال: «لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه أمر مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدرى!! ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه ... »

وهذا الحديث من أعلام النبوة، فقد وقع ذلك بعد من الجاهلين بكتاب الله، وبمنصب الرسالة، ومن الزنادقة الصادين عن سبيل الله...

ثم أثنى -سبحانه- على المهاجرين الذين فارقوا أموالهم وعشيرتهم، من أجل إعلاء كلمته تعاليفقال: (لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْواناً وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ، أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ).

قال الرازي: اعلم أن هذا بدل من قوله تعالى: وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ... كأنه قيل: أعنى بأولئك الأربعة، هؤلاء الفقراء المهاجرين الذين من صفتهم كذا وكذا.

ثم إنه تعاليوصفهم بأمور، أولها: أنهم فقراء، ثانيها: أنهم مهاجرون وثالثها: أنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم، يعنى أن الكفار أجبروهم على الخروج ... ورابعها: أنهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا، والمراد بالفضل ثواب الجنة، وبالرضوان: قوله:

وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ.

وخامسها: قوله: وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أى: بأنفسهم وأموالهم.

=

وسادسها: قوله: أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ يعنى أنهم لما هجروا لذّات الدنيا وتحملوا شدائدها لأجل الدين، ظهر صدقهم في دينهم.. ا.هـ.

فأنت ترى أن الله تعاليقد وصف المهاجرين في سبيله، بجملة من المناقب الحميدة.

التي استحقوا بسببها الفلاح والفوز برضوان الله.

قوله تعالى: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ} [الحشر: ٨]،.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: كيلا يكون ما أفاء الله على رسوله دُولة بين الأغنياء منكم، ولكن يكون للفقراء المهاجرين. وقيل: عُني بالمهاجرين: مهاجرة قريش".

قال السمعاني:"فديارهم مكة وغيرها، وأموالهم ما خلفوها عند هجرتهم".

عن مجاهد: " {مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ}، من قريظة جعلها لمهاجرة قريش".

قال قتادة:"هؤلاء المهاجرون تركوا الديار والأموال والأهلين والعشائر، خرجوا حبًا لله ولرسوله، واختاروا الإسلام على ما فيه من الشدّة، حتى لقد ذكر لنا أن الرجل كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع، وكان الرجل يتخذ الحفيرة في الشتاء ماله دثار غيرها".

عن سعيد بن جُبَير، وسعيد بن عبد الرحمن بن أبْزى، قالا: "كان ناس من المهاجرين لأحدهم الدار والزوجة والعبد والناقة يحجّ عليها ويغزو، فنسبهم الله إلى أنهم فقراء، وجعل لهم سهمًا في الزكاة".

قوله تعالى: {يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا} [الحشر: ٨]، أي:"يطلبون من الله أن يتفضل عليهم بالرزق في الدنيا والرضوان في الآخرة".

قال السمعاني:"أي: يطلبون فضل الله ورضاه".

=

قال ابن كثير:"أي: خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه".

قوله تعالى: {وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ} [الحشر: ٨]، أي:"وينصرون دين الله ورسوله بالجهاد في سبيل الله".

قال الطبري:"يقول: وينصرون دين الله الذي بعث به رسوله محمدا ﷺ".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحشر: ٨]، أي:"أولئك هم الصادقون الذين صدَّقوا قولهم بفعلهم".

قال الطبري:"يقول: هؤلاء الذين وصف صفتهم من الفقراء المهاجرين هم الصادقون فيما يقولون".

قال ابن كثير:"أي: هؤلاء الذين صَدَقوا قولهم بفعلهم، وهؤلاء هم سادات المهاجرين".

قال مقاتل:"في إيمانهم وليسوا بكاذبين في إيمانهم كالمنافقين".

قال السمعاني:"أي: الصادقون عقدا وقولا وفعلا".

قال ابن العربي:"رسول الله ﷺ لما توفي اضطرب الأمر، وماج الناس، ومرج قولهم، وتشوفوا إلى رأس يرجع إليه تدبيرهم، واجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة، ولهم الهجرة، وفيهم الدوحة، والمهاجرون عليهم نزل، وانتدب الشيطان ليزيغ قلوب فريق منهم، فسول للأنصار أن يعقدوا لرجل منهم الأمر؛ فجاء المهاجرون. فاجتمعوا إلى أبي بكر، وقالوا: نرسل إليهم. قال أبو بكر: " لا، ألا نأتيهم في موضعهم "، فنوزع في ذلك، فصرم وتقدم واتبعته المهاجرون حتى جاء الأنصار في مكانهم، وتقاولوا، فقالت الأنصار في كلامها: منا أمير ومنكم أمير، فتصدر أبو بكر بحقه، وتكلم على مقتضى الدين ووفقه، وقال: " يا معشر الأنصار؛ قد علمتم أنا رهط رسول الله وعترته الأدنون، وأصل العرب، وقطب

=

=

الناس. وقد قال النبي ﷺ: «الأئمة من قريش إلى أن تقوم الساعة». وقد سمانا الله في كتابه الصادقين حين قال: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} [الحشر: ٨]. وسماكم المفلحين، فقال: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: ٩]. وأمركم الله أن تكونوا معنا حيث كنا، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: ١١٩]. وقال لكم النبي «سترون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض». وقال لنا في آخر خطبة خطبها: «أوصيكم بالأنصار خيرا أن تقبلوا من محسنهم، وتتجاوزوا عن مسيئهم؛ ولو كان لكم في الأمر شيء ما رأيتم أثرة، ولا وصى بكم». فلما سمعوا ذلك من علمه، ووعوه من قوله تذكروا الحق؛ فانقادوا له، والتزموا حكمه؛ فبادر عمر إلى أبي عبيدة، وقال له: يا أبا عبيدة؛ امدد يدك أبايعك. فقال أبو عبيدة: ما سمعت منك تهة في الإسلام قبلها، أتبايعني وأبو بكر فيكم؟ فقال له عمر: امدد يدك أبايعك يا أبا بكر. فمد أبو بكر يده وبايعه، وبايعه الناس، وصار الحق في نصابه، ودخل الدين من بابه".

ثم مدح -سبحانه- بعد ذلك الأنصار، الذين يحبون من هاجر إليهم فقال: (وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ، يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ).

والجملة الكريمة معطوفة على الْمُهاجِرِينَ أو مبتدأ وخبره: يُحِبُّونَ والتبوؤ: النزول في المكان، ومنه المباءة للمنزل الذي ينزل فيه الإنسان.

والمراد بالدار: المدينة المنورة، وأل للعهد. أى: الدار المعهودة المعروفة وهي دار الهجرة.

=

=

وقوله: وَالْإِيمانَ منصوب بفعل مقدر. أى: وأخلصوا الإيمان.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: ما معنى عطف الإيمان على الدار، ولا يقال: تبوأوا الإيمان؟..

قلت معناه: تبوأوا الدار وأخلصوا الإيمان. كقوله: علفتها تبنا وماء باردا.

أى: وجعلوا الإيمان مستقرا ومتوطنا لهم، لتمكنهم منه، واستقامتهم عليه، كما جعلوا المدينة كذلك.

أو أراد: دار الهجرة ودار الإيمان، فأقام لام التعريف في الدار مقام المضاف إليه، وحذف المضاف من دار الإيمان، ووضع المضاف إليه مقامه..

أو سمى المدينة-لأنها دار الهجرة، ومكان ظهور الإيمان-بالإيمان.. ا.هـ.

وقوله: مِنْ قَبْلِهِمْ أى: من قبل المهاجرين، وهو متعلق بقوله تَبَوَّؤُا.

وقوله: يُحِبُّونَ مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ خبر المبتدأ، أو حال من الذين تبوأوا الدار ...

أى: هذه هي صفات المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ... وهذا هو جزاؤهم ...

أما الذين سكنوا دار الهجرة وهي المدينة المنورة، من قبل المهاجرين، وأخلصوا إيمانهم وعبادتهم لله تعالى، فإن من صفاتهم أنهم يحبون إخوانهم الذين هاجروا إليهم حبا شديدا، لأن الإيمان ربط قلوبهم برباط المودة والمحبة. وقوله: وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا صفة أخرى من صفات الأنصار.

ومعنى: يَجِدُونَ هنا: يحسون ويعلمون، والضمير للأنصار، وفي قوله أُوتُوا للمهاجرين. والحاجة في الأصل: اسم مصدر بمعنى الاحتياج، أى الافتقار إلى الشيء.

والمراد بها هنا: المأرب أو الرغبة الناشئة عن التطلع إلى ما منحه النبي ﷺ للمهاجرين دون الأنصار، من فيء أو غيره.

=

=

أى: أن من صفات الأنصار-أيضا-أنهم لا تتطلع نفوسهم إلى شيء مما أعطى للمهاجرين من الفيء أو غيره، لأن المحبة التي ربطت قلوب الأنصار بالمهاجرين، جعلت الأنصار يرتفعون عن التشوف إلى شيء مما أعطاه النبي ﷺ المهاجرين وحدهم ...

ثم وصفهم-سبحانه-بصفة ثالثة كريمة فقال: وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ....

والإيثار معناه: أن يؤثر الإنسان غيره على نفسه، على سبيل الإكرام والنفع، والخصاصة: شدة الحاجة، وأصلها من خصاص البيت، وهو ما يبقى بين عيدانه من الفرج والفتحات.

أى: أن من صفات الأنصار أنهم كانوا يقدمون في النفع إخوانهم المهاجرين على أنفسهم، ولو كانوا في حاجة ماسة، وفقر واضح، إلى ما يقدمونه لإخوانهم المهاجرين.

ولقد ضرب الأنصار-رضى الله عنهم-أروع الأمثال وأسماها في هذا المضمار، ومن ذلك ما رواه الشيخان والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبى هريرة قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أصابنى الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد شيئا، فقال ﷺ: «ألا رجل يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله» ؟ فقال رجل من الأنصار-وفي رواية أنه أبو طلحة-فقال: أنا يا رسول الله، فذهب به إلى أهله، فقال لامرأته: أكرمى ضيف رسول الله ﷺ قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية!! قال: إذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالى فأطفئى السراج، ونطوى بطوننا الليلة لضيف رسول الله ﷺ ففعلت، ثم غدا الضيف على رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «لقد عجب الله الليلة من فلان وفلانة» وأنزل الله فيهما: وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ..

=

=

وقوله-سبحانه-: وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ تذييل قصد به حض الناس على التحلي بفضيلة السخاء والكرم.

والشح: يرى بعضهم أنه بمعنى البخل، ويرى آخرون أن الشح غريزة في النفس تحملها على الإمساك والتقتير، وأما البخل فهو المنع ذاته، فكأن البخل أثر من آثار الشح.

قال صاحب الكشاف: «الشح» -بالضم والكسر وقد قرئ بهما-: اللؤم، وأن تكون نفس المرء كزة حريصة على المنع كما قال الشاعر:

يمارس نفسا بين جنبيه كزّة ... إذا همّ بالمعروف قالت له مهلا

وقد أضيف إلى النفس لأنه غريزة فيها، وأما البخل فهو المنع نفسه، ومنه قوله تعالى: وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ... ا.هـ.

أي: ومن يوق-بتوفيق الله وفضله-شح نفسه وحرصها على الإمساك، فيخالفها فيما تأمره به من المنع والتقتير. فأولئك الذين يخالفونها هم المفلحون، الفائزون برضا الله-عز وجل-.

ومن الأحاديث التي وردت في النهى عن الشح، ما أخرجه مسلم-في صحيحه- عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم».

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [الحشر: ٩]، أي:"والذين استوطنوا «المدينة»، وآمنوا من قبل هجرة المهاجرين -وهم الأنصار-".

قال الطبري:"يقول: اتخذوا المدينة مدينة الرسول ﷺ فابتنوها منازل، {وَالإيمَانَ} بالله ورسوله من قبل المهاجرين".

قال ابن كثير:"ثم قال تعالى مادحًا للأنصار، ومبينًا فضلهم وشرفهم وكرمهم

=

=

وعدم حَسَدهم، وإيثارهم مع الحاجة، فقال: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، أي: سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم".

قال السمعاني:"أجمع أهل التفسير على أن المراد بهم الأنصار، وقوله: {تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ}، أي: استوطنوا المدينة، وقبلوا الإيمان. وقيل: {تَبَوَّءُوا الدَّارَ}، أي: أعدوا الديار للمهاجرين وواسوهم في كل مالهم، وقوله: {وَالْإِيمَانَ}، أي: جعلوا دورهم دور الإيمان، وذلك بإظهارهم الإيمان فيما بينهم".

عن مجاهد، في قوله: " {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، وهم الأنصار من قبلهم، من قبل المهاجرين، ثم نعت سخاوة أنفسهم عندما زوى عنهم ذلك [ص:٦٥٣] الفيء، وإيثارهم المهاجرين بذلك الفيء، ولم يصب الأنصار من ذلك الفيء شيئا".

قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: " أوصي الخليفة بالمهاجرين الأولين: أن يعرف لهم حقهم، وأوصي الخليفة بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان، من قبل أن يهاجر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم".

فإن قيل: "كيف يستقيم قوله: {مِنْ قَبْلِهِمْ}، والأنصار إنما آمنوا من بعد المهاجرين؟

والجواب أن قوله: {مِنْ قَبْلِهِمْ} ينصرف إلى تبوء الدار لا إلى الإيمان والثاني أن قوله {مِنْ قَبْلِهِمْ} وإن انصرف إلى الإيمان فالمراد منه قبل هجرتهم؛ لأن الأنصار كانوا قد آمنوا قبل هجرتهم".

قوله تعالى: {يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ} [الحشر: ٩]، أي:"يحبون المهاجرين، ويواسونهم بأموالهم".

قال الطبري: يقول: " يحبون من ترك منزله، وانتقل إليهم من غيرهم، وعُنِي بذلك الأنصار يحبون المهاجرين".

=

=

قال الزجاج:"أي: يحب الأنصار المؤمنين".

قال السمعاني:"أي: من أهل مكة وغيرهم".

قال ابن كثير:"أي: مِنْ كَرَمهم وشرف أنفسهم، يُحبّون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم".

قال ابن زيد:"هؤلاء الأنصار يحبون من هاجر إليهم من المهاجرين".

عن قتادة: " {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا}، يقول: مما أعطوا إخوانهم هذا الحيّ من الأنصار، أسلموا في ديارهم، فابتنوا المساجد والمسجد، قبل قدوم النبي ﷺ فأحسن الله عليهم الثناء في ذلك، وهاتان الطائفتان الأوّلتان من هذه الآية، أخذتا بفضلهما، ومضتا على مَهَلهما، وأثبت الله حظهما في الفيء".

عن أنس قال: "قال المهاجرون: يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساةً في قليل ولا أحسن بذلا في كثير، لقد كَفَونا المَؤنة، وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله! قال: "لا ما أثنيتم عليهم ودَعَوتُمُ الله لهم".

عن أنس بن مالك:"حين خرج معه إلى الوليد قال: دعا النبي ﷺ الأنصار أن يُقطع لهم البحرين، قالوا: لا إلا أن تُقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها. قال: "إما لا فاصبروا حتى تلقوني، فإنه سيصيبكم بعدي أثرة".

عن أبي هريرة قال: "قالت الأنصار: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: لا. فقالوا: تكفونا المؤنَةَ ونَشركُكُم في الثمرة؟ قالوا: سمعنا وأطعنا".

قوله تعالى: {وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا} [الحشر: ٩]، أي:"ولا يجدون في أنفسهم حسدًا لهم مما أُعْطوا من مال الفيء وغيره".

قال الزجاج:"أي: لا يجد الأنصار في صدورهم حاجة مما يعطى المهاجرون".

=

=

قال ابن كثير:"أي: ولا يجدون في أنفسهم حسدًا للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف، والتقديم في الذكر والرتبة".

قال الطبري: يقول: ولا يجد الذين تبوّءوا الدار من قبلهم، وهم الأنصار في صدورهم حسدا مما أوتي المهاجرين من الفيء، وذلك لما ذُكر لنا من أن رسول الله ﷺ قسم أموال بني النضير بين

المهاجرين الأوّلين دون الأنصار، إلا رجلين من الأنصار، أعطاهما لفقرهما، وإنما فعل ذلك لرسول الله ﷺ خاصة".

عن الحسن، في قوله: " {وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا}، قال: الحسد".

عن الحسن: «حَاجَةً فِي صُدُورِهِمْ»، قال: حسدًا في صدورهم".

قال ابن عباس:"هم الأنصار، ذكر الذين قسم لهم من الخير ونعت سفاطة أنفسهم عند ما زوى عنهم فيء النضير وآثرتهم المهاجرين على أنفسهم، فجعل فيء النضير لقريش لم يشركهم فيه أحد من الأنصار إلا رجلان: أبو دجانة الساعدي وسهل بن حنيف".

عن محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أَبي بكر:"أنه حدّث أنّ بني النضير خَلَّوا الأموال لرسول الله ﷺ، فكانت النضير لرسول الله ﷺ خاصة، يضعها حيث يشاء، فقسمها رسول الله ﷺ على المهاجرين الأوّلين دون الأنصار، إلا أن سهل بن حُنيف وأبا دُجانة سمِاك بن خَرَشَة ذكرا فقرا، فأعطاهما رسول الله ﷺ".

عن ابن وهب، قال:"قال ابن زيد، في قوله: {وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا}، المهاجرون. قال: وتكلم في ذلك: (يعني: أموال بني النضير) بعضُ من تكلمَّ من الأنصار، فعاتبهم الله ﷻ في ذلك فقال: {وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ

=

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} . قال، قال رسول الله ﷺ لهم: «إنَّ إخْوَانَكُمْ قَدْ تَرَكُوا الأمْوَالَ وَالأولاد وَخَرَجُوا إلَيْكُمْ»، فقالوا: أموالنا بينهم قطائع، فقال رسول الله ﷺ: «أو غَيْرَ ذَلِكَ؟»، قالوا: وما ذلك يا رسول الله؟ قال: «هُمْ قَوْمٌ لا يعْرِفُونَ العَمَلَ فَتَكْفُونَهُمْ وَتُقَاسِمُونَهُمْ الثَّمَر»، فقالوا: نعم يا رسول الله".

قوله تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر: ٩]، أي:"ويُقَدِّمون المهاجرين وذوي الحاجة على أنفسهم، ولو كان بهم حاجة وفقر".

عن الحسن: {ولو كان بهم خصاصة} [الحشر: ٩]، يعني: «فاقة»".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وهو يصف الأنصار الذين تبوّءُوا الدار والإيمان من قبل المهاجرين، ويعطون المهاجرين أموالهم إيثارًا لهم بها على أنفسهم ولو كان بهم حاجة وفاقة إلى ما آثروا به من أموالهم على أنفسهم، والخصاصة: مصدر، وهي أيضًا اسم، وهو كلّ ما تخلَّلته ببصرك كالكوة والفرجة في الحائط، تجمع خَصَاصَات وخِصَاص، كمال قال الراجز:

قَدْ عَلِمَ المَقَاتِلاتُ هَجًّا... والنَّاظراتُ مِنْ خَصَاصٍ لَمْجا

لأورِيَنْهَا دُلَجا أَوْ مُنْجَا".

قال السمعاني:"أي: يقدمون المهاجرين على أنفسهم، {وَلَوْ كَانَ بِهِمْ} فقر وحاجة".

قال سهل:"تقول العرب: فلان مخصوص إذا كان فقيراً، فيؤثرون رضا الله على هواهم، والإيثار شاهد الحب".

قال ابن كثير:"يعني: حاجة، أي: يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدءون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك، وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: " أفضلُ الصدقة جَهدُ المقلّ". وهذا المقام أعلى من حال الذين

=

وَصَف اللهُ بقوله: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ} [الإنسان: ٨]. وقوله: {وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ} [البقرة: ١٧٧] فإن هؤلاء يتصدقون وهم يحبون ما تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه. ومن هذا المقام تصدق الصديق، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بجميع ماله، فقال له رسول الله ﷺ: "ما أبقيت لأهلك؟ ". فقال: أبقيت لهم الله ورسوله. وهذا الماء الذي عُرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك، فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه، وهو جريح مثقل أحوجَ ما يكون إلى الماء، فرده الآخر إلى الثلث، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم، رضي الله عنهم وأرضاهم".

حكي عن وهيب بن الورد أنه قال: "يقول الله تعالى: «وعزتي وعظمتي وجلالي، ما من عبد آثر هواي على هواه إلا قللت همومه وجمعت عليه ضيعته، ونزعت الفقر من قلبه، وجعلت الغنى بين عينيه، واتجرت له من وراء كل تاجر. وعزتي وجلالي، ما من عبد آثر هواه على هواي إلا كثرت همومه، وفرقت عليه ضيعته، ونزعت الغنى من قلبه، وجعلت الفقر بين عينيه، ثم لا أبالي في أي واد هلك»".

قوله تعالى: {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: ٩]، أي:"ومن سَلِم من البخل ومَنْعِ الفضل من المال فأولئك هم الفائزون الذين فازوا بمطلوبهم".

قال مقاتل:"يعني: ومن يقيه الله حرص نفسه، يعني: الأنصار حين طابت أنفسهم عن الفيء لإخوانهم".

قال ابن كثير:"أي: من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: من وقاه الله شحّ نفسه {فَأُولَئِكَ هُمُ} المخلّدون في الجنة. والشحّ في كلام العرب: البخل، ومنع الفضل من المال؛ ومعه قول

=

=

عمرو بن كلثوم:

تَرَى اللَّحِزَ الشَّحِيحَ إِذَا أُمِرَّتْ... عَلَيْهِ لِمَالِهِ فِيهَا مُهِينًا

يعني بالشحيح: البخيل".

قال القرطبي:"الشح والبخل سواء، وجعل بعض أهل اللغة الشح أشد من البخل".

قال النحاس:"المعروف في كلام العرب أن الشح أزيد من البخل، وأنه يقال: شح فلان يشح إذا اشتد بخله".

قال الفراء:"يقال: من أدى الزكاة فقد وقي شح نفسه".

قال سهل:"أي: ومن يوق حرص نفسه وبخلها على شيء هو غير الله وغير ذكره، فأولئك هم الباقون مع الله حياة طيبة بحياة طيبة".

قال ابن عُيَيْنَةَ: " «الشُّح»: الظلم. وليس الشح أن تبخل بما في يدك، لأن الله تعالى يقول: {وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ} [سورة الحمد آية: ٣٨]".

عن سعيد بن جُبَير، في قوله: " {ومَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ}، قال: إدخال الحرام، ومَنع الزكاة".

قال ابن زيد:"من وقي شحّ نفسه فلم يأخذ من الحرام شيئًا، ولم يقربه، ولم يدعه الشحّ أن يحبس من الحلال شيئًا، فهو من المفلحين، كما قال الله ﷻ".

قال ابن زيد:"من لم يأخذ شيئًا لشيء نهاه الله ﷻ عنه، ولم يدعه الشحّ على أن يمنع شيئًا من شيء أمره الله به، فقد وقاه الله شحّ نفسه، فهو من المفلحين".

عن طاووس بن كيسان، قال: "البُخل: أن يَبخل الإنسان بما في يديه، والشُّح: أن يَشِحّ على ما في أيدي الناس".

قال ابن وهب: "وسمعت الليث بن سعد قال: الشح: ترك الفرائض، وانتهاك المحارم، وا [...] المال".

=

=

عن أَبي الشعثاء، عن أبيه، قال: "أتى رجل ابن مسعود فقال: إني أخاف أن أكون قد هلكت، قال: وما ذاك؟ قال: أسمع الله يقول: {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ}، وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء، قال: ليس ذاك بالشحّ الذي ذكر الله في القرآن، إنما الشحّ أن تأكل مال أخيك ظلمًا، ذلك البخل، وبئس الشيء البخل".

عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: "إياكم والظلّم، فإن الظُّلم ظلماتٌ يوم القيامة، واتقوا الشُحَّ، فإن الشّحَّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سَفَكُوا دماءهم واستَحلُّوا محارمهم".

عن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخانُ جهنم في جوف عبد أبدًا، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدًا".

ثم مدح-سبحانه-كل من سار على نهج المهاجرين والأنصار في قوة الإيمان، وفي طهارة القلب، وسماحة النفس فقال تعالى: (وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا....)

قال الآلوسى: قوله: وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ ... عطف عند الأكثرين أيضا على المهاجرين، والمراد بهؤلاء: قيل: الذين هاجروا حين قوى الإسلام، فالمجىء حسى، وهو مجيئهم إلى المدينة، وضمير من بعدهم، للمهاجرين الأولين.

وقيل هم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة، فالمجىء إما إلى الوجود أو إلى الإيمان وضمير مِنْ بَعْدِهِمْ للفريقين: المهاجرين والأنصار.

وهذا هو الذي يدل عليه كلام عمر-رضى الله عنه-وكلام كثير من السلف كالصريح فيه، فالآية قد استوعبت جميع المؤمنين.. ا.هـ.

أي: والذين جاءوا من بعد المهاجرين والأنصار، واتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة يَقُولُونَ على سبيل الدعاء لأنفسهم ولإخوانهم في العقيدة، رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا.

=

=

أى: يا ربنا اغفر لنا ذنوبنا، واغفر، لإخواننا في الدين الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ فهم أسبق منا إلى الخير والفضل.. وَلا تَجْعَلْ يا ربنا فِي قُلُوبِنا غِلًّا أى: حسدا وحقدا لِلَّذِينَ آمَنُوا أى: يا ربنا لا تجعل في قلوبنا أى غل أو حسد لإخواننا المؤمنين جميعا.

(رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ) أى: يا ربنا إنك شديد الرأفة بعبادك واسع الرحمة بهم.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة، أن من حق الصحابة-رضى الله عنهم- على من جاءوا بعدهم، أن يدعوا لهم، وأن ينزلوهم في قلوبهم منزلة الاحترام والتبجيل والتكريم..

ورحم الله الإمام القرطبي فقد أفاض في بيان هذا المعنى، فقال ما ملخصه: قوله تعالى: وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ ... يعنى التابعين، ومن دخل في الإسلام إلى يوم القيامة.

قال ابن أبى ليلى: الناس على ثلاثة منازل: المهاجرون، والذين تبوأوا الدار والإيمان، والذين جاءوا من بعدهم، فاجتهد ألا تخرج من هذه المنازل.

وهذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة..

وقال الرازي: واعلم أن هذه الآيات قد استوعبت جميع المؤمنين لأنهم إما المهاجرون، أو الأنصار، أو الذين جاءوا من بعدهم، وبين أن من شأن من جاء من بعد المهاجرين والأنصار، أن يذكر السابقين، وهم المهاجرون والأنصار بالدعاء والرحمة، فمن لم يكن كذلك، بل ذكرهم بسوء كان خارجا من جملة أقسام المؤمنين، بحسب نص هذه الآية..

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ} [الحشر: ١٠]، أي:"والذين جاؤوا من المؤمنين من بعد الأنصار والمهاجرين الأولين".

وفي قوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ} [الحشر: ١٠]، ثلاثة أقوال:

=

=

أحدهما: أنهم الذين هاجروا بعد ما قوي الإسلام، قاله السدي، والكلبي.

الثاني: أنهم التابعون. حكاه السمعاني.

الثالث: التابعون لهم بإحسان إلى يوم القيامة، قاله مقاتل.

قال مقاتل:"يعني: من بعد المهاجرين والأنصار فدخلوا في الإسلام إلى يوم القيامة، وهم التابعون".

قال الشوكاني:"الظاهر شمول الآية لمن جاء بعد السابقين من الصحابة المتأخر إسلامهم في عصر النبوة، ومن تبعهم من المسلمين بعد عصر النبوة إلى يوم القيامة لأنه يصدق على الكل أنهم جاءوا بعد المهاجرين الأولين والأنصار".

قال مجاهد:"هم الذين أسلموا نعتوا أيضا منهم عبد الله بن نبتل، وأوس بن قيظي".

قال الزجاج:"المعنى: ما أفاء الله على رسوله فلله وللرسول ولهؤلاء المسلمين وللذين يجيئون من بعدهم إلى يوم القيامة، ما أقاموا على محبة أصحاب رسول الله ﷺ. ودليل ذلك قوله: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ} ـ في حال قولهم: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ..}، الآية. فمن يترحم على أصحاب رسول الله ولم يكن في قلبه غل لهم أجمعين فله حظ في فيء المسلمين، ومن شتمهم ولم يترحم عليهم أو كان في قلبه غل لهم فما جعل الله له حقا في شيء من فيء المسلمين. فهذا نص الكتاب بين".

قال ابن كثير:"هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء، وهم المهاجرون ثم الأنصار، ثم التابعون بإحسان، كما قال في آية براءة: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رضي الله عنهم} [التوبة: ١٠٠] فالتابعون لهم بإحسان هم: المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة، الداعون لهم في السر والعلانية".

=

=

عن ابن أَبي ليلى، قال: "كان الناس على ثلاث منازل: المهاجرون الأوَّلون: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}، وأحسن ما يكون أن يكون بهذه المنزلة".

وروى مصعب بن سعد قال: "الناس على ثلاثة منازل، فمضت منزلتان وبقيت الثالثة: فأحسن ما أنتم عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التي بقيت".

عن الزهري قال: "قال عمر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: {وَمَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ} قال الزهري: قال عمر: هذه لرسول الله ﷺ خاصة، قُرى عربية: فَدَك وكذا وكذا، فما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربي واليتامي والمساكين وابن السبيل وللفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ} {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ} فاستوعبت هذه الآية الناس، فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فيها حق -قال أيوب: أو قال: حظ -إلا بعض من تملكون من أرقائكم".

قوله تعالى: {يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ} [الحشر: ١٠]، أي:"يقولون: ربنا اغفر لنا ذنوبنا، واغفر لإخواننا في الدين الذين سبقونا بالإيمان".

قال مقاتل:"الماضين من المهاجرين والأنصار، فهذا استغفار".

قال الشوكاني:"المراد بالأخوة هنا أخوة الدين، أمرهم الله أن يستغفروا لأنفسهم ولمن تقدمهم من المهاجرين والأنصار".

قال الضحاك:"أُمروا بالاستغفار لهم، وقد عَلِم ما أحدثوا".

قال قتادة:"إنما أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبيّ ﷺ، ولم يؤمروا بسبهم، وذكر لنا أن غلامًا لحاطب بن أَبي بلتعة جاء نبيّ الله ﷺ فقال: يا نبيّ الله ليدخلن حاطب

=

=

في حيّ النار، قال: "كذبت إنه شهد بدرًا والحُديبية" وذُكر لنا أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أغلظ لرجل من أهل بدر، فقال نبيّ الله ﷺ: "وَمَا يُدْرِيكَ يَا عُمَرُ لَعَلَّه قَدْ شَهِدَ مَشْهَدًا اطَّلَعَ اللهُ فِيهِ إِلَى أَهْلِهِ، فأَشْهَدَ مَلائِكَتَهُ إني قَدْ رَضِيتُ عَنْ عِبَادِي هَؤُلاءِ، فَلْيَعْمَلُوا ما شَاءُوا" فما زال بعضُنا منقبضا من أهل بدر، هائبًا لهم، وكان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: وإلى أهل بدر تهالك المتهالكون، وهذا الحيّ من الأنصار، أحسن الله عليهم الثناء".

قوله تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا} [الحشر: ١٠]، أي:"ولا تجعل في قلوبنا حسدًا وحقدًا لأحد من أهل الإيمان".

قال الطبري:"لا تجعل في قلوبنا غمرا وضغنا لأحد من أهل الإيمان بك يا ربنا".

قال ابن زيد:"لا تورث قلوبنا غلا لأحد من أهل دينك".

قال الشوكاني:"أمرهم الله سبحانه بعد الاستغفار للمهاجرين والأنصار أن يطلبوا من الله سبحانه أن ينزع من قلوبهم الغل للذين آمنوا على الإطلاق، فيدخل في ذلك الصحابة دخولا أوليا لكونهم أشرف المؤمنين، ولكون السياق فيهم، فمن لم يستغفر للصحابة على العموم ويطلب رضوان الله لهم فقد خالف ما أمره الله به في هذه الآية، فإن وجد في قلبه غلا لهم فقد أصابه نزغ من الشيطان، وحل به نصيب وافر من عصيان الله بعداوة أوليائه وخير أمة نبيه ﷺ، وانفتح له باب من الخذلان يفد به على نار جهنم إن لم يتدارك نفسه باللجوء إلى الله سبحانه والاستغاثة به بأن ينزع عن قلبه ما طرقه من الغل لخير القرون وأشرف هذه الأمة، فإن جاوز ما يجده من الغل إلى شتم أحد منهم، فقد انقاد للشيطان بزمام ووقع في غضب الله وسخطه، وهذا الداء العضال إنما يصاب به من ابتلي بمعلم من الرافضة، أو صاحب من أعداء خير الأمة الذين تلاعب بهم الشيطان، وزين لهم الأكاذيب المختلفة والأقاصيص المفتراة والخرافات الموضوعة، وصرفهم عن كتاب الله

=

=

الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعن سنة رسول الله ﷺ المنقولة إلينا بروايات الأئمة الأكابر في كل عصر من العصور، فاشتروا الضلالة بالهدى، واستبدلوا الخسران العظيم بالربح الوافر، وما زال الشيطان الرجيم ينقلهم من منزلة إلى منزلة، ومن رتبة إلى رتبة، حتى صاروا أعداء كتاب الله، وسنة رسوله، وخير أمته، وصالحي عباده، وسائر المؤمنين، وأهملوا فرائض الله، وهجروا شعائر الدين، وسعوا في كيد الإسلام وأهله كل السعي، ورموا الدين وأهله بكل حجر ومدر، والله من ورائهم محيط".

قال السمعاني:"في الآية دليل على أن الترحم للسلف والدعاء لهم بالخير وترك ذكرهم بالسوء من علامة المؤمنين".

وروي:"أن رجلا جاء إلى مالك بن أنس فجعل يقع في جماعة من الصحابة مثل: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وغيرهم، فقال له: أنت من الفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم؟ قال: لا. قال: أنت من الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم؟ قال: لا. فقال: أشهد أنك لست من الذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان".

قال ابن كثير:"وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة: أن الرافضي الذي يسبّ الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء في قولهم: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}".

عن عائشة أنها قالت: "أمروا أن يستغفروا لهم، فسبوهم! ثم قرأت هذه الآية: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ} الآية".

عن عائشة قالت: "أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد ﷺ، فسببتموهم. سمعتُ

=

=

نبيكم ﷺ يقول: «لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها»".

وعن ابن عباس أنه قال: "ليس لمن يقع في الصحابة ويذكرهم بالسوء في الفيء نصيب، وتلا هذه الآيات الثلاث".

وروي:"أن عمر بن عبد العزيز سئل عما جرى بين الصحابة من القتال وسفك الدماء فقال: تلك دماء طهر الله يدي عنها، فلا أحب أن أغمس لساني فيها".

قال الاشعري:"وأجمعوا على الكف عن ذكر الصحابة -عليهم السلام -إلا بخير ما يذكرون به، وعلى أنهم أحق أن ينشر محاسنهم، ويلتمس لأفعالهم أفضل المخارج، وأن نظن بهم أحسن الظن، وأحسن المذاهب ممتثلين في ذلك لقوله رسول الله ﷺ: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا». وقال أهل العلم: معنى ذلك لا تذكروهم إلا بخير الذكر".

قال السمعاني: "المراد به الإمساك عن ذكر المساوئ لاعن ذكر المحاسن. وفي بعض الروايات: «إذا ذكر النجوم فأمسكوا»".

فذهب أهل السنة والجماعة إلى ما ذكره الأشعري عن صحابة النبي الكريم -عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم -قال الإمام أحمد: "ومن الحجة الواضحة الثابتة البيّنة المعروفة ذكر محاسن أصحاب رسول الله ﷺ كلهم أجمعين والكف عن ذكر مساويهم، والخلاف الذي شجر بينهم، فمن سب أصحاب رسول الله ﷺ أو أحداً منهم فهو مبتدع رافضي خبيث، مخالف لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً، بل حبهم سنة، والدعاء لهم قربة، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم فضيلة".

وقال الطحاوي: "ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان".

وقال الخطيب البغدادي: "عدالة الصحابة ثابتة معلومة بتعديل الله لهم، وإخباره

=

=

عن طهارتهم، واختياره لهم في نص القرآن، فمن ذلك قوله تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}".

وقال ابن حجر العسقلاني: "اتفق أهل السنة على أن جميع الصحابة عدول، ولم يخالف في ذلك إلا شرذمة من المبتدعة".

وقال ابن عيينة: " من نطق في أصحاب رسول الله ﷺ بكلمة فهو صاحب هوى".

وقال ابن حجر الهيتمي: "اعلم أن الذي أجمع عليه أهل السنة والجماعة أنه يجب على كل مسلم تزكية جميع الصحابة بإثبات العدالة لهم والكف عن الطعن فيهم والثناء عليهم...، ثم نقل قول أبي زرعة: "إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن رسول الله ﷺ حق، والقرآن حق، وما جاء به حق، وإنما أدى إلينا ذلك كله الصحابة، فمن جرحهم إنما أراد إبطال الكتاب والسنة، فيكون الجرح به ألصق والحكم عليه بالزندقة والضلال والكذب والفساد هو الأقوم الأحق".

قال البربهاري:"وخير هذه الأمة بعد وفاة نبيها: أبو بكر وعمر وعثمان، هكذا روي لنا عن ابن عمر؛ قال: كنا نقول ورسول الله ﷺ بين أظهرنا: إن خير الناس بعد رسول الله ﷺ: أبو بكر وعمر وعثمان ويسمع النبي ﷺ بذلك فلا ينكره.

ثم أفضل الناس بعد هؤلاء: علي وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح، وكلهم يصلح للخلافة.

ثم أفضل الناس بعد هؤلاء: أصحاب رسول الله ﷺ، القرن الأول الذي بعث فيهم: المهاجرون الأولون والأنصار، وهم من صلى القبلتين ثم أفضل الناس بعد هؤلاء: من صحب رسول الله ﷺ يوما أو شهرا أو سنة أقل أو كثر، ترحم عليهم وتذكر فضله وتكف عن زلته، ولا تذكر أحدا منهم إلا بخير، لقول رسول الله ﷺ: «إذا ذكر أصحابي فأمسكوا»".

=

=

عن علي بن الحسين بن علي -من طريق ابنه محمد-قال: "جلس إلَيَّ قومٌ مِن أهل العراق، فذكروا أبا بكر وعمر، فمَسُّوا منهما، ثم ابتدأوا في عثمان، فقلت لهم: أخبِروني؛ أنتم من المهاجرين {الذين أخرجوا من ديارهم} إلى قوله: {أولئك هم الصادقون}؟ قالوا: لا، لسنا منهم. قال: فأنتم مِن الذين قال الله -ﷻ-: {والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم} إلى قوله: {أولئك هم المفلحون}؟ قالوا: لا، لسنا منهم. قال: فقلت لهم: وأما أنتم فقد تبرّأتم وشهدتم وأقررتم أن تكونوا منهم، وأنا أشهد أنكم لستم من الفرقة الثالثة الذين قال الله تعالى: {والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم}، قوموا عنِّي، لا بارك الله فيكم، ولا قرب دوركم، أنتم مستهزئون بالإسلام، ولستم مِن أهله".

قوله تعالى: {رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: ١٠]، أي:"ربنا إنك ترحم عبادك رحمة واسعة في عاجلهم وآجلهم".

قال الطبري:"يقول: إنك ذو رأفة بخلقك، وذو رحمة بمن تاب واستغفر من ذنوبه".

قال الشوكاني:"أي: كثير الرأفة والرحمة، بلغهما لمن يستحق ذلك من عبادك".

قال قتادة:"قوله: {رحيما}، بعباده".

قال سعيد بن جبير:"قوله: {رحيما} بهم بعد التوب".

(منبهة): قوله تعالى (وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) هذه الأية تدل على شئ معلوم من دين الله بالضرورة وهو أن الله قد حصر طريق الهداية إليه في وحيه المنزل على أنبيائه، وأنه تعالى قد أرسل الرسول ليبين للناس ما نزل إليهم، فالحق محصور في العلم بالغيب والعمل بالشرع في نصوص الكتاب العزيز، ونصوص السنة المشرفة، وكل ما سوى ذلك فهو تبع لهما، كما قال

=

=

تعالى: { فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر }.

ولهذا تكفل الله تعالى لهذه الأمة بحفظ هذين الأصلين: فقال: { إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون }، وقال ﷺ: (تركت فيكم ما لإن تمسكتم به فلن تضلوا أبدا كتاب الله)، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: (قد أمرنا الله تعالى باتباع ما أنزل إلينا من ربنا وباتباع ما يأتي منه من الهدى وقد أنزل علينا الكتاب والحكمة كما قال تعالى: { واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به } والحكمة من الهدى قال تعالى: { وإن تطيعوه تهتدوا } والأمر باتباع الكتاب والقرآن يوجب الأمر باتباع الحكمة التي بعث بها الرسول وباتباعه وطاعته مطلقا. وقال تعالى: { واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة } وقال تعالى: { ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم }.

وقد أمر بطاعة الرسول في نحو أربعين موضعا كقوله تعالى: { قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين } وقوله تعالى: { وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين }، فهذه النصوص توجب اتباع الرسول وإن لم نجد ما قاله منصوصا بعينه في الكتاب كما أن تلك الآيات توجب اتباع الكتاب وإن لم نجد ما في الكتاب منصوصا بعينه في حديث عن الرسول غير الكتاب. فعلينا أن نتبع الكتاب وعلينا أن نتبع الرسول واتباع أحدهما هو اتباع الآخر).

ثم إنه بعد عصر الصحابة رضي الله تعالى عنهم بدأ الخلاف يدب بين المسلمين، ونشأ عن ذلك حدوث الفرق التي أخبر بها الصادق المصدوق ﷺ في الحديث المشهور: (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على

=

=

اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، قيل من هي يا رسول الله ؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي).

وقد تنوعت بدع هذه الفرق في شتى جوانب الدين، فمنها المحدث في ذات الله تعالى وأسمائه وصفاته، ومنها المحدث في قدر الله ومشيئته وإرادته وعلمه، ومنها المحدث في أصحابه ومنها المحدث في الإيمان والأسماء، ومنهم المحدث في الزهد والسلوك، وغير ذلك كثير.

ولئن تباينت بدع تلك الفرق وتنوعت وتباعدت، فإنها كلها تشترك في أمر واحد لازم لكل من أحدث في دين الله مالم يأذن به، ألا وهو: ترك الكتاب والسنة كمصدر للعلم والاهتداء، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى جعلوها قابلة لإعمال الفكر والنقد بل والمعارضة تارة بالروغان عنها وتارة بالمواجهة والتحدي بل وبالرد الصريح أحيانا.

وسنذكر بإذن الله تعالى هنا أقسام الناس في التعامل مع نصوص الصفات بشيء من الاختصار.

أولا: نظرة عامة على نصوص الصفات.

من المعلوم أنه لا يعلم شيء من صفات الله تعالى وأسمائه إلا عن طريق النصوص الشرعية، وإذا كان شيء من هذه الصفات يمكن أن يثبته العقل فإن الأصل فيه لابد أن يكون النصوص والعقل تابع له، مع اعتقاد أن العقل الصحيح لا يعارض النقل الصحيح، وإذا كان كذلك، فيجب التنبيه في هذا الباب إلى الآتي:

١-إن نصوص الصفات أقسام:

. فمنها نصوص القرآن: وهي قطعية في ثبوتها وقطعية في دلالتها.

. ومنها نصوص السنة: وهذه منها المتواتر المستفيض وهو مفيد للقطع في ثبوته

=

=

ودلالته.

ومنها خبر الآحاد الذي اختلف أهل الأثر في إفادته الظن أو العلم، والصحيح أنه يفيد العلم النظري للمتمكن في العلم إذا احتفت به قرائن كموافقته لصريح القرآن أو تلقته الأمة بالقبول أو قام عليه إجماع بلفظه أو معناه أو متضمنا له، ولا شك أن نصوص الأسماء والصفات التي وصلت إلينا بالسند المتصل الصحيح بطريق الآحاد هي من النوع المفيد للعلم للقرائن العديدة التي احتفت بها ومن أهمها تلقي الأمة لها بالقبول، وإجماع الصحابة على تلقيها بالقبول وهذا طفحت به نصوص السلف.

ولو فرض أنها لم ترق لدرجة القطع فإن الشرع عول على خبر الآحاد في العلميات والعمليات على حد سواء، ولا أدل على ذلك من إرساله الآحاد من أصحابه بالتوحيد ليبلغوه للناس، وهذا أمر مشهور لا يحتاج إلى تدليل.

. ومنها النصوص الواردة عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم: وإنما جعلناها من أصول هذا العلم لأن العلماء عدوا الحديث الموقوف الذي لا مجال فيه للرأي في حكم المرفوع، ولا شك أن أسماء الله وصفاته من الغيب الذي لا يمكن أن يتكلم فيه الصحابي برأي أو قياس، إلا ما ثبت فيه تأثره بما نقله مسلموا أهل الكتاب إلى المسلمين وهذا في الحقيقة قليل متميز عرفه أهل السنة وبينوا مأخذه.

٢ -نصوص الصفات كلها محكمة ليس من المتشابه وليس فيها تشابه.

إلا إذا أردنا التفصيل فنقول: محكم من حيث المعنى متشابه من حيث الكيفية، فكيفية الصفات مما استأثر الله تعالى بعلمه، لكن لا يطلق على نصوص القرآن أنها من المتشابه.

ثانيا: أقسام الناس في نصوص الصفات

* أولا: أهل السنة: (الإيمان والتسليم).

=

=

أهل السنة يؤمنون بما ورد عن الله تعالى من الأسماء والصفات، ويقفون مع النصوص التي ورد فيها الأسماء والصفات موقف المؤمن المسلم الموقن الذي امتدحه الله تعالى بقوله: { ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب..} وأجل الغيب وأعظمه هو الله تعالى بصفاته.

قال محمد بن الحسن كما في شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ١٥٧): (اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاءت بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب عزوجل من غير تفسيرولا وصف ولا تشبيه).

قال الإمام أحمد رحمه الله كما في مجموع الفتاوى (٥/ ٦٠): (ومن السنة اللازمة التي من ترك خصلة منها ولم يقلها ويؤمن بها لم يكن من أهلها: الإيمان بالقدر خيره وشره والتصديق بالأحاديث فيه والإيمان بها لا يقال لم ؟ وكيف ؟ إنما هو التصديق بها والإيمان بها، ومن لم يعرف تفسير الحديث ويبلغه عقله فقد كفي ذلك وأحكم له فعليه الإيمان به والتسليم له مثل الصادق المصدوق وما كان مثله في القدر، ومثل أحاديث الرؤية كلها وإن نبت عن الأسماع واستوحش منها المستمع فإنما عليه الإيمان بها وأن لا يرد منها جزءا واحدا).

وقال أبو نعيم الأصبهاني كما في مجموع الفتاوى (٥/ ٢٦): (طريقتنا طريقة المتبعين الكتاب والسنة، فمما اعتقدوه أن الأحاديث التي ثبتت عن النبي ﷺ في العرش واستواء الله يثبتونها ويقولون بها من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: (فصل ثم القول الشامل في جميع هذا الباب: أن يوصف الله بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله وبما وصفه به السابقون ؛ الأولون لا يتجاوز القرآن والحديث قال الإمام أحمد رضي الله عنه: لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث. ومذهب

=

=

السلف: أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل ونعلم أن ما وصف الله به من ذلك فهو حق ليس فيه لغز ولا أحاجي ؛ بل معناه يعرف من حيث يعرف مقصود المتكلم بكلامه ؛ لا سيما إذا كان المتكلم أعلم الخلق بما يقول وأفصح الخلق في بيان العلم وأفصح الخلق في البيان والتعريف والدلالة والإرشاد. وهو سبحانه مع ذلك ليس كمثله شيء لا في نفسه المقدسة المذكورة بأسمائه وصفاته ولا في أفعاله فكما نتيقن أن الله سبحانه له ذات حقيقة وله أفعال حقيقة: فكذلك له صفات حقيقة وهو ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وكل ما أوجب نقصا أو حدوثا فإن الله منزه عنه حقيقة فإنه سبحانه مستحق للكمال الذي لا غاية فوقه ويمتنع عليه الحدوث لامتناع العدم عليه واستلزام الحدوث سابقة العدم ؛ ولافتقار المحدث إلى محدث ولوجوب وجوده بنفسه سبحانه وتعالى. ومذهب السلف بين التعطيل والتمثيل فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه ولا ينفون عنه ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله. فيعطلوا أسماءه الحسنى وصفاته العليا ويحرفوا الكلم عن مواضعه ويلحدوا في أسماء الله وآياته).

وهذا الموقف منهم قائم على دعائم منها:

أ -أن الله تعالى أعلم بنفسه وبصفاته من الخلق، فلولم تكن هذه النصوص بظاهرها هي ما أراد منهم معرفته وعبادته بها لما أنزلها وتكلم بها وأوحى بها للنبي ﷺ، قال تعالى: { ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها } فبين أن من حكمة بيان أسمائه وصفاته أن ندعوه بها، ودعاؤه بها يتضمن معرفة معانيها والإيمان بها.

ب -إن الله سبحانه أراد من الخلق أن يعرفوه ليوحدوه ويعبدوه، وهذا التوحيد وهذه العبادة لا تعلم إلا من بمعرفة أسمائه وصفاته، والأسماء والصفات لا تعلم

=

=

إلا بالنص فوجب الإيمان بها علما بمعانيها وتفويضا لكيفياتها.

ج -أن النبي ﷺ وهو أعلم الخلق بربه وهو أفصح الناس وهو أخشى الناس لله وأنصحهم لهم لولم تكن تلك النصوص مفيدة لمعانيها الظاهرة وهي ما أراد الله من العباد لبين لهم ذلك، وأخبرهم أن ظاهرها غير مراد مثلا أو أنها تخييلات لا حقيقة لها، بل العكس تماما هو الذي كان منه عليه الصلاة والسلام، حتى إنه كان يشير أحيانا تحقيقا للمراد من الصفة كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال في هذه الآية { إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها } إلى قوله: { إن الله كان سميعا بصيرا } : (رأيت النبي ﷺ يضع إبهامه على أذنه وأصبعه الدعاء على عينه).

د -أن الله تعالى أنزل الكتاب بلغة العرب، وأرسل رسوله ﷺ من خاصة العرب ومن أفصحهم لسانا، وذكر لهم أنه أنزله قرآنا عربيا ليدبروا آياته، وهذا يقتضي أن تكون معاني النصوص المرادة منها هي ظواهرها، ولأن غير ذلك ينافي الغاية من جعل القرآن عربيا، وينافي الحث على التدبر لأن التدبر متضمن، للفهم عن الله تعالى والبيان وهذا لا يكون إلا بالتزام لغة القرآن وهي لغة العرب، والعرب يفهمون الكلام على ظاهره وخلاف ذلك يكون تلبيسا والله منزه عنه.

فإذا تحقق للعبد أن الله تعالى أعلم بنفسه وأن رسوله ﷺ أعلم به منا وأنه أنصح الخلق لخلق وأفصحهم وأكملهم بيانا وأنه متكلم بلسان عربي مبين فلا يبقى أدنى شك أو ريب في أن نصوص الصفات حق بما تضمنته من صفات رب العالمين واسمائه الحسنى، والحيدة عن هذا الأصل فيه اتهام للرب أو للرسول المبلغ عن ربه أو للغة التي جاء بها البيان أو للمستمع المتلقي.

أما الرب تعالى فأي تهمة له كفر وردة، وهذا لا يصرح به من خالف هذا الأصل السلفي في الأسماء والصفات وإن كان في الحقيقة متضمنا لسوء الظن بالله شعروا بذلك أم لم يشعروا، وأعظم تهمة منهم للرب عز وجل اتهامه بضد ما وصف به نفسه

=

=

من الرحمة للخلق، وإنكار ما امتن به على الناس من الهداية وتبين الحق وتمييزه لهم عن الضلال، فكأن هؤلاء يدعون أن الله تركهم بلا هدى ولا بيان حتى اضطروا لطلبه وابتغائه من غيره تعالى الله عما يصفون.

وأما الرسول فقد تلفظ المخالفون بشيء من هذا كما سنرى في كلام أهل التخييل والتجهيل وهذا لا يقول به مؤمن.

وأما اتهام اللغة فقد قال به المخالفون حين قرروا التلاعب باللغة وأساليبها وادعوا فيها ما ليس لهم فيه أصل ولا سلف، ومن أشهر وقائعهم في اللغة ما ادعوه من المجاز في الكلام العربي وما لزمهم أو التزموه بناء على ذلك من الإحداث والابتداع في اللغة العربية وهي لغة البيان والتبيين فأحالوها لغة تلبيس وتمويه.

فإذا عرف المؤمن أنه لا يمكن أن يكون التهمة موجهة لله تعالى أو لرسوله ﷺ أو للغة، فلم يبق إلا أنه هو المتهم، إذا عجز عقله عن الفهم، والإدارك لمعاني هذه النصوص ولم يتصور فيه الإثبات أو النفي كما جاء عن الله تعالى وعن رسوله ﷺ فليؤمن بها كما جاءت وليسلم وليتهم نفسه، لا أن ينزه نفسه التي ثبت لها النقص عقلا وشرعا ويتهم ربه أو رسوله ﷺ أو اللغة التي أجمع عليه الناس جيلا بعد جيل، وهذا هو معنى ما قال الإمام أحمد حين قال فيما تقدم: (ومن لم يعرف تفسير الحديث ويبلغه عقله فقد كفي ذلك وأحكم له فعليه الإيمان به والتسليم له).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كما في المجموع (٣/ ١٨١)، (١٣/ ٢٩٥)، (١٧/ ٢٩٦): (ومعلوم للمؤمنين: أن رسول الله ﷺ أعلم من غيره بذلك وأنصح من غيره للأمة وأفصح من غيره عبارة وبيانا بل هو أعلم الخلق بذلك وأنصح الخلق للأمة وأفصحهم فقد اجتمع في حقه كمال العلم والقدرة والإرادة. ومعلوم أن المتكلم أو الفاعل إذا كمل علمه وقدرته وإرادته: كمل كلامه وفعله وإنما يدخل النقص

=

=

إما من نقص علمه وإما من عجزه عن بيان علمه وإما لعدم إرادته البيان. والرسول هو الغاية في كمال العلم والغاية في كمال إرادة البلاغ المبين والغاية في قدرته على البلاغ المبين -ومع وجود القدرة التامة والإرادة الجازمة: يجب وجود المراد؛ فعلم قطعا أن ما بينه من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر: حصل به مراده من البيان وما أراده من البيان فهو مطابق لعلمه وعلمه بذلك أكمل العلوم، فكل من ظن أن غير الرسول أعلم بهذا منه أو أكمل بيانا منه أو أحرص على هدي الخلق منه: فهو من الملحدين لا من المؤمنين).

* ثانيا: الممثلة: (التمثيل والتشبيه).

أشهر من عرف عنهم التمثيل والتشبيه هم اليهود، فقد جاء في القرآن شيء من ذلك، قال تعالى: { وقالت اليهود عزير ابن الله } فرد عليهم بقوله: { قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد }، وجاء في كتبهم المحرفة وصف الله باجهل وبالتعب فرد الله عليهم بقوله: { وما مسنا من لغوب }، ووصفوه باللهو فرد عليهم بقوله: { وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لا عبين }، والنصارى قالت بشيء من هذا التمثيل حين نسبت إليه الولد.

ومن المنتسبين للإسلام عرف تأثر الرافضة بمذهب التمثيل والتشبيه خصوصا في متقدميهم، ومن أشهر من عرف عنه التمثيل في الإسلام هشام بن الحكم الرافضي ولعله أول من قال إن الله جسم وأصحابه كشيطان الطاق والجواليقي، وكذلك يروى عن داود الجواربي ومقاتل بن سليمان الخراساني ونعيم بن حماد المصري. قال شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٢ / ٦٢ ـ٦٣): (الزيادة في الإثبات إلى حد التشبيه هو قول الغالية من الرافضة ومن جهال أهل الحديث وبعض المنحرفين).

وهذا المذهب إن صح عن هؤلاء معلوم فساده بضرورة العقل والشرع والفطر

=

=

السليمة، والله سبحانه بين في مواضيع كثيرة أنه لا يشبهه شيء ولا يماثله شيء بل ولا يدانيه، كما قال عزوجل: { ليس كمثله شيء وهو السميع البصير } وقال: { ولم يكن له كفوا أحد } وقال: { هل تعلم له سميا } وقال: { ولا يحيطون به علما } وقال: { فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون }، وغير ذلك كثير.

وسبب ضلال هؤلاء غلوهم في الإثبات وظنهم أنه هو ظاهر النصوص، فهم في طرف والنفاة في طرف آخر مع اتفاقهم على هذا الأصل، وفي هذا ملحظ مهم، وهو أنك لا تجد فرقتان متقابلتان من أهل البدع إلا وجدتهما تتفقان في أصل ثم تتفرقا بناء على طريقة تعاملها مع النص.

فأنت ترى أن الممثلة مثلوا الله بخلقه ظنا منهم أنه ظاهر النص، ونفاة الصفات عطلوا النصوص عن الصفات وحرفوا معانيها ظنا منهم أن ظاهرها هو التمثيل، وهذا هو منشأ الخطأ.

لأن المتقرر ببدائه العقول ـ السليمة من سفه المنطق والمناطقة ـ أنه ما من شيئين موجودين إلا وبينهما قدر مشترك، وهو مسمى القدر المشترك الذي لا يوجد أبدا في الخارج بشرط الإطلاق، بل لا يوجد إلا مقيدا، فإذا قيد أفاد التخصيص.

وهذا المعنى الكلي الموجود في الذهن كان سبب ضلال كثير من الناس، ومنهم الممثلة فإنهم تصوروا أنه يوجد في الخارج كما هو في الذهن فطردوا التمثيل في صفات الرب تعالى، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ مجموع الفتاوى (٣/ ٤٣): ومعلوم أن العقل لا ينفي بالقياس إلا القدر المشترك ؛ الذي هو مدلول القضية الكلية التي لا بد منها في القياس ؛ مثل أن ينفي الإرادة أو الرحمة أو العلم المشترك بين مسميات هذا الاسم والقدر المشترك في المخلوقين تلحقه صفات لا تثبت لله تعالى فينفون المعنى المشترك المطلق على صفات الحق وصفات الخلق -تبعا لانتفاء ما يختص به الخلق -فيعطلون كما أن أهل التمثيل يثبتون ما يختص به

=

=

الخلق -تبعا للقدر المشترك -وكلاهما قياس خطأ. ففي هذه الصفات بل وفي الذوات ثلاث اعتبارات: أحدها: ما تختص به ذات الرب وصفاته. والثاني: ما يختص به المخلوق وصفاته. والثالث: المعنى المطلق الجامع. فاستعمال القياس الجامع في نفي الأول خطأ وكذلك استعماله في إثبات الثاني).

وقال أيضا: (لفظ الظاهر فيه إجمال واشتراك فإن كان القائل يعتقد أن ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين أو ما هو من خصائصهم فلا ريب أن هذا غير مراد ؛ ولكن السلف والأئمة لم يكونوا يسمون هذا ظاهرها ولا يرتضون أن يكون ظاهر القرآن والحديث كفرا وباطلا، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم من أن يكون كلامه الذي وصف به نفسه لا يظهر منه إلا ما هو كفر أو ضلال).

ولعل من المهم أن أختم كلامي هنا بما ذكره شيخ الإسلام أن التعبير عن هذ المذهب بلفظ التمثيل أولى من لفظ التشبيه لثلاثة أسباب:

أولها: أنه اللفظ الذي جاء نفيه في القرآن: { ليس كمثله شيء } .

ثانيها: أن لفظ التشبيه فيه إجمال، لأن نفي الشبه بين الخالق والمخلوق من كل وجه لا يصح، بل بينهما نوع شبه وهو الاشتراك في مسمى القدر المشترك وهو المعنى الكلي العام القائم في الأذهان، وهذا القدر من الاشتراك هو نوع شبه لا يقتضي المماثلة في حقاءق الصفات بين الخالق والمخلوق.

ثالثها: أن هذا اللفظ صار يطلقه الجهمية وأفراخهم على من أثبت الصفات فنفيه مطلقا قد يفهم منه نفي الصفات، وإثباته قد يفهم منه التمثيل، وما كان هذا سبيله فاجتنابه أولى.

* ثالثا: التفويض: (التجهيل).

لفظ التفويض مأخوذ من: فوض الأمر إلى الله: أي رده ووكله إليه، والمراد هنا أن العبد يفوض امر الصفات والأسماء إلى الله تعالى، وهذا من حيث الإجمال

=

=

يتضمن أمرين أحدهما حق والآخر باطل.

أما الحق فهو أن الواجب على العباد الإيمان والتسليم للنصوص التي وردت بصفات الله تعالى، وتفويض العلم بحقائقها وكيفياتها إلى الله تعالى لأن ذلك داخل ضمن الغيب والإيمان به، مثله في ذلك مثل الجنة والنار واليوم الآخر وعذاب القبر وسائر أمور الغيب.

وهذا هو مذهب السلف وهو معنى ما جاء عنهم في التفويض لكنهم مع هذا يثبتون ما جاء في النصوص من الصفات ويعلمون معانيها ويمرونها على ظاهرها.

وأما المعنى الباطل: وهو ما نقصده في هذا القسم: فهو أن النصوص التي وردت بصفات الله تعالى لا يعلم أحد من الناس معاني تلك الألفاظ، بل لا يعلم معناها إلا الله تعالى، حتى الرسول لم يعلم ذلك ولا يعلمه، بل علينا قراءة هذه الألفاظ وتفويض العلم بمعانيها إلى الله.

ولم يقفوا عند هذا بل زادوا إلى ذلك قيدا مهما وهو: مع الجزم بأن ظاهر تلك الألفاظ غير مراد.

وهؤلاء هم المفوضة المبتدعة والذين أحسن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ حين سماهم باسمهم الحقيقي وهو: (أهل التجهيل) إذ في ما ذهبوا إليه يلزم منه تجهيل الرسل وأتباعهم والسلف الصالح، وقذفهم بهذه النقيصة العظيمة، وهي أنهم جاءوا بألفاظ لا يعرفون معانيها، وتلقتها عنهم الأجيال الصالحة المزكاة بنص السنة والقرآن دون أن تفهم معناها، وهذه مسبة وتنقص في حق أفضل الخلق.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأما أهل التجهيل فهم كثير من المنتسبين إلى السنة واتباع السلف، يقولون: إن الرسول ﷺ لم يعرف معاني ما أنزل الله إليه من آيات الصفات ولا جبريل يعرف معاني الآيات ولا السابقون الأولون عرفوا ذلك. وكذلك قولهم في أحاديث الصفات: إن معناها لا يعلمه إلا الله مع أن الرسول

=

تكلم بها ابتداء فعلى قولهم تكلم بكلام لا يعرف معناه.

وهؤلاء يظنون أنهم اتبعوا قوله تعالى { وما يعلم تأويله إلا الله } فإنه وقف أكثر السلف على قوله: { وما يعلم تأويله إلا الله }،وهو وقف صحيح لكن لم يفرقوا بين معنى الكلام وتفسيره ؛ وبين " التأويل " الذي انفرد الله تعالى بعلمه ؛ وظنوا أن التأويل المذكور في كلام الله تعالى هو " التأويل " المذكور في كلام المتأخرين وغلطوا في ذلك. فإن لفظ " التأويل " يراد به ثلاث معان:

١ -التأويل في اصطلاح كثير من المتأخرين هو: صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن بذلك فلا يكون معنى اللفظ الموافق لدلالة ظاهره تأويلا على اصطلاح هؤلاء ؛ وظنوا أن مراد الله تعالى بلفظ التأويل ذلك وأن للنصوص تأويلا يخالف مدلولها لا يعلمه إلا الله ولا يعلمه المتأولون.

ثم كثير من هؤلاء يقولون: تجري على ظاهرها فظاهرها مراد مع قولهم: إن لها تأويلا بهذا المعنى لا يعلمه إلا الله، وهذا تناقض وقع فيه كثير من هؤلاء المنتسبين إلى السنة: من أصحاب " الأئمة الأربعة " وغيرهم.

٢ -والمعنى الثاني " أن التأويل " هو تفسير الكلام -سواء وافق ظاهره أو لم يوافقه -وهذا هو التأويل في اصطلاح جمهور المفسرين وغيرهم، وهذا " التأويل " يعلمه الراسخون في العلم وهو موافق لوقف من وقف من السلف عند قوله: { وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم } كما نقل ذلك عن ابن عباس ومجاهد ومحمد بن جعفر بن الزبير ومحمد بن إسحاق وابن قتيبة وغيرهم وكلا القولين حق باعتبار، كما قد بسطناه في موضع آخر ؛ ولهذا نقل عن ابن عباس هذا وهذا وكلاهما حق.

٣ -والمعنى الثالث أن التأويل هو الحقيقة التي يؤول الكلام إليها -وإن وافقت ظاهره -فتأويل ما أخبر الله به في الجنة -من الأكل والشرب واللباس والنكاح

=

وقيام الساعة وغير ذلك -هو الحقائق الموجودة أنفسها ؛ لا ما يتصور من معانيها في الأذهان ويعبر عنه باللسان وهذا هو " التأويل " في لغة القرآن كما قال تعالى عن يوسف أنه قال: { يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا } وقال تعالى: { هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق } وقال تعالى: { فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا }،وهذا التأويل هو الذي لا يعلمه إلا الله.

وتأويل " الصفات " هو الحقيقة التي انفرد الله تعالى بعلمها وهو الكيف المجهول الذي قال فيه السلف -كمالك وغيره -: الاستواء معلوم والكيف مجهول ؛ فالاستواء معلوم -يعلم معناه ويفسر ويترجم بلغة أخرى -وهو من التأويل الذي يعلمه الراسخون في العلم وأما كيفية ذلك الاستواء فهو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

وقد روي عن ابن عباس ما ذكره عبد الرزاق وغيره في تفسيرهم عنه أنه قال: تفسير القرآن على أربعة أوجه: -تفسير تعرفه العرب من كلامها وتفسير لا يعذر أحد بجهالته وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعلمه إلا الله ﷻ فمن ادعى علمه فهو كاذب.

وهذا كما قال تعالى: { فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون } . وقال النبي ﷺ { يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر }، وكذلك علم وقت الساعة ونحو ذلك فهذا من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، وإن كنا نفهم معاني ما خوطبنا به ونفهم من الكلام ما قصد إفهامنا إياه كما قال تعالى: { أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها } وقال: { أفلم يدبروا القول } فأمر بتدبر القرآن لا

=

=

بتدبر بعضه. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يقرءوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا، وقال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس رضي الله عنهما من فاتحته إلى خاتمته أقف عند كل آية وأسأله عنها، وقال الشعبي: ما ابتدع أحد بدعة إلا وفي كتاب الله بيانها وقال مسروق: ما سئل أصحاب محمد عن شيء إلا وعلمه في القرآن ولكن علمنا قصر عنه، وهذا باب واسع قد بسط في موضعه).

وقال أيضا: (معرفة مراد الرسول ومراد الصحابة هو أصل العلم وينبوع الهدى ؛ وإلا فكثير ممن يذكر مذهب السلف ويحكيه لا يكون له خبرة بشيء من هذا الباب كما يظنون أن مذهب السلف في آيات الصفات وأحاديثها. أنه لا يفهم أحد معانيها ؛ لا الرسول ولا غيره ويظنون أن هذا معنى قوله: { وما يعلم تأويله إلا الله } مع نصرهم للوقف على ذلك ؛ فيجعلون مضمون مذهب السلف أن الرسول بلغ قرآنا لا يفهم معناه ؛ بل تكلم بأحاديث الصفات وهو لا يفهم معناها وأن جبريل كذلك ؛ وأن الصحابة والتابعين كذلك. وهذا ضلال عظيم وهو أحد أنواع الضلال في كلام الله والرسول ﷺ).

وقد ظن كثير من الناس أن مذهب التفويض هو مذهب السلف، ذلك بسبب انتشار أصحاب المذاهب الفاسدة، وكذلك ما نقل عن السلف من كلمات توهمها هؤلاء مؤيدة لما هم عليه، مع أنهم لو جمعوا نصوص السلف لتبين لهم مرادهم منها، ولم يقل قائلهم: وكل نص أوهم التشبيها أوله أو فوض ورم تنزيها.

* رابعا: التأويل (التحريف).

أول تحريف وقع فيه أهل التأويل هو تحريف هذه الكلمة عن معناها الأصلي، ومع أنه لا مشاحة في الاصطلاح، إلا أن أهل البدع من عملهم أنهم يصطلحون

=

=

على ألفاظ ثم يفسرون ألفاظ الكتاب والسنة بها وهذا تحريف.

ومنه لفظ التأويل، فإنهم اصطلحوا على تسمية صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى مرجوح تأويلا، ثم أطلقوا عقولهم في النصوص تحريفا، فإذا ما أنكر عليهم منكر قالوا هذا تأويل وقد قال الله تعالى: { وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم }، وعلى العموم فإن لفظ التأويل وقع في كلام السلف، وقد استعملوه بمعناه اللغوي الذي ينتظم أمرين:

أولها: تفسير الكلام، ومنه قول الطبري وغيره: (القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا).

ثانيها: حقيقة الكلام ومآله الذي ينتهي إليه، فإن كان الكلام خبرا فتأويله وقوعه، ومنه قوله تعالى: { هل ينظرون إلا تأويله } وقول يوسف لأبيه: { هذا تأويل رؤياي }، ومنه قول الله تعالى: { { وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم }، وإن كان أمرا فتأويله امتثاله كقول عائشة في ذكره ﷺ في الركوع والسجود: (يتأول القرآن).

وقد اصطلح المتأخرون على تسمية (صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى المرجوح لقرينة تدل عليه) تأويلا، لكنهم اشترطوا لصحة هذا التأويل شروطا منها:

. أن يكون المعنى المصروف إليه اللفظ مما يحتمله اللفظ لغة ولو من بعيد.

. أن توجد قرينة تسوغ صرف اللفظ عن ظاهره أو قل تمنع حمل النص على ظاهره.

. أن يكون هذا الاستعمال مما يسوغ لغة.

لكن أهل البدع لم يلتزموا هذه الشروط، فصرفوا معاني نصوص الأسماء والصفات عن ظاهرها بدون قرينة توجب ذلك، فقالوا: تأويل الاستواء:

=

=

الاستيلاء، واليد القدرة والغضب إرادة العقوبة والانتقام والرحمة إرادة الإنعام وهكذا وقعوا في مفاسد متعددة:

. فهم أولا حرفوا النص عن دلالته.

. ثم عطلوه عما دل عليه.

. وأنكروا صفة الرحمن التي جاء بها النص.

. ثم وصفوه تعالى بالنقص إذ نفو عنه الكمال الذي أثبته لنفسه.

كل هذا سوغوه لأنفسهم استدلالا بطاغوت التأويل الذي استخدموه للتملص من الأدلة التي تنقض مذاهبهم.

وسبب هذا الخلط الذي وقع فيه المبتدعة بشتى أصنافهم وعلى راسهم المأولة أنهم اعتقدوا أولا ثم بحثوا لما اعتقدوه من أدلة وردوا ما عارضه، وأما السلف فإنهم استدلوا ثم اعتقدوا، فالاعتقاد تابع للنص لا العكس.

والشبهة التي اعتمدها أهل التأويل قرينة لصرف النصوص عن ظاهرها شبهة عقلية، فقالوا: إنه ثبت أن الله تعالى ليس كمثله شيء، وإثبات ظاهر النصوص يستلزم التشبيه فوجب التأويل.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: (هذا يتبين بالقاعدة الرابعة وهو أن كثيرا من الناس يتوهم في بعض الصفات أو كثير منها ؛ أو أكثرها أو كلها أنها تماثل صفات المخلوقين ثم يريد أن ينفي ذلك الذي فهمه فيقع في (أربعة أنواع من المحاذير: - (أحدها كونه مثل ما فهمه من النصوص بصفات المخلوقين وظن أن مدلول النصوص هو التمثيل (الثاني أنه إذا جعل ذلك هو مفهومها وعطله بقيت النصوص معطلة عما دلت عليه من إثبات الصفات اللائقة بالله. فيبقى مع جنايته على النصوص ؛ وظنه السيئ الذي ظنه بالله ورسوله -حيث ظن أن الذي يفهم من كلامهما هو التمثيل الباطل -قد عطل ما أودع الله ورسوله في كلامهما من

=

=

إثبات الصفات لله والمعاني الإلهية اللائقة بجلال الله تعالى (الثالث أنه ينفي تلك الصفات عن الله -ﷻ -بغير علم ؛ فيكون معطلا لما يستحقه الرب (الرابع: أنه يصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الأموات والجمادات أو صفات المعدومات فيكون قد عطل به صفات الكمال التي يستحقها الرب ومثله بالمنقوصات والمعدومات وعطل النصوص عما دلت عليه من الصفات وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات. فيجمع في كلام الله وفي الله بين التعطيل والتمثيل يكون ملحدا في أسماء الله وآياته).

وقال أيضا: (وطريقة التأويل طريقة المتكلمين من الجهمية والمعتزلة وأتباعهم يقولون: إن ما قاله له تأويلات تخالف ما دل عليه اللفظ وما يفهم منه وهو -وإن كان لم يبين مراده ولا بين الحق الذي يجب اعتقاده -فكان مقصوده أن هذا يكون سببا للبحث بالعقل حتى يعلم الناس الحق بعقولهم ويجتهدوا في تأويل ألفاظه إلى ما يوافق قولهم ليثابوا على ذلك فلم يكن قصده لهم البيان والهداية والإرشاد والتعليم بل قصده التعمية والتلبيس ولم يعرفهم الحق حتى ينالوا الحق بعقلهم ويعرفوا حينئذ أن كلامه لم يقصد به البيان فيجعلون حالهم في العلم مع عدمه خيرا من حالهم مع وجوده).

ثم بين وجوه الرد عليهم: (وكل من هؤلاء مخصوم بما خصم به الآخر وهو من وجوه: -(أحدها بيان أن العقل لا تحيل ذلك. و (الثاني أن النصوص الواردة لا تحتمل التأويل. و (الثالث أن عامة هذه الأمور قد علم أن الرسول ﷺ جاء بها بالاضطرار كما أنه جاء بالصلوات الخمس وصوم شهر رمضان. فالتأويل الذي يحيلها عن هذا بمنزلة تأويل القرامطة والباطنية في الحج والصلاة والصوم وسائر ما جاءت به النبوات. (الرابع: أن يبين أن العقل الصريح يوافق ما جاءت به النصوص ؛ وإن كان في النصوص من التفصيل ما يعجز العقل عن درك التفصيل

=

=

وإنما يعلمه مجملا إلى غير ذلك من الوجوه. على أن الوجوه الأساطين من هؤلاء الفحول: معترفون بأن العقل لا سبيل له إلى اليقين في عامة المطالب الإلهية. وإذا كان هكذا فالواجب تلقي علم ذلك من النبوات على ما هو عليه ومن المعلوم للمؤمنين أن الله تعالى بعث محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق ؛ ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا)

* خامسا: الفلاسفة (التخييل).

أما الفلاسفة فجاؤوا بالكفر الصريح، فقالوا إن نصوص الصفات لا تدل على وجود حقائق ثابتة بما دل عليه ظاهرها، وإنما كان مقصود الرسل التخييل للناس.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (فأهل التخييل هم الفلاسفة والباطنية الذين يقولون: إنه خيل أشياء لا حقيقة لها في الباطن وخاصية النبوة عندهم التخييل.. وأولئك المتقدمون كابن سينا وأمثاله ينكرون على هؤلاء ويقولون: ألفاظه كثيرة صريحة لا تقبل التأويل لكن كان قصده التخييل وأن يعتقد الناس الأمر على خلاف ما هو عليه).

وقال: (فأهل التخييل: هم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم من متكلم ومتصوف ومتفقه. فإنهم يقولون: إن ما ذكره الرسول من أمر الإيمان بالله واليوم الآخر إنما هو تخييل للحقائق لينتفع به الجمهور لا أنه بين به الحق ولا هدى به الخلق ولا أوضح به الحقائق. ثم هم على قسمين: منهم من يقول: إن الرسول لم يعلم الحقائق على ما هي عليه. ويقولون: إن من الفلاسفة الإلهية من علمها وكذلك من الأشخاص الذين يسمونهم الأولياء من علمها ويزعمون أن من الفلاسفة والأولياء من هو أعلم بالله واليوم الآخر من المرسلين، وهذه مقالة غلاة الملحدين من الفلاسفة والباطنية: باطنية الشيعة وباطنية الصوفية. ومنهم من يقول: بل الرسول علمها لكن لم يبينها وإنما تكلم بما يناقضها وأراد من الخلق

=

=

فهم ما يناقضها ؛ لأن مصلحة الخلق في هذه الاعتقادات التي لا تطابق الحق. ويقول هؤلاء: يجب على الرسول أن يدعو الناس إلى اعتقاد التجسيم مع أنه باطل وإلى اعتقاد معاد الأبدان مع أنه باطل ويخبرهم بأن أهل الجنة يأكلون ويشربون مع أن ذلك باطل. قالوا: لأنه لا يمكن دعوة الخلق إلا بهذه الطريق التي تتضمن الكذب لمصلحة العباد. فهذا قول هؤلاء في نصوص الإيمان بالله واليوم الآخر. (وأما الأعمال فمنهم من يقرها ومنهم من يجريها هذا المجرى. ويقول: إنما يؤمر بها بعض الناس دون بعض ويؤمر بها العامة دون الخاصة فهذه طريقة الباطنية الملاحدة والإسماعيلية ونحوهم).

قال شيخ الإسلام رادا عليهم: (وتلخيص النكتة: أن الرسل إما أنهم علموا الحقائق الخبرية والطلبية أو لم يعلموها وإذا علموها، فإما أنه كان يمكنهم بيانها بالكلام والكتاب أو لا يمكنهم ذلك، وإذا أمكنهم ذلك البيان: فإما أن يمكن للعامة وللخاصة أو للخاصة فقط، فإن قال: إنهم لم يعلموها وإن الفلاسفة والمتكلمين أعلم بها منهم وأحسن بيانا لها منهم ؛ فلا ريب أن هذا قول الزنادقة المنافقين.

وإن قال: إن الرسل مقصدهم صلاح عموم الخلق وعموم الخلق لا يمكنهم فهم هذه الحقائق الباطنة فخاطبوهم بضرب الأمثال لينتفعوا بذلك وأظهروا الحقائق العقلية في القوالب الحسية ؛ فتضمن خطابهم عن الله وعن اليوم الآخر: من التخييل والتمثيل للمعقول بصورة المحسوس ما ينتفع به عموم الناس في أمر الإيمان بالله وبالمعاد. وذلك يقرر في النفوس من عظمة الله وعظمة اليوم الآخر ما يحض النفوس على عبادة الله وعلى الرجاء والخوف ؛ فينتفعون بذلك وينالون السعادة بحسب إمكانهم واستعدادهم ؛ إذ هذا الذي فعلته الرسل هو غاية الإمكان في كشف الحقائق لعموم النوع البشري ومقصود الرسل: حفظ النوع البشري

=

=

وإقامة مصلحة معاشه ومعاده، فمعلوم: أن هذا قول حذاق الفلاسفة مثل الفارابي وابن سينا وغيرهما وهو قول كل حاذق وفاضل من المتكلمين في القدر الذي يخالف فيه أهل الحديث.

فالفارابي يقول: " إن خاصة النبوة جودة تخييل الأمور المعقولة في الصور المحسوسة " أو نحو هذه العبارة. وابن سينا يذكر هذا المعنى في مواضع ويقول: " ما كان يمكن موسى بن عمران مع أولئك العبرانيين ولا يمكن محمدا مع أولئك العرب الجفاة أن يبينا لهم الحقائق على ما هي عليه فإنهم كانوا يعجزون عن فهم ذلك وإن فهموه على ما هو عليه انحلت عزماتهم عن اتباعه لأنهم لا يرون فيه من العلم ما يقتضي العمل". وهذا المعنى يوجد في كلام أبي حامد الغزالي وأمثاله ومن بعده: طائفة منه في الإحياء وغير الإحياء وكذلك في كلام الرازي.

وأما الاتحادية ونحوهم من المتكلمين: فعليه مدارهم ومبنى كلام الباطنية والقرامطة عليه لكن هؤلاء ينكرون ظواهر الأمور العملية والعلمية جميعا وأما غير هؤلاء فلا ينكرون العمليات الظاهرة المتواترة لكن قد يجعلونها لعموم الناس لا لخصوصهم كما يقولون مثل ذلك في الأمور الخبرية. ومدار كلامهم: على أن الرسالة متضمنة لمصلحة العموم علما وعملا. وأما الخاصة فلا. وعلى هذا يدور كلام أصحاب " رسائل إخوان الصفا " وسائر فضلاء المتفلسفة.

ثم منهم من يوجب اتباع الأمور العملية من الأمور الشرعية وهؤلاء كثيرون في متفقهتهم ومتصوفتهم وعقلاء فلاسفتهم. وإلى هنا كان ينتهي علم ابن سينا إذ تاب والتزم القيام بالواجبات الناموسية.

فإن قدماء الفلاسفة كانوا يوجبون اتباع النواميس التي وضعها أكابر حكماء البلاد فلأن يوجبوا اتباع نواميس الرسل أولى. فإنهم -كما قال ابن سينا -: " اتفق

=

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١).

{أَلَمْ تَرَ} تَنْظُر {إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْل

=

فلاسفة العالم على أنه لم يقرع العالم ناموس أفضل من هذا الناموس المحمدي". وكل عقلاء الفلاسفة متفقون على أنه أكمل وأفضل النوع البشري وأن جنس الرسل أفضل من جنس الفلاسفة المشاهير ثم قد يزعمون أن الرسل والأنبياء حكماء كبار وأن الفلاسفة الحكماء أنبياء صغار وقد يجعلونهم صنفين.

ومن زعم أنه وكبار طائفته أعلم من الرسل بالحقائق وأحسن بيانا لها: فهذا زنديق منافق إذا أظهر الإيمان بهم باتفاق المؤمنين.

وإن قال: إن الرسل كانوا أعظم علما وبيانا لكن هذه الحقائق لا يمكن علمها أو لا يمكن بيانها مطلقا أو يمكن الأمران للخاصة. قلنا: فحينئذ لا يمكنكم أنتم ما عجزت عنه الرسل من العلم والبيان. إن قلتم: لا يمكن علمها. قلنا: فأنتم وأكابركم لا يمكنكم علمها بطريق الأولى. وإن قلتم: لا يمكنهم بيانها. قلنا: فأنتم وأكابركم لا يمكنكم بيانها.

وإن قلتم: يمكن ذلك للخاصة دون العامة. قلنا: فيمكن ذلك من الرسل للخاصة دون العامة. فإن ادعوا أنه لم يكن في خاصة أصحاب الرسل من يمكنهم فهم ذلك: جعلوا السابقين الأولين دون المتأخرين في العلم والإيمان، وهذا من مقالات الزنادقة ؛ لأنه قد جعل بعض الأمم الأوائل من اليونان والهند ونحوهم أكمل عقلا وتحقيقا للأمور الإلهية وللعبادية من هذه الأمة. فهذا من مقالات المنافقين الزنادقة ؛ إذ المسلمون متفقون على أن هذه الأمة خير الأمم وأكملهم وأن أكمل هذه الأمة وأفضلها هم سابقوها).

الْكِتَاب} وَهُمْ بَنُو النَّضِير وَإِخْوَانهمْ فِي الْكُفْر {لَئِنْ} لَام قَسَم فِي الْأَرْبَعَة {أُخْرِجْتُمْ} مِنْ الْمَدِينَة {لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيع فِيكُمْ} فِي خِذْلَانكُمْ {أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ} حُذِفَتْ مِنْهُ اللَّام الْمُوَطِّئَة {لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون}.

لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢).

{لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم} أي جاؤوا لِنَصْرِهِمْ {لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَار} وَاسْتُغْنِيَ بِجَوَابِ الْقَسَم الْمُقَدَّر عَنْ جَوَاب الشَّرْط فِي الْمَوَاضِع الْخَمْسَة {ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ} أَيْ الْيَهُود.

لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣).

{لَأَنْتُمْ أَشَدّ رَهْبَة} خَوْفًا {فِي صُدُورهمْ} أَيْ المنافقين {من الله} لتأخير عذابه {ذلك بأنهم قوم لا يفقهون}.

لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤).

{لَا يُقَاتِلُونَكُمْ} أَيْ الْيَهُود {جَمِيعًا} مُجْتَمِعِينَ {إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَة أَوْ مِنْ وَرَاء جِدَار} سُور وَفِي قِرَاءَة جُدُر {بَأْسهمْ} حَرْبهمْ {بَيْنهمْ شَدِيد تَحْسَبهُمْ جَمِيعًا} مُجْتَمِعِينَ {وَقُلُوبهمْ شَتَّى} مُتَفَرِّقَة خلاف الحسبان {ذلك بأنهم قوم لا يعقلون}.

كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥).

فِي تَرْك الْإِيمَان {كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلهمْ قَرِيبًا} بِزَمَنٍ قَرِيب وَهُمْ أَهْل بَدْر مِنْ الْمُشْرِكِينَ {ذَاقُوا وَبَال أَمْرهمْ} عُقُوبَته فِي الدُّنْيَا مِنْ الْقَتْل وَغَيْره {وَلَهُمْ عَذَاب

أَلِيم} مُؤْلِم فِي الآخرة.

كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦).

مَثَلهمْ أَيْضًا فِي سَمَاعهمْ مِنْ الْمُنَافِقِينَ وَتَخَلُّفهمْ عَنْهُمْ {كَمَثَلِ الشَّيْطَان إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اُكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيء مِنْك إِنِّي أَخَاف الله رَبّ الْعَالَمِينَ} كَذِبًا مِنْهُ وَرِيَاء.

فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧).

{فَكَانَ عَاقِبَتهمَا} أَيْ الْغَاوِي وَالْمُغْوِي وَقُرِئَ بِالرَّفْعِ اسْم كَانَ {أَنَّهُمَا فِي النَّار خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ} أَيْ الْكَافِرِينَ[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن السدي؛ قال: قد أسلم ناس من أهل قريظة والنضير وكان فيهم منافقون، وكانوا يقولون لأهل النضير: لئن أخرجتم؛ لنخرجن معكم؛ فنزلت فيهم هذه الآية: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١١٥)، و"لباب النقول" (ص ٢١٠) ونسبه لابن أبي حاتم.

وهو ضعيف، لإرساله.

وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: كان راهب يتعبّد في صومعة وإذ امرأة كان لها إخوة، فعرض لها شيءٌ فأتوه بها فزيّنت له نفسها؛ فوقع عليها؛ فحملت؛ فجاءه الشيطان فقال: اقتلها؛ فإنهم إن ظهروا عليك افتضحت؛ فقتلها فدفنها، فجاؤوه =

=

فأخذوه فذهبوا به، فبينما هم يمشون به؛ إذ جاءه الشيطان فقال: أنا الذي زيّنت لك، فاسجد لي سجدة أنجيك؛ فسجد له؛ فأنزل الله ﷻ: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ} الآية.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٨٥) -وعنه إسحاق بن راهويه في "مسنده"؛ كما في "المطالب العالية" (٩/ ٥٥ رقم ٤١٤٣ -المسندة)، و"إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ١٧٣ رقم ٧٨٥٢) -ومن طريقه الحاكم في "المستدرك" (٣/ ٣٠٠ رقم ٣٨٥٤ -ط دار المعرفة) -وعنه البيهقي في "شعب الإيمان" (٤/ ٣٧٣ رقم ٥٤٥٠) -: أنبأ الثوري عن أبي إسحاق السبيعي عن حميد بن عبد الله السلولي عن علي به.

قال البوصيري: "هذا إسناد فيه مقال؛ حميد بن عبد الله السلولي لم أقف له على من وثقه، وباقي رواة الإسناد ثقات".

لكنه توبع؛ فأخرجه البخاري في "التاريخ الكبير" (٥/ ٢١٣ رقم ٦٨٤)، والطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٣٣) من طريق النضر بن شميل؛ قال: أخبرنا شعبة عن أبي إسحاق السبيعي؛ قال؛ سمعت عبد الله بن نهيك قال: سمعت علياً ﵁ يقول: إن راهباً تعبّد ستين سنة، وإن الشيطان أراده؛ فأعياه، فعمد إلى امرأة فأجنها ولها إخوة، فقال لإخوتها: عليكم بهذا القس فيداويها؛ فجاؤوا بها، قال: فداواها، وكانت عنده، فبينما هو يوماً عندها؛ إذ أعجبته، فأتاها؛ فحملت، فعمد إليها فقتلها، فجاء إخوتها، فقال الشيطان للراهب: أنا صاحبك، إنك أعييتني، أنا صنعت بك هذا، فأطعني أُنجك مما صنعت بك، اسجد لي سجدة؛ فسجد له، فلما سجد له، قال: إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين؛ فذلك قوله: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦)}. وهذا سند حسن.

=

=

وعن طاووس؛ قال: كان رجل من بني إسرائيل وكان عابداً، وكان ربما داوى المجانين، وكانت امرأة جميلة أخذها الجنون فجيء بها إليه فتركت عنده فأعجبته؛ فوقع عليها؛ فحملت؛ فجاءه الشيطان فقال: إن علم بهذا افتضحت؛ فاقتلها وادفنها في بيتك، فقتلها ودفنها، فجاء أهلها بعد ذلك بزمان يسألونه عنها، فقال: ماتت، فلم يتهموه لصلاحه فيهم ورضاه، فجاءهم الشيطان، فقال: إنها لم تمت ولكنه وقع عليها فحملت فقتلها ودفنها وهي في بيته في مكان كذا وكذا، فجاء أهلها، فقالوا: ما نتهمك ولكن أخبرنا أين دفنتها، ومن كان معك؟ ففتشوا بيته فوجدوها حيث دفنها؛ فأخذ فسجن؛ فجاءه الشيطان فقال: إن كنت تريد أن أخلصك مما أنت فيه وتخرج منه؛ فاكفر بالله؛ فأطاع الشيطان وكفر؛ فأخذ فقتل؛ فتبرأ منه الشيطان حينئذ، قال طاووس: فما أعلم إلا أن هذه الآية أنزلت فيه: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦)}.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٨٤، ٢٨٥)، والطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٣٤) عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه به. وهذا مرسل رجاله ثقات.

* قوله تعالى: قال الآلوسي: قوله تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نافَقُوا ... حكاية لما جرى بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة والأحوال الفاسدة وتعجب منها بعد حكاية محاسن أحوال المؤمنين على اختلف طبقاتهم، والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب.

والآية -كما روى عن ابن عباس- نزلت في رهط من بنى عوف منهم عبد الله بن أبى بن سلول ... بعثوا إلى بنى النضير بما تضمنته الجمل المحكية، بقوله تعالى: يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ ... ا.هـ.

والمراد بالأخوة في قوله -سبحانه-: يَقُولُونَ لِإِخْوانِهِمُ: أخوة في الكفر والفسوق

=

=

والعصيان ...

والمعنى: ألم يصل إلى علمك-أيها الرسول الكريم-حال أولئك المنافقين الذين أظهروا الإسلام، وأبطنوا الكفر، وهم يقولون لإخوانهم في الكفر من أهل الكتاب، وهم: يهود بنى النضير، أثناء محاصرتكم-أيها المؤمنون-لهم.

يقولون لهم: «والله لئن أخرجتم» من دياركم لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ أى: لنخرجن من ديارنا معكم، لنكون مصاحبين لكم حيثما سرتم.

ويقولون لهم: -أيضا-وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً ... أى: ولا نطيع في شأنكم أحدا أبدا، يريد العدوان عليكم، أو يريد منعنا من الخروج معكم ومؤازرتكم..

ويقولون لهم-كذلك-: وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ أى: وإن قاتلكم المسلمون، لنقفن إلى جواركم، ولنقدمن العون الذي يؤدى إلى نصركم.

وقوله-سبحانه-: وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ رد عليهم، وإبطال لمزاعمهم.

أى: والله تعالييشهد بأن هؤلاء المنافقين لكاذبون في أقوالهم، وفي عهودهم..

قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا} [الحشر: ١١].

قال ابن عباس: "يعني: عبد الله بن أُبيّ بن سلول وأصحابه، ومن كان منهم على مثل أمرهم".

قال مجاهد: "يعني: عبد الله بن أبي ابن سلول ورفاقه".

وفي رواية قال مجاهد: "عبد الله بن أُبيّ بن سلول، ورفاعة أو رافعة بن تابوت. وقال الحارث: رفاعة بن تابوت، ولم يشكّ فيه، وعبد الله بن نَبْتل، وأوس بن قَيْظِيّ".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ألم تنظر بعين قلبك يا محمد، فترى إلى الذين نافقوا وهم فيما ذُكر عبد الله بن أُبي ابن سلول، ووديعة ومالك، ابنا نوفل، وسُوَيد وداعس، بَعَثوا إلى بني النضير حين نزل بهم رسول الله ﷺ

=

=

للحرب أن اثبتُوا وتمنَّعوا، فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم، خرجنا معكم، فتربصوا لذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم، ويكفّ عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة".

قوله تعالى: {يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} [الحشر: ١١]، أي:"يقولون ليهود بني قريظة والنضير الذين كفروا برسالة محمد ﷺ".

قال الطبري:"يعني: بني النضير".

عن ابن عباس: " {يَقُولُونَ لِإخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ}، يعني: بني النضير".

قال السمعاني:"فيه قولان: أحدهما: أنهم بنو النضير، قال لهم المنافقون ذلك قبل أن أجلوا. والقول الآخر: أنهم بنو قريظة، قال لهم المنافقون ذلك بعد أن أجلي بنو النضير".

قوله تعالى: {لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ} [الحشر: ١١]، أي:"لئن أخرجتم من المدينة لنخرجنَّ معكم منها".

قال الطبري:"يقول: لئن أخرجتم من دياركم ومنازلكم، وأُجليتم عنها لنخرجن معكم، فنُجلى عن منازلنا وديارنا معكم".

قال السمعاني:"أي: لئن أخرجتم من المدينة لنخرجن معكم في القتال".

قوله تعالى: {وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا} [الحشر: ١١]، أي:"ولا نطيع أمر محمد في قتالكم، ولا نسمع من أحدٍ إذا أمرنا بخذلانكم".

قال الطبري:"يقول: ولا نطيع أحدًا سألنا خذلانكم، وترك نصرتكم، ولكنا نكون معكم".

قال مقاتل:"يقول: لا نطيع في خذلانكم أحدا أبدا، يعني بـ «أحد»: النبي -ﷺ-

=

=

وحده".

قال السمعاني:"أي: لا نطيع محمدا فيكم".

قوله تعالى: {وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ} [الحشر: ١١]، أي:"ولئن قاتلكم أحد لنعاوننكم على عدوكم ونكون بجانبكم".

قال الطبري:"يقول: وإن قاتلكم محمد ﷺ ومن معه لننصرنّكم معشرَ النضير عليهم".

قال السمعاني:"معناه: ولئن قاتلكم محمدا لنكونن معكم في القتال".

قوله تعالى: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الحشر: ١١]، أي:"والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فيما قالوه ووعدوهم به".

قال الطبري:"يقول: والله يشهد إن هؤلاء المنافقين الذين وعدوا بني النضير النصرة على محمد ﷺ {لَكَاذِبُونَ} في وعدهم إياهم مَا وَعَدُوهم من ذلك".

قال ابن كثير:"أي: لكاذبون فيما وعدوهم به إما أنهم قالوا لهم قولا من نيتهم ألا يفوا لهم به، وإما أنهم لا يقع منهم الذي قالوه".

ثم أبطل-سبحانه-أقوالهم بصورة أكثر تفصيلا فقال: (لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ، وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ، وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ).

أى: والله لئن أخرج المؤمنون اليهود من ديارهم، فإن هؤلاء المنافقين لا يخرجون معهم، ولئن قاتل المؤمنون اليهود، فإن المنافقين لن ينصروا اليهود، ولئن نصروهم-على سبيل الفرض والتقدير-ليولين المنافقون الأدبار فرارا منكم-أيها المؤمنون-، ثم لا ينصرون بعد ذلك، لا هم ولا من قاموا بنصرهم، لأن الفريقين اجتمعوا على الباطل واتحدت قلوبهم في الجبن والخور والحرص على الحياة..

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف قيل: وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ.. يعد الإخبار بأنهم لا

=

=

ينصرونهم؟ قلت: معناه، ولئن نصروهم على سبيل الفرض والتقدير.. كقوله لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وكما يعلم-سبحانه-ما يكون فهو يعلم ما لا يكون.

والمعنى: ولئن نصر المنافقون اليهود لينهزمن المنافقون ثم لا ينصرون بعد ذلك. أى يهلكهم الله تعاليو لا ينفعهم نفاقهم، لظهور كفرهم، أو لينهزمن اليهود ثم لا ينفعهم نصر المنافقين لهم.

وفيه دليل على صحة النبوة لأنه إخبار بالغيب.. ا.هـ.

قوله تعالى: {لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ} [الحشر: ١٢]، أي:"لئن أُخرج اليهود من «المدينة» لا يخرج المنافقون معهم".

قال الطبري: يقول:"لئن أُخرج بنو النضير من ديارهم، فأَجْلوا عنها لا يخرج معهم المنافقون الذين وعدوهم الخروج من ديارهم".

قال السمعاني:"يعني: لئن أخرج اليهود لا يخرج معهم المنافقون".

قال النحاس:"أي: لئن أخرج بنو النضير لا يخرج المنافقون معهم، فخبر بالغيب، وكان الأمر على ذلك".

قوله تعالى: {وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ} [الحشر: ١٢]، أي:"ولئن قوتلوا لا يقاتلون معهم كما وَعَدوا".

قال الطبري: يقول: " ولئن قاتلهم محمد ﷺ لا ينصرهم المنافقون الذين وعدوهم النصر".

قال السمعاني:"أي: لئن قوتل اليهود لا ينصرهم المنافقون".

قال ابن كثير:"أي: لا يقاتلون معهم".

قوله تعالى: {وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ} [الحشر: ١٢]، أي:"ولئن قاتلوا معهم ليولُنَّ الأدبار فرارًا منهزمين، ثم لا ينصرهم الله، بل يخذلهم، ويُذِلُّهم".

=

=

قال الطبري: يقول: "ولئن نصر المنافقون بني النضير ليولُّنّ الأدبار منهزمين عن محمد ﷺ وأصحابه هاربين منهم، قد خذلوهم، ثم لا ينصر الله بني النضير على محمد ﷺ وأصحابه، بل يخذلهم".

قال ابن كثير: أي: " {وَلَئِنْ} قاتلوا معهم {لَيُوَلُّنَّ الأدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ} وهذه بشارة مستقلة بنفسها".

فإن قيل: كَيفَ قَالَ: {لَا ينصرونهم}، ثمَّ قَالَ {وَلَئِن نصروهم}، وَإِذا أخبر الله تَعَالَى أَنهم لَا ينصرونهم كَيفَ يجوز أَن ينصروهم؟ وَالْجَوَاب من وُجُوه:

أَحدهَا: أَن قَوْله: {لَا ينصرونهم} فِي قوم من الْمُنَافِقين، وَقَوله: {وَلَئِن نصروهم} أَي: فِي قوم آخَرين مِنْهُم، وهم الَّذين لم يَقُولُوا ذَلِك القَوْل.

الثاني: أَن قَوْله: {لَا ينصرونهم}، أَي: طائعين، وَقَوله: {وَلَئِن نصروهم} أَي: مكرهين.

الثالث: أَن قَوْله: {لَا ينصرونهم} أَي: لَا يدومون على نَصرهم. وَقَوله: {وَلَئِن نصروهم} أَي: نصروهم فِي الِابْتِدَاء.

الرابع: -كَمَا قَالَه الزّجاج-: هُوَ أَنهم لَا ينصرونهم على مَا قَالَ الله تَعَالَى، وَقَوله: {وَلَئِن نصروهم}، أَي: قصدُوا نصرتهم، لولوا الأدبار أَي: انْهَزمُوا، وَذَلِكَ بِمَا يلقِي الله تَعَالَى فِي قُلُوبهم من الرعب. وَقَوله: {ثمَّ لَا ينْصرُونَ} أَي: لَا ينصر الْيَهُود".

قال الزجاج:"قال أهل اللغة في هذا قولين: قالوا: معناه: أنهم لو تَعَاطَوْا نَصْرَهُمْ، أي: {ولئن نَصَرهُم} لئن نصرهم من بقي منهم {لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ} ".

وبعد أن بشر الله تعاليالمؤمنين بهزيمة أعدائهم أمامهم، أتبع ذلك ببشارة أخرى، وهي أن هؤلاء المنافقين وإخوانهم في الكفر، يخشون المؤمنين خشية شديدة، فقال-سبحانه-: (لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ....)

=

=

والرهبة: مصدر رهب، بمعنى خاف، يقال: رهب فلان فلانا، إذا خافه خوفا شديدا من داخل نفسه.. أى: لأنتم-أيها المؤمنون-أشد خوفا في نفوس هؤلاء المنافقين واليهود، من ربهم الذي خلقهم وأوجدهم.

وقوله: ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ تعليل لسبب جبنهم وخوفهم، واسم الإشارة يعود إلى كون المؤمنين أشد رهبة في صدور المنافقين واليهود من الله تعالى.

أى: أنتم أشد رهبة في قلوبهم من الله تعالى: بسبب أنهم قوم لا يفقهون الحق، ولا يعلمون شيئا عن عظمة الله-سبحانه-وجلاله وقدرته..

والمقصود من هذه الآية الكريمة، تهوين أمر هؤلاء الأعداء في نفوس المؤمنين وبيان أن هؤلاء الأعداء قد بلغ الجبن والخور فيهم مبلغا كبيرا، لدرجة أن خشيتهم لكم، أشد من خشيتهم لله تعالى.

والتعبير بالرهبة للإشعار بأنها رهبة خفية لا يعلمها إلا الله تعاليوأن هؤلاء المنافقين واليهود، مهما تظاهروا أمام المؤمنين بالبأس والقوة. فهم في قرارة نفوسهم يخافون المؤمنين خوفا شديدا ...

قال صاحب الكشاف: رهبة مصدر رهب المبنى للمفعول، كأنه قيل أشد مرهوبية.

وقوله: فِي صُدُورِهِمْ دلالة على نفاقهم. يعنى: أنهم يظهرون لكم في العلانية خوف الله، وأنتم أهيب في صدورهم من الله تعالى.

فإن قلت: كأنهم كانوا يرهبون من الله حتى تكون رهبتهم منهم أشد؟.

قلت: معناه أن رهبتهم في السر منكم، أشد من رهبتهم من الله التي يظهرونها لكم. وكانوا يظهرون لهم رهبة شديدة من الله ... ا.هـ.

قوله تعالى: {لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ} [الحشر: ١٣]، أي:"لَخوفُ المنافقين وخشيتهم إياكم -أيها المؤمنون-أعظم وأشد في صدورهم من خوفهم

=

=

وخشيتهم من الله".

قال ابن عباس: "يريد هم منكم".

قال ابن عباس: "هم منكم أشد خوفًا منهم من الله".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أصحاب رسول الله ﷺ: لأنتم أيها المؤمنون أشدّ رهبة في صدور اليهود من بني النضير من الله، يقول: هم يرهبونهم أشدّ من رهبتهم من الله".

قال ابن كثير:"أي: يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله، كقوله: {إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً} [النساء: ٧٧]".

قال الفراء:"يقول: أنتم يا معشر المسلمين أهيب في صدورهم، يعني: بني النضير، من عذاب الله عندهم، وذلك أن بني النضير كانوا ذوي بأس، فقذف الله في قلوبهم الرعب من المسلمين، ونزل في ذلك: {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ}، ليقوى المسلمون عليهم".

قال القشيري:"أخبر-سبحانه-أن المسلمين أشدّ رهبة في صدورهم من الله، وذلك لقلّة يقينهم، وإعراض قلوبهم عن الله".

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} [الحشر: ١٣]، أي:"وذلك بسبب أنهم قوم لا يفقهون عظمة الله والإيمان به، ولا يرهبون عقابه".

قال ابن عباس: "من أجل أنهم قوم لا يفقهون عظمة الله".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: هذه الرهبة التي لكم في صدور هؤلاء اليهود التي هي أشدّ من رهبتهم من الله من أجل أنهم قوم لا يفقهون، قدر عظمة الله، فهم لذلك يستخفُّون بمعاصيه، ولا يرهبون عقابه قدر رهبته منكم".

قال النحاس:"أي: من أجل أنهم قوم لا يفقهون قدر عظمة الله جل وعز فهم يجترءون على معاصيه ولا يتخوفون عقابه".

=

=

قال السمعاني:"أي: لا يعلمون عظمة الله وقدرته فيخافون منه".

ثم يقرر-سبحانه-حقيقة أخرى، أيدتها التجارب والمشاهد الواقعية، فقال تعالى: لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ، بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ، تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى....

والآية الكريمة بدل اشتمال من التي قبلها، لأن شدة الخوف من المؤمنين جعلت اليهود وحلفاءهم، لا يقاتلون المسلمين، إلا من وراء الخنادق والحصون..

والجدر: جمع جدار، وهو بناء مرتفع يحتمي به من يقاتل من خلفه. وجَمِيعاً بمعنى مجتمعين كلهم..

أى: أن هؤلاء اليهود وحلفاءهم من المنافقين، لا يقاتلونكم مجتمعين كلهم في موطن من المواطن إلا في قرى محصنة بالخنادق وغيرها، أو يقاتلونكم من وراء الجدران التي يتسترون بها، لأنهم يعجزون عن مبارزتكم، وعن مواجهتكم وجها لوجه، لفرط رهبتهم منكم..

وقوله تعالى: بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ جملة مستأنفة، كأن قائلا قال: ولماذا لا يقاتلون المؤمنين إلا على هذه الصورة؟ فكان الجواب: بأسهم بينهم شديد. أى: عداوتهم فيما بينهم عداوة شديدة، بحيث لا يتفقون على رأى، وقوتهم يستعملونها فيما بينهم استعمالا واسعا، فإذا ما التقوا بكم تحولت هذه القوة إلى جبن وهلع..

قال صاحب الكشاف: يعنى أن البأس الشديد الذي يوصفون به، إنما هو فيما بينهم إذا اقتتلوا، ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة، لأن الشجاع يجبن والعزيز يذل، عند محاربة الله ورسوله.. ا.هـ.

وقوله تعالى: تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى استئناف آخر للإجابة عما يقال: من أنه كيف تكون عداوتهم فيما بينهم شديدة، ونحن نراهم متفقين؟.

فكان الجواب: ليس الأمر كما يظهر من حالهم من أن بينهم تضامنا وترابطا.. بل

=

=

الحق أنهم متدابرون مختلفون متباغضون.. وإن كانت ظواهرهم تدل على خلاف ذلك..

أى: تحسبهم أيها الناظر إليهم مؤتلفين.. والحال أن قلوبهم متفرقة، ومنازعهم مختلفة وبواطنهم تباين ظواهرهم.. وما دام الأمر كذلك فلا تبالوا بهم -أيها المؤمنون-، بل أغلظوا عليهم، وجاهدوهم بكل قوة وجسارة..

واسم الإشارة في قوله: ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ يعود إلى ما سبق ذكره، من شدة عداوتهم فيما بينهم، ومن مخالفة بواطنهم لظواهرهم.

أى: ذلك الذي ذكرناه لكم من شدة بأسهم فيما بينهم، ومن مخالفة بواطنهم لظواهرهم، سببه أنهم قوم لا يعقلون الحق والهدى والرشاد.. وإنما هم ينساقون وراء أهوائهم بدافع من الأحقاد والمطامع والشهوات، بدون إدراك لعواقب الأمور، أو للفهم الصحيح.

قوله تعالى: {لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ} [الحشر: ١٤]، أي:"لا يواجهكم اليهود بقتال مجتمعين إلا في قرى محصنة بالأسوار والخنادق، أو من خلف الحيطان التي يتسترون بها؛ لجبنهم وللرعب الذي تمكن من قلوبهم".

قال الطبري: " يقول جلّ ثناؤه: يقاتلكم هؤلاء اليهود بني النضير مجتمعين إلا في قرى محصنة بالحصون، لا يبرزون لكم بالبراز، أو من خلف حيطان".

قال القشيري:"أخبر أنهم لا يجسرون على مقاتلة المسلمين إلّا مخاتلة، أو من وراء جدران".

قال السمعاني:"يعني: أنهم لا يمكنهم أن يصافوكم في القتال ويواجهوكم به، وإنما يقاتلونكم في الحصون ووراء الجدر لقتلهم ودخول الرعب عليهم".

قال ابن كثير:"يعني: أنهم من جُبنهم وهَلَعهم لا يقدرون على مواجهة جيش

=

=

الإسلام بالمبارزة والمقابلة بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة".

وقرئت: «أَوْ مِنْ وَرَاءِ جِدَارٍ»، -على الوَاحِد -وقُرئت: بتسكين الدال.

قوله تعالى: {بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ} [الحشر: ١٤]، أي:"عداوتهم فيما بينهم شديدة".

قال الطبري: يقول:"عداوة بعض هؤلاء الكفار من اليهود بعضًا شديدة".

قال ابن كثير:"أي: عداوتهم فيما بينهم شديدة، كما قال: {وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ} [الأنعام: ٦٥]".

قال ابن أبي زمنين:"أي: إذا اجتمعوا قالوا: لنفعلن بمحمد كذا ولنفعلن به كذا".

قال مجاهد: "يعني" أنهم يقولون فيما بينهم: لنفعلن كذا ولنفعلن كذا".

قال القشيري:"وإنما يشتدّ بأسهم فيما بينهم، أي: إذا حارب بعضهم بعضا، فأمّا معكم... فلا".

قال ابن قتيبة:"البأس: الشدّة بالقتال".

قوله تعالى: {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى} [الحشر: ١٤]، أي:"تظن أنهم مجتمعون على كلمة واحدة، ولكن قلوبهم متفرقة".

قال الفراء:"{تَحْسَبُهُمْ}، يعنى: بنى النضير جميعا، وقلوبهم مختلفة".

قال الطبري: "يعني: المنافقين وأهل الكتاب، يقول: تظنهم مؤتلفين مجتمعة كلمتهم، وقلوبهم مختلفة لمعاداة بعضهم بعضًا".

قال ابن كثير:"أي: تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين، وهم مختلفون غاية الاختلاف".

قال ابن أبي زمنين:"أي: مفرقة في قتالكم".

قال الزجاج:"أي: مختلفون لا تستوي قلوبهم ولا يتعاونون بِنيات مُجْتَمِعَة لأن الله

=

=

-ﷻ-ناصر حزبه وخاذِل أعدائِه".

قال السمعاني:"يعني: أن المنافقين قط لا يخلصون لليهود، ولا اليهود للمنافقين".

قال إبراهيم النخعي: يعني: "المنافقون، وأهل الكتاب". وروي عن أبي مِجْلَز مثله.

عن مجاهد، قوله: " {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى}، قال: المنافقون يخالف دينهم دين النضير".

قال مجاهد:"هم المنافقون وأهل الكتاب". وفي رواية:"المشركون وأهل الكتاب".

قال قتادة:"تجد أهل الباطل مختلفة شهادتهم، مختلفة أهواؤهم، مختلفة أعمالهم، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحقّ".

عن علي بن أبي طالب، قال: "المؤمنون بعضهم لبعض نصحاء وادّون، وإن افترقت منازلهم، والفَجَرة بعضهم لبعض غَشَشة خَوَنة، وإن اجتمعت أبدانهم".

قال سهل:"أهل الحق مجتمعون، وأهل الباطل متفرقون أبداً، وإن اجتمعوا في أبدانهم وتوافقوا في الظاهر، فإن الله تعالى يقول في كتابه العزيز: {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى}".

قال القشيري:"اجتماع النفوس-مع تنافر القلوب واختلافها-أصل كلّ فساد، وموجب كلّ تخاذل، ومقتضى تجاسر العدوّ، واتفاق القلوب والاشتراك في الهمّة والتساوي في القصد يوجب كلّ ظفر وكلّ سعادة.. ولا يكون ذلك للأعداء قطّ فليس فيهم إلا اختلال كلّ حال، وانتقاض كلّ شمل".

وفي قراءة عبد الله: «وقلوبهم أشتُّ»، بمعنى: أشدّ تشتتًا، أي: أشدّ اختلافًا.

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ} [الحشر: ١٤]، أي:"وذلك بسبب أنهم

=

=

قوم لا يعقلون أمر الله ولا يتدبرون آياته".

قال الطبري: " يقول جلّ ثناؤه: هذا الذي وصفت لكم من أمر هؤلاء اليهود والمنافقين، وذلك تشتيت أهوائهم، ومعاداة بعضهم بعضًا من أجل أنهم قوم لا يعقلون ما فيه الحظّ لهم مما فيه عليهم البخس والنقص".

قال السمعاني:"أي: لا يتدبرون بعقولهم، فهم بمنزلة من لا عقل له".

قال الخطيب الإسكافي:"وأما قوله:: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ}، فإنه بعد قوله: {جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى}، ومعناه: لا يجمعهم الحق على طريقة واحدة، بل هم أتباع أهوائهم فهم مختلفون باختلاف آرائهم، ولو عقلوا الرشد من الغيّ، لاجتمعوا على الحق فاختلافهم لأنهم لا يعقلون ما يدعو إلى طاعة الله ويهدي إلى ما قال الله: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ... } [الأنعام: ١٥٣]، فالحق سبيل واحد مستقيم، والباطل سبل كثيرة تحمل عليها أهواء متشعبة، فقد بان لك أنّ كلاّ من الخاتمتين ختم بما يقتضيه".

ثم ساق–سبحانه–مثلين زيادة في تثبيت المؤمنين، وفي التهوين من شأن أعدائهم فقال تعالى: (كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ).

وقوله: كَمَثَلِ ... خبر لمبتدأ محذوف. والمراد بالذين من قبلهم: يهود بنى قينقاع، وكفار قريش الذين حل بهم ما حل من هزائم في غزوة بدر.

والوبال: المرعى الضار الذي ترعاه الماشية، دون أن تدرك سوء عاقبته.

أى: مثل هؤلاء اليهود والمنافقين، وحالهم العجيبة.. كمثل الذين من قبلهم، وهم يهود بنى قينقاع، الذين أخرجوا من المدينة بسبب غدرهم، وكان خروجهم قبل خروج بنى النضير بزمن ليس بالطويل، وكمثل مشركي قريش الذين حلت بهم الهزيمة في غزوة بدر، فإن هؤلاء وهؤلاء قد ذاقوا في الدنيا سوء عاقبة كفرهم بدون

=

=

إمهال.. أما في الآخرة فلهم عذاب شديد الألم والإهانة.

ووجه الشبه بين السابقين واللاحقين، أن الجميع قد اغتروا بمالهم وقوتهم، فتطاولوا على المؤمنين، ونقضوا عهودهم معهم.. فكانت عاقبتهم جميعا أن أذلهم الله تعاليفي الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى..

قوله تعالى: {كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا} [الحشر: ١٥]، أي:"مثل هؤلاء اليهود فيما حلَّ بهم من عقوبة الله كمثل كفار قريش يوم «بدر»، ويهود بني قينقاع".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: مثل هؤلاء اليهود من بني النضير والمنافقين فيما الله صانع بهم من إحلال عقوبته بهم {كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}، يقول: كشبههم".

وفي قوله تعالى: {كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا} [الحشر: ١٥]، أقوال:

أحدها: أنهم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر، فإنهم قبلهم ومثل لهم في أن غلبوا وقهروا. قاله مجاهد، وقتادة، والسدي، ومقاتل.

قال الزجاج:"مثل ما نال أهل بَدْر".

قال مقاتل:"يعنى: قبل أهل بدر، كان قبل ذلك بستين".

قال الواحدي:"وكان ذلك قبل غزوة بني النضير بستة أشهر".

قال الزمخشري:"أي: مثلهم كمثل أهل بدر في زمان قريب".

الثاني: أنهم بنو النضير الذين أجلوا من الحجاز إلى الشام، قاله قتادة.

الثالث: أنهم بنو قريظة، كان قبلهم إجلاء بني النضير. حكاه الماوردي.

الرابع: أنهم بنو قينُقاع، لأن النبي ﷺ أجلاهم عن المدينة قبل بني النضير وكانوا مثلا لهم. قاله ابن عباس، وقتادة، وابن إسحاق، وبه قال ابن كثير.

قال ابن كثير:"وهذا القول أشبه بالصواب، فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا".

الخامس: أنهم منافقوا الأمم المتقدمة، وذلك أنهم غلبوا ونالتهم الذلة على وجه

=

=

الدهر فهم مثل لهؤلاء. حكاه ابن عطية.

قال ابن عطية:"ولكن قوله: {قَرِيباً}، إما أن يكون في زمن موسى وإلا فالتأويل المذكور يضعف، إلا أن تجعل قَرِيباً ظرفا للذوق، فيكون التقدير: «ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ قَرِيباً» من عصيانهم وبحدثانه، ولا يكون المعنى أن المثل قريب في الزمن من الممثل له".

قال النحاس:"اختلف أهل التأويل في الذين من قبلهم، هاهنا، فقال ابن عباس: هم بنو قينقاع، وقال مجاهد: هم أهل بدر، والصواب أن يقال في هذا: إن الآية عامة، وهؤلاء جميعًا ممن كان قبلهم".

قال الطبري:"وأولى الأقوال بالصواب إن يقال: إن الله ﷻ مثل هؤلاء الكفار من أهل الكتاب مما هو مذيقهم من نكاله بالذين من قبلهم من مكذّبي رسوله ﷺ، الذين أهلكهم بسخطه، وأمر بني قينقاع ووقعة بدر، كانا قبل، جلاء بني النضير، وكلّ أولئك قد ذاقوا وبال أمرهم، ولم يخصص الله ﷻ منهم بعضًا في تمثيل هؤلاء بهم دون بعض، وكلّ ذائق وبال أمره، فمن قربت مدته منهم قبلهم، فهم ممثلون بهم فيما عُنُوا به من المثل".

قوله تعالى: {ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ} [الحشر: ١٥]، أي:"حيث ذاقوا سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ في الدنيا".

قال الطبري:"يقول: نالهم عقاب الله على كفرهم به".

قال الزمخشري: أي:"سوء عاقبة كفرهم وعداوتهم لرسول الله ﷺ. من قولهم: كلأ وبيل: وخيم سيئ العاقبة، يعنى: ذاقوا عذاب القتل في الدنيا".

قال مجاهد: يعني: «كفار قريش يوم بدر».

قوله تعالى: {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [الحشر: ١٥]، أي:"ولهم في الآخرة عذاب أليم موجع".

=

=

قال الطبري:"يقول: ولهم في الآخرة مع ما نالهم في الدنيا من الخزي عذاب أليم، يعني: موجع".

قال الزمخشري: أي:"في الآخرة عذاب النار".

قال أبو العالية:"الأليم: الموجع في القرآن كله"، وروي عن سعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وقتادة، وأبي عمران الجوني، نحو ذلك.

وأما المثل الثاني فيتجلى في قوله تعالى: (كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ، فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ ...).

أى: مثل المنافقين في تزيينهم الشر والفساد ليهود بنى النضير.. كمثل الشيطان إذ قال للإنسان في الدنيا اكفر بالله تعاليفلما كفر ذلك الإنسان ومات على الكفر، وبعث يوم القيامة، ووجد مصيره السيئ.. ندم وألقى التبعة على الشيطان الذي قال له: إنى برىء منك ومن كفرك، إنى أخاف الله رب العالمين، ووجه الشبه: أن المنافقين تبرأوا من معاونتهم ومن مناصرتهم.. عند ما حانت ساعة الجد ... كما يتبرأ الشيطان من كفر الكافر يوم القيامة.

وقوله-سبحانه-: فَكانَ عاقِبَتَهُما أَنَّهُما فِي النَّارِ خالِدَيْنِ فِيها.. من تمام المثل الذي ضربه الله تعاليللمنافقين واليهود.

أى: فكان عاقبة ذلك الشيطان وذلك الإنسان، أنهما في النار، حالة كونهما خالدين فيها خلودا أبديا، وكذلك حال المنافقين واليهود ...

وَذلِكَ الخلود في النار جَزاءُ الظَّالِمِينَ الذين تجاوزوا حدود الله تعاليوحاربوا أولياءه-سبحانه-.

والمراد بالشيطان والإنسان جنسهما، وقد ذكر بعضهم هنا قصصا تدل على أن المراد بالإنسان شخص معين، وقد أضربنا عنها صفحا لضعفها.

وبذلك ترى أن هذه الآيات الكريمة قد ذمت المنافقين واليهود ذما شنيعا،

=

وأضعفت من شأنهم، وساقت لهم من الأمثلة ما يجعل المؤمنين يستخفون بهم، ويجاهدونهم بغلظة وشدة.

قوله تعالى: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ} [الحشر: ١٦]، أي: "ومثل هؤلاء المنافقين في إغراء اليهود على القتال ووَعْدهم بالنصر على رسول الله ﷺ، كمثل الشيطان حين زيَّن للإنسان الكفر ودعاه إليه".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: مثل هؤلاء المنافقين الذين وعدوا اليهود من النضير، النصرة إن قوتلوا، أو الخروج معهم إن أُخرجوا، ومثل النضير في غرورهم إياهم بإخلافهم الوعد، وإسلامهم إياهم عند شدّة حاجتهم إليهم، وإلى نُصرتهم إياهم، كمثل الشيطان الذي غرّ إنْسانًا، ووعده على اتباعه وكفره بالله، النصرة عند الحاجة إليه، فكفر بالله واتبعه وأطاعه".

قال الزمخشري: أي: "مثل المنافقين في إغرائهم اليهود على القتال ووعدهم إياهم النصر، ثم متاركتهم لهم وإخلافهم {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ}، إذا استغوى الإنسان بكيده ثم تبرأ منه في العاقبة، والمراد استغواؤه قريشا يوم بدر، وقوله لهم: {لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ} [الأنفال: ٤٨]، إلى قوله: {إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ} [الأنفال: ٤٨]".

قال ابن كثير: "يعني: مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين، وقول المنافقين لهم: {وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ} ثم لما حقت الحقائق وجَدَّ بهم الحصار والقتال، تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة، مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سول للإنسان -والعياذ بالله- الكفر".

قال السعدي: "ومثل هؤلاء المنافقين الذين غروا إخوانهم من أهل الكتاب {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ للإِنْسَانِ اكْفُرْ} أي: زين له الكفر وحسنه ودعاه إليه".

وفي قوله تعالى: {كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ} [الحشر: ١٦]، قولان:

=

أحدهما: أنه مَثَلٌ ضربه الله تعالى للكافر في طاعة الشيطان، وهو عام في جميع الناس، قاله مجاهد.

عن مجاهد بن جبر -من طريق ابن أبي نجيح-:"{كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ}، قال: عامة الناس".

قال ابن عطية:"ذهب مجاهد وجمهور من المتأولين إلى أن «الشيطان» و «الإنسان» في هذه الآية أسماء جنس لأن العرف أن يعمل هذا شياطين بناس كما يغوي الشيطان الإنسان ثم يفر منه بعد أن يورطه، كذلك أغوى المنافقون بني النضير وحرضوهم على الثبوت ووعدوهم النصر، فلما نشب بنو النضير وكشفوا عن وجوههم تركهم المنافقون في أسوأ حال".

الثاني: أنه مثل ضربه الله تعالى لشخص معين، وعلى هذا جمهور المفسرين. وهذا شرح قصته:

ذكر أهل التفسير:"أن عابداً من بني إسرائيل كان يقال له: برصيصا تعبَّد في صومعةٍ له أربعين سنة لا يقدر عليه الشيطان، فجمع إبليس يومـًا مردة الشياطين، فقال: ألا أحدٌ منكم يكفيني برصيصا، فقال: الأبيض، وهو صاحب الأنبياء: أنا أكفيكه، فانطلق على صفة الرّهبان، فأتى صومعته، فناداه فلم يجبه، وكان لا ينفتل عن صلاته إلا في كل عشرة أيام، ولا يفطر إلا في كل عشرة أيام، فلما رأى أنه لا يجيبه أقبل على العبادة في أصل صومعته، فلما انفتل برصيصا، اطَّلع فرآه منتصبـًا يصلي على هيئة حسنة، فناداه: ما حاجتك؟ فقال: إني أحببت أن أكون معك، أقتبس من عملك، وأتأدَّب بأدبك، ونجتمع على العبادة، فقال برصيصا: إني لفي شغل عنك، ثم أقبل على صلاته، وأقبل الأبيض يصلي، فلم يُقْبِلْ إليه برصيصا أربعين يومـًا، ثم انفتل، فرآه يصلي، فلما رأى شدة اجتهاده قال: ما حاجتك؟ فأعاد عليه القول، فأذن له، فصعِد إليه، فأقام معه حولاً لا يفطر إلا كل أربعين

=

=

يوماً، ولا ينفتل من صلاته إلا في كل أربعين يوماً، وربما زاد على ذلك، فلما رأى برصيصا اجتهاده، أعجبه شأنه وتقاصرت إليه نفسه، فلما حال الحول قال الأبيض لبرصيصا: إني منطلق عنك، فإن لي صاحباً غيرك ظننت أنك أشد اجتهاداً مما أرى، وكان يبلغنا عنك غير الذي أرى، فاشتد ذلك على برصيصا، وكره مفارقته، فلما ودَّعه قال له الأبيض: إن عندي دَعَوَاتٍ أعلمكها، يشفي الله بها السقيم، ويعافي بها المبتلي، فقال برصيصا: إني أكره هذه المنزلة، لأن لي في نفسي شغلاً، فأخاف أن يعلم الناس بهذا، فيشغلوني عن العبادة. فلم يزل به حتى علمه إياها، ثم انطلق إلى إبليس فقال: قد والله أهلكتُ الرجل، فانطلق الأبيض، فتعرَّض لرجل فخنقه، ثم جاءه في صورة رجل متطبِّب، فقال لأهله: إن بصاحبكم جنوناً فأعالجه؟ قالوا: نعم، فقال لهم: إني لا أقوى على جنِّيِّه، ولكن سأرشدكم إلى من يدعو له فيعافى فقالوا له: دلّنا. فقال: انطلقوا إلى برصيصا العابد فإن عنده اسم الله الأعظم، فانطلقوا إليه فسألوه فدعا بتلك الكلمات، فذهب عنه الشيطان، وكان الأبيض يفعل بالناس ذلك، ثم يرشدهم إلى برصيصا، فيُعافَوْن، فلما طال ذلك عليه انطلق إلى جارية من بنات ملوك إسرائيل، لها ثلاثة إخوة، فخنقها، ثم جاء إليهم في صورة متطبِّب، فقال: أعالجها؟ قالوا: نعم. قال: إن الذي عرض لها مارد لا يطاق، ولكن سأرشدكم إلى رجل تَدَعونها عنده، فإذا جاء شيطانها دعا لها، قالوا: ومن هو؟ قال: برصيصا، قالوا: وكيف لنا أن يقبلها منَّا، وهو أعظم شأناً من ذلك؟! قال: إن قبلها، وإلا فضعوها في صومعته، وقولوا له: هي أمانة عندك، فانطلقوا اليه، فأبى عليهم، فوضعوها عنده. وفي بعض الروايات أنه قال: ضعوها في ذلك الغار، وهو غار إلى جنب صومعته، فوضعوها، فجاء الشيطان فقال له: انزل إليها فامسحها بيدك تعافى، وتنصرف إلى أهلها، فنزل، فلما دنا إلى باب الغار دخل الشيطان فيها، فإذا هي تركض، فسقطت عنها ثيابها، فنظر العابد إلى شيء لم

=

=

يـر مثلـه حسنـًا وجمـالاً، فلـم يتمالـك أن وقـع عليهـا، وضـرب علـى أذنـه، فجعـل يختلف اليها إلى أن حملت، فقال له الشيطان: ويحك يـا برصيصا قـد افتُضحت، فهل لك أن تقتل هذه وتتوب؟! فإن سألوك عنها قلت: جـاء شيطانها، فـذهب بهـا، فلم يزل به حتى قتلها، ودفنها، ثم رجع إلـى صـومعته، فأقبـل علـى صـلاته إذ جـاء إخوتها يسألون عنها، فقالوا: يا برصيصا! مـا فعلـت أختنـا؟ قـال: قـد جـاء شـيطانها فذهب بها، ولـم أطقه، فصدَّقوه، وانصرفوا. وفي بعـض الروايات أنـه قـال: دعـوت لهـا، فعافاهـا الله، ورجعـتْ الـيكم، فتفرَّقـوا ينظـرون لهـا أثـراً، فلمـا أمـسَوْا جـاء الشيطان إلى كبيرهم في منامه، فقال: ويحك: إن برصيصا فعل بأختك كـذا وكـذا، وإنه دفنها في موضع كذا من جبل كذا، فقال: هذا حلم، وبرصيصا خيـر مـن ذلـك، فتتـابع عليـه ثـلاث ليـال، وهـو لا يكـترث، فـانطلق إلـى الأوسـط كـذلك، ثـم إلـى الأصغر، بمثل ذلك، فقال الأصغر لإخوته: لقد رأيـت كـذا وكـذا، فقـال الأوسـط: وأنا والله، فقال الأكبر: وأنا والله، فأتوا برصيصا، فسألوه عنها، فقال: قـد أعلمـتكم بحالهــا، فكــأنكم اتّهمتمــوني، فقــالوا: لا والله واســتحيَوْا، وانــصرفوا، فجــاءهم الشيطان فقال: ويحكم إنها لمدفونة في موضع كـذا وكـذا، وإن إزارهـا لخـارج مـن الـتراب، فـانطلقوا، فحفـروا عنهـا، فرأوهـا، فقـالوا: يـا عـدوَّ الله لـم قتلتهـا؟ اهـبط، فهدموا صومعته، ثم أوثقوه، وجعلوا في عنقه حبلاً، ثم قادوه إلى الملك فأقرّ علـى نفسه، وذلك أنّ الشيطان عرض له، فقال: تقتلها ثم تكـابر، فـاعترف، فـأمر الملـك بِقَتْلِهِ وصَلْبِهِ، فعرض له الأبيض، فقال: أتعرفني؟ قال: لا، قال: أنا صاحبك الـذي علَّمتك الدعوات، ويحك مـا اتَّقيـت الله في أمانـة خنـت أهلهـا، أمـا اسـتحيَيْتَ مـن الله؟! ألم يكفك ذلك حتى أقررت ففضحت نفسك وأشباهك بـين النـاس؟! فـإن مِتَّ على هذه الحالة لم تفلـح، ولا أحـدٌ مـن نظرائـك، قـال: فكيـف أصـنع؟ قـال: تطيعني في خصلة حتى أُنجيك، وآخـذ بـأعينهم، وأُخرجـك مـن مكانـك، قـال: مـا

=

=

هي؟ قال: تسجد لي، فسجد له، فقال: هذا الذي أردت منك، صارت عاقبة أمرك أن كفرت إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ ثم قتل. فضرب الله هذا المثل لليهود حتى غرّهم المنافقون، ثم أسلموهم".

وردت هذه القصة عن ابن عباس موقوفا: أخرجه الطبري وابن أبي حاتم، وإسناده واه، فيه مجاهيل: وعطية العوفي واه. وورد عن علي، أخرجه الطبري وإسناده حسن. وورد عن ابن مسعود، أخرجه الطبري وإسناده ضعيف. وورد من وجوه متعددة، ومصدر ذلك كله كتب الأقدمين، والله تعالى أعلم.

قال ابن عطية -معلقا على القول الثاني-:"وهذا كله حديث ضعيف، والتأويل الأول هو وجه الكلام".

قال ابن كثير:"ذكر بعضهم هاهنا قصة لبعض عباد بني إسرائيل هي كالمثال لهذا المثل، لا أنها المرادة وحدها بالمثل، بل هي منه مع غيرها من الوقائع المشاكله لها.. واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو برصيصا، والله أعلم. وهذه القصة مخالفة لقصة جُرَيج العابد، فإن جريجًا اتهمته امرأة بَغي بنفسها، وادعت أن حَملها منه، ورفعت أمره إلى ولي الأمر، فأمر به فأنزل من صومعته وخُربت صومعته وهو يقول: ما لكم؟ ما لكم؟ فقالوا: يا عدو الله، فعلت بهذه المرأة كذا وكذا. فقال: جريج: اصبروا. ثم أخذ ابنها وهو صغير جدًا ثم قال: يا غلام، من أبوك؟ قال أبي الراعي -وكانت قد أمكنته من نفسها فحملت منه -فلما رأى بنو إسرائيل ذلك عظموه كلهم تعظيمًا بليغًا وقالوا: نعيد صومعتك من ذهب. قال: لا بل أعيدوها من طين، كما كانت".

قوله تعالى: {فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ} [الحشر: ١٦]، أي:"فلما كفر الإنسان، تبرأ منه الشيطان".

قال الطبري:"فلما احتاج إلى نُصرته أسلمه وتبرأ منه".

=

=

قال ابن كثير:"فإذا دخل فيما سوله تبرأ منه وتنصل، وقال: {إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ}".

قال السعدي:"فلما اغتر به وكفر، وحصل له الشقاء، لم ينفعه الشيطان، الذي تولاه ودعاه إلى ما دعاه إليه، بل تبرأ منه".

قوله تعالى: {إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الحشر: ١٦]، أي:"إني أخاف الله رب الخلق أجمعين".

قال الطبري:"وقال له: {إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ} في نُصرتك".

قال السعدي:"أي: ليس لي قدرة على دفع العذاب عنك، ولست بمغن عنك مثقال ذرة من الخير".

قال ابن عطية:"قول الشيطان: {إِنِّي أَخافُ اللهَ}، رياء من قوله وليست على ذلك عقيدته، ولا يعرف الله حق معرفته ولا يحجزه خوفه عن سوء يوقع فيه ابن آدم من أول إلا آخر".

قوله تعالى: {فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا} [الحشر: ١٧]، أي:"فكان عاقبة أمر الشيطان والإنسان الذي أطاعه فكفر، أنهما في النار، ماكثَيْن فيها أبدًا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فكان عُقبى أمر الشيطان والإنسان الذي أطاعه، فكفر بالله أنهما خالدان في النار ماكثان فيها أبدًا".

قال ابن كثير:"أي: فكانت عاقبة الآمر بالكفر والفاعل له، وتصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها".

قال السعدي:"أي: الداعي الذي هو الشيطان، والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه".

عن سليمان بن مهران الأعمش، أنه كان يقرأ: (فَكانَ عاقِبَتَهُمَآ أَنَّهُما فِي النّارِ

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ

=

خالِدانِ فِيها). وهي قراءة ابن مسعود: «خالدان فيها»، على أنه خبر «أنّ».

قوله تعالى: {وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ} [الحشر: ١٧]، أي:"وذلك جزاء المعتدين المتجاوزين حدود الله".

قال الطبري:"يقول: وذلك ثواب اليهود من النضير والمنافقين الذين وعدوهم النصرة، وكلُّ كافر بالله ظالم لنفسه على كفره به أنهم في النار مخلَّدون".

قال ابن كثير: "أي: جزاء كل ظالم".

قال السعدي:"الذين اشتركوا في الظلم والكفر، وإن اختلفوا في شدة العذاب وقوته، وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه، فإنه يدعوهم ويدليهم إلى ما يضرهم بغرور، حتى إذا وقعوا في الشباك، وحاقت بهم أسباب الهلاك، تبرأ منهم وتخلى عنهم. واللوم كل اللوم على من أطاعه، فإن الله قد حذر منه وأنذر، وأخبر بمقاصده وغايته ونهايته، فالمقدم على طاعته، عاص على بصيرة لا عذر له".

قال ابن عباس في الآية:"ضرب الله هذا المَثل ليهود بني النَّضِير والمنافقين من أهل المدينة، وذلك أنّ الله -عَجَّلَ- أمر نبيّه ﷺ بإجلاء بني النَّضِير عن المدينة، فدسّ المنافقون إليهم، وقالوا: لا تُجيبوا محمدًا إلى ما دعاكم، ولا تَخرجوا من دياركم، فإن قاتَلكم فإنّا معكم، وإنْ أخرجكم خَرجنا معكم. فأجابوهم، فدَرّبوا على حُصونهم، وتحصّنوا في ديارهم رجاء نصْر المنافقين، حتى جاءهم النبيُّ ﷺ، فناصبُوه الحرب يَرجُون نصْر المنافقين، فخذلوهم، وتبرّءوا منهم كما تبرّأ الشيطان مِن برصيصا وخذله، فكان عاقبة الفريقين النار، قال عبد الله بن عباس؟: فكان الرّهبان بعد ذلك في بني إسرائيل لا يمشُون إلا بالتّقيّة والكتمان، وطمع أهل الفسوق والفجور في الأحبار، ورَمَوهم بالبهتان والقبيح، حتى كان أمر جريج الراهب، فلما برّأه الله مما رَمَوه به انبسَطت بعده الرّهبان، وظهروا للناس".

بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَلْتَنْظُرْ نفس ما قدمت لغد} ليوم القيامة {وَاتَّقُوا الله إنَّ الله خَبِير بِمَا تَعْمَلُونَ}.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩).

{وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا الله} تَرَكُوا طَاعَته {فأنساهم أنفسهم} أن يقدموا لها خيرا {أولئك هم الفاسقون}.

لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)

{لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون}.

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١).

{لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآن عَلَى جَبَل} وَجُعِلَ فِيهِ تَمْيِيز كَالْإِنْسَانِ {لَرَأَيْته خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا} مُتَشَقِّقًا {مِنْ خَشْيَة الله وَتِلْكَ الْأَمْثَال} الْمَذْكُورَة {نَضْرِبهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} فَيُؤْمِنُونَ[1].

---

(١) قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ) المراد بالغد: يوم القيامة.

أى: يا من آمنتم بالله تعاليحق الإيمان اتَّقُوا اللهَ أى صونوا أنفسكم عن كل ما يغضب الله تعالى، وراقبوه في السر والعلن. وقفوا عند حدوده فلا تتجاوزوها.

وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ أى: ولتنظر كل نفس، ولتتأمل في الأعمال التي عملتها في الدنيا. والتي ستحاسب عليها في يوم القيامة، فإن كانت خيرا ازدادت منها، وإن كانت غير ذلك أقلعت عنها.

وعبر -سبحانه- عن يوم القيامة بالغد، للإشعار بقربه، وأنه آت لا ريب فيه، كما =

=

يأتي اليوم الذي يلي يومك. والعرب تخبر عن المستقبل القريب بالغد كما في قول الشاعر:

فإن يك صدر هذا اليوم ولى ... فإن غدا لناظره قريب

وقال-سبحانه-: وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ لإفادة العموم، أى: كل نفس عليها أن تنظر نظرة محاسبة ومراجعة في أعمالها بحيث لا تقدم إلا على ما كان صالحا منها.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: ما معنى تنكير النفس والغد؟ قلت: أما تنكير النفس فاستقلالا للأنفس النواظر فيما قدمت للآخرة، كأنه قيل: ولتنظر نفس واحدة في ذلك، وأما تنكير الغد، فلتعظيمه وإبهام أمره، كأنه قيل: لغد لا يعرف كنهه لعظمه.

وعن مالك بن دينار: مكتوب على باب الجنة: وجدنا ما عملنا، وربحنا ما قدمنا، وخسرنا ما خلفنا ا.هـ.

وكرر-سبحانه-الأمر بالتقوى فقال: واتَّقُوا اللهَ للتأكيد. أى: اتقوا الله بأن تؤدوا ما كلفكم به من واجبات، وبأن تجتنبوا ما نهاكم عنه من سيئات.

وقوله-سبحانه-: إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ تعليل للحض على التقوى أى: اتقوه في كل ما تأتون وما تذرون، لأنه تعاليلا تخفى عليه خافية من أعمالكم، بل هو-سبحانه-محيط بها إحاطة تامة، وسيجازيكم عليها بما تستحقون يوم القيامة.

وقد جاء الأمر بتقوى الله تعاليفي عشرات الآيات من القرآن الكريم، لأن تقوى الله تعاليهي جماع كل خير، وملاك كل بر.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الحشر: ١٨]، أي:"يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدّقوا الله ووحدوه".

عن خيثمة قال: "ما تقرؤون في القرآن: {يا أيها الذين آمنوا}، فإنه في التوراة: «يا

=

=

أيها المساكين»".

قوله تعالى: {اتَّقُوا اللهَ} [الحشر: ١٨]، أي:"خافوا الله، واحذروا عقابه بفعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه".

قال محمد بن إسحاق: {واتقوا الله}، أي: أطيعوا الله".

قال الطبري: يقول:"اتقوا الله بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه".

قال ابن كثير:"أمر بتقواه، وهي تشمل فعل ما به أمر، وترك ما عنه زجر".

قال السعدي:"يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه، سرا وعلانية، في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم، واهتموا بالمقام بها، اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضا، أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه ولا يهملها، أوجب لهم الجد والاجتهاد. وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها، فإن رأى زللا تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصرا في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة".

قوله تعالى: {وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ} [الحشر: ١٨]، أي:"ولتتدبر كل نفس ما قدمت من الأعمال ليوم القيامة".

قال الطبري:"يقول: ولينظر أحدكم ما قدّم ليوم القيامة من الأعمال، أمن الصالحات التي تنجيه أم من السيئات التي توبقه؟".

=

=

قال ابن كثير:"أي: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم".

قال الزمخشري:"الغد: يوم القيامة، سماه باليوم الذي يلي يومك تقريبا له، وقيل: عبر عن الآخرة بالغد كأن الدنيا والآخرة نهاران: يوم وغد، وتنكير الغد فلتعظيمه وإبهام أمره، كأنه قيل: لغد لا يعرف كنهه لعظمه".

عن قتادة والضحاك: " {وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ}، يعني: يوم القيامة".

قال قتادة:"ما زال ربكم يقرّب الساعة حتى جعلها كغد، و «غدٌ»: يوم القيامة".

قال الحسن:"لم يزل يقربه حتى جعله كالغد".

قال ابن زيد:"يعني: يوم القيامة الخير والشرّ؛ قال: والأمس في الدنيا، وغدٌ في الآخرة، وقرأ: {كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ}، قال: كأن لم تكن في الدنيا".

عن مالك بن دينار: "مكتوب على باب الجنة: وجدنا ما عملنا، ربحنا ما قدّمنا. خسرنا ما خلفنا".

قوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللهَ} [الحشر: ١٨]، أي:"وخافوا الله في كل ما تأتون وما تَذَرون".

قال الطبري:"يقول: وخافوا الله بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه".

قال ابن كثير:"{وَاتَّقُوا اللهَ} تأكيد ثان".

قال الزمخشري:"كرر الأمر بالتقوى تأكيدا: واتقوا الله في أداء الواجبات لأنه قرن بما هو عمل، واتقوا الله في ترك المعاصي لأنه قرن بما يجرى مجرى الوعيد".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحشر: ١٨]، أي:"إن الله سبحانه خبير بما تعملون، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، وهو مجازيكم عليها".

عن قتادة، قوله: " {خَبِيرٌ}، قال: " خبير بخلقه".

قال الطبري:"يقول: إن الله ذو خبرة وعلم بأعمالكم خيرها وشرّها، لا يخفى عليه

=

منها شيء، وهو مجازيكم على جميعها".

قال ابن كثير:"أي: اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير".

عن المنذر ابن جرير، عن أبيه قال: "كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حُفَاة عُراة مُجْتَابي النمار -أو: العَبَاء -مُتَقَلِّدي السيوف عامتهم من مُضَر، بل كلهم من مضر، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، قال: فدخل ثم خرج، فأمر بلالا فأذن وأقام الصلاة، فصلى ثم خطب، فقال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} إلى آخر الآية: {إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: ١]. وقرأ الآية التي في الحشر: {وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ} تَصَدَّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرِّه، من صاع تمره – حتى قال -: ولو بشق تمرة". قال: فجاء رجل من الأنصار بصُرة كادت كفه تَعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه كأنه مُذْهبة، فقال رسول الله ﷺ: "مَن سَنَّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن يَنقُص من أجورهم شيء، ومن سَنَّ في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وِزْرُها ووزر من عمل بها، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء".

وبعد هذا الأمر المؤكد بالتقوى، جاء النهى عن التشبه بمن خلت قلوبهم من التقوى، فقال تعالى: وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ....

أى: تمسكوا-أيها المؤمنون-بتقوى الله تعاليومراقبته والبعد عن كل مالا يرضيه. واحذروا أن تكونوا كأولئك الذين تركوا التكاليف التي كلفهم الله تعاليبها، فتركهم-سبحانه-إلى أنفسهم، بأن جعلهم ناسين لها، فلم يسعوا إلى ما ينفعها، بل سعوا فيما يضرها ويرديها.

=

فالمراد بالنسيان هنا: الترك والإهمال، والكلام على حذف مضاف. أى: نسوا حقوق الله تعاليوما أوجب عليهم من تكاليف.

والفاء في قوله: فَأَنْسَاهُمْ للسببية، أى: أن نسيانهم لما يجب عليهم نحو أنفسهم من تهذيب وتأديب.. كان سببه نسيانهم لما يجب عليهم نحو خالقهم من طاعته وخشيته.

ثم بين -سبحانه- سوء مصيرهم فقال: أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ أى: أولئك الذين تركوا ما يجب عليهم نحو خالقهم ونحو أنفسهم، هم الفاسقون عن أمره، الخارجون على شريعته ودينه، الخالدون يوم القيامة في العذاب المهين.

قوله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ} [الحشر: ١٩]، أي:"ولا تكونوا -أيها المؤمنون- كالذين تركوا أداء حق الله الذي أوجبه عليهم، فأنساهم بسبب ذلك حظوظ أنفسهم من الخيرات التي تنجيهم من عذاب يوم القيامة".

قال ابن عباس: "يريد: قريظة، والنضير، وبني قينقاع".

عن ابن عباس في قوله: " {نسوا الله}، يقول: تركوا الله".

عن السدي:"{نسوا الله}، قال: تركوا طاعة الله".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ولا تكونوا كالذين تركوا أداء حقّ الله الذي أوجبه عليهم، فأنساهم الله حظوظ أنفسهم من الخيرات".

قال ابن كثير:"أي: لا تنسوا ذكر الله فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التي تنفعكم في معادكم، فإن الجزاء من جنس العمل".

قال سفيان:"نَسُوا حقّ الله، {فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ}؛ قال: حظّ أنفسهم".

قال السعدي:"والحرمان كل الحرمان، أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوما نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها،

=

=

فلم ينجحوا، ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطا، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبنا، لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون، الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضعوا في معاصيه".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [الحشر: ١٩]، أي:"أولئك هم الموصوفون بالفسق، الخارجون عن طاعة الله طاعة ورسوله".

قال الطبري: يقول:"هؤلاء الذين نسوا الله، هم الفاسقون، يعني الخارجون من طاعة الله إلى معصيته".

قال ابن كثير:"أي: الخارجون عن طاعة الله، الهالكون يوم القيامة، الخاسرون يوم معادهم، كما قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المنافقون: ٩]".

عن نعيم بن نمحة، قال: "كان في خطبة أبي بكر رضي الله عنه: " أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم، فمن استطاع أن ينقضي الأجل وهو في عمل الله عز وجل فليفعل، ولن تنالوا ذلك إلا بالله عز وجل، إن قوما جعلوا آجالهم لغيرهم فنهاكم الله أن تكونوا أمثالهم: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ} [الحشر: ١٩]، أين من تعرفون من إخوانكم؟ قدموا ما قدموا في أيام سلفهم، وحلوا فيه بالشقوة، والسعادة، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحففوها بالحوائط، قد صاروا تحت الصخر والآبار، هذا كتاب الله عز وجل لا تفنى عجائبه فاستوصوا به، منه ليوم ظلمة وائتضحوا بسائه وبيانه، إن الله عز وجل أثنى على زكريا، وأهل بيته فقال: {كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ، وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: ٩٠] لا خير في قول لا يراد به وجه الله، ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله، ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم".

=

=

ثم حذر-سبحانه-المؤمنين من نسيان طاعته، وخشيته بأسلوب آخر فقال: (لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ، أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ....).

أى: لا يستوي في حكم الله تعاليوفي جزائه أَصْحابُ النَّارِ الذين استحقوا الخلود فيها وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ الذين ظفروا برضوانه تعاليبسبب إيمانهم وعملهم الصالح.. أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ بالسعادة التي ليس بعدها سعادة، وبالنعيم الذي لا يقاربه نعيم.

وقال-سبحانه-: لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ ... بدون بيان مالا يستويان فيه، للإشعار بالبون الشاسع بين الفريقين، في سلوكهم وفي أعمالهم، وفي تفكيرهم، وفي نظرتهم إلى الحياة، وفي العاقبة التي ينتهى إليها كل فريق ...

قال صاحب الكشاف: هذا تنبيه للناس، وإيذان لهم بأنهم لفرط غفلتهم، وقلة فكرهم في العاقبة، وتهالكهم على إيثار العاجلة، واتباع الشهوات: كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار، والبون العظيم بين أصحابهما، وأن الفوز مع أصحاب الجنة، فمن حقهم أن يعلموا ذلك وينبهوا عليه، كما تقول لمن يعق أباه، هو أبوك، تجعله بمنزلة من لا يعرفه، فتنبهه بذلك على حق الأبوة، الذي يقتضى البر والتعطف.. ا.هـ.

قوله تعالى: {لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ} [الحشر: ٢٠]، أي:"لا يستوي أصحاب النار المعذَّبون، وأصحاب الجنة المنعَّمون".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: لا يعتدل أهل النار وأهل الجنة".

قال ابن كثير:"أي: لا يستوي هؤلاء وهؤلاء في حكم الله يوم القيامة، كما قال: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} [الجاثية: ٢١]، وقال {وَمَا يَسْتَوِي الأعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ} الآية [غافر: ٥٨]. قال:

=

=

{أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [ص: ٢٨]؟ في آيات أخر دالات على أن الله، سبحانه، يكرم الأبرار، ويهين الفجار".

قال السعدي:"فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغده، فاستحق جنات النعيم، والعيش السليم -مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين -ومن غفل عن ذكر الله، ونسي حقوقه، فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة، فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون".

قوله تعالى: {أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [الحشر: ٢٠]، أي:"أصحاب الجنة هم الظافرون بكل مطلوب، الناجون من كل مكروه".

قال الطبري: يقول: " أهل الجنة هم المُدرِكون ما طلبوا وأرادوا، الناجون مما حذروا".

قال ابن كثير:"أي: الناجون المسلمون من عذاب الله، عز وجل".

قال الزمخشري:"هذا تنبيه للناس وإيذان لهم بأنهم لفرط غفلتهم وقلة فكرهم في العاقبة وتهالكهم على إيثار العاجلة واتباع الشهوات: كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار والبون العظيم بين أصحابهما، وأن الفوز مع أصحاب الجنة، فمن حقهم أن يعلموا ذلك وينبهوا عليه، كما تقول لمن يعق أباه: هو أبوك، تجعله بمنزلة من لا يعرفه، فتنبهه بذلك على حق الأبوّة الذي يقتضى البر والتعطف، وقد استدل أصحاب الشافعي رضى الله عنه بهذه الآية على أن المسلم لا يقتل بالكافر، وأن الكفار لا يملكون أموال المسلمين بالقهر".

ثم نوه-سبحانه-بشأن القرآن الكريم، المشتمل على ألوان من الهدايات والمواعظ، والآداب والأحكام، التي في اتباعها سعادة الناس وفوزهم فقال: (لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ، لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ....)

=

=

أى: وتلك الأمثال الباهرة التي اشتمل عليها هذا القرآن العظيم، نضربها ونسوقها للناس، لكي يتفكروا فيها، ويعملوا بما تقتضيه من توجيهات حكيمة ومن مواعظ سديدة، ومن إرشادات نافعة.

قوله تعالى: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ} [الحشر: ٢١].

قال ابن عباس:"يقول: لو أني أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه تصدّع وخشع من ثِقله، ومن خشية الله، فأمر الله ﷻ الناس إذا أنزل عليهم القرآن، أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع، قال: {وَتِلْكَ الأمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون}".

قال الضحاك:"لو أنزلتُ هذا القرآنَ على جبلٍ، فأمرتُه بالذي أمرتُكم به، وخوّفته بالذي خوّفتكم به؛ إذًا لخشع وتصدّع مِن خشية الله، فأنتم أحقّ أن تَخشَعوا وتذلّوا، وتَلين قلوبكم لذكر الله".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: لو أنزلنا هذا القرآن على جبل، وهو حجر، لرأيته يا محمد يا خاشعًا؛ يقول: متذللا متصدّعا من خشية الله على قساوته، حذرًا من أن لا يؤدّي حقّ الله المفترض عليه في تعظيم القرآن، وقد أنزل على ابن آدم وهو بحقه مستخفٌّ، وعنه عما فيه من العِبَر والذكر مُعْرِض، كأن لم يسمعها، كأن في أذنيه وقرًا".

قال الزجاج:"أعلم الله ﷻ أن من شأن القرآن وعَظَمَتِهِ وَبَيَانِهِ أنه لو جُعِلَ في الجبل تمييز كما جعل فيكم وأنزل عليه القرآن لخشع وتصدَّع من خشية الله، ومعنى «خشع»: تطأطأ وخضع، ومعنى: «تصدَّع» تشققَ. وجائز أن يكون هذا عَلَى المَثَلِ لقوله: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ}، كما قَالَ -سبحانه -: {لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا} [مريم: ٨٩

=

=

-٩٠]".

قال ابن كثير:"يقول تعالى معظمًا لأمر القرآن، ومبينا علو قدره، وأنه ينبغي وأن تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد والوعيد الأكيد: {لَوْ أَنزلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ}، أي: فإن كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه، لخشع وتصدع من خوف الله، ﷻ، فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع، وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه؟ ولهذا قال تعالى: {وَتِلْكَ الأمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}.. وقد ثبت في الحديث المتواتر: أن رسول الله ﷺ لما عمل له المنبر، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد، فلما وضع المنبر أول ما وضع، وجاء النبي ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر، فعند ذلك حَنّ الجذع وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يُسَكَّن، لما كان يُسمَع من الذكر والوحي عنده. ففي بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصري بعد إيراده: «فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع». وهكذا هذه الآية الكريمة، إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته، لخشعت وتصدعت من خشيته فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم؟ وقد قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى} الآية [الرعد: ٣١]. وقد تقدم أن معنى ذلك: أي لكان هذا القرآن. وقال تعالى: {وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ} [البقرة: ٧٤]".

قال قتادة: يعذر الله الجبل الأصمّ، ولم يعذر شقيّ ابن آدم، هل رأيتم أحدًا قط تصدّعت جوانحه من خشية الله".

قوله تعالى: {وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [الحشر: ٢١]،

=

هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢)

{هُوَ الله الَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ عالم الغيب والشهادة} السر والعلانية {هو الرحمن الرحيم.

هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣).

{هُوَ الله الَّذِي لَا إِلَه إِلَّا هُوَ الْمَلِك الْقُدُّوس} الطَّاهِر عَمَّا لَا يَلِيق بِهِ {السَّلَام} ذُو السَّلَامَة مِنْ النَّقَائِص {الْمُؤْمِن} الْمُصَدِّق رُسُله بِخَلْقِ الْمُعْجِزَة لَهُمْ {الْمُهَيْمِن} مِنْ هَيْمَنَ يُهَيْمِن إذَا كَانَ رَقِيبًا عَلَى الشَّيْء أَيْ الشَّهِيد عَلَى عِبَاده بِأَعْمَالِهِمْ {الْعَزِيز} الْقَوِيّ {الْجَبَّار} جَبَرَ خَلْقه عَلَى مَا أَرَادَ {الْمُتَكَبِّر} عَمَّا لَا يَلِيق بِهِ {سُبْحَان الله} نَزَّهَ نَفْسه {عَمَّا يُشْرِكُونَ} بِهِ.

هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤).

=

أي:"وتلك الأمثال نضربها، ونوضحها للناس؛ لعلهم يتفكرون في قدرة الله وعظمته".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وهذه الأشياء نشبهها للناس-وذلك تعريفه جلّ ثناؤه إياهم أن الجبال أشدّ تعظيمًا لحقه منهم مع قساوتها وصلابتها- {لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}، يقول: يضرب الله لهم هذه الأمثال ليتفكروا فيها، فينيبوا، وينقادوا للحق".

عن مجاهد: {ولعلهم يتفكرون}، قال: يطيعون".

عن مالك بن دينار، قال: "أُقسِم لكم؛ لا يؤمن عبدٌ بهذا القرآن إلا صُدِع قلبُه.

{هُوَ الله الْخَالِق الْبَارِئ} الْمُنْشِئ مِنْ الْعَدِم {الْمُصَوِّر لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى} التِّسْعَة وَالتِّسْعُونَ الْوَارِد بِهَا الْحَدِيث وَالْحُسْنَى مُؤَنَّث الْأَحْسَن {يُسَبِّح لَهُ مَا فِي السماوات وَالْأَرْض وَهُوَ الْعَزِيز الْحَكِيم} تَقَدَّمَ أَوَّلهَا(1).

---

(١) قال الجمل: لما وصف تعاليالقرآن بالعظم، ومعلوم أن عظم الصفة تابع لعظم الموصوف، أتبع ذلك بوصف عظمته تعاليفقال: هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ أى: هو الله الذي وجوده من ذاته، فلا عدم له بوجه من الوجوه، فلا شيء يستحق الوصف بهذا غيره، لأنه هو الموجود أزلا وأبدا، فهو حاضر في كل ضمير، غائب بعظمته عن كل حس، فلذلك تصدع الجبل من خشيته.

أى: هو المعبود الذي لا تنبغي العبادة والألوهية إلا له، الذي لا إله إلا هو، فإنه لا مجانس له، ولا يليق ولا يصح، ولا يتصور، أن يكافئه أو يدانيه شيء ... ا.هـ.

وقوله: عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ أى: هو-سبحانه-العليم علما تاما بما غاب عن أذهان الخلائق وعقولهم، وبما هو حاضر ومشاهد أمام أعينهم.

فالمراد بالغيب: كل ما غاب عن إحساس الناس وعن مداركهم..

والمراد بالشهادة: ما يشاهدونه بعيونهم، ويدركونه بعقولهم..

والتعريف فيهما للاستغراق الحقيقي، لأن الله تعاليلا يخفى عليه شيء في هذا الكون.

وقوله تعالى: هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ أى: هو العظيم الرحمة الدائمة، لأن لفظ الرَّحْمنُ صيغة مبالغة لكثرة الشيء وعظمته، ولفظ الرَّحِيمُ صيغة تدل على الدوام والاستمرار.

قوله تعالى: {هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [الحشر: ٢٢]، أي:"هو الله سبحانه وتعالى المعبود بحق الذي لا إله سواه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: الذي يتصدّع من خشيته الجبل أيها الناس هو =

=

المعبود، الذي لا تنبغي العبادة والألوهية إلا له".

قال ابن كثير:"أخبر تعالى أنه الذي لا إله إلا هو فلا رب غيره، ولا إله للوجود سواه، وكل ما يعبد من دونه فباطل".

قال السعدي:"هذه الآيات الكريمات قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى، عظيمة الشأن، وبديعة البرهان، فأخبر أنه الله المألوه المعبود، الذي لا إله إلا هو، وذلك لكماله العظيم، وإحسانه الشامل، وتدبيره العام، وكل إله سواه فإنه باطل لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأنه فقير عاجز ناقص، لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئا".

قوله تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [الحشر: ٢٢]، أي:"عالم السر والعلن، يعلم ما غاب وما حضر".

قال الطبري: يقول: "عالم غيب السموات والأرض، وشاهد ما فيهما مما يرى ويحسّ".

قال ابن كثير:"أي: يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا فلا يخفى عليه شيء في الأرض، ولا في السماء من جليل وحقير وصغير وكبير، حتى الذر في الظلمات".

قال الزمخشري:"الْغَيْبِ: المعدوم، وَالشَّهادَةِ: الموجود المدرك كأنه يشاهده. وقيل: ما غاب عن العباد وما شاهدوه. وقيل: السر والعلانية. وقيل: الدنيا والآخرة".

قال السعدي:"وصف نفسه بعموم العلم الشامل، لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه".

عن ابن عباس: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ}، قال: " السِّرُّ، والعلانية".

قال الحسن: "الشهادة: ما قد رأيتم من خلقه، والغيب: ما غاب عنكم ما لم

=

=

تروه".

عن ابن جريج:"{عالِمُ الغَيْبِ}، قال: غيب ما يكون، وما هو كائن".

قوله تعالى: {هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [الحشر: ٢٢]، أي:"هو الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، الرحيم بأهل الإيمان به".

قال الطبري: " يقول: هو رحمن الدنيا والآخرة، رحيم بأهل الإيمان به".

قال ابن كثير:"المراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، وقد قال تعالى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ} [الأعراف: ١٥٦]، وقال {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام: ٥٤]، وقال {قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس: ٥٨]".

قال السعدي:"وصف بعموم رحمته التي وسعت كل شيء ووصلت إلى كل حي".

قال عطاء الخراساني:"كان الرحمن، فلما اختزلَ الرحمن من اسمه كان الرحمنَ الرحيمَ".

عن سعيد بن جبير:"{الرحيم}، يعني: رحيما بالمؤمنين". وفي رواية:"{رحيما} بهم بعد التوب".

عن عطاء بن دينار: " {رحيم} بهم بعد التوبة".

قال قتادة:"قوله: {رحيما}، بعباده".

وقوله-سبحانه-: هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلهَ إِلَّا هُوَ ... تأكيد لأمر التوحيد لأن مقام التعظيم يقتضى ذلك.

ثم عدد-سبحانه-بعد ذلك بعض أسمائه الحسنى، وصفاته الجليلة فقال: الْمَلِكُ أى: المالك لجميع الأشياء، والحاكم على جميع المخلوقات والمتصرف فيها تصرف المالك في ملكه.

=

=

الْقُدُّوسُ أى: المنزه عن كل نقص، البالغ أقصى ما يتصوره العقل في الطهارة وفي البعد عن النقائص والعيوب، وعن كل ما لا يليق.

من القدس بمعنى الطهارة، والقدس-بفتح الدال-اسم للإناء الذي يتطهر به ومنه القادوس.

وجاء لفظ القدوس بعد لفظ الملك، للإشعار بأنه تعاليوإن كان مالكا لكل شيء، إلا أنه لا يتصرف فيما يملكه تصرف الملوك المغرورين الظالمين، وإنما يتصرف في خلقه تصرفا منزها عن كل ظلم ونقص وعيب..

السَّلامُ أى: ذو السلامة من كل ما لا يليق، أو ذو السلام على عباده في الجنة، كما قال تعالى: سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ.

الْمُؤْمِنُ أى: الذي وهب لعباده نعمة الأمان والاطمئنان، والذي صدق رسله بأن أظهر على أيديهم المعجزات التي تدل على أنهم صادقون فيما يبلغونه عنه.

الْمُهَيْمِنُ أى: الرقيب على عباده، الحافظ لأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، من الأمن، ثم قلبت همزته هاء، وقيل أصله هيمن بمعنى رقب، فهاؤه أصلية.

الْعَزِيزُ أى: الذي يغلب غيره، ولا يتجاسر على مقامه أحد..

الْجَبَّارُ أى: العظيم القدرة، القاهر فوق عباده.

قال القرطبي: قال ابن عباس: الجبار: هو العظيم. وجبروت الله عظمته. وهو على هذا القول صفة ذات، من قولهم: نخلة جبارة..

وقيل هو من الجبر وهو الإصلاح، يقال: جبرت العظم فجبر، إذا أصلحته بعد الكسر، فهو فعال من جبر، إذا أصلح الكسير وأغنى الفقير.. ا.هـ

الْمُتَكَبِّرُ أى: الشديد الكبرياء، والعظمة والجلالة. والتنزه عما لا يليق بذاته.

وهاتان الصفتان-الجبار المتكبر-صفتا مدح بالنسبة لله تعالى، وصفتا ذم بالنسبة لغيره تعالى، وفي الحديث الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ، قال فيما

=

=

يرويه عن ربه: «الكبرياء ردائي. والعظمة إزاري. فمن نازعني في واحد منهما قصمته. ثم قذفته في النار».

سُبْحانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ أى: تنزه-سبحانه وتقدس عن إشراك المشركين. وكفر الكافرين.

قوله تعالى: {هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [الحشر: ٢٣]، أي:"هو الله المعبود بحق، الذي لا إله إلا هو".

عن محمد بن إسحاق:"{لا إله إلا هو}، قال: ليس معه غيره شريكا في أمره".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: هو المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له".

قال السعدي:"ثم كرر ذكر عموم إلهيته وانفراده بها".

قوله تعالى: {الْمَلِكُ} [الحشر: ٢٣]، أي:"الملك لجميع الأشياء، المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة".

قال الطبري: " الملك الذي لا ملك فوقه، ولا شيء إلا دونه".

قال ابن كثير:"أي: المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة".

قال السعدي:"المالك لجميع الممالك، فالعالم العلوي والسفلي وأهله، الجميع مماليك لله، فقراء مدبرون".

عن عثمان بن سعيد، قال جبريل: "يا محمد، لله الخلق كله والسموات كلهن ومن فيهن والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم".

قوله تعالى: {الْقُدُّوسُ} [الحشر: ٢٣]، أي:"المنزَّه عن كل نقص".

قال الطبري: " القدّوس، قيل: هو المبارك".

عن قتادة: " {الْقُدُّوسُ}، أي: المبارك".

قال الزجاج:"القدوس: الطاهر، ومن هذا قيل: بيت المقدس، أي: بيت المكان الذي يتطهر فيه من الذُنُوب".

=

=

قال الزمخشري:"«الْقُدُّوسُ»: بالضم والفتح -وقد قرئ بهما- البليغ في النزاهة عما يستقبح. ونظيره: السبوح، وفي تسبيح الملائكة: سبوح قدوس رب الملائكة والروح".

قوله تعالى: {السَّلَامُ} [الحشر: ٢٣]، أي:"الذي سلِم من كل عيب".

قال الطبري: " يقول: هو الذي يسلم خلقه من ظلمه، وهو اسم من أسمائه".

قال الزجاج:"اسم من أسماء الله ﷻ ، وقيل السلام الذي قد سَلِمَ الخلقُ من ظُلْمِه".

قال ابن كثير:"أي: من جميع العيوب والنقائص؛ بكماله في ذاته وصفاته وأفعاله".

عن قتادة: " {السَّلامَ} : الله السلام".

عن جابر بن زيد قوله: " {السَّلامَ}، قال: هو الله".

قال الزمخشري:"«السَّلامُ» بمعنى: السلامة. ومنه: «دارُ السَّلامِ» و «سَلامٌ عَلَيْكُمْ»، وصف به مبالغة في وصف كونه سليما من النقائص. أو في إعطائه السلامة".

قال السعدي في قوله تعالى: {الْقُدُّوسُ السَّلَامُ} [الحشر: ٢٣]:"أي: المقدس السالم من كل عيب وآفة ونقص، المعظم الممجد، لأن القدوس يدل على التنزيه عن كل نقص، والتعظيم لله في أوصافه وجلاله".

قوله تعالى: {الْمُؤْمِنُ} [الحشر: ٢٣]، أي:"المصدِّق رسله وأنبياءه بما أرسلهم به من الآيات البينات".

قال الطبري: " يعني بالمؤمن: الذي يؤمن خلقه من ظلمه".

قال الزمخشري:"«المؤمن»: واهب الأمن".

قال الزجاج:" {الْمُؤْمِنُ} : الذي وَحَّد نَفْسَهُ بقوله: {شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} . وقيل:

=

=

«المؤمِنُ»: الذي أمِنَ الخلقُ من ظُلمِه".

قال السعدي:"أي: المصدق لرسله وأنبيائه بما جاءوا به، بالآيات البينات، والبراهين القاطعات، والحجج الواضحات".

عن قتادة: " {الْمُؤْمِنُ}: أمن بقوله أنه حقّ". وفي رواية:"آمن بقوله أنه حقّ".

عن الضحاك: " {الْمُؤْمِنُ}، قال: المصدق، الموقن، آمن الناس بربهم فسماهم مؤمنين، وآمن الربّ الكريم لهم بإيمانهم صدّقهم أن يسمى بذلك الاسم".

قال الحسن:"المؤمن بنفسه قبل إيمان خلْقه، كقوله: {شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلّا هُـوَ} [آل عمران: ١٨] الآية".

عن زيد بن علي، قال: "إنما سمّى نفسه: {المُؤْمِنُ}؛ لأنه آمنهم من العذاب".

قوله تعالى: {الْمُهَيْمِنُ} [الحشر: ٢٣]، أي:"الرقيب على كل خلقه في أعمالهم".

وفي تفسير قوله تعالى: {الْمُهَيْمِنُ} [الحشر: ٢٣]، أقوال:

أحدها: معناه: الشاهد على خلقه بأعمالهم، وعلى نفسه بثوابهم، قاله ابن عباس- في رواية-، ومجاهد، وقتادة، والمفضل، وأنشد قول الشاعر:

شهيد عليَّ الله أني أحبها... كفى شاهداً رب العباد المهيمن

عن قتادة: " {الْمُهَيْمِنُ}، قال: الشهيد عليه".

عن قتادة، قوله: " {الْمُهَيْمِنُ}، قال: أنزل الله ﷻ كتابًا فشهد عليه".

الثاني: معناه: الأمين، قاله ابن عباس-في رواية أخرى-، و الحسن، والضحاك.

الثالث: المصدّق، قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"المصدق لكلّ ما حدّث، وقرأ: {وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ}، قال: فالقرآن مصدّق على ما قبله من الكتب، والله مصدّق في كلّ ما حدّث عما مضى من الدنيا، وما بقي، وما حدّث عن الآخرة".

الرابع: أن {المُهَيْمِنُ} القاضي. قاله الضحاك-أيضا-، وسعيد بن المسيب.

=

=

الخامس: أن {الْمُهَيْمِنُ} هو المُجِير. قاله محمد بن كعب القرظي.
السادس: أنه الحافظ، حكاه ابن كامل.
وروي عن جامع بن شداد عن ذي قرابة له قال: "سمعت عمر بن الخطاب يقول: ثلاث كلمات إذا قلتها فهيمنوا عليها (أي: قولوا آمين حفظا للدعاء): اللهم إني ضعيف فقوني. اللهم إني غليظ فليني. اللهم إني بخيل فسخني".
قال الزمخشري:"«الْمُهَيْمِنُ»: الرقيب على كل شيء، الحافظ له، «مفيعل»، من الأمن، إلا أن همزته قلبت هاء".
الخامس: الرحيم، حكاه ابن تغلب، واستشهد بقول أمية بن أبي الصلت:
مَلِيكٌ عَلَى عَرْشِ السَّمَاء مُهَيْمِنٌ... لِعِزَّته تَعْنُو الوجُوهُ وتَسْجُدُ
قوله تعالى: {الْعَزِيزُ} [الحشر: ٢٣]، أي:"العزيز الذي لا يغالَب".
قال الطبري:"الشديد في انتقامه ممن انتقم من أعدائه".
قال الزجاج:"أي: الممتنِعُ الذي لا يغلبه شيء".
قال ابن كثير:"أي: الذي قد عزّ كل شيء فقهره، وغلب الأشياء فلا ينال جنابه؛ لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه".
قال السعدي:"الذي لا يغالب ولا يمانع، بل قد قهر كل شيء، وخضع له كل شيء".
عن قتادة: " {الْعَزِيزُ}، أي: في نقمته إذا انتقم".
قوله تعالى: {الْجَبَّارُ} [الحشر: ٢٣]، أي:"الجبار الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائر الخلق".
قال الطبري:"يعني: المصلح أمور خلقه، المصرفهم فيما فيه صلاحهم. وكان قتادة يقول: جبر خلقه على ما يشاء من أمره".
قال الزجاج:"تأويله: الذي جبر الخلق على ما أراده من أمْرِه".

=

=

قال الزمخشري:"القاهر الذي جبر خلقه على ما أراد، أي: أجبره".

قال ابن كثير: " أي: الذي لا تليق الجَبْرّية إلا له".

قال السعدي:"الذي قهر جميع العباد، وأذعن له سائر الخلق، الذي يجبر الكسير، ويغني الفقير".

عن قتادة: " {الْجَبَّارُ}، قال: جَبَرَ خلقه على ما يشاء".

قال ابن عباس:"الجبّار هو العظيم، وجبروت الله عظمته".

محمد بن كعب القُرَظيّ، قال: "إنما تسمّى {الجَبّارُ} لأنه يَجبر الخلْقَ على ما أراده".

عن السدي:"{العَزِيزُ الجَبّارُ} هو الذي يَقهر الناس، ويَجبرهم على ما أراد".

قوله تعالى: {الْمُتَكَبِّرُ} [الحشر: ٢٣]، أي:"المتكبِّر الذي له الكبرياء والعظمة".

قال الطبري:"قيل: عُنِيَ به أنه تكبر عن كلّ شر".

عن قتادة: " {الْمُتَكَبِّرُ}، قال: تكبر عن كلّ شر".

قال الزجاج:"الذي تكبر عن ظلم عِبَادِه".

قال الزمخشري:"{الْمُتَكَبِّرُ}: البليغ الكبرياء والعظمة. وقيل: المتكبر عن ظلم عباده".

قال السعدي:"الذي له الكبرياء والعظمة، المتنزه عن جميع العيوب والظلم والجور".

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: يقول الله تبارك وتعالى: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحدة منهما قذفته في جهنم».

قوله تعالى: {سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الحشر: ٢٣]، أي:"تنزَّه الله تعالى عن كل ما يشركونه به في عبادته".

قال الزجاج:"تنزيه الله عن شركِهِمْ".

=

=

قال السعدي:"وهذا تنزيه عام عن كل ما وصفه به من أشرك به وعانده".
عن المسيّب -من طريق الهُذيل-قال: " {سُبْحانَ اللهِ} إنصاف لله من السوء".
عن ميمون بن مهران: {سبحان الله} : اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء".
عن الحسن قال: " {سبحان الله} : اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه".
عن جابر بن زيد، قال: "إن اسم الله الأعظم هو الله، ألم تسمع يقول: {هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} ".
قوله تعالى: {هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)} [الحشر: ٢٤]
هُوَ اللهُ الْخالِقُ لكل شيء الموجد لهذا الكون على مقتضى حكمته..
الْبارِئُ أى: المبدع المخترع للأشياء. والمبرز لها من العدم إلى الوجود.
الْمُصَوِّرُ أى: المصور للأشياء والمركب لها، على هيئات مختلفة، وأنواع شتى من التصوير، وهو التخطيط والتشكيل..
لَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى والحسنى تأنيث الأحسن. أى: له الأسماء التي هي أحسن الأسماء لدلالتها على أفضل المعاني. من تحميد. وتقديس. وقدرة. وسمع.. وغير ذلك من الأسماء الكريمة، والصفات الجليلة.
يُسَبِّحُ لَهُ تعاليوينزهه عن كل سوء ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ من مخلوقات..
وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أى: وهو-ﷻ الغالب لغيره. الحكيم في كل تصرفاته.
قال الإمام ابن كثير: وفي الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسما-مائة إلا واحدا-من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر..

=

=

قوله تعالى: {هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ} [الحشر: ٢٤]، أي:"هو الله سبحانه وتعالى الخالق المقدر للخلق، البارئ المنشئ الموجد لهم على مقتضى حكمته".

قال عامر الشعبي:"اسم الله الأعظم: الله. ثم قرأ، أو قرأتُ عليه: {هُوَ اللهُ الخالِقُ} إلى آخرها".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هو المعبود الخالق، الذي لا معبود تصلح له العبادة غيره، ولا خالق سواه، البارئ الذي برأ الخلق، فأوجدهم بقدرته".

قال الزمخشري:"{الْخالِقُ}: المقدر لما يوجده، و {الْبارِئُ}: المميز بعضه من بعض بالأشكال المختلفة".

قال البغوي:"«الْخَالِقُ»: المقدر والمقلب للشيء بالتدبير إلى غيره، كما قال: {يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ} [الزمر: ٦]، «الْبَارِئُ»: المنشئ للأعيان من العدم إلى الوجود".

قال السمعاني:"«الْخَالِقُ»، أي: مقدر الأشياء ومخترعها، «الْبَارِئُ»: قيل: هو في معنى الخالق على طريق التأكيد، وقيل: إن معناه المحيي بعد الإماتة".

قال السعدي:"{هُوَ اللهُ الْخَالِقُ} لجميع المخلوقات {الْبَارِئُ} للمبروءات".

قال ابن كثير: "أي: الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن، فيكون على الصفة التي يريد، والصورة التي يختار. كقوله: {فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ} [الانفطار: ٨]... والخلق: التقدير، والبَراء: هو الفري، وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كل من قدر شيئًا ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله، ﷻ.

قال الشاعر يمدح آخر:

ولأنت تَفري ما خَلَقت... وبعضُ القوم يَخلُق ثم لا يَفْري

أي: أنت تنفذ ما خلقت، أي: قدرت، بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع ما يريد. فالخلق: التقدير. والفري: التنفيذ. ومنه يقال: قدر الجلاد ثم فَرَى، أي: قطع على

=

=

ما قدره بحسب ما يريده".

قوله تعالى: {الْمُصَوِّرُ} [الحشر: ٢٤]، أي:"المصوِّر خلقه كيف يشاء".

قال الطبري:"المصوّر خلقه كيف شاء، وكيف يشاء".

قال البغوي:"{الْمُصَوِّرُ}: الممثل للمخلوقات بالعلامات التي يتميز بعضها عن بعض. يقال: هذه صورة الأمر أي مثاله، فأولا يكون خلقا ثم برءا ثم تصويرا".

قال ابن كثير:"أي: الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها".

قال السمعاني: "هو التصوير المعلوم يصور كل خلق على ما يشاء، وقيل: التصوير هو تركيب مخصوص في محل مخصوص من الخلق".

قال السعدي:"{الْمُصَوِّرُ}: للمصورات، وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير، وأن ذلك كله قد انفرد الله به، لم يشاركه فيه مشارك".

قال الزمخشري:"{الْمُصَوِّرُ}: الممثل".

وعن حاطب بن أبى بلتعة أنه قرأ: «البارئ المصوّر»، بفتح الواو ونصب الراء، أي: "الذي يبرأ المصوّر أي: يميز ما يصوّره بتفاوت الهيئات.

قوله تعالى: {لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الحشر: ٢٤]، أي:"له سبحانه الأسماء الحسنى والصفات العلى".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: لله الأسماء الحسنى، وهي هذه الأسماء التي سمى الله بها نفسه، التي ذكرها في هاتين الآيتين".

قال السعدي:"أي: له الأسماء الكثيرة جدا، التي لا يحصيها ولا يعلمها أحد إلا الله هو، ومع ذلك، فكلها حسنى أي: صفات كمال، بل تدل على أكمل الصفات وأعظمها، لا نقص في شيء منها بوجه من الوجوه، ومن حسنها أن الله يحبها، ويحب من يحبها، ويحب من عباده أن يدعوه ويسألوه بها".

قال السمعاني:"الحسنى: هو تأنيث الأحسن، وهي -هاهنا-بمعنى: العليا".

=

=

عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: "إن لله تعالى تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر".

وفي رواية: "إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة".

قال الزجاج: " وتأويل: «من أحصاها دخل الجنة»: من وحد الله وذكر هذه الأسماء الحسنى يريد بها توحيد الله وإعظامه، دخل الجنة".

قال ابن أبي زمنين:"من الناس من قال: معنى أحصاها: حفظها، ومنهم من قال: المعنى: من تعبد لله بها".

وفي رواية الترمذي قال: قال رسول الله ﷺ : «إن لله تسعة وتسعين اسما، من أحصاها دخل الجنة، هُوَ اللهُ الَّذي لا إِلهَ إلا هو: الرَّحْمنُ، الرَّحِيمُ، المَلِكُ، القُدُّوسُ، السَّلامُ، المُؤمِنُ، المُهَيْمِنُ، العَزِيزُ، الجَبَّارُ، المُتَكَبِّرُ، الخَالِقُ، البَارِئُ، المُصَوِّرُ، الغَفَّارُ، القَهَّارُ، الوهَّابُ، الرَّزَّاقُ، الفَتَّاحُ، العَليمُ، القابضُ، البَاسِطُ، الخَافِضُ، الرَّافِعُ، المُعِزُّ، المُذِلُّ، السَّمِيعُ، البصيرُ، الحَكَمُ، العَدْلُ، اللَّطِيفُ، الخَبْيرُ، الحليمُ، العَظِيمُ، الغَفُورُ، الشَّكُورُ، العَليُّ، الكَبيرُ، الحَفِيظُ، المُقيتُ، الحَسِيبُ، الجَليلُ، الكرِيمُ، الرَّقِيبُ، المُجيبُ، الْوَاسِعُ، الحَكيمُ، الْوَدُودُ، المَجيدُ، البَاعِثُ، الشَّهيدُ، الحَقُّ، الْوَكِيلُ، القَويُّ، المَتِينُ، الْوَليُّ، الحَميدُ، المُحصي، المُبدئُ، المُعيدُ، المُحْيي، المُميتُ، الحَيُّ، القَيُّومُ، الْوَاجِدُ، الماجد، الوَاحِدُ، الأحَدُ، الصَّمَدُ، القَادِرُ، المُقْتَدِرُ، المُقَدِّمُ، المُؤخِّر، الأوَّلُ،

الآخِرُ، الظَّاهِرُ، البَاطِنُ، الوالي، المُتعالِ، البَرُّ، التَّوَّابُ، المُنتَقِمُ، العَفُوُّ، الرَّؤوفُ، مَالِكُ المُلْكِ، ذُو الجَلالِ والإكرَام، المُقْسِطُ، الجَامِعُ، الغَنيُّ، المُغني، المَانِعُ، الضَّارُ، النَّافِعُ، النُّورُ، الهادي، البَديعُ، البَاقي، الوَارِثُ، الرَّشِيدُ، الصَّبُورُ».

قال ابن كثير: " والذي عول عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد

=

=

الصنعاني، عن زهير بن محمد: أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك، أي: أنهم جمعوها من القرآن كما رود عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبي زيد اللغوي، والله أعلم.

ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة في التسعة والتسعين بدليل ما رواه الإمام أحمد في مسنده، عن يزيد بن هارون، عن فضيل بن مرزوق، عن أبي سلمة الجهني، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أعلمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحًا". فقيل: يا رسول الله، أفلا نتعلمها؟ فقال: "بلى، ينبغي لكل من سمعها أن يتعلمها».

وذكر الفقيه الإمام أبو بكر بن العربي أحد أئمة المالكية في كتابه: «الأحوذي في شرح الترمذي»؛ أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة من أسماء الله ألف اسم، فالله أعلم".

قوله تعالى: {يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الحشر: ٢٤]، أي:"، يسبِّح له جميع ما في السموات والأرض".

قال الطبري:"يقول: يسبح له جميع ما في السموات والأرض، ويسجد له طوعًا وكرهًا".

قال السعدي:"ومن كماله، وأن له الأسماء الحسنى، والصفات العليا، أن جميع من في السماوات والأرض مفتقرون إليه على الدوام، يسبحون بحمده، ويسألونه حوائجهم، فيعطيهم من فضله وكرمه ما تقتضيه رحمته وحكمته".

=

=

قوله تعالى: {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الحشر: ٢٤]، أي:"وهو العزيز شديد الانتقام مِن أعدائه، الحكيم في تدبيره أمور خلقه".

قال الطبري:"يقول: وهو الشديد الانتقام من أعدائه، {الْحَكِيمُ}، في تدبيره خلقه، وصرفهم فيما فيه صلاحهم".

قال ابن كثير:"{الْعَزِيزُ}: فلا يرام جَنَابه {الحَكِيمُ} في شرعه وقدره".

قال السعدي:"الذي لا يريد شيئا إلا ويكون، ولا يكون شيئا إلا لحكمة ومصلحة".

قال محمد بن إسحاق: " العزيز: في نصرته ممن كفر به إذا شاء"، الحكيم: في عذره وحجته إلى عباده".

قال أبو العالية:"{عزيز} في نقمته إذا انتقم". وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

عن أبي العالية:"{حكيم}، قال: حكيم في أمره".

قال محمد بن جعفر بن الزبير" الحكيم في عذره، وحجته إلى عباده".

(فائدة): ذكر الانحراف المؤدي إلى التفريط في توحيد الأسماء والصفات.

مذاهب المعطلة النفاة -على اختلاف درجاتهم في التعطيل-في توحيد الأسماء والصفات من حيث العموم، تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: نفي جميع الأسماء والصفات: وهذا قول الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام، سواء كانوا أصحاب فلسفة محضة، أو فلسفة باطنية صوفية، أو فلسفة باطنية رافضية، وهو قول الجهمية.

القسم الثاني: نفي الصفات دون الأسماء: وهذا قول المعتزلة، ومن وافقهم كابن حزم الظاهري، والزيدية، والرافضة، والإباضية.

القسم الثالث: إثبات الأسماء وبعض الصفات ونفي البعض الآخر: وهذا قول

=

=

الكلابية والأشاعرة والماتريدية.

ولم يصلوا إلى هذه المرحلة من التعطيل، إلا بعد أن حرفوا كتاب الله، وألحدوا في دين الله، وقالوا على الله، وفي الله وفي كتاب الله بغير علم، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب.

ومن خلال ما سبق يمكننا الوقوف على طرق الانحراف المؤدية إلى التفريط في توحيد الأسماء والصفات، وهي:

-أولاً: إرادة تنزيه الله -ﷻ -عن مماثلة الخلق: إن أصل التعطيل ومنشأ التفريط في توحيد الأسماء والصفات، ونفي ما أثبته الله -ﷻ -لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ ؛ هو دعوى نفي التشبيه، "فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات، فجمعوا بين التمثيل والتعطيل، فمثلوا أولاً، وعطلوا آخراً، وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته، بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم، وتعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة بالله -ﷻ -"، قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ} الأنعام: ٩١.

وشبهة أصحاب هذا الاتجاه في نفيهم المحض لأسماء الله وصفاته أو بعضها، قائمة في مجملها على نفي التشبيه، وقالوا: إننا إذا أثبتنا هذه الأسماء الحسنى، فإننا نكون قد شبهناه بالموجودات، وقال غلاة الغلاة منهم: لا يوصف الله بالنفي ولا الإثبات؛ لأن في كل منهما تشبيها له؛ فرارا -بزعمهم-من تشبيهه بالموجودات إذا أثبتوا، أو تشبيهه بالمعدومات إذا نفوا، فكلا المسلكين قائم على زعم نفي التشبيه، وهؤلاء كلهم وقعوا من جنس التشبيه فيما هو شرٌّ مما فَرُّوا منه، فإنهم شبهوه بالممتنعاتِ، والمعدومات، والجمادات؛ فراراً من تشبيهه بالأحياء بزعمهم.

=

=

وإذا لم يقدروا على النفي أو التعطيل، لجأوا إلى التأويل،
قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ : " وحقيقة الأمر أن كل طائفة تتأول ما يخالف نحلتها ومذهبها، فالمعيار على ما يُتأول وما لا يُتأول هو المذهب الذي ذهبت إليه والقواعد التي أصلتها، فما وافقها أقروه ولم يتأولوه، وما خالفها فإن أمكنهم دفعه وإلا تأولوه... ولما أصَّلت الجهمية أن الله لا يتكلم ولا يُكَلِّم أحداً ولا يُرى بالأبصار ولا هو فوق عرشه مبائن لخلقه، ولا له صفة تقوم به؛ أولوا كل ما خالف ما أصلوه... ولما أصلت الكلابية أن الله سبحانه لا يقوم به ما يتعلق بقدرته ومشيئته، وسموا ذلك حلول الحوادث؛ أولوا كل ما خالف هذا الأصل".
ومعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لا يجوز إطلاقُ النفي على ما أثبته الله تعالى لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ بل هذا جحدٌ للخالق وتمثيل له بالمعدومات.
قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ : وصف الرب بنقيض تلك الصفات من صفات الأموات والجمادات، أو صفات المعدومات، تعطيل لصفات الكمال التي يستحقها الرب تعالى، وتمثيل له بالمنقوصات والمعدومات، وتعطيل للنصوص عما دلت عليه من الصفات، وجعل مدلولها هو التمثيل بالمخلوقات، فيجمع في الله وفي كلام الله بين التعطيل والتمثيل، فيكون ملحداً في أسماء الله وآياته.
وقال رَحِمَهُ اللَّهُ : " فالذي ينفى عنه وينزه عنه: إما أن يكون مناقضاً لما علم من صفاته الكاملة، فهذا ينفى عنه جنسه، كما قال: {اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ} البقرة: ٢٥٥، وقال: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ} الفرقان: ٥٨، فجنس السنة والنوم والموت ممتنع عليه، لا يجوز أن يقال في شيء من هذا: أنه يجوز عليه كما يليق بشأنه؛ لأن هذا الجنس يوجب نقصاً في كماله. كذلك لا يجوز أن يقال: هو يكون في السفل لا في العلو، وهو سفول يليق بجلاله. فإنه –
=

=

سبحانه وتعالى -العلي الأعلى لا يكون قط إلا علياً، والسفول نقص هو منزه عنه...

والنوع الثاني: أنه منزه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته".

فغلوهم في التنزيه أوصلهم إلى مشابهة المشركين، ففرطوا في أسمائه وصفاته حتى أدى بهم هذا التفريط إلى سوء الظن بالله -ﷻ -وهو من أكبر الذنوب التي يستحق بها العبد غضب الله ولعنته -سبحانه وتعالى -.

-ثانياً: التزامهم لوازم باطلة بنيت على قواعد خاطئة:

منهج المعطلة في الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة النبوية قائم على ردّ النصوص الصحيحة الثابتة، بالطعن في دلالتها أو في ثبوتها،

فما كان من القرآن الكريم أو السنة المتواترة، قالوا: إنه ظني الدلالة، وما كان من السنة الصحيحة قالوا إنه أخبار آحاد، ليس قطعي الثبوت، أما عقلياتهم وأوهامهم، وقواعدهم التي وضعوها فإنها قطعية الدلالة، ولا يقوى القرآن والسنة على معارضتها فوجب تقديمها عليهما -كما زعموا-، وإن وافقت معقولاتهم ذكروها استئناساً بها لا اعتماداً، ولو كانت ضعيفة أو موضوعة باطلة.

ولما اعتمد أهل البدع على كليات عقلية وقواعد منطقية، وقدموها على نصوص الشرع، لزمتهم لوازم باطلة منها:

١ -الاحتكام إلى العقول، وجعلها مقياساً لإثبات صفات الله -ﷻ -.

٢ -ردهم لنصوص الشرع؛ لأن من منهج المعطلة ادعاءهم أن نصوص الصفات ونحوها من المتشابه، والمتشابه على زعمهم يجب تأويله، وغرضهم الحقيقي رد النصوص التي لا توافق ما أصلوه من قواعد عقلية، أو تعطيل معانيها، إذا لم يمكنهم ردها بالكلية.

٣ -لما نفى الفلاسفة عموم علم الله تعالى بخلقه وقالوا: إنه يعلم الكليات

=

=

فحسب، ولا يعلم الجزئيات، لما ظنوا ذلك ارتكبوا محارمه وترك التوكل عليه واستحلوا مخاصمته ومدافعة أمره ونهيه بأهوائهم ومقالاتهم الباطلة.... ومن عجيب أقوال الشيخ تقي الدين ابن تيمية أنه قال: لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف، ولا من القدرية النفاة، القائلين: بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء، ولا يستقيم أيضا من الجهمية النفاة لصفات الرب -جل جلاله-، ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات.

٤ -أنه إذا انتفت صفة الكمال عن الله لزم أن يكون متصفاً بصفات النقص، فإن كل موجود في الخارج لابد له من صفة فإذا انتفت عنه صفات الكمال لزم أن يكون متصفاً بصفات النقص، وبهذا ينعكس الأمر على هؤلاء النفاة ويقعون في شر مما فروا منه.

٥ -القول بأن إثبات العلم والقدرة والإرادة مستلزم لتعدد الصفات، وهذا تركيب ممتنع، وقد انطلقوا من شبهة التركيب، وعطلوا الله -ﷻ -عن صفاته جميعاً.

٦ -أثبتوا لله صفة واحدة وهي القِدم لما كانت أخص وصف لله -ﷻ -، لا يشاركه فيها غيره، من أجل هذا كان العالم بكل ما فيه من أجسام محدثاً، وذلك أنهم أقاموا دليلهم لإثبات وجود الله -ﷻ -على حجة الأعراض وحدوث الأجسام، فقالوا بحدوث الأجسام، لملازمتها للأعراض، أو بعضها، كالحركة والسكون، والاجتماع والافتراق؛ فهي إذاً حادثة، والله -ﷻ -ليس بجسم -وقد نقل غير واحد إجماعهم على ذلك-إذاً فهو ليس بحادث، وجوده -ﷻ -قديم.

وهم يحاولون إيهام الناس أنهم إنما أرادوا من تعطيل الله -ﷻ -عن الاتصاف بصفاته العلا، تنزيهه -ﷻ -عن أن يكون جسماً، أو أن تحل به الحوادث.

٧ -كما أنهم زعموا أنه إذا أُثبِت لله -ﷻ -الأسماء، لزم من ذلك إثبات الصفات، وهي المعاني التي اشتقت منها هذه الأسماء، وهو محال؛ لأن مذهبهم قائم على

=

=

نفي جميع الصفات الثبوتية، وأن الله -ﷻ- لا يوصف إلا بصفة سلبية أو إضافية أو مركبة منهما.

٨ -دعواهم أن وجود الله -ﷻ- هو وجودٌ مطلق لا بشرط، ومرادهم من الشرط هو التقيد باسم أو صفة تجعله متميزاً عن غيره، وإنما حقيقة وجوده هو وجود الأشياء كلها، ووجودها عين وجوده، ما ثمة فرق إلا بالإطلاق والتقييد؛ فيقال: هذا خالق وهذا مخلوق وهذا سماء وهذه أرض، وحقيقة وجود الكل واحدة، فأسماؤه -سبحانه وتعالى- تعطى لك أحد؛ لأن وجوده هو عين وجودها.

٩ -إن الانحراف في مصدر التلقي ومنهج الاستدلال بالنصوص من الكتاب والسنة نتج عنه انحراف عند المعطلة في مفهوم التوحيد الذي جاءت به الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم-، من إفراد الله -ﷻ- بالعبادة، إلى الخوض في الجواهر والأعراض وتقرير وجود الله -ﷻ- بالأدلة العقلية المعقدة التي لا يفهمها معظم الخواص فضلاً عن العوام، على ما بينهم من اختلاف في تقرير مقدمات الأدلة التي يستدلون بها، وتعطيل الله -ﷻ- عن كماله المقدس بنفي أسمائه الحسنى وصفاته العلا.

١٠ -تعطيل الله -ﷻ- عن صفاته العلا وأسمائه الحسنى، حتى أدى بهم هذا التفريط، إلى سوء الظن بالله -ﷻ-، وهو من أكبر الذنوب.

١١ -القول بفناء الجنة والنار؛ لأنهم ظنوا أن كل ما تقارنه الحوادث فهو محدث، فمنعوا التسلسل في الماضي والمستقبل حتى لا تتسلسل الحوادث إلى ما لا نهاية.

١٢ -الإلحاد والتشكيك في وجود الرب، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " فالجهمية والمعتزلة تزعم أن ذاته لا تُحب ووجهه لا يرى، ولا يلتذ بالنظر إليه ولا تشتاق القلوب إليه فهم في الحقيقة منكرون الإلهية".

١٣ -أن الجهل بالله -سبحانه وتعالى- والإلحاد في أسمائه وصفاته أصل الكفر

=

=

والشرك والتعطيل، كما أن الغفلة عن المعرفة بهذا الباب العظيم سبب رئيس في ضعف محبة الله والخوف منه ورجائه في قلوب العباد ومن ثم بعدهم عن سمت العبودية وما يتبع هذا من مظاهر السلوك غير السوي.

١٤ -أن الكتاب والسنة صرحا بالكفر والدعوة إليه؛ لأنهما مملوءان من إثبات صفات الله التي زعم هؤلاء النفاة أن إثباتها تشبيه وكفر.

١٥ -أن الكتاب والسنة لم يبينا الحق؛ لأن الحق عند هؤلاء هو نفي الصفات، وليس في الكتاب ولا في السنة ما يدل على نفي صفات الكمال عن الله لا نصاً ولا ظاهراً.

١٦ -أن السابقين الأولين من المهاجرين، والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان كانوا قائلين بالباطل وكاتمين للحق، أو جاهلين به، فإنه قد تواتر النقل عنهم بإثبات صفات الكمال لله الذي زعم هؤلاء أنه باطل، ولم يتكلموا مرة واحدة بنفي الصفات الذي زعم هؤلاء أنه الحق وهذا اللازم ممتنع على خير القرون وأفضل الأمة.

والذي جلب لهم هذا الخلط والاضطراب: توهمهم أن هناك معارضة بين العقل والنقل ولما كان العقل عندهم مقدساً منزهاً عن الخطأ؛ نفوا وعطلوا وأولوا ما دل عليه النقل من أسماء الله تعالى وصفاته، وركنوا إلى قواعدهم العقلية وأصولهم الفلسفية، وجعلوها عمدة في ردّ ما ورد به الشرع بدعوى معارضته لها.

وهكذا نلحظ أن كثيراً من انحراف هؤلاء، إنما هو نتيجة التزامهم بما اعتمدوه من كليات عقلية وقواعد منطقية، أدت بهم إلى التفريط في باب أسماء الله -ﷻ- وصفاته، والحقيقة أنهم إنما توهموا هذه اللوازم لمَّا فسدت ألسنتهم وعقولهم، فوقعوا في الفرقة والضلال، والشك والريبة والوبال، وصاروا كالذين وصفهم الله -بعد هذه الآية أيضاً_ بقوله: {وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ

=

=

وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ (١٤)} الشورى: ١٤، فنعوذ بالله من الخذلان.

-ثالثًا: القياس الفاسد في العقليات، والتأويل الفاسد في السمعيات:

القياس الفاسد لا ينضبط كما أن التأويل الفاسد ليس له قانون مستقيم. وذلك أن كلا منهما غير مرتكز على نقل صحيح أو عقل صريح. والتأويل الخطأ يكون في النصوص المتشابهة؟ وذلك كألفاظ نصوص صفات الله وألفاظ نصوص صفات المخلوقين قال تعالى: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} المائدة: ٥٤، وقال سبحانه: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } طه: ٥، وقال: {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ} المؤمنون: ٢٨، فتأولت المبتدعة مدلول نصوص صفات الله لما بين النصوص من التشابه.

والقياس الخطأ يكون في المعاني المتشابهة حيث أن كلا من المقيس والمقيس عليه له نصيب من المعنى الكلي المشترك، فـ"ما من شيئين إلا ويجتمعان في شيء، ويفترقان في شيء، فبينهما اشتباه من وجه وافتراق من وجه، ولهذا كان ضلال بني آدم من قبل التشابه، كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ : أكثر ما يخطئ الناس من جهة التأويل والقياس، فالتأويل في الأدلة السمعية، والقياس في الأدلة العقلية، وهو كما قال، والتأويل الخطأ إنما يكون في الألفاظ المتشابهة، والقياس الخطأ إنما يكون في المعاني المتشابهة".

ووجه خطئهم من جهة التأويل تلاعبهم بالنصوص، وإساءة الظن بها، ونسبة قائلها إلى التكلم بما ظاهره الضلال والإضلال، وليس لهم على ذلك حجة من كتاب ولا سنة، بل العمدة عندهم نحاتة الأفكار، وزبالة الأذهان.

ووجه خطئهم من جهة القياس أنهم أتوا بألفاظ مجملة ليست في الكتاب ولا في

=

=

السنة مثل متحيز ومحدود، وجسم ومركب، ونحو ذلك وجعلوا منها مقدمات مسلما بها عندهم ومدلولا عليها بنوع قياس، وذلك القياس أوقعهم فيه مسلك سلكوه في إثبات حدوث العالم بحدوث الأعراض؟ أو إثبات إمكان الجسم بالتركيب من الأجزاء، فوجب طرد الدليل بالحدوث والإمكان لكل ما شمله هذا الدليل.

وقد ذكر الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ خطر قياس الخالق سبحانه على المخلوق في الشفاعة وغيرها قال: "وبهذا القياس الفاسد عبدت الأصنام، واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والوليّ". وإنما يستجيز القول بالباطل والقياس الفاسد من أعماه التقليد لأهل البدع وأصمه، قال الله تعالى: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)} الحج: ٤٦.

من أجل هذا بنى الدهريون والمشركون ومعطلة الصفات وسائر أهل الضلال، مذاهبهم على القياس الفاسد، فضلوا عن سواء السبيل، وما أنكروا ما أنكروه؛ إلا لجهلهم به، وكونه لا تدركه عقولهم؛ لأنهم لا يؤمنون بالغيب.

فمبنى التفكير على قياس الغائب عندهم، هو أن يقاس على الشاهد، وإيجاد العلاقة بين النظير ونظيره، والله -عَزَّ وَجَلَّ- ليس له ند ولا مثيل ولا مسام ولا نظير حتى يقاس عليه، أو توجد بينه وبينه علاقة، تؤدي إلى إدراك كنهه وحقيقته، وهذا لا يقدح في الإيمان بمعاني ما أخبرت به النصوص الشرعية في حق الله -عَزَّ وَجَلَّ-.

والحقيقة أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- ليس له شبيه ولا نظير، فالتفكير الذي مبناه على القياس ممتنع في حقه، وإنما هو معلوم بالفطرة، فيذكره العبد، وبالذكر، وبما أخبر به عن نفسه، يحصل للعبد من العلم به أمور عظيمة؛ لا تنال بمجرد التفكير والتقدير؛ أعني من العلم به نفسه؛ فإنه الذي لا تفكير فيه.

وهذا " القياس هو الذي اعترف أهل النار في النار ببطلانه حيث قالوا: {تَاللهِ إِنْ كُنَّا

=

=

لَفِـي ضَـلَالٍ مُبِـينٍ (٩٧)} الـشعراء: ٩٧، {إِذْ نُـسَوِّيكُمْ بِـرَبِّ الْعَـالَمِينَ (٩٨)} الشعراء: ٩٨، وذم الله أهله بقوله: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } الأنعام: ١، أي: يقيسونه على غيره ويسوون بينه وبين غيره في الإلهية والعبودية، وكل بدعة ومقالة فاسدة في أديان الرسل فأصلها من القياس الفاسد".

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ ، في ذكر سبب ضلال أهل البدع في باب الأسماء والصفات: " هؤلاء الجهال يمثلون في ابتداء فهمهم صفات الخالق بصفات المخلوق، ثم ينفون ذلك ويعطلونه، فلا يفهمون من ذلك إلا ما يختص بالمخلوق، وينفون مضمون ذلك، ويكونون قد جحدوا ما يستحقه الرب من خصائصه وصفاته، وألحدوا في أسماء الله وآياته، وخرجوا عن القياس العقلي، والنص الشرعي، فلا يبقى بأيديهم لا معقول صريح، ولا منقول صحيح".

وبالجملة فإن القياس الفاسد أصل كل شر، وهذا باب واسع.

المطلب الثاني: الانحراف المؤدي إلى الإفراط في توحيد الأسماء والصفات.

من جملة المخالفين لأهل السنة والجماعة في هذا الباب من غير المعطلة: مبتدعة الصوفية والرافضة وغيرهما، فمخالفتهم لا تتعلق بإثبات الأسماء والصفات أو نفيها كما هو الشأن مع المعطلة، بل مخالفتهم من جهة التسوية بين الله وبين المخلوقين، والكمال المختص بالله -عَجَّلَ- ليس لغيره فيه نصيب، فادعاؤه منازعة للربوبية المتضمنة للأسماء والصفات وفرية على الله -عَجَّلَ-.

ومن أجل هذا فإن الانحراف المؤدي إلى الإفراط في توحيد الأسماء والصفات، يأتي من طريقتين، وهما:

-أولاً: إرادة تنزيه الله عن النقص.

إن دعوى تنزيه الله عن النقص في ربوبيته أو عبادته قد ادعاها قوم من الكفار ممن جعلوا لله شركاء أو شفعاء ووسطاء، تنزيها له -بزعمهم- عن أن يعبدوه مباشرة،

=

=

ولكنهم وقعوا في أعظم الشرك والكفران، فكما ادَّعى أولئك المشركون التنزيه في عبادة الله فضلوا، ادعى المتجهمة التنزيه في صفاته فضلوا، كما ادعى المتصوفة تنزيه الله من العدم فبالغوا في الإثبات حتى قالوا بوحدة الوجود، والاتحاد والحلول، فأضفوا على المخلوق صفات الكمال التي لا تصلح إلا لله -ﷻ-، وجعلوا الله -سبحانه وتعالى -مخالطـًا للقاذورات والأوساخ تعالى الله عن جهلهم وغلوهم، وهنا يقعون فيما فروا منه وهو التشبيه، ففرطوا غاية التفريط في الله وأسمائه وصفاته وأفعاله ودينه، وغلوا في رجالهم وشيوخهم فأثبتوا لهم النفع والضر والسعادة والشقاء فيتمسحون بالقبور والأضرحة فما ذاك إلا للجمع بين المتناقضات والمتضادات، التي وقعوا فيها لابتعادهم عن المنهج السوي والنور القوي قال تعالى: {قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا} مريم: ٧٥.

والحقيقة أن الذي وقع فيه أهل الحلول والاتحاد وأصحاب القول بوحدة الوجود، هو الجمع بين، التعطيل المحض، وتشبيه الخالق بالمخلوق.

وقد بين شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هناك من وقع في نوعي التمثيل، فقال: "إن الجهمية النفاة يشبهون الخالق تعالى بالمخلوق في صفات النقص، كما ذكر الله تعالى عن اليهود أنهم وصفوه بالنقائص وكذلك الجهمية النفاة إذ قالوا: هو في نفسه لا يتكلم ولا يحب ونحو ذلك من نفيهم. والحلولية يشبهون المخلوق بالخالق، فيصفونه بصفات الكمال التي لا تصلح إلا لله، كما فعلت النصارى في المسيح، ومن جمع بين النفي والحلول، كحلولية الجهمية... فهم يصفون المخلوق بكل ما يوصف به الخالق، ويصفون الخالق بكل ما يوصف به المخلوق، فإن الوحدة والاتحاد والحلول العام يقتضي ذلك".

-ثانيـًا: القياس الفاسد في العقليات، والتأويل الفاسد في السمعيات:

سبق بيان أن المعطلة طلبوا تنزيه الله فردوا النصوص أو حرفوها، وعبدوا إلها لا

=

=

يعرفون له صفة إلا أنه حي موجود، اعتماداً على مقررات عقولهم ومناطقهم، وهي لا تنفرد بتقرير المغيبات؛ إذ المعول فيها على السمعيات من الكتاب والسنة.

وقدموا المنهج العقلي على الأحكام الشرعية، فعملوا ما هو عندهم حسناً، وتركوا ما اعتقدوه قبيحاً، ولو كان ثابتاً العمل به عند المسلمين من أصل شرعهم، فارتكبوا المحرمات، وعللوا فعلهم لها بالتأويل والمجاز.

أما المشبهة فقد وصفوا الله تعالى بصفات النقص والتشبيه والتمثيل، فعبدوا ربا كالبشر في حقيقته، فهو محتاج لمخلوقاته كالعرش والسرير الذي يجلس عليه المخلوق، والجمل الذي يركبه يوم عرفة تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

كما أنهم شبهوا المخلوق بالخالق، ودعواهم أن الإنسان "هو خليفة الله، استخلفه؛ بأن جعل فيه من أسمائه وصفاته ما ضاهى به الحضرة الإلهية، وهؤلاء طائفتان: طائفة تثبت الرب وراء العالم، وتجعل الإنسان خليفة لله.

وطائفة أخرى لا تثبت للرب وجوداً غير العالم، بل يجعلونه هو وجود العالم، ويجعلون الإنسان نسخة ذلك الوجود ومختصره، فهو الخليفة الجامع فيه".

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : "حقيقة الشرك هو:

١ ـ التشبه بالخالق.

٢ ـ التشبيه للمخلوق به، هذا هو التشبيه في الحقيقة".

وإذا كان التشبيه هو حقيقة الشرك كما ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، فإن التشبيه يقع في أقسام التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وهذا الخلل في توحيد الأسماء والصفات قادهم إلى الخلل في التطبيق أيضاً، وكتب الفرق والتاريخ مليئة بمثل هذا، وحقيقة الأمر، "إذا تأمل اللبيب الفاضل

=

=

هـذه الأمـور، تبـين لـه أن مـذهب الـسلف والأئمـة في غايـة الاسـتقامة والـسداد، والصحة والاطراد، وأنه مقتضى المعقـول الـصريح والمنقـول الـصحيح، وأن مـن خالفه، كان مع تناقض قوله المختلف -الـذي يؤفـك عنـه مـن أفـك-خارجـاً عـن موجب العقل والسمع، مخالفـاً للفطـرة والـسمع"، "وبـسبب هـذه البـدع وأمثالهـا مـن المنكـرات المخالفـة لـدين الإسـلام: سـلط الله أعـداء الـدين؛ فـإن الله يقـول: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)} الحج: ٤٠ -٤١، وأي معروف أعظم من الإيمان بـالله وأسـمائه وآياتـه؟ ! وأي منكر أعظم من الإلحاد في أسماء الله وآياته؟ !".

لذلك فقد تفرد منهج أهل السنة بأنه وسط بين هذه البدع المتقابلة.

مسألة: تعريف توحيد الأسماء والصفات.

توحيد الأسماء والصفات: هو إفراد الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى الواردة في القرآن والسنة، والإيمان بمعانيها وأحكامها.

شرح مفردات التعريف.

أولاً: (إفـراد الله): هـذا معنـى كلمـة (التوحيـد)، فأصـل هـذه الكلمـة مـن (وحـد) فيقال: وحد يوحد توحيداً: أي جعله واحداً.

ومادة (وحد) في اللغة مصدرها على انفراد الشيء.

فإذا قلت: توحيد الله بأسمائه: فالمعنى إفراد الله بأسمائه.

ثانيا: (بأسمائه الحسنى): (بأسمائه): الاسم في اللغة: هو اللفـظ الموضـوع لمعنـى تعيينـاً أو تمييزاً. أو الاسم: ما دل على الذات وما قام بها من الصفات.

=

=

ومن أسماء الله تعالى: الله -الرحمن -الرحيم -الغفور -العزيز -القدير -السميع -البصير -البارئ...

(الحسنى): هذا وصف لأسماء الله، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم.

١ -المواضع التي ورد فيها:

ورد هذا الوصف لأسماء الله ﷻ في أربعة مواضع من كتاب الله ﷻ، وهذه المواضع هي:

أ-قال تعالى: وَلِلهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الأعراف: ١٨٠].

ب-قال تعالى: قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى [الإسراء: ١١٠]

ج-قال تعالى: اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى [طه: ٨].

د-قال تعالى: هُوَ اللهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى [الحشر: ٢٤].

٢ -تصريفها: حسنى على وزن (فعلى) تأنيث أفعل التفضيل، فحسنى تأنيث أحسن، ككبرى تأنيث أكبر، وصغرى تأنيث أصغر، ولذلك يخطئ من يقول إنها تأنيث حسن؛ لأن تأنيث (حسن) (حسنة)، ومن أجل ذلك لا يصح أن نقول: إن أسماء الله حسنة، والصواب هو أن نقول: إن أسماء الله حسنى ما وصفها الله بذلك.

٣ -معناها: معنى حسنى: المفضلة على الحسنة، أي البالغة في الحسن غايته.

المعنى العام للآية: وَلِلهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى: لله أحسن الأسماء وأجلها لإنبائها عن أحسن المعاني وأشرفها.

٥ -الحكم المستفاد: يجب الإيمان بهذا الوصف الذي أخبر الله به عن أسمائه وذلك بالاعتقاد الجازم أن أسماء الله هي أحسن الأسماء، وأتمها، وأكملها معنى،

=

=

وفي هذا الوصف أحكام أخرى مستفادة...

ثالثًا: (وصفاته العلى):

(وصفاته): الصفة هي: ما قام بالذات مما يميزها عن غيرها من أمور ذاتية أو معنوية أو فعلية.

ومن صفات الله ﷻ:

الذاتية: اليدان -الوجه -العينان -الأصابع.

المعنوية: العلم -القدرة -الحياة -الإرادة.

الفعلية: النزول -الاستواء -الخلق -الرزق.

(العُلَى): قال تعالى: لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآَخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَللهِ المَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ [النحل: ٦٠].

وقال تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ المَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ [الرُّوم: ٢٧]........

٢ -تصريفها: (الأعلى) صيغة أفعل التفضيل، أي أعلى من غيره°.

٣ -معنى الآية: قال القرطبي: وَللهِ المَثَلُ الأَعْلَى: أي الوصف الأعلى°.

وقال ابن كثير: وَللهِ المَثَلُ الأَعْلَى وهو كل صفة كمال؛ وكل كمال في الوجود فالله أحق به من غير أن يستلزم ذلك نقصًا بوجه°.

٤ -الحكم المستفاد: يجب الإيمان بما أخبر الله به عن نفسه، وذلك بالاعتقاد الجازم بأن كل ما أخبر الله به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ من الصفات هي صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، فهو سبحانه المستحق للكمال المُطلق من جميع الوجوه.

قال الإمام ابن القيم: (المثل الأعلى يتضمن ثبوت الصفات العليا لله سبحانه، ووجودها العلمي، والخبر عنها، وذكرها، وعبادة الرب سبحانه بها...)°.

=

=

رابعـًا: الواردة في القرآن والسنة

أي يجب الوقوف في أسماء الله وصفاته على ما جاءت به نصوص القرآن والسنة لا نزيد على ذلك ولا ننقص منه.

فلا نسمي أو نصف الله بما لم يسم أو يصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ.

وذلك لأنه لا طريق إلى معرفة أسماء الله وصفاته إلا من طريق واحد هو طريق الخبر -أي الكتاب والسنة -.

فلو قال شخص: لله سمع بلا أذنين.

وقال آخر: لله سمع بأذنين.

لحكمنا بخطأ الاثنين؛ لأنه لم يأت ذكر الأذنين في النصوص لا نفيـًا ولا إثباتـًا، والحق هو أن يقال: لله سمع يليق بجلاله كما جاءت بذلك النصوص، وقد نهانا الله أن نتكلم بغير علم، فقال تعالى: وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا [الإسراء: ٣٦] وبالتالي لا يجوز الإثبات أو النفي إلا بالنص.

قال الإمام أحمد (ت ٢٤١) رَحِمَهُ اللهُ: (لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، أو ووصفه به رسوله ﷺ، لا نتجاوز القرآن والسنة)[1].

وقال ابن عبد البر (ت ٤٦٣) رَحِمَهُ اللهُ: (ليس في الاعتقاد كله في صفات الله وأسمائه إلا ما جاء منصوصـًا في كتاب الله، أو صح عن رسول الله ﷺ، أو أجمعت عليه الأمة، وما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كله أو نحوه يسلم له ولا يناظر فيه)[2].

خامسـًا: والإيمان بمعانيها وأحكامها: أي الإيمان بما تضمنته من المعاني، وبما ترتب عليها من مقتضيات وأحكام.

وهذا ما جاء الأمر به والحث عليه في القرآن والسنة.

=

=

فمن القرآن: قوله تعالى: وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا [الأعراف: ١٨٠]، والشاهد من الآية قوله: (فادعوه بها).

ووجه الاستشهاد: أن الله يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها، فالدعاء بها يتناول:

دعاء المسألة: كقولك: ربي ارزقني.

ودعاء الثناء: كقولك: سبحان الله.

ودعاء التعبد: كالركوع والسجود.

ومن السنة: قوله ﷺ: (إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحد، من أحصاها دخل الجنة) متفق عليه.

الشاهد من الحديث: قوله ﷺ: (من أحصاها).

ووجه الاستشهاد: أن معنى أحصاها: أي حفظها ألفاظًا، وفهم معانيها ومدلولاتها، وعمل بمقتضياتها وأحكامها.

فالعلم بأسماء الله وصفاته، واعتقاد تسمي الله واتصافه بها هو من العبادة، وإدراك القلب لمعانيها، وما تضمنته من الأحكام والمقتضيات، واستشعاره وتجاوبه لذلك بالقدر الذي يؤدي إلى سلامة تفكيره واستقامة سلوكه، هو عبادة أيضًا.

فأهل السنة يؤمنون بما دلت عليه أسماء الله وصفاته من المعاني، وبما يترتب عليها من مقتضيات وأحكام، بخلاف أهل الباطل الذين أنكروا ذلك وعطلوه.

فأهل السنة يؤمنون بأن كل اسم من أسماء الله يدل على معنى الذي نسميه (الصفة)، فلذلك كان لزامًا على من يؤمن بأسماء الله تعالى أن يراعي الأمور التالية:

أولاً: الإيمان بثبوت ذلك الاسم لله ﷻ.

ثانيًا: الإيمان بما دل عليه الاسم من المعنى أي (الصفة).

=

=

ثالثًا: الإيمان بما يتعلق به من الآثار والحكم والمقتضى.

مثال ذلك: (السميع).

اسم من أسماء الله الحسنى، فلابد من الإيمان به من:

١ -إثبات اسم (السميع) باعتباره اسمًا من أسماء الله الحسنى.

٢ -إثبات (السمع) صفة له.

٣ -إثبات الحكم (أي الفعل) وهو أن الله يسمع السر والنجوى.

وإثبات المقتضى والأثر: وهو وجوب خشية الله، ومراقبته، وخوفه، والحياء منه ﷻ .

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: (كل اسم من أسمائه ﷻ له تعبد مختص به علمًا ومعرفة وحالاً:

علمًا ومعرفة: أي إن من علم أن الله مسمى بهذا الاسم وعرف ما يتضمنه من الصفة ثم اعتقد ذلك فهذه عبادة.

وحالاً: أي إن لكل اسم من أسماء الله مدلولاً خاصًا وتأثيراً معينًا في القلب والسلوك، فإذا أدرك القلب معنى الاسم وما يتضمنه واستشعر ذلك، تجاوب مع هذه المعاني، وانعكست هذه المعرفة على تفكيره وسلوكه)[١].

وكذلك الشأن في صفات الله ﷻ ، فلابد من الإيمان بمعانيها وأحكامها، فهذه عقيدة أهل السنة، بخلاف عقيدة المعطلة الذين نفوا ما دلت عليه تلك الصفات من المعاني، وتلاعبوا بتلك المعاني فحرفوها وبدلوها.

فأهل السنة يرون أنه لزامًا على من أراد إثبات الصفات والإيمان بأنها صفات كمال تثبت لله حقيقة -أن يراعي الأمور التالية:

١ -إثبات تلك الصفة فلا يعاملها بالنفي والإنكار.

٢ -أن لا يتعدى بها اسمها الخاص الذي سماها الله به، بل يحترم الاسم كما

=

=

يحترم الصفة، فلا يعطل الصفة ولا يغير اسمها ويعيرها اسماً آخر، كما تسمي المعطلة سمعه وبصره وكلامه (أعراضاً).

ويسمون وجهه ويديه وقدمه (جوارح وأبعاضاً).

ويسمون علوه على خلقه واستواءه على عرشه (تحيزاً).

٣ -عدم تشبيهها بما للمخلوق، فإن الله سبحانه (ليس كمثله شيء) لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

٤ -اليأس من إدراك كنهها وكيفياتها، فالعقل قد يئس من تعرف كنه الصفة وكيفيتها، فإنه لا يعلم كيف الله إلا الله، وهذا معنى قول أهل السنة: (بلا كيف): أي بلا كيف يعقله البشر، فإن من لا تعلم حقيقة ذاته وماهيته كيف تعرف كيفية نعوته وصفاته؟ ولا يقدح في الإيمان بها، ومعرفة معانيها، فالكيفية وراء ذلك[٥].

٥ -تحقيق المقتضى والأثر لتلك الصفات، فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها -أعني من موجبات العلم بها، والتحقق بمعرفتها -فعلم العبد بتفرد الرب بالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، يثمر له عبودية (التوكل).

وعلم العبد بجلال الله وعظمته وعزه، يثمر له الخضوع، والاستكانة، والمحبة[٥].

مسألة: تعريف الصفات الإلهية وبيان أقسامها.

مسألة: تعريف الصفات: حدود الأشياء وتفسيرها الذي يوضحها، تتقدم أحكامها، فإن الحكم على الأشياء فرع عن تصورها. فمن حكم على أمر من الأمور -قبل أن يحيط علمه بتفسيره، ويتصوره تصوراً يميزه عن غيره -أخطأ خطأً فاحشاً

فلابد عند الحكم على الشيء من أن يكون مسبوقاً بتصور ماهية المحكوم عليه والمحكوم به، فإن كل تصديق بشيء لابد أن يكون مسبوقاً بتصور

والغرض من وضع الحدود والتعريفات هو التمييز بين المحدود وبين غيره من

=

=

جهة

وكذلك فإن من وظيفته تفصيل ما دل عليه الاسم بالإجمال، فالحدود والتعريفات تساعد على تصور حقيقة المحدود، ولذلك كان من شرطها أن تكون جامعة مانعة فلابد أن يكون الحد جامعاً حتى يتصور السامع حقيقة المحدود، ولابد كذلك أن يكون مانعاً ليتميز المحدود عن غيره

ومن هذا المنطلق لابد من تعريف للصفات يساعد على تصور مضمون هذا اللفظ من جهة ويحدد الفروق بين الصفة والاسم من جهة، وبين الصفة والخبر من جهة أخرى؛ كما يحدد الفرق بين ما يضاف إلى الله إضافة صفة وما يضاف إلى الله إضافة تشريف وتكريم والتعريف الذي سأذكره هاهنا هو تعريف الصفات الثبوتية، وأما تعريف الصفات السلبية (أي المنفية) فسيأتي عند ذكر أقسام الصفات

ضابط الصفات: هي ما قام بالذات الإلهية مما يميزها عن غيرها، ووردت به نصوص الكتاب والسنة

شرح مفردات التعريف: أ-"ما قام بالذات" يخرج من هذا التقييد ما كان من إضافة المُلْك والتشريف، إذ الإضافة إلى الله نوعان: النوع الأول: إضافة مُلْك وتشريف وضابطها: كل ما يضاف إلى الله ويكون عيناً قائمة بنفسها، أو حالاً في ذلك القائم بنفسه

ومثال ما يضاف ويكون عيناً قائمة بنفسها قوله تعالى: {نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا}

ومثال ما يكون حالاً في ذلك القائم بنفسه قوله تعالى: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} فهذا لا يكون صفة لأن الصفة قائمة بالموصوف

النوع الثاني: إضافة الصفة إلى الله وضابطها: ما كان صفة قائمة بغيرها ليس لها محل تقوم به وهي المقصودة هنا

=

=

فالله لا يتصف إلا بما قام به لا بما يخلقه في غيره، وهذا حقيقة الصفة، فإن كل موصوف لا يوصف إلا بما قام به لا بما هو مباين له، صفة لغيره

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأما إضافة الوصف إلى الله فتعريفها: ما كان صفة قائمة بغيرها ليس لها محل تقوم به" أي قبل الإضافة والتخصيص

ومن فوائد هذا التقييد الرد على زعم الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم الذين زعموا أن الصفة هي مجرد قول الواصف، فزعموا أن إضافة الصفات هي إضافة وصف من غير قيام معنى به وهذا باطل، فإن حقيقة الصفة هي ما قام بالموصوف، فإن كل موصوف لا يوصف إلا بما قام به لا بما هو مباين له. أ- "بالذات الإلهية" لفظ "الذات" في أصل اللغة تأنيث ذو، وهذا اللفظ لا يستعمل إلا فيما كان مضافاً إلى غيره كأسماء الأجناس، ويتوصلون به إلى الوصف بذلك فيقال: فلان ذو علم وذو مال وشرف

وحيث جاء لفظ ذو في القرآن أو لغة العرب وكذا لفظ "ذات" لم يجيء مقرونا إلا بالإضافة كقوله: {فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ} وقوله: {عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}، وقول خُبيب رَضِوَلِلَّهُعَنْهُ الذي في صحيح البخاري

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

فاسم الذات في كلام النبي ﷺ، والصحابة، والعربية المحضة بهذا المعنى.

ثم أطلقه المتكلمون وغيرهم على النَّفْس، فإنهم لما وجدوا الله في القرآن قال: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ}، {وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَه} وصفوها فقالوا: نفس ذات علم، وقدرة، ورحمة، ومشيئة، ونحو ذلك. ثم حذفوا الموصوف وعرفوا الصفة فقالوا: الذات. وهي كلمة مولدة ليست من العربية العرباء

فهذا لفظ يقتضي وجود صفات تضاف الذات إليها، فأطلق بإزاء النفس

=

=

ب ـ "مما يميزها عن غيرها" في هذا إشارة إلى وظيفة الصفة، فالله ﷻ وصف نفسه بصفات كثيرة، تَعَرَّفَ بها إلى عباده، وهذه الصفات هي التي تميز الخالق ﷻ عما سواه وتُظْهِرُ للعباد كمال الرب ﷻ وعظمة شأنه، وجلال قدرته، وتزيد العبد معرفة بالله ﷻ ، ولا شك أن حاجة الناس إلى معرفة ربهم هي أعظم الحاجات، ولذلك تَعَرَّفَ الله لعباده بصفاته، ليكون ذكرهم له أعظم وأكثر، "وكلما كانت حاجة الناس إلى معرفة الشيىء وذكره أشد وأكثر، كانت معرفتهم به وذكرهم له أعظم وأكثر، وكانت طرق معرفته أكثر وأظهر، وكانت الأسماء المعرِّفة له أكثر، وكانت على معانيه أدل"

وهذا الشأن حاصل في باب أسماء الله وصفاته، فالله هو أجل معلوم وأعظمه وأكبره. ولذلك كان العلم بأسماء الله وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأشرفها وأعظمها، فمن عرف الله عرف ما سواه ومن جهل ربه فهو لما سواه أجهل، فالعلم بالله أصل كل علم وهو أصل علم العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته، والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها وما تزكو به وتفلح به، فالعلم به سعادة العبد والجهل به أصل شقاوته

وعلى أساس العلم الصحيح بالله وأسمائه وصفاته يقوم الإيمان الصحيح والتوحيد الخالص، وتنبني مطالب الرسالة جميعها

فالمعرفة لله تَلْزَمُ العبد المؤمن لينعقد بها أصل الإيمان ولتجعله في سلامة من الكفر والشرك المخرجين من الإيمان

جـ ـ "ووردت به نصوص الكتاب والسنة" أي يجب الوقوف في هذا الباب على ما جاءت به نصوص الكتاب والسنة الصحيحة، فلا نثبت لله تعالى من الصفات إلا ما دل الكتاب والسنة على ثبوته

قال الإمام أحمد: "لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا

=

=

يُتَجاوز القرآن والحديث"

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "القول الشامل في جميع هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، وبما وصفه به السابقون الأولون لا يُتَجاوز القرآن والحديث"

ولدلالة الكتاب والسنة على ثبوت الصفات ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: التصريح بالصفة

كالعزة في قوله تعالى: {فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا}.

وقوله ﷺ: "أعوذ بعزتك الذي لا إله إلا أنت"

والقوة في قوله تعالى: {أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}.

والرحمة في قوله تعالى: {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ}.

واليدين في قوله تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ}.

والبطش في قوله تعالى: {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ}.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إضافة الصفة إلى الموصوف كقوله تعالى: {ولا يحيطون بشيء من علمه}، وقوله: {إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ}، وفي حديث الاستخارة "اللهم إني أستخيرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك"٩، وفي الحديث الآخر "اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق"١٠، فهذا في الإضافة الاسمية وأما بصيغة الفعل فكقوله: {عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ}، وقوله {عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ} أما الخبر الذي هو جملة اسمية فمثل قوله تعالى: {وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}١٣، وقوله تعالى: {وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}١٤.

وذلك لأن الكلام الذي توصف به الذوات: ١-إما جملة

٢-أو مفرد فالجملة إما اسمية: كقوله تعالى: {وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}

أو فعلية: كقوله: {عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوه}

=

=

أما المفرد فلا بد فيه من:

١ـ إضافة الصفة لفظاً أو معنى كقوله: {بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ} وقوله: {هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً}

٢ـ أو إضافة الموصوف كقوله: {ذُو الْقُوَّةِ} الوجه الثاني: تضمن الاسم للصفة فمن الأمور المتقررة في عقيدة أهل السنة والجماعة أن أسماء الله الحسنى متضمنة للصفات، فكل اسم يدل على معنى من صفاته ليس هو المعنى الذي دل عليه الاسم الآخر

فالعزيز متضمن لصفة العزة وهو مشتق منها

والخالق متضمن لصفة الخلق وهو مشتق منها

والرحيم متضمن لصفة الرحمة وهو مشتق منها

فأسماء الله مشتقة من صفاته

وترجع أسماء الله الحسنى من حيث معانيها إلى أحد الأمور التالية: ١-إلى صفات معنوية: كالعليم، والقدير، والسميع، والبصير.

٢-ما يرجع إلى أفعاله: كالخالق، والرازق، والبارئ، والمصور.

٣-ما يرجع إلى التنزيه المحض ولا بد من تضمنه ثبوتاً إذ لا كمال في العدم المحض: كالقدوس، والسلام، والأحد.

٤-ما دل على جملة أوصاف عديدة ولم يختص بصفة معينة بل هو دال على معنى مفرد نحو: المجيد، العظيم، الصمد

الوجه الثالث: التصريح بفعل أو وصف دال عليها أي ما فيها معنى الصفة والفعل مثل قوله تعالى: {وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً} (الآية ١٦٤ من سورة النساء) وقوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}. وقوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ}.

=

=

وقوله تعالى: {فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} وقوله تعالى: {وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ} وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَه} وقوله تعالى: {رضي الله عنهم وَرَضُوا عَنْهُ}. وقوله تعالى: {وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ}. وقوله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}.

وقوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْش}. وقوله تعالى: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً}.

وبما تقدم من شرح لمفردات التعريف أرى أنه هذا التعريف هو المناسب لتعريف الصفات والله أعلم.

مسألة: الفرق بين الوصف والصفة.

كل واحد من لفظ "الوصف" و"الصفة" مصدر في الأصل كـ "الوعد -والعِدَة" و"الوزن-والزِنة"، فالصفة: مصدر وصفتُ الشيء أصفه صفة

والوصف والصفة:

١-تارة يراد به: الكلام الذي يوصف به الموصوف، مثاله: قول الصحابي في {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ}: أحبها لأنها صفة الرحمن

٢-وتارة يراد به: المعاني التي دل عليها الكلام كالعلم والقدرة، والجهمية والمعتزلة وغيرهم تنكر هذا ويقولون: إنما الصفات مجرد العبارة التي يعبر بها عن الموصوف، فقالوا: إن إضافة الصفات إلى الله من إضافة وصف من غير قيام معنى به

والكلابية ومن اتبعهم من الصفاتية قد يفرقون بين الوصف والصفة، فيجعلون الوصف: هو القول، والصفة: المعنى القائم بالموصوف.

فأدخلوا في الوصف (الذي هو القول عندهم) صفات الأفعال حتى ينفوا قيامها بالذات

=

=

وأدخلوا في الصفة (التي هي المعنى القائم بالذات) ما أثبتوه من الصفات كصفات المعاني السبعة (العلم، الحياة، القدرة، الإرادة، السمع، البصر، الكلام) ليتأتى لهم على هذا التقسيم اعتبار بعض الصفات قائماً بالذات، وبعضها غير قائم بها، فأرادوا بذلك نفي صفات الأفعال واعتبروها نسباً وإضافات لا تقوم بالذات

قال ابن القيم في الرد على زعمهم هذا:

فالحق أن الوصف ليس بمورد التق	سيم هذا مقتضى البرهان
بل مورد التقسيم ما قد قام	بالذات التي للواحد الرحمن
فهما إذا نوعان أوصاف وأفعال فالوصف	فهذي قسمة التبيان م الفعل بالموصوف
بالأفعال يستدعي قيا	بالبرهان
كالوصف بالمعنى سوى الأفعال ما	أن بين دينك قط من فرقان

فالحق أن مورد القسمة هو نفس ما يقوم بالذات، فيقال إن ما يقوم بالذات ويكون وصفاً لها، إما أن يكون: ١ -صفة معنى لازماً للذات. ٢ـ وإما أن يكون صفة فعل والوصف بالفعل يستدعي قيام الفعل بالموصوف، كالوصف بالمعنى سواء بسواء فإذا كان وصفه سبحانه بأنه عليم، قدير، حي،... الخ، يقتضي قيام العلم والقدرة والحياة به.

فكذلك وصفه بأنه خالق أو رازق أو مقدم أو مؤخر يقتضي قيام هذه الأفعال من الخلق والرزق والتقديم والتأخير ونحوها به

"ومن قال الصفات تنقسم إلى صفات ذاتية وفعلية، ولم يجعل الأفعال تقوم به، فكلامه فيه تلبيس، فإنه سبحانه لا يوصف بشيء لا يقوم به

وإن سلم أنه يتصف بما لا يقوم به فهذا هو أصل الجهمية الذين يصفونه بمخلوقاته ويقولون: إنه متكلم مريد وراض وغضبان ومحب ومبغض وراحم للمخلوقات يخلقها منفصلة عنه لا بأمور تقوم بذاته".

=

=

مسألة:: التعريف بالنوعين: يجب التفريق بين نوعين من الإضافة وردا في النصوص هما:

الأول: إضافة ملك.

الثاني: إضافة وصف.

١-أما إضافة الملك فتعريفها: هي كل ما يضاف إلى الله ويكون عينًا قائمة بنفسها، أو حالاً في ذلك القائم بنفسه ومن أمثلتها:

١-قوله تعالى: {نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا}، فإضافة الناقة إلى الله هنا من إضافة الملك والتشريف فالناقة عين قائمة بنفسها.

٢-قوله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً}، فالروح هنا هو جبريل عليه السلام.

٣-قوله تعالى: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}.

٤-وقوله تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ}.

٥-وقوله تعالى: {وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ}.

٦-وقوله تعالى: {مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُول}.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن المضاف إن كان شيئا قائمًا بنفسه أو حالاً في ذلك القائم بنفسه، فهذا لا يكون صفة لله، لأن الصفة قائمة بالموصوف

فالأعيان التي خلقها الله قائمة بأنفسها، وصفاتها القائمة بها تمتنع أن تكون صفات لله، فإضافتها إليه تتضمن كونها مخلوقة مملوكة، لكن أضيفت لنوع من الاختصاص المقتضي للإضافة لا لكونها صفة، والروح الذي هو جبريل من هذا

=

=

الباب، كما أن الكعبة والناقة من هذا الباب، ومال الله من هذا الباب، وروح بني آدم من هذا"

وأما إضافة الوصف إلى الله فتعريفها: ما كان صفة قائمة بغيرها ليس لها محل تقوم به

فإذا كان المضاف إليه لا يقوم بنفسه، بل لا يكون إلا صفة كالعلم، والقدرة، والكلام، والرضا، والغضب، فهذا لا يكون إلا إضافة صفة إليه فتكون قائمة به سبحانه

ومن أمثلة هذا القسم: قوله تعالى: {وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ}، فالكلام لا يقوم بنفسه إلا بالمتكلم فإضافته إلى المتكلم إضافة صفة إلى موصوفها

وقوله تعالى: {لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ}، فإضافة العلم إلى الله إضافة صفة إلى موصوفها.

وفي الحديث: "اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك"، فعلمه صفة قائمة به وقدرته صفة قائمة به

وفي الحديث: "أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك"، فرضاه وسخطه قائم به، وكذلك عفوه وعقوبته

وأما أثر ذلك وهو ما يحصل للعبد من النعمة واندفاع النقمة فذلك مخلوق منفصل عنه ليس صفة له

تنبيه: وقد يعبر بلفظ المصدر عن المفعول به فيسمى المعلوم علماً والمقدور قدرة والمأمور أمراً والمخلوق بالكلمة كلمة فيكون ذلك مخلوقاً ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ} والمراد بالأمر هنا المخلوق المكوَّن بالأمر

=

=

وقوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ}

وقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ} فإذا قيل المسيح "كلمة الله" فمعناه المخلوق بالكلمة،إذ المسيح نفسه ليس كلاماً.

وكقوله في الحديث الصحيح للجنة: "أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي" كما قال للنار: "أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل واحدة منكما ملؤها"

فالرحمة هنا عين قائمة بنفسها لا يمكن أن تكون صفة لغيرها.

مسألة: أقوال العلماء في تقرير المسألة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "ما ذكر في القرآن أنه منه أو أضيف إليه، فإن كان عينا قائمة بنفسها، أوأمراً قائماً بتلك العين كان مخلوقا. كقوله في عيسى: {وَرُوحٌ مِنْهُ} وقوله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ} وقوله تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ}.

وأما ما كان صفة لا تقوم بنفسها، ولم يذكر لها محل غير الله كان صفة له، فكالقول، والعلم، والأمر إذا أريد به المصدر كان المصدر من هذا الباب كقوله تعالى: {أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} وإذا أريد به المخلوق المكون بالأمر كان من الأول كقوله تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ}، وبهذا يفرق بين كلام الله سبحانه، وعلم الله، وبين عبد الله وبيت الله وناقة الله وقوله: {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً} وهذا أمر معقول في الخطاب، فإذا قلت علم فلان وكلامه ومشيئته لم يكن شيئا بائناً عنه، والسبب في ذلك أن هذه الأمور صفات لما تقوم به، فإذا

=

=

أضيفت إليه كان ذلك إضافة صفة لموصوف، إذ لو قامت بغيره لكانت صفة لذلك الغير لا لغيره"

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: "إضافة الروح إلى الله إضافة ملك لا إضافة وصف، إذ كل ما يضاف إلى الله: إن كان عيناً قائمة بنفسها فهو ملك له، وإن كان صفة قائمة بغيرها ليس لها محل تقوم به فهو صفة لله

ومن أمثلة القسم الأول: قوله تعالى: {نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا}

وقوله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا} وهو جبريل {فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيّاً}

وكقوله تعالى: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا}

وقال تعالى عن آدم: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}

ومن أمثلة القسم الثاني: كقولنا علم الله، وكلام الله، وقدرة الله، وحياة الله، وأمر الله ولكن قد يعبر بلفظ المصدر عن المفعول به فيسمى المعلوم علما، والمقدور قدرة، والمأمور أمراً، والمخلوق بالكلمة كلمة، فيكون ذلك مخلوقا

كقوله تعالى: {أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ}.

وكقوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ}

وكقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ}

وكقوله في الحديث الصحيح للجنة "أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي" كما قال للنار: "أنت عذابي أعذب بك من أشاء ولكل واحدة منكما ملؤها""

وقال السفاريني: "ومما ينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه نوعان: الأول: صفات لا تقوم بأنفسها كالعلم، والقدرة، والكلام، والسمع، والبصر فهذه

=

=

إضافة صفة إلى موصوف بها فالعلم والقدرة... الخ صفات له تعالى غير مخلوقة، وكذا وجهه ويده ونحو ذلك من الصفات الخبرية والذاتية وكذا الفعلية من التكوين والمحبة والرضا ونحوها، في مذهب السلف

الثاني: إضافة أعيان منفصلة كبيت الله، وناقة الله، وعبد الله، ورسول الله، وكذلك روح الله، فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه، ومصنوع إلى صانعه لكنها تقتضي تخصيصاً أو تشريفاً يتميز به المضاف إليه عن غيره "كبيت الله" وإن كانت كل البيوت لله ملكاً له، وكذلك "ناقة الله" والنوق كلها ملكه وخلقه، ولكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضي محبته لها وتكريمه وتشريفه، بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته، حيث تقتضي خلقه وإيجاده

فالإضافة العامة تقتضي الخلق والإيجاد، والخاصة تقتضي الاختيار {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ}، فإضافة الروح إليه تعالى من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة، ولا من باب إضافة الصفات، فتأمل هذا الموضع فإنه نفيس.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والله أخبر في الكتاب بأنه	منه ومجرور بمن نوعان
عينٌ ووصفٌ قائم بالعين فالأعيـ	ان خَلْقُ الخالق الرحمان
والوصف بالمجرور قام لأنه	أولى به في عرفِ كل لسان
ونظير ذا أيضاً سواء ما يضاف	إليه من صفة ومن أعيان
فإضافة الأوصاف ثابتة لمن	قامت به كإرادة الرحمان
وإضافة الأعيان ثابتة له	مُلْكا وخَلْقاً ما هما سِيَّان
فانظر إلى بيت الإله وعلمه	لَمَّا أضيفا كيف يفترقان
وكلامه كحياته وكعلمه	في ذي الإضافة إذ هما وصفان
لَكِنَّ ناقته وبيت إلهنا	فكعبده أيضاً هما ذاتان

=

=

فانظر إلى الجهمي لما فاته الحـ ـق المبين الواضح التبيان
كان الجميع لديه بابـاً واحداً والصبح لاح لمن له عينان

قال الشيخ الدكتور محمد خليل هراس في شرح هذه الأبيات: "يريد المؤلف في هذا الفصل أن يفرق بين ما كان من الأعيان مخبراً عنه أنه من الله؛ وبين ما كان من الأوصاف كذلك. وأن يفرق أيضـاً بين ما كان من الأعيان مضافـاً إلى الله، وبين ما كان من الأوصاف كذلك

فالمخبر عنه بأنه من الله على نوعين لأنه: إما أن يكون عينـاً من الأعيان أو وصفـاً قائمـاً بالعين.

فإن كان عينـاً فمعنى كونه من الله أنه هو خالقه سبحانه كما في قوله تعالى: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ}، وقوله: {قُل كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ}، وقوله: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعـاً مِنْهُ}، وقوله تعالى عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: {إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ} والآيات كثيرة في هذا الباب

وإن كان وصفـاً فمعنى كونه من الله أنه صفة له كما في قوله تعالى: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَق}،وقوله تعالى: {تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}، وقوله تعالى: {تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} ومعنى قول المؤلف: "والوصف بالمجرور قام" يعني أن ما أخبر عنه بمن إن كان وصفـاً فهو قائم بالمجرور بها لأنه أحق به في عرف أهل اللغات جميعـاً

ومثل ذلك تمامـاً يقال فيما يضاف إلى الله عَزَّ وَجَلَّ

فإن كان عينـاً مثل بيت الله، وناقة الله، وعباد الرحمن، فنسبته إليه ثابتة خلقـاً وملكـاً، وتكون إضافته للاختصاص والتشريف

وأما إن كان وصفـاً كعلم الله، وقدرته، وإرادته، وكلامه، وحياته، فهذه الإضافة

=

=

تقتضي قيامها بالله وأنه موصوف بها

وتدبر هذا الفرق بين قولك بيت الله، وعلم الله، فإن كُلاً منهما يضاف إلى الله، ولكن لما كانت إضافة الأول إضافة ذات دلت على أنه مخلوق

ولما كانت إضافة الثاني إضافة معنى دلت على أنه صفة للمضاف إليه

ولهذا لما اهتدى السلف لهذا الفرق هُدُوا إلى الصراط المستقيم، ولما ضل عنه الجهمي الزائغ جعل الجميع باباً واحداً، ولم يفرق بين الأوصاف والأعيان، فوقع في الضلال والبهتان".

مسألة: موقف المخالفين من المسألة.

موقف الجهمية والمعتزلة ومن وافقهم: ينكر الجهمية والمعتزلة صفات الله ﷻ ولذلك فهم لا يعترفون بالقسم الثاني من أقسام الإضافة إلى الله الذي هو إضافة الصفة إلى الموصوف

فالمعتزلة يرون امتناع قيام الصفات به، لاعتقادهم أن الصفات أعراض، وأن قيام العرض به يقتضي حدوثه، فردوا جميع ما يضاف إلى الله إلى إضافة خلق، أو إضافة وصف من غير قيام معنى به لأنهم يقولون إنما الصفات مجرد العبارة التي يعبر بها عن الموصوف، وينفون أن يكون لله وصف قائم به علم أو قدرة أو إرادة أو كلام

موقف الكلابية ومن اتبعهم من الصفاتية: يفرقون بين الوصف والصفة

فيجعلون الوصف: هو القول

ويجعلون الصفة: المعنى القائم بالموصوف

فقالوا: إن الوصف الذي هو القول يراد به الأفعال، وزعموا أنها لا تقوم به، والصفة: هي الصفات اللازمة القائمة بالذات

فظنوا أن هناك نوعين مختلفين من الصفات:

=

=

أحدهما: قائم بالذات لازم لها، كصفات المعاني السبعة التي هي العلم، والقدرة، والإرادة، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام

والثاني: صفات أفعال لا تقوم عندهم بالذات، بل هي نسب إضافية عدمية تنشأ من إضافة المفعول لفاعله، ولا يعقل لها وجود إلا بتلك الإضافة، فوجودها أمر سلبي، وليس لها وجود في نفسها، فليس ثمت عندهم موجود إلا المفعولات، وأما الأفعال فنسب وإضافات.

مسألة: العلاقة بين الأبواب الثلاثة

أولاً: يجب أن يُعْلَم أن توحيد الأسماء والصفات يشتمل على ثلاثة أبواب: الباب الأول: باب الأسماء

الباب الثاني: باب الصفات

الباب الثالث: باب الإخبار

فنحن إذا وقفنا وقفةَ تأمل عند نصوص الكتاب والسنة الواردة في هذا الشأن نجد الحقائق التالية: أن الله أطلق على نفسه أسماء كـ(السَّميع) و(البصير)، وأوصافاً كـ(السمع) و(البصر)، وهكذا أخبر عن نفسه بأفعالها فقال: {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} [المجادلة ١]، وقال تعالى: {وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران ١٥]. فاستعملها في تصاريفها المتنوعة، مما يدل على أن مثل ذلك يجوز إطلاقه عليه في أي صورة ورد

وأطلق على نفسه أفعالاً كـ(الصُّنع) و(الصِّبغة) و(الفعل) ونحوها. قال تعالى: {صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} [النمل ٨٨]، وقال تعالى: {صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً} [البقرة ١٣٨] وقال تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} [هود ١٠٧]، لكنه لم يَتَسَمَّ ولم يصف نفسه بها ولكن أخبر بها عن نفسه، ممَّا يدل على أنَّها تخالف الأوَّل في الحكم فوجب الوقوف فيها على ما ورد

=

=

ووصف نفسه بأفعال في سياق المدح كـ (يريد) و(يشاء) فقال جلَّ شأنه: {فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ} [الأنعام ١٢٥] وقال تعالى: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير ٢٩] إلا أنه لم يشتق له منها أسماء فدل على أن هذا النوع مخالف للقسمين الأولين، فوجب رده إلى الكتاب والسنة وذلك بالوقوف حيث أوقفنا الله ورسوله ﷺ

ووصف نفسه بأفعال أخرى على سبيل المقابلة بالعقاب والجزاء فقال تعالى: {يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُم} [النساء ١٤٢] وقال تعالى: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ} [الأنفال ٣٠]. ولم يشتق منها أسماء له تعالى فدل ذلك على أن مثل هذه الأفعال لها حكمٌ خاصٌ فوجب الوقوف على ما ورد

فهذه الحقائق السابقة قررت عند العلماء النتائج التالية:

١ـ أن النصوص جاءت بثلاثة أبواب هي (باب الأسماء) و(باب الصفات) و(باب الإخبار)

٢ـ أن باب الأسماء هو أخص تلك الأبواب، فما صح اسمـًا صحَّ صفة وصحَّ خبراً وليس العكس

٣ـ باب الصفات أوسع من باب الأسماء، فما صحَّ صفة فليس شرطـًا أن يصحَّ اسمـًا، فقد يصحُّ وقد لا يصح، مع أن الأسماء جميعها مشتقة من صفاته.

٤ـ أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته، فالله يُخْبَرُ عنه بالاسم وبالصفة وبما ليس باسم ولا صفة كألفاظ (الشيىء) و(الموجود) و(القائم بنفسه) و(المعلوم)، فإنه يخبر بهذه الألفاظ عنه ولا تدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا،

إن باب الأسماء والصفات توقيفيان.

فالأصل في إثبات الأسماء والصفات أو نفيهما عن الله تعالى هو كتاب الله وسنة

=

=

نبيه ﷺ، فما ورد إثباته من الأسماء والصفات في القرآن والسنة الصحيحة فيجب إثباته، وما ورد نفيه فيهما فيجب نفيه وأما ما لم يرد إثباته ونفيه فلا يصح استعماله في باب الأسماء والصفات إطلاقاً

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ لا نتجاوز القرآن والسنة"

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وطريقة سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ"

أما باب الإخبار فالسلف لهم فيه قولان: القول الأول: أن باب الإخبار توقيفي، فإن الله لا يُخْبَرُ عنه إلا بما ورد به النص، وهذا يشمل الأسماء والصفات، وما ليس باسم ولا صفة مما ورد به النص كـ (الشيء) و(الصنع) ونحوها

وأما مالم يرد به النص فإنهم يمنعون استعماله

القول الثاني: إن باب الإخبار لا يشترط فيه التوقيف، فما يدخل في الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته، كـ (الشيء) و(الموجود) و(القائم بنفسه)، فإنه يخبر به عنه ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا، فالإخبار عنه قد يكون باسم حسن، أو باسم ليس بسيِّئ، أي باسم لا ينافي الحسن، ولا يجب أن يكون حسناً، ولا يجوز أن يخبر عن الله باسم سيِّئ فيخبر عن الله بما لم يرد إثباته ونفيه بشرط أن يستفصل عن مراد المتكلم فيه، فإن أراد به حَقًّا يليق بالله تعالى فهو مقبول، وإن أراد به معنى لا يليق بالله عَزَّ وَجَلَّ وجب رده.

مسألة: الألفاظ المجملة وحكم دخولها في باب الصفات وموقف أهل السنة من استعمالها

يمكن تقسيم الألفاظ المجملة -أي التي لم يرد استعمالها في النصوص- على النحو التالي: أولاً: ألفاظ ورد استعمالها ابتداءً في بعض كلام السلف

=

=

ومن أمثلة ذلك لفظ (الذات) و(بائن)

وهذه الألفاظ تحمل معاني صحيحة دلت عليها النصوص

وهذا النوع من الألفاظ يجيز جمهور أهل السنة استعمالها

وهناك من يمنع ذلك بحجة أن باب الإخبار توقيفي كسائر الأبواب

والصواب أنه ما دام المعنى المقصود من ذلك اللفظ يوافق ما دلت عليه النصوص، واستعمل اللفظ لتأكيد ذلك فلا مانع

كقول أهل السنة: "إن الله استوى على العرش بذاته"

فلفظة (بذاته) مراد بها أن الله مستو على العرش حقيقة وأن الاستواء صفة له

وكقولهم: "إن الله عالٍ على خلقه بائن منهم"

فلفظة (بائن) يراد بها إثبات العلو حقيقة، والرد على زعم من قال إن الله في كل مكان بذاته

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "والمقصود هنا أن الأئمة الكبار كانوا يمنعون من إطلاق الألفاظ المبتدعة المجملة، لما فيها من لبس الحق بالباطل، مع ما تُوقعه من الاشتباه والاختلاف والفتنة، بخلاف الألفاظ المأثورة، والألفاظ التي بينت معانيها، فإن ما كان مأثوراً حصلت به الألفة، وما كان معروفاً حصلت به المعرفة"

وقال أيضاً: "فطريقة السلف والأئمة أنهم يراعون المعاني الصحيحة المعلومة بالشرع والعقل

ويراعون أيضاً الألفاظ الشرعية، فيعبرون بها ما وجدوا إلى ذلك سبيلا

ومن تكلم بما فيه معنى باطل يخالف الكتاب والسنة ردوا عليه

ومن تكلم بلفظ مبتدع يحتمل حقاً وباطلاً نسبوه إلى البدعة، وقالوا إنما قابل البدعة ببدعة ورد باطلاً بباطل"

=

=

فيستفاد من كلام شيخ الإسلام المتقدم أن الألفاظ على أربعة أقسام:

القسم الأول: الألفاظ المأثورة وهي التي وردت بها النصوص

القسم الثاني: الألفاظ المعروفة وهي التي بُيِّنَت معانيها

القسم الثالث: الألفاظ المبتدعة التي تدل على معنى باطل

القسم الرابع: الألفاظ المبتدعة التي تحتمل الحق والباطل

فلفظ (الذات) و(بائن) هي من القسم الثاني

وهذه الألفاظ كما أسلفنا إنما تستعمل في باب الإخبار ولا تستعمل في باب الأسماء والصفات، ولذلك لما اعترض الخطابي على استعمالها بقوله: "وزعم بعضهم أنه جائز أن يقال له تعالى حد لا كالحدود كما نقول يد لا كالأيدي فيقال له: إنما أُحْوِجْنَا إلى أن نقول يد لا كالأيدي لأن اليد قد جاء ذكرها في القرآن وفي السنة فلزم قبولها ولم يجز رَدُّها. فأين ذكر الحد في الكتاب والسنة حتى نقول حد لا كالحدود، كما نقول يد لا كالأيدي؟!

فرد شيخ الإسلام ابن تيمية على قول الخطابي من وجوه منها: "أن هذا الكلام الذي ذكره إنما يتوجه لو قالوا: إن له صفة هي الحد، كما توهمه هذا الراد عليهم. وهذا لم يقله أحد، ولا يقوله عاقل؛ فإن هذا الكلام لا حقيقة له إذ ليس في الصفات التي يوصف بها شيء من الموصوفات -كما وصف باليد والعلم- صفة معينة يقال لها الحد، وإنما الحد ما يتميز به الشيء عن غيره من صفته وقدره"

فأهل السنة لم يثبتوا بهذه الألفاظ صفة زائدة على ما في الكتاب والسنة، بل بينوا بها ما عطله المبطلون من وجود الرب تعالى ومباينته من خلقه وثبوت حقيقته"

ثانياً: ألفاظ ورد استعمالها في كلام بعض السلف تارة لإثباتها وتارة لنفيها

ومن أمثلة ذلك: لفظ (الحد) ولفظ (المماسة)، فإطلاق السلف لها ليس من باب الصفات وإنما هو من باب الإخبار، ولهم في حال الإثبات والنفي توجيه ليس هذا

=

=

محل بسطه
ثالثًا: ألفاظ ورد استعمالها في كلام بعض السلف وفي كلام خصومهم
ومن أمثلة ذلك: لفظة (الجهة)
رابعـًا: ألفاظ ورد استعمالها في كلام الخصوم ولم يرد استعمالها في كلام السلف.
ومن أمثلة ذلك: لفظ (الجسم) و(الحيز) و(واجب الوجود) و(الجوهر) و(العرض)
وأما النوعان الثالث والرابع فالجواب عن ذلك أن نقول الأصل في هذا الباب أن الألفاظ نوعان: النوع الأول: نوع مذكور في كتاب الله وسنة رسوله وكلام أهل الإجماع، فهذا يجب اعتبار معناه، وتعليق الحكم به، فإن كان المذكور به مدحـًا استحق صاحبه المدح، وإن كان ذمـًا استحق الذم، وإن أثبت شيئا وجب إثباته، وإن نفى شيئا وجب نفيه، لأن كلام الله حق، وكلام رسوله حق، وكلام أهل الإجماع حق
وهذا كقوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ} [الإخلاص ١-٤]، وقوله تعالى: {هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنِ} [الحشر ٢٢-٢٣]، ونحو ذلك من أسماء الله وصفاته
وكذلك قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى ١١]، وقوله تعالى: {لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَار} [الأنعام ١٠٣]، وقوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة ٢٢-٢٣]، وأمثال ذلك مما ذكره الله تعالى ورسوله ﷺ، فهذا كله حق.
النوع الثاني: الألفاظ التي ليس لها أصل في الشرع.
فتلك لا يجوز تعليق المدح والذم والإثبات والنفي على معناها، إلا أن يبين أنه يوافق الشرع، والألفاظ التي تعارض بها النصوص هي من هذا الضرب،كلفظ

=

=

(الجسم) و(الحيز) و(الجهة) و(الجوهر) و(العرض). فإن هذه الألفاظ يدخلون في مسماها الذي ينفونه أموراً مما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله، فيدخلون فيها نفي علمه وقدرته وكلامه، ويقولون إن القرآن مخلوق، ولم يتكلم الله به، وينفون رؤيته لأن رؤيته على اصطلاحهم لا تكون إلا لمتحيز في جهة وهو جسم، ثم يقولون: والله منزه عن ذلك فلا تجوز رؤيته. وكذلك يقولون إن المتكلم لا يكون إلا جسماً متحيزاً، والله ليس بجسم متحيز فلا يكون متكلماً، ويقولون: لو كان فوق العرش لكان جسماً متحيزاً، والله ليس بجسم متحيز، فلا يكون متكلماً فوق العرش وأمثال ذلك

الموقف من هذا النوع: "إذا كانت هذه الألفاظ مجملة -كما ذُكر-فالمخاطب لهم إما: ١-أن يفصل لهم ويقول: ما تريدون بهذه الألفاظ؟ فإن فسروها بالمعنى الذي يوافق القرآن قُبلت. وإن فسروها بخلاف ذلك رُدَّت.

٢-وأما أن يمتنع عن موافقتهم في التكلم بهذه الألفاظ نفياً وإثباتاً. ولكن يلاحظ أن الإنسان إذا امتنع عن التكلم بها معهم فقد ينسبونه إلى الجهل والانقطاع

وأن الإنسان إذا تكلم بها معهم نسبوه إلى أنه أطلق تلك الألفاظ التي تحتمل حقاً وباطلاً، وأوهموا الجهال باصطلاحهم أن إطلاق تلك الألفاظ يتناول المعاني الباطلة التي ينزه الله عنها"

ولعل الراجح في المسألة أن الأمر يختلف باختلاف المَصْلَحَةِ.

١-فإن كان الخصم في مقام دعوة الناس إلى قوله وإلزام الناس بها أمكن أن يقال له: لا يجب على أحد أن يجيب داعياً إلا إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ، فما لم يثبت أن الرسول دعا الخلق إليه لم يكن على الناس إجابة من دعا إليه، ولا له دعوة الناس إلى ذلك، ولو قدر أن ذلك المعنى حق، هذه الطريق تكون أصلح إذا لَبَّسَ مُلَبِّسٌ منهم على ولاة الأمور، وأدخلوه في بدعتهم، كما فعلت الجهمية بمن

=

=

لبسوا عليه من الخلفاء حتى أدخلوه في بدعتهم من القول بخلق القرآن وغير ذلك، فكان من أحسن مناظرتهم أن يقال: إئتونا بكتاب أو سنة حتى نجيبكم إلى ذلك وإلا فلسنا نجيبكم إلى ما لم يدل عليه الكتاب و السنة، هذا لأن الناس لا يفصل بينهم النزاع إلا كتاب منزل من السماء، وإذا ردوا إلى عقولهم فلكل واحد منهم عقل، وهؤلاء المختلفون يدعي أحدهم أن العقل أدَّاه إلى علم ضروري ينازعه فيه الآخر، فلهذا لا يجوز أن يجعل الحاكم بين الأمة في موارد النزاع إلا الكتاب والسنة، هذا ناظر الإمام أحمد الجهمية لما دعوه إلى المحنة، وصار يطالبهم بدلالة الكتاب والسنة على قولهم، لما ذكروا حججهم كقوله تعالى: {خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الأنعام ١٠٢]، وقوله: {مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ} [الأنبياء ٢]، وقول النبي ﷺ: "تجيء البقرة وآل عمران"، وأمثال ذلك من الأحاديث.

أجابهم عن هذه الحجج بما بين به أنها لا تدل على مطلوبهم

ولما قالوا: ما تقول في القرآن أهو الله أو غير الله؟ عارضهم بالعلم فقال: ما تقولون في العلم أهو الله أو غير الله؟ ولما ناظره أبو عيسى محمد بن عيسى برغوث -وكان من أحذقهم بالكلام- ألزمه التجسيم، وأنه إذا أثبت لله كلاماً غير مخلوق لزم أن يكون جسماً

فأجابه الإمام أحمد: بأن هذا اللفظ لا يُدرى مقصود المتكلم به، وليس له أصل في الكتاب والسنة والإجماع، فليس لأحد أن يلزم الناس أن ينطقوا به ولا بمدلوله

وأخبره أني أقول: هو أحد، صمد،لم يلد ولم يلد، ولم يكن له كفواً أحد، فبين أني لا أقول هو جسم ولا ليس بجسم، لأن كلا الأمرين بدعة محدثة في الإسلام، فليست هذه من الحجج الشرعية التي يجب على الناس إجابة من دعا إلى موجبها، فإن الناس إنما عليهم إجابة الرسول فيما دعاهم إليه وإجابة من دعاهم إليه رسول الله ﷺ، لا إجابة من دعاهم إلى قول مبتدع، ومقصود المتكلم بها

=

=

مجمل لا يُعرف إلا بعد الاستفصال والاستفسار، فلا هي معروفة في الشرع، ولا معروفة بالعقل إن لم يستفسر المتكلم بها، فهذه المناظرة ونحوها هي التي تصلح إذا كان المناظر داعياً.

٢-وأما إذا كان المناظر معارضاً للشرع بما يذكره، أو ممن لايمكن أن يرد إلى الشريعة

مثل من لا يلتزم الإسلام ويدعو الناس إلى ما يزعمه من العقليات أو ممن يدَّعي أن الشرع خاطب الجمهور، وأن المعقول الصريح يدل على باطن يخالف الشرع، ونحو ذلك.

أو كان الرجل ممن عرضت له شبهة من كلام هؤلاء، فهؤلاء لابد في مخاطبتهم من الكلام على المعاني التي يدعونها إما:

١-بألفاظهم.

٢-وإما بألفاظ يوافقون على أنها تقوم مقام ألفاظهم، وحينئذ يقال لهم الكلام إما:

أ-أن يكون في الألفاظ.

ب-وإما أن يكون في المعاني.

جـ-وإما أن يكون فيهما.

فإن كان الكلام في المعاني المجردة من غير تقييد بلفظ كما تسلكه المتفلسفة ونحوهم ممن لا يتقيد في أسماء الله وصفاته بالشرائع بل يسميه علة وعاشقاً ومعشوقاً ونحو ذلك

فهؤلاء إن أمكن نقل معانيهم إلى العبارة الشرعية كان حسناً، وإن لم يمكن مخاطبتهم إلا بلغتهم، فبيان ضلالهم ودفع صيالهم عن الإسلام بلغتهم أولى من الإمساك عن ذلك لأجل مجرد اللفظ. كما لو جاء جيش كفار ولا يمكن دفع شرهم عن المسلمين إلا بلبس ثيابهم، فدفعهم بلبس ثيابهم خير من ترك الكفار

=

=

يجولون في خلال الديار خوفاً من التشبه بهم في الثياب، وأما إذا كان الكلام مع من قد يتقيد بالشريعة

فإنه يقال له: إطلاق هذه الألفاظ نفياً وإثباتاً بدعة، وفي كل منها تلبيس وإيهام، فلابد من الاستفسار والاستفصال؛ أو الامتناع عن إطلاق كلا الأمرين في النفي والإثبات.

وقد ظن طائفة من الناس أن ذم السلف والأئمة للكلام إنما لمجرد ما فيه من الاصطلاحات المحدثة كلفظ (الجوهر) و(الجسم) و(العرض)، وقالوا: إن مثل هذا لا يقتضي الذم، كما لو أحدث الناس آنية يحتاجون إليها، أو سلاحاً يحتاجون إليه لمقاتلة العدو، وقد ذكر هذا صاحب الإحياء وغيره

وليس الأمر كذلك: بل ذمهم للكلام لفساد معناه أعظم من ذمهم لحدوث الألفاظ، فذموه لاشتماله على معان باطلة مخالفة للكتاب والسنة، ومخالفته للعقل الصريح، ولكن علامة بطلانها مخالفتها للكتاب والسنة، وكل ما خالف الكتاب والسنة فهو باطل قطعاً. ثم من الناس من يعلم بطلانه بعقله، ومنهم من لا يعلم ذلك

وأيضاً: فإن المناظرة بالألفاظ المحدثة المجملة المبتدعة المحتملة للحق والباطل إذا أثبتها أحد المتناظرين ونفاها الآخر كان كلاهما مخطئاً، وأكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء، وفي ذلك من فساد العقل والدين ما لا يعلمه إلا الله

فإذا رد الناس ما تنازعوا فيه إلى الكتاب والسنة فالمعاني الصحيحة ثابتة فيهما، والمحق يمكنه بيان ما يقوله من الحق بالكتاب والسنة.

تنوعت تقسيمات أهل السنة للصفات وذلك بحسب الاعتبارات التي يرجع لها كل تقسيم، ومن تلك التقسيمات مايلي:

=

=

الأول: أقسام الصفات عموماً: قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "الصفات نوعان: أحدهما: صفات نقص؛ فهذه يجب تنزيه الله عنها مطلقاً؛ كالموت، والعجز، والجهل

والثاني: صفات كمال؛ فهذه يمتنع أن يماثله فيها شيء"

وتنقسم الصفات باعتبار ورودها في النصوص إلى قسمين:

١-صفات ثبوتية.

٢-صفات سلبية (أي منفية) القسم الأول: الصفات الثبوتية وتعريفها: هي ما أثبته الله تعالى لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ.

والصفات الثبوتية كثيرة جداً منها: العلم -والحياة -والعزة -والقدرة -والحكمة -والكبرياء -والقوة -والاستواء -والنزول -والمجيء، وغيرها

والصفات الثبوتية صفات مدح وكمال، فكلما كثرت وتنوعت دلالتها ظهر من كمال الموصوف بها ما هو أكثر ولهذا كانت الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثر بكثير من الصفات السلبية.

إضافة إلى أن معرفة الله الأصل فيها صفات الإثبات والسلب تابع ومقصوده تكميل الإثبات، بل كل تنزيه مدح به الرب ففيه إثبات

القسم الثاني: الصفات السلبية وتعريفها: هي ما نفاه الله سبحانه عن نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ

والصفات المنفية كلها صفات نقص في حقه

ومن أمثلتها: النوم -الموت -الجهل -النسيان -العجز -التعب -الظلم

فيجب نفيها عن الله ﷻ مع إثبات أن الله موصوف بكمال ضدها

وتجدر الإشارة هنا إلى الأمور التالية: الأمر الأول: أن معرفة الله ليست بمعرفة صفات السلب، بل الأصل فيها صفات الإثبات، والسلب تابع ومقصوده تكميل

=

=

الإثبات. "فإن السلب لا يراد لذاته، وإنما يقصد لما يتضمنه من إثبات الكمال، فكل ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ من صفات النقص فإنه متضمن للمدح والثناء على الله بضد ذلك النقص من الأوصاف الحميدة والأفعال الرشيدة"

الأمر الثاني: أن صفات التنزيه يجمعها معنيان: الأول: نفي النقائص عنه، وذلك من لوازم إثبات صفات الكمال.

الثاني: إثبات أنه ليس كمثله شيء في صفات الكمال الثابتة له

الأمر الثالث: الصفات السلبية تذكر غالبًا في الأحوال التالية: الأولى: بيان عموم كماله: كما في قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} (الآية ١١ من سورة الشورى) و قوله تعالى: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ} (الآية ٤ من سورة الإخلاص)

والثانية: نفي ما ادعاه في حقه الكاذبون كما في قوله تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدّاً تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً} (الآيات ٨٨ إلى ٩٢ من سورة مريم)

والثالثة: دفع توهم نقص من كماله فيما يتعلق بهذا الأمر المعين كما في قوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ} "

الأمر الرابع: أن الصفات السلبية إنما تكون كمالاً إذا تضمنت أموراً وجودية

فلا يوصف الرب من الأمور السلبية إلا بما يتضمن أموراً وجودية، وإلا فالعدم المحض لا كمال فيه

فينبغي أن يعلم أن النفي ليس فيه مدح ولا كمال إلا إذا تضمن إثباتًا، وإلا فمجرد النفي ليس فيه مدح ولا كمال والعدم المحض ليس بشيء، وما ليس بشيء فهو كما قيل ليس بشيء فضلا عن أن يكون مدحًا وكمالاً

=

=

لأن النفي المحض يوصف به المعدوم والممتنع؛ والمعدوم والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمال، ولهذا كان عامة ما يصف الله به نفسه من النفي متضمناً لإثبات مدح

كقوله تعالى: {اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ} فنفي السنة والنوم يتضمن كمال الحياة والقيام

وكذلك قوله: {وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا} أي لا يكرثه ولا يثقله، وذلك مستلزم لكمال قدرته وتمامها؛ بخلاف المخلوق القادر إذا كان يقدر على الشيء بنوع كلفة ومشقة، فإن هذا نقص في قدرته وعيب في قوته

وكذلك قوله: {لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْض} فإن نفي العزوب مستلزم لعلمه بكل ذرة في السموات والأرض

وكذلك قوله: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} فإن نفي مس اللغوب -الذي هو التعب والإعياء-دل على كمال قدرته ونهاية القوة بخلاف المخلوق الذي يلحقه من التعب والكلال ما يلحقه

وكذلك قوله: {لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ} إنما نفى الإدراك الذي هو الإحاطة كما قاله أكثر العلماء، ولم ينف مجرد الرؤية، لأن المعدوم لا يرى، وليس في كونه لا يرى مدح، إذ لو كان كذلك لكان المعدوم ممدوحاً، وإنما المدح في كونه لا يحاط به وإن رؤي، كما أنه لا يحاط به وإن علم، فكما أنه إذا علم لا يحاط به علماً، فكذلك إذا رؤي لا يحاط به رؤية، فكان في نفي الإدراك من إثبات عظمته ما يكون مدحاً وصفة كمال، وكان ذلك دليلاً على إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة وهذا هو الحق الذي اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، وإذا تأملت ذلك وجدت كل نفي لا يستلزم ثبوتاً هو مما لم يصف به نفسه"

ثم إن النفي المجرد مع كونه لا مدح فيه، فيه إساءة أدب مع الله سبحانه، فإنك لو

=

=

قلت لسلطان: أنت لست بزبال ولا كسَّاح ولا حجام ولا حائك لأدبك على هذا الوصف وإن كنت صادقًا، وإنما تكون مادحـًا إذا أجملت النفي فقلت: أنت لست مثل أحد من رعيتك، أنت أعلى منهم وأشرف وأجل، فإن أجملت في النفي أجملت في الأدب

فأهل الكلام المذموم يأتون بالنفي المفصل والإثبات المجمل فيقولون: ليس بجسم ولا شبح ولا جثة ولا صورة ولا لحم ولا دم ولا شخص ولا جوهر ولا عرض إلى آخر تلك السلوب الكثيرة التي تمجها الأسماع وتأنف من ذكرها النفوس والتي تتنافى مع تقدير الله تعالى حق قدره

الأمر الخامس: أن الرسل عليهم صلوات الله جاءوا بإثبات مفصل ونفي مجمل والمعطلة ناقضوهم فجاءوا بنفي مفصل وإثبات مجمل

فإن الرسل أخبرت كما أخبر الله في كتابه الذي بعث به رسوله أنه بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه حكيم عزيز، غفور ودود، وأنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش، وأنه كلم موسى تكليمـًا، وتجلى للجبل فجعله دكًا، وأنه أنزل على عبده الكتاب، إلى غير ذلك من أسمائه وصفاته

وقال في النفي: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ}، {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً}

وهؤلاء الملاحدة جاءوا بنفي مفصل وإثبات مجمل، فقالوا في النفي: ليس بكذا ولا كذا، فلا يقرب من شيء ولا يقرب منه شيء، ولا يُرى في الدنيا ولا في الآخرة، ولا له كلام يقوم به، ولا له حياة، ولا علم، ولا قدرة، ولا غير ذلك، ولا يشار إليه ولا يتعين، ولا هو مباين للعالم ولا حال فيه، ولا داخله، ولا خارجه، إلى أمثال العبارات السلبية التي لا تنطبق إلا على المعدوم

=

=

ثم قالوا في الإثبات هو وجود مطلق، أو وجود مقيد بالأمور السلبية
وبذلك عكسوا منهج القرآن والسنة، فأكثروا من وصف الله تعالى بالأمور السلبية التي لم يرد بها النص، وأفرطوا في ذلك إفراطًا عجيبـًا، بينما أنكر بعضهم جميع الصفات الثبوتية، والبعض الآخر لم يثبت سوى القليل منها
الأمر السادس: للتفريق بين الصفات السلبية التي ورد بها النص والصفات السلبية التي أحدثها المعطلة النفاة نقول: إن الصفات السلبية التي ورد بها النص متضمنة لثبوت كمال الضد كما تقدم شرح ذلك
وأما الصفات السلبية التي هي من نسج المعطلة واختراعهم فلا تتضمن ثبوت كمال الضد.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "كل تنزيه مدح فيه الرب ففيه إثبات، فلهذا كان قول (سبحان الله) متضمنـًا تنزيه الرب وتعظيمه، ففيها تنزيهه من العيوب والنقائص، وفيها تعظيمه سبحانه وتعالى"
فالذين لا يصفونه إلا بالسلوب لم يثبتوا في الحقيقة إلهـًا محمودًا، بل ولا موجودًا وكذلك من شاركهم في بعض ذلك، كالذين قالوا لا يتكلم، ولا يُرى، أو ليس فوق العالم، أو لم يستو على العرش، ويقولون: ليس بداخل العالم ولا خارجه ولا مباين للعالم ولا مجانب له
إذ هذه الصفات يمكن أن يوصف بها المعدوم، وليس هي صفة مستلزمة صفة ثبوت
فقولهم إنه لا يتكلم، أو لا ينزل، ليس في ذلك صفة مدح، بل هذه الصفات فيها تشبيه له بالمنقوصات أو المعدومات
الأمر السابع: إن سلب النقائص والعيوب عن الله نوعان: النوع الأول: سلب لمتصل "وضابطه: نفي كل ما يناقض صفة من صفات الكمال التي وصف الله بها
=

=

نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ، كنفي الموت المنافي للحياة، والعجز المنافي للقدرة، والسنة والنوم المنافي لكمال القيومية، والظلم المنافي للعدل، والإكراه المنافي للاختيار، والذل المنافي للعزة..." الخ

النوع الثاني: سلب لمنفصل.

وضابطه: تنزيه الله سبحانه عن أن يشاركه أحد من خلقه في شيء من خصائصه التي لا تنبغي إلا له

وذلك كنفي الشريك له في ربوبيته، فإنه منفرد بتمام الملك والقوة والتدبير

وكنفي الشريك له في أُلوهيته، فهو وحده الذي يجب أن يؤلهه الخلق ويفردوه بكل أنواع العبادة والتعظيم

وكنفي الشريك له في أسمائه الحسنى وصفاته العليا فليس لغيره من المخلوقين شركة معه سبحانه في شيء منها

وكذلك نفي الظهير الذي يظاهره أو يعاونه في خلق شيء أو تدبيره، لكمال قدرته وسعة علمه ونفوذ مشيئته، وغيره من المخلوقين عاجز فقير لا حول له ولا قوة إلا بالله، فالشريك والظهير منفيان عنه بإطلاق

وكذلك ينفى عنه سبحانه اتخاذ الصاحبة والولد الذي نسبه إليه النصارى عابدو الصلبان، والصابئة الذين يقولون إن الملائكة بنات الله

قال تعالى: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ} .

الثاني: أقسام الصفات الثبوتية.

أ ـ تنقسم الصفات الثبوتية من جهة تعلقها بالله إلى قسمين:

القسم الأول: الصفات الذاتية.

القسم الثاني: الصفات الفعلية.

=

=

وكلا النوعين يجتمعان في أنهما صفات له تعالى أزلاً وأبداً، لم يزل متصفًا بهما ماضيًا ومستقبلاً لائقان بجلال رب العالمين

أما القسم الأول: الصفات الذاتية فضابطها: هي التي لا تنفك عن الذات

أو: التي لم يزل ولا يزال الله متصفًا بها

أو: الملازمة لذات الله تعالى.

ومنها: الوجه -اليدين – العينين -الأصابع -القَدَم -العلم -الحياة -القدرة -العزة -الحكمة

القسم الثاني: الصفات الفعلية.

وضابطها: هي التي تنفك عن الذات.

أو: التي تتعلق بالمشيئة والقدرة

ومنها: الاستواء -المجيء -الإتيان -النزول -الخلق -الرزق -الإحسان -العدل

فالفرق بين القسمين: أن الصفات الذاتية لا تنفك عن الذات، أما الصفات الفعلية يمكن أن تنفك عن الذات على معنى أن الله إذا شاء لم يفعلها

ولكن مع ذلك فإن كلا النوعين يجتمعان في أنهما صفات لله تعالى أزلاً وأبداً لم يزل ولا يزال متصفًا بهما ماضيًا ومستقبلاً لائقان بجلال الله ﷻ

وتنقسم الصفات الفعلية من جهة تعلقها بمتعلقها إلى قسمين: متعدية: وهي ما تعدت لمفعولها بلا حرف جرّ مثل: خلق، ورزق، وهدى، وأضل، ونحوها

لازمة: وهي ما تتعدى لمفعولها بحرف جر كالإستواء والمجيء والإتيان والنزول ونحوها.

وإنما قسمت كذلك نظراً للإستعمال القرآني من جهة ولكونها في اللغة كذلك، قال ابن القيم: "فأفعاله نوعان: لازمة، ومتعدية كما دلت النصوص التي هي أكثر من أن تحصر على النوعين"، وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: "المجيء والإتيان والذهاب والهبوط هذه

=

=

من أنواع الفعل اللازم القائم به، كما أن الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، والقبض، والبسط أنواع الفعل المتعدي وهو سبحانه موصوف بالنوعين وقد يجمعهما كقوله: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}"

مواقف الطوائف من الصفات الذاتية والفعلية:

١-موقف أهل السنة والجماعة أثبت أهل السنة جميع الصفات الذاتية منها والفعلية، وأثبتوا أن الله متصف بذلك أزلاً، وأن الصفات الناشئة عن الأفعال موصوف بها في القدم، وإن كانت المفعولات محدثة

٢-موقف المعتزلة ومن وافقهم أثبتوا الذات مجردة عن الصفات، وزعموا أن الله لا يقوم به صفة ولا أمر يتعلق بمشيئته واختياره وهو قولهم: لا تحله الأعراض ولا الحوادث

وبذلك نفوا قيام الصفات الذاتية والفعلية بالله تعالى، وجعلوا إضافة الصفات إلى الله تعالى إما من باب إضافة الملك والتشريف أو من إضافة وصف (أي القول) من غير قيام معنى به

٣. موقف المتأخرين من الأشاعرة ومعهم الماتريدية: نفوا جميع الصفات ما عدا الصفات السبع وهي: (العلم ـ الحياة ـ القدرة ـ الإرادة ـ السمع ـ البصر ـ الكلام). وزاد الباقلاني وإمام الحرمين من الأشاعرة صفة ثامنة هي: (الإدراك). وزاد الماتريدية صفة (التكوين)

٣. موقف الكلابية ومن وافقهم من قدماء الأشاعرة وغيرهم: يثبتون الصفات الذاتية وينفون الأفعال الاختيارية، ولم يثبتوا لله أفعالاً تقوم به تتعلق بمشيئته وقدرته، بل ولا غير الأفعال مما يتعلق بمشيئته وقدرته كالمحبة.

٥. موقف الكرامية ومن وافقهم: يثبتون الصفات بما فيها أن الله تقوم به الأمور

=

=

التي تتعلق بمشيئته وقدرته، ولكن ذلك عندهم حادث بعد أن لم يكن، وأنه يصير موصوفًا بما يحدث بقدرته ومشيئته بعد أن لم يكن كذلك، وقالوا: لا يجوز أن تتعاقب عليه الحوادث. ففرقوا في الحوادث بين تجددها ولزومها، فقالوا بنفي لزومها دون حدوثها

ب -ويمكن تقسيم الصفات الثبوتية كذلك إلى قسمين: القسم الأول: الصفات اللازمة وتعريفها: هي الصفات اللازمة للموصوف لا تفارقه إلا بعدم ذاته. أو بعبارة أخرى: هي الصفات التي لا تنفك عن الذات وتنقسم إلى قسمين:

الصفات الذاتية: وهي التي لا يمكن تصور الذات مع تصور عدمها.

ومنها: الوجه -اليد -الأصبع -العين – القدم.

الصفات المعنوية: وهي ما يمكن تصور الذات مع تصور عدمها.

ومنها: الحياة -العلم -القدرة -العزة -العظمة -الكبرياء -الملك -الحكمة – السمع – البصر.

القسم الثاني: الصفات العارضة أو الصفات الاختيارية وتعريفها: هي الصفات التي يمكن مفارقتها له مع بقاء الذات.

أو: الصفات التي تنفك عن الذات.

أو: الصفات التي تتعلق بالمشيئة والقدرة

وهي إما من باب الأفعال: كالاستواء، والاتيان، والمجيء، والنزول

وإما من باب الأقوال والكلمات: التكليم والنداء، والمناجاة، والقول

وإما من باب الأحوال: كالفرح، والغضب، والرضا، والضحك

فكل ما كان بعد عدمه فإنما يكون بمشيئة الله وقدرته، وهذا ضابط ما يدخل في الصفات الاختيارية

الصفات الاختيارية: وضابطها: هي الأمور التي يتصف بها الرب ﷻ، فتقوم

=

=

بذاته بمشيئته وقدرته.

والصفات الاختيارية أعم من الصفات الفعلية، لأنها تشمل بعض الصفات الذاتية التي لها تعلق بالمشيئة، مثل: الكلام، السمع، البصر، الإرادة، المحبة، الرضا، الرحمة، الغضب، السخط

كما أنها -أي الصفات الاختيارية-تشمل الصفات الفعلية غير الذاتية

مثل: الخلق، الإحسان، العدل، وهذه فعلية متعدية

ومثل: الاستواء، المجيء، الإتيان، النزول، وهذه فعلية لازمة

فالكلام (صفةُ ذاتٍ وفعلٍ) فهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته كلاماً قائماً بذاته وكل ما كان بعد عدمه، فإنما يكون بمشيئة الله وقدرته، وما تعلق بالمشيئة مما يتصف به الرب فهو من الصفات الاختيارية، والصفات الصادرة عن الأفعال موصوف بها في القدم، ولم تتغير ذاته من أفعاله، ولم يكتسب عن أفعاله صفات كمال، فهو سبحانه لم يزل كريماً خالقاً

ومن معتقد أهل السنة والجماعة إثبات قيام جميع هذه الصفات بالذات، خلافاً لقول الكلابية والأشاعرة والماتريدية.

فهذا نوع من تقسيمات الصفات يفصل بين عقيدة أهل السنة من جهة وعقيدة الصفاتية من أهل الكلام وهم (الكلابية، والأشاعرة، والماتريدية) من جهة أخرى.

فالكلابية وقدماء الأشاعرة يثبتون الصفات ما عدا صفات الأفعال الاختيارية فإنهم ينفون كونها صفات قائمة بالله.

والمتأخرون من الأشاعرة والماتريدية ينفون الصفات الذاتية والاختيارية ويثبتون سبعاً من الصفات المعنوية هي (العلم -الحياة -القدرة -الإرادة -السمع -البصر -الكلام)

=

=

ثالثًا: تنقسم الصفات من حيث أدلة ثبوتها إلى قسمين: القسم الأول: الصفات الشرعية العقلية وضابطها: هي التي يشترك في إثباتها الدليل الشرعي السمعي والدليل العقلي، والفطرة السليمة

وهي أكثر صفات الرب تعالى، بل أغلب الصفات الثبوتية يشترك فيها الدليلان السمعي والعقلي وإن كان الأصل في ثبوتها الدليل الشرعي

ومنها: العلم، السمع، البصر، العلو، القدرة، الإرادة، الخلق، الحياة

وسميت "شرعية عقلية" شرعية: لأن الشرع دل عليها أو أرشد إليها

وعقلية: لأنها تعلم صحتها بالعقل ولا يقال إنها لم تعلم إلا بمجرد الخبر

فإذا أخبر الله بالشيء، ودل عليه بالدلالات العقلية صار مدلولا عليه بخبره، ومدلولا عليه بدليل العقل الذي يعلم به، فيصير ثابتـًا بالسمع والعقل، وكلاهما داخل في دلالة القرآن التي تسمى الدلالة الشرعية

القسم الثاني: الصفات الخبرية وتسمى النقلية والسمعية وضابطها: هي التي لا سبيل إلى إثباتها إلا بطريق السمع والخبر عن الله أو عن رسوله الأمين عليه الصلاة والتسليم.

ومنها: الوجه -اليد -العين -الرضا -الفرح -الغضب -القَدَم -الاستواء -النزول -المجيء – الضحك.

وهي تنقسم إلى قسمين:

١ -صفات ذاتية مثل: الوجه -اليد -العين – القَدَم.

٢ -صفات فعلية مثل: النزول -الاستواء -الغضب -الفرح -الضحك

مسألة: أقسام الصفات عند من ينكر جميع الصفات الثبوتية:

وهم الفلاسفة بشتى أصنافهم، والجهمية، والمعتزلة ومن وافقهم كالزيدية، والرافضة الإمامية، والنجارية، والضرارية، والإباضية، وابن حزم، وهؤلاء ليس

=

=

عنـدهم تقـسيم للـصفات الثبوتيـة، لأنهـم لا يثبتونهـا أصـلاً فـضلاً عـن كـونهم يقسمونها. أما في جانب النفي ـ عند من يقول به منهم فإن ابن سينا وهو من الفلاسفة الإسماعيلية الباطنية يجعل الصفات إما سلبية محضة وإما إضافية محضة وإما مؤلفة من سلب وإضافة والسلوب والإضافات لا توجب كثرة في الذات

١-صفات سلبية محضة: وهذا النوع إذا وصف به واجب الوجود ـ على حد تعبيرهم ـ، أفاد أن المقصود به نفس وجوده مع سلب ما يؤدي إليه عنه، وهو ما يستلزمه مفهوم واجب الوجود

فإذا قيل جوهر: لم يعن به إلا هذا الوجود الواجب مع سلب الكون في موضع عنه

وإذا قيل واحد: لم يعن به إلا الوجود الواجب وسلب الشريك عنه أو سلب الكثرة من كل وجه

وإذا قيل قديم: لم يعن به إلا هذا الوجود الواجب مع سلب العدم عنه أولاً

وإذا قيل باق: لم يعن به إلا هذا الوجود الواجب مع سلب العدم عنه آخراً

٢-صفات إضافية محضة: وضابطها: هي الأمور المتضايفة التي لا يعقل الواحد منها إلا بتعقل مقابله

ومن أمثلتها: كونه أولاً مبدأ، خالقـًا، قديراً، مريداً، صانعـًا، مبدعـًا، حكيمـًا، جواداً، كريمـًا

"مثلاً صفة كونه (أولاً): هي نفس وجود واجب الوجود لكن مع الوجود إضافة إذا نسب الله تعالى إلى الموجودات غيره، أي لم يعن إلا إضافة هذا الوجود الواجب إلى الكل

وكونه تعالى (مبدأ): إضافة له إلى معلوماته بمعنى إشارة إلى وجوده وإلى أن وجود غيره إنما هو منه.

=

=
وصفة كونه (خالقـاً): هي نفس وجود الله تعـالى مـع إضـافة لأن علـة الإيجـاد هـي علم واجب الوجود أو تعقله للنظام الفائض منه على مقتضى علمه"

٣-صفات مركبة من سلب وإضافة: وهذا النوع من الصفات إذا وصف به واجب الوجود أفاد أن ذلك له على وجه السلب وعلى وجه النسبة والإضافة أيضا، وهـو ما يستتبعه الاعتقاد بأنه خالق ومدبر للكون

فإذا قيل واجب الوجود: أي موجود لا علة له وهذا سلب، وهـو علـة لغيـره وهـذه إضافة فالسلب والإضافة مجتمعان معـاً

وإذا قيل خالق: فهم منه أن وجوده شريف يفيض عنه وجـود الكـل فيـضـاً لازمـاً، وأن وجود غيره حاصل منه بالتبع

وإذا قيل عالم: فهم أنه لا يعلم ذاته ما لم يعلم أنه مبدأ للكل

وإذا قيل جواد: فهم أنه لا ينحو غرضا لذاته وهذا سلب، وأنه يفـيض الجـود عـلى غيره لأنه مبدأ لكل جود

قال الشهرستاني: "قالت الفلاسفة: واجب الوجود بذاته لن يتـصور إلا واحـداً مـن كل وجه فلا صفة ولا حال ولا اعتبـار ولا حيـث ولا وجـه لـذات واجـب الوجـود بحيث يكون أحد الوجهين والاعتبارين غير الآخر بذاته، أو يدل لفـظ عـلى شـيء هو غير الآخر بذاته ولا يجوز أن يكون نـوع واجـب الوجـود لغيـر ذاتـه لأن وجـود نوعه له لعينه ولا يشاركه شيء مـا صـفة أو موصـوفـاً في واجـب الوجـود والأزليـة ولا ينقـسم هـو ولا يتكثـر لا بـالكم ولا بالمبـاديء المقومـة ولا بـأجزاء الحقيقـة والحد. ثم له صفات سلبية: مثل تقدسه عن الكثـرة مـن كـل وجـه، فيـسمى لـذلك واحداً حقـاً أحداً صمداً

ومثل تنزهه عن المادة وتجـرده عـن طبيعـة الإمكـان والعـدم، ويـسمى ذلـك عقـلاً وواجبـاً. وله صفات إضافية: مثل كونه صانعـاً مبدعـاً حكيمـاً قديراً جـواداً كريمـاً
=

=

وصفات مركبة من سلب وإضافة: مثل (كونه مريداً): أي هو مع عقليته ووجوبه بذاته مبدأ لنظام الخير كله من غير كراهية لما يصدر عنه؛ (وجواداً) أي هو بهذه الصفة وزيادة سلب أي لا ينحو غرضاً لذاته وأولاً: أي هو مسلوب عنه الحدوث مع إضافة وجود الكل إليه

وصفاته عندهم إما سلبية محضة، وإما إضافية محضة، وإما مؤلفة من سلب وإضافة، والسلوب والإضافات لاتوجب كثرة في الذات".

مسألة: أقسام الصفات عند من يثبت بعض الصفات وينكر بعضها.

وهم الكلابية والأشاعرة والماتريدية، ويسمون الصفاتية وهم في تقسيم الصفات على قسمين:

١ ـ الكلابية وقدماء الأشاعرة وهؤلاء يتفقون مع أهل السنة في تقسيم الصفات عموماً إلى قسمين: القسم الأول: الصفات الذاتية

القسم الثاني: الصفات الفعلية. وكذا في تقسيمها من حيث أدلة إثباتها حيث يقسمونها إلى قسمين: القسم الأول: الصفات العقلية. القسم الثاني: الصفات السمعية. لكنهم يختلفون مع أهل السنة فيما يثبتونه وطريقة إثباتهم.

٢ ـ الأشاعرة المتأخرون والماتريدية المعروف عن متأخري الأشاعرة والماتريدية من أهل الكلام تقسيمهم الصفات إلى أربعة أقسام:

١-صفات المعاني. ٢-الصفات المعنوية

٣-الصفات السلبية. ٤-الصفة النفسية

القسم الأول: صفات المعاني.

وضابطها في اصطلاحهم هي: ما دل على معنى وجودي قائم بالذات ولم يقر هؤلاء إلا بسبع منها هي، الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام. ونفوا ما عداها من صفات المعاني كالرأفة والرحمة والحلم

=

=

وهي القدر الذي عند هؤلاء من الإثبات، أما الأقسام الثلاثة الباقية ليس فيها إثبات على الحقيقة

القسم الثاني: الصفات المعنوية وضابطها: هي الأحكام الثابتة للموصوف بها معللة بعلل قائمة بالموصوف وهي كونه (حيـًا، عليمـًا، قديراً، مريداً، سميعـًا، بصيراً، متكلمـًا) وهذا العد لا وجه له لأنه في الحقيقة تكرار لصفات المعاني المتقدم ذكرها

ثم إن من عدها من هؤلاء عدوها بناءً على ما يسمونه الحالة المعنوية التي يزعمون أنها واسطة ثبوتية لا معدومة ولا موجودة

والتحقيق أن هذا خرافة وخيال. وأن العقل الصحيح لا يجعل بين الشيىء ونقيضه واسطة البتة فكل ما ليس بموجود فهو معدوم قطعـًا، وكل ما ليس بمعدوم فهو موجود قطعـًا ولا واسطة البتة كما هو معروف عند العقلاء

القسم الثالث: الصفات السلبية: وضابطها عندهم: ما دل على سلب ما لا يليق بالله عن الله من غير أن يدل على معنى وجودي قائم بالذات

والذين قالوا هذا جعلوا الصفات السلبية خمسـًا لا سادس لها وهي عندهم: القِدَمُ، البقاء، والمخالفة للحوادث، والوحدانية، والغنى المطلق الذي يسمونه القيام بالنفس الذي يعنون به الاستغناء عن المخصص والمحل

وعلى ضابطهم الذي ذكروه فإن هذه الخمس لا تتضمن معنى وجوديـًا. وإنما تتضمن أمراً سلبيـًا فعلى سبيل المثال: القدم: المقصود بها نفي الحدوث

والبقاء: المقصود بها نفي الفناء

والوحدانية: المقصود بها نفي النظير المساوي له

والقيام بالنفس: عدم افتقاره للمحل وعدم افتقاره للمخصص: أي الموجد

القسم الرابع: الصفة النفسية وضابطها هي: كل صفة إثبات لنفس لازمة ما بقيت

=

=

النفس غير معللة بعلل قائمة بالموصوف.

وهي عندهم صفة واحدة هي: الوجود. وهي عندهم لا تدل على شيء زائد على الذات

يقول شارح جوهرة التوحيد: "واعلم أن الوجود صفة نفسية وإنما نسبت للنفس أي الذات، لأنها لا تتعقل إلا بها فلا تتعقل نفس إلا بوجودها، والمراد بالصفة النفسية: صفة ثبوتية يدل الوصف بها على نفس الذات دون معنى زائد عليها

فقولنا: "صفة" كالجنس

وقولنا: "ثبوتية" يخرج السلبية كالقدم والبقاء.

وقولنا: "يدل الوصف بها على نفس الذات" معناه أنها لا تدل على شيء زائد على الذات.

وقولنا: "دون معنى زائد عليها" تفسير مراد لقولنا (على نفس الذات) ويخرج بذلك المعاني لأنها لا تدل على معنى زائد على الذات، وكذلك (المعنوية) فإنها تستلزم المعاني فهي تدل على معنى زائد على الذات لاستلزامها المعاني"

وبهذا يعلم أنه ليس عند هؤلاء من الإثبات إلا الصفات السبع التي يسمونها صفات المعاني وهي، الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام وما عداها من الصفات الثبوتية لا يثبتونها ولهم في نصوصها أحد طريقين إما التأويل أو التفويض وفي هذا يقول قائلهم: أَوِّلْهُ أو فَوِّضْ ورم تنزيها وكل نص أوهم التشبيها فنصوص الصفات التي وردت في إثبات ما عدا الصفات السبع التي يثبتونها، يسمونها نصوصاً موهمة للتشبيه، فهم يصرفونها عن ظاهرها، ولكنهم تارة يعينون المراد كقولهم استوى: استولى، واليد: بمعنى النعمة والقدرة؛ وتارة يفوضون فلا يحددون المعنى المراد ويكلون علم ذلك إلى الله ﷻ . ولكنهم يتفقون على نفي الصفة لأن ناظمهم يقول: "ورم تنزيهاً" وشارح الجوهرة يقول:

=

=

"أو فوض" أي بعد التأويل الإجمالي الذي هو صرف اللفظ عن ظاهره، فبعد هذا التأويل فوض المراد من النص الموهم إليه تعالى.

فهم بذلك متفقون على نفي تلك الصفات، ويخيرون في تحديد المعنى المراد أو السكوت عن ذلك

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأبو المعالي وأتباعه نفوا هذه الصفات -أي الصفات الخبرية-موافقة للمعتزلة والجهمية. ثم لهم قولان: أحدهما: تأويل نصوصها، وهو أول قولي أبي المعالي، كما ذكره في الإرشاد.

والثاني: تفويض معانيها إلى الرب، وهو آخر قولي أبي المعالي كما ذكره في "الرسالة النظامية" وذكر ما يدل على أن السلف كانوا مجمعين على أن التأويل ليس بسائغ ولا واجب، ثم هؤلاء منهم من ينفيها ويقول: إن العقل الصريح نفى هذه الصفات. ومنهم من يقف ويقول: ليس لنا دليل سمعي ولا عقلي، لا على إثباتها ولا على نفيها، وهي طريقة الرازي والآمدي"

وقال العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه أضواء البيان: "اعلم أن المتكلمين قسموا صفاته جلا وعلا إلى ستة أقسام:

١ـ صفة نفسية.

٢ـ صفة سلبية.

٣ـ صفة معنى.

٤ـ صفة معنوية.

٥ـ صفة فعلية.

٦ـ صفة جامعة مثل العلو والعظمة مثلاً.

والصفة الإضافية هي تتداخل مع الفعلية، لأن كل صفة فعلية من مادة متعدية إلى المفعول كالخلق والإحياء والإماتة فهي صفة إضافية، وليست كل صفة إضافية

=

=

فعلية، فبينهما عموم وخصوص من وجه، يجتمعان في نحو الخلق والإحياء والإماتة

وتتفرد الفعلية في نحو الإستواء وتتفرد الإضافية في نحو كونه تعالى موجود قبل كل شيء، وأنه فوق كل شيء، لأن القَبْلِيَّةَ والفوقيَّةَ من الصفات الإضافية وليستا من صفات الأفعال".

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: (لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) (الحشر: ١٣)، ثم قال بعد: (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ) (الحشر: ١٤)، (فيسأل عن اختصاص كل آية بما أعقبت به من قوله في الأولي: (لا يفقهون) وفي الثانية: (لا يعقلون)؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن الله تعالى لما أخبر عن يهود والمنافقين بسوء أحوالهم وأن الرعب قد سكن قلوبهم حتى كأن خوفهم من أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم أشد من خوفهم من الله، قال تعالى " لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله " فناسب هذا نفي فهمهم وانسلاخهم عن النظر والتدبر والتوفيق، فقال تعالى " " ذلك بأنهم قوم لا يفقهون"، ثم اتبع ذلك بالتعريف بشدة بأسهم بينهم وشتات أحوالهم فقال تعالى " (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى"، فناسب هذا ما يفهم عدم الثبوت على شئ والرجوع إلى قانون يقفون عنده ويرتبطون إليه فقال تعالى: " ذلك بأنهم قوم لا يعقلون "، والعقل هو علوم ضرورية يوقف عند مقضاه ويحكم بما أمضاه ولا يتعدى، ويحصل من ذلك الثبوت، واشتقاقه من قولهم: عقلت البعير إذا ربطته بعقال، وهو الحبل وشبهه مما يتقيد به. ولما نفي عنهم الارتباط مع صفهم بشتات القلوب وجوداً فقال: (تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى) (الحشر: ١٤)، أخبر تعالى أن سبب ذلك " أنهم

=

سُورَة الممتحنة[1]

=

لا يعقلون، وتناسب هذا أبين شئ، ولا يناسب الأولى قبلها إلا ما أعقبت به، والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٧١).

(١) السّورة مدنيّة بالاتِّفاق.

قال ابن عطية:"هي مدنية بإجماع المفسرين".

قال ابن الجوزي:"هي مدنيّة كلّها بإجماعهم".

قال ابن عاشور:"هذه السورة مدنية بالاتفاق".

قال هبة الله بن سلامة:"نزلت بالمدينة بإجماعهم في شأن حاطب بن أبي بلتعة وقصته في ذلك وفي شأن سبيعة بنت الحارث".

* آياتها ثلاثة عشر. وكلماتها ثلاثمائة وأَربعون. وحروفها أَلْف وخمسمائة وعشر. مجموع فواصل آياتها (لم نردّ) على اللاَّم منها آية: السّبيل. وعلى الدّال آية: الحميد.

* أسماء السورة:

عرفت هذه السورة في كتب التفسير وكتب السنة وفي المصاحف بـ «سورة الممتحنة»، و «الممتحنة» -بكسر الحاء-، أي: المختبرة، بإضافة الفعل إلى المرأة مجازا، كما سميت سورة «براءة»: المبعثرة والفاضحة، لما كشفت عيوب المنافقين. ويقال: «الممتحنة» -بفتح الحاء-وهو المشهور، بإضافة الفعل حقيقة إلى المرأة التي نزلت فيها، وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، قال الله تعالى: {فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ} الممتحنة: ١٠]. وهي امرأة عبد الرحمن بن عوف، ولدت له إبراهيم بن عبد الرحمن.

وتسمى «سورة الامتحان»، لقوله تعالى: {فَامْتَحِنُوهُنَّ} [الممتحنة: ١٠]، وبهذه

=

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ

=

التسمية قال مقاتل، وابن قتيبة، والأزهري، وهبة الله بن سلامة، والثعلبي، والسخاوي، وآخرون.

وتسمى «سورة المودة»، لقوله تعالى: {تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّة} [الممتحنة: ١]، وقوله تعالى: {تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ} [الممتحنة: ١]، وقوه تعالى: {عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً} [الممتحنة: ٧] وذكر هذه التسمية أبو بكر النيسابوري، وأبو زرعة، والسخاوي، والفيروزآبادي.

* معظم مقصود السّورة: النهى عن موالاة الخارجين عن مِلَّة الإسلام، والاقتداءُ بالسّلف الصّالح فى طريق الطَّاعة والعبادة، وانتظار المودّة بعد العداوة، وامتحان المدّعين بمطالبة الحقيقة، وأَمر الرّسول بكيفيّة البَيْعة مع أَهل السِتْر والعفَّة، والتَّجنّب من أَهل الزّيغ والضّلالة، فى قوله: {لاَ تَتَوَلَّوْا قوْماً غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ}.

* المتشابهَات: قوله تعالى {تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بالمودة} وبعده: {تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بالمودة} الأَوّل حال من المخاطبين. وقيل: أَتلقون إِليهم، والاستفهام مقدّر. وقيل: خبرُ مبتدأ، أَى أَنتم تُلْقون، والثانى بدل من الأَوّل على الوجوه المذكورة. والباءُ زيادة عند الأَخفش. وقيل بسبب أن تَوَدّوا. وقال الزجّاج: تلقون إِليهم أَخبار النبىّ ﷺ وسِرّه بالمودّة.

قوله: {كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} وبعده: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيْهِمْ أُسْوَةٌ} أَنَّث الفعل الأَوّل مع الحائل، وذكَّر الثَّانى، لكثرة الحائل. وإِنَّما كَرّر، لأَنَّ الأَوّل فى القول؛ والثَّانى فى الفعل. وقيل: الأَوّل فى إِبراهيم، والثَّانى فى محمّد ﷺ.

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ} أَيْ كُفَّار مَكَّة {أَوْلِيَاء تُلْقُونَ} تُوَصِّلُونَ {إِلَيْهِمْ} قَصْد النَّبِيّ ﷺ غَزْوهمْ الَّذِي أَسَرَّهُ إِلَيْكُمْ وَوَرَّى بِحَنِينٍ {بِالْمَوَدَّةِ} بَيْنكُمْ وَبَيْنهمْ كَتَبَ حَاطِب بْن أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَيْهِمْ كِتَابًا بِذَلِكَ لِمَا لَهُ عِنْدهمْ مِنْ الْأَوْلَاد وَالْأَهْل الْمُشْرِكِينَ فَاسْتَرَدَّهُ النَّبِيّ ﷺ مِمَّنْ أَرْسَلَهُ مَعَهُ بِإِعْلَامِ الله تَعَالَى لَهُ بِذَلِكَ وَقَبِلَ عُذْر حَاطِب فِيهِ {وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقّ} أَيْ دِين الْإِسْلَام وَالْقُرْآن {يُخْرِجُونَ الرَّسُول وَإِيَّاكُمْ} مِنْ مَكَّة بِتَضْيِيقِهِمْ عَلَيْكُمْ {أَنْ تُؤْمِنُوا} أَيْ لِأَجْلِ أَنْ آمَنْتُمْ {بِاَللهِ رَبّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا} لِلْجِهَادِ {فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي} وَجَوَاب الشَّرْط دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْله أَيْ فَلَا تَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاء {تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَم بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلهُ مِنْكُمْ} أَيْ إِسْرَار خَبَر النَّبِيّ إِلَيْهِمْ {فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيل} أَخْطَأَ طَرِيق الْهُدَى وَالسَّوَاء فِي الأصل الوسط.

إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢).

{إِنْ يَثْقَفُوكُمْ} يَظْفَرُوا بِكُمْ {يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهمْ} بِالْقَتْلِ وَالضَّرْب {وَأَلْسِنَتهمْ بِالسُّوءِ} بالسب والشتم {وودوا} تمنوا {لو تكفرون}.

لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣).

{لَنْ تَنْفَعكُمْ أَرْحَامكُمْ} قَرَابَاتكُمْ {وَلَا أَوْلَادكُمْ} الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ لِأَجْلِهِمْ أَسْرَرْتُمْ الْخَبَر مِنْ الْعَذَاب فِي الْآخِرَة {يَوْم الْقِيَامَة يَفْصِل} بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ وَالْفَاعِل {بَيْنكُمْ} وَبَيْنهمْ فَتَكُونُونَ فِي الْجَنَّة وَهُمْ فِي جملة الكفار في النار {والله بما تعملون بصير}(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، قال: "انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ؛ فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها"، فذهبنا تعادي بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب؛ فأخرجته من عقاصها، فأتينا به النبي ﷺ؛ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين ممن بمكة يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: "ما هذا يا حاطب؟! "، قال: لا تعجل عليَّ يا رسول الله! إني كنت امرءاً من قريش ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة فأحببت إذ فاتني من النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يحمون قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني، فقال النبي ﷺ: "إنه قد صدقكم"؛ فقال عمر: دعني يا رسول الله! فأضرب عنقه؛ فقال: "إنه شهد بدراً، وما يدريك لعل الله عَزَّ وَجَلَّ اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم"، قال عمرو: ونزلت فيه: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ =

=

بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢)} قال: لا أدري الآية في الحديث أو قول عمرو.
أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٣٠٠٧، ٤٢٧٤، ٤٨٩٠)، ومسلم في "صحيحه" (رقم ٢٤٩٤).

وعن علي رضي الله عنه؛ قال: لما أراد رسول الله مكة؛ أرسل إلى أناس من أصحابه أنه يريد مكة فيهم حاطب بن أبي بلتعة، وفشا في الناس أنه يريد حنين، قال: فكتب حاطب إلى أهل مكة: أن رسول الله ﷺ يريدكم، قال: فأخبر به رسول الله ﷺ، قال: فبعثني رسول الله ﷺ أنا وأبا مرثد وليس معنا رجل إلا ومعه فرس، فقال: "ائتوا روضة خاخ؛ فإنكم ستلقون بها امرأة معها كتاب فخذوه منها"، قال: فانطلقنا حتى رأيناها في المكان الذي ذكر رسول الله ﷺ، فقلنا لها: هات الكتاب، فقالت: ما معي كتاب، قال: فوضعنا متاعها؛ ففتشناها، فلم نجده في متاعها، فقال أبو مرثد: فلعل أن لا يكون معها كتاب، فقلنا: ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، فقلنا لها: لتخرجنه أو لنعرينك، فقالت: أما تتقون الله؟ أما أنتم مسلمون؟ فقلنا: لتخرجنه أو لنعرينك، قال عمرو بن مرة: فأخرجته من حجزتها، فقال حبيب بن أبي ثابت: وأخرجته من قبلها، فأتينا النبي ﷺ؛ فإذا الكتاب من حاطب بن أبي بلتعة؛ فقام عمر فقال: يا رسول الله! خان الله، خان رسوله، ائذن لي فأضرب عنقه؛ فقال رسول الله ﷺ: "أليس قد شهد بدراً؟ "، قالوا: بلى يا رسول الله! قال عمر: بلى، ولكنه قد نكث وظاهر أعداءك عليك، فقال رسول الله ﷺ: "فلعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم"؛ ففاضت عينا عمر، فقال: الله ورسوله أعلم، وأرسل رسول الله ﷺ إلى حاطب فقال: "ما حملك على ما صنعت؟ "، قال: يا رسول الله! كنت امرءاً ملصقاً في قريش فكان بها أهلي ومالي، ولم يكن من أصحابك أحد إلا وله بمكة من يمنع أهله وماله، فكتبت إليهم بذلك، والله يا رسول الله! إني لمؤمن بالله وبرسوله، فقال رسول الله ﷺ: "صدق

=

=

حاطب؛ فلا تقولوا لحاطب إلا خيراً"، قال حبيب: فأنزل الله: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢)}.

أخرجه أبو يعلى في "المسند" (١/ ٣١٩ -٣٢١ رقم ٣٩٧)، والطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٣٨، ٣٩)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٣٦٩، ٣٧٠)، و"تخريج الكشاف" (٣/ ٤٥٠)، وابن المنذر في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٨/ ١٢٥) جميعهم من طريق أبي سنان سعيد بن سنان عن عمرو بن مرة عن أبي إسحاق السبيعي عن أبي البختري الطائي عن الحارث عن علي به. وهذا إسناد ضعيف جداً، فيه علل:

الأولى: الحارث هو الأعور؛ متروك الحديث.

الثانية: أبو إسحاق السبيعي؛ مدلس وقد عنعن، وكان قد اختلط ولم يرو عنه عمرو قبل الاختلاط.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٦/ ١٦٢، ١٦٣): "رواه أبو يعلى وفيه الحارث الأعور وهو ضعيف". وقد وقع سقط وخطأ في سند ابن أبي حاتم يصحح من هنا.

وعن مجاهد في قول الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ

=

=

سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢)} في مكاتبة حاطب بن أبي بلتعة ومن معه كفار قريش يحذرهم.

أخرجه الفريابي وعبد بن حميد في "تفسيريهما"؛ كما في "فتح الباري" (٨/ ٦٣٣)، والطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٤٠) من طرق عن ابن أبي نجيح عن مجاهد به مرسلاً. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وأخرجه الحاكم في "المستدرك" (٢/ ٤٨٥) من طريق إبراهيم بن الحسين المعروف بـ (ابن ديزيل) عن آدم بن أبي إياس عن ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما موصولاً بلفظ: نزل في مكاتبة حاطب بن أبي بلتعة ومن معه إلى كفار قريش يحذرونهم، وقوله تعالى. {إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ} نهوا أن يتأسوا باستغفار إبراهيم لأبيه فيستغفروا للمشركين، وقوله تعالى: {رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا} : لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك، فيقولون: لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم.

قال الحافظ في "الفتح" (٨/ ٦٣٣): "وما أظن زيادة ابن عباس فيه إلا وهماً؛ لاتفاق أصحاب ورقاء على عدم ذكره". وهو كما قال رحمه الله؛ فإن شيخ الحاكم: عبد الرحمن بن الحسن الهمذاني القاضي متكلم فيه؛ قال صالح بن أحمد الحافظ؛ كما في "السير" (١٦/ ١٥): "ضعيف، ادعى الرواية عن ابن ديزيل فذهب علمه، وكتبت عنه أيام السلامة أحاديث، ولم يدّع عن إبراهيم ثم ادعى، وروى أحاديث معروفة، كان إبراهيم يُسأل عنها ويستغرب....".

وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه!! "، ووافقه الذهبي.

ونقل عنه الحافظ في "الفتح": "صحيح على شرط مسلم! ".

=

=

قلت: لكن يشهد له حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد مر آنفـًا.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢)}: نزلت في رجل كان مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة من قريش كتب إلى أهله وعشيرته بمكة يخبرهم وينذرهم أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سائر إليهم؛ فأخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصحيفته، فبعث إليها علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأتاه بها.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٣٩)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٨/ ١٢٦). وسنده ضعيف جداً؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وعن قتادة في قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١)}: ذكر لنا أن حاطبـًا كتب إلى أهل مكة يخبرهم سير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم زمن الحديبية، فأطلع الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ على ذلك، وذكر لنا أنهم وجدوا الكتاب مع امرأة في قرن من رأسها، فدعاه نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فقال: "ما حملك على الذي صنعت؟"، قال: والله ما شككت في أمر الله، ولا ارتددت فيه؛ ولكن لي هناك أهلاً ومالاً فأردت مصانعة قريش على أهلي ومالي، وذكر لنا أنه كان حليفـًا لقريش لم يكن من أنفسهم، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ في ذلك القرآن فقال: {إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً

=

=

وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٤٠): ثنا بشر العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٢٩) ونسبه لعبد بن حميد.

وعن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا، قالوا: لما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى مكة؛ كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم الذي أجمع عليه رسول الله ﷺ من الأمر في السير إليهم، ثم أعطاه امرأة يزعم محمد بن جعفر أنها من مزينة، وزعم غيره: أنها سارة مولاة لبعض بني عبد المطلب، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشًا، فجعلته في رأسها ثم فتلت عليه قرونها ثم خرجت، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب؛ فبعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام رضي الله عنهما؛ فقال: "أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بكتاب إلى قريش يحذرهم ما قد اجتمعنا له في أمرهم"؛ فخرجا حتى أدركاها بالحليفة حليفة بن أبي أحمد، فاستنزلاها؛ فالتمسا في رحلها فلم يجدا شيئًا، فقال لها علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إني أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، ولتخرجن إليّ هذا الكتاب أو لنكشفنك، فلما رأت الجد منه؛ قالت: أعرض عني؛ فأعرض عنها، فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب فدفعته إليه، فجاء به إلى رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ حاطباً؛ فقال: "يا حاطب! ما حملك على هذا؟ "، فقال: يا رسول الله! أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت ولا بدلت، ولكني كنت امرأً في القوم ليس لي أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم أهل وولد، فصانعتهم عليهم، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله! فلأضرب عنقه؛ فإن الرجل قد نافق؛ فقال رسول الله ﷺ: "ما يدريك يا عمر! لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر، فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم؟ "؛

=

=

فأنزل الله ﷻ في حاطب: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٣٩)؛ ثنا ابن حميد ثنا سلمة ثني ابن إسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة به. وهذا سند ضعيف جداً؛ فيه علل:

الأولى: الإرسال.

الثانية: ابن إسحاق؛ مدلس وقد عنعن.

الثالثة: ابن حميد؛ ضعيف، بل اتهم بالكذب.

وأخرج عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٨٦، ٢٨٧)، والطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٣٩، ٤٠) عن معمر عن الزهري عن عروة بن الزبير في قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢)}: أنها نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، قال: كتب إلى كفار قريش كتاباً ينصح لهم فيه، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك، فأرسل علياً والزبير، فقال: "اذهبا، فإنكما ستدركان امرأة بمكان كذا وكذا، فأتياني بكتاب معها"؛ فانطلقا حتى أدركاها، فقال: الكتاب الذي

=

=

معك، قالت: ما معي كتاب، قالا: والله لا ندع عليك شيئًا إلا فتشناه أو تخرجينه، قالت: أوَلستما مسلمين؟ قالا: بلى، ولكن النبي ﷺ أخبرنا أن معك كتابًا؛ فقد أيقنت أنفسنا أنه معك، فلما رأت جدهما؛ أخرجت كتابًا من قرونها فرمت به، فذهبا به إلى النبي ﷺ؛ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى كفار قريش، فدعاه النبي ﷺ فقال: "أنت كتبت هذا الكتاب؟ "، قال: نعم، قال: "وما حملك على ذلك؟ "، قال: أما والله ما ارتبت في الله منذ أسلمت، ولكني كنت أمراً غريبًا فيكم أيها الحي من قريش، وكان لي بمكة مال وبنون فأردت أن أدفع عنهم بذلك، فقال عمر: ائذن لي يا نبي الله! فأضرب عنقه، فقال النبي ﷺ: "مهلاً يا ابن الخطاب! إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم؛ فإني غافر لكم؟ ".

وهذا مرسل صحيح؛ رجاله ثقات رجال الصحيح.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٢٧) وزاد نسبته لعبد بن حميد وقال: "مرسلاً".

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: أمّن النبي ﷺ يوم فتح مكة [الناس]؛ إلا أربعة من الناس: عبد العزى بن خطل، ومقيس بن صبابة الكناني، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وأم سارة امرأة، فأما عبد العزى؛ فإنه قتل، وهو آخذ بأستار الكعبة، قال: ونذر رجل من الأنصار أن يقتل عبد الله بن سعد بن أبي سرح إذا رآه، وكان أخا عثمان بن عفان من الرضاعة، فأتى به رسول الله ﷺ يستشفع به، فلما بصر به الأنصاري؛ اشتمل على السيف، ثم خرج في طلبه، فوجده في حلقة رسول الله ﷺ، فهاب قتله، فجعل يتردد، ويكره أن يقدم عليه؛ لأنه في حلقة رسول الله ﷺ، فبسط رسول الله ﷺ يده فبايعه، ثم قال للأنصاري: "قد انتظرتك أن توفي بنذرك"، قال: يا رسول الله! هبتك، أفلا أومضت إلي؟ قال: "إنه ليس لنبي أن يومض"، وأما

=

=

مقيس؛ فإنه كان له أخ [قتل خطأ] مع رسول الله ﷺ فبعث معه رسول الله ﷺ رجلاً من بني فهر ليأخذ له من الأنصار العقل، فلما جمع له العقل ورجع؛ نام الفهري؛ فوثب مقيس فأخذ حجراً فجلد به رأسه؛ فقتله، ثم أقبل، وهو يقول:

شفى النفس من قدبات بالقاع مسنداً ... يضرج ثوبيه دماء الأخادع

وكانت هموم النفس من قبل قتله ... تهيج فتنسيني وطاء المضاجع

حللت به ثأري وأدركت ثورتي ... وكنت إلى الأوثان أول راجع

وأما أم سارة؛ فإنها كانت مولاة لقريش، فأتت رسول الله ﷺ فشكت إليه الحاجة، فأعطاها شيئًا، ثم أتاها رجل، فدفع إليها كتابًا لأهل مكة يتقرب به إليهم؛ ليحفظ في عياله، وكان له بها عيال، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ بذاك، فبعث في أثرها عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، فلحقاها، ففتشاها، فلم يقدرا على شيء منها، فأقبلا راجعين، فقال أحدهما لصاحبه: والله ما كذبنا ولا كذبنا، ارجع بنا إليها؛ فرجعا إليها، فسلا سيفهما، فقالا: والله لنذيقنك الموت أو لتدفعن إلينا الكتاب، فأنكرت، ثم قالت: أدفعه إليكما على أن لا تردانى إلى رسول الله ﷺ فقبلاه منها، فحلت عقال رأسها، فأخرجت كتابًا من قرونها فدفعته إليهما، فرجعا به إلى رسول الله ﷺ فدفعاه إليه، فبعث إلى الرجل، فقال: "ما هذا الكتاب؟ "، قال: أخبرك يا رسول الله: ليس من أحد معك إلا وله بمكة من يحفظه في عياله غيري، فكتبت هذا الكتاب ليكونوا لي في عيالي، فأنزل الله: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢)}.

=

=

أخرجه الطبراني في "الأوسط" (٦/ ٣٤٢-٣٤٤ رقم ٦٥٧٧)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٥/ ٦٠، ٦١)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تخريج الكشاف" (٤/ ٤٥١) من طريق الحسن بن بشر الكوفي ثنا الحكم بن عبد الملك عن قتادة عن أنس.

قال الطبراني: "لم يرو القصة عن قتادة عن أنس إلا الحكم، تفرد به الحسن بن بشر".

وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: قتادة مدلس وقد عنعن.

الثانيه: الحكم بن عبد الملك؛ ضعيف.

وعن عبد الرحمن بن حاطب بن أبي بلتعة، وحاطب رجل من أهل اليمن كان حليفاً للزبير بن العوام من أصحاب النبي ﷺ قد شهد بدراً، وكان بنوه وإخوته بمكة، فكتب حاطب وهو مع رسول الله ﷺ بالمدينة إلى كفار قريش بكتاب ينتصح لهم فيه، فدعا رسول الله ﷺ علياً والزبير، فقال لهما: انطلقا حتى تدركا امرأة معها كتاب، فخذا الكتاب، فائتياني به؛ فانطلقا حتى أدركا المرأة بحليفة بني أحمد، هي من المدينة على قريب من اثني عشر ميلاً، فقالا لها: أعطينا الكتاب الذي معك، قالت: ليس معي كتاب، قالا: كذبت؛ قد حدثنا رسول الله ﷺ أن معك كتاباً، والله لتعطين الكتاب الذي معك؛ أو لا نترك عليك ثوباً إلا التمسنا فيه، قالت: أو لستم بناس مسلمين؟ قالا: بلى، ولكن رسول الله ﷺ قد حدثنا أن معك كتاباً، حتى إذا ظنت أنهما ملتمسان كل ثوب معها؛ حلت عقاصها، فأخرجت لهما الكتاب من بين قرون رأسها كانت قد اعتقصت عليه، فأتيا رسول الله ﷺ، فإذا هو كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، فدعا رسول الله ﷺ حاطباً، قال: "أنت كتبت هذا الكتاب؟ "، قال: نعم، قال: "فما حملك على أن

=

تكتب به؟ "، قال حاطب: أما والله ما ارتبت -منذ أسلمت-في الله ﷻ، ولكني كنت امرأً غريباً فيكم أيها الحي من قريش وكان لي بنون وإخوة بمكة فكتبت إلى كفار قريش بهذا الكتاب؛ لكي أدفع عنهم، فقال عمر: ائذن لي يا رسول الله! أضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: "دعه؛ فإنه قد شهد بدراً، وإنك لا تدري لعل الله اطّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئت؛ فإني غافر لكم ما عملتم"؛ فأنزل الله في ذلك: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٢٦، ١٢٧) ونسبه لابن مردويه.

* افتتحت سورة «الممتحنة» بهذا النداء للمؤمنين، وقد تضمن هذا النداء نهيهم عن موالاة أعداء الله وأعدائهم.

أخرج الإمام البخاري، ومسلم عن على بن أبى طالب-رضى الله عنه-قال: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ-وهو مكان بين مكة والمدينة-فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها فأتونى به فخرجنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة فقلنا لها: أخرجى الكتاب. فقالت: ما معى من كتاب، فقلنا: أخرجى الكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبى بلتعة، إلى أناس من المشركين بمكة، يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ، فقال ﷺ «ما هذا يا حاطب،؟» فقال حاطب: لا تعجل عليّ يا رسول الله إنى كنت إنسانا ملصقا في قريش، ولم أكن منها، وكان من

=

معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيها، أن أصطنع إليهم يدا، يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن الإسلام، فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فقال، ﷺ: «إنه شهد بدرا، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» فنزلت هذه الآيات.

وقد ذكروا أن هذه القصة كانت في الوقت الذي أعد فيه النبي ﷺ العدة لأجل العمرة، سنة صلح الحديبية. وقيل كانت هذه القصة في الوقت الذي تهيأ النبي ﷺ لفتح مكة، وكان من بين الذين علموا ذلك حاطب بن أبى يلتعة.

والمراد بالعدو هنا: الأعداء عموما، ويدخل فيهم دخولا أوليا كفار قريش، الذين أرسل إليهم حاطب بن أبى بلتعة خطابه، لكي يحذرهم من مهاجمة المسلمين لهم.

والمراد بالعداوة: العداوة الدينية التي جعلت المشركين، يحرصون كل الحرص على أذى المسلمين، أى: يا من آمنتم بالله تعالىإيمانا حقا، احذروا أن تتخذوا أعدائى وأعداءكم أولياء وأصدقاء وحلفاء. بل جاهدوهم وأغلظوا عليهم، واقطعوا الصلة التي بينكم وبينهم.

وناداهم بصفة الإيمان، لتحريك حرارة العقيدة الدينية في قلوبهم ولحضهم على الاستجابة لما نهاهم عنه.

وقدم-سبحانه-عداوته للمشركين، على عداوة المؤمنين لهم، لأن عداوة هؤلاء المشركين لله تعالىأشد وأقبح، حيث عبدوا غير خالقهم، وشكروا غير رازقهم، وكذبوا رسل ربهم وآذوهم.

وعبر-سبحانه-بالاتخاذ الذي هو افتعال من الأخذ، للمبالغة في نهيهم عن موالاة هؤلاء الأعداء، إذ الاتخاذ يشعر بشدة الملابسة والملازمة.

=

=

والمفعول الأول لقوله تَتَّخِذُوا قوله: عَدُوِّي والمفعول الثاني قوله: أَوْلِياءَ.

وقوله-سبحانه-: تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ تفسير وتوضيح لهذه الموالاة التي نهوا عنها أو في موضع الحال من ضمير لا تَتَّخِذُوا.

وحقيقة الإلقاء: قذف ما في اليد على الأرض أو في الفضاء، والمراد به هنا: إيصال ما يدخل السرور على قلوب أعدائهم. والباء في قوله: بِالْمَوَدَّةِ لتأكيد اتصال الفعل بمفعوله.

أى: احذروا أن تعاملوا أعدائى وأعداءكم معاملة الأصدقاء والحلفاء، بأن تظهروا لهم المودة والمحبة.

ويصح أن تكون الباء للسببية فيكون المعنى: تلقون إليهم بأخباركم التي لا يجوز لكم إظهارها لهم، بسبب مودتكم لهم.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: تُلْقُونَ بم يتعلق؟ قلت: يجوز أن يتعلق بقوله: لا تَتَّخِذُوا حالا من ضميره.. ويجوز أن يكون استئنافا.

والإلقاء: عبارة عن إيصال المودة والإفضاء بها إليهم يقال: ألقى إليه خراشى صدره-أى أسرار صدره-وأفضى إليه بقشوره.

والباء في بِالْمَوَدَّةِ إما زائدة مؤكدة للتعدى مثلها في قوله: وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وإما ثابتة على أن مفعول تلقون محذوف، ومعناه: تلقون إليهم أخبار رسول الله ﷺ بسبب المودة التي بينكم وبينهم ا.هـ.

ثم ساق-سبحانه-الأسباب التي من شأنها تحمل المؤمنين على عدم موالاة أعداء الله وأعدائهم، فقال: وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ أى: لا تتخذوا-أيها المؤمنون-هؤلاء الأعداء أولياء، وتلقون إليهم بالمودة، والحال أن هؤلاء الأعداء قد كفروا بما جاءكم على لسان رسولكم ﷺ من الحق الذي يتمثل في القرآن الكريم، وفي كل ما أوحاه-سبحانه-إلى رسوله.

=

=

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة، تصوير هؤلاء الكافرين، بما ينفر المؤمنين من إلقاء المودة إليهم.

وقوله تعالى: يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ بيان لسبب آخر من الأسباب التي تدعو المؤمنين إلى مقاطعة أعدائهم الكافرين.

وجملة: يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ يصح أن تكون مستأنفة لبيان كفرهم، أو في محل نصب حال من فاعل كَفَرُوا وقوله: وَإِيَّاكُمْ معطوف على الرسول، وقدم عليهم على سبيل التشريف لمقامه ﷺ وجملة أَنْ تُؤْمِنُوا في محل نصب مفعول لأجله.

أى: أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بكفرهم بما جاءكم-أيها المؤمنون-من الحق، بل تجاوزوا ذلك إلى محاولة إخراج رسولكم ﷺ وإخراجكم من مكة، من أجل إيمانكم بالله ربكم، وإخلاصكم العبادة له تعاليوأسند-سبحانه-محاولة الإخراج إلى جميع الأعداء، لأنهم كانوا راضين بهذا الفعل.

ومتواطئين على تنفيذه بعضهم عن طريق التخطيط له، وبعضهم عن طريق التنفيذ الفعلى.

والمتأمل في هذه الجمل الكريمة، يراها قد ساقت أقوى الأسباب وأعظمها، للتشنيع على مشركي قريش، ولإلهاب حماس المؤمنين من أجل عدم إلقاء المودة إليهم.

وجواب الشرط في قوله تعالى: إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغاءَ مَرْضاتِي محذوف لدلالة ما قبله عليه أى: إن كنتم-أيها المؤمنون-قد خرجتم من مكة من أجل الجهاد في سبيلي، ومن أجل طلب مرضاتي، فاتركوا اتخاذ عدوى وعدوكم أولياء، واتركوا مودتهم ومصافاتهم.

فالمقصود من الجملة الكريمة، زيادة التهييج للمؤمنين، حتى لا يبقى في قلوبهم أى شيء من المودة نحو الكافرين.

=

=

وقوله-سبحانه-: تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ بدل من قوله تعالى: قبل ذلك: تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ. بدل بعض من كل. لأن إلقاء المودة أعم من أن تكون في السر أو في العلن.

ويصح أن يكون بدل اشتمال، لأن الإسرار إليهم بالمودة، مما اشتمل عليه إلقاء المودة إليهم.

وهذه الجملة جيء بها على سبيل العتاب والتعجيب ممن في قلبه مودة لهؤلاء الكافرين، بعد أن بين الله تعاليله، ما يوجب قطع كل صلة بهم.

ومفعول تُسِرُّونَ محذوف. أى: ترسلون إليهم أخبار المسلمين سرا، بسبب مودتكم لهم؟ وجملة: وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ هي مناط التعجيب ممن يتخذ هؤلاء الأعداء أولياء. أو من يسر إليهم بالمودة، وهي حالية من فاعل تُلْقُونَ وتُسِرُّونَ.

أى: تفعلون ما تفعلون من إلقاء المودة إلى عدوى وعدوكم، ومن إسراركم بها إليهم والحال أنى أعلم منهم ومنكم بما أخفيتموه في قلوبكم، وما أعلنتموه، ومخبر رسولنا ﷺ بذلك.

وما دام الأمر كذلك فكيف أباح بعضكم لنفسه، أن يطلع عدوى وعدوكم على ما لا يجوز اطلاعه عليه؟! قال الآلوسى: قوله: وَأَنَا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ في موضع الحال وأَعْلَمُ أفعل تفضيل. والمفضل عليه محذوف. أى: منكم ... وما موصولة أو مصدرية، وذكر ما أَعْلَنْتُمْ مع الاستغناء عنه، للإشارة إلى تساوى العلمين في علمه-عز وجل-.

ولذا قدم بِما أَخْفَيْتُمْ. وفي هذه الحال إشارة إلى أنه لا طائل لهم في إسرار المودة إليهم كأنه قيل: تسرون إليهم بالمودة والحال أنى أعلم ما أخفيتم وما أعلنتم، ومطلع رسولي على ما تسرون، فأى فائدة وجدوى لكم في الإسرار؟.

=

=

ثم ختم-سبحانه-الآية الكريمة ببيان سوء عاقبة من يخالف أمره فقال: وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ.

والضمير في قوله: يَفْعَلْهُ يعود إلى الاتخاذ المفهوم من قوله لا تَتَّخِذُوا.

أى ومن يفعل ذلك الاتخاذ لعدوي وعدوكم أولياء. ويلقى إليهم بالمودة، فقد أخطأ طريق الحق والصواب. وضل عن الصراط المستقيم.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الممتحنة: ١].

قال الطبري:"يقول: تعالى ذكره للمؤمنين به من أصحاب رسول الله ﷺ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} ..".

قال السمعاني:"قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} في الآية دليل على أن حاطب لم يخرج من الإيمان بفعله ذلك".

قال ابن عباس: " ما في القرآن آية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، إلا أن عليا شريفها وأميرها وسيدها، وما من أصحاب محمد إلا قد عوتب في القرآن إلا علي بن أبي طالب فإنه لم يعاتب في شيء منه".

وقال الأعمش عن خيثمة: " ما تقرأون من القرآن: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، فإن في التوراة "يا أيها المساكين".

وروي أن "رجلا أتى عبد الله ابن مسعود فقال: أعهد إلي، فقال: إذا سمعت الله تعالى يقول: {يا أيها الذين آمنوا}، فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه".

قوله تعالى: {لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ} [الممتحنة: ١]، أي:"لا تتخذوا عدوي وعدوكم خلصاء وأحباء".

قال الطبري: يقول: " {لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي} من المشركين {وَعَدُوَّكُمْ} أنصارا".

قال السمعاني:"أي: أعدائي وأعداءكم، وهم مشركو قريش".

=

=

قال يحي بن سلام:"يعني: في النَّصيحة".

قال سهل:"ذكر المفسرون: أنّها أنزلت في حاطب بن أبي بلتعة وكان كتب إلى المشركين بمكة يخبرهم بمسير الرسول، ﷺ إليهم، لأنّ عياله كانوا بمكة، ولم يكن له بها عشيرة تمنع منهم، فأراد أن يتقرب إليهم ليكفوا عن عياله فأنزل الله: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّة}..".

قيل للشافعي: "أرأيت المسلم يكتب إلى المشركين من أهل الحرب، بأن المسلمين يريدون غزوهم، أو بالعورة من عوراتهم، هل يحل ذلك دمه، ويكون في ذلك دلالة على ممالأة المشركين -على المسلمين -؟

قال الشَّافِعِي رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يحل دم من ثبتت له حرمة الإسلام، إلا أن يقتل، أو يزني بعد إحصان، أو يكفر كفراً بيناً بعد إيمان، ثم يثبتَ على الكفر. وليس الدلالة على عورة مسلم، ولا تأييد كافر بأن يحذِّر أن المسلمين يريدون منه غِرَّة ليحذرها، أو يتقدم في نكاية المسلمين بكفر بيِّنٍ".

قوله تعالى: {تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ} [الممتحنة: ١]، أي:"تُفْضون إليهم بالمودة، فتخبرونهم بأخبار الرسول ﷺ، وسائر المسلمين".

قال الطبري: يقول: " تلقون إليهم مودتكم إياهم".

قال مقاتل:"يعني: الصحيفة".

قال سهل:"أي: تخبرونهم بما يخبر بمثله الرجل أهل مودّته، وتنصحون لهم".

قال السمعاني:"أي: تلقون إليهم أخبار النبي وسره بالمودة التي بينكم وبينهم، ويقال: بالنصيحة، وقيل: بالكتاب. وسمي ذلك مودة وكذلك النصيحة؛ لأن ذلك دليل المودة".

قال الزجاج:"قيل المعنى تُلقُونَ إليهم المودَّةَ، والمعنى -والله أعلم -يلقون إليهم أخبار النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ وسِرَّهُ بالمودةِ التي بينكُمْ وبينهم، ودليل هذا القول: {تُسِرُّونَ

=

=

إِلَيْهِمْ}، ما يستره النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ بالمودة".

قوله تعالى: {وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ} [الممتحنة: ١]، أي:"وهم قد كفروا بما جاءكم من الحق من الإيمان بالله ورسوله وما نزل عليه من القرآن".

قال الطبري: " يقول: وقد كفر هؤلاء المشركون الذين نهيتكم أن تتخذوهم أولياء بما جاءكم من عند الله من الحقّ، وذلك كفرهم بالله ورسوله وكتابه الذي أنزله على رسوله".

قوله تعالى: {يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ} [الممتحنة: ١]، أي:"يخرجون الرسول ويخرجونكم -أيها المؤمنون- من «مكة»؛ لأنكم تصدقون بالله ربكم، وتوحدونه".

قال الطبري: " يخرجون الرسول وإياكم من دياركم وأرضكم، لأن آمنتم بالله".

قال سهل:"أي: أخرجوا الرسول وأخرجوكم، لأن آمنتم بالله وحده".

قال السمعاني:"معنى «الإخراج» -هاهنا-: هو الإلجاء إلى الخروج".

قال ابن كثير:"هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم؛ لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم، كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده؛ ولهذا قال: {أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ}، أي: لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين، كقوله: {وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [البروج: ٨]، وكقوله {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ} [الحج: ٤٠]".

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي} [الممتحنة: ١]، أي:"إن كنتم -أيها المؤمنون- هاجرتم مجاهدين في سبيلي، طالبين مرضاتي عنكم، فلا توالوا أعدائي وأعداءكم".

قال الطبري: " من المؤخر الذي معناه التقديم، ووجه الكلام: يا أيها الذين آمنوا

=

=

لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق إن كنتم خرجتم جهادًا في سبيلي، وابتغاء مرضاتي".

قال سهل:"يريد: فلا تلقوا إليهم بالمودة إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي طالبين رضاي".

قال ابن كثير:"أي: إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء، إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم فلا توالوا أعدائي وأعداءكم، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقًا عليكم وسخطًا لدينكم".

قال الزمخشري:"{وإِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ} متعلق بـ {لا تتخذوا}، يعنى: لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائى".

قوله تعالى: {تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ} [الممتحنة: ١]، أي:"تُفْضون إليهم بالمودة سرًّا، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أظهرتم".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره للمؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ: تسرّون أيها المؤمنون بالمودّة إلى المشركين بالله، وأنا أعلم منكم بما أخفى بعضكم من بعض، فأسره منه، وأعلم أيضًا منكم ما أعلنه بعضكم لبعض".

قال سهل:"أي: كيف تستترون بمودّتكم لهم منّي وأنا أعلم بما تضمرون وما تظهرون؟".

قال ابن كثير:"أي: تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر".

قال الزمخشري:"{تُسِرُّونَ} استئناف، ومعناه: أيّ طائل لكم في إسراركم وقد علمتم أن الإخفاء والإعلان سيان في علمي لا تفاوت بينهما، وأنا مطلع رسولي على ما تسرون".

قال السمعاني:"{تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ} خبر بمعنى النهي. وقوله: {وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ} أي: بما أسررتم وما ظهرتم".

=

=

قوله تعالى: {وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} [الممتحنة: ١]، أي:"ومن يفعل ذلك منكم فقد أخطأ طريق الحق والصواب، وضلَّ عن قصد السبيل".

قال الطبري: يقول: " ومن يسرُّ منكم إلى المشركين بالمودّة أيها المؤمنون فقد ضلّ: يقول: فقد جار عن قصد السبيل التي جعلها الله طريقًا إلى الجنة ومحجة إليها".

قال الزمخشري:"ومن يفعل هذا الإسرار فقد أخطأ طريق الحق والصواب".

قال السمعاني:"أي: أخطأ طريق الحق".

قال ابن أبي زمنين: {سَوَاءَ السَّبِيلِ}، أي:"قصد الطريق".

ثم بين-سبحانه-حال هؤلاء الأعداء عند ما يتمكنون من المؤمنين فقال: (إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْداءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ، وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ).

ومعنى يَثْقَفُوكُمْ يظفروا بكم، ويدركوا طلبتهم منكم. وأصل الثقف: الحذق في إدراك الشيء وفعله، ومنه رجل ثقف إذا كان سريع الفهم، ويقال: ثقفت الرجل في الحرب إذا أدركته وظفرت به.

أى: إن يظفر بكم هؤلاء الأعداء-أيها المؤمنون-ويتمكنوا منكم، يظهروا لكم ما انطوت عليه قلوبهم نحوكم من بغضاء: ولا يكتفون بذلك، بل يمدون إليكم أيديهم بما يضركم، وألسنتهم مما يؤذيكم.

ثم هم بعد كل ذلك يودون ويتمنون أن تصيروا كفارا مثلهم.

وقال-سبحانه-: وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ.. للإشعار بكثرة ما ينزلونه بالمؤمنين من أذى، إذ التعبير بالبسط يدل على الكثرة والسعة.

وقوله: وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ معطوف على جملة الشرط والجزاء، ويكون-سبحانه- قد أخبر عنهم بخبرين:

=

=

أحدهما: ما تضمنته الجملة الشرطية من عداوتهم للمؤمنين.

وثانيهما: تمنيهم ارتدادهم من الإيمان إلى الكفر.

وهذا الرد إلى الكفر أسبق المضار عندهم وأولها، لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم، لأنكم بذالون لها دونه. والعدو أهم شيء عنده، أن يقصد أعز شيء عند صاحبه ا.هـ.

قوله تعالى: {إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ} [الممتحنة: ٢]، أي:"إن يظفر بكم هؤلاء الذين تُسرُّون إليهم بالمودة يكونوا حربًا عليكم، ويمدوا إليكم أيديهم بالقتل والسبي، وألسنتهم بالسب والشتم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن يثقفكم هؤلاء الذين تسرّون أيها المؤمنون إليهم بالمودّة، يكونوا لكم حربًا وأعداء، {وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ) بالقتال {وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوء}".

قال ابن كثير:"أي: لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال".

قال السمعاني:"العرب تقول: فلان ثقف لقف، إذا كان سريع الأخذ".

قوله تعالى: {وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ} [الممتحنة: ٢]، أي:"وهم قد تمنَّوْا -على كل حال-لو تكفرون مثلهم".

قال الطبري:"يقول: وتمنوا لكم أن تكفروا بربكم، فتكونوا على مثل الذي هم عليه".

قال السمعاني:"أي: وأحبوا لو تكفرون كما كفروا".

قال السعدي:"فإن هذا غاية ما يريدون منكم".

قال ابن كثير:"أي: ويحرصون على ألا تنالوا خيرًا، فهم عداوتهم لكم كامنة

=

=

وظاهرة، فكيف توالون مثل هؤلاء؟ وهذا تهييج على عداوتهم أيضًا".

قال الزمخشري:"وتمنوا لو ترتدون عن دينكم، فإذن مودة أمثالهم ومناصحتهم خطأ عظيم منكم ومغالطة لأنفسكم ونحوه قوله تعالى: {لا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا}".

قال الزمخشري:"فإن قلت: كيف أورد جواب الشرط مضارعا مثله ثم قال: {وَوَدُّوا} بلفظ الماضي؟

قلت: الماضي وإن كان يجرى في باب الشرط مجرى المضارع في علم الإعراب، فإن فيه نكتة، كأنه قيل: وودّوا قبل كل شيء كفركم وارتدادكم، يعنى: أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعا: من قتل الأنفس، وتمزيق الأعراض، وردّكم كفارا، وردكم كفارا أسبق المضارّ عندهم وأوّلها، لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم، لأنكم بذّالون لها دونه، والعدوّ أهم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه".

ثم بين-سبحانه-الآثار السيئة التي تترتب على ضلالهم عن سواء السبيل فقال: لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحامُكُمْ. وَلا أَوْلادُكُمْ، يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ...

والأرحام: جمع رحم والمراد بهم الأقارب، الذين كان بعض المؤمنين يوالون المشركين من أجلهم.

أى: منكم-أيها المؤمنون-من أفشى أسراركم للكافرين، خوفا على أقاربه أو أولاده الذين يعيشون في مكة مع هؤلاء الكافرين، والحق أنه لن تنفعكم قراباتكم ولا أولادكم الذين توالون المشركين من أجلهم شيئا من النفع يوم القيامة، لأنه في هذا اليوم يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ أى يفرق بينكم وبين أقاربكم وأولادكم يوم القيامة، كما قال تعالى: فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ وكما قال-سبحانه-: يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ.

=

=

وخص-سبحانه-الأولاد بالذكر مع أنهم من الأرحام، لمزيد المحبة لهم-والحنو عليهم.

قال الشوكاني:، وجملة يَوْمَ الْقِيامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ مستأنفة لبيان عدم نفع الأرحام والأولاد في ذلك اليوم. ومعنى يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ يفرق بينكم، فيدخل أهل طاعته الجنة.

ويدخل أهل معصيته النار، وقيل: المراد بالفصل بينهم، أنه يفر كل منهم من الآخر من شدة الهول.. قيل: ويجوز أن يتعلق يَوْمَ الْقِيامَةِ بما قبله. أى: لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة، فيوقف عليه، ويبتدأ بقوله يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ والأولى أن يتعلق بما بعده-أى: يفصل بينكم يوم القيامة، فيوقف على أَوْلادُكُمْ ويبتدأ بيوم القيامة ا.هـ.

وقراءة الجمهور يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ-بضم الياء وإسكان الفاء وفتح الصاد-على البناء للمجهول. وقرأ عاصم يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ بفتح الياء وكسر الصاد-على البناء للفاعل، وقرأ حمزة والكسائي يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ-بضم الياء وفتح الفاء وتشديد الصاد مع الكسر-بالبناء للفاعل-أيضا-.

وقرأ ابن عامر يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ-بضم الياء وفتح الفاء وتشديد الصاد مع الفتح-على البناء للمجهول.

ثم ختم-سبحانه-الآية الكريمة بقوله: وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ أى: والله تعاليلا يخفى عليه شيء من أعمالكم، بل هو مطلع عليها اطلاعا تاما وسيجازيكم يوم القيامة بما تستحقونه من ثواب أو عقاب.

قوله تعالى: {لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ} [الممتحنة: ٣]، أي:"لن تنفعكم قراباتكم ولا أولادكم شيئًا حين توالون الكفار مِن أجلهم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: لا يدعونكم أرحامكم وقراباتكم وأولادكم إلى

=

=

الكفر بالله، واتخاذ أعدائه أولياء تلقون إليهم بالمودّة، فإنه لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم عند الله يوم القيامة، فتدفع عنكم عذاب الله يومئذ، إن أنتم عصيتموه في الدنيا، وكفرتم به".

قال الثعلبي:"يقول: لا تدعونّكم قرابتكم وأولادكم التي بمكة إلى خيانة رسول الله ﷺ والمؤمنين وترك مناصحتهم وموالاة أعدائهم ومظاهرتهم فلن ينفعكم {أَرْحامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ} التي عصيتم الله سبحانه لأجلهم".

قال البغوي:"معناه: لا يدعونكم ولا يحملنكم ذوو أرحامكم وقراباتكم وأولادكم الذين بمكة إلى خيانة الرسول ﷺ والمؤمنين وترك مناصحتهم وموالاة أعدائهم فلن تنفعكم {أَرْحامُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ} الذين عصيتم الله لأجلهم".

قال السعدي:"فإن احتججتم وقلتم: نوالي الكفار لأجل القرابة والأموال، فلن تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئا".

قال ابن كثير:"أي: قراباتكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد الله بكم سوءًا، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخَسِر وضَلّ عمله، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد، ولو كان قريبًا إلى نبي من الأنبياء".

عن أنس، أن رجلا قال: يا رسول الله: أين أبي؟ قال: "في النار" فلما قَفَّى دعاه فقال: "إن أبي وأباك في النار".

قوله تعالى: {يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ} [الممتحنة: ٣]، أي:"يوم القيامة يفرق الله بينكم، فيُدْخل أهل طاعته الجنة، وأهل معصيته النار".

قال الطبري: يقول: " يفصل ربكم أيها المؤمنون بينكم يوم القيامة بأن يدخل أهل طاعته الجنة، وأهل معاصية والكفر به النار".

قال الزمخشري: {يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ} " وبين أقاربكم وأولادكم، {يَوْمَ يَفِرُّ

=

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤).

{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَة} بِكَسْرِ الْهَمْزَة وَضَمّهَا فِي الْمَوْضِعَيْنِ قُدْوَة {حَسَنَة فِي إبْرَاهِيم} أَيْ بِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا {وَالَّذِينَ مَعَهُ} مِنْ الْمُؤْمِنِينَ {إذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إنَّا بُرَآء} جَمْع بَرِيء كَظَرِيفٍ {مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُون الله كَفَرْنَا بِكُمْ} أَنْكَرْنَاكُمْ {وَبَدَا بَيْننَا وَبَيْنكُمْ الْعَدَاوَة وَالْبَغْضَاء أَبَدًا} بِتَحْقِيقِ الْهَمْزَتَيْنِ وَإِبْدَال الثَّانِيَة وَاوًا {حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاَللهِ وَحْده إلَّا قَوْل إبْرَاهِيم لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَن لَك} مُسْتَثْنَى مِنْ أُسْوَة فَلَيْسَ لَكُمْ التَّأَسِّي بِهِ فِي ذَلِكَ بِأَنْ تَسْتَغْفِرُوا لِلْكُفَّارِ وَقَوْله

=

الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ} ... الآية، فما لكم ترفضون حق الله مراعاة لحق من يفرّ منكم غدا: خطأ رأيهم في موالاة الكفار بما يرجع إلى حال من والوه أوّلا، ثم بما يرجع إلى حال من اقتضى تلك الموالاة ثانيا، ليريهم أن ما أقدموا عليه من أي جهة نظرت فيه وجدته باطلا".

قال السعدي:"فلذلك حذركم من موالاة الكافرين الذين تضركم موالاتهم".

وقرئ: «يُفْصَلُ بَيْنَكُم»، بضم الياء وتخفيف الصاد وفتحها، على ما لم يسمّ فاعله.

قوله تعالى: {وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الممتحنة: ٣]، أي:"والله بما تعملون بصير، لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأعمالكم".

قال الطبري: يقول: " والله بأعمالكم أيها الناس ذو علم وبصر، لا يخفى عليه منها شيء، هو بجميعها محيط، وهو مجازيكم بها إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشرّ، فاتقوا الله في أنفُسكم واحذروه".

{وَمَا أَمْلِك لَك مِنْ الله} أَيْ مِنْ عَذَابه وَثَوَابه {مِنْ شَيْء} كَنَّى بِهِ عَنْ أَنَّهُ لَا يَمْلِك لَهُ غَيْر الِاسْتِغْفَار فَهُوَ مَبْنِيّ عَلَيْهِ مُسْتَثْنَى مِنْ حَيْثُ الْمُرَاد مِنْهُ وَإِنْ كَانَ مِنْ حَيْثُ ظَاهِره مِمَّا يُتَأَسَّى فِيهِ {قُلْ فَمَنْ يَمْلِك لَكُمْ من الله شيئا} واستغفاره لكم قَبْل أَنْ يَتَبَيَّن لَهُ أَنَّهُ عَدُوّ لِلَّهِ كَمَا ذَكَرَهُ فِي بَرَاءَة {رَبّنَا عَلَيْك تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْك أَنَبْنَا وَإِلَيْك الْمَصِير} مِنْ مَقُول الْخَلِيل وَمَنْ مَعَهُ أَيْ قَالُوا.

رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥).

{رَبّنَا لَا تَجْعَلنَا فِتْنَة لِلَّذِينَ كَفَرُوا} أَيْ لَا تُظْهِرهُمْ عَلَيْنَا فَيَظُنُّوا أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقّ فَيُفْتَنُوا أَيْ تَذْهَب عُقُولهمْ بِنَا {وَاغْفِرْ لَنَا رَبّنَا إنَّك أَنْتَ الْعَزِيز الْحَكِيم} فِي مُلْكك وصنعك

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦).

{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ} يَا أُمَّة مُحَمَّد جَوَاب قَسَم مُقَدَّر {فِيهِمْ أُسْوَة حَسَنَة لِمَنْ كَانَ} بَدَل اشْتِمَال مِنْ كَمْ بِإِعَادَةِ الْجَار {يَرْجُوا الله وَالْيَوْم الْآخِر} أَيْ يَخَافهُمَا أَوْ يَظُنّ الثَّوَاب وَالْعِقَاب {وَمَنْ يَتَوَلَّ} بِأَنْ يُوَالِي الْكُفَّار {فَإِنَّ الله هُوَ الْغَنِيّ} عَنْ خَلْقه {الْحَمِيد} لأهل طاعته[1].

---

(١) قوله تعالى: (قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ) تأكيد لأمر الإنكار عليهم، والتخطئة في موالاة الكفار، بقصة إبراهيم-عليه السلام ومن معه، ليعلم أن الحب في الله تعاليوالبغض فيه-سبحانه-من أوثق عرا الإيمان، فلا ينبغي أن يغفل عنها.

والأسوة-بضم الهمزة وكسرها-بمعنى الائتساء والاقتداء، وتطلق على الخصلة التي من حقها أن يؤتسى ويقتدى بها، وعلى نفس الشخص المؤتسى به.

والمعنى: قد كان لكم-أيها المؤمنون-أسوة حسنة، وخصلة حميدة، ومنقبة =

=

كريمة، في قصة أبيكم إبراهيم-عليه السلام، وفي قصة الذين آمنوا معه.

وافتتح-سبحانه-الكلام بقوله: قَدْ كانَتْ لتأكيد الخبر، فإن هذا الأسلوب المشتمل على قد وفعل الكون، يفيد التأكيد بموجب الخبر، والتعريض بغفلة من يخالفه.

ووصف-سبحانه-الأسوة بالحسن، على سبيل المدح لها والتحريض على الاقتداء بصاحبها.

وعطف-سبحانه-على إبراهيم الذين آمنوا معه، ليتم التمثيل لحال المسلمين مع رسولهم ﷺ أى: كونوا-أيها المؤمنون-متأسين ومقتدين برسولكم ﷺ ومطيعين له، ومستجيبين لتوجيهاته، كما كان أتباع أبيكم إبراهيم كذلك.

ثم بين-سبحانه-ما يجب عليهم الاقتداء به من حال إبراهيم-عليه السلام والمؤمنين معه، فقال: إِذْ قالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ، وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، كَفَرْنا بِكُمْ، وَبَدا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ الْعَداوَةُ وَالْبَغْضاءُ أَبَداً، حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ وإِذْ ظرف زمان بمعنى وقت وحين، وهو بدل اشتمال من إبراهيم والذين معه. أو خبر لكان.

وبُرَآؤُا جمع برىء. يقال: برئ فلان من كذا يبرأ براء وبراءة. إذا ابتعد عنه، لكراهته له.

أى: قد كان لكم-أيها المؤمنون-أسوة حسنة في إبراهيم-عليه السلام وفي الذين آمنوا معه، وقت أن قالوا لقومهم الكافرين، بشجاعة وقوة: إنا برآء منكم، ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله-عز وجل وإننا قد كفرنا بكم وبمعبوداتكم وَبَدا أى:

وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغض على سبيل التأييد والاستمرار، ولن نتخلى عن ذلك معكم، حتى تؤمنوا بالله تعاليوحده، وتتركوا عبادتكم لغيره تعالى.

فأنت ترى أن إبراهيم-عليه السلام والمؤمنين معه، قد أعلنوا بكل شجاعة وشدة، إيمانهم الكامل بالحق، وبراءتهم وكراهيتهم واحتقارهم، لكل من أشرك مع الله

=

=

تعاليفي العبادة آلهة أخرى.

وأنهم لم يكتفوا بالتغيير القلبي للمنكر، بل جاهروا بعداوتهم له، وبالتنزه عن اقترابهم منه. وبتجافيهم عنه ... ولعل هذا هو أقصى ما كانوا يملكونه بالنسبة لتغيير هذا المنكر في ذلك الوقت.

وقد أخبرنا القرآن الكريم أن إبراهيم-عليه السلام لم يكتف بذلك، بل حطم الأصنام التي كان يعبدها قومه وقال لهم: أُفٍّ لَكُمْ وَلِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ.

وقوله تعالى: إِلَّا قَوْلَ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ، لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ.. كلام معترض بين الأقوال التي حكاها-سبحانه-عن إبراهيم-عليه السلام.

والاستثناء يترجح أنه منقطع، لأن هذا القول من إبراهيم لأبيه، ليس من جنس الكلام السابق، الذي تبرأ فيه هو ومن معه مما عليه أقوامهم الكافرون.

والمعنى: اقتدوا-أيها المؤمنون-بأبيكم إبراهيم-عليه السلام وبالذين آمنوا معه، في براءتهم من الشرك والمشركين.. ولكن لا تقتدوا به في استغفاره لأبيه الكافر، لأن استغفاره له كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه.

وقوله-سبحانه-وَما أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ حكاية لبقية كلام إبراهيم لأبيه، وليس الاستثناء متوجها إليه، لأن هذه الجملة بيان لما تحلى به إبراهيم-عليه السلام من آداب مع ربه تعاليحيث فوض الأمر إليه-سبحانه-.

أى: وعد إبراهيم أباه بالاستغفار له، أملا في هدايته، وقال له: يا أبت إنى لا أملك لك من أمر قبول الاستغفار شيئا، بل الأمر كله لله، إن شاء عذبك وإن شاء عفا عنك، والجملة الكريمة في محل نصب على الحال من فاعل لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ أى: لأستغفرن لك حالة كوني لا أملك من أمر المغفرة أو غيرها شيئا، وإنما الذي يملك ذلك هو الله-عز وجل.

قوله تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ} [الممتحنة: ٤].

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أصحاب رسول الله ﷺ: قد كان لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة في إبراهيم خليل الرحمن، تقتدون به، والذين معه من أنبياء الله".

قال الفراء:"يعنى: حاطبا، «فِيهِمْ» في إبراهيم. يقول: في فعل إبراهيم، والذين معه إذ تبروءا من قومهم. يَقُولُ: ألا تأسيت يا حاطب بإبراهيم فتبرأ من أهلك كما بريء إِبْرَاهِيم؟".

قال ابن كثير:"يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبري منهم: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ}، أي: وأتباعه الذين آمنوا معه".

قال مقاتل:"{وَالَّذِينَ مَعَهُ}، من المؤمنين".

قال الزمخشري: "أي: كان فيهم مذهب حسن مرضى بأن يؤتسى به ويتبع أثره، وهو قولهم لكفار قومهم ما قالوا".

عن وهب، قال: "قال ابن زيد في قول الله ﷻ: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ}، قال: الذين معه الأنبياء".

قال ابن قتيبة:"{أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}، أي: عبرةٌ وائْتمامٌ".

قال الشوكاني:"أصل الأسوة بالضم والكسر: القدوة، ويقال: هو أسوتك، أي: مثلك وأنت مثله".

قوله تعالى: {إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ} [الممتحنة: ٤]، أي:"حين قالوا لقومهم الكافرين بالله: إنا بريئون منكم وممَّا تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد".

قال الطبري:"يقول: حين قالوا لقومهم الذين كفروا بالله، وعبدوا الطاغوت: أيها القوم إنا برآء منكم، ومن الذين تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد".

=

=

قال ابن كثير:"أي: تبرأنا منكم {وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ} ".
قوله تعالى: {كَفَرْنَا بِكُمْ} [الممتحنة: ٤]، أي:"كفرنا بكم، وأنكرنا ما أنتم عليه من الكفر".
قال الطبري: أي: " أنكرنا ما كنتم عليه من الكفر بالله وجحدنا عبادتكم ما تعبدون من دون الله أن تكون حقًّا".
قال ابن كثير:"أي: بدينكم وطريقكم".
قال الزمخشري: أي: " أنا لا نعتدّ بشأنكم ولا بشأن آلهتكم، وما أنتم عندنا على شيء".
قوله تعالى: {وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ} [الممتحنة: ٤]، أي:"وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدًا ما دمتم على كفركم، حتى تؤمنوا بالله وحده".
قال الطبري: أي: "وظهر بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدًا على كفركم بالله، وعبادتكم ما سواه، ولا صلح بيننا ولا هوادة، حتى تصدّقوا بالله وحده، فتوحدوه، وتفردوه بالعبادة".
قال ابن كثير:"يعني: وقد شُرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم، ما دمتم على كفركم فنحن أبدًا نتبرأ منكم ونبغضكم إلى أن تُوحدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأنداد والأوثان".
قال السعدي:"ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح، فقالوا: {كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا} أي: ظهر وبان {بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ} أي: البغض بالقلوب، وزوال مودتها، والعداوة بالأبدان، وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حد، بل ذلك {أَبَدًا} ما دمتم مستمرين على كفركم {حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ} أي: فإذا آمنتم بالله وحده، زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت مودة وولاية".

=

=

قال الزمخشري: " كاشفوهم بالعداوة وقشروا لهم العصا، وأظهروا البغضاء والمقت، وصرحوا بأن سبب عداوتهم وبغضائهم ليس إلا كفرهم بالله، وما دام هذا السبب قائما كانت العداوة قائمة، حتى إن أزالوه وآمنوا بالله وحده انقلبت العداوة موالاة، والبغضاء محبة، والمقت مقة، فأفصحوا عن محض الإخلاص".

قوله تعالى: {إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ} [الممتحنة: ٤]، أي:"إلا في استغفار إبراهيم لأبيه فلا تقتدوا به، فإنه إنما استغفر لأبيه المشرك رجاء السلامة".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: قد كانت لكم أُسوة حسنة في إبراهيم والذين معه في هذه الأمور التي ذكرناها من مباينة الكفار ومعاداتهم، وترك موالاتهم إلا في قول إبراهيم لأبيه {لأسْتَغْفِرَنَّ لَكَ}، فإنه لا أسوة لكم فيه في ذلك، لأن ذلك كان من إبراهيم لأبيه عن موعدة وعدها إياه قبل أن يتبين له أنه عدوّ الله؛ فلما تبين له أنه عدوّ لله تبرأ منه. يقول تعالى ذكره: فكذلك أنتم أيها المؤمنون بالله، فتبرّءوا من أعداء الله من المشركين به ولا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا بالله وحده ويتبرّءوا عن عبادة ما سواه وأظهروا لهم العداوة والبغضاء".

قال السعدي: أي: " فلكم أيها المؤمنون أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد، والقيام بلوازم ذلك ومقتضياته، وفي كل شيء تعبدوا به لله وحده، {إلا} في خصلة واحدة وهي {قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ} آزر المشرك، الكافر، المعاند، حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد، فامتنع، فقال إبراهيم: {لأسْتَغْفِرَنَّ لَكَ.. }.. فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في هذه الحالة التي دعا بها للمشرك، فليس لكم أن تدعوا للمشركين، وتقولوا: إنا في ذلك متبعون لملة إبراهيم، فإن الله ذكر عذر إبراهيم في ذلك بقوله: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إن إبراهيم لأواه حليم}".

=

=

قال الفراء:"أي: قَدْ كانت لكم أسوة فِي أفاعيلهم إلّا في قول إبراهيم: «لأستغفرن»، فإنه ليس لكم فِيهِ أسوة".

قال ابن كثير:"أي: لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها، إلا في استغفار إبراهيم لأبيه، فإنه إنما كان عن مَوعِدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يَدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم، ويقولون: إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه، فأنزل الله، ﷻ : {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأبِيهِ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأوَّاهٌ حَلِيمٌ} [التوبة: ١١٣، ١١٤]. وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ} إلى قوله: {إِلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأبِيهِ لأسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ}، أي: ليس لكم في ذلك أسوة، أي: في الاستغفار للمشركين".

قال أبو عبيدة:"ثم استثنى، {إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَك}".

قال الشوكاني:"هو استثناء متصل من قوله: «في إبراهيم» بتقدير مضاف محذوف ليصح الاستثناء، أي: قد كانت لكم أسوة حسنة في مقالات إبراهيم إلا قوله لأبيه، أو من «أسوة حسنة»، وصح ذلك لأن القول من جملة الأسوة، كأنه قيل: قد كانت أسوة حسنة في إبراهيم في جميع أقواله وأفعاله إلا قوله لأبيه، أو من التبري والقطيعة التي ذكرت، أي: لم يواصله إلا قوله.. أو هو منقطع، أي: لكن قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك، فلا تأتسوا به، فتستغفرون للمشركين، فإنه كان عن موعدة وعدها إياه، أو أن ذلك إنما وقع منه لأنه ظن أنه قد أسلم، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه وقد تقدم تحقيق هذا في سورة براءة".

عن مجاهد: " {إِلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأبِيهِ}، قال: نُهُوا أن يتأسَّوْا باستغفار إبراهيم

=

=

لأبيه، فيستغفروا للمشركين".
قال مجاهد:"يقول: في كلّ أمره أسوة، إلا الاستغفار لأبيه".
قال ابن زيد:"يقول: ليس لكم في هذا أسوة".
قال قتادة:"ائتسوا به في كلّ شيء، ما خلا قوله لأبيه: {لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ}، فلا تأتسوا بذلك منه، فإنها كانت عن موعدة وعدها إياه".
قال قتادة:"يقول: لا تأسوا بذلك فإنه كان عليه موعدًا، وتأسوا بأمره كله".
قوله تعالى: {وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ} [الممتحنة: ٤]، أي:"ما أدفع عنك من عذاب الله شيئًا إن أشركت به، ولا أملك لك شيئًا غير الاستغفار".
قال الطبري:"يقول: وما أدفع عنك من الله من عقوبة، إن الله عاقبك على كفرك به، ولا أُغْنِي عنك منه شيئًا".
قال السعدي:"{و} الحال أني لا {أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ} لكني أدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيا".
قال الشوكاني:"هذا من تمام القول المستثنى، يعني ما أغني عنك، وما أدفع عنك، من عذاب الله شيئا، والجملة في محل نصب على الحال من فاعل «لأستغفرن»، فالاستثناء متوجه إلى الاستغفار لا إلى هذا القيد، فإنه إظهار للعجز وتفويض للأمر إلى الله، وذلك من خصال الخير".
ثم حكى-سبحانه-بعد ذلك جانبا مما تضرع به إبراهيم-عليه السلام- إلى خالقه فقال: (رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَإِلَيْكَ أَنَبْنا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ).
أى: يا ربنا عليك وحدك فوضنا أمورنا، وإليك وحدك قبول توبتنا، وإليك لا إلى أحد سواك مرجعنا ومصيرنا.
قوله تعالى: {رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا} [الممتحنة: ٤]، أي:"ربنا عليك اعتمدنا".
قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه مخبراً عن قيل إبراهيم وأنبيائه صلوات الله عليهم:

=

=
{رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا} ".
قال ابن كثير:"أي: توكلنا عليك في جميع الأمور، وسَلَّمنا أمورَنا إليك، وفوضناها إليك".
قال السعدي: أي: " ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه، حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واعترفوا بالعجز والتقصير، فقالوا: {رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا} أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا، ووثقنا بك يا ربنا في ذلك".
قال الشوكاني:"التوكل: هو تفويض الأمور إلى الله".
قوله تعالى: {وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا} [الممتحنة: ٤]، أي:"وإليك رجعنا بالتوبة".
قال الطبري:"يعني: وإليك رجعنا بالتوبة مما تكره إلى ما تحب وترضى".
قال الفراء:"أي: فقولوا هَذَا القول أنتم، وَيُقَال: إنه من قيل إِبْرَاهِيم عليه السلام وقومه".
قال السعدي: " أي: رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك، فنحن في ذلك ساعون، وبفعل الخيرات مجتهدون".
قال الشوكاني:"الإنابة: الرجوع".
قوله تعالى: {وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} [الممتحنة: ٤]، أي:"وإليك المرجع يوم القيامة".
قال الطبري:"يقول: وإليك مصيرنا ومرجعنا يوم تبعثنا من قبورنا، وتحشرنا في القيامة إلى موقف العَرْض".
قال ابن كثير:"أي: المعاد في الدار الآخرة".
قال السعدي: أي: " ونعلم أنا إليك نصير، فسنستعد للقدوم عليك، ونعمل ما يقربنا الزلفى إليك".
قال الشوكاني:"المصير: المرجع، وتقديم الجار والمجرور لقصر التوكل والإنابة والمصير على الله".
(رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا) والفتنة هنا مصدر بمعنى المفتون، أي:
=

=

المعذب، مأخوذ من فتن فلان الفضة إذا أذابها.

أى: يا ربنا لا تجعلنا مفتونين معذبين لهؤلاء الكافرين، بأن تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نستطيع صده، كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ... أى: عذبوهم وحاولوا إنزال الضرر والأذى بهم.

ويصح أن يكون المعنى: يا ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا، بأن تعذبنا بأيديهم، فيظنوا بسبب ذلك أنهم على الحق، ونحن على الباطل، ويزعموا أننا لو كنا على الحق ما انتصروا علينا.

ولبعض العلماء رأى آخر في فهم هذه الآية، وهو أن المراد بالفتنة هنا: اضطراب حال المسلمين وفساده. وكونهم لا يصلحون أن يكونوا قدوة لغيرهم في وجوه الخير ... فيكون المعنى: يا ربنا لا تجعل أعمالنا وأقوالنا سيئة. فيترتب على ذلك أن ينفر الكافرون من ديننا، بحجة أنه لو كان دينا سليما، لظهر أثر ذلك على أتباعه، ولكانوا بعيدين عن كل تفرق وتباعد وتأخر.

وقوله: وَاغْفِرْ لَنا رَبَّنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أى: واغفر لنا يا ربنا ذنوبنا، إنك أنت الغالب الذي لا يغالب، الحكيم في كل أقواله وأفعاله.

وقوله-سبحانه-: لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ تأكيد لقوله تعاليقبل ذلك: قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ والغرض من هذا التأكيد، تحريض المؤمنين على التأسى بالسابقين في قوة إيمانهم وشدة إخلاصهم.

أى: لقد كان لكم-أيها المؤمنون-أسوة حسنة، وقدوة طيبة، في أبيكم إبراهيم-عليه السلام وفيمن آمن به، وهذه القدوة إنما ينتفع بها من كان يرجو لقاء الله تعاليورضاه، ومن كان يرجو ثوابه وجزاءه الطيب.

وجيء بلام القسم في قوله: لَقَدْ كانَ لَكُمْ.. على سبيل المبالغة في التأكيد بوجوب

=

=

التأسى بإبراهيم، وبمن آمن معه.

وجملة لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ بدل من قوله لَكُمْ بدل اشتمال.

وفائدة هذا البدل: الإيذان بأن من يؤمن بالله واليوم الآخر، لا يترك الاقتداء بإبراهيم-عليه السلام- وبمن آمن معه، وأن ترك ذلك من علامات عدم الإيمان الحق.

كما ينبئ عنه التحذير في قوله تعاليبعد ذلك: وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

أى: ومن يعرض عن هذا التأسى، فوبال إعراضه عليه وحده، فإن الله تعاليهو الغنى عن جميع خلقه، الحميد لمن يمتثل أمره.

والمتدبر في هذه الآيات الكريمة، من أول السورة إلى هنا، يجد أن الله تعاليلم يترك وسيلة للتنفير من موالاة أعدائه، إلا أظهرها وكشف عنها.

قوله تعالى: {رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا} [الممتحنة: ٥]، أي:"ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا بعذابك لنا أو تسلط الكافرين علينا فيفتنونا عن ديننا، أو يظهروا علينا فيُفتنوا بذلك، ويقولوا: لو كان هؤلاء على حق، ما أصابهم هذا العذاب، فيزدادوا كفرًا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل إبراهيم خليله والذين معه: يا ربَّنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا بك فجحدوا وحدانيتك، وعبدوا غيرك، بأن تسلطهم علينا، فيروا أنهم على حقّ، وأنا على باطل، فتجعلنا بذلك فتنة لهم".

وفي قوله تعالى: {رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا} [الممتحنة: ٥]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فنصير فتنة لهم فيقولوا لو كانوا على حق ما عذبوا، قاله مجاهد، وقتادة، وهذا من دعاء إبراهيم عليه السلام.

قال الفراء: أي: " لا تظهَرنّ علينا الكفار فيروا أنهم عَلَى حق، وأنّا عَلَى باطل".

قال الزجاج:"معناه: لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على حق فَيَفْتَتِنُوا بِذَلِك".

=

=

عن مجاهد، في قوله: " {لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا}، قال: لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا".

قال قتادة:"يقول: لا تظهرهم علينا فَيَفْتَتِنُوا بذلك. يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحقّ هم عليه".

قال ابن عطية:"المعنى: لا تغلبهم علينا، فتكون لهم فتنة وسبب ضلالة، لأنهم يتمسكون بكفرهم ويقولون إنما غلبناهم لأنا على الحق وهم على الباطل".

الثاني: معناه: لا تقتر علينا بالرزق، وتبسط لهم في الرزق، فنحتاج إليهم فيكون ذلك فتنة لنا. قاله مقاتل.

الثالث: معناه: لا تسلِّطْهم علينا فيفتنونا عن أدياننا، قاله ابن عباس.

قال ابن عطية:"فكأنه قال: لا تجعلنا مفتونين فعبر عن ذلك بالمصدر وهذا أرجح الأقوال لأنهم إنما دعوا لأنفسهم، وعلى منحى قتادة إنما دعوا للكفار. أما أن مقصدهم إنما هو أن يندفع عنهم ظهور الكفار الذي يسببه فتن الكفار فجاء في المعنى تحليق بليغ، ونحوه قول النبي ﷺ: «بئس الميت سعد-ليهود-لأنهم يقولون لو كان محمد نبيا لم يمت صاحبه» ".

قال السعدي: "أي: لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا، ويمنعونا مما يقدرون عليه من أمور الإيمان، ويفتنون أيضا بأنفسهم، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم على الحق وأنا على الباطل، فازدادوا كفرا وطغيانا".

قوله تعالى: {وَاغْفِرْ لَنَا} [الممتحنة: ٥]، أي:"واستر علينا ذنوبنا بعفوك عنها ربنا".

قال الطبري:"يقول: واستر علينا ذنوبنا بعفوك لنا عنها يا ربنا".

قال ابن كثير:"أي: واستر ذنوبنا عن غيرك، واعف عنها فيما بيننا وبينك".

قال السعدي:"ما اقترفنا من الذنوب والسيئات، وما قصرنا به من المأمورات".

=

=

قوله تعالى: {رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الممتحنة: ٥]، أي:"إنك أنت العزيز الذي لا يغالَب، الحكيم في أقواله وأفعاله".

قال الطبري:"يعني: الشديد الانتقام ممن انتقم منه، الحكيم في تدبيره خلقه، وصرفه إياهم فيما فيه صلاحهم".

قال ابن كثير:"{الْعَزِيزُ}، أي: الذي لا يُضَام من لاذ بجناحك، {الْحَكِيم} في أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك".

قال السعدي:"{رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ} القاهر لكل شيء، {الْحَكِيمُ} الذي يضع الأشياء مواضعها، فبعزتك وحكمتك انصرنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلح عيوبنا".

قال سلمة بن وهرام صاحب طاووس:"أن الله تبارك وتعالى إنما سمى نفسه «العفو»، ليعفو، و «الغفور»، ليغفر".

قال محمد بن إسحاق: " العزيز: في نصرته ممن كفر به إذا شاء"، الحكيم: في عذره وحجته إلى عباده".

قال أبو العالية:"{عزيز} في نقمته إذا انتقم". وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

عن أبي العالية:"{حكيم}، قال: حكيم في أمره".

قال محمد بن جعفر بن الزبير" الحكيم في عذره، وحجته إلى عباده".

وفي قراءة ابن مسعود: «إنك أنت الغفور الرحيم»، نظيرها في آخر المائدة: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة: ١١٨].

وفي قراءة ابن مسعود: «إنك أنت الغفور الرحيم»، نظيرها في آخر المائدة: {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة: ١١٨].

قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ}

=

[الممتحنة: ٦]، أي:"لقد كان لكم -أيها المؤمنون-في إبراهيم عليه السلام والذين معه قدوة حميدة لمن يطمع في الخير من الله في الدنيا والآخرة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لقد كان لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة في الذين ذكرهم إبراهيم والذين معه من الأنبياء صلوات الله عليهم والرسل، لمن كان منكم يرجو لقاء الله، وثواب الله، والنجاة في اليوم الآخر".

قال القرطبي:"{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ}، أي: في إبراهيم ومن معه من الأنبياء والأولياء، {أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}، أي: في التبرؤ من الكفار، وقيل: كرر للتأكيد. وقيل: نزل الثاني بعد الأول بمدة، وما أكثر المكررات في القرآن على هذا الوجه".

قال ابن العربي:"يعني: في براءتهم من قومهم، ومباعدتهم لهم، ومنابذتهم عنهم، وأنتم بمحمد أحق بهذا الفعل من قوم إبراهيم بإبراهيم".

قال ابن كثير:"وهذا تأكيد لما تقدم ومستثنى منه ما تقدم أيضًا لأن هذه الأسوة المثبتة -هاهنا-هي الأولى بعينها، وقوله: {لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ} تهييج إلى ذلك كل مقر بالله والمعاد".

قال الزمخشري: " ثم كرّر الحث على الائتساء بإبراهيم وقومه تقريرا وتأكيدا عليهم، ولذلك جاء به مصدرا بالقسم لأنه الغاية في التأكيد، وأبدل عن قوله: {لَكُمْ} قوله: {لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ}، وعقبه بقوله: {وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}، فلم يترك نوعا من التأكيد إلا جاء به".

قال أبو السعود:"{أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}، تكرير للمبالغة في الحث على الائتساء به عليه الصلاة والسلام ولذلك صدر بالقسم، وقوله تعالى: {لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ}، بدل من لكم فائدته الإيذان بأن من يؤمن بالله واليوم الآخر لا يترك الاقتداء بهم وأن تركه من مخايل عدم الإيمان بهما كما ينبئ عنه".

قال السعدي:"فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب، يسهل على العبد كل

=

عسير، ويقلل لديه كل كثير، ويوجب له الإكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين، والأنبياء والمرسلين، فإنه يرى نفسه مفتقرا ومضطرا إلى ذلك غاية الاضطرار".
قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [الممتحنة: ٦]، أي:"ومن يُعْرِض عما ندبه الله إليه من التأسي بأنبيائه، ويوال أعداء الله، فإن الله هو الغنيُّ عن عباده، الحميد في ذاته وصفاته، المحمود على كل حال".
قال الطبري: يقول: " ومن يتول عما أمره الله به وندبه إليه منكم ومن غيركم، فأعرض عنه وأدبر مستكبرًا، ووالى أعداء الله، وألقى إليهم بالمودّة، فإن الله هو الغنيّ عن إيمانه به، وطاعته إياه، وعن جميع خلقه، الحميد عند أهل المعرفة بأياديه، وآلائه عندهم".
قال القرطبي:"{وَمَنْ يَتَوَلَّ} عن الإسلام وقبول هذه المواعظ، {فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ} لم يتعبدهم لحاجته إليهم. {الْحَمِيدُ} في نفسه وصفاته".
قال السمعاني:"{الْغَنِيُّ} أي: المستغني عنهم، {الْحَمِيدُ} في فعاله. والمعنى: أنهم إذا خالفوا أمره، وتولوا الكفار لم يعد إلى الله من ذلك شيء".
قال ابن كثير:"{وَمَنْ يَتَوَلَّ}، أي: عما أمر الله به، {فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}".
قال السعدي:"{وَمَنْ يَتَوَلَّ} عن طاعة الله والتأسي برسل الله، فلن يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئا، {فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ} الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه، {الْحَمِيدُ} في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فإنه محمود على ذلك كله".
عن ابن عباس: " {الْغَنِيُّ}، الذي كمل في غناه".
(فائدة) قوله تعالى: {إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ} الممتحنة: ٤، نجد أن هذه الآية تردُ على بدعتين متقابلتين، وبيان ذلك فيما يلي:

=

=

-أولاً: بيان وجه رد الآية على بدعة التفريط.

في هذه الآية ردٌ قاطع على من أنكر ربوبية الله -ﷻ- من الملاحدة وغيرهم فلم يحقق الدعاء له سبحانه، كما أن فيها رداً على الجبرية والقدرية وغيرهم الذين أنكروا وعطلوا فائدة دعاء الله -ﷻ-، ففي قوله تعالى: {لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ}، دليل واضح على أن دعاء الله من مقتضى ربوبيته الشاملة للخلق كلهم، ولهذا كانت إجابة الدعاء غير خاصة بالمؤمنين بل الله يسأله كل الخلائق فيجيبهم {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ} الإسراء: ٦٧، {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ} النمل: ٦٢، {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} الأنعام: ٦٣، وإجابة الدعاء فعل من أفعال الله تعالى والإقرار بتفرده بها إقرار بتفرده بأفعاله، وكل هذا يستلزم الاعتقاد بعلم الغيب والتصرف المطلق والقدرة المطلقة والنفع والضر للمدعو.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " ومن براهين وحدانية الباري وربوبيته، إجابته للدعوات في جميع الأوقات فلا يحصي الخلق ما يعطيه للسائلين وما يجيب به أدعية الداعين من بر وفاجر ومسلم وكافر، تحصل المطالب الكثيرة، ولا يعرفون لها شيئاً من الأسباب سوى الدعاء والطمع في فضل الله والرجاء لرحمته، وهذا برهان مشاهد محسوس لا ينكره إلا مباهت مكابر".

-ثانياً: بيان وجه رد الآية على بدعة الإفراط.

في هذه الآية رد على من عظم المخلوقين، وجعلهم وسائط بينه وبين الله -ﷻ-، واعتقد أن دعاءهم له مستجاب ولا محالة، فدعاهم من دون الله، فأتى الرد في قوله تعالى: {وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ}، للدلالة على أن من لوازم الدعاء أن يكون المدعو متصرفاً التصرف المطلق وقادراً القدرة المطلقة، وهاتان الصفتان -التصرف والقدرة المطلقتان- من خصائص الربوبية فلا يتصف بهما غير الله

=

=

تعالى، فمن صرف الدعاء لغير الله تعالى فقد صرف له ما هو من خصائص الربوبية، فلذا وجب إخلاص الدعاء لله تعالى، والإخلاص في الدعاء يستلزم الإخلاص في توحيد الربوبية، وأن الشرك في الدعاء يستلزم الشرك في الربوبية، وكذلك فإن من لوازم الدعاء الاعتراف بأن الله هو النافع الضار إذ من شأن الدعاء أن يكون المدعو يستطيع أن ينفع داعيه أو يضره.

ودعاء غير الله تعالى فيه إضاعة لمعنى العبودية، ولمقتضيات الربوبية، وفيه إساءة الظن بالله -سبحانه وتعالى-، وفيه تشبيه الخالق بالمخلوق إذ اعتقد الداعي أن من يدعوه يتوسط له لدى الله تعالى كما يتوسط لدى الرؤساء والزعماء، وهذا التشبيه صرح به بعضهم ظنا منهم أن الخالق مثل المخلوق.

-ثالثاً: المأخذ الذي انطلقت منه هاتان الطائفتان.

المأخذ الذي انطلقت منه هاتان الطائفتان كان مأخذا عقلياً استولد لوازم متناقضة التزمت كل فرقة هذه اللوازم، واستدل لها أصحابها بشبهات مركبة من دلائل عقلية ونقلية.

وجماع شبهتهم التي كانت الأصل والمستند في مخالفتهم تعود إلى انحرافهم في تصور الذات الإلية وما يلزمها من صفات فعليه، لينتج عن ذلك، اتجاهان باطلان في مسألة دعاء الله -عَجَّلَ-:

الاتجاه الأول: إنكار الدعاء: فقول الملاحدة كان لازماً من لوازم إنكارهم لوجود الله -عَجَّلَ-، أما الجبرية والقدرية فقولهم كان لازماً لانحرافهم في مسألة خلق الله لأفعال العباد، فالمجبور قال: الدعاء تحصيل حاصل ولا فائدة منه، والقدري قال: إن الله يكتب الأجور والسيئات ثم جنة ونار، فلا فائدة من دعائه، بزعمهم أنهم ينزهون الله عن ظلم العباد.

الاتجاه الثاني: الشرك في الدعاء: نجد أن من أشرك في الدعاء قد بنى اعتقاده على

=

عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧).

{عَسَى الله أَنْ يَجْعَل بَيْنكُمْ وَبَيْن الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ} مِنْ كُفَّار مَكَّة طَاعَة لِلَّهِ تَعَالَى {مَوَدَّة} بِأَنْ يَهْدِيهِمْ لِلْإِيمَانِ فَيَصِيرُوا لَكُمْ أَوْلِيَاء {وَالله قَدِير} عَلَى ذَلِكَ وَقَدْ فَعَلَهُ بَعْد فَتْح مَكَّة {وَالله غَفُور} لَهُمْ مَا سَلَفَ {رَحِيم} بِهِمْ.

لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨).

{لَا يَنْهَاكُمْ الله عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ} مِنْ الْكُفَّار {فِي الدِّين وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَاركُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ} بَدَل اشْتِمَال مِنْ الَّذِينَ {وَتُقْسِطُوا} تَقْضُوا {إِلَيْهِمْ} بِالْقِسْطِ أَيْ بِالْعَدْلِ وَهَذَا قَبْل الْأَمْر بِجِهَادِهِمْ {إِنَّ الله يُحِبّ الْمُقْسِطِينَ} العادلين.

=

مشابهة الخالق بالمخلوق، لاعتقاده أن من يدعوه يتوسط له لدى الله تعالى كما يتوسط لدى الرؤساء والزعماء، والشرك في الدعاء وطلب الحوائج من الأحياء والميتين، هو أصل شرك العالم، لذا كانت عناية الله تعالى بالشرك في الدعاء أكثر من غيره، قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١)} الأنعام: ٤٠ -٤١.

لقد أتت هذه الآية الكريمة للدلالة على أن المذهب الحق ليس ما ذهب إليه أصحاب البدع المتقابلة، بل هو ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة، وصرح به علماؤها باشتمال الدعاء على التوحيد؛ لأن توحيد الربوبية هو إفراد الله تعالى بأفعاله، ومن جملة أفعال الله تعالى إجابة الداعي وإغاثة المستغيث.

إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩).

{إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ الله عَنْ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّين وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَاركُمْ وَظَاهَرُوا} عَاوَنُوا {عَلَى إخْرَاجكُمْ أَنْ تُوَلُّوهُمْ} بَدَل اشْتِمَال مِنْ الَّذِينَ أي تتخذوهم أولياء {ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون[1]}.

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قالت: أتتني أمي راغبة في عهد النبي ﷺ، فسألت النبي ﷺ أصلها؟ قال: نعم، قال ابن عيينة: فأنزل الله تعاليفيها: {لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)}.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٢٦٢٠، ٣١٨٣، ٥٩٧٨، ٥٩٧٩).

وعن عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن قتيلة بنت عبد العزى أرسلت إلى ابنتها أسماء بنت أبي بكر، وكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ طلقها في الجاهلية، فأرسلت إليها بهدايا فيها إقط وسمن، فأبت أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها؛ فأرسلت إلى عائشة لتسأل النبي ﷺ؛ فقال النبي ﷺ: "لتدخلها بيتها، ولتقبل هديتها"، وأنزل الله تبارك وتعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩)}.

أخرجه الطيالسي في "المسند" (٢/ ٢٤، ٢٥ رقم ١٩٨٢ -منحة)، وأحمد في =

=

"المسند" (٤/ ٤)، والطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٤٣)، والبزار في "البحر الزخار" (٦/ ١٦٧ رقم ٢٢٠٨)، وابن عدي في "الكامل" (٦/ ٢٣٥٩)، وأبو يعلى في "المسند"؛ كما في "المطالب العالية" (٩/ ٥٨ رقم ٤١٥١ -المسندة)، و"إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ١٧٥ رقم ٧٨٥٥) -ومن طريقه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٨٤) -، والنحاس في "الناسخ والمنسوخ" (ص ٢٣٨)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٣٧٤)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٤٨٥، ٤٨٦)، والطبراني في "المعجم الكبير"، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تخريج الكشاف" (٨/ ٤٥٩) جميعهم من طريق مصعب بن ثابت عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن عبد الله بن الزبير به.

وهذا إسناد ضعيف؛ فيه مصعب بن ثابت ضعيف، وفي "التقريب": "لين الحديث".

وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"! ووافقه الذهبي.!

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٢٣): "رواه أحمد والبزار؛ وفيه مصعب بن ثابت وثقه ابن حبان وضعفه جماعة، وبقية رجاله رجال الصحيح".

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٣٠) وزاد نسبته لابن المنذر.

وعن الزهري: أن رسول الله ﷺ استعمل أبا سفيان بن حرب على بعض اليمن، فلما قبض رسول الله ﷺ؛ أقبل فلقي ذا الخمار مرتداً فقاتله، فكان أول من قاتل في الردة وجاهد عن الدين، قال ابن شهاب: وهو فيمن أنزل الله فيه: {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٣٠) ونسبه لابن أبي حاتم. وسنده ضعيف؛ لإرساله.

وعن أبي هريرة ﵁؛ قال: أول من قاتل أهل الردة على إقامة دين الله أبو سفيان

=

=

بن حرب، وفيه نزلت هذه الآية: {عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٣٠) ونسبه لابن مردويه.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: {عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً}؛ قال: كانت المودة التي جعل الله بينهم تزوج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، فصارت أم المؤمنين، وصار معاوية خال المؤمنين.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٣٠) ونسبه لابن مردويه.

* قوله تعالى: «عسى» فعل مقاربة يدل على الرجاء، وإذا صدر من الله تعاليكان متحقق الوقوع، لصدوره من أكرم الأكرمين.

قال صاحب الكشاف: «عسى» وعد من الله على عادات الملوك، حيث يقولون في بعض الحوائج: عسى أو لعل، فلا تبقى شبهة للمحتاج في تمام ذلك، أو قصد به إطماع المؤمنين ا.هـ.

وقال الجمل في حاشيته: لما أمر الله المؤمنين بعداوة الكفار، عادى المؤمنون أقرباءهم المشركين وأظهروا لهم العداوة والبراءة. وعلم الله شدة ذلك على المؤمنين، فوعد-سبحانه-المسلمين بإسلام أقاربهم الكفار، فيوالونهم موالاة جائزة، وذلك من رحمته-سبحانه-بالمؤمنين، ورأفته بهم، فقال: عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً ا.هـ.

والمعنى: عسى الله تعاليأن يجعل بينكم-أيها المؤمنون-وبين الذين عاديتموهم من أقاربكم الكفار، مودة ومحبة.. بأن يهديهم إلى الدخول في دين الإسلام، فتتحول عداوتكم لهم، إلى أخوة صادقة. وصلة طيبة، ومحبة شديدة.

وقد أنجز الله تعاليوعده، فهدى كثيرا من كفار قريش إلى الدخول في الإسلام، والتقوا هم وأقاربهم الذين سبقوهم إلى الإسلام، على طاعة الله ومحبته، والدفاع

=

=

عن دينه، وبذل أنفسهم وأموالهم في سبيله.
(وَاللهُ قَدِيرٌ، وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) أي: والله تعاليشديد القدرة على أن يغير أحوال القلوب، فيصبح المشركون مؤمنين، والأعداء أصدقاء، والله تعاليواسع المغفرة والرحمة، لمن استجاب لأمره ونهيه، وأقلع عن المعصية إلى الطاعة، ونبذ الكفر وتحول إلى الإيمان.
فالآية الكريمة بشارة عظيمة للمؤمنين، بأنه-سبحانه-كفيل بأن يجمع شملهم بكثير من أقاربهم الكافرين، وبأن يحول العداء الذي بينهم، إلى مودة ومحبة، بسبب التقاء الجميع على طاعة الله تعاليوإخلاص العبادة له.
وقد تم ذلك بصورة موسعة، بعد أن فتحت مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجا.
قوله تعالى: {عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً} [الممتحنة: ٧]، أي:"عسى الله أن يجعل بينكم -أيها المؤمنون-وبين الذين عاديتموهم من أقاربكم من المشركين محبة بعد البغضاء، وألفة بعد الشحناء بانشراح صدورهم للإسلام".
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: عسى الله أيها المؤمنون أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم من أعدائي من مشركي قريش مودّة، ففعل الله ذلك بهم، بأن أسلم كثير منهم، فصاروا لهم أولياء وأحزابًا".
قال ابن كثير:"يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين: {عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً}، أي: محبة بعد البِغْضَة، ومودة بعد النَّفرة، وألفة بعد الفرقة".
قال الفراء:"يقول: عسى أن ترجع عدواة بينكم إلى المودة، فتزوج النَّبِيّ ﷺ أمّ حبيبة بِنْت أَبِي سُفْيَان، فكانت المصاهرة مودة".
قال ابن زيد:"هؤلاء المشركون قد فعل، قد أدخلهم في السلم وجعل بينهم مودّة

=

=

حين كان الإسلام حين الفتح".

قال الزجاج:"«عسى» واجبة من الله. جاء في التفسير أنه يعني بهذا أن رسول الله ﷺ تَزَوجَ أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان، فهذه هي المودة، وقيل: إنه يعني به من أسلم مِنهُمْ فيكون بينكم وبينهم موَدَّة".

قال أبو مالك: " كل شيء في القران: {عسى}، فهو واجب الا حرفين، حرف في التحريم: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُن}، وفي بني اسرائيل: {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُم} ". وروي عن الضحاك، والحسن، والسدي، وابن إسحاق، نحو ذلك.

قوله تعالى: {وَاللهُ قَدِيرٌ} [الممتحنة: ٧]، أي:"والله قدير على كل شيء".

قال الطبري:"يقول: والله ذو قدرة على أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم من المشركين مودّة".

قال النحاس:"أي: على أن يجعل بينكم وبينهم مودة".

قال ابن كثير:"أي: على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة والمتباينة والمختلفة، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة، فتصبح مجتمعة متفقة، كما قال تعالى ممتنًا على الأنصار: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا} الآية [آل عمران: ١٠٣]. وكذا قال لهم النبي ﷺ: "ألم أجِدْكُم ضُلالا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألَّفَكُم الله بي؟". وقال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: ٦٢، ٦٣]. وفي الحديث «أحبِبْ حَبيبَكَ هونًا مّا، فعسى أن يكونَ بَغيضَكَ يومًا ما. وأبغِض بغيضَك هونًا ما، فعسى أن يكون حبيبك يومًا ما». وقال الشاعر:

وَقَد يجمعُ اللهُ الشتيتين بعد ما... يَظُنان كُل الظنّ ألا تَلاقَيا".

=

=

عن قتادة، قوله: " {عَسَى اللهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللهُ قَدِيرٌ} على ذلك".

قوله تعالى: {وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الممتحنة: ٧]، أي:"والله غفور لعباده، رحيم بهم".

قال الطبري:"يقول: والله غفور لخطيئة من ألقى إلى المشركين بالمودّة إذا تاب منها، رحيم بهم أن يعذّبهم بعد توبتهم منها".

قال النحاس:"{وَاللهُ غَفُورٌ}، أي: لمن اتخذهم أولياء وألقى إليهم بالمودة إذا تاب، {رَحِيمٌ} به لمن يعذبه بعد التوبة. و «الرحمة» من الله جل وعز قبول العمل والإثابة عليه".

قال ابن كثير:"أي: يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأنابوا إلى ربهم وأسلموا له، وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه، من أيّ ذنب كان".

قال سهل:"غفور لذنوبكم الماضية بالتوبة، رحيم يعصمكم فيما بقي لكم من عمركم من مثل هذه المعصية".

قال قتادة:"يغفر الذنوب الكثيرة، رحيم بعباده".

ثم بين-سبحانه-للمؤمنين القاعدة التي يسيرون عليها في مودتهم وعداوتهم وصلتهم ومقاطعتهم. فقال تعالى: (لا يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ، أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ).

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية والتي بعدها روايات منها، ما أخرجه البخاري وغيره عن أسماء بنت أبى بكر الصديق قالت: أتتنى أمى راغبة-أى: في عطائي-وهي مشركة في عهد قريش ... فسألت رسول الله ﷺ أأصلها؟ فأنزل الله تعالى: لا يَنْهاكُمُ اللهُ، فقال رسول الله ﷺ: «نعم صلى أمك».

وروى الإمام أحمد وجماعة عن عبد الله بن الزبير قال: قدمت قتيلة بنت عبد

=

=

العزى-وهي مشركة-على ابنتها أسماء بنت أبى بكر بهدايا، فأبت أسماء أن تقبل هديتها، أو تدخلها بيتها، حتى أرسلت إلى عائشة، لكي تسأل رسول الله ﷺ عن هذا، فسألته، فأنزل الله تعاليلا يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ.

قال الآلوسى: والأكثرون على أنها في كفرة اتصفوا بما في حيز الصلة.

والمعنى: لا يَنْهاكُمُ اللهُ تعاليأيها المؤمنون-عَنِ مودة وصلة الكافرين الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ، فِي الدِّينِ، وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أى: لم يقاتلوكم من أجل أنكم مسلمون، ولم يحاولوا إلحاق أى أذى بكم، كالعمل على إخراجكم من دياركم.

قوله تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ} [الممتحنة: ٨]، أي:"لا ينهاكم الله -أيها المؤمنون-عن الذين لم يقاتلوكم من الكفار بسبب الدين، ولم يخرجوكم من دياركم أن تكرموهم بالخير".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ} من أهل مكة {وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ}".

قال ابن كثير:"أي: لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين، كالنساء والضعفة منهم، {أَنْ تَبَرُّوهُمْ}، أي: تحسنوا إليهم".

قال السعدي:"أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين، من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم ينتصبوا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم، فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتهم في هذه الحالة، لا محذور فيها ولا مفسدة كما قال تعالى عن الأبوين المشركين إذا كان ولدهما مسلما: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا}".

قوله تعالى: {وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ} [الممتحنة: ٨]، أي:"وتعدلوا فيهم بالبر

=

=

والإحسان".

قال الطبري:"يقول: وتعدلوا فيهم بإحسانكم إليهم، وبرّكم بهم".

قال ابن كثير:"أي: تعدلوا".

قال الزجاج:"أي: وتعدلوا فيما بينكم وبينهم، من الوفاء بالعهد، يقال: أقسط الرجل فهو مقسط. إذا عَدَل، وقسط فهو قاسط إذا جار".

واختلف أهل التفسير في الذين عُنُوا بهذه الآية، على أقوال:

أحدها: أنهم الذين كانوا آمنوا بمكة ولم يهاجروا، فأذن الله للمؤمنين ببرّهم والإحسان إليهم. قاله مجاهد.

عن مجاهد، في قوله: " {لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ}، أن تستغفروا لهم، {أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ}؛ قال: وهم الذين آمنوا بمكة ولم يهاجروا".

الثاني: أنها أم أسماء بنت أبي بكر كما تقدم.

الثالث: أن هذا في أول الأمر عند موادعة المشركين، ثم نسخ بالقتال. قاله ابن زيد.

عن ابن وهب، قال: "قال ابن زيد: وسألته عن قول الله ﷻ: {لا يَنْهَاكُمُ اللهُ}... الآية، فقال: هذا قد نسخ، نَسَخَه، القتال، أمروا أن يرجعوا إليهم بالسيوف، ويجاهدوهم بها، يضربونهم، وضرب الله لهم أجلَ أربعة أشهر، إما المذابحة، وإما الإسلام".

وروي عن قتادة، في قوله: " {لا يَنْهَاكُمُ اللهُ}... الآية، قال: نسختها: {فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ}".

عن عكرمة والحسن:"قالا: قال: {فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليا ولا نصيرا * إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق} إلى قوله: {وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا} [النساء: ٨٩

=

=

-٩١]، وقال في الممتحنة: {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين}، وقال فيها: {إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم} إلى: {فأولئك هم الظالمون}، فنسخ هؤلاء الآيات الأربعة في شأن المشركين، فقال: {براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين} [التوبة: ١ -٢]".

قال محمد بن شهاب الزُّهريّ: "قال تعالى: {لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون} [الممتحنة: ٨ -٩] نُسختْ، فقال تعالى: {براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين} [التوبة: ١ -٢]، فجعل لهم أجلًا أربعة أشهر يَسيحون في الأرض، {فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم} [التوبة: ٥]، وقال -ﷻ-: {وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله} [التوبة: ٦]".

عن زيد بن أسلم -من طريق القاسم- أنه قال: "قال في سورة النساء [٩٠]: {إلّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ أوْ جاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أنْ يُقاتِلُوكُمْ أوْ يُقاتِلُوا قَوْمَهُمْ ولَوْ شاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقاتَلُوكُمْ فَإنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وألْقَوْا إلَيْكُمُ السَّلَمَ فَما جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا}، وقال: {سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أنْ يَأْمَنُوكُمْ ويَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ ما رُدُّوا إلى الفِتْنَةِ

=

=

أُرْكِسُوا فِيها فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ ويُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ويَكُفُّوا أيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ واقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وأُولَئِكُمْ جَعَلْنا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطانًا مُبِينًا} [النساء: ٩١]، وقال في سورة الممتحنة: {لا يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ ولَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِن دِيارِكُمْ أنْ تَبَرُّوهُمْ وتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ}، ثم قال فيها: {إنَّما يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وأَخْرَجُوكُمْ مِن دِيارِكُمْ وظاهَرُوا عَلى إخْراجِكُمْ أنْ تَوَلَّوْهُمْ ومَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ}، فنَسخ هؤلاء الآيات في شأن المشركين، فقال: {بَراءَةٌ مِنَ اللهِ ورَسُولِهِ إلى الَّذِينَ عاهَدْتُمْ مِنَ المُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أرْبَعَةَ أشْهُرٍ واعْلَمُوا أنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وأَنَّ اللهَ مُخْزِي الكافِرِينَ} [التوبة: ١ -٢]، فجَعل لهم أجلًا أربعة أشهر يَسيحون فيها، وأَبطل ما كان قبل ذلك، ثم قال في الآية التي تليها: {فَإذا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ فاقْتُلُوا المُشْرِكِينَ حَيْثُ وجَدْتُمُوهُمْ وخُذُوهُمْ واحْصُرُوهُمْ واقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ} [التوبة: ٥]، ثم نسخ واستثنى: {فَإنْ تابُوا وأَقامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ٥]، وقال: {وإنْ أحَدٌ مِنَ المُشْرِكِينَ اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ} [التوبة: ٦]".

قال القرطبي:"قال أكثر أهل التأويل: هي محكمة".

قال النحاس:"وليس لقول من قال: إنها منسوخة معنى، لأن البر في اللغة إنما هو لين الكلام والمواساة، وليس هذا محظورا أن يفعله أحد بكافر. وكذا الإقساط إنما هو العدل والمكافأة بالحسن عن الحسن. ألا ترى أن بعده: {إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}، و «أن» في موضع خفض على البدل من «الذين»، ويجوز أن يكون في موضع نصب، أي: لا ينهاكم كراهة هذا".

الرابع: أنها نزلت في خزاعة، منهم: هلال بن عويمر، وبني خزيمة، وبني مدلج، منهم: سراقة بن مالك، وعبد يزيد بن عبد مناة، والحارث بن عبد مناة، كان لهم

=

=

عهد فأمر الله أن يبروهم بالوفاء، قاله مقاتل.

قال الفراء:"هَؤُلَاءِ خزاعة كانوا عاقدوا النَّبِيّ ﷺ ألا يقاتلوه، ولا يخرجوه، فأمر النَّبِيّ ﷺ ببرهم، والوفاء لهم إلى مدة أجلهم".

الخامس: أنهم النساء والصبيان لأنهم ممن لم يقاتل، فأذن الله تعالى ببرهم، حكاه الزجاج.

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عُنِي بذلك: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، من جميع أصناف الملل والأديان أن تبرُّوهم وتصلوهم، وتقسطوا إليهم، إن الله ﷻ عمّ بقوله: {الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ} جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصصْ به بعضًا دون بعض، ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ، لأن برّ المؤمن من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب، أو ممن لا قرابة بينه وبينه ولا نسب غير محرّم ولا منهيّ عنه إذا لم يكن في ذلك دلالة له، أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام، أو تقوية لهم بكُراع أو سلاح. قد بين صحة ما قلنا في ذلك، الخبر الذي ذكرناه عن ابن الزبير في قصة أسماء وأمها".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الممتحنة: ٨]، أي:"إن الله يحب الذين يعدلون في أقوالهم وأفعالهم".

قال الطبري:"يقول: إن الله يحبّ المنصفين الذين ينصفون الناس، ويعطونهم الحقّ والعدل من أنفسهم، فيبرّون من برّهم، ويُحْسنون إلى من أحسن إليهم".

قال أبو مالك:"يعني: المعدلين في القول والفعل".

وفي الحديث: «المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم، وأهاليهم، وما وَلُوا».

إِنَّما يَنْهاكُمُ اللهُ تعاليعَنِ بر وصلة الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ أى قاتلوكم لأجل أنكم

=

=

على غير دينهم وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ التي تسكنونها وَظاهَرُوا عَلى إِخْراجِكُمْ. أي: وعاونوا غيرهم على إخراجكم من دياركم، يقال: ظاهر فلان فلانا على كذا، إذا عاونه في الوصول إلى مطلبه.

وقوله: أَنْ تَوَلَّوْهُمْ بدل اشتمال عَنِ الَّذِينَ قاتَلُوكُمْ أى: ينهاكم-سبحانه-عن موالاة، ومواصلة، وبر الذين قاتلوكم في الدين، وأخرجوكم من دياركم.

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ أى: ومن يبر منكم-أيها المؤمنون-هؤلاء الذين قاتلوكم فَأُولئِكَ الذين يفعلون ذلك هُمُ الظَّالِمُونَ لأنفسهم ظلما شديدا يستحقون بسببه العقاب الذي لا يعلمه إلا هو-سبحانه-.

فأنت ترى أن الآية الأولى قد رخصت لنا في البر والصلة-قولا وفعلا-للكفار الذين لم يقاتلونا لأجل ديننا، ولم يحاولوا الإساءة إلينا، بينما الآية الثانية قد نهتنا عن البر أو الصلة لأولئك الكافرين، الذين قاتلونا من أجل مخالفتنا لهم في العقيدة، وحاولوا إخراجنا من ديارنا أو أخرجوا بعضنا بالفعل-وعاونوا غيرهم على إنزال الأذى بنا.

قوله تعالى: {إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ} [الممتحنة: ٩]، أي:"إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم بسبب الدين وأخرجوكم من دياركم، وعاونوا الكفار على إخراجكم أن تولوهم بالنصرة والمودة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ} أيها المؤمنون {عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ} من كفار أهل مكة {وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ} وعاونوا من أخرجكم من دياركم على إخراجكم أن تولوهم، فتكونوا لهم أولياء ونصراء".

قال ابن كثير:"أي: إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم العداوة، فقاتلوكم وأخرجوكم، وعاونوا على إخراجكم، ينهاكم الله عن موالاتهم ويأمركم

=

=

بمعاداتهم".

قال الزجاج:" {ظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ}، أي: عاونوا على إخراجكم، والمعنى: إِنَّمَا ينهاكم الله عن أن تتولوا هؤلاء الذين قاتلوكم في الدِّين لأن مُكَاتَبَتهم بإظهار ما أسره النبي ﷺ مُوالِاة".

قال الفراء:"يعني: الباقين من أهل مكَّة".

عن مجاهد: " {إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ}، قال: كفار أهل مكة".

قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الممتحنة: ٩]، أي:"ومن يتخذهم أنصارًا على المؤمنين وأحبابًا، فأولئك هم الظالمون لأنفسهم، الخارجون عن حدود الله".

قال الطبري:"يقول: ومن يجعلهم منكم أو من غيركم أولياء فأولئك هم الذين تولوا غير الذي يجوز لهم أن يتولوهم، ووضعوا ولايتهم في غير موضعها، وخالفوا أمر الله في ذلك".

قال النحاس:"أي: الذين جعلوا المودة في غير موضعها. و «الظلم» -في اللغة-: وضع الشيء في غير موضعه".

قال ابن كثير:"ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} كقوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [المائدة: ٥١]".

قال الشوكاني: {فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} " أي: الكاملون في الظلم لأنهم تولوا من يستحق العداوة لكونه عدوا لله ولرسوله ولكتابه، وجعلوهم أولياء لهم".

قال السعدي: " وذلك الظلم يكون بحسب التولي، فإن كان توليا تاما، صار ذلك

=

=

كفرا مخرجا عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ، وما هو دون ذلك".

* المشركون في باب الإحسان إليهم، والهدية لهم، والنفقة عليهم، علي نوعين:

النوع الأول: مشركون محاربون؛ فالأصل: عدم جواز الإحسان إليهم، والإغلاظ عليهم، والشدة معهم، وعدم اللين في ذلك؛ لعموم قوله تعالى: {ياأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم} [التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩]، وقوله تعالى: {وليجدوا فيكم غلظة} [التوبة: ١٢٣].

ومن كان من الكفار شره لا يندفع لقوته وسوئه، وعجز المسلمون عنه إلا بتأليفه بالمال، فهذا يجوز في المحارب على الاستثناء لا على الأصل؛ كما كان النبي ﷺ عزم على إعطاء غطفان بعض ثمر المدينة كفاية لشرها، وكما كان يفعله مع المنافقين في المدينة مع ظهور بغيهم وشرهم.

النوع الثاني: مشركون مسالمون كأهل الذمة والعهد؛ فالأصل جواز الإحسان إليهم، وقد يستحب ويؤجر عليه فاعله إن قصد خيرا من تأليف قلبه وتقريبه من الإسلام، وقد كان جماعة من الصحابة يهدون بعض الكافرين من جيران ونحوهم؛ كابن عباس، وعبد الله بن عمرو، وعائشة، وغيرهم.

وصح عن عائشة رضي الله عنها: أن امرأة يهودية سألتها فأعطتها.

وكان النبي ﷺ يقبل الهدية منهم ويجازيهم عليها، وكان يقبل من بعض المنافقين؛ ككساء عبد الله بن أبي للعباس، ومجازاة النبي ﷺ له بعد ذلك، وقد ثبت في "الصحيحين"، عن أبي حميد الساعدي؛ قال: "أهدى ملك أيلة للنبي ﷺ بغلة بيضاء، وكساه بردا، وكتب له ببحرهم"؛ يعني: بلدهم.

وقد أهدى ملك كسرى وأكيدر دومة الجندل للنبي ﷺ، فقبل منهما.

وأما الإهداء للكافرين المسالمين وقبول ذلك منهم في يوم عيدهم الدنيوي،

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠).

{يَا أَيّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَات} بِأَلْسِنَتِهِنَّ {مُهَاجِرَات} مِنْ الْكُفَّار بَعْد الصُّلْح مَعَهُمْ فِي الْحُدَيْبِيَة عَلَى أَنَّ مَنْ جَاءَ مِنْهُمْ إلَى الْمُؤْمِنِينَ يُرَدّ {فَامْتَحِنُوهُنَّ} بِالْحَلِفِ عَلَى أَنَّهُنَّ مَا خَرَجْنَ إلَّا رَغْبَة فِي الْإِسْلَام لَا بُغْضًا لِأَزْوَاجِهِنَّ الْكُفَّار وَلَا عِشْقًا لِرِجَالٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ كَذَا كَانَ النَّبِيّ ﷺ يحلفهن {والله أعلم بإيمانهم فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ} ظَنَنْتُمُوهُنَّ بِالْحَلِفِ {مُؤْمِنَات فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ} تَرُدُّوهُنَّ {إلَى الْكُفَّار لَا هُنَّ حِلّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ} أَيْ أَعْطُوا الْكُفَّار أَزْوَاجهنَّ {مَا أَنْفَقُوا} عَلَيْهِنَّ مِنْ الْمُهُور {وَلَا جُنَاح عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ} بِشَرْطِهِ {إذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورهنَّ} مُهُورهنَّ {وَلَا تَمَسَّكُوا} بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيف {بِعِصَمِ الْكَوَافِر} زَوْجَاتكُمْ لِقَطْعِ إسْلَامكُمْ لَهَا بِشَرْطِهِ أو اللاحقات بِالْمُشْرِكِينَ مُرْتَدَّات لِقَطْعِ ارْتِدَادهنَّ نِكَاحكُمْ بِشَرْطِهِ {وَاسْأَلُوا}

=

فجائز، وأما أعيادهم التي يتقربون بها لغير الله، فلا يجوز قبول ما يتقربون به لآلهتهم من مذبوح وغيره، وما لم يكن قربة فالأظهر جوازه.

وقد كان النبي ﷺ يبيح قبول شفاعة الكافر المحارب، كما في "الصحيح"؛ أنه قال في أسارى بدر: (لو كان المطعم بن عدي حيا، ثم كلمني في هؤلاء النتنى، لتركتهم له).

اُطْلُبُوا {مَا أَنْفَقْتُمْ} عَلَيْهِنَّ مِنْ الْمُهُور فِي صُورَة الِارْتِدَاد مِمَّنْ تَزَوَّجْهُنَّ مِنْ الْكُفَّار {وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا} عَلَى الْمُهَاجِرَات كَمَا تَقَدَّمَ أَنَّهُمْ يُؤْتُونَهُ {ذَلِكُمْ حُكْم الله يَحْكُم بَيْنَكُمْ} بِهِ {والله عليم حكيم}.

وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١).

{وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْء مِنْ أَزْوَاجكُمْ} أَيْ وَاحِدَة فَأَكْثَر مِنْهُنَّ أَوْ شَيْء مِنْ مُهُورهنَّ بِالذَّهَابِ {إِلَى الْكُفَّار} مُرْتَدَّات {فَعَاقَبْتُمْ} فَغَزَوْتُمْ وَغَنِمْتُمْ {فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجهمْ} مِنْ الْغَنِيمَة {مِثْل مَا أَنْفَقُوا} لِفَوَاتِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ جِهَة الْكُفَّار {وَاتَّقُوا الله الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ} وَقَدْ فَعَلَ الْمُؤْمِنُونَ مَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ الْإِيتَاء لِلْكُفَّارِ وَالْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ ارْتَفَعَ هَذَا الْحُكْم(١).

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه؛ قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية، حتى إذا كانوا ببعض الطريق؛ قال النبي ﷺ: "إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة، فخذوا ذات اليمين"، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش، وسار النبي ﷺ، حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها؛ بركت به راحلته، فقال الناس: حل حل. فألحت. فقالوا: خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: "ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل"، ثم قال: "والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطبة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها"، ثم زجرها فوثبت، قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء يتبرضه الناس تبرضًا، فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشُكِيَ إلى رسول الله ﷺ العطش، =

=

فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه.

فبينما هم كذلك؛ إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة -وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة-فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العود المطافيل، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال رسول الله ﷺ: "إنا لم نجئ لقتال أحد؛ ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم؛ فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر؛ فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا؛ فقد جموا، كان هم أبوا؛ فوالذي نفسيم بيده، لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، ولينفذن الله أمره"، فقال بديل: سأبلّغهم ما تقول، قال: فانطلق حتى أتى قريشاً قال: إنّا جئناكم من هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً، فإن شئتم أن نعرضه عليكم؛ فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرونا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدثهم بما قال النبي ﷺ، فقام عروة بن مسعود فقال: أي قوم! ألستم بالوالد؟ قالوا: بلى، قال: أوَلست بالولد؟ قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني؟ قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أني استنفرت أهل عكاظ، فلما بلحوا عليّ جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟ قالوا: بلى، قال: فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد اقبلوها ودعوني آتِهِ، قالوا: ائته، فأتاه، فجعل يكلم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل.

فقال عروة عند ذلك: أي محمد! أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى؛ فإني والله لا أرى وجوهاً، وإني لأرى أشواباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصص

=

=

بظر اللات، أنحن نفِرّ عنه وندعه؟ فقال: من هذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده؛ لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها؛ لأجبتك، قال: وجعل يكلم النبي ﷺ، فكلما تكلم أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المغفر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ؛ ضرب يده بنعل السيف، وقال له: أخّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه فقال: من هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، فقال: أي غدر! ألست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم فقال النبي ﷺ: "أمّا الإسلام؛ فأقبل، وأما المال؛ فلست منه في شيء"، ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه.

قال: فوالله؛ ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم؛ فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم؛ ابتدروا أمره، وإذا توضأ؛ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا؛ خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم! والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت مليكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً، والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم؛ فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم؛ ابتدروا أمره، وإذا توضأ؛ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا؛ خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر؛ تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطبة رشد فاقبلوها، فقال رجل من كنانة: دعوني آتيه، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي ﷺ وأصحابه؛ قال رسول الله ﷺ: "هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن؛ فابعثوها له"؛ فبعثت له، واستقبله الناس يلبون، فلما رأى ذلك؛ قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه؛ قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت،

=

=

فقام رجل منهم يقال له: مكرز بن حفص فقال: دعوني آته؛ فقالوا: ائته، فلما أشرف عليهم؛ قال النبي ﷺ: "هذا مكرز، وهو رجل فاجر"، فجعل يكلم النبي ﷺ، فبينما هو يكلمه؛ إذ جاء سهيل بن عمرو.

قال معمر: فأخبرني أيوب عن عكرمة: أنه لما جاء سهيل بن عمرو؛ قال النبي ﷺ: "قد سهل لكم من أمركم"، قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هاتِ اكتب بيننا وبينكم كتابـًا، فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"، فقال سهيل: أما الرحمن؛ فوالله ما أدري ما هي، ولكن اكتب: باسمك اللهم كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فقال النبي ﷺ: "اكتب: باسمك اللهم"، ثم قال: "هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله"؛ فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله؛ ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: "والله إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله"، قال الزهري: وذلك بقوله: "لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها"، فقال له النبي ﷺ: "على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به"، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أُخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل -وإن كان على دينك- إلا رددته إلينا.

قال المسلمون: سبحان الله! كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلمـًا؟ فبينما هم كذلك؛ إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد! أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي، فقال النبي ﷺ: "إنا لم نقض الكتاب بعد"، قال: فوالله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً، قال النبي ﷺ: "فأجزه لي"، قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: "بلى فافعل"، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: بل قد أجزناه لك،

=

=

قال أبو جندل: أي معشر المسلمين! أُرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً؟ ألا ترون ما قد لقيت؟ وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله، قال: فقال عمر بن الخطاب: فأتيت نبي الله ﷺ فقلت: ألست نبي الله حقاً؟! قال: "بلى"، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: "بلى"، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟! قال: "إني رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصري"، قلت: أوَليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: "بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟ "، قال: قلت: لا، قال: "فإنك آتيه ومطوف به"، قال: فأتيت أبا بكر، فقلت: يا أبا بكر! أليس هذا نبي الله حقاً؟! قال: بلى، قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟! قال: أيها الرجل! إنه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بغرزه؛ فوالله إنه على الحق، قلت: أليس كان يحدثنا أنّا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به.

قال الزهري: قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً، قال: فلما فرغ من قضية الكتاب؛ قال رسول الله ﷺ لأصحابه: "قوموا فانحروا ثم احلقوا"، قال: فوالله؛ ما قام منهم رجل، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد؛ دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة: يا نبي الله! أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك: نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك؛ قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً؛ حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، ثم جاءه نسوة مؤمنات؛ فأنزل الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا

=

=

أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١)}؛ فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة، فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله؛ إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستلّه الآخر فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت به ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد، وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين راه: "لقد رأى هذا ذعراً"، فلما انتهى إلى النبي ﷺ؛ قال: قتل والله صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله! قد والله أوفى الله ذمتك قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم.

قال النبي ﷺ: "ويل أمه! مسعر حرب لو كان له أحد"، فلما سمع ذلك؛ عرف أنه سيرده إليهم؛ فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم: لما أرسل فمن أتاه؛ فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم؛ فأنزل الله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤)} حتى بلغ {الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ}

=

=

[الفتح: ٢٤ -٢٦]: وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبي الله، ولم يقروا بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وحالوا بينهم وبين البيت.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢).

وعن الواقدي؛ قال: فخرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط بآيات نزلت فيها، قالت: فكنت أول من هاجر إلى المدينة، فلما قدمت قدم أخي الوليد علي، فنسخ الله العقد بين النبي ﷺ وبين المشركين في شأني، ونزلت: {فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ} ثم أنكحني النبي ﷺ زيد بن حارثة، فقلت: أتزوجني بمولاك؟ فأنزل الله: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ} [الأحزاب: ٣٦] ثم قتل زيد، فأرسل إليّ الزبير: احبسي علي نفسك، قلت: نعم؛ فنزلت: {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ} [البقرة: ٢٣٥].

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٣٢) وقال: "وأخرج ابن دريد في "أماليه": ثنا أبو الفضل الرياشي عن ابن أبي رجاء عن الواقدي به".

والواقدي؛ متروك الحديث، بل كذبه الإمام أحمد والنسائي وغيرهما.

وعن عبد الله بن أبي أحمد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قال: هاجرت أم كلثوم بنت عقبة في الهدنة، فخرج أخواها عمارة والوليد أبناء عقبة حتى قدما على رسول الله ﷺ؛ فكلماه في أمر أم كلثوم أن يردها إليهما؛ فنقض الله تعاليالعهد بينه وبين المشركين خاصة في النساء ومنعه أن يردهن إلى المشركين، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ آية الامتحان.

أخرجه ابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني" (١/ ٤٣٣ رقم ٦٠٩) -ومن طريقه ابن الأثير في "أسد الغابة" (٣/ ٦٧) -، والطبراني في "المعجم الكبير"؛ كما في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٢٣)، وأبو نعيم في "معرفة الصحابة" (٣/ ١٥٩١ رقم ١٥٧٥)، وابن منده؛ كما في "أسد الغابة" (٣/ ٦٧) من طريق عبد العزيز بن

=

=

عمران عن محمد بن يعقوب عن حسين بن أبي لبابة عن عبد الله به.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٢٣): "رواه الطبراني؛ وفيه عبد العزيز بن عمران، وهو ضعيف".

بل هو متروك، احترقت كتبه فحدث من حفظه؛ فاشتد غلطه؛ كما في "التقريب"؛ فالحديث ضعيف جداً.

ثم إن عبد الله بن أبي أحمد مختلف في صحبته؛ قال في "التقريب": "ولد في حياة النبي ﷺ وروى عن عمر وغيره وذكره جماعة في ثقات التابعين".

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٣٢) وزاد نسبته لابن مردويه، وقال: "بسندضعيف".

وفي كتابه الآخر "لباب النقول" (ص ٢١١): قال: "بسند صحيح"، ونظنه تحريفاً من النساخ -والله أعلم-.

عن ابن شهاب؛ قال: كان المشركون قد شرطوا على رسول الله يوم الحديبية: أنه من جاء من قبلنا وإن كان على دينك؛ رددته إلينا، ومن جاءنا من قبلك؛ رددناه إليك، فكان يرد إليهم من جاء من قبلهم يدخل في دينه، فلما جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط مهاجرة؛ جاء أخواها يريدان أن يخرجاها ويرداها إليهم؛ فأنزل الله تبارك وتعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا}؛ قال: هو الصداق، {وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا}؛ قال: هي المرأة تسلم فيرد المسلمون صداقها إلى الكفار، وما طلق المسلمون من نساء الكفار عندهم فعليهم أن يردوا

=

=

صداقهن إلى المشركين، فإن أمسكوا صداقاً من صداق المسلمين مما فارقوا من نساء الكفار؛ أمسك المسلمون صداق المسلمات اللاتي جئن من قبلهم.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨/ ٢٣١): نا خالد بن مخلد ثني عبد الرحمن بن عبد العزيز ثني الزهري به. وهذا مرسل حسن الإسناد.

وعن الزهري؛ قال: نزلت هذه الآية وهم بالحديبية، لما جاء النساء؛ أمره أن يرد الصداق إلى أزواجهن، وحكم على المشركين مثل ذلك إذا جاءتهم امرأة من المسلمين أن يردوا الصداق إلى زوجها، فأما المؤمنون؛ فأقروا بحكم الله، وأما المشركون؛ فأبوا أن يقروا؛ فأنزل الله تعالى: {وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ} إلى قوله: {مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا}؛ فأمر المؤمنون إذا ذهبت امرأة من المسلمين ولها زوج من المسلمين أن يرد إليه المسلمون صداق امرأته مما أمروا أن يردوا على المشركين.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٣٦، ١٣٧) ونسبه لعبد بن حميد وأبي داود في "ناسخه" والطبري وابن المنذر. هو عند الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٤٦): ثنا ابن عبد الأعلى ثنا ابن ثور عن معمر عن الزهري به. وهذا مرسل صحيح الإسناد رجاله ثقات.

وعن يزيد بن الأخنس ﵁: أنه لما أسلم معه جميع أهله إلا امرأة واحدة أبت أن تسلم؛ فأنزل الله: {وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١)}؛ فقيل له: قد أنزل الله أنه فرق بينها وبين زوجها إلا أن تسلم، فضرب لها أجل سنة، فلما مضت السنة إلا يوماً؛ جلست تنظر الشمس حتى إذا دنت للغروب أسلمت.

=

=

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٣٧) ونسبه للطبراني وأبي نعيم وابن عساكر.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: أسلم عمر بن الخطاب وتأخرت امرأته في المشركين؛ فأنزل الله ﷻ : {وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ} يقول: إن أسلم رجل وأبت امرأته؛ فليتزوج إن شاء أربعًا سواها.

أخرجه أحمد بن منيع في "مسنده"؛ كما في "المطالب العالية" (٩/ ٥٧ رقم ٤١٤٨ -المسندة)، و"إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ١٧٥ رقم ٧٨٥٦)، و"الدر المنثور" (٨/ ١٣٧)، و"لباب النقول" (ص ٢١١): حدثنا معاوية بن عمرو عن مندل بن علي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به. والكلبي وشيخه أبو صالح؛ كذابان، ومندل؛ ضعيف.

وعن عكرمة؛ قال: يقال لها: ما جاء بك؟ عشق رجل منها، ولا فرار من زوجك، ما خرجت؛ إلا حبًا لله ورسوله.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٣٧) ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر.

وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن مقاتل؛ قال: كان بين رسول الله ﷺ وبين أهل مكة عهد شرط في أن يرد النساء، فجاءت امرأة تسمى سعيدة، وكانت تحت صيفي بن الراهب، وهو مشرك من أهل مكة، وطلبوا ردها؛ فأنزل الله: {إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٣٦)، و"لباب النقول" (ص ٢١١) ونسبه لابن أبي حاتم.

وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن عكرمة؛ قال: خرجت امرأة مهاجرة إلى المدينة، فقيل لها: ما أخرجك: بغضك لزوجك، أم أردت الله ورسوله؟ قالت: بل الله ورسوله؛ فأنزل الله: {فَإِنْ

=

=

عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ}، فإن تزوجها رجل من المسلمين؛ فليرد إلى زوجها الأول ما أنفق عليها.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٣٤) ونسبه لعبد بن حميد. وهو ضعيف؛ لإرساله.

و عن ابن شهاب؛ قال: بلغنا أن الممتحنة أنزلت في المدة التي ماد فيها رسول الله ﷺ كفار قريش من أجل العهد الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش في المدة، فكان يرد على كفار قريش ما أنفقوا على نسائهم اللاتي يسلمن ويهاجرن وبعولتهن كفار، ولو كانوا حربًا ليست بين رسول الله ﷺ وبينهم مدة عهد؛ لم يردوا إليهم شيئًا مما أنفقوا، وقد حكم الله للمؤمنين على أهل المدة من الكفار بمثل ذلك الحكم، قال الله: {وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}؛ فطلق عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأته بنت أبي أمية بن المغيرة من بني مخزوم؛ فتزوجها معاوية بن أبي سفيان، وبنت جرول من خزاعة فزوجها رسول الله ﷺ لأبي جهم بن حذيفة العدوي وجعل ذلك حكمًا يحكم به بين المؤمنين وبين المشركين في مدة العهد التي كانت بينهم، فأقر المؤمنون بحكم الله؛ فأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التي أنفقوا على نسائهم، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين؛ فقال الله: {وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١)}؛ فإذا ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين؛ رد المؤمنون إلى زوجها النفقة التي أنفق عليها من العقب الذي بأيديهم الذي أمروا أن يردوه إلى المشركين من نفقاتهم التي أنفقوا على أزواجهن اللاتي آمنّ وهاجرن، ثم ردوا إلى المشركين فضلاً إن كان لهم.

=

=

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٣٥) ونسبه لابن مردويه. وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن يزيد بن أبي حبيب؛ أنه بلغه: أنها نزلت في أميمة بنت بشر امرأة أبي حسان الدحداحة.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢١١) ونسبه لابن أبي حاتم. وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن الحسن في قوله تعالى: {وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ}؛ قال: نزلت في امرأة الحكم بنت أبي سفيان، ارتدت فتزوجها رجل ثقفي، ولم ترتد امرأة من قريش غيرها، فأسلمت مع ثقيف حين أسلموا.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٣٨)، و"لباب النقول" (ص ٢١٢) ونسبه لابن أبي حاتم.

وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن إبراهيم النخعي في قوله تعالى: {وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ}؛ قال: نزلت في المرأة من المسلمين تلحق بالمشركين؛ فتكفر؛ فلا يمسك زوجها بعصمتها، قد برئ منها.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٣٨) ونسبه لسعيد بن منصور وابن المنذر. وهو ضعيف؛ لإرساله.

* قوله تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ) لما أمر الله المسلمين بترك موالاة المشركين، واقتضى ذلك مهاجرة المسلمين عن بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام، وكان التناكح من أوكد أسباب الموالاة، فبين-سبحانه- أحكام مهاجرة النساء.

والمعنى: يا من آمنتم بالله تعاليحق الإيمان، إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ، من

=

=

دار الكفر إلى دار الإيمان، وراغبات في فراق الكافرين، والبقاء معكم.

فَامْتَحِنُوهُنَّ أى: فاختبروهن اختبارا يغلب معه الظن بأنهن صادقات في هجرتهن وفي إيمانهن، وفي موافقة قلوبهن لألسنتهن.

وقد ذكر ابن جرير في كيفية امتحانهن صيغا منها: ما جاء عن ابن عباس أنه قال: كانت المرأة إذا أتت رسول الله ﷺ حلفها بأنها ما خرجت بغضا لزوجها، ولا رغبة في الانتقال من أرض إلى أرض، ولا التماسا لدنيا، وإنما خرجت حبا لله ولرسوله ا.هـ.

وجملة: (اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ) معترضة لبيان أن معرفة خفايا القلوب، مردها إلى الله تعاليوحده.

والمراد بالعلم في قوله تعالى: فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ الظن الغالب.

أى: فإن غلب على ظنكم بعد امتحانهن أنهن مؤمنات صادقات في إيمانهن، فأبقوهن عندكم، ولا ترجعوهن إلى أزواجهن أو إلى أهلهن من الكفار.

وسمى الظن القوى علما للإيذان بأنه كالعلم في وجوب العمل بمقتضاه.

قال القرطبي: ({الله أعلم بإيمانهن} [الممتحنة:١٠] أي: هذا الامتحان لكم، والله أعلم بإيمانهن؛ لأنه متولي السرائر).

وقال الجصاص في تفسيرها: (يعني: من الأمر الظاهر لا من الحقيقة، وهذا يدل على جواز إطلاق اسم العلم من طريق الظاهر وإن لم يعلم حقيقة وهو كقوله: {فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار ... } [الممتحنة:١٠] ومعلوم أنا لا نحيط بضمائرهن علما وإنما هو على ما يظهر من إيمانهن).

وقال الرازي: (إن الظن قد يسمى بالعلم، والدليل عليه قوله تعالى: {إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا

=

=

ترجعوهن إلى الكفار} [الممتحنة:١٠]، ومن المعلوم أنه إنما يمكن العلم بإيمانهن بناء على إقرارهن، وذلك لا يفيد إلا الظن، فههنا الله تعالى سمى الظن علما).

فإن قيل: ما الفائدة من استعمال العلم مكان الظن؟.

فيجاب بما قال الرازي: (نقول إنه من باب أن الظن الغالب، وما يفضي إليه الاجتهاد والقياس جار مجرى العلم).

وقال البيضاوي: ({فإن علمتموهن مؤمنات} [الممتحنة:١٠]: العلم الذي يمكنكم تحصيله، وهو الظن الغالب بالحلف وظهور الأمارات، وإنما سماه علما إيذانا بأنه كالعلم في وجوب العمل به).

وقال الزركشي: (إن بين الظن والعلم قدرا مشتركا وهو الرجحان فتجوز بأحدهما عن الآخر).

وقال الفيروزابادي: (واعلم أن العلم على ثلاث درجات: أحدها: ما وقع من عيان وهو البصر، والثاني: ما استند إلى السمع وهو الاستفاضة، والثالث: ما استند إلى العلم وهو علم التجربة. على أن طرق العلم لا تنحصر فيما ذكرناه؛ فإن سائر الحواس توجب العلم، وكذا ما يدرك بالباطن وهي الوجدانيات، وكذا ما يدرك بالمخبر الصادق وإن كان واحدا، وكذا ما يحصل بالفكر والاستنباط وإن لم يكن تجربة).

فتبين من كلام العلماء أن اختيار هذا اللفظ للاعتقاد الغالب الراجح؛ ليدخل فيه الاعتقاد اليقيني الجازم -إذا وجد -من باب أولى، كما أن فيه حث على التثبت والتأكد في الامتحان بما يستطاع من الدلائل والأمارات. والله أعلم.

وإنما رد الرسول ﷺ الرجال الذين جاءوه مؤمنين بعد صلح الحديبية، ولم يرد النساء المؤمنات، لأن شرط الرد كان في الرجال ولم يكن في النساء-كما سبق أن

=

=

ذكرنا نقلا عن القرطبي-، ولأن الرجل لا يخشى عليه من الفتنة في الرد ما يخشى على المرأة، من إصابة المشرك إياها، وتخويفها، وإكراهها على الردة.

قال بعض العلماء: قال كثير من المفسرين: إن هذه الآية مخصصة لما جاء في معاهدة صلح الحديبية، والتي كان فيها من جاء من الكفار مسلما إلى المسلمين ردوه إلى المشركين، ومن جاء من المسلمين كافرا للمشركين، لا يردونه على المسلمين، فأخرجت الآية النساء من المعاهدة، وأبقت الرجال، من باب تخصيص العموم.

وتخصيص السنن بالقرآن، وتخصيص القرآن بالسنن، أمر معلوم.

ومن أمثلة تخصيص السنة بالكتاب، قوله: ﷺ: «ما أبين من حي فهو ميت» أي: فهو محرم، فقد جاء تخصيص هذا العموم بقوله تعالى: (وَمِنْ أَصْوافِها وَأَوْبارِها) أي: ليس محرما، ومن أمثلة تخصيص الكتاب بالسنة قوله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ فقد جاء تخصيص هذا العموم بحديث: «أحلت لنا ميتتان ودمان، أما الميتتان: فالجراد والحوت، وأما الدمان: فالكبد والطحال».

وقال بعض المفسرين: إنها ليست مخصصة للمعاهدة، لأن النساء لم يدخلن فيها ابتداء، وإنما كانت في حق الرجال فقط.

قال ابن كثير: هي من أحسن الأمثلة لتخصيص السنة بالقرآن.

وقوله-سبحانه-: لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ تعليل للنهى عن رد المؤمنات المهاجرات إلى دار الكفر، أو إلى أزواجهن الكفار.

أي: لا ترجعوا-أيها المؤمنون-النساء المؤمنات المهاجرات إليكم من أرض الكفر إلى أزواجهن الكافرين، فإن هؤلاء المؤمنات صرن بسبب إيمانهن لا يصح ارتباطهن بأزواجهن الكفار، كما لا يصح لهؤلاء الكافرين الارتباط بالنساء المؤمنات.

=

=

فالجملة الكريمة المقصود بها تأكيد النهى عن رد المؤمنات المهاجرات إلى أرض الكفر، ووجوب التفرقة بين المرأة المؤمنة وزوجها الكافر في جميع الأحوال.

قال ابن كثير: هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين وقد كان ذلك جائزا في أول الإسلام، أن يتزوج المشرك المؤمنة...

وقوله تعالى: وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا بيان لمظهر من مظاهر عدالة الإسلام في أحكامه. والخطاب لولاة الأمور. وهذا الإيتاء إنما هو للأزواج المعاهدين، أما إذا كانوا حزبيين فلا يعطون شيئا.

أى: وسلموا إلى المشركين الذين جاءكم نساؤهم مؤمنات، ما دفعوه لهن من مهور، قال القرطبي: قوله: وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا: أمر الله تعاليإذا أمسكت المرأة المسلمة، أن يرد إلى زوجها المشرك ما أنفق، وذلك من الوفاء بالعهد، لأنه لما منع من أهله، بحرمة الإسلام، أمر-سبحانه-برد المال إليه، حتى لا يقع عليهم خسران من الوجهين: الزوجة والمال ا.هـ.

فالمراد بقوله تعاليما أَنْفَقُوا: ما دفعه المشركون لأزواجهم المؤمنات.

وعبر عن هذه المهور بالنفقة، للإشعار بأن هؤلاء الزوجات المؤمنات، أصبحت لا صلة لهن بأزواجهن المشركين.

وقوله-سبحانه-: وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ تكريم لهؤلاء النساء المسلمات اللائي فررن بدينهن من أزواجهن المشركين.

أى: ولا حرج عليكم-أيها المؤمنون-في نكاح هؤلاء المؤمنات، بعد فراقهن لأزواجهن المشركين، وبعد استبرائكم لأرحامهن، وعليكم أن تدفعوا لهن مهورهن كاملة غير منقوصة.

ونص على دفع المهر لهن-مع أنه أمر معلوم-لكي لا يتوهم متوهم، أن رد المهر

=

=

الى الزوج الكافر، يغنى عن دفع مهر جديد لهن إذا تزوجن بعد ذلك بأزواج مسلمين، إذ المهر المردود للكفار، لا يقوم مقام المهر الذي يجب على المسلم إذا ما تزوج بامرأة مسلمة فارقت زوجها الكافر.

والمراد بالإيتاء: ما يشمل الدفع العاجل، والتزام الدفع في المستقبل.

ثم نهى الله تعاليالمسلمين عن إبقاء الزوجات المشركات في عصمتهم فقال: وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ.

والعصم: جمع عصمة، والمراد بها هنا: عقد النكاح الذي يربط بين الزوج والزوجة، والكوافر: جمع كافرة، كضوارب جمع ضاربة.

أى: ولا يصح لكم-أيها المؤمنون-أن تبقوا في عصمتكم، زوجاتكم اللائي آثرن الكفر على الإيمان، وأبين الهجرة معكم من دار الكفر إلى دار الإسلام، وقد بادر المسلمون بعد نزول هذه الآية بتطليق زوجاتهم الكافرات فطلق عمر بن الخطاب-رضى الله عنه-امرأتين له كانتا مشركتين، وطلق طلحة بن عبيد الله إحدى زوجاته وكانت مشركة.

وهذه الجملة الكريمة تأكيد لقوله تعاليقبل ذلك: لا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ.

ثم بين-سبحانه-حكما آخر من الأحكام التي تدل على عدالة الإسلام في تشريعاته فقال: وَسْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا والجملة الكريمة معطوفة على قوله تعاليقبل ذلك: وَآتُوهُمْ ما أَنْفَقُوا.

أى: كما أنى شرعت لكم أن تعطوا الأزواج المشركين، مهور نسائهم المسلمات اللائي فررن إليكم، وتركن أزواجهن الكفار، فكذلك شرعت لكم أن تطلبوا مهور نسائكم المشركات اللائي انفصلتم عنهن لكفرهن، ولحقن بهؤلاء المشركين، وليطلب المشركون منكم مهور نسائهم المؤمنات اللائي انفصلن عنهم وهاجرن

=

=

إليكم.

ثم ختم-سبحانه-هذه الآية الكريمة ببيان أن هذه الأحكام، إنما هي من الله تعاليالعليم بأحوال النفوس، الحكيم في أقواله وأفعاله، فقال: ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.

أي: ذلكم الذي ذكرناه لكم من تشريعات تتعلق بالمؤمنات المهاجرات هي أحكام من الله تعاليفاتبعوها، فهو-سبحانه-صاحب الحكم المطلق بينكم، وهو-سبحانه-عليم بأحوال عباده، حكيم في كل تصرفاته وتشريعاته.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الممتحنة: ١٠]، أي:"يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره للمؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ".

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، فأرعها سمعك [يعني: استمع لها]؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه".

قوله تعالى: {إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ} [الممتحنة: ١٠]، أي:"إذا جاءكم النساء المؤمنات مهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام، فاختبروهن؛ لتعلموا صدق إيمانهن".

قال الطبري: يقول:"{إِذَا جَاءَكُمُ} النساء {الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ} من دار الكفر إلى دار الإسلام، {فَامْتَحِنُوهُنَّ}".

قال أبو عبيدة:"{فَامْتَحِنُوهُنَّ}: أخبروهن، وخبرته وامتحنته".

عن أَبي نصر الأسديّ، قال: "سُئِلَ ابن عباس: كيف كان امتحان رسول الله ﷺ النساء؟ قال: كان يمتحنهنّ بالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلا حبًّا لله ورسوله".

=

=

قال ابن عباس:"كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله".

عن مجاهد، قوله: " {فَامْتَحِنُوهُنَّ}، قال: سلوهنّ ما جاء بهنّ فإن كان جاء بهنّ غضب على أزواجهنّ، أو سخطة، أو غيره، ولم يؤمنّ، فارجعوهنّ إلى أزواجهنّ".

عن قتادة، في قوله: " {فَامْتَحِنُوهُنَّ}، قال: يحلفن ما خرجن إلا رغبة في الإسلام، وحبًّا لله ورسوله".

قال قتادة:"كانت محنتهنّ أن يستحلفن بالله ما أخرجكنّ النشوز، وما أخرجكنّ إلا حبّ الإسلام وأهله، وحِرْصٌ عليه، فإذا قلن ذلك قُبل ذلك منهنّ".

عن سفيان، عن أبيه أو عكرمة، {إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ}، قال: "يقال: ما جاء بك إلا حبّ الله، ولا جاء بك عشق رجل منا، ولا فرارا من زوجك، فذلك قوله: {فَامْتَحِنُوهُنَّ}".

عن بكير بن الأشجّ، قال: "كان امتحانهنّ إنه لم يخرجك إلا الدين".

قال ابن زيد:"كانت المرأة من المشركين إذا غضبت على زوجها، وكان بينه وبينها كلام، قالت: والله لأهاجرنّ إلى محمد ﷺ وأصحابه، فقال الله ﷻ: {إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ}، إن كان الغضب أتى بها فردّوها، وإن كان الإسلام أتى بها فلا تردّوها".

قال الضحاك:"كان نبيّ الله ﷺ عاهد من المشركين ومن أهل الكتاب، فعاهدهم وعاهدوه، وكان في الشرط أن يردّوا الأموال والنساء، فكان نبيّ الله إذا فاته أحد من أزواج المؤمنين، فلحق بالمعاهدة تاركًا لدينه مختارًا للشرك، ردّ على زوجها ما أنفق عليها، وإذا لحق بنبيّ الله ﷺ أحد من أزوج المشركين امتحنها نبيّ الله ﷺ، فسألها ما أخرجك من قومك، فإن وجدها خرجت تريد الإسلام قبلها

=

=

رسول الله ﷺ، وردّ على زوجها ما أنفق عليها، وإن وجدها فرّت من زوجها إلى آخر بينها وبينه قرابة، وهي متمسكة بالشرك ردّها رسول الله ﷺ إلى زوجها من المشركين".

عن الزهريّ، أن عائشة قالت: "ما كان رسول الله ﷺ يمتحن المؤمنات إلا بالآية، قال الله: {إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا}، ولا ولا".

عروة بن الزبير، أن عائشة زوج النبيّ ﷺ قالت: "كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله ﷺ يمتحنّ بقول الله: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ}... إلى آخر الآية، قالت عائشة: فمن أقرّ بهذا من المؤمنات، فقد أقرّ بالمحبة، فكان رسول الله ﷺ إذا أقررن بذلك من قولهنّ قال لهنّ: انطلقن فقد بايعتكنّ، ولا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قطّ، غير أنه بايعهنّ بالكلام؛ قالت عائشة: والله ما أخذ رسول الله ﷺ على النساء قطّ، إلا بما أمره الله ﷻ، وكان يقول لهنّ إذا أخذ عليهنّ قد بايعتكنّ كلامًا".

قوله تعالى: {اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ} [الممتحنة: ١٠]، أي:"الله أعلم بحقيقة إيمانهن".

قال الطبري:"يقول: الله أعلم بإيمان من جاء من النساء مهاجرات إليكم".

قوله تعالى: {فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ} [الممتحنة: ١٠]، أي:"فإن علمتموهن مؤمنات بحسب ما يظهر لكم من العلامات والبينات، فلا تردُّوهن إلى أزواجهن الكافرين".

قال الطبري:"يقول: فإن أقررن عند المحنة بما يصحّ به عقد الإيمان لهنّ، والدخول في الإسلام، فلا تردوهنّ عند ذلك إلى الكفار. وإنما قيل ذلك للمؤمنين، لأن العهد كان جرى بين رسول الله ﷺ وبين مشركي قريش في صلح الحديبية أن يرد المسلمون إلى المشركين من جاءهم مسلمًا، فأبطل ذلك الشرط

=

في النساء إذا جئن مؤمنات مهاجرات فامتحنّ، فوجدهنّ المسلمون مؤمنات، وصح ذلك عندهم مما قد ذكرنا قبل، وأمروا أن لا يردّوهنّ إلى المشركين إذا علم أنهنّ مؤمنات".

قوله تعالى: {لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ} [الممتحنة: ١٠]، أي:"فالنساء المؤمنات لا يحلُّ لهن أن يتزوجن الكفار، ولا يحلُّ للكفار أن يتزوجوا المؤمنات".

قال الطبري:"يقول: لا المؤمنات حل للكفار، ولا الكفار يحلون للمؤمنات".

عن الزهريّ، قال: "دخلت على عُرْوة بن الزُّبير، وهو يكتب كتابًا إلى ابن أَبي هُنيد صاحب الوليد بن عبد الملك، وكتب إليه يسأله عن قول الله ﷻ: {إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ}... إلى قوله: {وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} وكتب إليه عُرْوَة بن الزُّبير: إن رسول الله ﷺ كان صالح قريشًا عام الحديبية على أن يردّ عليهم من جاء بغير إذن وليه؛ فلما هاجر النساء إلى رسول الله ﷺ وإلى الإسلام، أَبى الله أن يُرْدَدْن إلى المشركين، إذا هنّ امْتَحنّ محنة الإسلام، فعرفوا أنهنّ إنما جئن رغبة فيه".

قوله تعالى: {وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا} [الممتحنة: ١٠]، أي:"وأعطوا أزواج اللاتي أسلمن مثل ما أنفقوا عليهن من المهور".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: وأعطوا المشركين الذين جاءكم نساؤهم مؤمنات إذا علمتموهنّ مؤمنات، فلم ترجعوهنّ إليهم ما أنفقوا في نكاحهم إياهنّ من الصداق".

عن مجاهد:"{وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا}، وآتوا أزواجهنّ صدقاتهن".

قال ابن عباس:"كان امتحانهنّ أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فإذا علموا أن ذلك حقّ منهنّ لم يرجعوهنّ إلى الكفار، وأعطى بعلها

=

من الكفار الذين عقد لهم رسول الله ﷺ صداقه الذي أصدقها".

قال قتادة:"هذا حكم حكمه الله ﷻ بين أهل الهدى وأهل الضلالة، كنّ إذا فررن من المشركين الذين بينهم وبين نبيّ الله ﷺ وأصحابه عهد إلى أصحاب نبيّ الله ﷺ فتزوّجوهنّ بعثوا مهورهنّ إلى أزواجهنّ من المشركين الذين بينهم وبين نبيّ الله ﷺ عهد، وإذا فررن من أصحاب نبي الله ﷺ إلى المشركين الذين بينهم وبين نبيّ الله ﷺ عهد بعثوا بمهورهنّ إلى أزواجهنّ من أصحاب نبيّ الله ﷺ".

قوله تعالى: {وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ} [الممتحنة: ١٠]، أي:"ولا إثم عليكم أن تتزوجوهن إذا دفعتم لهنَّ مهورهن".

قال الطبري: يقول:"ولا حرج عليكم أيها المؤمنون أن تنكحوا هؤلاء المهاجرات اللاتي لحقن بكم من دار للحرب مفارقات لأزوجهنّ، وإن كان لهنّ أزواج في دار الحرب إذا علمتموهنّ مؤمنات إذا أنتم أعطيتموهنّ أجورهن، ويعني بالأجور: الصَّدُقات. وكان قتادة يقول: كنّ إذا فررن من المشركين الذين بينهم وبين نبيّ الله ﷺ وأصحابه عهدٌ إلى أصحاب نبي الله ﷺ فتزوجوهن، بعثوا بمهورهن إلى أزواجهن من المشركين الذين بينهم وبين أصحاب نبيّ الله ﷺ عهد".

قال الزجاج:"وهذا دليل على أن التَزْوِيج لَا بُدَّ فيه مِنْ مَهْر".

قال الزهري:"إنما أمر الله بردّ صداقهنّ إليهم إذا حُبِسن عنهم وإن هم ردّوا المسلمين على صداق من حبسوا عنهم من نسائهم".

عن ابن وهب، قال:"قال ابن زيد، في قوله: {وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ} ولها زوج ثمَّ، لأنه فرق بينهما الإسلام إذا استبرأتنّ أرحامهن".

قوله تعالى: {وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ} [الممتحنة: ١٠]، أي:"ولا تمسكوا بنكاح أزواجكم الكافرات".

قالل الطبري:"يقول جلّ ثناؤه للمؤمنين به من أصحاب رسول الله ﷺ: لا

=

=

تمسكوا أيها المؤمنون بحبال النساء الكوافر وأسبابهنّ، والكوافر: جمع كافرة، والعصم: جمع عصمة، وهى ما اعتصم به من العقد والسبب، وهذا نهي من الله للمؤمنين عن الإقدام على نكاح النساء المشركات من أهل الأوثان، وأمر لهم بفراقهن".

قال ابن كثير:"قوله: {وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ} تحريم من الله، ﷻ، على عباده المؤمنين نكاح المشركات، والاستمرار معهن".

قال الزجاج:"أي: إذا كفرن فقد زَالَتِ العِصمَةُ بين المشركةِ والمؤمِنِ، أي: قد انبَتَّ عَقْدُ حبل النكاح، وأصل «العصمة»: الحبل، وكل ما أَمْسَك شيئًا فقد عَصَمَه".

قال أبو عبيدة:"العصمة: الحبل والسبب".

عن ابن زيد: " {وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ}، إذا كفرت المرأة فلا تمسكوها، خلوها، وقعت الفرقة بينها وبين زوجها حين كفرت".

عن قتادة، قوله: " {وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ}، مشركات العرب اللاتي يأبين الإسلام أُمِرَ أن يُخلَّى سبيلُهن".

عن مجاهد: " {وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ}، قال: أصحاب محمد أُمروا بطلاق نسائهم كوافر بمكة، قعدن مع الكفار".

قال ابن شهاب:"فطلق المؤمنون حين أنزلت هذه الآية كل امرأة كافرة كانت تحت رجل منهم، فطلق عمر بن الخطاب رضي الله عنه امرأته ابنة أبي أمية بن المغيرة من بني مخزوم فتزوجها معاوية بن أبي سفيان، وابنة جرول من خزاعة، فتزوجها أبو جهم بن حذافة العَدَوِيّ، وجعل الله ذلك حكمًا حكم به بين المؤمنين والمشركين فى هذه المدة التي كانت".

قال الزهريّ: "لما نزلت هذه الآية: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ}...

=

=

إلى قوله: {وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ}، كان ممن طلق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ امرأته قريبة ابنة أَبي أمية بن المغيرة، فتزوّجها بعده معاوية بن أبي سفيان، وهما على شركهما بمكة، وأم كلثوم ابنة جرول الخزاعية أم عبد الله بن عمر فتزوجها أبو جهم بن حُذافة بن غانم رجل من قومه، وهما على شركهما، وطلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو التيمي كانت عنده أروى بنت ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، ففرّق بينهما الإسلام حين نهى القرآن عن التمسك بعصم الكوافر، وكان طلحة قد هاجر وهي بمكة على دين قومها، ثم تزوّجها في الإسلام بعد طلحة خالد بن سعيد بن العاص بن أُمية بن عبد شمس. وكان ممن فرّ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من نساء الكفار ممن لم يك بينه وبين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عهد فحبسها وزوّجها رجلا من المسلمين أميمة بنت بشر الأنصارية، ثم إحدى نساء بنِي أمية بن زيد من أوس الله، كانت عند ثابت بن الدحداحة، ففرّت منه، وهو يومئذ كافر إلى رسول الله، فزوّجها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سهل بن حنيف أحد بني عمرو بن عوف، فولدت عبد الله بن سهل".

عن طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "لما نزلت ولا تمسكوا بعصم الكوافر طلقت امرأتي أروى بنت ربيعة، طلق عمر قريبة بنت أبي أمية وأم كلثوم بنت جرول الخزاعية".

قوله تعالى: {وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا} [الممتحنة: ١٠]، أي:"واطلبوا من المشركين ما أنفقتم من مهور نسائكم اللاتي ارتددن عن الإسلام ولحقن بهم، وليطلبوا هم ما أنفقوا من مهور نسائهم المسلمات اللاتي أسلمن ولحقن بكم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لأزواج اللواتي لحقن من المؤمنين من دار الإسلام بالمشركين إلى مكة من كفار قريش: واسألوا أيها المؤمنون الذين ذهبت أزواجهم فلحقن بالمشركين ما أنفقتم على أزواجكم اللواتي لحقن بهم من الصداق من

=

=

تزوّجهن منهم، وليسئلكم المشركون منهم الذين لحق بكم أزواجهم مؤمنات إذا تزوّجن فيكم من تزوّجها منكم ما أنفقوا عليهنّ من الصداق".

قال ابن كثير:"أي: وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللاتي يذهبن إلى الكفار، إن ذهبن، وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين".

عن مجاهد، قوله: {وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا، قال: "ما ذهب من أزواج أصحاب محمد ﷺ إلى الكفار، فليعطهم الكفار صدقاتهن، وليمسكوهن، وما ذهب من أزواج الكفار إلى أصحاب النبيّ ﷺ، فمثل ذلك، في صلح كان بين محمد ﷺ وبين قريش".

عن ابن شهاب، قال: "أقرّ المؤمنون بحكم الله، وأدّوا ما أمروا به من نفقات المشركين التي أنفقوا على نسائهم، وأبى المشركون أن يقرّوا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين".

قوله تعالى: {ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ} [الممتحنة: ١٠]، أي:"ذلكم الحكم المذكور في الآية هو حكم الله يحكم به بينكم فلا تخالفوه".

قال الطبري:"يقول تعالى هذا الحكم الذي حكمت بينكم من أمركم أيها المؤمنون بمسألة المشركين، ما أنفقتم على أزواجكم اللاتي لحقن بهم وأمرهم بمسألتكم مثل ذلك في أزواجهنّ اللاتي لحقن بكم، حكم الله بينكم فلا تعتدوه، فإنه الحقّ الذي لا يسمع غيره، فانتهى المؤمنون من أصحاب رسول الله ﷺ فيما ذُكر إلى أمر الله وحكمه، وامتنع المشركون منه وطالبوا الوفاء بالشروط التي كانوا شارطوها بينهم في ذلك الصلح، وبذلك جاءت الآثار والأخبار عن أهل السير وغيرهم".

قال ابن كثير:"أي: في الصلح واستثناء النساء منه، والأمر بهذا كله هو حكم الله يحكم به بين خلقه".

=

قال الزهري: "أما المؤمنون فأقرّوا بحكم الله، وأما المشركون فأبوا أن يقرّوا، فأنزل الله ﷻ : {وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ} ... الآية".

عن الزهريّ، قال: "قال الله: {ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ}، فأمسك رسول الله ﷺ النساء، وردّ الرجال، وسأل الذي أمره الله أن يسأل من صدقات النساء من حبسوا منهنّ، وأن يردّوا عليهم مثل الذي يردّون عليهم إن هم فعلوا، ولولا الذي حكم الله به من هذا الحكم ردّ رسول الله ﷺ النساء، كما ردّ الرجال، ولولا الهدنة والعهد الذي كان بينه وبين قريش يوم الحديبية أمسك النساء ولم يرد إليهم صداقًا، وكذلك يصنع بمن جاءه من المسلمات قبل العهد".

قوله تعالى: {وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الممتحنة: ١٠]، أي:"والله عليم لا يخفى عليه شيء، حكيم في أقواله وأفعاله".

قال الطبري: يقول:"والله ذو علم بما يصلح خلقه وغير ذلك من الأمور، حكيم في تدبيره إياهم".

قال ابن كثير:"أي: عليم بما يصلح عباده، حكيم في ذلك ".

وقوله-سبحانه-: (وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ)بيان لحكم آخر يتعلق بالنساء اللائي التحقن بالمشركين، وتركن أزواجهن المسلمين، وأبى المشركون أن يدفعوا للمسلمين مهور هؤلاء الزوجات.

والجملة الكريمة معطوفة على قوله تعاليقبل ذلك: وَسْئَلُوا ما أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُوا ما أَنْفَقُوا.

وقد ذكروا أن المسلمين لما نزل قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ.. الآية. كتبوا إلى المشركين يعلمونهم بما تضمنته هذه الآية. فامتنع المشركون عن دفع مهور النساء اللائي ذهبن إليهم، بعد أن تركن أزواجهن المسلمين، فنزل قوله تعالى: وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقَبْتُمْ .

=

قال ابن كثير: أقر المؤمنون بحكم الله فأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التي أنفقوها على نسائهم، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين، فقال الله تعاليللمؤمنين به، وَإِنْ فاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْواجِكُمْ الآية ا.هـ.

وقوله فاتَكُمْ من الفوت بمعنى الفراق والترك والهرب ... يقال: فاتنى هذا الشيء، إذا لم أتمكن من الحصول عليه، وعدى بحرف إلى لتضمنه معنى الفرار.

ولفظ «شيء» هنا المراد به بعض، وقوله: مِنْ أَزْواجِكُمْ بيان للفظ شيء.

وقوله: فَعاقَبْتُمْ يرى بعضهم أنه من العقوبة.

وعليه يكون المعنى: وإن تفلتت وفرت امرأة من أزواجكم-أيها المؤمنون-إلى الكفار، وامتنعوا عن دفع مهرها لكم. فَعاقَبْتُمْ أى: فغزوتم أنتم بعد ذلك هؤلاء الكافرين وانتصرتم عليهم وظفرتم بمغانم منهم.

فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ منكم إلى الكفار من هذه المغانم مِثْلَ ما أَنْفَقُوا أى: مثل المهور التي أنفقوها على زوجاتهم اللائي فررن إلى المشركين.

ويرى بعضهم أن قوله فَعاقَبْتُمْ صيغة تفاعل من العقبة-بضم العين وسكون القاف وهي النوبة، بمعنى أن يصير الإنسان في حالة تشبه حالة غيره.

قال الآلوسى: قوله: فَعاقَبْتُمْ من العقبة لا من العقاب، وهي في الأصل النوبة في ركوب أحد الرفيقين على دابة لهما والآخر بعده: أى: فجاءت عقبتكم أى نوبتكم من أداء المهر.

شبه الحكم بالأداء المذكور، بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب.

وحاصل المعنى: إن لحق أحد من أزواجكم بالكفار، أو فاتكم شيء من مهورهن.

فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ مِثْلَ ما أَنْفَقُوا من مهر المهاجرة التي تزوجتموها، ولا

=

=

تعطوا شيئا لزوجها الكافر، ليكون قصاصا ا.هـ.

وعبر عن هؤلاء الزوجات اللائي تركن أزواجهن المؤمنين، وفررن إلى المشركين، بلفظ «شيء» لتحقير هؤلاء الزوجات، وتهوين أمرهن على المسلمين، وبيان أنهن بمنزلة الشيء الضائع المفقود الذي لا قيمة له.

قال صاحب الكشاف: وجميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة.

وقد أعطى الرسول ﷺ المؤمنين مهور نسائهم-اللاحقات بالمشركين-من الغنيمة.

ثم ختم-سبحانه-الآية الكريمة بقوله: وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ أى: واتقوا الله تعاليأيها المؤمنون-في كل شئونكم، ونفذوا ما أمركم به أو نهاكم عنه، فإن الإيمان الحق به-عَزَّوَجَلَّ يستلزم منكم ذلك.

فالمقصود بهذا التذييل، الحض على الوفاء بما أمر الله تعاليبه، بدون تهاون أو تقاعس.

قوله تعالى: {وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ} [الممتحنة: ١١]، أي:"وإن لحقت بعض زوجاتكم مرتدات إلى الكفار، ولم يعطكم الكفار مهورهن التي دفعتموها لهن".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه للمؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ {وَإِنْ فَاتَكُمْ} أيها المؤمنون {شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ} فلحق بهم".

قال السمعاني:"أي: التحقت واحدة من أزواجكم إلى الكفار، يعني: النساء".

قال الحسن: "نزلت في امرأة الحكم بنت أبي سفيان ارتدت فتزوجها رجل ثقفي، ولم ترتد امرأة من قريش غيرها، فأسلمت مع ثقيف حين أسلموا".

واختلف هل التفسير في «الكفار» الذين عُنُوا بقوله: {إِلَى الْكُفَّارِ} [الممتحنة:

=

=

١١]، على قولين:

أحدهما: أن هذا في الكفار الذين ليس لهم عهد، إذا فرت إليهم امرأة ولم يدفعوا إلى زوجها شيئًا، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شيء، حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليهم مثل نفقته عليها. قاله مجاهد، وقتادة.

عن مجاهد، في قوله: " {وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ}، الذين ليس بينكم وبينهم عهد".

قال قتادة:"إذا فررن من أصحاب النبيّ ﷺ إلى كفار ليس بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد".

قال مقاتل:"يعني: كفار الحرب الذين ليس بينكم وبينهم عهد".

الثاني: أنهم كفار قريش الذي كانوا أهل هدنة، وذلك قول الزهريّ.

قوله تعالى: {فَعَاقَبْتُمْ} [الممتحنة: ١١]، أي:"فغزوتم وعنمتم وأصبتم من الكفار غنيمة".

وفي قوله تعالى: {فَعَاقَبْتُمْ} [الممتحنة: ١١]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: غنمتم لأخذه من معاقبة الغزو، قاله مجاهد، والضحاك.

قال مجاهد:"يقول: أصبتم مغنمًا من قريش أو غيرهم".

قال مقاتل:"يقول: فإن غنمتم، وأعقبكم الله مالا".

قال أبو عبيدة:"أي: أصبتم عقبى منهن".

قال ابن قتيبة:"أي: أصبتم منهم عُقْبَى، أي: غنيمةً من غزوٍ".

الثاني: معناه: غزوتم معاقِبين غزوًا بعد غزو. حكاه ابن قتيبة.

قال الزجاج: أي:"أصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم".

الثالث: معناه: فأصبتم من عاقبة من قتل أو سبي، قاله سفيان.

الرابع: يريد: فلم تعفوا عنهم، إذا لم يعفوا عنكم مهور نسائكم. قاله الإمام

=

=

الشافعي.

وقال الشاقعي:"كأنه يعني: من مهورهن إذا فاتت امرأة مشرك أتتنا مسلمة قد أعطاها مائة في مهرها، وفاتت امرأة مشركة إلى الكفار قد أعطاها مائة، حسبت مائة المسلم بمائة المشرك، فقيل: تلك العقوبة.

الخامس: عاقبتم المرتدة بالقتل، فلزوجها مهرها من غنائم المسلمين، قاله ابن بحر.

قال الماوردي:"وهذا منسوخ لنسخ الشرط الذي شرطه رسول الله ﷺ لهم بالحديبية".

قال الحارث المحاسبي:"وهذا في الصلح بين رسول الله ﷺ وكفار أهل مكة فنسخ ذلك إذ زال الصلح وفتحت مكة فأيما امرأة جاءت من المشركين لم يجب أن يعطوا زوجها شيئا وكذلك الكفار ليس واجبا في الحكم أن يعطوا أزواج من هرب إليهم من المسلمين".

قال قتادة:"ثم نسخ هذا الحكم وهذا العهد في براءة فنبذ إلى كل ذي عهد عهده".

وقال عطاء:"بل حكمها ثابت".

وتُقرأ: «فَعَقَّبْتُمْ»، من: «تعقيب الغزو»، وتقرأ: «فَأَعْقَبْتُمْ».

قوله تعالى: {فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا} [الممتحنة: ١١]، أي:"فأعطوا الذين ذهبت أزواجهم من المسلمين من الغنائم أو غيرها مثل ما أعطوهن من المهور قبل ذلك".

قال الطبري:"يقول: فاعطوا الذين ذهبت أزواجهم منكم إلى الكفار مثل ما أنفقوا عليهنّ من الصداق".

واختلف أهل التفسير في المال الذي أمر أن يعطى منه الذي ذهبت زوجته إلى المشركين، وفيه أقوال:

=

=

أحدها: أنهم أُمروا أن يعطوه من أموال غنائمهم لاستحقاقها عليهم. وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومسروق، وإبراهيم.

قال ابن عباس:"يعني: إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار، أمر له رسول الله ﷺ أن يعطى من الغنيمة مثل ما أنفق".

قال قتادة:"كنّ إذا فررن من أصحاب النبيّ ﷺ إلى الكفار ليس بينهم وبين نبيّ الله عهد، فأصاب أصحاب رسول الله ﷺ غنيمة، أعطى زوجها ما ساق إليها من جميع الغنيمة، ثم يقتسمون غنيمتهم".

عن مجاهد: " {فَعَاقَبْتُمْ}، يقول: أصبتم مغنمًا من قريش أو غيرهم، {فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا}، صدقاتهنّ عوضًا".

عن ابن أَبي نجيح، عن مجاهد:"إنهم كانوا أُمروا أن يردّوا عليهم من الغنيمة. وكان مجاهد يقرأ: {فَعَاقَبْتُمْ}".

قال مجاهد:"من لم يكن بينهم وبينهم عهد، فذهبت امرأة إلى المشركين، فيدفع إلى زوجها مهر مثلها، {فَعَاقَبْتُمْ}، فأصبتم غنيمة، {فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللهَ}، قال: مهر مثلها يُدفع إلى زوجها".

عن مسروق: "أنه قرأها: {فَعَاقَبْتُمْ}، وفسّرها: فغنمتم".

الثاني: من مال الفيء، قاله الزهري.

عن ابن إسحاق، قال: "سألنا الزهريّ، عن هذه الآية وقول الله فيها: {وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ}.. الآية، قال: يقول: إن فات أحدًا منكم أهله إلى الكفار، ولم تأتكم امرأة تأخذون لها مثل الذي يأخذون منكم، فعوّضوه من فيء إن أصبتموه".

قال ابن كثير:"وهذا لا ينافي الأول؛ لأنه إن أمكن الأول فهو أولى، وإلا فمن الغنائم اللاتي تؤخذ من أيدي الكفار. وهذا أوسع".

=

=

الثالث: أنهم أُمروا أن يعطوهم من صداق من أسلمن منهن عن زوج كافر. وهو مروي عن الزهري أيضـًا.

قال الزهري:"أقرّ المؤمنون بحكم الله، وأدّوا ما أمروا به من نفقات المشركين التي أنفقوا على نسائهم، وأبى المشركون أن يقرّوا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين، فقال الله للمؤمنين: {وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ}، فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين ردَّ المؤمنون إلى زوجها النفقة التي أنفق عليها من العقب الذي بأيديهم، الذي أمروا أن يردّوه على المشركين من نفقاتهم التي أنفقوا على أزواجهم اللاتي آمنّ وهاجرن، ثم ردّوا إلى المشركين فضلا-إن كان بقي لهم-، والعقب: ما كان بأيدي المؤمنين من صداق نساء الكفار حين آمنّ وهاجرن".

قال الزهري:"أنزل الله: {وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا}، فأمر الله المؤمنين أن يردّوا الصداق إذا ذهبت امرأة من المسلمين ولها زوج أن يردَّ إليه المسلمون صداق امرأته من صداق إن كان في أيديهم مما أمروا أن يردّوا إلى المشركين".

روي عن بكير بن الأشجّ، قال:"كان بين رسول الله ﷺ والمشركين هدنة فيمن فرّ من النساء، فإذا فرّت المشركة أعطى المسلمون زوجها نفقته عليها وكان المسلمون يفعلون وكان إذا لم يعط هؤلاء ولا هؤلاء أخرج المسلمون للمسلم الذي ذهبت امرأته نفقتها".

الرابع: -وهو قول ابن زيد-: أن امرأة خرجت "من أهل الإسلام إلى المشركين، ولم يخرج غيرها. قال: فأتت امرأة من المشركين، فقال القوم: هذه عُقْبتكم قد أتتكم، فقال الله: {وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ}: أمسكتم

=

الذي جاءكم منهم من أجل الذي لكم عندهم، {فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا}، ثم أخبرهم الله أنه لا جناح عليهم إذا فعلوا الذي فعلوا أن ينكحوهنّ إذا استبرئ رحمها، قال: فدعا رسول الله ﷺ الذي ذهبت امرأته إلى الكفار، فقال لهذه التي أتت من عند المشركين: هذا زوج التي ذهبت أزوجكه؟ فقالت: يا رسول الله، عذر الله زوجة هذا أن تفرّ منه، لا والله مالي به حاجة، فدعا البختريّ رجلا جسيمًا، قال: هذا؟ قالت: نعم، وهي ممن جاء من مكة".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: أمر الله ﷻ في هذه الآية المؤمنين أن يعطوا من فرّت زوجته من المؤمنين إلى أهل الكفر إذا هم كانت لهم على أهل الكفر عُقْبى، إما بغنيمة يصيبونها منهم، أو بلحاق نساء بعضهم بهم، مثل الذي أنفقوا على الفارّة منهم إليهم، ولم يخصص إيتاءهم ذلك من مال دون مال، فعليهم أن يعطوهم ذلك من كلّ الأموال التي ذكرناها".

قوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ} [الممتحنة: ١١]، أي:"وخافوا الله الذي أنتم به مؤمنون".

قال الطبري:"يقول: وخافوا الله الذي أنتم به مصدّقون أيها المؤمنون فاتقوه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه".

* مسألة: إذا أسلم الزوجان جميعا في وقت واحد، فيمضي نكاحهما السابق بلا خلاف، وإن تقدم أحدهما الآخر، لكن كان إسلامهما في زمن العدة، فيمضي زواجهما بعقدهما السابق بلا شهود ولا صداق عند أكثر العلماء؛ وهو قول الشافعي وأحمد والأوزاعي، وذلك لما روى مالك في "الموطأ": أن زوجة صفوان بن أمية أسلمت قبل زوجها بنحو شهر، ثم أسلم زوجها، فلم يفرق النبي ﷺ بينهما.

وقد أسلمت أم حكيم بنت الحارث بن هشام، ولم يسلم زوجها عكرمة بن أبي

=

جهل، ثم أسلم بعد، فردهما النبي ﷺ، ولم يذكر عقد.

ولم يكن النبي ﷺ ولا أصحابه يطلبون ممن يدخل الإسلام من الأزواج تجديد عقدهما مع إسلامهما، وإن أسلم أحدهما، وبقي الآخر مشركا، فهما أجنبيان عن بعضهما؛ لا يحل استمتاع بعضهما ببعض، إلا إن أسلم الزوج وبقيت الزوجة كتابية أو نصرانية، فيبقى الزواج صحيحا؛ لصحة زواج المسلم من الكتابية خاصة.

وقد اختلف العلماء في اشتراط العقد الجديد لعودة أحد الزوجين إلى الآخر بعد انقضاء العدة على تأخر إسلام، على أقوال عدة، أشهرها:

الأول -وهو قول أكثر الفقهاء-: أنها إن انتهت، خرجت من عصمته، ويشترط أن يكون ذلك في زمن عدتها؛ فإن للمسلمة من الزوج الكافر عدة كعدة المطلقة، فالمطلقة تبدأ عدتها من طلاق زوجها، والزوجة تبدأ عدتها بإسلامها.

الثاني: ذهب بعض الأئمة: إلى أن إسلام أحد الزوجين وتأخر الآخر لا يلزم معه عودتهما بعقد جديد مهما طالت المدة، ما لم تتزوج المرأة بعد زوجها ثم تطلق، وقد رجع النبي ﷺ ابنته زينب إلى زوجها أبي العاص بن الربيع بنكاحها الأول، وبين إسلامهما سنون؛ فقد تبعها بإسلامه سنة ثمان.

واحتج به أحمد؛ قيل له: أليس يروى أنه ردها بنكاح مستأنف؟ قال: ليس له أصل.

ويكثر في الصدر الأول إسلام أحد الزوجين وتأخر الآخر، ولم يثبت أن النبي ﷺ أمر بعقد جديد.

وأما ما رواه عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده مرفوعا: (أن النبي ﷺ رد ابنته على أبي العاص بمهر جديد ونكاح جديد)، فقد أعله أحمد والبخاري والترمذي. وقد صح عن ابن عباس: أن النكاح باق ما لم تتزوج بعد انقضاء عدتها؛ كما روى

=

=

البخاري، عن ابن عباس؛ قال: كان المشركون على منزلتين من النبي ﷺ والمؤمنين: كانوا مشركي أهل حرب؛ يقاتلهم ويقاتلونه، ومشركي أهل عهد؛ لا يقاتلهم ولا يقاتلونه، وكان إذا هاجرت امرأة من أهل الحرب، لم تخطب حتى تحيض وتطهر، فإذا طهرت، حل لها النكاح، فإن هاجر زوجها -يعني: أسلم وهاجر-قبل أن تنكح، ردت إليه.

وهذا قول عمر بن الخطاب والنخعي وجماعة، وقد روى محمد بن سيرين، عن عبد الله بن يزيد الخطمي: أن نصرانيا أسلمت امرأته، فخيرها عمر بن الخطاب: إن شاءت فارقته، وإن شاءت أقامت عليه.

ويذهب بعض العلماء: إلى أن إسلام أحد الزوجين وتأخر الآخر يفسخ النكاح ولو كان تأخره يسيرا، وهذا لم يقل به -فيما أعلم-أحد من الصحابة، ولا أحد من متقدمي فقهاء الحجاز، وهم العمدة في الفتوى في مثل هذه الأبواب.

ويفهم بعض المعاصرين ما يروى في ذلك عن عمر وعلي في الزوجة التي أسلمت عن زوج كافر: أن زوجها أملك ببضعها، وأنه أحق بها ما لم تخرج من مصرها - وحملوا ذلك على أنه يحل له وطؤها وهو كافر.

وهذا غلط وتحميل لقولهما ما لا يحتمله، ولا يحل وطء المشرك للمسلمة، ومرادهما: أنه أولى بها من غيره إن أرادها بعد إسلامه، ويبقى على عقده الأول ما لم تتزوج بعد عدتها، ولم يكن الصحابة يبحثون مسألة وطء الكافر لمسلمة، ولكن لما بعدت الأفهام عن مقاصدهم ورق الدين، حمل هؤلاء كثيرا من محتملات ألفاظهم على غير مرادهم.

وقوله تعالى: {وآتوهم ما أنفقوا}؛ يعني: أزواجهن المشركين يرسل المسلمون إليهم مهورهم التي سلموها لأزواجهم، وهذا من عدل الإسلام في الوفاء بما عليه الصلح، فلما استثنى الله النساء من التسليم وهن في شروطه، لم يسقط حقهم في

=

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا

=

المال بذلك.

وقوله: {ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن}، فيه: جواز نكاح المهاجرات اللاتي أزواجهن مشركون بعد إعطائهن مهورهن، وقد تقدم في صدر سورة النساء الكلام على الصداق عند قوله تعالى: {وآتوا النساء صدقاتهن نحلة} [٤].

وقوله تعالى: {ولا تمسكوا بعصم الكوافر}، فيه: تحريم نكاح المسلم للمشركة، وقد تقدم ذلك في سورة البقرة عند قوله تعالى: {ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن} [٢٢١]، وتقدم الكلام على حل النكاح من الكتابية خاصة، عند قوله تعالى: {والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم} [المائدة: ٥].

وقوله تعالى: {واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا} فيه المماثلة؛ فكما أن المهور تدفع للمشركين، فكذلك يدفع للمؤمنين مهور نسائهم عند لحاقهن بأهلهن من المشركين.

وفي قوله تعالى: {وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون} جواز إعطاء المؤمن الذي لحقت زوجته بأهلها المشركين من مهور أزواج المشركين اللاتي هاجرن، فبدلا من إرسال المهر للمشرك، يعطى المسلم الذي رجعت زوجته من مهورهم.

وقال بعضهم: إن العقاب في قوله: {فعاقبتم}؛ يعني: غنمتم من المشركين مالا، فأصبتم منهم عقبى، فيعطى المسلم مهر زوجته الخارجة مما أصابوه منهم؛ روي هذا عن ابن عباس ومسروق والزهري وجماعة.

يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢).

{يَا أَيّهَا النَّبِيّ إذَا جَاءَك الْمُؤْمِنَات يُبَايِعْنَك عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاَللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادهنَّ} كَمَا كَانَ يَفْعَل فِي الْجَاهِلِيَّة مِنْ وَأْد الْبَنَات أَيْ دَفْنهنَّ أَحْيَاء خَوْف الْعَار وَالْفَقْر {وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْن أَيْدِيهنَّ وَأَرْجُلهنَّ} أَيْ بِوَلَدٍ مَلْقُوط يَنْسُبْنَهُ إلَى الزَّوْج وَوُصِفَ بِصِفَةِ الْوَلَد الْحَقِيقِيّ فَإِنَّ الْأُمّ إذَا وَضَعَتْهُ سَقَطَ بَيْن يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا {وَلَا يَعْصِينَك فِي} فِعْل {مَعْرُوف} هُوَ مَا وَافَقَ طَاعَة الله كَتَرْكِ النِّيَاحَة وَتَمْزِيق الثِّيَاب وَجَزّ الشُّعُور وَشَقّ الْجَيْب وَخَمْش الْوَجْه {فَبَايِعْهُنَّ} فَعَلَ ذَلِكَ ﷺ بِالْقَوْلِ وَلَمْ يُصَافِح وَاحِدَة مِنْهُنَّ {واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم[1]}.

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ}؛ قال: كيف يمتحن؟ فأنزل الله: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٤٢) ونسبه لابن مردويه.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان عبد الله بن عمر وزيد بن الحارث يوادون =

=

رجالاً من يهود؛ فأنزل الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٤٤)، و"لباب النقول" (ص ٢١٢)، وقال: "وأخرج ابن المنذر من طريق ابن إسحاق عن محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس به".

وسنده ضعيف؛ لجهالة شيخ ابن إسحاق، وهو محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت.

* هذه الآية الكريمة، اشتملت على أحكام متممة للأحكام المشتملة عليها الآيتان السابقتان عليها.

فكأن الله تعاليقول: إِذا جاءَكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ-اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ-فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ، فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ.. وبايعهن أيها الرسول الكريم على إخلاص العبادة لله تعالى.

قال القرطبي ما ملخصه: وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله ﷺ يمتحن بهذه الآية.. وكان رسول الله ﷺ إذا أقررن بذلك من قولهن، قال لهن رسول الله ﷺ: «انطلقن فقد بايعتكن».

ولا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط، غير أنه بايعهن بالكلام.. وما مست كف رسول الله ﷺ كف امرأة قط، وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن: «قد بايعتكن كلاما» ا.هـ.

والمعنى: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ أى: مبايعات لك، أو قاصدات مبايعتك، ومعاهدتك على الطاعة لما تأمرهن به، أو تنهاهن عنه.

وأصل المبايعة: مقابلة شيء بشيء على سبيل المعاوضة. وسميت المعاهدة مبايعة، تشبيها لها بها، فإن الناس إذا التزموا قبول ما شرط عليهم من التكاليف

=

=

الشرعية، -طمعا في الثواب، وخوفا من العقاب، وضمن لهم ﷺ ذلك في مقابلة وفائهم بالعهد-صار كأن كل واحد منهم باع ما عنده في مقابل ما عند الآخر.

والمقتضى لهذه المبايعة بعد الامتحان لهن، أنهن دخلن في الإسلام، بعد أن شرع الله تعاليما شرع من أحكام وآداب.. فكان من المناسب أن يأخذ النبي ﷺ عليهن العهود، بأن يلتزمن بالتكاليف التي كلفهن الله تعاليبها.

ثم بين-سبحانه-ما تمت عليه المبايعة فقال: عَلى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا أى: يبايعنك ويعاهدنك على عدم الإشراك بالله تعاليفي أى أمر من الأمور التي تتعلق بالعقيدة أو بالعبادة أو بغيرهما.

وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ. أى ويبايعنك-أيضا-على عدم ارتكاب فاحشة السرقة، أو فاحشة الزنا، فإنهما من الكبائر التي نهى الله تعاليعنها.

وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ أى: ويبايعنك كذلك، على عدم قتلهن لأولادهن.

والمراد به هنا: النهى عن قتل البنات، وكان ذلك في الجاهلية يقع تارة من الرجال، وأخرى من النساء، فكانت المرأة إذا حانت ولادتها حفرت حفرة، فولدت بجانبها، فإذا ولدت بنتا رمت بها في الحفرة، وسوتها بالتراب، وإذا ولدت غلاما أبقته.

وقوله: وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ معطوف على ما قبله وداخل تحت النهى.

والبهتان: الخبر الكاذب الصريح في كذبه، والذي يجعل من قيل فيه يقف مبهوتا ومتحيرا من شدة أثر هذا الكذب السافر.

والافتراء: اختلاق الكذب واختراع الشخص له من عند نفسه.

وللمفسرين في معنى هذه الجملة الكريمة أقوال، منها: أن المرأة في الجاهلية كانت تلتقط المولود وتقول لزوجها: هذا ولدي منك، فذلك هو البهتان المفترى بين

=

=

أيديهن وأرجلهن، لأن الولد إذا وضعته الأم، سقط بين يديها ورجليها.
ويرى بعضهم أن معنى الجملة الكريمة: ولا تأتوا بكذب شنيع تختلقونه من جهة أنفسكم، فاليد والرجل كناية عن الذات، لأن معظم الأفعال بهما، ولذا قيل لمن ارتكب جناية قولية أو فعلية: هذا جزاء ما كسبت يداك ا.هـ.
وقوله-سبحانه-: وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ من الأقوال الجامعة لكل ما يخبر به النبي ﷺ ويأمر بفعله، أو ينهى عن الاقتراب منه.
ويشمل ذلك النهى عن شق الجيوب، ولطم الخدود، ودعوى الجاهلية وغير ذلك من المنكرات التي نهى الإسلام عنها.
وقوله-سبحانه-: فَبايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ جواب إذا التي في أول الآية.
أى: إذا جاءك المؤمنات قاصدات لمبايعتك على الالتزام بتعاليم الإسلام، فبايعهن على ذلك ... واستغفر لهن الله تعاليعما فرط منهن من ذنوب. إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أى: إن الله تعاليواسع المغفرة والرحمة لعباده المؤمنين.
وهذه المبايعة يبدو أنها وقعت منه ﷺ للنساء أكثر من مرة: إذ منها ما وقع في أعقاب صلح الحديبية، بعد أن جاءه بعض النساء المؤمنات مهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام، كما حدث من أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط، ومن سبيعة الأسلمية، ومن أميمة بنت بشر، ومن غيرهن من النساء اللائي تركن أزواجهن الكفار، وهاجرن إلى دار الإسلام.
ومنها ما وقع في أعقاب فتح مكة، فقد جاء إليه ﷺ بعد فتحها نساء من أهلها ليبايعنه على الإسلام.
قال الآلوسى: والمبايعة وقعت غير مرة، ووقعت في مكة بعد الفتح، وفي المدينة.
وممن بايعنه ﷺ في مكة، هند بنت عتبة، زوج أبى سفيان.. فقرأ عليهن ﷺ الآية، فلما قال. وَلا يَسْرِقْنَ قالت: والله إنى لأصيب الهنة من مال أبى سفيان ولا أدرى

=

أيحل لي ذلك؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من شيء فيما مضى فهو حلال لك.. فلما قرأ ﷺ وَلا يَزْنِينَ قالت: أو تزنى الحرة؟.. فلما قرأ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ قالت: ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا. وفي رواية أنها قالت: قتلت الآباء وتوصينا بالأولاد. فلما قرأ ﷺ: وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ قالت: والله إن البهتان لقبيح، ولا يأمر الله تعاليإلا بالرشد ومكارم الأخلاق.

فلما قرأ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ قالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء.

والتقييد بالمعروف، مع أن الرسول ﷺ لا يأمر إلا به، للتنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق.

وتخصيص الأمور المعدودة بالذكر في حقهن، لكثرة وقوعها فيما بينهن ا.هـ.

وقد ذكر الإمام ابن كثير، جملة من الأحاديث التي تدل على أن هذه البيعة قد تمت في أوقات متعددة، وفي أماكن مختلفة، وأنها شملت الرجال والنساء.

ومن هذه الأحاديث ما أخرجه الإمام أحمد عن سلمى بنت قيس -إحدى نساء بنى عدى بن النجار- قالت: جئت رسول الله ﷺ نبايعه، في نسوة من الأنصار، فشرط علينا: ألا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف.. ثم قال ﷺ «ولا تغششن أزواجكن». قالت: فبايعناه، ثم انصرفنا.

فقلت لامرأة منهن: ارجعي إلى رسول الله ﷺ فسليه: ما غش أزواجنا؟ فسألته فقال: «تأخذ ماله فتحابى به غيره».

وفي الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال: كنا عند رسول الله ﷺ في مجلس فقال: بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم.. فمن وفي منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في

=

الدنيا، فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله عليه، فهو إلى الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا} [الممتحنة: ١٢]، أي:"يا أيها النبي إذا جاءك النساء المؤمنات بالله ورسوله يعاهدنك على ألا يجعلن مع الله شريكًا في عبادته".

قال ابن كثير:"أي: من جاءك منهن يبايع على هذه الشروط فبايعها، {عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ.. }".

قوله تعالى: {وَلَا يَسْرِقْنَ} [الممتحنة: ١٢]، أي:"ولا يرتكبن جريمة السرقة".

قال ابن كثير:"أي: أموال الناس الأجانب، فأما إذا كان الزوج مقصرًا في نفقتها، فلها أن تأكل من ماله بالمعروف، ما جرت به عادة أمثالها، وإن كان بغير علمه، عملا بحديث هند بنت عتبة أنها قالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شَحِيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني، فهل عليَّ جناح إن أخذت من ماله بغير علمه؟ فقال رسول الله ﷺ: «خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك» ".

قوله تعالى: {وَلَا يَزْنِينَ} [الممتحنة: ١٢]، أي:"ولا يرتكبن جريمة الزنى".

قال ابن كثير:"قوله: {وَلا يَزْنِينَ} كقوله {وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا} [الإسراء: ٣٢]. وفي حديث سَمُرة ذكرُ عقوبة الزناة بالعذاب الأليم في نار الجحيم ".

عن عائشة قالت: "جاءت فاطمة بنت عتبة تبايع رسول الله ﷺ فأخذ عليها: {أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ} الآية، قالت: فوضعت يدها على رأسها حياء، فأعجبه ما رأى منها، فقالت عائشة: أقري أيتها المرأة، فوالله ما بايعنا إلا على هذا. قالت: فنعم إذًا. فبايعها بالآية".

=

=

قوله تعالى: {وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ} [الممتحنة: ١٢]، أي:"ولا يقتلن أولادهن بعد الولادة أو قبلها".

قال الزمخشري:"يريد: وأد البنات".

قال البغوي:"أراد وأد البنات الذي كان يفعله أهل الجاهلية".

قال ابن كثير:"وهذا يشمل قتله بعد وجوده، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعم قتله وهو جنين، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء، تطرح نفسها لئلا تحبل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه".

قوله تعالى: {وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ} [الممتحنة: ١٢]، أي:"ولا يُلحقن بأزواجهن أولادًا ليسوا منهم".

قال الطبري:"يقول: ولا يأتين بكذب يكذبنه في مولود يوجد بين أيديهنّ وأرجلهن. وإنما معنى الكلام: ولا يلحقن بأزواجهنّ غير أولادهم".

قال الزمخشري:"كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها: هو ولدى منك. كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذبا، لأنّ بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين، وفرجها الذي تلده به بين الرجلين".

قال ابن عباس:"يقول: لا يلحقن بأزواجهنّ غير أولادهم".

قال مقاتل: "البهتان: أن تقذف المرأة ولدا من غير زوجها على زوجها، فتقول لزوجها هو منك وليس منه. قالت: والله إن البهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أمثل، وما تأمر إلا بالرشد ومكارم الأخلاق".

عن ابن عباس قال: "شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب بَعدُ، فنزل نبي الله ﷺ، فكأني أنظر إليه حين يُجَلِّس الرجالَ بيده، ثم أقبل يَشقّهم حتى أتى النساء مع بلال فقال: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا

=

=

يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ} حتى فرغ من الآية كلها. ثم قال حين فرغ: "أنتن على ذلك؟ ". فقالت امرأة واحدة، ولم يجبه غيرها: نعم يا رسول الله -لا يدري الحسن من هي -قال: "فتصدقن"، قال: وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفَتَخَ والخواتيم في ثوب بلال".

عن عبادة بن الصامت قال: "كنا عند رسول الله ﷺ في مجلس فقال: "تبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم -قرأ الآية التي أخذت على النساء {إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ} فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به، فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله عليه، فهو إلى الله، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه".

عن عبادة بن الصامت قال: "كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلا فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفرض الحرب، على ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، وقال: "فإن وَفَيتم فلكم الجنة".

عن عائشة، قالت: "جاءت هند بنت عتبة إلى رسول الله ﷺ لتبايعه، فنظر إلى يدها فقال: "اذهبي فغيري يدك". فذهبت فغيرتها بحناء، ثم جاءت فقال: "أبايعك على ألا تشركي بالله شيئا"، فبايعها وفي يدها سواران من ذهب، فقالت: ما تقول في هذين السوارين؟ فقال: "جمرتان من جمر جهنم".

قوله تعالى: {وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ} [الممتحنة: ١٢]، أي:"ولا يخالفنك في معروف تأمرهن به".

قال الزمخشري:"فيما تأمرهن به من المحسنات وتنهاهنّ عنه من المقبحات".

قال ابن كثير:"يعني: فيما أمرتهن به من معروف، ونهيتهن عنه من منكر".

قال الطبري:"يقول: ولا يعصينك يا محمد في معروف من أمر الله ﷻ تأمرهن به.

=

=

وذكر أن ذلك المعروف الذي شرط عليهنّ أن لا يعصين رسول الله ﷺ فيه هو النياحة".

عن ابن عباس في قوله: {وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ} قال: "إنما هو شرط شَرَطه الله للنساء".

وفي قوله تعالى: {وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ} [الممتحنة: ١٢]، وجوه من التفسير:

أحدها: أن «المعروف» -ها هنا-: الطاعة لله ولرسوله، قاله ميمون بن مهران.

حكي ابن كثير عن ميمون بن مِهْرَان:"لم يجعل الله لنبيه طاعة إلا لمعروف، والمعروف: طاعة".

الثاني: ما رواه شهر بن حوشب عن أم سلمة عن النبي ﷺ ولا يعصينك في معروف قال: هو النوح. وإسناده ضعيف.

عن قتادة: " {وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ}، قال: هو النوح أُخِذ عليهن لا ينحن، ولا يخلُونَّ بحديث الرجال إلا مع ذي محْرم؛ قال: فقال عبد الرحمن بن عوف: إنا نغيب ويكون لنا أضياف؛ قال: «وليس أولئك عنيت»".

عن سالم بن أبي الجعد: " {وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ}، قال: النوح".

عن أبي صالح، في قوله: " {وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ}، قال: في نياحة".

عن ابن عباس، قوله: " {وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ}، يقول: لا يُنْحن".

عن مصعب بن نوح الأنصاريّ، قال: "أدركت عجوزا لنا كانت فيمن بايع رسول الله ﷺ، قالت: فأتيته لأبايعه، فأخذ علينا فيما أخذ ولا تَنُحنَ، فقالت عجوز: يا نبيّ الله إن ناسًا قد كانوا أسعدوني على مصائب أصابتني، وإنهم قد أصابتهم مصيبة، فأنا أريد أن أسعدهم؛ قال: فانْطلقِي فَكافِئِيهمْ، ثم إنها أتت فبايعته، قال: هو المعروف الذي قال الله: {وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوف}".

=

=

عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: "جاءت أُميمة بنت رقيقة إلى النبي ﷺ تبايعه على الإسلام، فقال لها النبي ﷺ: "أُبايِعُكِ على أنْ لا تُشْركي باللهِ شَيْئا، ولا تَسْرِقي، ولا تَزْني، وَلا تَقْتُلي وَلَدَكِ، وَلا تَأْتي بِبُهْتانٍ تفترَينَهُ بَينَ يديْكِ ورِجْلَيْكِ، وَلا تَنُوحي وَلا تَبرَّجِي تَبرجَ الجاهِلِيةِ الأولى".

الثالث: أن من المعروف ألا تخمش وجهها ولا تنشر شعرها ولا تشق جيباً ولا تدعو ويلاً، قاله أسيد بن أبي أسيد.

الرابع: أن من المعروف أن لا يخدشن وجهًا، ولا يشققن جيبًا، ولا يدعونّ ويلا ولا ينشدن شعرًا. قاله ابن زيد.

الخامس: يعني: في طاعة الله تعاليفيما نهى عنه النبي -ﷺ-عن النوح وشد الشعر وتمزيق الثياب، أو تخلو مع غريب في حضر، ولا تسافر فوق ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم ونحو ذلك. قاله مقاتل.

السادس: ما روي عن ق قتادة، قال:"ذُكر لنا أن نبي الله ﷺ أخذ عليهن يومئذ النياحة، ولا تحدثن الرجال، إلا رجلا منكن مَحْرَما، فقال عبد الرحمن بن عوف: يا نبي الله إن لنا أضيافا، وأنا نغيب عن نسائنا؛ قال: فقال رسول الله: «لَيْسَ أُولَئِكَ عَنَيْتُ»".

وعن قتادة، في قوله: " {وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ}، قال: لا يحدثن رجلا".

وروي عن زهير، في قول الله: " {وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ}، قال: لا يخلوا الرجل بامرأة".

وعن الحسن البصري، قال:"كان فيما أُخذ عليهن أن لا يَخْلُون بالرجال إلا أن يكون مَحرمًا، وإنّ الرجل قد تُلاطفه المرأة فيُمذي في فَخِذيه".

السابع: أن «المعروف»: ما اشترط عليهنّ في البيعة أن يتبعن أمره. رواه عبيد عن الضحاك".

=

الثامن: أنه عام في الأمور كلها وينبغي لهنّ أن لا يعصين، قاله ابن زيد، ونحوه عن الكلبي.

قال ابن زيد: "إن رسول الله ﷺ نبيه وخيرته من خلقه ثم لم يستحلّ له أمور أمر إلا بشرط لم يقل: ولا يعصينك ويترك، حتى قال: {فِي مَعْرُوفٍ}: فكيف ينبغي لأحد أن يُطاع في غير معروف وقد اشترط الله هذا على نبيه، قال: فالمعروف كلّ معروف أمرهنّ به في الأمور كلها وينبغي لهنّ أن لا يعصين".

وروي أن هنداً قالت عند ذلك: " ما جلسنا في مجلسنا هذا، وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء".

قال الماوردي:""وهذا دليل على أن طاعة الولاة إنما تلزم في المعروف المباح دون المنكر المحظور".

عن ابن المنكدر: "أن أُمَيمة أخبرته أنها دخلت على رسول الله ﷺ في نسوة، فقلن: يا رسول الله ابسط يدك نصافحك، فقال: "إني لا أُصافحُ النِّساءَ، وَلَكِن سآخُذُ عَلَيْكُنَّ، فأخذ علينا حتى بلغ: {وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ}، فقال: "فيما أَطَقْتُنَّ واسْتَطَعْتُنَّ فَقلن: الله أرحم بنا من أنفسنا".

قال الزمخشري:"فإن قلت: لو اقتصر على قوله: {وَلا يَعْصِينَكَ}، فقد علم أن رسول الله ﷺ لا يأمر إلا بمعروف؟

قلت: نبه بذلك على أنّ طاعة المخلوق في معصية الخالق جديرة بغاية التوقي والاجتناب".

قال البيضاوي:"التقييد بالمعروف مع أن الرسول ﷺ لا يأمر إلا به تنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق".

قوله تعالى: {فَبَايِعْهُنَّ} [الممتحنة: ١٢]، أي:"فعاهدهن على ذلك".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على هذه الشروط، =

=

فبايعهن".

قوله تعالى: {وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ} [الممتحنة: ١٢]، أي:"واطلب لهن المغفرة من الله".

قال الطبري:"يقول: سل لهنّ الله أن يصفح عن ذنوبهنّ، ويسترها عليهنّ بعفوه لهنّ عنها".

قال الشوكاني:"أي: اطلب من الله المغفرة لهن بعد هذه المبايعة لهن منك".

قال السمعاني:"أي: قد غفر الله لكن".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الممتحنة: ١٢]، أي:"إن الله غفور لذنوب عباده التائبين، رحيم بهم".

قال الطبري:"يقول: إن الله ذو ستر على ذنوب من تاب إليه من ذنوبه أن يعذّبه عليها بعد توبته منها".

قال مقاتل: {إِنَّ اللهَ غَفُورٌ} لما كان في الشرك {رَحِيمٌ} فيما بقي".

قال الشوكاني:"أي: بليغ المغفرة والرحمة لعباده".

قال ابن إسحاق: {والله غفور رحيم}، " أي: يغفر الذنوب، ويرحم العباد، على ما فيهم".

قال سلمة بن وهرام صاحب طاووس:"أن الله تبارك وتعالى إنما سمى نفسه «العفو»، ليعفو، و «الغفور»، ليغفر".

(تنبيه): كانت عادة النبي ﷺ أنه يصافح من بايعه، إلا أنه لم يصافح النساء، ولم يجعل رجلا يصافحهن عنه.

وقد ذكر بعضهم أنه صافحهن بحائل، وبعضهم ذكر أنه أوكل المصافحة لعمر، وهدا منكر ليس له أصل، وقد كان يقول ﷺ: (إني لا أصافح النساء).

وقد روى البخاري، أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرت: أن رسول الله ﷺ كان

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ} هُمْ الْيَهُود {قَدْ يَئِسُوا مِنْ الْآخِرَة} مِنْ ثَوَابهَا مَعَ إِيقَانهمْ بِهَا لِعِنَادِهِمْ النَّبِيّ مَعَ عِلْمهمْ بِصِدْقِهِ {كَمَا يَئِسَ الْكُفَّار} الْكَائِنُونَ {مِنْ أَصْحَاب الْقُبُور} أَيْ الْمَقْبُورِينَ من خير الْآخِرَة إِذْ تُعْرَض عَلَيْهِمْ مَقَاعِدهمْ مِنْ الْجَنَّة لَوْ كَانُوا آمَنُوا وَمَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ مِنْ النار (١).

=

يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية بقول الله: {ياأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك}، إلى قوله: {غفور رحيم}، فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها رسول الله ﷺ: (قد بايعتك) كلاما، ولا والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة، ما يبايعهن إلا بقوله: (قد بايعتك على ذلك).

وقد كان يبايعهن على الفضيلة والحياء، وينهاهن عن ضد ذلك، وهذا داخل في قوله تعالى: {ولا يعصينك في معروف}، وقد روى عمرو بن أبي سلمة، عن زهير بن محمد؛ في قول الله: {ولا يعصينك في معروف}؛ قال: لا يخلو الرجل بامرأة.

وقال قتادة في قوله: {ولا يعصينك في معروف}؛ قال: لا يحدثن رجلا.

(١) كما افتتح-سبحانه-السورة الكريمة بنداء للمؤمنين، نهاهم فيه عن موالاة أعدائه وأعدائهم، اختتمها-أيضا-بنداء لهم، نهاهم فيه مرة أخرى عن مصافاة قوم قد غضب الله عليهم، فقال تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ) والمراد بالقوم الذين غضب الله عليهم: المشركون، بصفة عامة، ويدخل فيهم دخولا أوليا اليهود، لأن هذا الوصف كثيرا ما يطلق عليهم.

أى: يا من آمنتم بالله تعاليحق الإيمان، ينهاكم الله تعاليعن أن تتخذوا الأقوام الذين

=

=

غضب الله عليهم أولياء، وأصفياء، بأن تفشوا إليهم أسرار المسلمين، أو بأن تطلعوهم على ما لا يصح الاطلاع عليه.

وقوله تعالى: قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَما يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ تعليل للنهى عن موالاتهم، وتنفير من الركون إليهم.

واليأس: فقدان الأمل في الحصول على الشيء، أو في توقع حدوثه.

والكلام على حذف مضاف، أى قد يئس هؤلاء اليهود من العمل للآخرة وما فيها من ثواب، وآثروا عليها الحياة الفانية.. كما يئس الكفار من عودة موتاهم إلى الحياة مرة أخرى للحساب والجزاء، لاعتقادهم بأنه لا بعث بعد الموت، ولا ثواب ولا عقاب-كما حكى القرآن عنهم ذلك في آيات كثيرة منها قوله تعاليقالُوا أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ.

فالمقصود من الآية الكريمة، تشبيه حال هؤلاء اليهود في شدة إعراضهم عن العمل للآخرة.. بحال أولئك الكفار الذين أنكروا إنكارا تاما، أن هناك بعثا للأموات الذين فارقوا الحياة، ودفنوا في قبورهم.

وعلى هذا الوجه يكون قوله تعالى: مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ متعلق بقوله يَئِسُوا ومِنَ لابتداء الغاية.

ويصح أن يكون قوله تعالى: مِنْ أَصْحابِ الْقُبُورِ بيانا للكفار، فيكون المعنى: قد يئسوا من الآخرة، وما فيها من جزاء ... كما يئس الكفار الذين ماتوا وسكنوا القبور، من أن ينالوا شيئا-ولو قليلا-من الرحمة، أو تخفيف العذاب عنهم، أو العودة إلى الدنيا ليعملوا عملا صالحا غير الذي أرادهم وأهلكهم.

وعلى كلا القولين، فالآية الكريمة تنهى المؤمنين عن موالاة قوم غضب الله عليهم، بأبلغ أسلوب، وأحكم بيان.

حيث وصفت هؤلاء القوم، بأنهم قد أحاط بهم غضب الله تعاليبسبب فسوقهم عن

=

=

أمره، وإعراضهم عن طاعته، وإنكارهم للدار الآخرة وما فيها من جزاء.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ} [الممتحنة: ١٣]، أي:"يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله، لا تتخذوا الذين غضب الله عليهم؛ لكفرهم أصدقاء وأخلاء".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أصحاب رسول الله ﷺ {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ}، من اليهود".

قال قتادة: هم اليهود تولاهم: المنافقون".

قال الزجاج:"يعني: به اليهود".

قال ابن كثير:"يعني: اليهود والنصارى وسائر الكفار، ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد".

قال الشوكاني:"هم جميع طوائف الكفر، لأن جميع طوائف الكفر تتصف بأن الله سبحانه غضب عليها".

قال ابن عباس:"ما أنزل الله آية في القرآن، يقول فيها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، إلا كان على شريفها وأميرها".

قوله تعالى: {قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ} [الممتحنة: ١٣]، أي:"قد يئسوا من ثواب الله في الآخرة، كما يئس الكفار المقبورون، من رحمة الله في الآخرة؛ حين شاهدوا حقيقة الأمر، وعلموا علم اليقين أنهم لا نصيب لهم منها".

وفي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ} [الممتحنة: ١٣]، وجهان من التفسير:

أحدهما: قد يئسوا من ثواب الآخرة كما يئس أصحاب القبور بعد المعاينة من ثواب الآخرة، لأنهم عاينوا الأمر، وعرفوا أنهم أهل النار قطعا. قاله ابن مسعود،

=

=

ومجاهد، وعكرمة، ومنصور، وابن زيد، والكلبي، ومقاتل، وبه قال الطبري.
عن ابن مسعود:"{كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ} قال: كما يئس هذا الكافر إذا مات وعاين ثوابه واطلع عليه".
قال مجاهد:"يقول: كما يئس من مات منهم من ثواب الآخرة، ومن رحمة الله حين بين لهم أعمالهم الخبيثة".
قال عكرمة:"أصحاب القبور قد يئسوا من الآخرة".
قال منصور:"قد يئسوا أن يكون لهم ثواب الآخرة، كما يئس من في القبور من الكفار من الخير، حين عاينوا العذاب والهوان".
قال ابن زيد:"قد يئس هؤلاء الكفار من أن تكون لهم آخرة، كما يئس الكفار الذين ماتوا الذين في القبور من أن تكون لهم آخرة، لما عاينوا من أمر الآخرة، فكما يئس أولئك الكفار، كذلك يئس هؤلاء الكفار؛ قال: والقوم الذين غضب الله عليهم، يهودهم الذين يئسوا من أن تكون لهم آخرة، كما يئس الكفار قبلهم من أصحاب القبور، لأنهم قد علموا كتاب الله وأقاموا على الكفر به، وما صنعوا وقد علموا".
قال النحاس:"فمن أحسن ما قيل فيه-وهو معنى قول ابن زيد-: وقد يئسوا من ثوب الآخرة، لأنهم كفروا بالنبيّ ﷺ وجحدوا صفته، وهي مكتوبة عندهم، وقد وقفوا عليها، كما يئس الكفار الذين قد ماتوا من ثواب الآخرة أيضا، لأنهم قد كفروا وجحدوا لكفر هؤلاء".
قال ابن كثير:"يعني: اليهود والنصارى وسائر الكفار، ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد".
الثاني: قد يئسوا من ثواب الآخرة كما يئس الكفار من بعث من في القبور، قاله ابن عباس.

=

=

قال الزجاج:"أيْ: كما يئس الكفارُ الذين لاَ يوقنون بالبعث من موتاهم أن يُبْعَثُوا، فقد يئس اليهود والذين عاقدوا النبي ﷺ من أن يكون لهم في الآخرة حظ".

قال ابن الجوزي:"وذلك أن اليهود بتكذيبهم محمداً، وهم يعرفون صدقه قد يئسوا من أن يكون لهم في الآخرة خير، والمعنى: قد يئسوا من ثواب الآخرة، هذا قول الجمهور، وهو الصحيح".

قال الشوكاني:"أي: أنهم لا يوقنون بالآخرة ألبتة بسبب كفرهم، كيأسهم من بعث موتاهم لاعتقادهم عدم البعث".

قال ابن عباس:"يعني: من مات من الذين كفروا، فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم، أو يبعثهم الله".

قال قتادة:"يقول: يئسوا أن يُبعثوا كما يئس الكفار أن ترجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا".

قال قتادة:"الكافر لا يرجو لقاء ميته ولا أجره".

قال الضحاك:"يقول من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء منهم أن يرجعوا إليهم، أو يبعثهم الله".

عن منصور بن زاذان، عن الحسن البصري أنه قال في هذه الآية: {قَدْ يَئِسُوا مِنَ الآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ}، قال: "الكفار الأحياء قد يئسوا من الأموات".

قال القشيري:"قد يئسوا من الآخرة كما يئس أصحاب القبور أن يعودوا إلى الدنيا ويبعثوا".

قال السمعاني:"فعلى القول الأول المراد من «الكفار»: هم الكفار الذين ماتوا، وعلى القول الثاني المراد من «الكفار»: هم الأحياء منهم".

قال الطبري:"الصواب قول من قال: قد يئس هؤلاء الذين غضب الله عليهم من

=

=

اليهود من ثواب الله لهم في الآخرة، وكرامته لكفرهم وتكذيبهم رسوله محمدًا ﷺ على علم منهم بأنه لله نبيّ، كما يئس الكفار منهم الذين مضوا قبلهم فهلكوا، فصاروا أصحاب القبور، وهم على مثل الذي هؤلاء عليه من تكذيبهم عيسى؛ صلوات الله عليه وغيره من الرسل، من ثواب الله وكرامته إياهم، وإنما قلنا: ذلك أولى القولين بتأويل الآية، لأن الأموات قد يئسوا من رجوعهم إلى الدنيا، أو أن يُبعثوا قبل قيام الساعة المؤمنون والكفار، فلا وجه لأن يخصّ بذلك الخبر عن الكفار، وقد شركهم في الإياس من ذلك المؤمنون".

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ) (الممتحنة: ٤) وبعد هذا: (قَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ) (الممتحنة: ٦)، فيسأل عن موجب إعادة قوله: " لقد كان لكم يهم أسوة حسنة "؟ وعن متعلق كل واحدة من الآيتين هل كان يصلح ورود كل واحدة منها مكان الأخرى؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أنه تعالى لما أمر المؤمنين ألا يتخذوا أعداءه وأعداءهم أولياء بإلقاء أسباب المودة والنصيحة لهم، وسبب نزول هذه السورة قصة حاطب بن أبي بلتعة، رَحِمَهُ اللَّهُ، في كتابة إلى أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلي الله عليه وسلم وما يريده فيهم، ودفعة ذلك إلى ظعينة، ونزول الوحي بذلك، فبعث رسول الله صلي الله عليه وسلم علياً والمقداد وأمرهما أن يأتيا روضة حاج، وقال لهما: إن بها ظعينة معها كتاب إلى أهل مكة، فذهب علي والمقداد وأمرهما أن يأتيا روضة حاج، وقال لهما: إن بها ظعينة معها كتاب إلى أهل مكة، فذهب علي والمقداد، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فوجدا الظعينة كما أخبرهما صلي الله عليه وسلم. وأنكرت الكتاب، فاشتد عليها علي، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال: لتخرجن الكتاب او لتلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتي به علي، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رسول الله صلي الله

=

سورة الصف(١)

=

عليه وسلم فإذا الكتاب من حاطب، فدعاه رسول الله صلي الله عليه وسلم، وتبرأ حاطب من أن يكون فعل ذلك نفاقـًا، واعتذر بما قبله منه رسول الله صلي الله عليه وسلم، فنزل القرآن بتصديقه في اعتذاره فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ) (الممتحنة: ١)، فأمر تعالى بالتبري منهم وذكر كفرهم بما جاء المؤمنين (من الحق) وإخراجهم الرسول والمؤمنين من مكة من أجل إيمانهم، وتوعد فاعل ذلك فأخبر أنه قد ضل سواء السبيل، وقبل تعالى توبة حاطب، وأمر بالاقتداء إبراهيم، عليه السلام، يحن تبرأ هو ومن معه من المؤمنين من قولهم إلا ما كان من موعدة إبراهيم لأبيه بالاستغفار إلى أن تبين له أنه عدو الله تبرأ منه، فقال تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ) (الممتحنة: ٤). فلما أوضح تعالى من ذلك ما فيه شفاء المؤمنين اتبعه تعالى بالقسم المؤكد لذلك فقال: (قَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) (الممتحنة: ٦)، ودلت اللام الموطئة للقسم في " لقد كان " على تأكيد ما تقدمه من الأمر بالاقتداء والتأسي بإبراهيم، عليه السلام، ومن كان معه فقال تعالى " لقد كان لكم فيهم " (أي المذكورين) أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، ثم قال: " ومن يتول" أي عن الاقتداء والتأسي بمن أرشد سبحانه إلى التأسي به فيما ذكر: (فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) (الممتحنة: ٦)، فالأولى تنبيه وإرشاد، والثانية تأكيد، وسبب كل آية منهما الذي به اتصالها وتعلقها بين، ولا يلائم كل واحدة ولا يناسبها غير موضعها، والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٧٢-٤٧٣).

(١) السّورة مكّيّة قاله مكي عن ابن عباس، والمهدوي عن عطاء ومجاهد، وحكاه ابن الجوزي عن ابن يسار.

=

=

وقيل: مدنيّة، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، وهو قول الجمهور.

قال ابن عطية: القول" كونها مدنية أصح، لأن معاني السورة تعضده ويشبه أن يكون فيها المكي والمدني".

قال ابن الجوزي:"هي مدنيّة كلّها بإجماعهم".

قال ابن عاشور:"هي مدنية عند الجمهور كما يشهد لذلك حديث عبد الله بن سلام".

* آياتها أَربع عشرة. وكلماتها مائتان وإِحدى وعشرون. وحروفها تسعمائة. مجموع فواصل آياتها (صمن). وعلى الصّاد آية واحدة: مرصوص.

* أسماء السورة:

اشتهرت هذه السورة باسم «سورة الصف» وكذلك سميت في عصر الصحابة. وبذلك عنونت في «صحيح البخاري»، وفي «جامع الترمذي»، وكذلك كتب اسمها في المصاحف وفي كتب التفسير، ووجه التسمية وقوع لفظ {صَفًّا} [الصف: ٤] فيها، وهو صف القتال، فالتعريف باللام تعريف العهد.

وتسمى: «سورة الحواريين» ذكر السيوطي في «الإتقان»: أنها تسمى «سورة الحواريين» ولم يسنده، فتسميتها «سورة الحواريين» لذكر الحواريين فيها. ولعلها أول سورة نزلت ذكر فيها لفظ الحواريين.

وقال الآلوسي: تسمى «سورة عيسى»، ولم أقف على نسبته لقائل. وأصله للطبرسي فلعله أخذ من حديث رواه في فضلها عن أبي بن كعب بلفظ: «من قرأ سورة عيسى (عليه السلام) كان عيسى مصليا عليه مستغفرا له مادام في الدنيا وهو يوم القيامة رفيقه». وهو حديث موسوم بأنه موضوع. والطبرسي يكثر من تخريج الأحاديث الموضوعة.

=

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١).

{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْض} أَيْ نَزَّهَهُ فَاللَّام مَزِيدَة وَجِيءَ بِمَا دُون مِنْ تَغْلِيبًا لِلْأَكْثَرِ {وَهُوَ الْعَزِيز} فِي مُلْكه {الْحَكِيم} فِي صُنْعه.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢).

=

وإذا ثبت تسميتها «سورة عيسى» فلما فيها من ذكر عيسى [الصف: ٦ و ١٤] مرتين.

* معظم مقصود السّورة: عتاب الذين يقولون أقوالاً لا يعملون بمقتضاها، وتشريف صفوف الغُزَاة والمصلّين، والتَّنبيهُ على جفاءِ بنى إسرائيل، وإظهار دِين المصطفى على سائر الأديان، وبيان التجارة الرّابحة مع الرّحيم الرحمن، والبشارة بنصر أهل الإيمان، على أهل الكفر والخِذلان، وغلبة بنى إسرائيل على أعدائهم ذوى العُدْوان، فى قوله {فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}.

* المتشابهات: قوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افترى عَلَى الله الكذب} بالألف واللام، وفى غيرها {افترى عَلَى الله كَذِبًا} بالنكرة [لأَنها أكثر استعمالا مع المصدر من المعرفة، وخصّت هذه السورة بالمعرفة لأنه] إشارة إلى ما تقدّم من قول اليهود والنَّصارى.

قوله: {لِيُطْفِئُوا} باللام؛ لأن المفعول محذوف. وقيل: اللام زيادة. وقيل: محمول على المصدر.

قوله: {يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ} جزْم على جواب الأَمر؛ فإن قوله: {تُؤْمِنُوْنَ} محمول على الأَمر أَى آمِنوا وليس بعده: (من) ولا (خالدين).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ} فِي طَلَب الْجِهَاد {مَا لَا تَفْعَلُونَ} إذْ انْهَزَمْتُمْ بأحد

كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣).

{كَبُرَ} عَظُمَ {مَقْتًا} تَمْيِيز {عِنْد الله أَنْ تقولوا} فاعل كبر {ما لا تفعلون}.

إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤).

{إنَّ الله يُحِبّ} يَنْصُر وَيُكْرِم {الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيله صَفًّا} حَال أَيْ صَافِّينَ {كَأَنَّهُمْ بُنْيَان مَرْصُوص} مُلْزَق بَعْضه إلَى بَعْض ثَابِت[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه؛ قال: قعدنا نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا؛ فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله؛ لعملناه؛ فأنزل الله تعالى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤)}؛ قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال أبو سلمة: فقرأها علينا ابن سلام، قال يحيى بن أبي كثير: فقرأها علينا أبو سلمة، قال الأوزاعي: فقرأها علينا ابن كثير.

أخرجه الدارمي (١٣٩٥)، والترمذي (٣٣٠٩)، وأبو يعلى (٧٤٩٩)، وابن حبان (٤٥٩٤)، وابن أبي عاصم في الجهاد (١٤١)، والحاكم (٢/ ٦٩) والبيهقي في الشعب (٨/ ١٣٧)، وفي الكبرى (٩/ ١٥٩) عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: (قعدنا نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكرنا؛ فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله؛ لعملناه؛ فأنزل الله تعالى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ...}) وغيرهم كثير، والحديث صححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال الحافظ في الفتح (٨/ ٦٤١): إسناده صحيح قل أن وقع في المسلسلات مثله مع مزيد علوه، وكذا قال تلميذه =

=

السخاوي في الجواهر المكللة (رقم ٣٤)، وصححه ابن فهد في ثبت عابد السندي (ق ٣٥٢ -٣٥٣)، وصححه ابن الطيب في مسلسلاته (ق ٢٠/ ب)، وصححه ابن عقيله في مسلسلاته (ق ١٤،١٥)، وصححه صاحب المنح البادية (ق ٤٥/ أ)، وحسنه ابن الجزري في طيبة النشر (١/ ١٩٤ -١٩٥)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الترمذي، وصححه الشيخ مقبل في الصحيح المسند (٥٧٤)، وصححه العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٤/ ٤٣٥)، وانظر الإستيعاب في بيان الأسباب (٣/ ٣٩٩-٤٠١).

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤)}؛ قال: كان قوم يقولون: والله لو أنا نعلم ما أحب الأعمال إلى الله؛ لعملناه؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ علي نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤)}؛ فدلهم على أحب الأعمال إليه.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٥٥)، وعبد بن حميد وابن مردويه في "تفسيريهما"؛ كما في "الدر المنثور" (٨/ ١٤٦). وسنده ضعيف جداً؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وعن أبي صالح السمان؛ قال: قالوا: لو كنا نعلم أي الأعمال أحب إلى الله وأفضل؛ فنزلت: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٥٥): ثنا ابن حميد ثنا مهران عن الثوري

=

=

عن محمد بن وسنده ضعيف جداً؛ فيه علل:

الأولى: ابن حميد؛ ضعيف متهم بالكذب.

الثانية: مهران؛ صدوق له أوهام، سيئ الحفظ.

الثالثة: الإرسال.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٤٦) وزاد نسبته لعبد بن حميد وابن المنذر.

وأخرجه ابن أبي حاتم؛ كما في "لباب النقول" (ص ٢١٢) من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس بنحوه. وسنده حسن.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قالوا: لو كنا نعلم أي الأعمال أحب إلى الله؟ فنزلت: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٤٦) ونسبه لابن مردويه.

وعن مجاهد في قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤)} نزلت في نفر من الأنصار؛ فيهم: عبد الله بن رواحة، قالوا في مجلس: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله؛ لعملنا بها حتى نموت؛ فأنزل الله تعاليهذا فيهم، فقال عبد الله بن رواحة: لا أزال حبيساً في سبيل الله حتى أموت، فقتل شهيداً.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٥٥) من طريقين عن ابن أبي نجيح عن مجاهد به.

وهذا مرسل صحيح الإسناد.

=

=

وعن الضحاك في قوله تعالى: {لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ}: أنزل الله هذا في الرجل يقول في القتال ما لم يفعله من الضرب والطعن والقتل، قال الله ﷻ: {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٥٦). وسنده ضعيف جداً.

وعن مقاتل؛ قال: قال المؤمنون: لو نعلم أحب الأعمال إلى الله؛ لعملناه؛ فدلهم على أحب الأعمال إليه، فقال: {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤)}؛ فبين لهم، فابتلوا يوم أُحد بذلك؛ فولوا عن النبي ﷺ مدبرين؛ فأنزل الله في ذلك: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٤٦)، و"لباب النقول" (ص ٢١٣) ونسبه لابن أبي حاتم.

وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان رسول الله ﷺ يبعث السرية، فهذا رجعوا؛ كانوا يزيدون في الفعل، ويقولون: قاتلنا كذا وكذا وفعلنا كذا؛ فأنزل الله تعاليالآية.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٤٧) ونسبه لابن مردويه.

* افتتحت سورة «الصف» -كما افتتحت قبلها سورة الحديد والحشر بتنزيه الله تعاليعن كل ما لا يليق به.

أى: نزه الله تعاليوقدسه عن كل ما لا يليق به جميع ما في السموات وجميع ما في الأرض من مخلوقات، وهو-ﷻ الْعَزِيزُ الذي لا يغلبه غالب الْحَكِيمُ في كل أقواله وأفعاله.

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ} السبع {وَمَا فِي

=

=

الأرْضِ} من الخلق، مُذعنين له بالألوهة والربوبية".

قال مقاتل:"يعني: ذكر الله {مَا فِي السَّماواتِ} من الملائكة، {وَما فِي الْأَرْضِ} من شيء من الخلق غير كفار الجن والإنس".

قال النحاس:"{سَبَّحَ}: عظم ورفع. مشتق من: السباحة، وهي الارتفاع، والتقدير: ما في السموات وما في الأرض".

قوله تعالى: {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الصف: ١]، أي:"وهو العزيز الذي لا يغالَب، الحكيم في أقواله وأفعاله".

قال الطبري:"{وَهُوَ الْعَزِيزُ} في نقمته ممن عصاه منهم، فكفر به، وخالف أمره {الْحَكِيمُ} في تدبيره إياهم".

ثم وجه-سبحانه-نداء إلى المؤمنين فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ.

وقد ذكروا في سبب نزول هذه الآيات روايات منها: ما روى عن أبي سلمة، عن عبد الله بن سلام قال: "تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله ﷺ فيسأله: أي الأعمال أحب إلى الله؟ فلم يقم أحد منا، " فأرسل إلينا رسول الله ﷺ رجلا فجمعنا، فقرأ علينا هذه السورة، يعني: سورة الصف كلها".

وقال قتادة والضحاك: نزلت توبيخا لقوم كانوا يقولون: قتلنا، ضربنا، طعنّا، وفعلنا، ولم يكونوا فعلوا ذلك .

والاستفهام في قوله تعالى: لِمَ تَقُولُونَ للإنكار والتوبيخ على أن يقول الإنسان قولا لا يؤيده فعله، لأن هذا القول إما أن يكون كذبا، وإما أن يكون خلفا للوعد، وكلاهما يبغضه الله تعالى.

ولِمَ مركبة من اللام الجارة، وما الاستفهامية، وحذفت ألف ما الاستفهامية مع حرف الجر، تخفيفا لكثرة استعمالها معا، كما في قولهم: بم، وفيم، وعمّ.

=

=

أى: يا من آمنتم بالله واليوم الآخر..لماذا تقولون قولا، تخالفه أفعالكم، بأن تزعموا بأنكم لو كلفتم بكذا لفعلتموه، فلما كلفتم به قصرتم فيه، أو أن تقولوا بأنكم فعلتم كذا وكذا، مع أنكم لم تفعلوا ذلك.

وناداهم بصفة الإيمان الحق، لتحريك حرارة الإيمان في قلوبهم، وللتعريض بهم، إذ من شأن الإيمان الحق أن يحمل المؤمن على أن يكون قوله مطابقا لفعله.

قال الطبري:"وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية قول من قال: عنى بها الذين قالوا: لو عرفنا أحبّ الأعمال إلى الله لعملنا به، ثم قصروا في العمل بعد ما عرفوا. وإنما قلنا: هذا القول أولى بها، لأن الله جلّ ثناؤه خاطب بها المؤمنين، فقال: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} ولو كانت نزلت في المنافقين لم يسمْوا، ولم يوصفوا بالإيمان، ولو كانوا وصفوا أنفسهم بفعل ما لم يكونوا فعلوه، كانوا قد تعمدوا قيل الكذب، ولم يكن ذلك صفة القوم، ولكنهم عندي أمَّلوا بقولهم: لو علمنا أحبّ الأعمال إلى الله عملناه أنهم لو علموا بذلك عملوه؛ فلما علموا ضعفت قوى قوم منهم، عن القيام بما أملوا القيام به قبل العلم، وقوي آخرون فقاموا به، وكان لهم الفضل والشرف".

قال الماوردي:"وهذه الآية وإن كان ظاهرها الإنكار لمن قال ما لا يفعل فالمراد بها الإنكار لمن لم يفعل ما قال، لأن المقصود بها القيام بحقوق الالتيام دون إسقاطه".

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الصف: ٢]، أي:"يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين آمنوا صدّقوا الله ورسوله".

قوله تعالى: {لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: ٢]، أي:"لِمَ تَعِدون وعدًا، أو تقولون قولا ولا تفون به؟!".

=

=

قال الطبري: يقول:"لم تقولون القول الذي لا تصدّقونه بالعمل، فأعمالكم مخالفة أقوالكم".

قال السعدي:"أي: لم تقولون الخير وتحثون عليه، وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه، وتنهون عن الشر وربما نزهتم أنفسكم عنه، وأنتم متلوثون به ومتصفون به.

فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟ أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟ ولهذا ينبغي للآمر بالخير أن يكون أول الناس إليه مبادرة، وللناهي عن الشر أن يكون أبعد الناس منه، قال تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة: ٤٤]، وقال شعيب -عليه الصلاة والسلام-لقومه: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ} [هود: ٨٨]".

قال ابن كثير:"قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ} ؟ إنكار على من يَعد عدَةً، أو يقول قولا لا يفي به، ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقا، سواء ترتب عليه غُرم للموعود أم لا. واحتجوا أيضا من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حَدَّث كذب، إذا وَعَد أخلف، وإذا اؤتمن خان» وفي الحديث الآخر في الصحيح: «أربع من كن فيه كان منافقا خالصًا، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خَصْلَة من نفاق حتى يَدَعها» -فذكر منهن إخلاف الوعد".

روي عن أبي حرب بن أبي الأسود الديلي عن أبيه قال: "بعث أبو موسى إلى قراء أهل البصرة، فدخل عليه منهم ثلاثمائة رجل، كلهم قد قرأ القرآن، فقال. أنتم قراء أهل البصرة وخيارهم. وقال: كنا نقرأ سورة كنا

نشبهها بإحدى المسبحات، فأنسيناها، غير أني قد حفظت منها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

=

=

آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ} فتكتب شهادة في أعناقكم، فتسألون عنها يوم القيامة".

وقوله-سبحانه-: (كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ) بيان للآثار السيئة التي تترتب على القول الذي يخالفه الفعل.

وقوله: كَبُرَ بمعنى عظم، لأن الشيء الكبير، لا يوصف بهذا الوصف، إلا إذا كان فيه كثرة وشدة في نوعه.

والمقت: البغض الشديد، ومنه قوله تعاليوَلا تَنْكِحُوا ما نَكَحَ آباؤُكُمْ مِنَ النِّساءِ إِلَّا ما قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كانَ فاحِشَةً وَمَقْتاً وَساءَ سَبِيلًا، وهو منصوب على التمييز المحول عن الفاعل: للإشعار بأن قولهم هذا مقت خالص لا تشوبه شائبة من الرضا.

أي: كبر وعظم المقت الناشئ عن قولكم قولا لا تطابقه أفعالكم.

وقال-سبحانه-: كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ للإشعار بشناعة هذا البغض من الله تعالى- لهم، بسبب مخالفة قولهم لفعلهم، لأنه إذا كانت هذه الصفة عظيمة الشناعة عند الله، فعلى كل عاقل أن يجتنبها، ويبتعد عنها.

قال صاحب الكشاف ما ملخصه: ونداؤهم بالإيمان تهكم بهم وبإيمانهم وهذا من أفصح الكلام وأبلغه في معناه. وقصد في «كبر» التعجب من غير لفظه ... ومعنى التعجب: تعظيم الأمر في قلوب السامعين، لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله وأسند إلى أَنْ تَقُولُوا ونصب مَقْتاً على التمييز، للدلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه، لفرط تمكن المقت منه. واختير لفظ المقت، لأنه أشد البغض وأبلغه، ومنه قيل: نكاح المقت-وهو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه-.

وإذا ثبت كبر مقته عند الله، فقد تم كبره وشدته، وانزاحت عنه الشكوك.. .

قال الطبري: " يقول: عظم مقتًا عند ربكم قولكم ما لا تفعلون".

=

=

قال سهل:"إن الله هدد عباده على دعواهم من غير تحقيق، والدعوى أن يلزمه اليوم حق من حقوق الله براءة وتوبة من كل ذنب ارتكبه، فيقول غداً أعمل، وما من أحد ادعى إلا وقد ضيع حق الله من وجهين، ظاهر وباطن، ولا يكون المدعي خائفـًا، ومن لم يكن خائفـًا لم يكن آمنـًا، ومن لم يكن آمنـًا لم يكن يطلع على الجزاء. وقال: طلاب الآخرة كثيرة، والذي يتولى الله كفايته عبدان، عبد ساذج غير أنه صادق في طلبه، متوكل على الله، فيصدقه فيكفيه مولاه، ويتولى جميع أموره وعبد عالم بالله وبأيامه وأمره ونهيه، كفاه الله كل شيء من هذه الدنيا، فإذا صار إلى الآخرة ما سوى هذين لا يعبأ الله بهم، لأنهم يدعون ما ليس لهم".

وقال ابن عيينة في هذه الآية: "لم تقولون ما ليس الأمر فيه لكم، لا تدرون تفعلون ذلك أم لا تفعلون".

عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: "أتانا رسول الله ﷺ في بيتنا وأنا صبي قال: فذهبت لأخرج لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله: تعال أعطك. فقال لها رسول الله ﷺ: "وما أردت أن تُعطِيه؟ ". قالت: تمرا. فقال: "أما إنك لو لم تفعلي كُتِبت عليك كِذْبة".

قال ابن كثير:"ذهب الإمام مالك، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إلى أنه إذا تعلق بالوعد غُرم على الموعود وجب الوفاء به، كما لو قال لغيره: "تزوج ولك علي كل يوم كذا". فتزوجَ، وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك، لأنه تعلق به حق آدمي، وهو مبني على المضايقة. وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقا، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فَرضِيَّة الجهاد عليهم، فلما فرض نكل عنه بعضهم، كقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ

=

=

اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ} [النساء: ٧٧، ٧٨]. وقال تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نزلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ} الآية [محمد: ٢٠] وهكذا هذه الآية معناها".

وبعد أن وبخ-سبحانه-الذين يقولون ما لا يفعلون، أتبع ذلك ببيان من يحبهم الله تعاليفقال: (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ).

والصف يطلق على الأشياء التي تكون منتظمة في مظهرها، متناسقة في أماكنها، والمرصوص: هو المتلاصق الذي انضم بعضه إلى بعض. يقال: رصصت البناء، إذا ألزقت بعضه ببعض حتى صار كالقطعة الواحدة.

والمعنى: أن الله تعاليبحب الذين يقاتلون في سبيل إعلاء دينه قتالا شديدا، حتى لكأنهم في ثباتهم، واجتماع كلمتهم، وصدق يقينهم.. بنيان قد التصق بعضه ببعض، فلا يستطيع أحد أن ينفذ من بين صفوفه.

فالمقصود بالآية الكريمة: الثناء على المجاهدين الصادقين، الذين يثبتون أمام الأعداء وهم يقاتلونهم، ثباتا لا اضطراب معه ولا تزلزل.

قال الإمام الرازي: أخبر الله تعاليأنه يحب من يثبت في الجهاد، ويلزم مكانه، كثبوت البناء المرصوص.

ويجوز أن يكون على أن يستوي أمرهم في حرب عدوهم، حتى يكونوا في اجتماع الكلمة، وموالاة بعضهم بعضا، كالبنيان المرصوص.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره للقائلين: لو علمنا أحبّ الأعمال إلى الله لعملناه حتى نموت: {إِنَّ اللهَ} أيها القوم {يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ} كأنهم، يعني في طريقه ودينه الذي دعا إليه {صَفًّا} يعني بذلك: أنهم يقاتلون أعداء الله مصطفين".

قال مقاتل:"وذلك أن المؤمنين قالوا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه،

=

=

فأنزل الله تعالى {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ}، يعني: في طاعته {صَفًّا}".

قال ابن كثير:"إخبار منه تعالى بمحبة عباده المؤمنين إذا اصطفوا مواجهين لأعداء الله في حومة الوغى، يقاتلون في سبيل الله مَن كفر بالله، لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان".

قوله تعالى: {كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} [الصف: ٤]، أي:"كأنهم في تراصِّهم وثبوتهم في المعركة، بناءٌ قد رُصَّ بعضه ببعض، وأُلصق وأُحكم حتى صار شيئًا واحدا".

قال الطبري:"يقول: يقاتلون في سبيل الله صفًّا مصطفًّا، كأنهم في اصطفافهم هنالك حيطان مبنية قد رصّ، فأحكم وأتقن، فلا يغادر منه شيئًا، وكان بعضهم يقول: بني بالرصاص".

قال الزجاج:"أي: بنيان لاصق بعضُه ببَعْض لا يغادر بَعْضُه بَعْضاً. فأعلم الله -ﷻ- أنه يحب من يثبت في الجهاد في سبيله ويلزم مَكَانَهُ كَثُبُوتِ البناء المرْصُوصِ. ويجوز -والله أعلم -أن يكون عني أن تستوي نِياتُهُمْ في حَرْبِ عَدُوهِمْ حتى يكونوا في اجتماع الكلمةِ ومُوَالَاةِ بعضهم بعضاً كالبنيانِ المرصوص".

عن ابن عباس في قوله: {كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ}، قال: "مثبت لا يزول ملصق بعضه ببعض".

قال سعيد بن جبير:"كان رسول الله ﷺ لا يقاتل العدو إلا أن يصافهم، وهذا تعليم من الله للمؤمنين. قال: وقوله: {كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ} ملتصق بعضه في بعض، من الصف في القتال".

وقال مقاتل بن حيان: "ملتصق بعضه إلى بعض".

عن قتادة في الآية، قال:"ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحبّ أن يختلف بنيانه،

=

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥).

=

كذلك تبارك وتعالى لا يختلف أمره، وإن الله وصف المؤمنين في قتالهم وصفهم في صلاتهم، فعليكم بأمر الله فإنه عصمة لمن أخذ به".

قال ابن زيد:"والذين صدّقوا قولهم بأعمالهم هؤلاء؛ قال: وهؤلاء لم يصدّقوا قولهم بالأعمال لما خرج النبيّ ﷺ نكصوا عنه وتخلفوا".

عن أَبي بحرية، قال: "كانوا يكرهون القتال على الخيل، ويستحبون القتال على الأرض، لقول الله: {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ}، قال: وكان أَبو بحرية يقول: إذا رأيتموني التفتّ في الصف، فجئوا في لحيي".

عن مُغيرة بن حبيب، قال: سألتُ سالم [بن عبد الله بن عمر] عن المبارزة؟ فأكبَّ هُنَيْهة، ثم رفع رأسه، فقال: {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ}".

عن عبد الملك ابن جُرَيْج، قال: "قلت له [أي: عطاء بن أبي رباح]: أيُكره أن يمشي الإنسانُ يخرق الصَّفوف بعد ما يكبّر الإمام؟ قال: لا، إلا أن يمشي بين يدي أحد. ثم قال بعد: إنْ خَرَق الصَّفوف إلى فُرجة فقد أحسن، وحُقَّ على الناس أن يَدْحَسُوا الصَّفوف حتى لا يكون بينهم فُرَج. ثم قال: {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ}، فالصلاة أحَقُّ أن يكون فيها ذلك".

(تنبيه): قول المصنف ({إِنَّ الله يُحِبّ} أي: يَنْصُر وَيُكْرِم) تأويل لصفة المحبة بلوازمها وهو على خلاف مذهب أهل الحق أهل السنة والجماعة،وقد تقدم بيان الحق في ذلك تحت الآية رقم (١٤٦) من سورة آل عمران.

{وَ} اُذْكُرْ {إذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْم لِـمَ تُـؤْذُونَنِي} قَـالُوا إنَّـهُ آدَر أَيْ مُنْتَفِخ الْخُصْيَة وَلَيْسَ كَذَلِكَ وَكَذَّبُوهُ {وَقَدْ} لِلتَّحْقِيقِ {تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُـول الله إلَـيْكُمْ} الْجُمْلَة حَال وَالرَّسُول يُحْتَرَم {فَلَمَّا زَاغُـوا} عَـدَلُوا عَـنْ الْحَـقّ بِإِيذَائِهِ {أَزَاغَ الله قُلُوبهمْ} أَمَالَهَا عَـنْ الْهُـدَى عَلَـى وَفْـق مَـا قَـدَّرَهُ فِـي الْأَزَل {وَالله لَا يَهْـدِي الْقَـوْم الْفَاسِقِينَ} الْكَافِرِينَ فِي عِلْمه[1].

---

(١) واذكر لقومك -أيها الرسول-حين قال نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: لِـمَ تـؤذونني بالقول والفعل، وأنتم تعلمون أني رسول الله إليكم؟ فلما عدلوا عن الحق مع علمهم به، وأصرُّوا على ذلك، صرف الله قلوبهم عن قَبول الهداية؛ عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم. والله لا يهدي القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق.

قال ابن كثير: وفي هذا تسلية لرسوله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر، ولهذا قال: «رحمة الله على موسى، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر».

وفيه نهى للمؤمنين عن أن ينالوا من النبي ﷺ، أو يوصلوا إليه أذى، كما قال تعالىيا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُـوا كَالَّـذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَـرَّأَهُ اللهُ مِمَّـا قـالُوا، وَكـانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهـاً .

أى: واذكر-أيها الرسول الكريم-وذكر أتباعك ليتعظوا ويعتبروا، وقت أن قال موسى-عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه على سبيل الإنكار والتعجيب من حالهم.

يا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي: قال لهم: يا أهلى ويا عشيرتي لماذا تلحقون الأذى بي ؟.

«وقد» في قوله تعالى: وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ للتحقيق، والجملة حالية، وجيء بالمضارع بعد «قد» للدلالة على أن علمهم بصدقه متجدد بتجدد ما يأتيهم به من آيات ومعجزات.

=

=

قال الجمل: قوله: وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ قد للتحقيق. أى: تحقيق علمهم. أى: لا للتقريب ولا للتقليل، وفائدة ذكرها التأكيد، والمضارع بمعنى الماضي.

أى: وقد علمتم، وعبر بالمضارع ليدل على استصحاب الحال، وعلى أنها مقررة للإنكار.

فإن العلم برسالته يوجب تعظيمه، ويمنع إيذاءه لأن من عرف الله تعاليوعظمته، عظّم رسوله.

ثم بين-سبحانه-ما ترتب على إيثارهم الغي على الهدى، فقال: (فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ).

والزيغ: هو الميل عن طريق الحق، يقال: زاغ يزيغ زيغا وزيغانا، إذا مال عن الجادة، وأزاغ فلان فلانا، إذا حوله عن طريق الخير إلى طريق الشر.

أى: فلما أصروا على الميل عن الحق مع علمهم به. واستمروا على ذلك دون أن تؤثر المواعظ في قلوبهم ... أمال الله تعاليقلوبهم عن قبول الهدى. لإيثارهم الباطل على الحق، والضلالة على الهداية.

كما قال تعالى: وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى، وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً .

وقوله-سبحانه-: وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ تذييل قصد به التقرير لما قبله، من أن الزيغ يؤدى إلى عدم الهداية، وبيان سنة من سنن الله في خلقه، وهي أن من استحب العمى على الهدى، وأصر على ذلك.. كانت عاقبته الخسران.

أى: وقد اقتضت حكمة الله تعاليأن لا يهدى القوم الخارجين عن طريق الحق، إلى ما يسعدهم في حياتهم وبعد مماتهم، لأنهم هم الذين اختاروا طريق الشقاء، وأصروا على سلوكها.

=

=

قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي} [الصف: ٥]، أي:"واذكر لقومك -أيها الرسول-حين قال نبي الله موسى عليه السلام لقومه: لِمَ تؤذونني بالقول والفعل".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واذكر يا محمد {إِذْ قَالَ مُوسَى} بن عمران {لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي}..".

قال الزمخشري: " كانوا يؤذونه بأنواع الأذى من انتقاصه وعيبه في نفسه، وجحود آياته، وعصيانه فيما تعود إليهم منافعه، وعبادتهم البقر، وطلبهم رؤية الله جهرة، والتكذيب الذي هو تضييع حق الله وحقه".

قال الكلبي:"كان إيذاؤهم له أنهم رموه بالأدرة.

قوله تعالى: {وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ} [الصف: ٥]، أي:"والحال أنكم تعلمون علماً قطعياً بما شاهدتموه من المعجزات الباهرة أني رسولُ اللهِ إليكم، وتعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة؟".

قال الطبري: يقول:"{وَقَدْ تَعْلَمُونَ} حقًا {أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم}".

قال ابن كثير:"أي: لم توصلون الأذى إليّ وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة؟. وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصاب من الكفار من قومه وغيرهم، وأمر له بالصبر؛ ولهذا قال: «رحمة الله على موسى: لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر»، وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ

وسلم أو يُوَصّلوا إليه أذى، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا} [الأحزاب: ٦٩]".

قال الزمخشري: " {وَقَدْ تَعْلَمُونَ}، في موضع الحال، أي: تؤذوننى عالمين علما يقينا {أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ}، وقضية علمكم بذلك وموجبه تعظيمي وتوقيري، لا أن تؤذوني وتستهينوا بي، لأن من عرف الله وعظمته عظم رسوله، علما بأن تعظيمه

=

=

في تعظيم رسوله، ولأن من آذاه كان وعيد الله لا حقا به".

قوله تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ} [الصف: ٥]، أي:"فلما عدلوا عن الحق مع علمهم به، وأصرُّوا على ذلك، صرف الله قلوبهم عن قَبول الهداية؛ عقوبة لهم على زيغهم الذي اختاروه لأنفسهم".

قال الطبري:"يقول: فلما عدلوا وجاروا عن قصد السبيل أزاغ الله قلوبهم: يقول: أمال الله قلوبهم عنه".

قال الزجاج:"أي: عدَلُوا عنِ الحق وانصرفوا عنه فأضلَّهم الله وَصَرَفَ قُلوبَهُم".

قال ابن كثير:"أي: فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان، كما قال تعالى: {وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الأنعام: ١١٠] وقال {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: ١١٥]".

عن سفيان بن عيينة: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ} أي: "سأمنعهم فهم القرآن".

وقال ابن عباس: عن كل رشد وخير وهدى".

وقال الحسن: طبع عليها بكفرهم".

قال ابن جريج: "يعني: عن خلق السموات والأرض وما فيهما، أي سأصرفهم أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها".

عن أَبي أمامة في قوله: " {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ}، قال: هم الخوارج".

قوله تعالى: {وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [الصف: ٥]، أي:"والله لا يهدي القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق".

قال الطبري:"يقول: والله لا يوفِّق لإصابة الحقّ القوم الذين اختاروا الكفر على الإيمان".

=

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦).

{و} اذكر {إذ قال عيسى بن مَرْيَم يَا بَنِي إِسْرَائِيل} لَمْ يَقُلْ يَا قَوْم لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِمْ قَرَابَة {إِنِّي رَسُول الله إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْن يَدَيَّ} قَبْلِي {مِنْ التَّوْرَاة وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمه أَحْمَد} قَالَ تَعَالَى {فَلَمَّا جَاءَهُمْ} جَاءَ أَحْمَد الْكُفَّار {بِالْبَيِّنَاتِ} الْآيَات وَالْعَلَامَات {قَالُوا هَذَا} أَيْ الْمَجِيء بِهِ {سِحْر} وَفِي قِرَاءَة سَاحِر أَيْ الْجَائِي بِهِ {مُبِين} بَيِّن[1].

=

قال الزجاج:"معناه: لا يهدي من سبق في علمه أَنَّهُ فَاسِقٌ".

(١) أي: واذكر-أيضا-أيها الرسول الكريم-وذكّر الناس ليعتبروا ويتعظوا، وقت أن قال عيسى ابن مريم، مخاطبا من أرسله الله إليهم بقوله: (يا بَنِي إِسْرائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ لكي) أخرجكم من ظلمات الكفر والشرك، إلى نور الإيمان والتوحيد.

ولم يقل لهم يا قوم-كما قال لهم-موسى-عَلَيْهِ السَّلَامُ بل قال: يا بَنِي إِسْرائِيلَ لأنه لا أب له فيهم، وإن كانت أمه منهم، والأنساب إنما تكون من جهة الآباء، لا من جهة الأمهات.

وفي قوله (إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ) إخبار صريح منه لهم، بأنه ليس إلها وليس ابن إله-كما زعموا وإنما هو عبد الله ورسوله.

وقوله مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْراةِ جملة حالية لإثبات حقيقة رسالته، وحضهم على تأييده وتصديقه والإيمان به.

أي: إنى رسول الله تعاليإليكم بالكتاب الذي أنزله الله علىّ وهو الإنجيل، حال
=

=

كوني مصدقا للكتاب الذي أنزله الله تعاليعلى نبيه موسى-عليه السلام وهذا الكتاب هو التوراة، وما دام الأمر كذلك فمن حقي عليكم، أن تؤمنوا به، وأن تتبعوني، لأنى لم آتكم بشيء يخالف التوراة، بل هي مشتملة على ما يدل على صدقى، فكيف تعرضون عن دعوتي.

وقوله: (مُصَدِّقًا لِما بَيْنَ يَدَيَّ) فيه نوع مجاز، لأن ما بين يدي الإنسان هو ما أمامه، فسمى ما مضى كذلك لغاية ظهوره واشتهاره. واللام في «لما» لتقوية العامل، نحوه قوله تعاليفَعَّالٌ لِما يُرِيدُ.

وقوله-سبحانه-: (وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ) معطوف على ما قبله.

والتبشير: الإخبار بما يسر النفس ويبهجها، بحيث يظهر أثر ذلك على بشرة الإنسان، وكان إخباره بأن نبيا سيأتى من بعده اسمه أحمد تبشيرا، لأنه سيأتيهم بما يسعدهم، ويرفع الأغلال عنهم، كما قال تعالى: وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ.

ولفظ أَحْمَدُ اسم من أسماء نبينا ﷺ وهو علم منقول من الصفة، وهذه الصفة يصح أن تكون مبالغة من الفاعل. فيكون معناها: أنه ﷺ أكثر حمدا لله تعاليمن غيره.

ويصح أن تكون من المفعول، فيكون معناها أنه يحمده الناس لأجل ما فيه من خصال الخير، أكثر مما يحمدون غيره.

قال الآلوسى: وهذا الاسم الجليل، علم لنبينا محمد ﷺ وصح من رواية مالك، والبخاري، ومسلم.. عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لي أسماء أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا العاقب» .

=

=

وبشارة عيسى-عليه السلام- بنبينا محمد ﷺ ثابتة ثبوتا قطعيا بهذه الآية الكريمة، وإذا كانت بعض الأناجيل قد خلت من هذه البشارة، فبسبب ما اعتراها من تحريف وتبديل على أيدى علماء أهل الكتاب.

ومع ذلك فقد وجدت هذه البشارة في بعض الأناجيل، كإنجيل يوحنا، في الباب الرابع عشر، قال الإمام الرازي: في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا: وأنا أطلب لكم إلى أبى، حتى يمنحكم ويعطيكم الفارقليط حتى يكون معكم إلى الأبد.

والفارقليط هو روح الحق واليقين .

ومنهم من يرى أن لفظ فارقليط معناه باليونانية: أحمد أو محمد .

ومن أصرح الأدلة على أن صفات الرسول ﷺ موجودة في التوراة والإنجيل، قوله تعاليالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ .

وقوله-سبحانه-: فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْبَيِّناتِ قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ بيان لموقف بنى إسرائيل الجحودى من أنبياء الله تعالى.

والضمير في قوله جاءَهُمْ يرى بعضهم أنه يعود لعيسى، ويرى آخرون أنه يعود لمحمد ﷺ أى: فلما جاء عيسى-عليه السلام- أو محمد ﷺ إلى بنى إسرائيل بالآيات البينات الدالة على صدقه، قالوا على سبيل العناد والجحود: هذا سحر واضح في بابه. لا يخفى على أى ناظر أو متأمل.

ومن المعروف أن بنى إسرائيل قد كذبوا عيسى-عليه السلام- وكفروا به، ونسبوا إلى أمه الطاهرة، ما هي بريئة منه، ومنزهة عنه.

كما كذبوا محمدا ﷺ وكفروا به، وصدق الله إذ يقول: فَلَمَّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكافِرِينَ.

=

ووصفوا ما جاء به بأنه سحر مبين، على سبيل المبالغة فكأنهم يقولون إن ما جاء به هو السحر بعينه، مع أنهم يعرفون أن ما جاء به هو الحق كما يعرفون أبناءهم، ولكن ما جبلوا عليه من جحود وعناد، حال بينهم وبين النطق بكلمة الحق.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: واذكر أيضًا يا محمد {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ} لقومه من بني إسرائيل {يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ}..".

قوله تعالى: {مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ} [الصف: ٦]، أي:"مصدِّقًا لما جاء قبلي من التوراة".

قال الطبري: يقول:"{مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ) التي أنزلت على موسى".

قال ابن كثير:"يعني: التوراة قد بَشَّرَت بي، وأنا مصداقُ ما أخبرت عنه".

قال الزمخشري:"المعنى: أرسلت إليكم في حال تصديقى ما تقدمني مِنَ التَّوْراة".

قوله تعالى: {وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [الصف: ٦]، أي:"وشاهدًا بصدق رسول يأتي من بعدي اسمه «أحمد»، وهو محمد ﷺ، وداعيًا إلى التصديق به".

قال الطبري: يقول:"{وَمُبَشِّرًا} أبشركم {بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}".

قال الزمخشري: أي": وأرسلت إليكم في حال تبشيرى {بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي}، يعنى: أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعا ممن تقدم وتأخر".

قال ابن كثير: أي:"وأنا مُبَشّر بمن بعدي، وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد. فعيسى، عليه السلام، وهو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشرًا بمحمد، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي لا رسالة بعده ولا نبوة.. وقد قال الله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ} [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ

=
لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [آل عمران: ٨١]".

قال السمعاني:"وأما معنى اسمه أحمد على وجهين:

أحدهما: لأنه كان يحمد الله كثيرا.

والثاني: لأن الناس حمدوه في فعاله".

عن أُبيّ بن كعب، أنّ النبيّ ﷺ قال: «أُعطيتُ ما لم يُعطَ أحد من أنبياء الله». قلنا: يا رسول الله، ما هو؟ قال: «نُصرت بالرّعب، وأُعطيتُ مفاتيح الأرض، وسُميت: أحمد، وجُعل لي تراب الأرض طهورًا، وجُعلت أُمّتي خير الأمم».

وعن العرباض بن سارية السلمي، قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: " إني عند الله في أم الكتاب لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بتأويل ذلك، دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى قومه، ورؤيا أمي التي رأت أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، وكذلك ترى أمهات النبيين صلوات الله عليهم".

عن عبد الله بن مسعود قال: "بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحوٌ من ثمانين رجلا منهم: عبد الله بن مسعود، وجعفر، وعبد الله بن عُرْفُطَة وعثمان بن مظعون، وأبو موسى. فأتوا النجاشي، وبعثَت قريش عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد بهدية، فلما دخلا على النجاشي سَجَدا له، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله، ثم قالا له: إن نفرًا من بني عمنا نزلوا أرضك، ورغبوا عنا وعن ملتنا. قال: فأين هم؟ قالا هم في أرضك، فابعث إليهم. فبعث إليهم. فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم. فاتبعوه فسلَّم ولم يسجد، فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك؟ قال: إنا لا نسجد إلا لله ﷻ. قال وما ذاك؟ قال: إن الله بعث إلينا رسوله، فأمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله ﷻ، وأمرنا بالصلاة والزكاة. قال عمرو بن العاص: فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم. قال: ما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه؟ قالوا: نقول كما قال
=

=

الله ﷻ : هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البَتُول، التي لم يمسها بَشَر ولم يَفْرِضْها ولد. قال: فرفع عودًا من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه، ما يساوي هذا. مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم. انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه. وأمَرَ بهدية الآخرَين فردت إليهما، ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدرًا، وزعم أن النبي ﷺ استغفر له حين بلَغه موته".

قال ابن كثير:"وقد رُويت هذه القصةُ عن جعفر وأم سلمة رضي الله عنهما، وموضع ذلك كتاب السيرة. والمقصد أن الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه في كتبها على أممها، وتأمرهم باتباعه ونصره وموازرته إذا بعث. وكان ما اشتهر الأمر في أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم، وكذا على لسان عيسى ابن مريم؛ ولهذا قالوا: "أخبرنا عن بَدْء أمرك" يعني: في الأرض، قال: "دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى ابن مريم، ورؤيا أمي التي رأت" أي: ظهر في أهل مكة أثر ذلك والإرهاص بذكره صلوات الله وسلامه عليه".

قال ابن عباس: ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه العهد: لئن بعث محمد وهو حي ليتبعنه، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه".

قال القشيري:"بشّر كلّ نبيّ قومه بنبيّنا ﷺ، وأفرد الله-سبحانه-عيسى بالذّكر فى هذا الموضع لأنه آخر نبيّ قبل نبيّنا ﷺ: فبيّن بذلك أن البشارة به عمّت جميع الأنبياء واحدا بعد واحد حتى انتهت بعيسى عليه السلام".

قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} [الصف: ٦]، أي:"فلما

=

=

جاءهم محمد ﷺ بالآيات الواضحات، قالوا: هذا الذي جئتنا به سحر بيِّن".

عن ابن جريج:"{فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ}: محمد".

عن ابن إسحاق:"{هذا سحر مبين}، أي: ما ساحر أسحر منك".

قال الطبري:"يقول: فلما جاءهم أحمد بالبينات، وهي الدلالات التي آتاه الله حججا على نبوّته، {قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} يقول: ما أتى به غَيْرَ أَنَّني سَاحِرٌ".

قال السعدي:"{فَلَمَّا جَاءَهُمْ} محمد ﷺ الذي بشر به عيسى {بِالْبَيِّنَاتِ} أي: الأدلة الواضحة، الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله حقا، {قَالُوا} معاندين للحق مكذبين له: {هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} وهذا من أعجب العجائب، الرسول الذي قد وضحت رسالته، وصارت أبين من شمس النهار، يجعل ساحرا بينا سحره، فهل في الخذلان أعظم من هذا؟ وهل في الافتراء أعظم من هذا الافتراء، الذي نفى عنه ما كان معلوما من رسالته، وأثبت له ما كان أبعد الناس منه؟".

عن مسروق:"أنه كان يقرأ التي في المائدة وفي الصف وفي يونس: «ساحِرٌ»".

عاصم، أنه قرأ: {هَذا سِحْرٌ مُّبِينٌ} بغير ألف.

(تنبيهات):

الأول-نقل الرازي وغيره مصداق هذه الآية من الإنجيل الموجود بين أيديهم.

وذلك في إنجيل يوحنا، في الباب الرابع عشر، هكذا:

إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد-كما في النسخة المطبوعة سنة ١٨٢١ و ١٨٣١ و ١٨٣٣ بمدينة لندن-وفارقليط يونانية، ولفظها الأصلي (بيركلوط)، ومعناه: محمد أو أحمد، كما بينه صاحب (إظهار الحق).

وذكرت جريدة المؤيد عدد (٣٢٨٤) صفحة (٢) تحت عنوان (لا يعدم الإسلام منصفا):

=

=

وقال مسيومارسية من (مدرسة اللغات الشرقية) ما يأتي:
إن محمدا هو مؤسس الدين الإسلامي، واسم محمد جاء من مادة حمد. ومن غريب الاتفاق أن نصارى العرب كانوا يستعملون اسما من نفس المادة يقرب في المعنى من محمد، وهو أحمد، لتسمية البراكلية به. ومعنى أحمد صاحب الحمد، وهذا ما دعا علماء الدين الإسلامي أن يثبتوا بأن كتب المسيحيين قد بشرت بمجيء النبي محمد. وقد أشار القرآن نفسه إلى هذا بقوله عن المسيح: ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد.
وقد قال اسبرانجيه: إن هذه الآية تشير إشارة خاصة إلى عبارة (إنجيل يوحنا) حيث وعد المسيح تلامذته ببعثة صاحب هذا الاسم. انتهى بالحرف.
وأما (إنجيل برنابا) ففيه العبارات الصريحة المتكررة، بل الفصول الضافية الذيول، التي يذكر فيها اسم محمد في عرضها ذكرا صريحا، ويقول إنه رسول الله.
وقد نقل الشيخ محمد بيرم عن رحالة إنكليزي أنه رأى في دار الكتب البابوية في الفاتيكان نسخة من الإنجيل مكتوبة بالقلم الحميري قبل بعثة النبي ﷺ، وفيها يقول المسيح: ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد وذلك موافق لنص القرآن الكريم بالحرف. وقد بدل الرهبان نقط (الفارقليط) في المطبوعات الأخيرة ب (المعزى).
قال بعضهم: ولا عجب من هذه التحريفات المتجددة بتجدد الطبعات، فإنها سجية القوم في كتبهم المقدسة.
سجية تلك فيهم غير محدثة
الثالث-قال الإمام ابن القيم في (جلاء الأفهام): الفرق بين محمد وأحمد من وجهين:
أحدهما-أن محمدا هو المحمود حمدا بعد حمد، فهو دال على كثرة حمد
=

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللهُ لَا يَهْدِي

=

الحامدين له، وذلك يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه، و (أحمد) أفعل تفضيل من الحمد، يدل على أن الحمد الذي يستحقه أفضل مما يستحقه غيره. فمحمد زيادة حمد في الكمية، وأحمد زيادة في الكيفية، فيحمد أكثر حمد، وأفضل حمد حمده البشر.

والوجه الثاني-أن محمدا هو المحمود حمدا متكررا كما تقدم، وأحمد هو الذي حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره. فدل أحد الاسمين-وهو محمد-كونه محمودا. ودل الاسم الثاني-وهو أحمد-على كونه أحمد الحامدين لربه، وهذا هو القياس، فإن أفعل التفضيل والتعجب عند جماعة البصريين لا يبنيان إلا من فعل الفاعل، لا من فعل المفعول، ذهابا إلى أنهما إنما يصاغان من الفعل اللازم لا المتعدي ونازعهم آخرون وجوزوا بناءهما من الفعل الواقع على المفعول، لقول العرب: (ما أشغله بالشيء).

إلى أن قال: والمقصود أنه ﷺ سمي محمدا وأحمد، لأنه يحمد أكثر ما يحمد غيره، وأفضل مما يحمد غيره. فالاسمان واقعان، على المفعول، وهذا هو المختار. وذلك أبلغ في مدحه، وأتم معنى. ولو أريد به اسم الفاعل لسمي (الحماد) وهو كثير الحمد، كما سمي محمدا، وهو المحمود كثيرا. فإنه ﷺ كان أكثر الخلق حمدا لربه، فلو كان اسمه باعتبار الفاعل، لكان الأولى أن يسمى حمادا، كما أن اسم أمته الحمادون. وأيضا فإن الاسمين إنما اشتقا من أخلاقه وخصائله المحمودة التي لأجلها استحق أن يسمى محمدا وأحمد، فهو الذي يحمده أهل الدنيا وأهل الآخرة، ويحمده أهل السموات والأرض، فلكثرة خصائله التي تفوت عد العادين سمي باسمين من أسماء الحمد، يقتضيان التفضيل والزيادة في القدر والصفة. انتهى.

الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧).

{وَمَنْ} أَيْ لَا أَحَد {أَظْلَم} أَشَدّ ظُلْمًا {مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى الله الْكَذِب} بِنِسْبَةِ الشَّرِيك وَالْوَلَد إلَيْهِ وَوَصْف آيَاته بِالسِّحْرِ {وَهُوَ يُدْعَى إلَى الْإِسْلَام وَاَلله لَا يَهْدِي الْقَوْم الظَّالِمِينَ} الكافرين.

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨).

{يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا} مَنْصُوب بِأَنْ مُقَدَّرَة وَاللَّام مَزِيدَة {نُور الله} شَرْعه وَبَرَاهِينه {بِأَفْوَاهِهِمْ} بِأَقْوَالِهِمْ إنَّهُ سِحْر وَشِعْر وَكِهَانَة {وَاَلله مُتِمّ} مُظْهِر {نُوره} وَفِي قِرَاءَة بِالْإِضَافَةِ {وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} ذَلِكَ.

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩).

{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُوله بِالْهُدَى وَدِين الْحَقّ لِيُظْهِرهُ} يُعْلِيه {عَلَى الدِّين كُلّه} جَمِيع الْأَدْيَان الْمُخَالِفَة لَهُ {وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} ذَلِكَ[1].

---

(١) الاستفهام في قوله: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ للإنكار والنفي.

والافتراء: اختلاق الكذب واختراعه من جهة الشخص دون أن يكون له أساس من الصحة، وقوله: وَهُوَ يُدْعى إِلَى الْإِسْلامِ جملة حالية.

أى: ولا أحد أشد ظلما من إنسان يختلق الكذب من عند نفسه على دين الله تعاليوشريعته، والحال أن هذا الإنسان يدعوه الداعي إلى الدخول في دين الإسلام الذي لا يرتضى الله تعاليسواه دينا.

وَاللهُ تعاليلا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ إلى ما فيه فلاحهم، لسوء استعدادهم، وإيثارهم الباطل على الحق.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ومن أشدّ ظلمًا وعدوانًا ممن اختلق على الله =

=

الكذب، وهو قول قائلهم للنبيّ ﷺ: هو ساحر ولما جاء به سحر، فكذلك افتراؤه على الله الكذب، {وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ}، يقول: إذا دُعي إلى الدخول في الإسلام، قال على الله الكذب، وافترى عليه الباطل".

قال النحاس:"أي: ومن أشدّ ظلما ممّن قال لمن جاءه بالبيّنات هو ساحر، وهذا سحر مبين، أي: مبين لمن راه أنه سحر. {وَهُوَ يُدْعى إِلَى الْإِسْلامِ} وهو إذا دعي إلى الإسلام قال: هذا سحر مبين".

قال الزمخشري:"وأي الناس أشد ظلما ممن يدعوه ربه على لسان نبيه إلى الإسلام الذي له فيه سعادة الدارين، فيجعل مكان إجابته إليه افتراء الكذب على الله بقوله لكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحق: هذا سحر، لأنّ السحر كذب وتمويه".

قال مقاتل:"يقول: فلا أحد أظلم منه، يعني: اليهود {مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ} حين زعموا أنه ساحر {وَهُوَ يُدْعى إِلَى الْإِسْلامِ}، يعني: اليهود".

قال ابن كثير:"أي: لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله ويجعل له أندادا وشركاء، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص".

قال القرطبي:"هذا تعجب ممن كفر بعيسى ومحمد بعد المعجزات التي ظهرت لهما".

عن عكرمة في الآية:"أنه النضر وهو من بني عبد الدار قال إذا كان يوم القيامة شفعت لي العزى واللات، فأنزل الله هذه الآية".

وقال ابن جريج:"أنهم الكفار والمنافقون".

قوله تعالى: {وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [الصف: ٧]، أي:"والله لا يوفِّق الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك، إلى ما فيه فلاحهم".

قال الطبري:"يقول: والله لا يوفِّق القوم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم به لإصابة

=

=

الحقّ".

قال القرطبي:"أي: من كان في حكمه أنه يختم له بالضلالة".

قال النحاس:"وهم الذين يقولون في البيّنات هذا سحر مبين".

قال السعدي:"الذين لا يزالون على ظلمهم مستقيمين، لا تردهم عنه موعظة، ولا يزجرهم بيان ولا برهان، خصوصا هؤلاء الظلمة القائمين بمقابلة الحق ليردوه، ولينصروا الباطل".

ثم بين-سبحانه-ما يهدف إليه هؤلاء الظالمون من وراء افترائهم الكذب على الدين الحق، فقال تعالى: (يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ).

والمراد بنور الله: دين الإسلام الذي ارتضاه-سبحانه-لعباده دينا، وبعث به رسوله ﷺ وقيل المراد به: حججه الدالة على وحدانيته تعاليوقيل المراد به: القرآن.. وهي معان متقاربة.

والمراد بإطفاء نور الله: محاولة طمسه وإبطاله والقضاء عليه، بكل وسيلة يستطيعها أعداؤه، كإثارتهم للشبهات من حول تعاليمه، وكتحريضهم لمن كان على شاكلتهم في الضلال على محاربته.

والمراد بأفواههم: أقوالهم الباطلة الخارجة من تلك الأفواه التي تنطق بما لا وزن له من الكلام.

والمعنى: يريد هؤلاء الكافرون بالحق، أن يقضوا على دين الإسلام، وأن يطمسوا تعاليمه السامية التي جاء بها النبي ﷺ عن طريق أقاويلهم الباطلة الصادرة عن أفواههم، من غير أن يكون لها مصداق من الواقع تنطبق عليه، أو أصل تستند إليه، وإنما هي أقوال من قبيل اللغو الساقط المهمل الذي لا وزن له ولا قيمة.

قال صاحب الكشاف: مثّل حالهم في طلبهم إبطال نبوة النبي ﷺ بالتكذيب، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبثق في الآفاق يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية

=

=

القصوى في الإشراق أو الإضاءة، ليطفئه بنفخه ويطمسه .

والجملة الكريمة فيها ما فيها من التهكم والاستهزاء بهؤلاء الكافرين، حيث شبههم -سبحانه- في جهالاتهم وغفلتهم، بحال من يريد إطفاء نور الشمس الوهاج، بنفخة من فمه الذي لا يستطيع إطفاء ما هو دون ذلك بما لا يحصى من المرات.

وقوله تعالى: (وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) بشارة للمؤمنين بأن ما هم عليه من حق، لا بد أن يعم الآفاق.

أى: والله تعاليبقدرته التي لا يعجزها شيء، متم نوره، ومظهر دينه ومؤيد نبيه ﷺ ولو كره الكافرون ذلك فإن كراهيتهم لظهور دين الله تعاليلا أثر لها ولا قيمة. فالآية الكريمة وعد من الله تعاليللمؤمنين، بإظهار دينهم، وإعلاء كلمتهم، لكي يزيدهم ذلك ثباتا على ثباتهم، وقوة على قوتهم.

قوله تعالى: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ} [الصف: ٨].

قال ابن جريج: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ} : "بألسنتهم".

عن السدي قوله: {بِأَفْوَاهِهِمْ}، يقول: بكلامهم".

قال الطبري: يقول: " يريد هؤلاء القائلون لمحمد ﷺ: هذا ساحر مبين، يريدون ليبطلوا الحق الذي بعث الله به محمدا ﷺ بأفواههم يعني بقولهم إنه ساحر، وما جاء به سحر".

قال ابن كثير:"أي: يحاولون أن يَرُدّوا الحق بالباطل، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل كذلك ذاك مستحيل".

وفي {نور الله} -ها هنا-، أقوال:

أحدها: القرآن، يريدون إبطاله بالقول، قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"نور القرآن.

=

=

قال السمعاني: {نُورَ اللهِ} " يقال: هو القرآن. ويقال: هو محمد".

الثاني: أنه الإسلام، يريدون دفعه بالكلام، قاله السدي.

الثالث: أنه محمد ﷺ يريدون هلاكه بالأراجيف، قاله الضحاك.

قال الضحاك:"يريدون أن يهلك محمد وأصحابه، أن لا يعبدوا الله بالإسلام في الأرض".

الرابع: أنه حجج الله ودلائله، يريدون إبطالها بإنكارهم وتكذيبهم، قاله ابن بحر.

الخامس: أنه مثل مضروب، أي من أرد إطفاء نور الشمس بفيه فوجده مستحيلا ممتنعا فكذلك من أراد إبطال الحق، حكاه ابن عيسى.

قال الزمخشري:"وكأن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة تأكيدا له، لما فيها من معنى الإرادة في قولك: جئتك لإكرامك، كما زيدت اللام في: لا أبا لك، تأكيدا لمعنى الإضافة في: لا أباك، وإطفاء نور الله بأفواههم: تهكم بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم في القرآن: هذا سحر، مثلت حالهم بحال من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه".

قوله تعالى: {وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [الصف: ٨]، أي:"والله مظهر الحق بإتمام دينه ولو كره الجاحدون المكذِّبون".

قال السمعاني:"أي: يتم أمر نوره ولو كره الكافرون".

قال الزمخشري:"أي: متمّ الحق ومبلغه غايته".

قال الطبري: " يقول: الله معلن الحقّ، ومظهر دينه، وناصر محمدًا عليه الصلاة والسلام على من عاداه، ولو كره الكافرون بالله، وعنى بـ «النور» في هذا الموضع: الإسلام".

قال النحاس:"أي: مكمل الإسلام ومعليه".

وقال ابن زيد:"نور القرآن".

=

=

عن الضحاك: {وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}، قال: " يعني بها: كفار العرب، وأهل الكتاب من حارب منهم النبي -ﷺ وكفر بآياته".

وقرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم: «مُتِمٌ نُوره»، بالتنوين وفتح الراء.

ثم أكد-سبحانه-وعده بإتمام نوره، وبين كيفية هذا الإتمام فقال: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ....).

والمراد بالهدى: القرآن الكريم: المشتمل على الإرشادات السامية، والتوجيهات القويمة، والأخبار الصادقة، والتشريعات الحكيمة.

والمراد بدين الحق: دين الإسلام الذي هو خاتم الأديان.

وقوله: (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) من الإظهار بمعنى الإعلاء والغلبة بالحجة والبرهان، والسيادة والسلطان. والجملة تعليلية لبيان سبب هذا الإرسال والغاية منه.

والضمير في «ليظهره» يعود على الدين الحق، أو على الرسول ﷺ أى: هو الله-سبحانه-الذي أرسل رسوله محمدا ﷺ بالقرآن الهادي للتي هي أقوم. وبالدين الحق الثابت الذي لا ينسخه دين آخر، وكان هذا الإرسال لإظهار هذا الدين الحق على سائر الأديان بالحجة والغلبة.

(وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) ذلك، فإن كراهيتهم لا أثر لها في ظهوره، وفي إعلائه على جميع الأديان.

ولقد أنجز الله تعاليوعده، حيث جعل دين الإسلام، هو الدين الغالب على جميع الأديان، بحججه وبراهينه الدالة على أنه الدين الحق الذي لا يحوم حوله باطل.

قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ} [الصف: ٩].

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: الله الذي أرسل رسوله محمدًا ببيان الحقّ وبدين

=

=

الله، وهو الإسلام".

قال قتادة:"قاتل الله قوما ينتحلون دينا لم يصدقه قوم قط ولم يفلحه ولم ينصره إذا أظهروه إهراق به دماؤهم، وإذا سكتوا عنه كان فرحا في قلوبهم ذلك والله دين سوء قد ألاصوا هذا الأمر منذ بضع وستين سنة، فهل أفلحوا فيه يوما أو أنجحوا؟".

قوله تعالى: {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} [الصف: ٩]، أي:"ليعليه على كل الأديان المخالفة له".

قال الطبري: " يقول: ليظهر دينه الحقّ الذي أرسل به رسوله على كلّ دين سواه، وذلك عند نزول عيسى ابن مريم، وحين تصير الملة واحدة، فلا يكون دين غير الإسلام".

قال الزمخشري: أي:"ليعليه على جميع الأديان المخالفة له، ولعمري لقد فعل، فما بقي دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام".

قال السمعاني:"أي: على جميع الأديان شرقا وغربا، ومصداق هذه الآية على الكمال إنما يكون عند نزول عيسى ابن مريم حيث لا يبقى إلا دين الإسلام".

قال القرطبي:"وليس المراد بالظهور ألا يبقى دين آخر من الأديان، بل المراد يكون أهل الإسلام عالين غالبين. ومن الإظهار ألا يبقى دين سوى الإسلام في آخر الزمان".

قال ابن عباس:"يظهر الله نبيه على أمر الدين كله، فيعطيه إياه كله، ولا يخفي عليه منه شيء".

قال ابن عباس:"عث الله محمدا ليظهره على الدين كله، فديننا فوق الملل، ورجالنا فوق نسائهم ولا يكون رجالهم فوق نسائنا".

قال مجاهد:"لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهودي ولا نصراني ولا صاحب ملة إلا الإسلام وحتى تأمن الشاة الذئب والبقرة الأسد، والإنسان الحية وحتى لا تقرض

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠).

=

فأرة جرابا وحتى توضع الجزية ويكسر الصليب ويقتل الخنزير فهو قوله: ليظهره على الدين كله".

وروي عن الضحاك أنه قال: "يظهر الإسلام على الدين كل دين".

قال السدي: "وذلك عند خروج المهدي لا يبقى أحد إلا دخل في الإسلام أو أدى الخراج".

وقال الكلبي: "لا يبقى دين إلا ظهر عليه الإسلام وسيكون ذلك، ولم يكن بعد، ولا تقوم الساعة حتى يكون ذلك".

عن أَبي هريرة: " {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}، قال: خروج عيسى ابن مريم".

عن ابن مسعود:"إذا أنزل عليهم ابن مريم لم يكن في الأرض دين إلا دين الإسلام. قال: فذلك قوله ﷻ: {ليظهره على الدين كله}".

عن عائشة قالت: إن رسول الله ﷺ كان يقول: "لا يَذْهَبُ اللَّيْلُ والنَّهَارُ حَتى تُعْبَدَ اللاتُ وَالعُزَّى"، فقالت عائشة: والله يا رسول الله إن كنت لأظنّ حين أنزل الله {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ}... الآية، أن ذلك سيكون تامًا، فقال: "إنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذلِكَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَيَتَوَفَّى مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مَنْ خَيْرٍ، فَيَبْقَى مَنْ لا خَيْرَ فِيهِ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينَ آبَائِهِمْ".

قوله تعالى: {وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [الصف: ٩]، أي:"ولو كره المشركون ذلك".

قال مقاتل:"من العرب، يعني: كفار قريش".

قال القاسمي:"أي: لما فيه من محض التوحيد، وإبطال الشرك".

قال ابن عباس:"كان المشركون واليهود يكرهون أن يظهر الله نبيه على أمر الدين كله".

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَة تُنْجِيكُمْ} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد {مِنْ عَذَاب أَلِيم} مؤلم فكأنهم قالوا نعم فقال.

تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١).

{تُؤْمِنُونَ} تَدُومُونَ عَلَى الْإِيمَان {بِاَللهِ وَرَسُوله وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيل الله بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسكُمْ ذَلِكُمْ خَيْر لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} أَنَّهُ خَيْر لَكُمْ فافعلوه.

يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢).

{يَغْفِر} جَوَاب شَرْط مُقَدَّر أَيْ إنْ تَفْعَلُوهُ يَغْفِر {لَكُمْ ذُنُوبكُمْ وَيُدْخِلكُمْ جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الْأَنْهَار وَمَسَاكِن طَيِّبَة فِي جَنَّات عَدْن} إقامة {ذلك الفوز العظيم}.

وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣).

{و} يؤتكم نِعْمَة {أُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْر مِنْ الله وَفَتْح قَرِيب وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ} بِالنَّصْرِ وَالْفَتْح[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن سعيد بن جبير في قوله تعالى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢)}؛ قال: لما نزلت؛ قال المسلمون: لو علمنا ما هذه التجارة؛ لأعطينا فيها الأموال والأهلين؛ فبيّن لهم التجارة، فقال: {تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٤٩)، و"لباب النقول" (ص ٢١٣) ونسبه لابن أبي حاتم.

=

=

وهو ضعيف؛ لإرساله.

* هذه الآيات الكريمة جواب عما قاله بعض المؤمنين لرسول الله ﷺ: لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله لعملناها، كما سبق. أن ذكرنا في سبب قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ.

فكأنه-سبحانه-بعد أن نهاهم عن أن يقولوا قولا، تخالفه أفعالهم، وضرب لهم الأمثال بجانب من قصة موسى وعيسى-عليهما السلام وبشرهم بظهور دينهم على سائر الأديان.

بعد كل ذلك أرشدهم إلى أحب الأعمال إليه-سبحانه-فقال: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجارَةٍ.

والتجارة في الأصل معناها: التصرف في رأس المال، وتقليبه في وجوه المعاملات المختلفة، طلبا للربح.

والمراد بها هنا: العقيدة السليمة، والأعمال الصالحة، التي فسرت بها بعد ذلك في قوله تعاليتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ.

والاستفهام في قوله تعالى: هَلْ أَدُلُّكُمْ للتشويق والتحضيض إلى الأمر المدلول عليه.

والمعنى: يا من آمنتم بالله تعاليوبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ألا تريدون أن أدلكم على تجارة رابحة، تنجيكم مزاولتها ومباشرتها، من عذاب شديد الألم؟ إن كنتم تريدون ذلك، فهاكم الطريق إليها، وهي: تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَتُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الصف: ١٠].

عن خيثمة قال: "ما تقرؤون في القرآن: {يا أيها الذين آمنوا}، فإنه في التوراة: «يا أيها المساكين»".

=

=

قال جعفر الصّادق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:"لذة «يا» في النداء أزال تعب العبادة والعناء".

قوله تعالى: {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الصف: ١٠]، أي:"هل أُرشِدكم إلى تجارة عظيمة الشأن تنجيكم من عذاب موجع؟".

قال الطبري: {عَذَابٍ أَلِيمٍ}، أي:"موجع، وذلك عذاب جهنم".

قال السمعاني:"التجارة أن تبذل شيئا وتأخذ شيئا، فكأنه جعل بذل النفس والمال وأخذ الثواب تجارة، وهو على طريق المجاز".

قال السعدي:"هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين، لأعظم تجارة، وأجل مطلوب، وأعلى مرغوب، يحصل بها النجاة من العذاب الأليم، والفوز بالنعيم المقيم. وأتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل متبصر، ويسمو إليه كل لبيب".

قال الجصاص:"فسمى الإيمان تجارة على وجه المجاز تشبيها بالتجارات المقصود بها الأرباح. وقال تعالى: {يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ} [فاطر: ٢٩]. كما سمى بذل النفوس لجهاد أعداء الله تعالى شرى، قال الله تعالى: {إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ} [التوبة: ١١١] فسمى بذل النفوس شراء على وجه المجاز. وقال الله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ} [البقرة: ١٠٢] فسمى ذلك بيعا وشراء على وجه المجاز تشبيها بعقود الأشربة والبياعات التي تحصل بها الأعواض. كذلك سمى الإيمان بالله تعالى تجارة لما استحق به من الثواب الجزيل والأبدال الجسيمة، فتدخل في قوله تعالى: {إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ} عقود البياعات والإجارات والهبات المشروطة فيها الأعواض؛ لأن المبتغي في جميع ذلك في عادات الناس تحصيل الأعواض لا غير".

=

=

عن مجاهد، في قوله: {هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الصف: ١٠] قال: " قال نفر من الأنصار في مجلس لهم وفيهم عبد الله بن رواحة: لو نعلم أي العمل أحب إلى الله لعملنا به حتى نموت "، فأنزل الله ﷻ: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} [الصف: ١٠] إلى قوله: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [الصف: ١٣]، قال ابن رواحة: «لا أزال حبيسا في سبيل الله حتى أموت فقتل شهيدا».

وقوله-سبحانه-: (تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ) استئناف مفسر وموضح لقوله هَلْ أَدُلُّكُمْ؟ فكأن سائلا قال: وما هذه التجارة؟ دلنا عليها، فكان الجواب: تؤمنون بالله ورسوله.

أي: تداومون مداومة تامة على الإيمان بالله تعاليوبرسوله ﷺ وتجاهدون في سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه بأموالكم وأنفسكم.

قالوا: وقوله تُؤْمِنُونَ خبر في معنى الأمر، ويدل عليه قراءة ابن مسعود: آمنوا بالله ورسوله، وجاهدوا في سبيله.

وفائدة العدول إلى الخبر: الإشعار بأنهم قد امتثلوا لما أرشدوا إليه، فكأنه-سبحانه-يخبر عن هذا الامتثال الموجود عندهم.

وجاء التعبير بقوله: هَلْ أَدُلُّكُمْ لإفادة أن ما يذكر بعد ذلك من الأشياء التي تحتاج إلى من يهدى إليها، لأنها أمور مرد تحديدها إلى الله تعالى.

وتنكير لفظ التجارة، للتهويل والتعظيم، أى: هل أدلكم على تجارة عظيمة الشأن ... ؟

وأطلقت التجارة هنا على الإيمان والعمل الصالح، لأنهما يتلاقيان ويتشابهان في أن كليهما المقصود من ورائه الربح العظيم، والسعى من أجل الحصول على المنافع.

=

=

وقدم-سبحانه-هنا الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس، لأن المقام مقام تفسير وتوضيح لمعنى التجارة الرابحة عن طريق الجهاد في سبيل الله، ومن المعلوم أن التجارة تقوم على تبادل الأموال، وهذه الأموال هي عصب الجهاد، فعن طريقها تشترى الأسلحة والمعدات التي لا غنى للمجاهدين عنها، وفي الحديث الشريف «من جهز غازيا فقد غزا».

وقدم-سبحانه-في قوله: إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ.. قدم الأنفس على الأموال، لأن الحديث هناك، كان في معرض الاستبدال والعرض والطلب، والأخذ والعطاء ... فقدم-سبحانه-الأنفس لأنها أعز ما يملكه الإنسان، وجعل في مقابلها الجنة لأنها أعز ما يوهب، وأسمى ما تتطلع إلى نيله النفوس.

واسم الإشارة في قوله: ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يعود إلى ما سبق ذكره من الإيمان والجهاد. أى: ذلكم الذي أرشدناكم إلى التمسك به من الإيمان والجهاد في سبيل الله، هو خير لكم من كل شيء إن كنتم من أهل العلم والفهم.

فقوله تَعْلَمُونَ منزل منزلة الفعل اللازم، للإشعار بأن من يخالف ذلك لا يكون لا من أهل العلم، ولا من أهل الإدراك.

وجعله بعضهم فعلا متعديا، ومفعوله محذوف، والتقدير: إن كنتم تعلمون أنه خير لكم فافعلوه، ولا تتقاعسوا عن ذلك.

قال الطبري: "ثم بين لنا جلّ ثناؤه ما تلك التجارة التي تنجينا من العذاب الأليم، فقال: {تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ} محمد ﷺ".

قال السعدي:"فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي هذا قدرها؟ فقال {تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ}، ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح".

=

=

في قراءة ابن مسعود: «آمنوا بالله ورسوله»، وهو معنى القراءة المعروفة، وجوابه: «يغفر لكم ذنوبكم»".

قوله تعالى: {وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ} [الصف: ١١]، أي:"وتجاهدون في سبيل الله؛ لنصرة دينه بما تملكون من الأموال والأنفس".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: وتجاهدون في دين الله، وطريقه الذي شرعه لكم بأموالكم وأنفسكم، فإن إيمانكم بالله ورسوله، وجهادكم في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم {خَيْرٌ لَكُمْ} من تضييع ذلك والتفريط".

وقوله-سبحانه-: (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) مجزوم على أنه جواب لشرط مقدر، أى: إن تمتثلوا أمره تعالييغفر لكم ذنوبكم.

ويصح أن يكون مجزوما على أنه جواب للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر في قوله تعاليقبل ذلك تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ. لأنهما-كما قلنا-وإن جاءا بلفظ الخبر، إلا أنهما في معنى الأمر، أى: آمنوا وجاهدوا.

أى: آمنوا بالله تعاليإيمانا حقا، وجاهدوا في سبيل إعلاء كلمته بأموالكم وأنفسكم، يغفر لكم-سبحانه-ذنوبكم، بأن يزيلها عنكم، ويسترها عليكم.

وَيُدْخِلْكُمْ فضلا عن ذلك جَنَّاتٍ عاليات تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أى: تجرى من تحت مساكنها وبساتينها الأنهار.

ويعطيكم مَساكِنَ طَيِّبَةً أى: قصورا مشتملة على كل ما هو طيب ونافع.

وخصت المساكن الطيبة بالذكر، لأن المجاهدين قد فارقوا مساكنهم، ومنهم من استشهد بعيدا عنها، وفيها أهله وماله ... فوعدهم-سبحانه-بما هو خير منها.

وقوله فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ أى: هذه المساكن الطيبة كائنة في جنات باقية خالدة، لا تزول ولا تنتهي، بل أصحابها يقيمون فيها إقامة دائمة، يقال: عدن فلان بالمكان، إذا أقام فيه إقامة مؤبدة.

=

=

ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ أى: ذلك الذي منحناكم إياه من مغفرة لذنوبكم، ومن خلودكم في الجنة ... هو الفوز العظيم الذي لا يقاربه فوز، ولا يدانيه ظفر.

قوله (يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ).

قال الطبري: يقول: "يستر عليكم ربكم ذنوبكم إذا أنتم فعلتم ذلك فيصفح عنكم ويعفو".

قال ابن كثير:"أي: إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه، غفرت لكم الزلات".

قال السعدي:"وهذا شامل للصغائر والكبائر، فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله، مكفر للذنوب، ولو كانت كبائر".

قال سلمة بن وهرام صاحب طاووس:"أن الله تبارك وتعالى إنما سمى نفسه «العفو»، ليعفو، و «الغفور»، ليغفر".

قوله تعالى: {وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [الصف: ١٢]، أي:"ويدخلكم جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار".

قال الطبري: " يقول: ويدخلكم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار".

قال ابن كثير:"وأدخلتكم الجنات".

قال السعدي:"أي: من تحت مساكنها وقصورها وغرفها وأشجارها، أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، ولهم فيها من كل الثمرات".

عن السدي:"{جنات}، قال: البساتين".

قال مجاهد:"الجنات: حوائط".

عن أبي مالك قوله: " {تجري من تحتهم الأنهار}، يعني: تحت منازلهم وأرضهم".

قال مسروق: "أنهار الجنة تجري في غير أخدود، ثمرها كالقلال، كلما نزعت ثمرة

=

=

عادت مثلها أخرى، والعنقود اثنا عشر ذراعا".

قوله تعالى: {وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ} [الصف: ١٢]، أي:"ومساكن طاهرة زكية في جنات إقامة دائمة لا تنقطع".

قال الطبري: " يقول: ويُدخلكم أيضًا مساكن طيبة في بساتين إقامة، لا ظعن عنها".

قال ابن كثير:"والمساكن الطيبات، والدرجات العاليات".

قال السعدي:"أي: جمعت كل طيب، من علو وارتفاع، وحسن بناء وزخرفة، حتى إن أهل الغرف من أهل عليين، يتراءاهم أهل الجنة كما يتراءى الكوكب الدري في الأفق الشرقي أو الغربي، وحتى إن بناء الجنة بعضه من لبن ذهب وبعضه من لبن فضة، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن الألوان، حتى إنها من صفائها يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواصفين، ولا خطر على قلب أحد من العالمين، لا يمكن أن يدركوه حتى يروه، ويتمتعوا بحسنه وتقر أعينهم به، ففي تلك الحالة، لولا أن الله خلق أهل الجنة، وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم، لأوشك أن يموتوا من الفرح، فسبحان من لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده وتبارك الجليل الجميل، الذي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها من الجلال والجمال ما يبهر عقول الخلق ويأخذ بأفئدتهم. وتعالى من له الحكمة التامة، التي من جملتها، أنه الله لو أرى الخلائق الجنة حين خلقها ونظروا إلى ما فيها من النعيم لما تخلف عنها أحد، ولما هناهم العيش في هذه الدار المنغصة، المشوب نعيمها بألمها، وسرورها بترحها، وسميت الجنة جنة عدن، لأن أهلها مقيمون فيها، لا يخرجون منها أبدا، ولا يبغون عنها حولا".

=

=

وفي "جَنَّاتِ عَدْنٍ"، ثلاثة أقوال:

أحدها: أن «عدن»: اسم قصر في الجنة، قاله الحسن.

وقد روي عن الحسن:"قصرٌ من ذهَب، لا يدخله إلا نبي، أو صدّيق، أو شهيد، أو حكم عدل".

الثاني: أنها مدينة الجنة، فيها الرُّسُل والأنبياء والشهداء، وأئمة الهدى، والناس حولهم بعدُ، والجنات حولها. قاله الضحاك.

الثالث: أنها اسم نهر في الجنة، جنّاته على حافتيه. قاله عطاء.

قوله تعالى: {ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [الصف: ١٢]، أي:"ذلك هو الفوز الذي لا فوز بعده".

قال سعيد بن جبير: " يعني: ذلك الثواب الفوز العظيم".

قال الطبري: " يقول: ذلك النجاء العظيم من نكال الآخرة وأهوالها".

قال السعدي:"ذلك الثواب الجزيل، والأجر الجميل، الفوز العظيم، الذي لا فوز مثله، فهذا الثواب الأخروي".

وقوله-سبحانه-: وَأُخْرى تُحِبُّونَها بيان لنعمة أخرى يعطيهم-سبحانه-إياها، سوى ما تقدم من نعم عظمى.

ولفظ «أخرى» مبتدأ خبره دل عليه ما تقدم، وقوله: تُحِبُّونَها صفة للمبتدأ.

أى: ولكم-فضلا عن كل ما تقدم-نعمة أخرى تحبونها وتتطلعون إليها.

وهذه النعمة هي: نَصْرٌ عظيم كائن مِنَ اللهِ تعاليلكم وَفَتْحٌ قَرِيبٌ أى: عاجل وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ أى: وبشر-أيها الرسول الكريم-المؤمنين بذلك، حتى يزدادوا إيمانا على إيمانهم، وحتى تزداد قلوبهم انشراحا وسرورا.

ويدخل في هذا النصر والفتح القريب دخولا أوليا: فتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجا.

=

=

وهذه الآية الكريمة من معجزات القرآن الكريم. الراجعة إلى الإخبار بالغيب، حيث أخبر -سبحانه- بالنصر والفتح، فتم ذلك للنبي ﷺ ولأصحابه، في أكمل صورة، وأقرب زمن.

قوله تعالى: {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ} [الصف: ١٣].

قال الطبري: يقول:"ولكم خلة أخرى سوى ذلك في الدنيا تحبونها: نصر من الله لكم على أعدائكم، وفتح قريب يعجله لكم".

قال البغوي:"أي: ولكم خصلة أخرى في العاجل مع ثواب الآخرة تحبونها وتلك الخصلة: {نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ}".

قال السعدي:"وأما الثواب الدنيوي لهذه التجارة، فذكره بقوله: {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا} أي: ويحصل لكم خصلة أخرى تحبونها وهي: {نَصْرٌ مِنَ اللهِ} لكم على الأعداء، يحصل به العز والفرح، {وَفَتْحٌ قَرِيبٌ} تتسع به دائرة الإسلام، ويحصل به الرزق الواسع، فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين".

قال الكلبي: هو النصر على قريش، وفتح مكة".

وقال عطاء: يريد فتح فارس والروم".

قال ابن كثير:"أي: وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها، وهي: {نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ}، أي: إذا قاتلتم في سبيله ونصرتم دينه، تكفل الله بنصركم. قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} [محمد: ٧] وقال تعالى: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [الحج: ٤٠] وقوله {وَفَتْحٌ قَرِيبٌ}، أي: عاجل فهذه الزيادة هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة، لمن أطاع الله ورسوله، ونصر الله ودينه".

قوله تعالى: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [الصف: ١٣]، أي:"وبشِّر المؤمنين -أيها النبي- بالنصر والفتح في الدنيا، والجنة في الآخرة".

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤).

{يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله} لِدِينِهِ وَفِي قِرَاءَة بِالْإِضَافَةِ {كَمَا قَالَ} إلَخْ الْمَعْنَى كَمَا كَانَ الْحَوَارِيُّونَ كَذَلِكَ الدَّالّ عَلَيْهِ قال {عيسى بن مَرْيَم لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إلَى الله} أَيْ مَنْ الْأَنْصَار الَّذِينَ يَكُونُونَ مَعِي مُتَوَجِّهًا إلَى نُصْرَة الله {قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَار الله} وَالْحَوَارِيُّونَ أَصْفِيَاء عِيسَى وَهُمْ أَوَّل مَنْ آمَنَ بِهِ وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ الْحُور وَهُوَ الْبَيَاض الْخَالِص وَقِيلَ كَانُوا قَصَّارِينَ يُحَوِّرُونَ الثِّيَاب أَيْ يُبَيِّضُونَهَا {فَآمَنَتْ طَائِفَة مِنْ بَنِي إسْرَائِيل} بِعِيسَى وَقَالُوا إنَّهُ عَبْد الله رُفِعَ إلى السماء {وكفرت طائفة} لقولهم إنه بن الله رَفَعَهُ إلَيْهِ فَاقْتَتَلَتْ الطَّائِفَتَانِ {فَأَيَّدْنَا} قَوَّيْنَا {الَّذِينَ آمَنُوا} مِنْ الطَّائِفَتَيْنِ {عَلَى عَدُوّهُمْ} الطَّائِفَة الكافرة {فأصبحوا ظاهرين} غالبين[1].

=

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وبشر يا محمد المؤمنين بنصر الله إياهم على عدّوهم، وفتح عاجل لهم".

قال البغوي:"{وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} يا محمد بالنصر في الدنيا والجنة في الآخرة".

قال السعدي:"وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد، إذا قام غيرهم بالجهاد فلم يؤيسهم الله تعالى من فضله وإحسانه، بل قال: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} أي: بالثواب العاجل والآجل، كل على حسب إيمانه، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل الله، كما قال النبي ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله» ".

(١) ذكر سبب النزول.

=

=

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ لما أراد الله عَزَّ وَجَلَّ أن يرفع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى السماء خرج على أصحابه وهم في بيت، اثنا عشر رجلاً، ورأسه يقطر ماء، فقال: أيكم يلقى شبهي عليه، فيقتل مكاني فيكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سنًا؛ فقال: أنا، فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب؛ فقال: أنا، فقال: اجلس، ثم أعاد عليهم الثالثة، فقال الشاب: أنا؛ فقال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: نعم؛ أنت، فألقى عليه شبه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم رفع عيسى من روزنة كانت في البيت إلى السماء، وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشاب؛ للشبه؛ فقتلوه ثم صلبوه، فتفرقوا ثلاث فرق؛ فقالت فرقة: كان فينا الله عَزَّ وَجَلَّ ما شاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء [الله] ثم رفعه الله وهؤلاء النسطورية، وقالت طائفة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء [لله] ثم رفعه الله؛ [فهؤلاء] المسلمون؛ فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسًا؛ حتى بعث الله محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: {فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}؛ يعني: الطائفة التي كفرت في زمان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والطائفة التي آمنت في زمان عيسى: {فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ} بإظهار محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دينهم على دين الكفار {فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}.

أخرجه النسائي في "تفسيره" (٢/ ٤٢٥ -٤٢٧ رقم ٦١١)، والطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٦٠)، وسعيد بن منصور في "سننه" -ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (١٠/ ٣٧٦، ٣٧٨ رقم ٤٠٢) -، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١١١٠ رقم ٦٢٣٣) عن أبي معاوية عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عنه به. وهذا سند حسن؛ رجاله رجال البخاري في "صحيحه"، وفي المنهال كلام يسير لا ينزله عن رتبة الحسن.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في "البداية والنهاية" (٢/ ٥١٠): "وهذا إسناد

=

=

صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم".

* الحواريون: جمع حوارى. وهم أنصار عيسى-عليه السلام الذين آمنوا به وصدقوه، وأخلصوا له ولازموه، وكانوا عونا له في الدعوة إلى الحق، وكانوا اثنى عشر رجلا.

يقال: فلان حوارى فلان، أي: هو من خاصة أصحابه، ومنه قول النبي ﷺ في الزبير بن العوام: «لكل نبي حوارى، وحواريي الزبير».

وأصل الحور: شدة البياض والصفاء، ومنه قولهم في خالص لباب الدقيق: الحوارى، وفي النساء البيض الحسان: الحواريات والحوريات.

وسمى الله تعاليأصفياء عيسى وأنصاره بذلك لشدة إخلاصهم له، وطهارة قلوبهم من الغش والنفاق، فصاروا في نقائهم وصفائهم كالشيء الأبيض الخالص.

والأنصار: جمع نصير، وهو من ينصر غيره نصرا شديدا مؤزرا.

والمراد بنصر الله تعالى: نصر دينه وشريعته ونبيه الذي أرسله بالهدى، ودين الحق.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: كونوا أنصارا لله.

والمعنى: يا من آمنتم بالله تعاليحق الإيمان داوموا وواظبوا على أن تكونوا أنصارا لدين الله في كل حال، كما كان الحواريون كذلك، عند ما دعاهم عيسى-عليه السلام إلى نصرته والوقوف إلى جانبه.

فالكلام محمول على المعنى، والمقصود منه حض المؤمنين على طاعة الرسول ﷺ وعلى الاستجابة التامة لما يدعوهم إليه، كما فعل الحواريون مع عيسى، حيث ثبتوا على دينهم، وصدقوا مع نبيهم، دون أن تنال منهم الفتن أو المصائب.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: ما وجه صحة التشبيه-وظاهره تشبيه كونهم أنصارا بقول عيسى لهم مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ.

=

=

قلت التشبيه محمول على المعنى، وعليه يصح، والمراد كونوا أنصار الله، كما كان الحواريون أنصار عيسى كذلك حين قال لهم: من أنصارى إلى الله.

فإن قلت: فما معنى قوله: مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ؟ قلت: يجب أن يكون معناه مطابقا لجواب الحواريين: نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ والذي يطابقه أن يكون المعنى: من جندي متوجها إلى نصرة دين الله.

والاستفهام في قوله تعالى: مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِ للحض على نصرته والوقوف إلى جانبه.

وأضافهم-عَلَيْهِ السَّلَامُ إليه، باعتبارهم أنصار دعوته ودينه.

وقوله: إِلَى اللهِ متعلق بأنصارى، ومعنى «إلى» الانتهاء المجازى.

أى: قال عيسى للحواريين على سبيل الامتحان لقوة إيمانهم: من الجند المخلصون الذين أعتمد عليهم بعد الله تعاليفي نصرة دينه، وفي التوجه إليه بالعبادة والطاعة وتبليغ رسالته ...؟

فأجابوه بقولهم: نحن أنصار دين الله تعاليونحن الذين على استعداد أن نبذل نفوسنا وأموالنا في سبيل تبليغ دعوته-عَزَّ وَجَلَّ ومن أجل إعلاء كلمته.

وقوله تعالى: فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ وَكَفَرَتْ طائِفَةٌ مفرع على ما قبله، لبيان موقف قومه منه.

أى: قال الحواريون لعيسى عند ما دعاهم إلى اتباع الحق: نحن أنصار دين الله، ونحن الذين سنثبت على العهد.. أما بقية بنى إسرائيل فقد افترقوا إلى فرقتين: فرقة آمنت بعيسى وبما جاء به من عند الله تعالى، وفرقة أخرى كفرت به وبرسالته.

وقوله: فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظاهِرِينَ بيان للنتائج التي تحققت لكل طائفة من الطائفتين: المؤمنين والكافرين.

=

=

وقوله: ظاهِرِينَ من الظهور بمعنى الغلبة، يقال: ظهر فلان على فلان، إذا تغلب عليه وقهره.

أي: كان من قوم عيسى من آمن به، ومنهم من كفر به، فأيدنا وقوينا ونصرنا الذين آمنوا به، على الذين كفروا به، فصار المؤمنون ظاهرين ومنتصرين على أعدائهم بفضله تعاليو مشيئته.

والمقصود من هذا الخبر حض المؤمنين في كل زمان ومكان، على الإيمان والعمل الصالح، لأن سنة الله تعاليقد اقتضت أن يجعل العاقبة لهم، كما جعلها لأتباع عيسى المؤمنين، على أعدائهم الكافرين.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ} [الصف: ١٤].

قال الطبري: يقول" يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله، كونوا أنصار الله".

قال البغوي:"أي: انصروا دين الله".

قال البغوي:"أي: ولكم خصلة أخرى في العاجل مع ثواب الآخرة تحبونها وتلك الخصلة: {نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ}".

قال ابن كثير:"يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله".

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: «كُونُوا أَنْصَاراً اللهِ»، بتنوين الأنصار.

قوله تعالى: {كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ} [الصف: ١٤]، أي:"كما كان أصفياء عيسى وخلص أصحابه أنصار دين الله حين قال لهم عيسى: مَن يتولى منكم نصري وإعانتي فيما يُقرِّب إلى الله؟".

قال الطبري: يقول" كما قال عيسى ابن مريم للحواريين: من أنصاري منكم إلى نصرة الله لي".

قال البغوي: أي:"مثل نصرة الحواريين لما قال لهم عيسى عليه السلام: {مَنْ أَنْصَارِي

=

=

إِلَى اللهِ} ؟ أي: من ينصرني مع الله؟".

قال ابن كثير: أي: " كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال: {مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ} ؟ أي: معيني في الدعوة إلى الله ﷻ ؟".

عن مجاهد، في قول الله: " {مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ} ، قال: من يتبعني إلى الله؟".

عن سعيد بن جُبيْر، قال: "سئل ابن عباس عن الحواريين، قال: سُمُّوا لبياض ثيابهم كانوا صيادي السمك".

قال الضحاك:"الحواريون: هم الغسالون بالنبطية؛ يقال للغسال: حواري، وقد تقدم بياننا في معنى الحواري بشواهده واختلاف المختلفين فيه قبل فيما مضى، فأغنى عن إعادته".

عن سعيد، عن قتادة: " {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ} ، قال:"قد كانت لله أنصار من هذه الأمة تجاهد على كتابه وحقه". وذُكر لنا أنه بايعه ليلة العقبة اثنان وسبعون رجلا من الأنصار، ذُكر لنا أن بعضهم قال: هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ إنكم تبايعون على محاربة العرب كلها أو يُسلموا. ذُكر لنا أن رجلا قال: يا نبيّ الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت، قال: أشترط لربي أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما منعتم منه أنفسكم وأبناءكم" قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا يا نبيّ الله؟ قال: "لكم النصر في الدنيا، والجنة في الآخرة"، ففعلوا، ففعل الله".

عن معمر، قال: "تلا قتادة: {كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ} ، قال: قد كان ذلك بحمد الله، جاءه سبعون رجلا فبايعوه عند العقبة، فنصروه وآوَوْه حتى أظهر الله دينه؛ قالوا: ولم يسمّ حيّ من السماء اسمًا لم يكن لهم قبل ذلك غيرهم".

=

=

قال قتادة:"إن الحواريين كلهم من قريش: أَبو بكر، وعمر، وعلي، وحمزة، وجعفر، وأبو عُبيدة، وعثمان بن مظعون، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أَبي وقاص، وعثمان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوّام".

قوله تعالى: {قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ} [الصف: ١٤]، أي:"قال أتباع عيسى وهم المؤمنون الخُلَّص من خاصته المستجيبون لدعوته نحن أنصار دين الله".

قال الطبري: " يقول: قالوا: نحن أنصار الله على ما بعث به أنبياءه من الحق".

قال ابن كثير:"{قَالَ الْحَوَارِيُّونَ} -وهم أتباع عيسى عليه السلام -: {نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ}، أي: نحن أنصارك على ما أرسلت به ومُوَازروك على ذلك؛ ولهذا بعثهم دعاةً إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين. وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج: «من رجل يُؤويني حتى أبلغ رسالة ربي، فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي»، حتى قيَّض الله عز وجل له الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه ووازروه، وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وَفَوا له بما عاهدوا الله عليه؛ ولهذا سماهم الله ورسوله: الأنصار، وصار ذلك علما عليهم، رضي الله عنهم، وأرضاهم".

قال الماوردي:"أصل «الحواري»: الحَوَر، وهو شدة البياض، ومنه: الحواري من الطعام لشدة بياضه، والحَوَر نقاء بياض العين".

واخْتُلِف في تسميتهم بـ «الحواريين»، على أقوال:

أحدها: انهم سُمُّوا بذلك لبياض ثيابهم، وهذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومسلم البطين.

الثاني: أنهم كانوا قَصَّارين يبيضون الثياب، وهذا قول ابن أبي نجيح، والضحاك في -أحد قوليه-.

=

=

الثالث: أنهم خاصة الأنبياء وصفوتهم، سموا بذلك لنقاء قلوبهم، وهذا قول قتادة -في أحد قوليه-، والضحاك، ورجّحه الزجاج.

الرابع: أن الحواري: الناصر. قاله سفيان بن عيينة.

الخامس: أن الحواري: الوزير. قاله قتادة.

قال الطبري:"وأشبه الأقوال في معنى «الحواريين»، قولُ من قال: سموا بذلك لبياض ثيابهم، ولأنهم كانوا غسّالين".

قال ابن كثير:"الصحيح أن الحواري الناصر، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما نَدبَ الناس يوم الأحزاب، فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدَبَ الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير، فقال: «إنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًا وَحَوَارِيي الزُّبَيْرُ» ".

قوله تعالى: {فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ} [الصف: ١٤]، أي:"فاهتدت طائفة من بني إسرائيل، وضلَّت طائفة".

قال الطبري: يقول:"فآمنت طائفة من بني إسرائيل بعيسى، وكفرت طائفة منهم به".

قال ابن كثير:"أي: لما بلغ عيسى ابن مريم عليه السلام رسالة ربه إلى قومه، ووازره من وازره من الحواريين، اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به، وجحدوا نبوته، ورموه وأمه بالعظائم، وهم اليهود - عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة -وغلت فيه طائفة ممن اتبعه، حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، وافترقوا فِرَقا وشِيَعا، فمن قائل منهم: إنه ابن الله. وقائل: إنه ثالث ثلاثة: الأب، والابن، وروح القدس. ومن قائل: إنه الله. وكل هذه الأقوال مفصلة في سورة النساء".

عن ابن عباس، قال: "لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلي أصحابه وهم في بيت اثنا عشر رجلا من عين في البيت ورأسه يقطر ماء؛ قال: فقال: إن

=

=

منكم من سيكفر بي اثنتي عشرة مرّة بعد أن آمن بي؛ قال: ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني، ويكون معي في درجتي؟ قال: فقام شاب من أحدثهم سنًا، قال: فقال أنا، فقال له: اجلس؛ ثم أعاد عليهم، فقام الشاب، فقال أنا؛ قال: نعم أنت ذاك؛ فألقى عليه شبه عيسى، ورُفع عيسى من رَوْزَنَة في البيت إلى السماء؛ قال: وجاء الطلب من اليهود، وأخذوا شبهه. فقتلوه وصلبوه، وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرّة بعد أن آمن به، فتفرّقوا ثلاث فرق، فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء، ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله، ثم رفعه إليه، وهؤلاء النسطورية. وقالت فرقة. كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله، ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الطائفتان الكافرتان على المسلمة، فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمدًا ﷺ، فآمنت طائفة من بني إسرائيل، وكفرت طائفة، يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى، والطائفة التي آمنت في زمن عيسى، فأيدنا الذين آمنوا على عدّوهم، فأصبحوا ظاهرين في إظهار محمد على دينهم دين الكفار، {فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}".

قال ابن كثير:"فأمة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله وهم كذلك، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح، والله أعلم".

قوله تعالى: {فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ} [الصف: ١٤]، أي:"فأيدنا الذين آمنوا بالله ورسوله، ونصرناهم على مَن عاداهم مِن فرق النصارى".

قال الطبري: "يقول: فقوينا الذين آمنوا من الطائفتين من بني إسرائيل على عدوهم، الذي كفروا منهم بمحمد ﷺ بتصديقه إياهم، أن عيسى عبد الله ورسوله، وتكذيبه من قال هو إله، ومن قال: هو ابن الله تعالى ذكره".

=

سورة الجمعة(١)

=

قال ابن كثير:"أي: نصرناهم على من عاداهم من فِرَق النصارى".

عن مجاهد: " {فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ}، قال: قوّينا".

قوله تعالى: {فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} [الصف: ١٤]، أي:"فأصبحوا ظاهرين عليهم؛ وذلك ببعثة محمد ﷺ".

قال الطبري: يقول: "فأصبحت الطائفة المؤمنون ظاهرين على عدّوهم الكافرين منهم".

قال ابن كثير:"{فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}، أي: عليهم، وذلك ببعثة محمد ﷺ".

عن مجاهد، في قوله: " {فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}، من آمن مع عيسى ﷺ".

قال إبراهيم:"لما بعث الله محمدًا، ونزل تصديق من آمن بعيسى، أصبحت حجة من آمن به ظاهرة".

قال إبراهيم:"أيدوا بمحمد ﷺ، فصدّقهم، وأخبر بحجتهم".

قال إبراهيم:"أصبحت حجة من آمن بعيسى ظاهرة بتصديق محمد ﷺ كلمة الله وروحه".

(١) قال ابن الجوزي:"هي مدنية كلّها بإجماعهم".

وقال الفيروزبادي: السّورة مَدَنِيَّة بالاتِّفاق.

* آياتها إِحدى عشرة. وكلماتها مائة وثمانون. وحروفها سبعمائة وعشرون. فواصل آياتها (من)

* تسمى «سورة الجمعة»، لقوله: {إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ} [الجمعة: ٩].

قال ابن عاشور:"سميت هذه السورة عند الصحابة وفي كتب السنة والتفاسير

=

بسم الله الرحمن الرحيم[(١)]

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١).

{يسبح لله} يُنَزِّههُ فَاللَّام زَائِدَة {مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الْأَرْض} فِي ذِكْر مَا تَغْلِيب لِلْأَكْثَرِ {الْمَلِك الْقُدُّوس} الْمُنَزَّه عَمَّا لَا يَلِيق بِهِ {الْعَزِيز الْحَكِيم} فِي مُلْكه وَصُنْعه

هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢).

{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ} الْعَرَب وَالْأُمِّيّ مَنْ لَا يَكْتُب وَلَا يَقْرَأ كِتَابًا {رَسُولًا مِنْهُمْ} هُوَ مُحَمَّد ﷺ {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاته} الْقُرْآن {وَيُزَكِّيهِمْ} يُطَهِّرهُمْ مِنْ الشِّرْك {وَيُعَلِّمهُمْ الْكِتَاب} الْقُرْآن {وَالْحِكْمَة} مَا فِيهِ مِنْ الْأَحْكَام {وَإِنْ} مُخَفَّفَة مِنْ الثَّقِيلَة وَاسْمهَا مَحْذُوف أَيْ وَإِنَّهُمْ {كَانُوا مِنْ قَبْل} قَبْل مَجِيئِهِ {لَفِي ضَلَال مُبِين} بَيِّن.

=

«سورة الجمعة» ولا يعرف لها اسم غير ذلك".

* معظم مقصود السّورة: بيان بَعْث المصطفى، وتعْيير اليهود، والشكاية منهم، وإلزام الحجّة عليهم، والترغيب فى حضور الجمعة والشكاية من قوم بإعراضهم عن الجمعة، وتقوية القلوب بضمان الرّزق لكلّ حىّ فى قوله: {والله خَيْرُ الرازقين}.

* المتشابهات: قوله: {وَلاَ يَتَمَنَّوْنَهُ} وفى البقرة {وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ} سبق.

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣).

{وَآخَرِينَ} عَطْف عَلَى الْأُمِّيِّينَ أَيْ الْمَوْجُودِينَ {مِنْهُمْ} وَالْآتِينَ مِنْهُمْ بَعْدهمْ {لَمَّا} لَمْ {يَلْحَقُوا بِهِمْ} فِي السَّابِقَة وَالْفَضْل {وَهُوَ الْعَزِيز الْحَكِيم} فِي ملكه وصنعه وهم التابعة وَالِاقْتِصَار عَلَيْهِمْ كَاف فِي بَيَان فَضْل الصَّحَابَة الْمَبْعُوث فِيهِمْ النَّبِيّ ﷺ عَلَى مَنْ عَدَاهُمْ مِمَّنْ بَعَثَ إلَيْهِمْ وَآمَنُوا بِهِ مِنْ جَمِيع الْإِنْس وَالْجِنّ إلَى يَوْم الْقِيَامَة لِأَنَّ كُلّ قَرْن خَيْر مِمَّنْ يَلِيه.

ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤).

{ذَلِكَ فَضْل الله يُؤْتِيه مَنْ يَشَاء} النَّبِيّ ومن ذكر معه {والله ذو الفضل العظيم}(١).

---

(١) افتتحت سورة «الجمعة» كغيرها من أخواتها «المسبحات» بالثناء على الله تعاليوببيان أن المخلوقات جميعها، تسبح بحمده تعاليوتقدس له.

والتسبيح: تنزيه الله تعاليعما لا يليق به، اعتقادا وقولا وعملا مأخوذ من السبح وهو المر السريع في الماء أو الهواء، لأن المسبح لله، تعاليمسرع في تنزيهه تعاليوتبرئته من كل سوء.

وقوله: الْقُدُّوسِ من التقديس بمعنى التعظيم والتطهير وغير ذلك من صفات الكمال.

أى: أن التسبيح: نفى ما لا يليق بذاته تعالى، والتقديس: إثبات ما يليق بجلاله- سبحانه-والمعنى: ينزه الله تعاليويبعده عن كل نقص، جميع ما في السموات، وجميع ما في الأرض من مخلوقات، فهو-سبحانه-الْمَلِكِ أى: المدبر لشئون هذا الكون، المتصرف فيه تصرف المالك فيما يملكه...

الْقُدُّوسِ أى: البليغ في الطهارة وفي التنزه عن كل نقص، من القدس-بضم القاف =

=

وسكون الدال-بمعنى الطهر، وأصله القدس-بفتح القاف والدال-وهو الإناء الذي يكون فيه ما يتطهر به، ومنه القادوس وهو إناء معروف.

الْعَزِيزِ الذي لا يغلبه غالب الْحَكِيمِ في كل أقواله وأفعاله وتصرفاته.

قوله تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [الجمعة: ١].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يسبح لله كلّ ما في السموات السبع، وكل ما في الأرضين من خلقه، ويعظمه طوعًا وكرهًا".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى أنه يُسبّح له ما في السموات وما في الأرض، أي: من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها، كما قال: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ} [الإسراء: ٤٤]".

عن الضحاك، وسفيان:"{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} " أنه الصلاة، سميت تسبيحا لما تتضمنه من التسبيح".

عن ميمون بن مهران: {سبحان الله} : اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء".

عن المسيّب -من طريق الهُذيل-قال: " {سُبْحانَ اللهِ} إنصاف لله من السوء".

قال ابن الجوزي:"فإن قيل: فما الفائدة في إعادة ذكر التسبيح في هذه السورة؟

فالجواب: أنّ ذلك لاستفتاح السّور بتعظيم الله ﷻ، كما تستفتح ب «بسم الله الرحمن الرحيم» وإذا جلّ المعنى في تعظيم الله، حسن الاستفتاح به".

قال ابن قتيبة:"ومن صفاته: «سُبُّوحٌ»، وهو حرف مبني على «فُعُّول»؛ من "سبَّح اللهَ": إذا نزهه وبرَّأه من كل عيب. ومنه قيل: سبحان اللهِ؛ أي: تنزيهًا لله، وتبرئةً له من ذلك. ومنه قوله: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} [الجمعة:١، التغابن: ١]. وقال الأعْشَى:

أَقُولُ لَمَّا جَاءَنَا فَخْرُهُ... سُبْحَانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الْفَاخِرِ

أراد: التبرُّؤَ من علقمةَ. وقد يكون تَعجبَ [بالتسبيح من فخره؛ كما يقول القائل

=

=

إذا تعجب] من شيء: سبحان الله. فكأنه قال: عجبًا من علقمةَ الفاخرِ".

قوله تعالى: {الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ} [الجمعة: ١]، أي:"وهو وحده المالك لكل شيء، المتصرف فيه بلا منازع، المنزَّه عن كل نقص".

قال الطبري: {الْمَلِكِ}: "الذي له ملك الدنيا والآخرة وسلطانهما، النافذ أمره في السموات والأرض وما فيهما، القدوس: وهو الطاهر من كلّ ما يضيف إليه المشركون به، ويصفونه به مما ليس من صفاته المبارك".

قال ابن كثير:"{الْمَلِكِ}، أي: هو مالك السموات والأرض المتصرف فيهما بحكمه، وهو {الْقُدُّوسِ}، أي: المنزه عن النقائص، الموصوف بصفات الكمال".

عن قتادة: " {الْقُدُّوسُ}، أي: المبارك".

عن عثمان بن سعيد، قال جبريل: "يا محمد، لله الخلق كله والسموات كلهن ومن فيهن والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم".

قوله تعالى: {الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} [الجمعة: ١]، أي:"العزيز الذي لا يغالَب، الحكيم في تدبيره وصنعه".

قال الطبري: " {الْعَزِيزِ}، يعني: الشديد في انتقامه من أعدائه، {الْحَكِيم} في تدبيره خلقه، وتصريفه إياهم فيما هو أعلم به من مصالحهم".

قال محمد بن إسحاق: " العزيز: في نصرته ممن كفر به إذا شاء"، الحكيم: في عذره وحجته إلى عباده".

قال أبو العالية:"{عزيز} في نقمته إذا انتقم". وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

عن أبي العالية:"{حكيم}، قال: حكيم في أمره".

قال محمد بن جعفر بن الزبير" الحكيم في عذره، وحجته إلى عباده".

=

=

ثم بين-سبحانه-جانبا من مظاهر فضله على خلقه، فقال: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ، يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ....)

وقوله: الْأُمِّيِّينَ جمع أمى، وهو صفة لموصوف محذوف. أى: في الناس أو في القوم الأميين، والمراد بهم العرب، لأن معظمهم كانوا لا يعرفون القراءة والكتابة.

وسمى من لا يعرف القراءة والكتابة بالأمى، لغلبة الأمية عليه، حتى لكأن حاله بعد تقدمه في السن، كحاله يوم ولدته أمه في عدم معرفته للقراءة والكتابة.

و «من» في قوله تعالى: مِنْهُمْ للتبعيض، باعتبار أنه واحد منهم، ويشاركهم في بعض صفاتهم وهي الأمية.

وقوله: يَتْلُوا ... من التلاوة، وهي القراءة المتتابعة المرتلة، التي يكون بعضها تلو بعض.

وقوله: وَيُزَكِّيهِمْ من التزكية بمعنى التطهير والتنقية من السوء والقبائح.

والمراد بالكتاب: القرآن، والمراد بتعليمه: بيان معانيه وحقائقه، وشرح أحكامه وأوامره ونواهيه..

والمراد بالحكمة: العلم النافع، المصحوب بالعمل الصالح، وفي وضعها إلى جانب الكتاب إشارة إلى أن المقصود بها السنة النبوية المطهرة، إذ بالكتاب وبالسنة، يعرف الناس أصلح الأقوال والأفعال، وأعدل الأحكام وأقوم الآداب، وأسمى الفضائل..

أى: هو-سبحانه-وحده، الذي بَعَثَ بفضله وكرمه، فِي العرب الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا كريما عظيما، كائنا مِنْهُمْ أى: من جنسهم يعرفون حسبه ونسبه وخلقه.. هذا الرسول الكريم أرسلناه إليهم، ليقرأ عليهم آيات الله تعاليالتي أنزلها عليه لهدايتهم وسعادتهم، متى آمنوا بها، وعملوا بما اشتملت عليه من توجيهات سامية..

وأرسلناه إليهم-أيضا-ليزكيهم، أى: وليطهرهم من الكفر والقبائح والمنكرات

=

=

وليعلمهم الكتاب، بأن يحفظهم إياه، ويشرح لهم أحكامه، ويفسر لهم ما خفى عليهم من ألفاظه ومعانيه.

وليعلمهم -أيضا- الحكمة. أى: العلم النافع المصحوب بالعمل الطيب وصدر -سبحانه- الآية الكريمة بضمير اسم الجلالة، لتربية المهابة في النفوس، ولتقوية ما اشتملت عليه من نعم وأحكام، إذ هو -سبحانه- وحده الذي فعل ذلك لا غيره.

وعبر -سبحانه- بفي المفيدة للظرفية في قوله تعالى: فِي الْأُمِّيِّينَ. للإشعار بأن هذا الرسول الكريم الذي أرسله إليهم، كان مقيما فيهم، وملازما لهم، وحريصا على أن يبلغهم رسالة الله تعاليفي كل الأوقات والأزمان.

والتعبير بقوله: مِنْهُمْ فيه ما فيه من دعوتهم إلى الإيمان به، لأن هذا الرسول الكريم، ليس غريبا عنهم، بل هو واحد منهم شرفهم من شرفه، وفضلهم من فضله..

وهذه الآية الكريمة صريحة في أن الله تعاليقد استجاب دعوة نبيه إبراهيم -عليه السلام- عند ما دعاه بقوله: رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ...

وقد جاء ترتيب هذه الآية الكريمة وأمثالها في أسمى درجات البلاغة والحكمة، لأن أول مراحل تبليغ الرسالة، يكون بتلاوة القرآن، ثم ثنى -سبحانه- بتزكيه النفوس من الأرجاس، ثم ثلث بتعليم الكتاب والحكمة لأنهما يكونان بعد التبليغ والتزكية للنفوس.

ولذا قالوا: إن تعليم الكتاب غير تلاوته، لأن تلاوته معناها، قراءته قراءة مرتلة، أما تعليمه فمعناه: بيان أحكامه، وشرح ما خفى من ألفاظه وأحكامه..

ثم بين -سبحانه- بعد ذلك حال الناس قبل بعثته صلى الله عليه وسلم فقال: وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ.

=

=

وهذه الجملة الكريمة في موضع الحال من قوله: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ ... و «إن» في قوله وَإِنْ كانُوا ... مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف..

أى: هو -سبحانه- بفضله وكرمه، الذي بعث في الأميين رسولا منهم، وحالهم أنهم كانوا قبل إرسال هذا الرسول الكريم فيهم، في ضلال واضح لا يخفى أمره على عاقل، ولا يلتبس قبحه على ذي ذوق سليم. وحقا لقد كان الناس قبل أن يبزغ نور الإسلام، الذي جاء به النبي ﷺ من عند ربه، في ضلال واضح، وظلام دامس، من حيث العقائد والعبادات، والأخلاق والمعاملات..

فكان من رحمة الله تعاليبهم، أن أرسل فيهم رسوله محمدا ﷺ لكي يخرجهم من ظلمات الكفر والفسوق والعصيان، إلى نور الهداية والاستقامة والإيمان.

قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ} [الجمعة: ٢]، أي:"الله سبحانه هو الذي أرسل في العرب الذين لا يقرؤون، ولا كتاب عندهم ولا أثر رسالة لديهم، رسولا منهم إلى الناس جميعًا".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: الله الذي بعث في الأميين رسولا منهم، و «الأميون»: هم العرب".

عن مجاهد، قال: " {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ}، قال: العرب".

قال ابن كثير:"الأميون هم: العرب كما قال تعالى: {وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} [آل عمران: ٣١٤] وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم، ولكن المنة عليهم أبلغ وآكد، كما في قوله: {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ} [الزخرف: ٤٤] وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به. وكذا قوله: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأقْرَبِينَ} [الشعراء: ٢١٤] وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا} [الأعراف: ١٥٨] وقوله: {لأنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [الأنعام: ١٩] وقوله

=

=

إخبارا عن القرآن: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [هود: ١٧]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق أحمرهم وأسودهم.. وهذه الآية هي مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. فبعثه الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة، على حين فترة من الرسل، وطُمُوس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه، وقد مقت الله أهلَ الأرض عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب -أي: نزرا يسيرا -ممن تمسك بما بعث الله به عيسى ابن مريم عليه السلام".

وفي تسميتهم: «أميين»، قولان:

أحدهما: لأنه لم ينزل عليهم كتاب، قاله ابن زيد.

قال ابن زيد:"إنما سميت أمة محمد صلى الله عليه وسلم الأميين، لأنه لم ينزل عليهم كتابًا".

الثاني: لأنهم لم يكونوا يكتبون ولا كان فيهم كاتب، قاله قتادة.

قال قتادة:"كانت هذه الأمة أمِّيَّة لا يقرءون كتابًا".

قال قتادة:"كان هذا الحيّ من العرب أمة أمِّيَّة، ليس فيها كتاب يقرءونه، فبعث الله نبيه محمدًا رحمة وهُدى يهديهم به".

ثم فيهم قولان:

أحدهما: أنهم قريش خاصة لأنها لم تكن تكتب حتى تعلم بعضها في آخر الجاهلية من أهل الحيرة.

الثاني: أنهم جميع العرب لأنه لم يكن لهم كتاب ولا كتب منهم إلا قليل، قاله المفضل.

فلو قيل: فما وجه الامتنان بأن بعث نبيـًا أميـًا؟

فالجواب عنه ثلاثة أوجه:

=

=

أحدها: لموافقته ما تقدمت بشارة الأنبياء به.

الثاني: لمشاكلة حاله لأحوالهم، فيكون أقرب إلى موافقتهم.

الثالث: لينتفي عنه سوء الظن في تعلمه ما دعا إليه من الكتب التي قرأها والحكم التي تلاها.

قوله تعالى: {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ} [الجمعة: ٢]، أي:"يقرأ عليهم القرآن".

قال مقاتل:"يعني: القرآن".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: يقرأ على هؤلاء الأميين آيات الله التي أنزلها عليه".

قوله تعالى: {وَيُزَكِّيهِمْ} [الجمعة: ٢]، أي:"ويطهرهم من العقائد الفاسدة والأخلاق السيئة".

قال الطبري:"يقول: ويطهرهم من دنس الكفر".

قال مقاتل:"يعني: ويصلحهم".

قال ابن عباس:"يعني: الزكاة: طاعة الله والإخلاص".

قوله تعالى: {وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} [الجمعة: ٢]، أي:"ويعلِّمهم القرآن والسنة".

قال الطبري:"يقول: ويعلمهم كتاب الله، وما فيه من أمر الله ونهيه، وشرائع دينه {وَالْحِكْمَةَ}، يعني: بالحكمة: السنن".

عن ابن زيد:"قال: {وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ} أيضًا كما علم هؤلاء يزكيهم بالكتاب والأعمال الصالحة، ويعلمهم الكتاب والحكمة كما صنع بالأوّلين، وقرأ قول الله ﷻ: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ} ممن بقي من أهل الإسلام إلى أن تقوم الساعة، قال: وقد جعل الله فيهم سابقين، وقرأ قول الله ﷻ: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ}، وقال: {ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ} فثلة من الأوّلين

=

=

سابقون، وقليل السابقون من الآخرين، وقرأ: {وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ} حتى بلغ {ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ وثُلَّةٌ مِنَ الآخِرِينَ} أيضا، قال: والسابقون من الأوّلين أكثر، وهم من الآخرين قليل، وقرأ {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإيمَانِ} الآية، قال: هؤلاء من أهل الإسلام إلى أن تقوم الساعة".

قال الحسن:"الكتاب: القرآن. وروي عن يحيى بن أبي كثير، ومقاتل بن حيان نحو ذلك.

وفي تفسير {وَالْحِكْمَةَ}، أقوال:

أحدها: أن الحكمة السنة، قاله ابن الحسن، وقتادة،وأبو مالك، ويحيى بن كثير.

قال الحسن:"الكتاب: القرآن"، " {والحكمة}: السنة".

الثاني: أنه الفقه في الدين، وهو قول مالك بن أنس، وزيد بن أسلم.

وقال زيد بن أسلم:"الحكمة: العقل في الدين".

الثالث: أنه الفهم والاتعاظ، قاله الأعمش (١٣).

الرابع: يعني: المواعظ التي في القرآن من الحلال والحرام والسنة. قاله مقاتل.

وعن السدي:"قوله: {والحكمة}: يعني: النبوة".

وقال ابن عباس:"{الكتاب}: الخط بالقلم".

قال الطبري:"يعني بالحكمة، السُّنةَ التي سنها الله جل ثناؤه للمؤمنين على لسان رسول الله ﷺ، وبيانَه لهم".

قال محمد ابن إسحاق: " {ويعلمهم الكتاب والحكمة}، قال: ويعلمكم الخير والشر لتعرفوا الخير فتعملوا به، والشر فتتقوا، ويخبركم برضاه عنكم إذا أطعتموه، ولتستكثروا من طاعته، وتجتنبوا ما يسخطه عنكم من معصيته".

قوله تعالى: {وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الجمعة: ٢]، أي:"وإنهم كانوا

=

=

من قبل بعثته لفي انحراف واضح عن الحق".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وقد كان هؤلاء الأميون من قبل أن يبعث الله فيهم رسولا منهم في جَوْر عن قصد السبيل، وأخذ على غير هدى {مُبِينٌ}، يقول: يبين لمن تأمله أنه ضلال وجَوْر عن الحقّ وطريق الرشد".

قال محمد بن إسحاق:"أي: في عمياء من الجاهلية، لا تعرفون حسنة ولا تستغفرون من سيئة، صُمٌّ عن الحق، عُمْيٌ عن الهدى".

قال قتادة:"ليس والله كما تقول أهل حروراء: محنة غالبة، من أخطأها أهَريق دمه، ولكن الله بعث نبيه ﷺ إلى قوم لا يعلمون فعلَّمهم، وإلى قوم لا أدب لهم فأدَّبهم".

قال ابن كثير:"وذلك أن العرب كانوا قديما متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام فبدلوه وغيروه، وقلبوه وخالفوه، واستبدلوا بالتوحيد شركا وباليقين شكا، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله وكذلك أهل الكتابين قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأولوها، فبعث الله محمدًا صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة، ورضا الله عنهم، والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله. حاكم، فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب

في الأصول والفروع. وجمَعَ له تعالى، وله الحمد والمنة، جميع المحاسن ممن كان قبله، وأعطاه ما لم يُعطِ أحدًا من الأولين، ولا يعطيه أحدًا من الآخرين، فصلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين".

ثم بين -سبحانه- أن رسالة رسوله محمد ﷺ لن يكون نفعها مقصورا على المعاصرين له والذين شاهدوه ... بل سيعم نفعها من سيجيئون من بعدهم، فقال

=

=

تعالى:

(وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ....)

وقوله: وَآخَرِينَ جمع آخر بمعنى الغير، والجملة معطوفة على قوله قبل ذلك فِي الْأُمِّيِّينَ ... فيكون المعنى: هو-سبحانه-الذي بعث في الأميين رسولا منهم، كما بعثه في آخرين منهم.

لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ أي: لم يجيئوا بعد، وهم كل من يأتى بعد الصحابة من أهل الإسلام إلى يوم القيامة، بدليل قوله تعالى: وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ... .

أي: وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به يا أهل مكة، ولأنذر به جميع من بلغه هذا الكتاب، ووصلت إليه دعوته من العرب وغيرهم إلى يوم القيامة ...

وفي الحديث الشريف: «بلغوا عن الله تعاليفمن بلغته آية من كتاب الله، فقد بلغه أمر الله».

وعن محمد بن كعب قال: من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ ... .

ويصح أن يكون قوله: وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ... معطوف على الضمير المنصوب في قوله: وَيُعَلِّمُهُمُ ... فيكون المعنى: هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويعلم آخرين منهم لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ أي: لم يجيئوا بعد وسيجيئون ... وهم كل من آمن بالرسول من بعد الصحابة إلى يوم القيامة.

قال صاحب الكشاف: وقوله: وَآخَرِينَ مجرور عطف على الأميين يعنى: أنه بعثه في الأميين الذين على عهده، وفي آخرين من الأميين الذين لم يلحقوا بهم بعد، وسيلحقون بهم، وهم الذين بعد الصحابة.

ولما نزلت قيل: من هم يا رسول الله، فوضع يده على سلمان ثم قال: «لو كان

=

=

الإيمان عند الثريا لتناوله رجال من هؤلاء».

وقيل: هم الذين يأتون من بعدهم إلى يوم القيامة.

ويجوز أن ينتصب عطفا على المنصوب في وَيُعَلِّمُهُمُ أى يعلمهم ويعلم آخرين، لأن التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كله مستندا إلى أوله، فكأنه هو الذي تولى كل ما وجد منه...

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يراها تشير إلى أن دعوة النبي ﷺ ستبلغ غير المعاصرين له ﷺ وأنهم سيتبعونها، ويؤمنون بها، ويدافعون عنها..

وهذا ما أيده الواقع، فقد دخل الناس في دين الله أفواجا من العرب ومن غير العرب، ومن أهل المشارق والمغارب..

فالآية الكريمة تخبر عن معجزة من معجزات القرآن الكريم، ألا وهي الإخبار عن أمور مستقبلة أيدها الواقع المشاهد.

وقوله تعالى: وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ تذييل المقصود به بيان أن قدرته تعاليلا يعجزها شيء، وأن حكمته هي أسمى الحكم وأسداها.

أى: وهو-سبحانه-العزيز الذي لا يغلب قدرته شيء، الحكيم فيما يريده ويقدره ويوجده.

قوله تعالى: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} [الجمعة: ٣].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وهو الذي بعث في الأميين رسولا منهم، وفي آخرين منهم لما يلحقوا بهم".

وفي قوله تعالى: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} [الجمعة: ٣]، وجوه من التفسير:

أحدها: عني بذلك جميع من دخل في الإسلام من بعد النبيّ ﷺ كائنًا من كان إلى يوم القيامة. قاله مجاهد-في رواية-، وابن زيد.

=

=

عن مجاهد في قول الله: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ}، قال: من ردف الإسلام من الناس كلهم".

قال ابن زيد:"هؤلاء كلّ من كان بعد النبيّ ﷺ إلى يوم القيامة، كلّ من دخل في الإسلام من العرب والعجم".

عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في أصلاب أصلاب أصلاب رجال من أصحابي، رجالا ونساء من أمتي يدخلون الجنة... بغير حساب ثم قرأ: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ}، يعني: بقية من بقي من أمة محمد ﷺ".

عن ابن وهب، قال: "قال ابن زيد في قوله: {لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ}، يقول: لم يأتوا بعد".

الثاني: أنهم العجم بعد العرب، قاله مجاهد، والضحاك.

قال البغوي:"ومن رأى أنه يرعى غنما سودا، فهم أناس من العرب، فإن كانت بيضا، فمن العجم".

الثالث: أنهم الملوك أبناء الأعاجم، حكي ذلك عن مجاهد-أيضا-.

الرابع: أنهم الأطفال بعد الرجال. ذكره الماوردي.

الخامس: أنهم النساء بعد الرجال. أفاده الماوردي.

قال الطبري:"الصواب عندي قول من قال: عُنِي بذلك كلّ لاحق لحق بالذين كانوا صحبوا النبيّ ﷺ في إسلامهم من أيّ الأجناس؛ لأن الله ﷻ عمّ بقوله: {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ} كلَّ لاحق بهم من آخرين، ولم يخصص منهم نوعًا دون نوع، فكلّ لاحق بهم فهو من الآخرين الذين لم يكونوا في عداد الأوّلين الذين كان رسول الله ﷺ يتلو عليهم آيات الله، وقوله: {لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ}، يقول: لم يجيئوا بعد وسيجيئون".

قال السعدي:"أي: وامتن على آخرين من غيرهم أي: من غير الأميين، ممن يأتي

=

=

بعدهم، ومن أهل الكتاب، لما يلحقوا بهم، أي: فيمن باشر دعوة الرسول، ويحتمل أنهم لما يلحقوا بهم في الفضل، ويحتمل أن يكونوا لما يلحقوا بهم في الزمان، وعلى كل، فكلا المعنيين صحيح، فإن الذين بعث الله فيهم رسوله وشاهدوه وباشروا دعوته، حصل لهم من الخصائص والفضائل ما لا يمكن أحدًا أن يلحقهم فيها".

قوله تعالى: {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الجمعة: ٣]، أي:"والله تعالى -وحده-هو العزيز الغالب على كل شيء، الحكيم في أقواله وأفعاله".

قال الطبري:"يقول: والله العزيز في انتقامه ممن كفر به منهم، الحكيم في تدبيره خلقه".

قال ابن كثير:"أي: ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره".

قال السعدي:"وهذا من عزته وحكمته، حيث لم يترك عباده هملا ولا سدى، بل ابتعث فيهم الرسل، وأمرهم ونهاهم".

قال محمد بن إسحاق: " العزيز: في نصرته ممن كفر به إذا شاء"، الحكيم: في عذره وحجته إلى عباده".

قال أبو العالية:" {عزيز} في نقمته إذا انتقم". وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

عن أبي العالية:" {حكيم}، قال: حكيم في أمره".

قال محمد بن جعفر بن الزبير" الحكيم في عذره، وحجته إلى عباده".

واسم الإشارة في قوله: (ذلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ ...) يعود إلى ما تقدم ذكره من كرمه تعاليعلى عباده، حيث اختص رسوله محمدا ﷺ بهذه الرسالة الجامعة لكل خير وبركة، وحيث وفق من وفق من الأميين وغيرهم، إلى اتباع هذا الرسول الكريم..

=

=

أي: ذلك البعث منا لرسولنا محمد ﷺ لكي يهدى الناس بإذننا إلى الصراط المستقيم، هو فضلنا الذي نؤتيه ونخصه لمن نشاء اختصاصه به من عبادنا..
وَاللهُ تعالى: هو ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ الذي لا يقاربه فضل، ولا يدانيه كرم.
كما قال-سبحانه-: قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ. يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.
قوله تعالى: {ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ} [الجمعة: ٤].
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هذا الذي فعل تعالى ذكره من بعثته في الأميين من العرب، وفي آخرين رسولا منهم يتلو عليهم آياته، ويفعل سائر ما وصف، فضل الله، تفضل به على هؤلاء دون غيرهم، يؤتيه من يشاء، يقول: يؤتي فضلَه ذلك من يشاء من خلقه، لا يستحقّ الذمّ ممن حرمه الله إياه، لأنه لم يمنعه حقًا كان له قبله ولا ظلمه في صرفه عنه إلى غيره، ولكنه على مَنْ هُو له أهل، فأودعه إياه، وجعله عنده".
قال ابن كثير:"يعني: ما أعطاه الله محمدا ﷺ من النبوة العظيمة، وما خص به أمته من بعثته ﷺ إليهم".
قال السعدي:"وذلك من فضل الله العظيم، الذي يؤتيه من يشاء من عباده، وهو أفضل من نعمته عليهم بعافية البدن وسعة الرزق، وغير ذلك، من النعم الدنيوية، فلا أعظم من نعمة الدين التي هي مادة الفوز، والسعادة الأبدية".
عن ابن عباس في: " {ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ}، قال: الفضل: الدين".
عن السدي قوله: {يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ}، قال: "يختص به من يشاء".
عن مجاهد: {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاء} [البقرة: ١٠٥]، قال: " النبوة يختص بها من يشاء". وروي عن الربيع بن أنس نحو ذلك.
عن مجاهد: {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاء}، قال: القرآن والإسلام".

=

=

قال الحسن:"رحمته الإسلام، يختص بها من يشاء".

قوله تعالى: {وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الجمعة: ٤]، أي:"وهو -وحده-ذو الإحسان والعطاء الجزيل".

قال الطبري:"يقول: والله ذو الفضل على عباده، المحسن منهم والمسيء، والذين بعث فيهم الرسول منهم وغيرهم، العظيم الذي يقلّ فضل كل ذي فضل عنده".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {العظيم}، يعني: وافر".

(فائدة): قال ابن رجب: قوله تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤).

وقال سبحانه: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤).

ومعلومٌ أنَّه لم يُبعث في مكَّةَ رسولٌ منهم بهذه الصفةِ غيرُ محمَّدٍ ﷺ، وهو مِن ولدِ إسماعيلَ، كما أنَّ أنبياءَ بني إسرائيلَ مِن ولدِ إسحاق.

وذكر اللهُ تعالى أنَّه مَنَّ على المؤمنينَ بهذه الرِّسالةِ، فليسَ للهِ نعمة أعظم من إرسال محمدٍ ﷺ يهدِي إلى الحقِّ وإلى صراط مستقيم.

وقوله: (فِي الأُمِّيِّينَ) -والمرادُ بهم العَرَبُ -تنبيهٌ لهم على قدرِ هذه النِّعمةِ وعظمِها، حيثُ كانوا أميينَ لا كِتابَ لهم، وليسَ عندَهم شيء من آثارِ النُّبوَّاتِ، كما كان عندَ أهلِ الكتابِ، فمنَّ الله عليهم بهذا الرسول وبهذا الكتاب، حتى صاروا أفضلَ الأمم وأعلمَهم، وعرفُوا ضلالةَ منْ ضلَّ من الأمم قبلَهم.

وفي كونِهِ منهم فائدتان:

=

=

إحداهما: أنَّ هذا الرَّسول كان أيضًا أميًّا كأمَّتِهِ المبعوثِ إليهم، لم يقرأْ كِتابًا قطُّ، ولم يخُطهُ بيمينِهِ، كما قال الله تعالى: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ) الآيات، ولا خرجَ عن ديارِ قومِهِ فأقامَ عندَ غيرِهم حتَّى تعلَّم منهم شيئًا، بلْ لم يزل أُميًّا بين أمَّةٍ أمّيَّةٍ، لا يكتُبُ ولا يقرأُ

حتى كمَّلَ الأربعينَ من عُمره، ثمَّ جاءَ بعد ذلكَ بهذا الكتابِ المبين، وهذه الشريعةِ الباهرةِ، وهذا الدِّينِ القيِّم، الذي اعترفَ حُذَّاقُ أهل الأرضِ ونُظَّارُهُم أنَّه لم يقرع العالمَ ناموسٌ أعظمُ منه.

وفي هذا بُرهان ظاهر على صدقه.

والفائدة الثانية: التنبيهُ على أنَّ المبعوثَ فيهم -وهم الأمِّيُّون خُصوصًا أهل مكَّةَ- يعرفُونَ نسبهُ، وشرفهُ، وصدقهُ، وأمانتهُ، وعفتهُ، وأنَّه نشأ بينهُم معروفًا بذلك كلِّه، وأنَّه لم يكذبْ قطُّ؛ فكيفَ كان يدعُ الكذبَ على النَّاسِ ثم يفترِي الكذبَ على الله ﷻ، وهذا هو الباطِلُ، ولذلك سأل هِرقلُ

عن هذه الأوصافِ، واستدل بها على صدقِهِ فيما ادَّعاهُ من النّبَوةِ والرِّسالةِ.

وقوله: (يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ)، يعني: يتلُو عليهم ما أنزل اللهُ عليه من آياتِهِ المتلُوةِ، وهو القرآنُ، وهو أعظمُ الكُتبِ السَّماويَّةِ.

وقد تضمَّنَ من العلومِ والحكم، والمواعظِ، والقصصِ، والترغيبِ والترهيبِ، وذكرِ أخبارِ منْ سبقَ، وأخبارِ ما يأتي مِن البعثِ والنُّشور والجنَّةِ والنَّارِ، ما لم يشتمِلْ عليه كتابٌ غيرُهُ، حتَّى قالَ بعضُ العلماءِ: لو أنَّ هذا الكتابَ وُجِدَ مكتوبًا في مُصحَفٍ في فلاةٍ من الأرضِ، ولم يُعلمْ منْ وضعهُ هناك، لشهدتِ العُقولُ السَّليمةُ أنَّه منزلٌ مِن عندِ اللَهِ، وأنَّ البشرَ لا قدرةَ لهم على تأليفِ ذلك.

فكيف إذا جاءَ على يديْ أصدقِ الخلقِ وأبرِّهم وأتقاهُم، وقال إنَّه كلامُ اللهِ، وتحدَّى الخلقَ كلَّهم أن يأتوا بسُورةٍ من مثلِهِ، فعجزُوا.

=

=

فكيف يبقى مع هذا شكٌّ فيه؛ ولهذا قال تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ).
وقال تعالى: (أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ).
فلو لم يكنْ لمحمدٍ ﷺ منَ المعجزاتِ الدالةِ على صدقهِ غيرُ هذا الكتابِ لكفاهُ، فكيفَ ولهُ من المعجزاتِ الأرضيةِ والسماويةِ ما لا يُحصَى.
وقوله: (يُزَكيهِمْ): يعني أنَّه يُزكِّي قلوبَهم ويطهرُها من أدناسِ الشركِ والفُجورِ والضلالِ؛ فإنَّ النفوسَ تزكو إذا طهرتْ من ذلك كلِّه، ومن زكتْ نفسُه فقد أفلحَ، كما قال تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَاهَا).
وقال: (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكى). وقوله: (وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ).
يعني بالكتابِ القرآنَ، والمرادُ: ويعلّمُهم تلاوةَ ألفاظِهِ.
ويعني بالحكمةِ فهمَ معاني القرآنِ والعملَ بما فيه.
فالحكمةُ هي فهمُ القرآنِ والعملُ به، فلا يُكْتَفى بتلاوةِ ألفاظِ الكتابِ حتَّى يُعلمَ معناهُ ويُعملَ بمقتضاهُ، فمن جُمعَ له ذلك كلُّه فقد أُوتِيَ الحكمةَ.
قال تعالى: (يُؤْتِي الْحِكمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يؤْتَ الْحِكمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كثِيرًا).
قالَ الفضيلُ: العلماءُ كثيرٌ، والحكماءُ قليلٌ. وقال: الحكماءُ ورثةُ الأنبياءِ.
فالحكمةُ هي العلمُ النافعُ الذي يتبعُه العملُ الصالحُ. وهي نورٌ يقذفُ في القلبِ يُفهمُ بها معنى العلم المنزل من السَّماء، ويحُضُّ على اتِّباعِه والعملِ به.
ومَن قال: الحكمةُ السنةُ، فقولُه حقٌّ؛ لأنَّ السنةَ تفسِّرُ القرآنَ وتبينُ معانيه وتحُضُّ على اتباعِهِ والعملِ به؛ فالحكيمُ هو العالم المستنبطُ لدقائقِ العلم المنتفع بعلمهِ بالعمل بهِ. ولأبي العتاهية:

وكَيْفَ تُحِبُّ أَنْ تُدْعَى حكيمًا... وأنْتَ لِكُلِّ ما تَهْوَى رَكُوبَ
وتَضْحَكُ دَائِبًا ظَهْرًا لِبَطْنٍ... وَتَذْكُرُ مَا عَمِلْتَ فَلا تَتُوبُ

=

=

وقوله: (وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ)، إشارة إلى ما كان النَّاسُ عليه قبلَ إنزالِ هذا الكتابِ من الضلالِ، فإنَّ اللهَ تعالى نظرَ حينئذٍ إلى أهلِ الأرضِ، فمقتهُم، عربهُم وعجمهُم، إلا بقايا مِن أهلِ الكتابِ تمسَّكُوا بدينهِم الذي لم يُبدَّلْ ولم يُغيرْ، وكانوا قليلاً جدًّا.

فأمَّا عامَّةُ أهل الكتابِ فكانوا قد بدَّلُوا كُتُبَهُم وغيّرُوها وحرفُوها، وأدخلُوا في دينهم ما ليسَ منه فضلّوا وأضلُّوا.

وأمَّا غيرُ أهلِ الكتابِ فكانُوا على ضلالٍ مُبينٍ؛ فالأميّون أهلُ شركٍ يعبدَونَ الأوثانَ، والمجوسُ يعبدُونَ النيرانَ ويقولون بإلهينِ اثنينِ، وكذلك غيرهُم مِن أهلِ الأرضِ؛ منهم مَن كان يعبدُ النّجومَ، ومنهم مَن كان يعبدُ الشَّمسَ أو القمر، فهدَى الله المؤمنينَ بإرسالِ محمَّدٍ ﷺ إلى ما جاءَ بهِ منَ الهُدى ودينِ الحقّ؛ وأظهرَ اللهُ دينهُ حتى بلغَ مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، فظهرتْ فيها كلمةُ التَّوحيدِ والعَمَل بالعدْلِ بعد أن كانتْ الأرضُ كلُّها ممتلئةَ من ظُلمةِ الشِّركِ والظُّلم.

فالأميُّون هم العربُ، والآخرون الذين لم يلحقُوا بهم هم أهلُ فارسَ والرُّوم، فكانتْ أهلُ فارسَ مجوسًا، والرُّومُ نصارَى، فهدَى اللهُ تعالى جميعَ هؤلاءِ برسالةِ محمَّدٍ ﷺ إلى التوحيدِ.

وقد رُئي الإمامُ أحمدُ بعد موتهِ في المنامِ، فسُئلَ عن حالهِ، فقال: لولا هذا النبيُّ لكنَّا مجوسًا، وهو كما قال، فإنَّ أهلَ العراقِ لولا رسالة محمدٍ ﷺ لكانوا مجوسًا، وأهلُ الشامِ ومصرَ والرومُ لولا رسالة محمدٍ ﷺ لكانوا نصارَى، وأهلُ جزيرة العرب لولا رسالةُ محمدٍ لكانوا مشركينَ عبادَ أوثانٍ.

ولكن رحمَ اللهُ عبادهُ بإرسالِ محمدٍ ﷺ فأنقذَهُم مِن الضَّلالِ، كما قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)، ولهذا قال الله تعالى: (ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)، فمن حصلَ له نصيبٌ من دين الإسلامِ فقد حصلَ

=

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥).

{مَثَل الَّذِينَ حَمِّلُوا التَّوْرَاة} كُلِّفُوا الْعَمَل بِهَا {ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا} لَمْ يَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا مِنْ نَعْته ﷺ فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ {كَمَثَلِ الْحِمَار يَحْمِل أَسْفَارًا} أَيْ كُتُبًا فِي عَدَم انْتِفَاعه بِهَا {بِئْسَ مَثَل الْقَوْم الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ الله} الْمُصَدِّقَة لِلنَّبِيِّ ﷺ وَالْمَخْصُوص بِالذَّمِّ مَحْذُوف تَقْدِيره هَذَا الْمَثَل {وَاَللَّه لَا يَهْدِي الْقَوْم الظالمين} الكافرين.

قُلْ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ

=

له الفضلُ العظيمُ، قد عظمت عليه نعمةُ اللهِ، فما أحوجهُ إلى القيامِ بشكرِ هذه النعمةِ وسؤالِهِ دوامَها والثَّباتَ عليها إلى المماتِ، والموتَ عليها، فبذلكَ تتمُّ النِّعمةُ.

فإبراهيمُ عليه السلام هو إمامُ الحنفاء، المأمورُ محمَّدٌ ﷺ ومَن قبلُه منَ الأنبياءِ عليهم السلام بالاقتداء به، وهو الذي جعلهُ اللهُ للنَّاسِ إمامًا، وقدْ دعا هو وابنُه إسماعيلُ عليه السلام بأن يبعثَ اللهُ في أهلِ مكَّةَ رسولاً منهُم موصوفًا بهذِهِ الأوصافِ، فاستجابَ اللهُ لهما وجعلَ هذا النَبيَّ المبعُوثَ فيهم من ولدِ إسماعيلَ بن إبراهيمَ كما دعيا بذلك، وهو النَّبيُّ الذي أظهرَ دينَ إبراهيمَ الحنيفَ بعدَ اضمحلالِهِ وخفائِهِ على أهلِ الأرضِ فلهذا كان أولَى النَّاسِ بإبراهيمَ، كما قال تعالى: (إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا).

وقال ﷺ: "إنَّ لكلِّ نبيٍّ وليًّا مِن النَّبيينَ وإن وليي إبراهيم "، ثم تلا هذه الآية وكان ﷺ أشبهَ ولدِ إبراهيمَ بِهِ صُورةً ومعنًى، حتى أنَّه أشبههُ في خُلَّةِ اللهِ تعالى، فقال: "إن الله اتَّخذنِي خليلاً كما اتَخذَ إبراهيمَ خليلاً".

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦).

{قُلْ يَا أَيّهَا الَّذِينَ هَادُوا إنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِنْ دُون النَّاس فَتَمَنَّوْا الْمَوْت إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} تَعَلَّقَ بِتَمَنَّوْا الشَّرْطَانِ عَلَى أَنَّ الْأَوَّل قَيْد فِي الثَّانِي أَيْ إن صدقتم في زعمكم أنكم أولياء لله وَالْوَلِيّ يُؤْثِر الْآخِرَة وَمَبْدَؤُهَا الْمَوْت فَتَمَنَّوْهُ.

وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧).

{ولا يتمنونه أبدا بما قدمته أَيْدِيهمْ} مِنْ كُفْرهمْ بِالنَّبِيِّ الْمُسْتَلْزِم لِكَذِبِهِمْ {وَاَلله عَلِيم بِالظَّالِمِينَ} الْكَافِرِينَ.

قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨).

{قُلْ إنَّ الْمَوْت الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ} الْفَاء زَائِدَة {مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إلَى عَالِم الْغَيْب وَالشَّهَادَة} السِّرّ وَالْعَلَانِيَة {فَيُنَبِّئكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} فَيُجَازِيكُمْ بِهِ[1].

---

(١) المراد بالمثل في قوله تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ... الصفة والحال ...
والمراد بالذين حملوا التوراة: اليهود الذين كلفهم الله تعاليبالعمل بما اشتملت عليه التوراة من هدايات وأحكام وآداب ... ولكنهم نبذوها وتركوا العمل بها..
والأسفار: جمع سفر، وهو الكتاب الكبير المشتمل على ألوان من العلم النافع، وسمى بذلك لأنه يسفر ويكشف عما فيه من المعاني المفيدة للمطلع عليها.
والمعنى: حال هؤلاء اليهود الذين أنزل الله تعاليعليهم التوراة لهدايتهم.. ولكنهم لم ينتفعوا بها.. كحال الحمار الذي يحمل كتب العلم النافع، ولكنه لم يستفد من ذلك شيئا، لأنه لا يفقه شيئا مما يحمله..
=

=

ففي هذا المثل شبه الله تعالىاليهود الذين لم ينتفعوا بالتوراة التي فيها الهداية والنور، بحال الحمار الذين يحمل كتب العلوم النافعة دون أن يستفيد بها.

ووجه الشبه بين الاثنين: هو عدم الانتفاع بما من شأنه أن ينتفع به انتفاعا عظيما، لسمو قيمته، وجلال منزلته.

قال صاحب الكشاف: شبه اليهود في أنهم حملة التوراة وقراؤها وحفاظ ما فيها، ثم إنهم غير عاملين بها، ولا بمنتفعين بآياتها ... بالحمار، حمل أسفارا، أى: كتبا كبارا من كتب العلم، فهو يمشى بها، ولا يدرى منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله، وبئس المثل.. .

قال القرطبي: وفي هذا المثل تنبيه من الله تعالىلمن حمل الكتاب، أن يتعلم معانيه، ويعمل بما فيه، لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء اليهود، قال الشاعر:

زوامل للأسفار لا علم عندهم ... بجيّدها، إلا كعلم الأباعر

لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا ... بأوساقه، أو راح ما في الغرائر

وعبر-سبحانه-عن تكليفهم العمل بالتوراة وعن تركهم لذلك بقوله: حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها للإشعار بأن هذا التكليف منه تعاليلهم، كان عهدا مؤكدا عليهم، حتى لكأنهم تحملوه كما يتحمل الإنسان شيئا قد وضع فوق ظهره أو كتفيه. ولكنهم نبذوا هذا العهد، وألقوا بما فوق أكتافهم من أحمال، وانقادوا لأهوائهم وشهواتهم انقياد الأعمى لقائده..

ولفظ «ثم» في قوله ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها للتراخي النسبي، لأن عدم وفائهم بما عهد إليهم، أشد عجبا من تحملهم لهذه العهود.

وشبههم، بالحمار الذي هو مثل في البلادة والغباء، لزيادة التشنيع عليهم، والتقبيح لحالهم، حيث زهدوا وأعرضوا عن الانتفاع بأثمن شيء نافع، -وهو كتاب الله- كما هو شأن الحمار الذي لا يفرق فيما يحمله على ظهره بين الشيء النافع

=

=

والشيء الضار.

وجملة «يحمل أسفارا» في موضع الحال من الحمار، أو في موضع جر على أنها صفة للحمار، باعتبار أن المقصود به الجنس، فهو معرفة لفظا، نكرة معنى.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: «يحمل» ما محله؟ قلت: محله النصب على الحال، أو الجر على الوصف، لأن لفظ الحمار هنا، كلفظ اللئيم في قول الشاعر: ولقد أمر على اللئيم يسبني...

ثم أضاف-سبحانه-إلى ذم هؤلاء اليهود ذما آخر فقال: بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ....

وبِئْسَ فعل ذم، وفاعله ما بعده وهو قوله: مَثَلُ الْقَوْمِ وقد أغنى هذا الفاعل عن ذكر المخصوص بالذم، لحصول العلم بأن المذموم هو حال هؤلاء القوم الذين وصفهم-سبحانه-بأنهم قد كذبوا بآياته.

أى: بئس المثل مثل هؤلاء القوم الذين كذبوا بآيات الله تعاليالدالة على وحدانيته وقدرته، وعلى صدق أنبيائه فيما يبلغونه عنه تعالى.

وقوله: وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ تذييل قصد به بيان الأسباب التي أدت إلى عدم توفيق الله تعاليلهم إلى الهداية.

أى: والله تعاليقد اقتضت حكمته، أن لا يهدى إلى طريق الخير، من ظلم نفسه، بأن آثر الغي على الرشد، والعمى على الهدى، والشقاوة على السعادة، لسوء استعداده، وانطماس بصيرته.

قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا} [الجمعة: ٥]، أي:"شَبَهُ اليهود الذين كُلِّفوا العمل بالتوراة ثم لم يعملوا بها، كشَبه الحمار الذي يحمل كتبًا لا يدري ما فيها".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: مثل الذين أوتوا التوراة من اليهود والنصارى،

=

=

فحملوا العمل بها، ثم لم يعملوا بما فيها، وكذّبوا بمحمد ﷺ، وقد أمروا بالإيمان به فيها واتباعه والتصديق به، كمثل الحمار يحمل على ظهره كتبًا من كتب العلم، لا ينتفع بها، ولا يعقل ما فيها، فكذلك الذين أوتوا التوراة التي فيها بيان أمر محمد ﷺ مثلهم إذا لم ينتفعوا بما فيها، كمثل الحمار الذي يحمل أسفارًا فيها علم، فهو لا يعقلها ولا ينتفع بها".

قال السعدي:"لما ذكر تعالى منته على هذه الأمة، الذين ابتعث فيهم النبي الأمي، وما خصهم الله به من المزايا والمناقب، التي لا يلحقهم فيها أحد وهم الأمة الأمية الذين فاقوا الأولين والآخرين، حتى أهل الكتاب، الذين يزعمون أنهم العلماء الربانيون والأحبار المتقدمون، ذكر أن الذين حملهم الله التوراة من اليهود وكذا النصارى، وأمرهم أن يتعلموها، ويعملوا بما فيها، وانهم لم يحملوها ولم يقوموا بما حملوا به، أنهم لا فضيلة لهم، وأن مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره أسفارًا من كتب العلم، فهل يستفيد ذلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟ وهل يلحق به فضيلة بسبب ذلك؟ أم حظه منها حملها فقط؟ فهذا مثل علماء اليهود الذين لم يعملوا بما في التوراة، الذي من أجله وأعظمه الأمر باتباع محمد ﷺ، والبشارة به، والإيمان بما جاء به من القرآن، فهل استفاد من هذا وصفه من التوراة إلا الخيبة والخسران وإقامة الحجة عليه؟ فهذا المثل مطابق لأحوالهم".

عن عبيد، قال: "سمعت الضحاك يقول في قوله: {كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا} كتبًا، والكتاب بالنبطية يسمى سفرًا؛ ضرب الله هذا مثلا للذين أعطوا التوراة ثم كفروا".

عن ابن عباس في قوله: " {كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا}، يقول: كتبًا. والأسفار: جمع سفر، وهي الكتب العظام".

قال ابن عباس:"الأسفار: الكتب، فجعل الله مثل الذي يقرأ الكتاب ولا يتبع ما

=

=

فيه، كمثل الحمار يحمل كتاب الله الثقيل، لا يدري ما فيه، ثم قال: {بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ}... الآية".

قال ابن زيد:"الأسفارُ: التوراة التي يحملها الحمار على ظهره، كما تحمل المصاحف على الدواب، كمثل الرجل يسافر فيحمل مصحفه، قال: فلا ينتفع الحمارُ بها حين يحملها على ظهره، كذلك لم ينتفع هؤلاء بها حين لم يعملوا بها وقد أوتوها، كما لم ينتفع بها هذا وهي على ظهره".

عن مجاهد، في قوله: {يَحْمِلُ أَسْفَارًا}، قال: "يحمل كتبًا لا يدري ما فيها، ولا يعقلها".

قال قتادة:"يحمل كتابًا لا يدري ماذا عليه، ولا ماذا فيه".

قال قتادة:"كمثل الحمار الذي يحمل كتبًا، لا يدري ما على ظهره".

قال الحسن:"يَحمِل على ظهره، فلا يدري ما على ظهره، فكذلك المنافق يَحمِل كمِثْله".

قوله تعالى: {بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ} [الجمعة: ٥]، أي:"قَبُحَ مَثَلُ القوم الذين كذَّبوا بآيات الله، ولم ينتفعوا بها".

قال الطبري:"يقول: بئس هذا المثل، مثل القوم الذين كذبوا بأدلته".

قال السعدي:"بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صدق رسولنا وصدق ما جاء به".

قال ابن كثير:"يقول تعالى ذامًّا لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها، فلم يعملوا بها، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارا، أي: كمثل الحمار إذا حمل كتبا لا يدري ما فيها، فهو يحملها حملا حسيا ولا يدري ما عليه. وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه، حفظوه لفظا ولم يفهموه ولا عملوا بمقتضاه، بل أولوه وحرفوه وبدلوه، فهم أسوأ حالا من الحمير؛ لأن الحمار لا

=

=

فهمَ له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: {أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: ١٧٩]".

قوله تعالى: {وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [الجمعة: ٥]، أي:"والله لا يوفِّق القوم الظالمين الذين يتجاوزون حدوده، ويخرجون عن طاعته".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والله لا يوفِّق القوم الذين ظلموا أنفسهم، فكفروا بآيات ربهم".

قال السعدي:"أي: لا يرشدهم إلى مصالحهم، ما دام الظلم لهم وصفًا، والعناد لهم نعتًا ومن ظلم اليهود وعنادهم، أنهم يعلمون أنهم على باطل، ويزعمون أنهم على حق، وأنهم أولياء الله من دون الناس".

ثم أمر الله تعالىنبيه ﷺ أن يتحدى اليهود، وأن يرد على مزاعمهم ردا يخرس ألسنتهم، ويكشف عن أكاذيبهم.. فقال-سبحانه-: (قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ).

قال الآلوسى: وأمر ﷺ أن يقول لهم ذلك، إظهارا لكذبهم، فإنهم كانوا يقولون: نَحْنُ أَبْناءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ويدعون أن الآخرة خالصة لهم عند الله.

والمقصود بالذين هادوا، أى: الذين ادعو أنهم على الديانة اليهودية، يقال: هاد فلان وتهوّد. إذا دخل في اليهودية، نسبة إلى يهوذا أحد أبناء يعقوب-عليه السلام، أو سموا بذلك حين تابوا عن عبادة العجل، من هاد يهود هودا بمعنى تاب، ومنه قوله تعالى:

وَاكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ ... أى: تبنا إليك.

ومعنى، أولياء الله ... مقربين منه، كرماء عليه، لهم منزلة خاصة عنده تعاليوقوله: فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ ... جواب الشرط، والتمني معناه: ارتياح النفس، ورغبتها القوية في الحصول على الشيء.

=

=

ويستعمل التمني في المعنى القائم بالقلب، بأن تتطلع نفس الشخص إلى الحصول على الشيء. كما يستعمل عن طريق النطق باللسان، بأن يقول الإنسان بلسانه، ليتني أحصل على كذا.

وهذا المعنى الثاني هو المراد هنا، لأن المعنى الكائن في القلب لا يعلمه أحد سوى الله تعالى.

ومعنى الآية الكريمة: قل يا محمد لهؤلاء اليهود الزاعمين. أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم أولياء الله تعاليالمقربون إليه من دون سائر خلقه ... قل لهم على سبيل التحدي والتعجيز والتبكيت-إن كان الأمر كما زعمتم، فاذكروا أمام الناس بألسنتكم لفظا، يدل على أنكم تحبون الموت وترغبون فيه، لكي تظفروا بعد الموت بالمحبة الكاملة من الله، ولكي تنتقلوا من شقاء الدنيا ومتاعبها إلى النعيم الخالص بعد موتكم.

وجواب الشرط في قوله: إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ محذوف لدلالة ما قبله عليه.

أى: إن كنتم صادقين في دعواكم أنكم أولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت.

وافتتحت الآية الكريمة بلفظ قُلْ للاهتمام بشأن التحدي من الرسول ﷺ لهم، ولبيان أنه أمر من الله تعاليوليس للرسول ﷺ سوى التنفيذ.

وجيء بإن الشرطية المفيدة للشك، مع أنهم قد زعموا أنهم أولياء لله فعلا، للإشعار بأن زعمهم هذا وإن كانوا قد كرروا النطق والتباهي به.. إلا أنه بمنزلة الشيء الذي تلوكه الألسنة، دون أن يكون له أساس من الواقع، فهو لوضوح بطلانه صار بمنزلة الشيء الذي يفترض وقوعه افتراضا على سبيل التوبيخ لهم.

قال الآلوسى ما ملخصه: قوله: قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا أى: تهودوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ أى: أحباء لله، ولم يضف-سبحانه-لفظ أولياء إليه، كما في قوله: أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ... ليؤذن بالفرق بين مدعى الولاية، ومن يخصه

=

=

تعاليبها.

وقوله: مِنْ دُونِ النَّاسِ ... حال من الضمير الراجع إلى اسم إِنْ أى: متجاوزين عن الناس.

فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ أى: فتمنوا من الله أن يميتكم وينقلكم من دار البلية إلى محل الكرامة. فإن من أيقن أنه من أهل الجنة أحب أن يخلص إليها من هذه الدنيا التي هي دار كدر وتعب.. .

قوله تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا} [الجمعة: ٦]، أي:"قل -أيها الرسول- للذين تمسكوا بالملة اليهودية المحرَّفة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لليهود {قُلْ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا.. }".

قال ابن وهب:"قال ابن زيد، في قوله: {قُلْ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا} قل يا أيها الذين تابوا: لليهود، قال موسى: {إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ}، إنا تبنا إليك".

قال اين جريج:"إنما سميت اليهود من أجل أنهم قالوا: {إنا هدنا إليك}".

قال أبو عمرو بن العلاء: "لأنّهم يَتَهَوَّدُون، أي: يتحرّكون عند قراءة التوراة، ويقولون: إنّ السموات والأرض تحرّكت حين آتى اللهُ موسى التوراة".

قوله تعالى: {إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ} [الجمعة: ٦]، أي:": إن ادَّعيتم-كذبًا-أنكم أحباء الله دون غيركم من الناس".

عن ابن جُرَيْج، في قوله: " {إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلَّهِ}، قالوا: نحن أبناء الله وأحبّاؤه".

قال الطبري:"{إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ} سواكم".

قال ابن كثير:"أي: إن كنتم تزعمون أنكم على هدى، وأن محمدا وأصحابه على ضلالة".

=

=

قال السعدي:"أمر الله رسوله، أن يقول لهم: إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم على الحق، وأولياء الله".

قوله تعالى: {فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الجمعة: ٦]، أي:"فتمنَّوا الموت إن كنتم صادقين في ادِّعائكم حب الله لكم".

قال الطبري:"{فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} في قيلكم، إنكم أولياء لله من دون الناس، فإن الله لا يعذّب أولياءه، بل يكرمهم وينعمهم، وإن كنتم محقين فيما تقولون فتمنوا الموت لتستريحوا من كرب الدنيا وهمومها وغمومها، وتصيروا إلى روح الجنان ونعيمها بالموت".

قال السعدي:"{فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ} وهذا أمر خفيف، فإنهم لو علموا أنهم على حق لما توقفوا عن هذا التحدي الذي جعله الله دليلا على صدقهم إن تمنوه".

قال ابن كثير: أي:"فادعوا بالموت على الضال من الفئتين {إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} فيما تزعمونه.. وقد قدمنا في سورة "البقرة" الكلام على هذه المباهلة لليهود، حيث قال تعالى: {قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ} [البقرة: ٩٤ -٩٦]، والمراد أن يدعوا على الضال من أنفسهم أو خصومهم، كما تقدمت مباهلة النصارى في آل عمران: {فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} [آل عمران: ٦١] ومباهلة المشركين في سورة مريم: {قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا} [مريم: ٧٥]".

عن أبي العالية:"{إن كنتم صادقين}، بما تقولون إنه كما تقولون".

=

=

قال ابن عباس:"قال، لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه.
عن ابن عباس قال: قال أبو جهل لعنه الله: "إن رأيتُ محمدا عند الكعبة لآتينَّه حتى أطأ على عُنُقه. قال: فقال رسول الله ﷺ: «لو فعل لأخذَته الملائكة عيانًا، ولو أن اليهود تَمَنَّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار». ولو خرج الذين يُباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا".
ثم أخبر-سبحانه-عن واقعهم وعن حالتهم المستقبلة فقال: (وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ).
أى: أن هؤلاء اليهود لا يتمنى أحدهم الموت أبدا. بسبب ما قدمته أيديهم من آثام، والله تعاليلا تخفى عليه خافية من سيئاتهم واعتداءاتهم وظلمهم بل هو-سبحانه-يسجل ذلك عليهم، ويجازيهم بما يستحقونه من عقاب..
فالآية الكريمة خبر من الله تعاليعن اليهود بأنهم يكرهون الموت، ولا يتمنونه، ولا يستطيعون قبول ما تحداهم به ﷺ من طلبهم تمنى الموت، لعلمهم بأنهم لو أجابوه إلى طلبه، لحل بهم الموت الذي يكرهونه.
قال ابن عباس: لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه..
وقال ابن جرير: وبلغنا أن النبي ﷺ قال: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النار..» .
وقال ابن كثير: وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال أبو جهل-لعنه الله-: إن رأيت محمدا عند الكعبة، لآتينه حتى أطأ عنقه. قال: فقال رسول الله ﷺ: «لو فعل لأخذته الملائكة عيانا، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار. ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا
.
وقال صاحب الكشاف ما ملخصه: وقوله: وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً أى: بسبب ما قدموا
=

=

من الكفر، وقد قال لهم ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يقولها أحد منكم إلا غص بريقه» فلولا أنهم كانوا موقنين بصدق رسول الله ﷺ لتمنوا، ولكنهم علموا أنهم لو تمنوا لماتوا من ساعتهم ولحقهم الوعيد فما تمالك أحد منهم أن يتمنى، وهي إحدى المعجزات-لأنها إخبار بالغيب وكانت كما أخبر-.

فإن قلت: ما أدراك أنهم لم يتمنوا الموت؟ قلت: لو تمنوا لنقل ذلك عنهم، كما نقلت سائر الحوادث، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن في الإسلام، أكثر من الذر، وليس أحد منهم نقل عنه ذلك ... .

هذا، ويكفى في تحقيق هذه المعجزة، ألا يصدر تمنى الموت عن اليهود الذين تحداهم النبي ﷺ بذلك، وهم الذين كانوا يضعون العراقيل في طريق دعوته.. ولا يقدح في هذه المعجزة، أن ينطق يهودي بعد العهد النبوي بتمني الموت، وهو حريص على الحياة، لأن المعنيين بالتحدي هم اليهود المعاصرون للعهد النبوي.

والمقصود بقوله تعالى: وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ التهديد والوعيد. أى: والله تعاليعليم علما تاما بأحوال هؤلاء الظالمين، وسيعاقبهم العقاب الذي يتناسب مع ظلمهم وبغيهم. فالمراد من العلم لازمه، وهو الجزاء والحساب..

وعبر-سبحانه-هنا بقوله: وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ ... وفي سورة البقرة بقوله: وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ.... للإشعار بأنهم يكرهون الموت في الحال وفي المستقبل كراهة شديدة.

قوله تعالى: {وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} [الجمعة: ٧].

قال الطبري:"يقول: ولا يتمنى اليهود الموت أبدًا بما اكتسبوا في هذه الدنيا من الآثام، واجترحوا من السيئات".

قال ابن كثير: " أي: بما يعلمون لهم من الكفر والظلم والفجور".

قال السعدي:"وكذبهم إن لم يتمنوه ولما لم يقع منهم مع الإعلان لهم بذلك، علم أنهم عالمون ببطلان ما هم عليه وفساده، ولهذا قال: {وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ

=

=

أَيْدِيهِمْ} أي من الذنوب والمعاصي، التي يستوحشون من الموت من أجلها".

عن عباد بن منصور عن الحسن، قال:"قول الله: {ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم}، فقلت: أرأيت لو أنهم أحبوا الموت حين قال لهم فتمنوا أراهم كانوا ميتين؟ قال: لا. والله ما كانوا ليموتوا لو تمنوا الموت، وما كانوا ليتمنوه، وقد قال الله ما سمعت: {ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين}".

قوله تعالى: {وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ} [الجمعة: ٧]، أي:". والله عليم بالظالمين، لا يخفى عليه من ظلمهم شيء".

قال الطبري:"يقول: والله ذو علم بمن ظلم من خلقه نفسه، فأوبقها بكفره بالله".

قال السعدي:"فلا يمكن أن يخفى عليه من ظلمهم شيء".

قال ابن عباس:"يقول الله لنبيه: {ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين}، أي: يعلمهم بما عندهم من العلم بك، والكفر بذلك، ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلا مات".

عن قتادة، قوله: " {والله عليم}، قال: عالم".

عن ابن عباس:"{بالظالمين}، الكافرين".

ثم أمر الله تعاليرسوله ﷺ بأن يخبرهم بأنهم لا مفر لهم من الموت، مهما حرصوا على الهروب منه. فقال تعالى: (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ....)

أى: قل-أيها الرسول الكريم-لهؤلاء اليهود الذين يكرهون الموت، ويزعمون أنهم أحباب الله؟.

قل لهم على سبيل التوبيخ والتبكيت: إن الموت الذي تكرهونه، وتحرصون على الفرار منه، لا مهرب لكم منه، ولا محيص لكم عنه، فهو نازل بكم إن عاجلا أو آجلا كما قال-سبحانه-أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ

=

مُشَيَّدَةٍ....

فالمقصود بهذه الآية الكريمة إخبارهم بأن هلعهم من الموت مهما اشتد لن يفيدهم شيئا، لأن الموت نازل بهم لا محالة ...

ثم بين-سبحانه-أنهم بعد الموت، سيجدون الجزاء العادل فقال: ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ، فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ.

أى: قل لهم-أيها الرسول الكريم-: إن الموت نازل بكم لا محالة. ثم بعد هلاككم سترجعون إلى الله تعاليالذي يعلم السر والعلانية، والجهر والخفاء، فيجازيكم على أعمالكم السيئة، بما تستحقونه من عقاب.

فالمراد بالإنباء عما كانوا يعملونه، الحساب على ذلك، والمجازاة عليه.

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ} [الجمعة: ٨]، أي:"قل: إن الموت الذي تهربون منه لا مفرَّ منه، فإنه آتٍ إليكم عند مجيء آجالكم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ {قُلْ} يا محمد لليهود {إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ} فتكرهونه، وتأبون أن تتمنوه {فَإِنَّهُ مُلاقِيكُمْ} ونازل بكم".

قال السعدي:"هذا وإن كانوا لا يتمنون الموت بما قدمت أيديهم، ويفرون منه غاية الفرار، فإن ذلك لا ينجيهم، بل لا بد أن يلاقيهم الموت الذي قد حتمه الله على العباد وكتبه عليهم".

وفي قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ} [الجمعة: ٨]، وجوه:

أحدها: معناه تفرون من الداء بالدواء فإنه ملاقيكم بانقضاء الأجل.

الثاني: تفرون من الجهاد بالقعود فإنه ملاقيكم بالوعيد.

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩).

=

الثالث: تفرون منه بالطيرة من ذكره حذراً من حلوله فإنه ملاقيكم بالكره والرضا.

الرابع: إنه الموت الذي تفرون أن تتمنوه حين قال تعالى: {فَتَمَنَّوُا الْمَوْت} [الجمعة: ٦].

عن الحسن، عن سَمُرَة مرفوعا: "مثل الذي يفر من الموت كمثل الثعلب تطلبه الأرض بدين، فجاء يسعى حتى إذا أعيا وانبهر دخل جحره، فقالت له الأرض: يا ثعلب ديني. فخرج له حُصَاص، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه، فمات".

قوله تعالى: {ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [الجمعة: ٨]، أي:"ثم ترجعون يوم البعث إلى الله العالم بما غاب وما حضر".

قال الطبري: يقول: " ثم يردّكم ربكم من بعد مماتكم إلى عالم الغيب والشهادة، عالم غيب السموات والأرض؛ والشهادة: يعني وما شهد فظهر لرأي العين، ولم يغب عن أبصار الناظرين".

قال السعدي:"ثم بعد الموت واستكمال الآجال، يرد الخلق كلهم يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئهم بما كانوا يعملون، من خير وشر، قليل وكثير".

عن معمر، قال: "تلا قتادة: {ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ}، فقال: إن الله أذّل ابن آدم بالموت، لا أعلمه إلا رفعه".

قوله تعالى: {فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الجمعة: ٨]، أي:"فيخبركم بأعمالكم، وسيجازيكم عليها".

قال الطبري: " يقول: فيخبركم حينئذ ما كنتم في الدنيا تعملون من الأعمال، سيئها وحسنها، لأنه محيط بجميعها، ثم يجازيكم على ذلك المحسن بإحسانه، والمسيء بما هو أهله".

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ} بِمَعْنَى فِي {يَوْم الْجُمُعَة فَاسْعَوْا} فَامْضُوا {إِلَى ذِكْر الله} لِلصَّلَاةِ {وَذَرُوا الْبَيْع} اُتْرُكُوا عَقْده {ذَلِكُمْ خَيْر لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} أَنَّهُ خَيْر فافعلوه.

فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠).

{فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاة فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْض} أَمْر إِبَاحَة {وَابْتَغُوا} اُطْلُبُوا الرِّزْق {مِنْ فَضْل الله وَاذْكُرُوا الله} ذِكْرًا {كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} تَفُوزُونَ كَانَ ﷺ يَخْطُب يَوْم الْجُمُعَة فَقَدِمَتْ عِير وَضُرِبَ لِقُدُومِهَا الطَّبْل عَلَى الْعَادَة فَخَرَجَ لَهَا النَّاس مِنْ الْمَسْجِد غَيْر اثْنَيْ عَشَر رَجُلًا فَنَزَلَتْ.

وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١).

{وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَة أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا} أَيْ التِّجَارَة لِأَنَّهَا مَطْلُوبهمْ دُون اللَّهْو {وَتَرَكُوك} فِي الْخُطْبَة {قَائِمًا قُلْ مَا عِنْد الله} مِنْ الثَّوَاب {خَيْر} لِلَّذِينَ آمَنُوا {مِنْ اللَّهْو وَمِنْ التِّجَارَة وَالله خَيْر الرَّازِقِينَ} يُقَال كُلّ إِنْسَان يَرْزُق عَائِلَته أَيْ مِنْ رِزْق الله تعالى[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن ابن سيرين؛ قال: جمع أهل المدينة قبل أن يقدم رسول الله ﷺ وقبل أن تنزل الجمعة وهم الذين سموها الجمعة، فقالت الأنصار: لليهود يوم يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك؛ فهلم! فليجعل يومـاً نجتمع ونذكر الله ونصلي ونشكره فيه -أو كما قالوا-، فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوه يوم العروبة، وكانوا يسمون يوم الجمعة يوم العروبة، فاجتمعوا إلى =

=

أسعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ وذكرهم فسموه الجمعة، حتى اجتمعوا إليه فذبح أسعد بن زرارة لهم شاة فتغدوا وتعشوا من شاة واحدة؛ وذلك لقلتهم؛ فأنزل الله في ذلك بعد ذلك: {إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ}.

أخرجه عبد الرزاق في "المصنف" (٣/ ١٥٩، ١٦٠ رقم ٥١٤٤) عن معمر عن أيوب عن ابن سيرين به. وهذا مرسل رجاله ثقات.

وعن محمد بن كعب: أن رجلين من أصحاب النبي ﷺ كانا يختلفان في تجارتهما إلى الشام، فربما قدما يوم الجمعة، ورسول الله ﷺ يخطب فيدعونه ويقومون فيما هم إلا بيعًا حتى تقام الصلاة؛ فأنزل الله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩)}؛ قال: فحرم عليهم ما كان قبل ذلك.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٦٣) ونسبه لعبد بن حميد. وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ؛ إذ أقبلت عير تحمل طعامًا، فالتفتوا إليها؛ حتى ما بقي مع النبي ﷺ إلا اثنا عشر رجلاً؛ فنزلت هذه الآية: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)}.

أخرجه البخاري (رقم ٩٣٦، ٢٠٥٨، ٢٠٦٤، ٤٨٩٩)، ومسلم (رقم ٨٦٣/ ٣٦، ٣٧، ٣٨).

وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٦٨)، والطحاوي في "مشكل الآثار" (٤/ ١٣٢، ١٣٣ رقم ١٤٩٠)، وأبو عوانة في "صحيحه"؛ كما في "الفتح" (٢/ ٤٢٤) بسند صحيح من طريق آخر عن جابر؛ قال: كان الجواري إذا نكحوا كانوا يمرون بالكبر والمزامير ويتركون النبي ﷺ قائمًا على المنبر وينفضون إليها؛

=

=

فأنزل الله: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)}.

قال السيوطي في "لباب النقول": "وكأنها نزلت في الأمرين معـًا".

ثم ذكر أن ابن المنذر أخرجه عن جابر بالقصتين معـًا.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقدم دحية بن خليفة يبيع سلعة له، فما بقي في المسجد أحد إلا خرج؛ إلا نفر والنبي ﷺ، قال: فأنزل الله تعالى: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)}.

أخرجه البزار في "مسنده" (٣/ ٧٦ رقم ٢٢٧٣ -"كشف"): ثنا عبد الله بن شبيب ثنا إسحاق بن محمد ثنا إبراهيم بن إسماعيل عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس به.

وهذا سند ضعيف جداً؛ فيه علل:

الأولى: شيخ البزار؛ واهٍ.

الثانية: إبراهيم بن إسماعيل هو الأشهلي مولاهم أبو إسماعيل المدني؛ ضعيف.

الثالثة: رواية داود بن الحصين عن عكرمة على وجه الخصوص منكرة؛ كما قال ابن المديني وأبو داود. وانظر: "تهذيب الكمال" (٨/ ٣٨٠، ٣٨١).

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٢٤): "رواه البزار عن شيخه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف".

وعن أبي مالك؛ قال: قدم دحية بن خليفة بتجارة زيت من الشام والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فلما رأوه؛ قاموا إليه بالبقيع، خشوْا أن يسبقوا إليه؛ قال: فنزلت: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٦٧): ثنا ابن حميد ثنا مهران عن سفيان

=

=

عن السدي عنه به. وهذا سند ضعيف جداً؛ فيه علل:

الأولى: الإرسال.

الثانية: مهران؛ صدوق له أوهام سيئ الحفظ.

الثالثة: ابن حميد؛ ضعيف إنّهم بالكذب.

وعن الحسن في قوله تعالى: {انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا}: أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلا سعرهم، فقدمت عير والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فسمعوا بها؛ فخرجوا إليها والنبي ﷺ قائم كما هو؛ فأنزل الله تعالى: {وَتَرَكُوكَ قَائِمًا} فقال النبي ﷺ: "لو اتبع آخرهم أولهم؛ التهب عليهم الوادي ناراً".

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٩٢): نا معمر عن الحسن به. وهو مرسل ضعيف.

وعن مقاتل بن حيان؛ قال: كان رسول الله ﷺ يصلي الجمعة قبل الخطبة، مثل العيدين، حتى كان يوم الجمعة، والنبي ﷺ يخطب، وقد صلى الجمعة، فدخل رجل؛ فقال: إن دحية بن خليفة قد قدم بتجارة، وكان دحية إذا قدم؛ تلقاه أهله بالدفاف، فخرج الناس ولم يظنوا إلا أنه ليس في ترك الخطبة شيء، فأنزل الله تعالى: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)}؛ فقدّم النبي ﷺ الخطبة يوم الجمعة وأخّر الصلاة.

أخرجه أبو داود في "المراسيل" (ص ١٠٥ رقم ٦٢) -ومن طريقه الحازمي في "الناسخ والمنسوخ"؛ كما في "تخريج الكشاف" (٤/ ٢٨) -بسند صحيح إلى مقاتل.

وهو ضعيف؛ لإعضاله.

وعن مقاتل بن حيان؛ أنه قال في هذه الآية: كان يخطب النبي ﷺ ويقوم يوم

=

=

الجمعة قائمـًا، كان دحية الكلبي كـان رجلاً تـاجراً، وكـان قبـل أن يـسلم إذا أقبـل بتجارته إلى المدينة؛ خرج الناس ينظرون إلى ما جاء به فيشترون منه، فقدم ذات يوم المدينة ووافق الجمعة والناس عند رسول الله ﷺ في المسجد، وهو قائم يخطب، فاستقبل أهل دحية العير دخلوا المدينة بالطبل واللهو؛ فذلك اللهو الذي ذكر الله، فسمع الناس في المسجد أن دحية قد نزل بتجارة عند أحجار الزيت؛ وهو مكان في سوق المدينة، وسمعوا أصواتـًا فخرج عامة الناس إلى دحية ينظرون إلى تجارته وإلى اللهو، وتركوا رسول الله ﷺ قائمـًا ليس معه كثير أحد؛ فبلغني -والله أعلم-أنهم فعلوا ذلك ثلاث مرات في كل مرة بعير تقدم من الشام للتجارة، وكان ذلك يوافق الجمعة، وبلغنا أن العدة التي بقيت في المسجد مع النبي ﷺ عدة قليلة؛ فقال النبي ﷺ عند ذلك: "لولا هؤلاء"؛ يعني: هؤلاء الذين بقوا في المسجد مع النبي ﷺ؛ "لقصدت إليهم الحجارة من السماء"، ونزل: {قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}.

أخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (٥/ ٢٣٥، ٢٣٦ رقم ٦٤٩٥) بسند صحيح إليه.

وسنده ضعيف؛ لإعضاله.

وعن قتادة؛ قال: ذكر لنا أن نبي الله قام الجمعة فخطبهم ووعظهم وذكرهم، فقيل: جاءت عير؛ فجعلوا يقومون حتى بقيت عصابة منهم، فقال: "كم أنتم؟ فعدوا أنفسكم"؛ فإذا اثنا عشر رجلاً وامرأة، ثم قام الجمعة الثانية فخطبهم ووعظهم وذكرهم، فقيل: جاءت عير، فجعلوا يقومون حتى بقيت عصابة منهم، فقال: "كم أنتم؟ فعدوا أنفسكم"؛ فإذا اثنا عشر رجلاً وامرأة، فقال: "والذي نفس محمد بيده؛ لو اتبع آخركم أولكم؛ لالتهب الوادي عليكم ناراً"، وأنزل الله فيها: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ

=

=

التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٦٧) ونسبه لعبد بن حميد. هو عند الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٦٧، ٦٨): ثنا بشر ثنا يزيد ثنا سعيد عن قتادة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن السدي في قوله تعالى: {إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ}؛ قال: جاء دحية الكلبي بتجارة والنبي ﷺ قائم في الصلاة يوم الجمعة؛ فتركوا النبي ﷺ وخرجوا إليه؛ فنزلت: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١)}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٦٧): ثنا أبو كريب ثنا ابن يمان ثنا سفيان عن السدي به.

وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: الإعضال.

الثانية: ابن يمان -اسمه يحيى-؛ وهو صدق كثير الخطأ، وقد تغير؛ كما في "التقريب".

* بعد هذا التوبيخ والتحدي لليهود الذين زعموا أنهم أولياء لله من دون الناس.. وجه -سبحانه- للمؤمنين نداء أمرهم فيه بالمسارعة إلى أداء فرائضه ونهاهم عن أن تشغلهم دنياهم عن ذكره وطاعته، فقال تعالى: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللهِ....) والمقصود بالنداء في قوله -سبحانه-: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ ... جميع المكلفين بها، الذين يجب عليهم أداؤها..

وناداهم -سبحانه- بصفة الإيمان، لتحريك حرارة الإيمان في قلوبهم، ولتحريضهم على المسارعة إليها، إذ من شأن المؤمن القوى، أن يكون مطيعا لما يأمره خالقه

=

=

به.

والمراد بالنداء: الأذان والإعلام بوقت حلولها.

والمقصود بالصلاة المنادى لها هنا: صلاة الجمعة، بدليل قوله تعاليمِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ.

واللام في قوله لِلصَّلاةِ للتعليل، ومِنْ بمعنى في، أو للبيان، أو للتبعيض، لأن يوم الجمعة زمان، تقع فيه أعمال، منها الصلاة المعهودة فيه وهي صلاة الجمعة لأن الأمر بترك البيع خاص بها، لوجود الخطبة فيها.

وقوله: فَاسْعَوْا ... جواب الشرط، من السعى، وهو المشي السريع.

والمراد به هنا: المشي المتوسط بوقار وسكينة، وحسن تهيؤ لصلاة الجمعة..

قال الآلوسى ما ملخصه: قوله: فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللهِ أى: امشوا إليه بدون إفراط في السرعة..

فقد أخرج الستة في كتبهم عن أبى سلمة من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون، وأتوها وأنتم تمشون، وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا».

والمراد بذكر الله: الخطبة والصلاة جميعا، لاشتمالهما عليه، واستظهر بعضهم أن المراد به الصلاة، وقصره بعضهم على الخطبة.. .

وإنما عبر -سبحانه- بالسعي لتضمنه معنى زائدا على المشي، وهو الجد والحرص على التبكير، وعلى توقى التأخير.

والمعنى: يا من آمنتم بالله حق الإيمان، إذا نادى المنادى لأجل الصلاة في يوم الجمعة، فامضوا إليها بجد، وإخلاص نية، وحرص على الانتفاع بما تسمعونه من خطبة الجمعة، التي هي لون من ألوان ذكر الله تعاليوطاعته.

والأمر في قوله -سبحانه-: فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللهِ، وَذَرُوا الْبَيْعَ.. الظاهر أنه

=

=

للوجوب، لأن الأمر يقتضى الوجوب، ما لم يوجد له صارف عن ذلك، ولا صارف له هنا.

والمراد من البيع هنا: المعاملة بجميع أنواعها، فهو يعم البيع والشراء وسائر أنواع المعاملات.

أى: إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة، فاخرجوا إليها بحرص وسكينة ووقار. واتركوا المعاملات الدنيوية من بيع، وشراء، وإجارة، وغيرها.

وإنما قال-سبحانه-: وَذَرُوا الْبَيْعَ ... لأنه أهم أنواع المعاملات، فهو من باب التعبير عن الشيء بأهم أجزائه.

واسم الإشارة في قوله-سبحانه-: ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يعود إلى ما سبق ذكره من الأمر بالسعي إلى ذكر الله، متى نودي للصلاة، وترك الاشتغال بالبيع وما يشبهه.

أى: ذلكم الذي أمرتكم به من السعى إلى ذكر الله عند النداء للصلاة من يوم الجمعة، ومن ترك أعمالكم الدنيوية.. خير لكم مما يحصل لكم من رزق في هذه الأوقات، عن طريق البيع أو الشراء أو غيرهما.

فالمفضل عليه محذوف، لدلالة الكلام عليه، والمفضل هو السعى إلى ذكر الله تعالى.

وهذا التفضيل باعتبار أن منافع السعى إلى ذكر الله تعاليباقية دائمة، أما المنافع الدنيوية فهي زائلة فانية ...

وجواب الشرط في قوله إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ محذوف. أى: إن كنتم تعلمون ما هو خير لكم، فاسعوا إلى ذكر الله عند النداء للصلاة، واتركوا البيع والشراء.

أو إن كنتم من أهل العلم والفقه السليم للأمور، عرفتم أن امتثال أمر الله تعاليبأن تسعوا، إلى ذكره عند النداء لصلاة الجمعة، خير لكم من الاشتغال في هذا الوقت

=

=

بالبيع والشراء..

إذ في هذا الامتثال سعادتكم ونجاتكم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [الجمعة: ٩].

قال ابن عثيمين: "إن تصدير الحكم بالنداء دليل على الاهتمام به؛ لأن النداء يوجب انتباه المنادَى؛ ثم النداء بوصف الإيمان دليل على أن تنفيذ هذا الحكم من مقتضيات الإيمان؛ وعلى أن فواته نقص في الإيمان".

قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} فأرعها سمعك؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه".

قال خيثمة: "ما تقرأون في القرآن: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، فإنه في التوراة: يا أيها المساكين".

قوله تعالى: {إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ} [الجمعة: ٩]، أي:"، إذا نادى المؤذن للصلاة في يوم الجمعة".

قال ابن كثير: "إنما سميت الجمعة جمعة؛ لأنها مشتقة من الجمع، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مَرَّةً بالمعابد الكبار وفيه كَمُل جميع الخلائق، فإنه اليوم السادس من الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض. وفيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها. وفيه تقوم الساعة. وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحاح .. وقد كان يقال له في اللغة القديمة يوم العروبة. وثبت أن الأمم قبلنا أمروا به فَضَلّوا عنه، واختار اليهود يوم السبت الذي لم يقع فيه خلق واختار النصارى يومَ الأحد الذي ابتدئ فيه الخلق، واختار الله لهذه الأمة يوم الجمعة الذي أكمل الله فيه الخَلِيقَةَ".

كما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن

=

=

الآخرون، ونحن السابقون يوم القيامة، بيد أن كل أمة أوتيت الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، ثم هذا اليوم الذي كتبه الله علينا، هدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدا، والنصارى بعد غد» ".

قال الماوردي:"وكان اسم يوم الجمعة في الجاهلية: «العروبة»، لأن أسماء الأيام في الجاهلية كانت غير هذه الأسماء، فكانوا يسمون يوم الأحد: أوّل، والأثنين: أهون، والثلاثاء: جبار، والأربعاء: دبار، والخميس: مؤنس، والجمعة: عروبة، والسبت: شيار، وأنشدني بعض أهل الأدب:

أؤمل أن أعيش وإن يومي... بأوّل أو أهون أو جبار

أو التالي دبار أو فيومي... بمؤنس أو عروبة أو شيار

وأول من سماه يوم الجمعة كعب بن لؤي بن غالب، لاجتماع قريش فيه إلى كعب، وقيل: بل سمي في الإسلام لاجتماع الناس فيه للصلاة".

قوله تعالى: {فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ} [الجمعة: ٩]، أي:"فامضوا إلى سماع الخطبة وأداء الصلاة".

قال مقاتل:"يقول: فامضوا إلى الصلاة المكتوبة".

قال الطبري:"يقول: فامضوا إلى ذكر الله، واعملوا له؛ وأصل السعي في هذا الموضع العمل".

وفي السعي إليها، أقوال:

أحدها: النية بالقلوب والإرادة لها، قاله الحسن، وقتادة.

قال الحسن:"قال الحسن أما والله ما هو بالسعي على الأقدام، ولقد نُهُوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار، ولكن بالقلوب والنية والخشوع".

قال قتادة:"والسعي يا ابن آدم أن تسعى بقلبك وعملك، وهو المضيّ إليها".

قال عبد الله بن الصامت: "كنت أمشي مع أبي ذر إلى الجمعة فسمعنا النداء

=

=

للصلاة، فرفعت في مشي، فجذبني جذبة، وقال: ألسنا نسعى".
الثاني: أن السعي: هو العمل، كما قال تعالى: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى} [الليل: ٤]، وقوله تعالى: {مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا} [الإسراء: ١٩]، قاله الضحاك، وعكرمة، وزيد بن أسلم.
قال شُرحبيل بن مسلم الخَوْلانّي:": فاسعوا في العمل، وليس السعي في المشي".
قال السمعاني:"فالسعي -هاهنا-: بمعنى العمل والتصرف".
الثالث: أن السعي: أن يسرع إليها، وأن يقبل إليها. قاله ابن زيد.
عن ابن وهب، قال: "قال ابن زيد: وسألته عن قول الله: {إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ}، قال: إذا سمعتم الداعي الأوّل، فأجيبوا إلى ذلك وأسرعوا ولا تبطئوا؛ قال: ولم يكن في زمان النبيّ ﷺ أذان إلا أذانان: أذان حين يجلس على المنبر، وأذان حين يُقام الصلاة؛ قال: وهذا الآخر شيء أحدثه الناس بعد؛ قال: لا يحلّ له البيع إذا سمع النداء الذي يكون بين يدي الإمام إذا قعد على المنبر، وقرأ: {فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ}، قال: ولم يأمرهم يذرون شيئًا غيره، حرم البيع ثم أذن لهم فيه إذا فرغوا من الصلاة، قال: والسعي أن يُسرع إليها، أن يُقبِل إليها".
الرابع: أن السعي: المشي على القدم من غير إسراع، وذكر أن عمر وابن مسعود كانا يقرآن: «فامضوا إلى ذكر الله».
عن سالم بن عبد الله، قال: "كان عمر رضي الله عنه يقرؤها: «فَامْضُوا إِلَى ذِكْرِ اللهِ»".
عن سالم، عن أبيه، قال: "ما سمعت عمر يقرؤها قطّ إلا: «فامضوا»".
عن إبراهيم: "أنه قيل لعمر رضي الله عنه: إن أبيًّا يقرؤها {فَاسْعَوْا}، قال: أما إنه أقرؤنا وأعلمنا بالمنسوخ وإنما هي «فامضوا»".
عن ابن شهاب، قال: أخبرني سالم بن عبد الله بن عمر، أن عبد الله قال: "لقد توفي
=

=

الله عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وما يقرأ هذه الآية التي ذكر الله فيها الجمعة: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ}، إلا: «فامضوا إلى ذكر الله»".

عن إبراهيم، قال: "كان عبد الله يقرؤها «فامضوا إلى ذكر الله»، ويقول: لو قرأتها «فاسعوا»، لسعيت حتى يسقط ردائي".

عن إبراهيم، قال: قال عبد الله: "لو كان السعي لسعيت حتى يسقط ردائي، قال: ولكنها «فَامْضُوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ»، قال: هكذا كان يقرؤها".

عن ابن مسعود، قال: لو قرأتها: {فَاسْعَوْا}، لسعيت حتى يسقط ردائي، وكان يقرؤها «فَامْضُوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ».

عن أَبي العالية أنه يقرؤها: «فَامْضُوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ»".

قال الزجاج:"اتباع المصحف أولى، ولو كانت عند عمر «فامضوا» لا غير، لغيرها في المصحف. والدليل على أن معنى «السَّعْي»: التصرف في كل عمل قول الله - عَزَّ وَجَلَّ - {وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠)} [النجم: ٣٩ -٤٠] فلا اختلاف في أن معناه: وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا عمل".

قال ابن كثير:"أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة، فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ}، أي: اقصدوا واعمدوا واهتموا في مَسيركم إليها، وليس المراد بالسعي هاهنا المشي السريع، وإنما هو الاهتمام بها، كقوله تعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ} [الإسراء: ١٩] وكان عمر بن الخطاب وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقرآنها: «فامضوا إلى ذكر الله». فأما المشي السريع إلى الصلاة فقد نهي عنه، لما أخرجاه في الصحيحين، عن أبي هُرَيرة، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:"إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة، وعليكم السكينة والوقار، ولا تُسرِعوا، فما أدركتم فصَلُّوا، وما فاتكم فأتموا» ".

=

=

وعن أبي قتادة قال: بينما نحن نُصَلي مع النبي ﷺ إذ سمع جَلَبة رجال، فلما صلى قال: "ما شأنكم؟ ". قالوا: استعجلنا إلى الصلاة. قال: "فلا تفعلوا، إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم بالسكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا".

عن أبي هريرة، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، ولكن ائتوها تمشون، وعليكم السكينة والوقار، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا".

وقال الليث: "السعي" الاتي إليها".

الخامس: أن السعي: إجابة الداعي، قاله السدي.

وروي عن ابن وهب، عن الليث بن سعد:"أنه سُئل عن قول الله: {إذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ فاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ}. قال: السّعي: الأُتِيُّ إليها".

قال مالك بن أنس: "وإنما السّعي في كتاب الله: العمل والفعل؛ {يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ فاسْعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ}، يقول الله -تبارك وتعالى-: {وإذا تَوَلّى سَعى فِي الأَرْضِ} [البقرة: ٢٠٥]، وقال تعالى: {وأَمّا مَن جاءَكَ يَسْعى وهُوَ يَخْشى} [عبس: ٨ -٩]، وقال: {ثُمَّ أدْبَرَ يَسْعى} [النازعات: ٢٢]، وقال: {إنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتّى} [الليل: ٤]. قال مالك: فليس السّعي الذي ذكر الله في كتابه بالسّعي على الأقدام، ولا الاشتداد، وإنما عنى العمل والفعل".

وفي تفسير قوله تعالى: {فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ} [الجمعة: ٩]، قولان:

أحدهما: أنها موعظة الإمام في الخطبة، قاله مجاهد، وسعيد بن المسيب، وبه قال الطبري.

عن مجاهد: " {إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ}، قال: العزمة عند الذكر عند الخطبة". وفي رواية:"العزيمة عند التذكِرة، كأنه يعني: إذا خطب".

قال سعيد بن المسيب:"فهي موعظة الإمام فإذا قضيت الصلاة بعد".

=

=

عن أبي مالك: "وأما الذِّكر الذي أمر الله -تبارك وتعالى-بالسعي إليه عباده المؤمنين فإنه موعظة الإمام في خُطبته -فيما قيل-".

الثاني: أنه الصلاة، حكاه الماوردي عن الجمهور. قال السمعاني:"وهو الأصح".

قال ابن كثير:"قوله تعالى: {إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ} المراد بهذا النداء هو النداء الثاني الذي كان يفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر، فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه، فهذا هو المراد، فأما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فإنما كان هذا لكثرة الناس، كما رواه البخاري رحمه الله حيث قال: حدثنا آدم -هو ابن أبي إياس -حدثنا ابن أبي ذئب، عن الزهري، عن السائب بن يزيد قال: كان النداء يوم الجمعة أولهُ إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فلما كان عثمان [بعد زمن] وكثر الناس، زاد النداء الثاني على الزوراء، يعني: يؤذن به على الدار التي تسمى بالزوراء، وكانت أرفع دار بالمدينة، بقرب المسجد".

قال ابن كثير:"وإنما يؤمر بحضور الجمعة الرجال الأحرار دون النساء والعبيد والصبيان، ويعذر المسافر والمريض، وقَيّم المريض، وما أشبه ذلك من الأعذار، كما هو مقرر في كتب الفروع.

عن مكحول: "أن النداء كان في يوم الجمعة مؤذن واحد حين يخرج الإمام، ثم تقام الصلاة، وذلك النداء الذي يحرم عنده البيع الشراء إذا نودي به، فأمر عثمان، رضي الله عنه، أن ينادى قبل خروج الإمام حتى يجتمع الناس".

قوله تعالى: {وَذَرُوا الْبَيْعَ} [الجمعة: ٩]، أي:"واتركوا البيع، وكذلك الشراء وجميع ما يَشْغَلُكم عنها".

قال السمعاني: " أي: واتركوا البيع".

قال الطبري:"يقول: ودعوا البيع والشراء إذا نودي للصلاة عند الخطبة".

=

=

قال ابن كثير:"أي: اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودي للصلاة: ولهذا اتفق العلماء رضي الله عنهم على تحريم البيع بعد النداء الثاني. واختلفوا: هل يصح إذا تعاطاه متعاط أم لا؟ على قولين، وظاهر الآية عدم الصحة كما هو مقرر في موضعه، والله أعلم.

ومنع الله منه عند صلاة الجمعة وحرمه في وقتها على ما كان مخاطباً بفرضها.

وفي وقت التحريم قولان:

أحدهما: أنه بعد الزوال إلى ما بعد الفراغ منها، قاله الضحاك.

قال الضحاك:"إذا زالت الشمس حرم البيع والشراء".

قال الزجاج:"فالبيع من وقت الزوال في يوم الجُمَعَةِ إلى انقضاء الصلاةِ كالمحرَّم".

الثاني: من وقت أذان الخطبة إلى الفراغ من الصلاة، قاله الشافعي -رحمه الله-، فأما الأذان الأول فمحدث، فعله عثمان بن عفان ليتأهب الناس به لحضور الخطبة عند اتساع المدينة وكثرة أهلها، وقد كان عمر أمر أن يؤذن في السوق قبل المسجد ليقوم الناس عن بيوعهم، فإذا اجتمعوا أذن في المسجد، فجعله عثمان آذانين في المسجد، وليس يحرم البيع بعده وقبل الخطبة، فإن عقد في هذا الوقت المحرم بيع لم يبطل البيع وإن كان قد عصى الله، لأن النهي مختص بسبب يعود إلى العاقدين دون العقد، وأبطله ابن حنبل تمسكاً بظاهر النهي.

قال الزمخشري:"الجمعة يوم يهبط الناس فيه من قراهم وبواديهم، وينصبون إلى المصر من كل أوب ووقت هبوطهم واجتماعهم واغتصاص الأسواق بهم إذا انتفخ النهار وتعالى الضحى ودنا وقت الظهيرة، وحينئذ تحرّ التجارة ويتكاثر البيع والشراء، فلما كان ذلك الوقت مظنة الذهول بالبيع عن ذكر الله والمضي إلى المسجد، قيل لهم: بادروا تجارة الآخرة، واتركوا تجارة الدنيا، واسعوا إلى ذكر

=

=

الله الذي لا شيء أنفع منه وأربح {وَذَرُوا الْبَيْعَ} الذي نفعه يسير وريحه مقارب".

قوله تعالى: {ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ} [الجمعة: ٩]، أي:"ذلك الذي أُمرتم به خير لكم؛ لما فيه من غفران ذنوبكم ومثوبة الله لكم".

عن أبي مالك: " {ذلكم}، يعني: هذا".

عن سعيد بن جبير:"{خير لكم}، يعني: أفضل لكم".

قال الطبري:"يقول: سعيكم إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة إلى ذكر الله، وترك البيع خير لكم من البيع والشراء في ذلك الوقت".

قال ابن كثير:"أي: ترككم البيع وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة خيرٌ لكم، أي: في الدنيا والآخرة".

قال الماوردي:"أن الصلاة خير لكم من البيع والشراء لأن الصلاة تفوت بخروج وقتها، والبيع لا يفوت".

قال السمعاني: " جعل ترك البيع خيرا، وهذا يشير إلى الكراهة في الفعل دون التحريم، ولأن النهي عن العقد للاشتغال عن الجمعة لا لعين العقد".

قوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الجمعة: ٩]، أي:"إن كنتم تعلمون مصالح أنفسكم فافعلوا ذلك".

قال الطبري: يقول: " إن كنتم تعلمون مصالح أنفسكم ومضارّها".

(تنبيه): سئل شيخ الإسلام ابن تيمية كما في مجموع فتاواه (٢٢/ ٢٥٩ -٢٦١): عن رجل مشى إلى صلاة الجمعة مستعجلا فأنكر ذلك عليه بعض الناس وقال امش على رسلك فرد ذلك الرجل وقال: قد قال تعالى {يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله} فما الصواب؟.

فأجاب: ليس المراد بالسعي المأمور به العدو فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: {إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وأنتم تمشون

=

=

وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا -وروى فاقضوا} . ولكن قال الأئمة: السعي في كتاب الله هو العمل والفعل كما قال تعالى: {إن سعيكم لشتى} وقال تعالى: {ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا} وقال تعالى: {وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها} وقال تعالى: {إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا} وقال عن فرعون {ثم أدبر يسعى} وقد قرأ عمر بن الخطاب (فامضوا إلى ذكر الله فالسعي المأمور به إلى الجمعة هو المضي إليها والذهاب إليها. ولفظ " السعي " في الأصل اسم جنس ومن شأن أهل العرف إذا كان الاسم عاما لنوعين فإنهم يفردون أحد نوعيه باسم ويبقى الاسم العام مختصا بالنوع الآخر كما في لفظ " ذوي الأرحام " فإنه يعم جميع الأقارب من يرث بفرض وتعصيب ومن لا فرض له ولا تعصيب فلما ميز ذو الفرض والعصبة صار في عرف الفقهاء ذووا الأرحام مختصا بمن لا فرض له ولا تعصيب.

وكذلك لفظ " الجائز " يعم ما وجب ولزم من الأفعال والعقود وما لم يلزم فلما خص بعض الأعمال بالوجوب وبعض العقود باللزوم بقي اسم الجائز في عرفهم مختصا بالنوع الآخر وكذلك اسم الخمر هو عام لكل شراب لكن لما أفرد ما يصنع من غير العنب باسم النبيذ صار اسم الخمر في العرف مختصا بعصير العنب حتى ظن طائفة من العلماء أن اسم الخمر في الكتاب والسنة مختص بذلك وقد تواترت الأحاديث عن النبي ﷺ بعمومه ونظائر هذا كثيرة، وبسبب هذا الاشتراك الحادث غلط كثير من الناس في فهم الخطاب بلفظ السعي من هذا الباب فإنه في الأصل عام في كل ذهاب ومضي وهو السعي المأمور به في القرآن وقد يخص أحد النوعين باسم المشي فيبقى لفظ السعي مختصا بالنوع الآخر وهذا هو السعي الذي نهى عنه النبي ﷺ حيث قال {إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون

=

=

وأتوها وأنتم تمشون} وقد روي أن عمر كان يقرأ (فامضوا) ويقول: لو قرأتها فاسعوا لعدوت حتى يكون كذا وهذا إن صح عنه فيكون قد اعتقد أن لفظ السعي هو الخاص ومما يشبه هذا السعي بين الصفا والمروة فإنه إنما يهرول في بطن الوادي بين الميلين ثم لفظ السعي يخص بهذا وقد يجعل لفظ السعي عاما لجميع الطواف بين الصفا والمروة لكن هذا كأنه باعتبار أن بعضه سعي خاص والله أعلم ا. هـ

وسئل شيخ الإسلام أيضا كما في مجموع فتاواه (٢٤/ ٢٠٤): عن رجل خرج إلى صلاة الجمعة وقد أقيمت الصلاة: فهل يجري إلى أن يأتي الصلاة أو يأتي هونا ولو فاتته؟.

فأجاب: الحمد لله، إذا خشي فوت الجمعة فإنه يسرع حتى يدرك منها ركعة فأكثر وأما إذا كان يدركها مع المشي وعليه السكينة فهذا أفضل بل هو السنة والله أعلم.

ثم بين -سبحانه- جانبا من مظاهر تيسيره عليهم في تشريعاته فقال: (فَإِذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ، وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ....).

أى: فإذا فرغتم من أداء الصلاة وأقمتموها على أكمل وجه، فانتشروا في الأرض، وامشوا في مناكبها، لأداء أعمالكم التي كنتم قد تركتموها عند النداء للصلاة، واطلبوا الربح واكتساب المال والرزق، من فضل الله تعاليومن فيض إنعامه، والأمر هنا للإباحة، لأنه وارد بعد حظر، فهو كقوله تعالى: وَإِذا حَلَلْتُمْ فَاصْطادُوا....

أى: أن الانتشار في الأرض بعد الصلاة لطلب الرزق، ليس واجبا عليهم، إذ طلب الرزق قد يكون في هذا الوقت، وقد يكون في غيره ...

والمقصود من الآية إنما هو تنبيه الناس، إلى أن لهم في غير وقت الصلاة، سعة من الزمن في طلب الرزق، وفي الاشتغال بالأمور الدنيوية، فعليهم أن يسعوا إلى ذكر

=

=

الله، إذا ما نودي للصلاة من يوم الجمعة، وأن يحرصوا على ذلك حرصا تاما، مصحوبا بالنية الطيبة، وبالهيئة الحسنة. وبالمضي المبكر إلى المسجد.

وقوله-سبحانه-: وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ تحذير لهم من الانتشار في الأرض لمصالحهم الدنيوية، دون أن يعطوا طاعة الله تعاليوعبادته، ما تستحقه من عناية ومواظبة.

أى: إذا قضيت الصلاة، فانتشروا في الأرض لتحصيل معاشكم، دون أن يشغلكم ذلك عن الإكثار من ذكر الله تعاليفي كل أحوالكم، فإن الفلاح كل الفلاح في تقديم ما يتعلق بأمور الدين، على ما يتعلق بأمور الدنيا، وفي تفضيل ما يبقى على ما يفنى.

والمتأمل في هذه الآية الكريمة يراها ترسم للمسلم التوازن السامي، بين ما يقتضيه دينه، وما تقتضيه دنياه.

إنها تأمره بالسعي في الأرض، ولكن في غير وقت النداء للصلاة من يوم الجمعة، ودون أن يشغله هذا السعى عن الإكثار من ذكر الله، فإن الفلاح في الإقبال على الطاعات التي ترضيه-سبحانه-: ومن بين هذه الطاعات أن يكثر الإنسان من ذكر الله تعالى، حتى في حالة سعيه لتحصيل رزقه.

قوله تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ} [الجمعة: ١٠].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فإذا قُضيت صلاة الجمعة يوم الجمعة".

قال الماوردي:"يعني: أُدّيتْ".

قال ابن كثير: "أي: فُرغ منها".

قوله تعالى: {فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ} [الجمعة: ١٠]، أي:"فتفرقوا في الأرض وانبثوا فيها للتجارة وقضاء مصالحكم".

قال الطبري: يقول:"فانتشروا في الأرض إن شئتم، ذلك رخصة من الله لكم في

=

=

ذلك".

قال الزجاج:"هذا معناه الإِباحة، ليس معناه إذا انقضت الصلاة وجب أن يَتْجر الإنْسانُ كما قال: {وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا}، فليس على من حَلَّ من إحرامٍ أن يصطادَ إنما هو مباح له، مثل ذلك قوله في الكلام: إذَا حَضَرتني فلا تنطق وَإذا غبت عني فتكلم بما شئت، إنَّما معناه الإِباحة".

قال ابن كثير: " لَمَّا حَجَر عليهم في التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع، أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله. كما كان عرَاك بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد، فقال: «اللهم إني أجبتُ دعوتَك، وصليتُ فريضتك، وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك، وأنت خير الرازقين» ".

وروي عن بعض السلف أنه قال:"من باع واشترى في يوم الجمعة بعد الصلاة، بارك الله له سبعين مرة، لقول الله تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ}".

قال مجاهد:"هي رخصة، يعني قوله: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْض}".

قال الضحاك:"هذا إذن من الله، فمن شاء خرج، ومن شاء جلس".

قال ابن زيد:"أذن الله لهم إذا فرغوا من الصلاة، {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ}، فقد أحللته لكم".

قوله تعالى: {وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ} [الجمعة: ١٠]، أي:"واطلبوا من رزق الله بسعيكم".

وفي قوله تعالى: {وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ} [الجمعة: ١٠]، وجوه من التفسير:

أحدها: الرزق من البيع والشراء، قاله مقاتل والضحاك.

=

=

الثاني: العمل في يوم السبت، قاله جعفر بن محمد.

الثالث: والتمسوا من فضل الله الذي بيده مفاتيح خزائنه لدنياكم وآخرتكم. أفاده الطبري.

الرابع: ما رواه أبو خلف عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ}، قال: " لَيْسَ لِطَلَبِ دُنْيَا، وَلَكِنْ عِيَادَةُ مَرِيضٍ، وَحُضُورُ جَنَازَةٍ، وَزِيَارَةُ أَخٍ فِي اللهِ".

عن بعض السلف:"أنه كان يشغل نفسه بعد الجمعة بشيء من أمور الدنيا نظرا في هذه الآية".

قوله تعالى: {وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا} [الجمعة: ١٠]، أي:"واذكروا الله كثيرًا في جميع أحوالكم".

قال الطبري:"يقول: واذكروا الله بالحمد له، والشكر على ما أنعم به عليكم من التوفيق لأداء فرائضه".

قال السدي:"يعني: باللسان".

قال مقاتل:"باللسان، بالتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد، وذكروه على كل حال".

قال ابن كثير:"أي: حال بيعكم وشرائكم، وأخذكم وعَطَائكم، اذكروا الله ذكرا كثيرا، ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة؛ ولهذا جاء في الحديث: «من دخل سوقا من الأسواق فقال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير كُتبت له ألفُ ألف حَسنة، ومُحي عنه ألفُ ألف سَيئة» ".

قال يحيى: "وهذا ذكر ليس فيه وقت وهو تطوع".

قال ابن عباس:"لا يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما، ثم عذر

=

=

أهلها في حال عذر غير الذكر، فإن الله لم يجعل له حدا ينتهي إليه ولم يعذر أحدا في تركه إلا مغلوبا على عقله، قال: {فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ} [النساء: ١٠٣]، بالليل والنهار في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال".

عن أبي الدرداء، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والوَرِق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟ " قالوا: وما هو يا رسول الله؟ قال: "ذكر الله عز وجل ".

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من قوم جلسوا مجلسا لم يذكروا الله فيه، إلا رأوه حسرة يوم القيامة".

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الجمعة: ١٠]، أي:"لعلكم تفوزون بخيري الدنيا والآخرة".

قال سعيد بن جبير:"يعني: لكي تفلحون".

قال محمد بن كعب القرظي:"يقول: لعلكم تفلحون غدا إذا لقيتموني".

قال الطبري: يقو:"لتفلحوا، فتدركوا طلباتكم عند ربكم، وتصلوا إلى الخلد في جنانه".

قال الزمخشري:"ثم أطلق لهم ما حظر عليهم بعد قضاء الصلاة من الانتشار وابتغاء الربح، مع التوصية بإكثار الذكر، وأن لا يلهيهم شيء من تجارة ولا غيرها عنه، وأن تكون هممهم في جميع أحوالهم وأوقاتهم موكلة به لا يتفصون عنه، لأنّ فلاحهم فيه وفوزهم منوط به".

ثم ختم-سبحانه-السورة الكريمة بعتاب يحمل في طياته ثوب التأديب والإرشاد والتأنيب، لمن آثر مطالب الدنيا على مطالب الآخرة فقال تعالى: (وَإِذا رَأَوْا

=

=

تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِماً....)

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه: يعاتب-تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة، التي قدمت المدينة يومئذ، فقال: وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِماً.... فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن جابر قال: قدمت عير-أى: تجارة-المدينة، ورسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة-فخرج الناس، وبقي اثنا عشر رجلا، فنزلت هذه الآية.

وفي رواية عن جابر-أيضا-أنه قال: بينما النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فقدمت عير إلى المدينة، فابتدرها الناس، حتى لم يبق مع الرسول ﷺ إلا اثنا عشر رجلا، فقال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد، لسال بكم الوادي نارا» ونزلت هذه الآية.. .

وفي رواية أن الذين بقوا في المسجد كانوا أربعين، وأن العير كانت لعبد الرحمن بن عوف، وكان قد أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر .... .

وفي رواية أن الرسول ﷺ كان يخطب، فقدم دحية الكلبي بتجارة له فتلقاه أهله بالدفوف. فخرج الناس.

و «إذا» في قوله تعالى: وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً ... ظرف للزمان الماضي المجرد عن الشرط، لأن هذه الآية نزلت على الرسول ﷺ بعد أن انفض عنه من انفض وهو يخطب وقوله: انْفَضُّوا من الانفضاض، بمعنى التفرق. يقال: انفض فلان عن فلان إذا تركه وانصرف عنه، وهو من الفض، بمعنى كسر الشيء والتفريق بين أجزائه.

والضمير في قوله إِلَيْها يعود للتجارة، وكانت عودته إليها دون اللهو، لأن الانفضاض كان لها بالأصالة، والمراد باللهو هنا: فرحهم بمجيء التجارة واستقبالهم لها بالدفوف، لأنهم كانوا في حالة شديدة من الفقر وغلاء الأسعار.

=

=

والتعبير بأو يشير إلى أن بعض المنفضين قد انفضوا من أجل التجارة، وأن البعض الآخر قد انفض من أجل اللهو.

قال الجمل في حاشيته: والذي سوغ لهم الخروج وترك الرسول ﷺ يخطب، أنهم ظنوا أن الخروج بعد تمام الصلاة جائز، لانقضاء المقصود وهو الصلاة، لأنه كان ﷺ في أول الإسلام يصلى الجمعة قبل الخطبة كالعيدين، فلما وقعت هذه الواقعة، ونزلت الآية، قدم الخطبة وأخر الصلاة . . . .

وقوله-سبحانه-: وَتَرَكُوكَ قائِماً جملة حالية من فاعل انْفَضُّوا والمقصود بها توبيخهم على هذا التصرف، حيث تركوا رسول الله ﷺ واقفا يخطب على المنبر، وانصرفوا إلى التجارة واللهو.

وقوله-سبحانه-: (قُلْ ما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجارَةِ، وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) إرشاد لهم إلى ما هو الأنفع والأبقى والأكرم لهم.

أى: قل-أيها الرسول الكريم-لهؤلاء الذين انفضوا عنك وأنت تخطب.. قل لهم: ما عند الله تعاليمن ثواب ومن عطاء خير من اللهو الذي يشغلكم عن ذكر الله، ومن التجارة التي تبتغون من ورائها الربح المادي، والمنافع العاجلة.

والله تعاليهو خير الرازقين، لأنه-سبحانه-هو وحده الذي يقسم الأرزاق، وهو الذي يعطى ويمنع، كما قال-سبحانه-: ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها، وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

وقدمت التجارة على اللهو في صدر الآية، لأن رؤيتها كانت الباعث الأعظم على الانفضاض إليها، وترك الرسول ﷺ قائما يخطب على المنبر، ولم يبق معه إلا عدد قليل من أصحابه.

وأخرت في آخر الآية وقدم اللهو عليها، ليكون ذمهم على انفضاضهم أشد وأوجع، حتى لا يعودوا إلى مثل ذلك.

=

=

قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا} [الجمعة: ١١]، أي:"إذا رأى بعض المسلمين تجارة أو شيئًا مِن لهو الدنيا وزينتها تفرَّقوا إليها".

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: وإذا رأى المؤمنون عير تجارة أو لهوًا، أسرعوا إلى التجارة".

قال ابن كثير:"يعاتب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذ".

عن مجاهد في قوله: " {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا}، قال: رجال كانوا يقومون إلى نواضحهم وإلى السفر يبتغون التجارة".

وفي «اللهو» -ها هنا- خمسة وجوه:

أحدها: يعني لعبـًا. قاله ابن عباس.

الثاني: أنه الطبل. قاله مجاهد.

الثالث: أنه الغناء. أفاده الماوردي.

الرابع: كل ما يُلْهَى بِهِ. قاله الزجاج.

الخامس: أنه المزمار. قاله جابر.

قال جابر:"كان الجواري إذا نكحوا كانوا يمرّون بالكبر والمزامير ويتركون النبيّ ﷺ قائمًا على المنبر، وينفضون إليها، فأنزل الله (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا}".

قال الطبري:"والذي هو أولى بالصواب في ذلك الخبر الذي رويناه عن جابر، لأنه قد أدرك أمر القوم ومشاهدهم".

قوله تعالى: {وَتَرَكُوكَ قَائِمًا} [الجمعة: ١١]، أي:"وتركوك -أيها النبي- قائمًا على المنبر تخطب".

قال الطبري: " يقول للنبيّ ﷺ: وتركوك يا محمد قائمًا على المنبر؛ وذلك أن

=

=

التجارة التي رأوها فانفضّ القوم إليها، وتركوا النبيّ ﷺ قائما كانت زيتًا قدم به دحية بن خليفة من الشام".

قال ابن كثير:"أي: على المنبر تخطب.. وفيه دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائما. وقد رَوَى مسلم في صحيحه عن جابر بن سَمُرَة قال: كانت للنبي ﷺ خطبتان يجلس بينهما، يقرأ القرآن ويذكر الناس".

قال جابر:"قدمت عير فانفضّوا إليها، ولم يبق مع النبيّ ﷺ إلا اثنا عشر رجلا".

قال قتادة:"لو اتبع آخرهم أوّلهم لالتهب عليهم الوادي نارًا".

قال قتادة:"لم يبق مع النبيّ ﷺ يومئذ إلا اثنا عشر رجلا وامرأة معهم".

عن هشيم، قال: "كان في الاثني عشر أبو بكر وعمر -رضي الله عنهما-".

قال ابن زيد:"جاءت تجارة فانصرفوا إليها، وتركوا النبي ﷺ قائمًا".

قال الحسن: "إن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء سعر، فقدمت عير والنبيّ ﷺ يخطب يوم الجمعة، فسمعوا بها، فخرجوا والنبيّ ﷺ قائم، كما قال الله عز وجل".

عن كعب بن عُجرة: "أنه دخل المسجد وعبد الرحمن بن أُمّ الحكم يَخطب قاعدًا، فقال: انظروا إلى هذا الخبيث يَخطب قاعدًا، وقد قال الله: {وتَرَكُوكَ قائِمًا}".

عن محمد بن سيرين -من طريق يزيد-:"أنه سُئل عن خطبة النبيّ ﷺ يوم الجمعة. فقرأ: {وتَرَكُوكَ قائِمًا}".

قال طاووس بن كيسان:"الجلوس على المنبر يوم الجمعة بدعة".

عن طاووس بن كيسان -من طريق ليث-قال: "خطب رسول الله ﷺ قائمًا، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وإنّ أول من جلس على المنبر معاوية بن أبي سفيان".

قال الشعبي:"إنما خطب معاوية قاعدًا حين كثُر شَحم بطنه ولحمه".

قوله تعالى: {قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ} [الجمعة: ١١]، أي:"قل

=

=

لهم -أيها النبي-: ما عند الله من الثواب والنعيم أنفع لكم من اللهو ومن التجارة".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: قل لهم يا محمد الذي عند الله من الثواب، لمن جلس مستمعًا خطبة رسول الله ﷺ وموعظته يوم الجمعة إلى أن يفرغ رسول الله ﷺ منها، خير له من اللهو ومن التجارة التي ينفضون إليها".

قال ابن كثير:"أي: الذي عند الله من الثواب في الدار الآخرة {خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ} ".

قوله تعالى: {وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [الجمعة: ١١]، أي:"والله -وحده-خير مَن رزق وأعطى، فاطلبوا منه، واستعينوا بطاعته على نيل ما عنده من خيري الدنيا والآخرة".

قال الطبري:"يقول: والله خير رازق، فإليه فارغبوا في طلب أرزاقكم، وإياه فأسألوا أن يوسع عليكم من فضله دون غيره".

قال ابن كثير:"{وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}، أي: لمن توكل عليه، وطلب الرزق في وقته".

قال الزجاج:"أَي: ليس يفوتهم من أَرْزَاقِهِم لتخلفهم عن النظر إلى الميرة شيءٌ مِنْ رِزْقٍ ولا بتركهم البيعَ في وقت الصلاة والخطبة".

قال الواحدي:"المخلوق مرزوق فإذا غضب قطع رزقه، والله ﷻ يسخط ولا يقطع وهو أحكم الحاكمين".

(فائدة): أمر الله المؤمنين بالسعي إلى صلاة الجمعة عند سماع الأذان لها، والمراد بالأذان هنا هو الأذان الذي يكون مع دخول الإمام وقبيل خطبته.

* قوله تعالى: {فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع}، فيه: إشارة إلى أن الجمعة على الحواضر، لا على المسافرين؛ لأن الأسواق والضرب فيها لا يكون إلا في القرى

=

=

والمدن، لا في طرق الأسفار، خاصة في الزمن الغابر، فلم تكن المتاجر والأسواق في طرق المسافرين كما هي اليوم، حتى إن الناس يسافرون أياما لا يتزودون لا ماء ولا طعاما، وكانوا في السابق يتزود أحدهم لو خرج شطر النهار ولو بالماء.

* من تجب عليه الجمعة: لا يختلف العلماء على أن الجمعة تجب على كل ذكر حر حاضر مستطيع بالغ في قرية، ولم تشرع في السنة إلا على أهل القرى ومن حولها؛ على هذا عمل الصحابة، وقد جاء في ذلك آثار وأحاديث؛ منها ما يروى: "لا جمعة ولا تشريق إلا في مصر"، وهذا صحيح عن علي، ولكنه لا يصح مرفوعا، كما رواه سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن؛ قال: قال علي: "لا جمعة، ولا تشريق، ولا صلاة فطر ولا أضحى، إلا في مصر جامع، أو مدينة عظيمة". رواه ابن أبي شيبة.

ومن كان مقيما في أطراف المدينة، فعليه شهود الجمعة؛ ما لم يكن بعيدا عنها لو خرج ماشيا بعد سماعه الأذان لم يدركها.

وأما تقييد وجوب حضور الجمعة لمن هم في أطراف المدينة بخروجهم إلى الصلاة وعودتهم قبل مغيب الشمس، فلا يثبت في ذلك شيء، وقد جاء فيه من حديث أبي هريرة مرفوعا: (الجمعة على من آواه الليل إلى أهله)، رواه الترمذي، وأنكره أحمد جدا، وروي نحوه من مرسل أبي قلابة، وأنكره حماد بن زيد.

وفي الترمذي؛ أن النبي ﷺ كان يأمر أهل قباء بشهود الجمعة معه، ولا يصح؛ للجهالة فيه.

ومن مرسل الزهري: أنهم كانوا يشهدون الجمعة مع النبي ﷺ من ذي الحليفة؛ رواه ابن أبي شيبة، ومراسيله ضعيفة.

وقد جاءت أحاديث في تعيين من تجب عليه ومن لا تجب، وليس في ذلك شيء يثبت، إلا أن عمل الصحابة والتابعين بين في ذلك ولو لم يصح الخبر، وقد سئل

=

=

أحمد بن حنبل: على من تجب الجمعة؟ فلم يذكر في ذلك شيئا، وعدم ذكره لشيء في مثل هذه المسألة المشهورة دليل على عدم صحة الأحاديث التي تسمي أهل الوجوب عنده وغرابتها.

* حكم الجمعة للمسافر: ولا تجب على المسافر ولو مر على قرية يصلي أهلها الجمعة، فإن صلى معهم، صلاها بنية الظهر وشهد الخطبة ودعوة المسلمين، وقد صلى النبي ﷺ الجمعة ظهرا وجمع إليها العصر بعرفة، ولم يكن الصحابة يصلون الجمعة وهم مسافرون، ولا كذلك فقهاء التابعين وخاصة أهل الحجاز، وقد صح عن عمر بن عبد العزيز أنه كان مسافرا فترك شهود الجمعة وكان في البلد، ففي "مصنف ابن أبي شيبة"، عن أبي عبيد مولى سيمان بن عبد الملك، قال: خرج عمر بن عبد العزيز من دابق، وهو يومئذ أمير المؤمنين، فمر بحلب يوم الجمعة، فقال لأميرها: جمع؛ فإنا سفر.

وإن صلى المسافر مع المقيمين الجمعة، ونواها جمعة، فليس له أن يجمع إليها العصر، وإن صلاها معهم، ونواها ظهرا، فله جمع العصر إليها.

ولا يصح نهي عن السفر ضحا الجمعة، فيجوز السفر للمحتاج قبل الأذان؛ لأنه بالأذان يجب عليه السعي إلى الصلاة، وسعيه إلى غيره مخالف للآية: {إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله}، ولا يصح في النهي عن السفر ضحا الجمعة حديث.

وأما حديث ابن عمر مرفوعا: (من سافر يوم الجمعة، دعت عليه الملائكة ألا يصحب في سفره):

فقد أخرجه الدارقطني في "الأفراد"، وفيه ابن لهيعة؛ وهو منكر.

ورواه الخطيب البغدادي في كتابه "الرواة عن مالك"؛ من حديث أبي هريرة مرفوعا: (من سافر يوم الجمعة، دعا عليه ملكاه).

=

=

وفيه الحسين بن علوان: كذاب، قاله يحيى وابن أبي حاتم.

والثابت عن الصحابة جواز ذلك؛ فقد جاء عن عمر من وجهين: الجمعة لا تمنع من سفر.

وهو عنه صحيح.

ومثل هذا الحكم لا يخفى على عمر؛ فهي مسألة ظاهرة يبتلى بها ويحتاج إليها الناس، وما تعم به البلوى لا يخفى على مثل الخلفاء، فعملهم وقولهم أصل في هذه الأبواب حكما، وله أثر في إعلال ما يروى مرفوعا.

ولا يصح في النهي عن السفر يوم الجمعة حديث؛ قبل أذان صلاة الجمعة ولا بعد الجمعة.

وقد روى أبو داود في "المراسيل"، عن الزهري أنه أراد أن يسافر يوم الجمعة ضحوة، فقيل له في ذلك، فقال: إن النبي ﷺ سافر يوم الجمعة. وهذا الذي عليه جمهور العلماء.

* العدد الذي تنعقد به الجمعة:

ولا يثبت عدد محدد في أهل قرية حتى تجب الجمعة عليهم؛ فكل جماعة في قرية يجب عليهم صلاة الجمعة، والأحاديث الواردة في حد ملزم للوجوب لا يصح منها شيء، وقد روى الدارقطني، وغيره عن جابر مرفوعا: (مضت السنة: أن في كل ثلاثة إماما، وفي كل أربعين فما فوق ذلك جمعة، وأضحى، وفطرا؛ وذلك أنهم جماعة)، ولا يصح، وروى الطبراني تحديدها بخمسين من حديث أبي أمامة، ولا يصح، وروى ابن عدي تحديدها بثلاثة من حديث أم عبد الله الدوسية، ولا يصح.

ومن نظر في السنة وتأمل الأثر عن الأصحاب، وجد أنه لا يصح في تعيين عدد للجمعة حديث، ولم يكن الصحابة يقيدونها به مع الحاجة إلى الحكم وأهميته لأهل القرى والأمصار؛ فأمره مما تتعلق به صحة الصلاة وفسادها، ولما لم يرد

=

=

من وجه قوي، وليس فيه شيء من أقوال الصحابة وبيانهم وتشديدهم فيه، دل على نكران الوارد فيه مما حمله بعض الضعفاء والمتروكين، وتعدد مخارجها لا يقويها.

وفي الباب: ما يعارضها من السنة المرفوعة؛ وهو حديث جابر في خروج الصحابة للتجارة والنبي ﷺ يخطب، فبقي عنده اثنا عشر رجلا، والحديث في "الصحيحين".

وأما ما رواه أحمد والترمذي، من حديث عبد الرحمن بن عبد الله، عن عبد الله بن مسعود؛ أنه قال: جمعنا رسول الله ﷺ ونحن أربعون، فكنت في آخر من أتاه، قال. "إنكم منصورون، ومصيبون، ومفتوح لكم، فمن أدرك ذلك، فليتق الله، وليأمر بالمعروف، ولينه عن المنكر، ومن كذب علي متعمدا، فليتبوأ مقعده من النار).

فليس صريحا أن الجمع لصلاة الجمعة، وليس فيه استحباب العدد ولا اشتراطه؛ وإنما إخبار عنه.

وقد تكلم بعض الحفاظ في سماع عبد الرحمن من أبيه ابن مسعود.

ومثله ما رواه أبو داود وابن ماجه؛ من حديث محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي أمامة بن سهل، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك، وكان قائد أبيه بعدما ذهب بصره، عن أبيه كعب بن مالك؛ أنه كان إذا سمع النداء يوم الجمعة، ترحم لأسعد بن زرارة، فقلت له: إذا سمعت النداء، ترحمت لأسعد بن زرارة؟ قال: "لأنه أول من جمع بنا في هزم النبيت من حرة بني بياضة في نقيع يقال له: نقيع الخضمات"، قلت: كم أنتم يومئذ؟ قال: "أربعون".

فإنما هو إخبار عن الحال، لا بيان للحكم ولا التشريع.

ومحمد بن إسحاق تفرد به عن محمد بن أبي أمامة، وهو صدوق صرح بسماعه عند الدارقطني وغيره، ويميل أحمد إلى ثبوت هذا الحديث.

=

=

قوله تعالى: {وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون}: لا يجوز البيع بعد أذان الجمعة وقعود الخطيب، ولا خلاف في ذلك، وإنما الخلاف في بطلان البيع وصحته.

وقد كان السلف يزجرون من يبيع بعد أذان خطبة الجمعة، بل منهم من يعزره، وقد ذكر سحنون في "نوازله" أن عمر بن عبد العزيز يأمر إذا فرغ من صلاة الجمعة من يخرج، فمن وجد لم يحضر الجمعة، ربطه بعمد المسجد.

وكان مالك يخالف قول عمر بن عبد العزيز بالربط في المسجد، وإنما ينبعي أن يؤدب على ذلك بالسجن أو الضرب، كما ذكره ابن رشد.

وقد تقدم الكلام على ما جاء في البيع بعد أذان الصلوات الخمس عند قوله تعالى من سورة النور: {رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة} [٣٧].

* قيام الخطيب في الخطبة:

قوله تعالى: {وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما}، فيه: مشروعية قيام الخطيب في أثناء خطبته، وهو مشروع بالاتفاق، ويسن له الجلوس عند قيام المؤذن للأذان، والجلوس بين الخطبتين، ولو فصل بين الخطبتين، ولكنه لم يجلس، صحت خطبتاه.

وقد اختلف العلماء في وجوب قيام الخطيب حال خطبته، وهل تصح منه وهو جالس؟ على روايتين عن أحمد، والأظهر: وجوب القيام عليه إن كان مستطيعا؛ وهو الذي عليه أكثر الفقهاء وحكي الإجماع؛ وفيه نظر.

ويسقط الوجوب عن الخطيب الذي يعجز عن القيام، لمرض أو رهبة من الناس؛ لأن القيام ركن في الصلاة ويسقط عند العجز، وهو أوجب من القيام في خطبة الجمعة؛ فإن جاز في الصلاة المكتوبة القعود للعجز، فإنه في خطبة الجمعة من

=

=

باب أولى.

ولم يخطب النبي ﷺ قاعدا ولو مرة حتى لما كبرت سنه وحطمه الناس، ومثله أبو بكر وعمر وعلي، وقد روى مسلم؛ من حديث جابر بن سمرة؛ أن رسول الله ﷺ كان يخطب قائما، ثم يجلس، ثم يقوم فيخطب قائما، فمن نبأك أنه كان يخطب جالسا، فقد كذب، فقد والله صليت معه أكثر من ألفي صلاة.

وقد ثبت عن كعب بن عجرة؛ أنه "دخل المسجد وعبد الرحمن بن أم الحكم يخطب قاعدا، فقال: انظروا إلى هذا الخبيث يخطب قاعدا، وقال الله تعالى: {وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما} "؛ رواه مسلم.

وأما ما يروى عن عثمان من الخطبة جالسا، فهو كالصلاة جالسا للعاجز؛ فقد كبرت سنه ومات في عشر التسعين، وكان فيه رعدة لكبره، ومثله ما جاء عن معاوية، فالأصل عدم ترك الصحابة لمثل هذا الأمر المستديم والتهاون فيه، وقد روى موسى بن طلحة؛ قال: شهدت عثمان يخطب على المنبر قائما، وشهدت معاوية يخطب قاعدا، فقال: "أما إني لم أجهل السنة؛ ولكني كبرت سني، ورق عظمي، وكثرت حوائجكم، فأردت أن أقضي بعض حوائجكم وأنا قاعد، ثم أقوم فآخذ نصيبي من السنة".

* مسألة: التحذير من بدع الجمعة.

قال العلامة الألباني في الأجوبة النافعة (ص ٦١ -٧٥): بدع الجمعة.

١ -التعبد بترك السفر يوم الجمعة. روى ابن أبي شيبة في المصنف ١/ ٢٠٥/ ١ عن صالح بن كيسان أن أبا عبيدة خرج يوم الجمعة في بعض أسفاره ولم ينتظر الجمعة وإسناده جيد.

وروى هو الإمام محمد بن الحسن في السير الكبير ١/ ٥٠ بشرحه والبيهقي ٣/ ١٨٧ عن عمر أنه قال: الجمعة لا تمنع من سفر وسنده صحيح ثم روى ابن أبي

=

=

شيبة نحوه عن جماعة السلف.

وأما حديث "من سافر بعد الفجر يوم الجمعة دعا عليه ملكاه... " فهو ضعيف كما بينته في الأحاديث الضعيفة ٢١٦ و ٢١٧.

وأما قول الشيخ البجيرمي في الإقناع ٢/ ١٧٧ بأنه قد صح فمما لا وجه له البتة ولا سيما أنه ليس من أهل الحديث فلا يغتر به تنبيه سيري القارئ الكريم قليلا من البدع لم يذكر بجانبها مصدرها من كتب أهل العلم فذلك إشارة مني إلى أنني لم أقف على من نص على بدعيتها ولكن أصول البدع وقواعدها تقتضي بدعيتها وقد أذكر في التعليق بعض النصوص التي تدل على ذلك كما فعلت في هذه البدعة الأولى فليكن هذا في البال.

٢ -اتخاذه يوم عطلة «الإحياء ١/ ١٦٩»

٣ -التجمل والتزين له ببعض المعاصي كحلق اللحية ولبس الحرير والذهب

٤ -تقديم بعضهم مفارش إلى المسجد يوم الجمعة أو غيرها قبل ذهابهم إلى المسجد. ««المدخل» ٢/ ١٢٤».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى ٢/ ٣٩ فهذا منهي عنه بالاتفاق.

٥ -التذكار يوم الجمعة بأنواعه. ««المدخل» ٢/ ٢٥٨ -٢٥٩ و «الإبداع في مضار الابتداع» ص ٧٦ «ومجلة المنار» ٣١/ ٥٧»

٦ -الأذان جماعة يوم الجمعة ««المدخل» ٢/ ٢٠٨»

٧ -تأذين المؤذنين مع المؤذن الراتب يوم الجمعة في صحن المسجد. «الاختيارات العلمية» لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٢٢».

٨ -الزيادة في هذا الأذان الثاني على واحد حيث يؤتى بمؤذن ثان يؤذن على الدكة. كالمجيب للأول ««الإبداع» ٧٥ و «المدخل» ٢/ ٢٠٨ «٩ -صعود المؤذن يوم الجمعة على المنارة بعد الأذان الأول لينادي أهل القرية للحضور وتكميل عدد

=

=

الأربعين ««إصلاح المساجد من البدع والعوائد» ٦٤ -طبعتنا».

١٠ -تفريق الربعة حين اجتماع الناس لصلاة الجمعة فإذا كان عند الأذان قام الذي فرقها ليجمع ما فرق من تلك الأجزاء. ««المدخل» ٢/ ٢٢٣».

١١ -السماح للرجل الصالح بتخطي رقاب الناس يوم الجمعة بدعوى أنه يتبرك به.

١٢ -صلاة الجمعة القبلية «السنن والمبتدعات» ٥١ «المدخل» «٢/ ٢٣٩ «١٣ -فرش درج المنبر يوم الجمعة» «المدخل» ٢/ ١٦٦».

١٤ -جعل الأعلام السود على المنبر حال الخطبة ««المدخل» ١٠/ ١٦٦»

١٥ -الستائر للمنابر. ««السنن» ٥٣».

١٦ -المواظبة على لبس السواد من الإمام يوم الجمعة. («الإحياء» «١/ ١٦٢ - ١٦٥» و «المدخل» «٢/ ٢٦٦» و «شرح شرعة الإسلام» ص ١٤٠)

١٧ -تخصيص الاعتمام لصلاة الجمعة وغيرها.

قلت والأحاديث الواردة في فضيلة الصلاة بالعمامة لا يصح شيء كما بينته في الأحاديث الضعيفة رقم ١٢٧. ««المدخل» «٢/ ٢٦٦» «شرح الطريقة المحمدية» «١/ ١١٤ و ١١٥ و ٤/ ٣٢٣» «المنار» ٥/ ١٩،٩٥١/ ٥٤١، «الإبداع» ٧٥ «السنن» ٢٤ انظر الفقرة الآتية رقم ٣٢.

١٨ -لبس الخفين لأجل الخطبة وصلاة الجمعة ««المدخل» ٢/ ٢٦٦»

١٩ -الترقية وهي تلاوة آية: {إن الله وملائكته يصلون على النبي.... }

٢٠ -ثم حديث: «إذا قلت لصاحبك... » يجهر بذلك المؤذنون عند خروج الخطيب حتى يصل إلى المنبر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الاختيارات ص ٤٨: هو مكروه أو محرم اتفاقا.

قلت: فلا يغتر باستحسان صاحب الباعث ص ٦٥ لهذه البدعة فإنها زلة عالم.

=

=

٢١ -جعل درجات المنبر أكثر من ثلاث.

وما قيل من أن معاوية هو أول من بلغ درجات المنبر خمس عشرة مرقاة كما ذكره صاحب التراتيب الإدارية ٢/ ٤٤٠ فمما لا يثبت وتصديره بـ"قيل" مما يشعر بذلك.

ومن مضار هذه البدعة أنها تقطع الصفوف وقد تنبه لهذا بعض أئمة المساجد فأخذوا يتفاودون ذلك بطريق محدثة كجعل الدرج بجانب الجدار ونحو ذلك ولو أنهم اتبعوا السنة لاستراحوا.

٢٢ -قيام الإمام عند أسفل المنبر يدعو.

٢٣ -تباطؤه في الطلوع على المنبر. «الباعث» ٦٤».

٢٤ -إنشاد الشعر في مدح النبي ﷺ عند صعود الخطيب المنبر أو قبله. «المنار» ٣١/ ٤٧٤».

٢٥ -دق الخطيب عند صعوده بأسفل سيفه على درج المنبر. «الباعث». ٦٤ «المدخل» ٢/ ٢٦٧ «إصلاح المساجد» ٤٨ طبعتنا «المنار» ١٨/ ٥٥٨».

٢٦ -صلاة المؤذنين على النبي ﷺ عند كل ضربة يضربها الخطيب على المنبر «المدخل» ٢/ ٢٥٠ و ٢٦٧».

٢٧ -صعود رئيس المؤذنين على المنبر مع الإمام وإن كان يجلس دونه وقوله: «آمين اللهم غفر الله لمن يقول آمين اللهم صل عليه.. » «المدخل» ٢/ ٢٦٨».

٢٨ -اشتغال الإمام بالدعاء إذا صعد المنبر مستقبل القبلة قبل الإقبال على الناس والسلام عليهم. «الباعث» ٦٤ «المدخل» ٢/ ٢٦٧ «إصلاح المساجد» ٤٨ و «المنار» ١٨/ ٥٥٨».

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الاختيارات ٤٨: "دعاء الإمام بعد صعوده المنبر لا أصل له".

=

=

٢٩ -ترك الخطيب السلام على الناس إذا خرج عليهم. «المدخل» ٢٢/ ١٦٦».
٣٠ -الأذان الثاني داخل المسجد بين يدي الخطيب. «الاعتصام» للشاطبي ٢/ ٢٠٧٢٠٨، «المنار» ١٩/ ٥٤٠ «الأجوبة النافعة» ١٤ و ١٥».
٣١ -وجود مؤذنين بين يدي الخطيب في بعض الجوامع يقوم أحدهما أمام المنبر والثاني على السدة العليا يلقن الأول الثاني ألفاظ الأذان يأتي الأول بجملة منه سرا ثم يجهر بها الثاني «إصلاح المساجد عن البدع والعوائد «١٤٣».
٣٢ -نداء رئيس المؤذنين عند إرادة الخطيب الخطبة بقوله للناس: أيها الناس صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة أنصت فقد لغوت أنصتوا رحمكم الله. «المدخل» ٢/ ٢٦٨ «السنن» ٢٤».
٣٣ -قول بعض المؤذنين بين يدي الخطيب إذا جلس من الخطبة الأولى: غفر الله لك ولوالديك ولنا ولوالدينا والحاضرين. «فتاوى ابن تيمية» ١/ ١٢٩ و «إصلاح المساجد» ٧٠».
٣٤ -اعتماد الخطيب على السيف في خطبة الجمعة. ««السنن» ٥٥».
وأما حديث أن النبي ﷺ خطب على سيف أو عصا كما وقع في منار السبيل وعزاه لأبي داود فلا أصل له عنده ولا عند غيره بذكر السيف وإنما هو بلفظ".. عصا أو قوس" كما تراه مخرجا في إرواء الغليل برقم ٦١٦/ ج ٣.".
٣٥ -القعود تحت المنبر والخطيب يخطب يوم الجمعة للاستشفاء. «المنار» ٧/ ٥٠١ -٥٠٣».
٣٦ -إعراض الخطباء عن خطبة الحاجة «إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره... » وعن قوله ﷺ في خطبه «أما بعد فإن خير الكلام كلام الله».
٣٧ -إعراضهم عن التذكير بسورة «ق» في خطبهم مع مواظبة النبي ﷺ عليه ««السنن» ٥٧».

=

=

٣٨ -مواظبة الخطباء يوم الجمعة على قراءة حديث في آخر الخطبة دائما كحديث «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» ٣. ««السنن» ٥٦».

٣٩ -تسليم بعض الخطباء في هذا العصر بعد الفراغ من الخطبة الأولى.

٤٠ -قراءتهم سورة الإخلاص ثلاثا أثناء الجلوس بين الخطبتين ««السنن ٥٦».

٤١ -قيام بعض الحاضرين في أثناء الخطبة الثانية يصلون التحية ««المنار» ١٨/ ٥٥٩ «السنن» ٥١».

٤٢ -دعاء الناس ورفع اليدين عند جلوس الإمام على المنبر بين الخطبتين. ««المنار ٦/ ٧٩٣-٧٩٤ و ١٨/ ٥٥٩».

٤٣ -نزول الخطيب في الخطبة الثانية إلى درجة سفلى ثم العود ««حاشية ابن عابدين» ١/ ٧٧٠».

٤٤ -مبالغتهم في الإسراع في الخطبة الثانية. ««المنار» ١٨/ ٨٥٨».

٤٥ -الالتفات يمينا وشمالا عند قوله: آمركم وأنهاكم وعند الصلاة على النبي ﷺ «الباعث» ٦٥، «حاشية ابن عابدين» ١/ ٧٥٩، «إصلاح المساجد» ٤٨، «المنار» ١٨/ ٥٥٨».

٤٦ -ارتقاؤه درجة من المنبر عند الصلاة على النبي ﷺ ثم نزوله عند الفراغ منها. «الباعث» ٦٥».

٤٧ -التزامهم السجع والتثليث والتربيع والتخميس في دواوينهم وخطبهم مع أن السجع قد ورد النهي عنه في «الصحيح». «السنن» ٧٥».

٤٨ -التزام كثيرين منهم إيراد حديث: «إن لله ﷻ في كل ليلة من رمضان ستمائة ألف عتيق من النار فإذا كان آخر ليلة أعتق الله بعدد من مضى» في آخر خطبة جمعة من رمضان أو في خطبة عيد الفطر مع أنه حديث باطل.

٤٩ -ترك تحية المسجد والإمام يخطب يوم الجمعة. «المحلى» لابن حزم ٥/

=

=

٦٩».

٥٠ -قطع بعض الخطباء خطبتهم ليأمروا من دخل المسجد وشرع في تحية المسجد بتركها خلافا لحديث رسول الله ﷺ وأمره بها.

٥١ -جعل الخطبة الثانية عارية من الوعظ والإرشاد والتذكير والترغيب وتخصيصها بالصلاة على النبي ﷺ والدعاء. ««السنن» ٥٦، «نور البيان في الكشف عن بدع آخر الزمان» ٤٤٥».

٥٢ -تكلف الخطيب رفع الصوت في الصلاة على النبي ﷺ فوق المعتاد في باقي الخطبة. ««الباعث» ٦٥».

٥٣ -المبالغة برفع الصوت في الصلاة على النبي ﷺ عند قراءة الخطيب: {إن الله وملائكته يصلون على النبي} «بجيرمي «٢/ ١٨٩».

٥٤ -صياح بعضهم في أثناء الخطبة باسم الله وأسماء بعض الصالحين «المنار» ١٨/ ٥٥٩».

٥٥ -إتيان الكافر الذي أسلم في أثناء الأسبوع إلى الخطيب وهو على المنبر حتى يتلفظ بالإسلام على رؤوس الناس ويقطع الخطيب الخطبة بسببه «المدخل» ٢/ ١٧١».

٥٦ -التزام ذكر الخطباء الخلفاء والملوك والسلاطين في الخطبة الثانية بالتنغيم «الاعتصام» ١/ ١٧ -١٨ و ٢/ ١٧٧، «المنار» ٦/ ١٣٩ و ١٨/ ٣٠٥ و ٥٥٨ و ٣١/ ٥٥».

وقد ذكر ابن الحاج في المدخل ٢/ ٢٧٠ نحو هذا لكنه قال: فهذا من باب المندوب لا من باب البدعة. وقد وهم في ذلك فإننا لا نعلم أن أحدا كان يفعل ذلك من سلف الأمة من الصحابة والتابعين وغيرهم.

٥٧ -دعاء الخطيب للغزاة والمرابطين. «الاعتصام» ١/ ١٨».

=

=

٥٨ -رفع المؤذنين أصواتهم بالدعاء للسلاطين وإطالتهم في ذلك والخطيب مسترسل في خطبته «المنار» ١٨/ ٥٥٨، «السنن» ٢٥».

نص ابن عابدين في الحاشية ١/ ٧٦٩ على كراهة ذلك يعني كراهة تحريم.

٥٩ -سكتات الخطيب في دعائه على المنبر ليؤمن عليه المؤذنون «شرح الطريقة المحمدية» ٣/ ٣٢٣».

٦٠ -تأمين المؤذنين عند دعاء الخطيب للصحابة بالرضى وللسلطان بالنصر. «شرح الطريقة المحمدية» ٣/ ٣٢٣».

٦١ -الترنم في الخطبة «الابداع» ٢٧».

٦٢ -رفع الخطيب يديه في الدعاء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الاختيارات العلمية ٤٨: ويكره للإمام رفع حال الدعاء في الخطبة لأن النبي ﷺ إنما كان يشير بإصبعيه إذا دعا.

٦٣ -رفع القوم أيديهم تأمينا على دعائه. «الباعث» ٦٤ و ٦٥».

قلت وذكر ابن عابدين في الحاشية ١/ ٧٦٨ أنهم إذا فعلوا ذلك أثموا على الصحيح.

٦٤ -التزام ختم الخطبة بقوله تعالى: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان} . أو بقوله: {اذكروا الله يذكركم.. } «المدخل» ٢/ ٢٧١ و «السنن» ٥٧».

٦٥ -إطالة الخطبة وقصر الصلاة.

قلت لأن السنة إطالة الصلاة وقصر الخطبة كما تقدم ص ١٠٠ فعكس ذلك كما هو عادة أكثر الخطباء اليوم لا شك في كونه بدعة. وقد جاء في الدر المختار ١/ ٧٥٨ الحاشية ما نصه: وتكره زيادة خطبتي الجمعة على قدر سورة من طوال الفصل.

٦٦ -التمسح بكتف الخطيب وظهره عند نزوله من المنبر. «الإبداع». ٧٩،

=

=

«إصلاح المساجد» ٧٢، «السنن» ٥٤، «نور البيان» ٤٤».

٦٧ -المنبر الكبير الذي يدخلونه في بيت إذا فرغ الخطيب من الخطبة. «المدخل» ٢/ ٢١٢».

٦٨ -عد الجماعة في بعض المساجد الصغيرة يوم الجمعة لينظر هل بلغ عددهم أربعين.

٦٩ -إقامة الجمعة في المساجد الصغيرة. ««إصلاح المساجد» ٦٣».

قلت وللقاسمي رَحِمَهُ اللَّهُ بحث مهم جدا بين فيه خروج الجمعة عن موضوعها بكثرة تعددها وللسبكي رسالة في هذه المسألة بعنوان الاعتصام بالواحد الأحد من إقامة جمعتين في بلد وقد قال فيها:

تعدد صلاة الجمعة عند عدم الحاجة منكر معروف بالضرورة في دين الإسلام (ج ١ ص ١٩٠) من الفتاوى له وقد انتهى القاسمي في بحثه إلى أنه ينبغي: أن يترك التجميع في كل مسجد صغير سواء كان بين البيوت أو في الشوارع وكل مسجد كبير أيضا يستغني عنه بغيره وأن ينضم كل أهل محلة كبرى إلى جامعها الأكبر ولتفرض كل محلة كبرى كقرية على حدة فيستغني بذلك عن كثير من زوائد المساجد ويظهر الشعار في تلك الجوامع الجامعة في أبدع حال فيخرج من عهدة التعدد.

قلت: وهذا هو الحق الذي يفهمه كل من تفقه بالسنة وتأمل في واقع الجمعة والجماعة في عهد النبي ﷺ كما كنت نبهت عليه في الكلام على هذه المسألة ص ٨٠ من أحكام الجمعة والله الموفق.

٧٠ -دخول الإمام في الصلاة قبل استواء الصفوف ««إصلاح» ٩٩ -١٠٠».

٧١ -تقبيل اليد بعدها. ««إصلاح المساجد» ٩٩».

٧٢ -قولهم بعد الجمعة يتقبل الله منا ومنكم. «السنن» ٥٤.

=

=

قلت: وأما حديث "من لقي أخاه عند الانصراف من الجمعة فليقل تقبل الله منا ومنك فإنها فريضة أديتموها إلى ربكم" فقد أورد السيوطي في ذيل الأحاديث الموضوعة وقال ص ١١١: فيه نهشل وهو كذاب.

٧٣ -صلاة الظهر بعد الجمعة» «السنن» ١٠ و ١٢٣ -«إصلاح المساجد» «٤٩ - ٥٣» «المنار ٢٣/ ٢٥٩، ٤٩٧، و ٣٤/ ١٢٠».

وللشيخ مصطفى الغلاييني رسالة نافعة في هذه المسألة اسمها البدعة في صلاة الظهر بعد الجمعة نشرت في مجلة المنار على دفعات فانظر ٧/ ٩٤١ -٩٤٨ و ٨/ ٢٤ -٢٩. ولعلها أفردت في رسالة مستقلة.

٧٤ -قيام بعض النساء على باب المسجد يوم الجمعة تحمل طفلا لها لا يزال يزحف ولا يمشي قد عقدت بين إبهامي رجليه بخيط، ثم تطلب قطعه من أول خارج من المسجد يزعمن أن الطفل ينطلق ويمشي على رجليه بعد أسبوعين من هذه العملية.

٧٥ -قيام بعضهم على الباب وعلى يده كأس ماء ليتفل فيه الخارجون من المسجد واحدا بعد واحد للبركة والاستشفاء.

٧٦ -تعطيل شعيرة الأذان من مئات المساجد بالأذان الموحد في أحد البلاد الإسلامية خلافا لإجماع سائر البلاد الإسلامية سلفا وخلفا.

٧٧ -الاستغناء عن أذان المؤذن بإذاعته مسجلا في شريط في بعض البلاد الإسلامية. ا. هـ كلام العلامة الألباني.

وقال صاحب معجم البدع (ص ١١٤): يوم الجمعة وما حدث فيه.

• ما وقع من الإبتداع في الأذان يوم الجمعة. "الإبداع في مضار الإبتداع" الشيخ علي محفوظ (ص ١٦٧).

• أول من أحدث الأذان بين يدي الإمام يوم الجمعة: هشام بن عبد الملك.

=

=

"الاعتصام" للشاطبي (٢/ ١٦).

• جعل الأذان الثاني يوم الجمعة قريبًا من المنبر. "الإبداع في مضار الإبتداع" الشيخ علي محفوظ (ص ٥٩، ١٦٩)، "السنن والمبتدعات" الشقيري (٤٩)، "الاعتصام" الشاطبي (٢/ ١٥).

• وقولهم قبل الفجر على المنابر: يا رب عفوًا، بجاه المصطفى كرمًا (والتفكيرة) أو (التذكير) يوم الجمعة، بدعة. "السنن والمبتدعات" الشقيري (٤٩).

• التذكير والتسبيح قبل أذان الفجر، وقبل أذان العشاء ليلة الجمعة. "بدع القراء" محمد موسى (١٤)، "تحذير المسلمين من الإبتداع في الدين" لابن حجر آل بوطامي (ص ١٩٧)، "فتح الباري" ابن حجر (٢/ ٩٢).

• من البدع ما يسمى بالأولى والثانية، أعني ما يقع قبل الزوال يوم الجمعة من الدعاء بالذكر والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، ونحو ذلك. "الإبداع في مضار الإبتداع" علي محفوظ (ص ١٦٧).

• التأهب: ما يقع يوم الجمعة قبل صلاتها؛ لتأهب الناس لها كي لا يغفلوا عنها ومثله. "الإبداع في مضار الإبتداع" علي محفوظ (ص ١٧١).

• الزيادة في الأذان الثاني على واحد، حيث أتى بمؤذن ثانٍ يؤذن على الدّكة كالمجيب للأول. "الإبداع في مضار الإبتداع" الشيخ علي محفوظ (ص ١٦٨).

• تراسل المؤذنين بالأذان، وأذان الآحاد متفرقين يوم الجمعة. "الباعث" أبو شامة (٢٦٩)، "الأمر بالاتباع" السيوطي (٢٤٩)، "إحياء علوم الدين" (٢/ ٣٦٦)، "الاختيارات العلمية" (٢٢).

• ما يقوله بعض المؤذنين يوم الجمعة بين يدى الخطب إذا جلس من الخطة الأولى: "غفر الله لك ولوالديك ولنا ولوالدينا والحاضرين.. الخ" "إصلاح المساجد" القاسمي (٧٠).

=

=

• جملة البدع التي يفعلها الخطيب يوم الجمعة. "القول المبين" مشهور حسن (٢٦٤)، "فتاوى" ابن عبد السلام (٧٨).

• ما يفعله المؤذنون من الصلاة على النبي ﷺ حين صعود الإمام المنبر. "إصلاح المساجد من البدع والعوائد" القاسمي (١٤٨).

• ما يفعله بعض الجهلة في الخطبة من التفاتهم في الخطبة الثانية، والدق على درج المنبر في صعوده، والدعاء إذا انتهى صعوده قبل أن يجلس. "الروضة" النووي (٢/ ٣٢)، "إصلاح المساجد" القاسمي (٤٨).

• ما يفعله عوام الخطباء من التباطؤ حين صعوده المنبر. "إصلاح المساجد" (٤٨)، "الباعث" لأبي شامة (٢٦٣)، "الأمر بالاتباع" (٢٤٧).

• اشتغال الخطيب بالدعاء قبل الإقبال على الناس. "الباعث" لأبي شامة (٢٦٣)، "الاختيارات العلمية" (٤٨)، "روضة الطالبين" (٢/ ٣٢)، "المدخل" ابن الحاج (٢/ ٢٦٧)، "إصلاح المساجد" (٤٨)، "مجلة المنار" (١٨/ ٥٥٨)، "الأجوبة النافعة" (٦٨)، "الأمر بالاتباع" (٢٤٧)، "القول المبين" مشهور حسن (٢٦١).

• ترك الخطيب السلام على الناس إذا خرج إليهم. "المدخل" لابن الحاج (٢/ ١٦٦).

• التفاتهم يمينًا وشمالًا عند قول الخطيب: "آمركم وأنهاكم"، وعند الصلاة على النبي، مع زيادته ارتقاء درجة من المنبر عند ذلك، ثم نزوله عند الفراغ منها. "الباعث على انكار البدع والحوادث" أبو شامة (٢٦٤ -٢٦٥)، "إصلاح المساجد" (٤٨)، "الأمر بالاتباع" السيوطي (٢٤٧)، "حاشية ابن عابدين" (١/ ٧٥٩)، "روضة الطالبين" النووي (٢/ ٣٢)، "مجلة المنار" (١٨/ ٥٥٨).

• رفع الخطباء أيديهم عند الدعاء في الخطبة. "الاختيارات العلمية" (٤٨)،

=

= "الباعث" أبو شامة (٢٦٣)، "حاشية ابن عابدين" (١/ ٧٦٨)، "بذل المجهود" (٦/ ١٠٥ -١٠٦)، "الأمر بالاتباع" (٢٤٧)، "إصلاح المساجد" (٤٩).

• دقّ الخطب المنبر عند صعوده ثلاث مرات، بأسفل سيفه دقًّا مزعجًا. الأمر بالاتباع" (٢٤٧)، "الباعث" أبو شامة (٢٦٢)، "روضة الطالبين" (٢/ ٣٢)، (المدخل) ابن الحاج (٢/ ٢٦٧)، "إصلاح المساجد" (٤٨)، "مجلة المنار" (٨/ ٥٥٨)، "الأجوبة النافعة" (٦٨).

• ومنها أنهم يتكلفون رفع الصوت في الصلاة على النبي فوق المعتاد في باقي الخطبة، ويرون إزعاج الأعضاء برفع الصوت بها. "إصلاح المساجد" (٤٩)، "الأمر بالاتباع والنهي عن الإبتداع" السيوطي (٢٤٨)، "الباعث" أبو شامة (٢٦٥).

• أن يكون الخطيب لابسًا ثوبًا أسودًا يغلب عليه الحرير، أو ممسكًا بيده سيفًا مذهّبًا. (الباعث) أبو شامة (٢٦٩)، "الأمر بالاتباع" (٢٤٩)، "إحياء علوم الدين" الغزالي (١/ ١٦٢، ١٦٥)، "المدخل" لابن الحاج (٢/ ١٦٦).

" تعدد الجُمعات في المحلة الواحدة" "إصلاح المساجد" القاسمي (٥١).

• أول ما حدثت هذه البدعة في أيام المعتضد في دار الخلافة. " إصلاح المساجد" القاسمي (٥٤).

• ارتقاء المؤذن بعد الأذان الأول على المنارة أو السطح، مناديًا أهل القرية للحضور وتكميل عدد المصلين الأربعين؛ لكي تنعقد صلاة الجمعة. "إصلاح المساجد" القاسمي (٦٤).

• أداء الجمعة في حجرة ورفض الصفوف. "إصلاح المساجد" القاسمي (٦٧).

• ما يفعله بعض المجاورين للأزهر من نومه قبل الزوال، واستغراقه بعده إلى العصر، سعيًا في اسقاط الجمعة وحضورها. "إصلاح المساجد" القاسمي (٦٦). =

=

• أول من خطب الجمعة جالسًا: الوليد بن عبد الملك. "إصلاح المساجد" القاسمي (٦٨).

• التمسح بالخطيب إذا نزل من المنبر. "إصلاح المساجد" القاسمي (٧٢).

• نعي الحسين -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- على المنابر في جمعة عاشوراء. "إصلاح المساجد" القاسمي (١٦٥) "السنن والمبتدعات" الشقيري (ص ١٣٧).

• قول الخطيب: ادْعُوا الله... "القول المبين" (٢٦٥)، "السالك" (١/ ١٨٢)، "فتاوى محمد رشيد رضا" (١/ ٥٨).

• قراءة حديث: "إذا قلت لصاحبك... " قبل الخطة بدعة. "السنن والمبتدعات" الشقيري (ص ٤٩).

• ذكر الأشعار في الخطبة. "فتاوى" ابن عبد السلام (٧٩).

• ومن البدع إهمال الناس تطييب المسجد بنحو البخور يوم الجمعة. " الإبداع في مضار الإبتداع" الشيخ علي محفوظ (ص ٢٦٨).

• تخطي رقاب المسلمين يوم الجمعة. "اللمع" التركماني (١/ ١٣٨).

• الدعاء للملوك في الخطبة. "القول المبين" (٢٦٣)، وانظر أيضًا "الدين الخالص" (٤/ ٢١١، ٣٠٦ -٣٠٧)، "البحر الرائق" (٢/ ١٥٦)، "حاشية العدوى" (٢/ ١٠٣)، "رد المحتار" (١/ ٦٠٦)، "تحفة المحتاج" (١/ ٤٦٠)، "فتاوى محمد رشيد رضا" (٤/ ١٣٥٦)، "المدخل" (٢/ ٢٦٦)، "شرح الطريقة المحمدية" (١/ ١١٤ -١١٥)، (٤/ ٣٢٣)، "الإبداع في مضار الإبتداع" (٧٥، ١٧٧)، "السنن والمبتدعات" (٢٤)، "الأجوبة النافعة" (ص ٦٧)، "فتاوى ابن تيمية" (١/ ١٢٩)، "إصلاح المساجد" (٧٠)، "الاختيارات العلمية" (ص ١٤٨)، "فتاوى ابن عبد السلام" (٤٨، ٧٧).

• الترنّم في وقت الخطبة. "الإبداع في مضار الإبتداع" الشيخ علي محفوظ (ص

=

=

٤٥).

• ومواظبتهم على قراءة حديث في آخر الخطبة الأولى دائمًا، بدعة. "السنن والمبتدعات" الشقيري (ص ٨٩).

• والمواظبة في آخر الخطبة الأولى أيضًا على حديث: "التائب من الذنب كمن لا ذنب له" أو: "ادْعُو الله وأنتم موقنون بالإجابة". "السنن والمبتدعات" الشقيري (ص ٨٩).

• التزام ختم الخطبة الثانية من يوم الجمعة بقول: اذكروا الله يذكركم أو {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ} بدعة. "السنن والمبتدعات" الشقيري (ص ٩٠).

• قول الخطباء على المنابر في آخر جمعة من رمضان: "لا أوحش الله منك يا شهر رمضان، لا أوحش الله منك يا شهر القرآن، يا شهر المصابيح، يا شهر التراويح، يا شهر المفاتيح". "السنن والمبتدعات" الشقيري (ص ١٦١).

• وجعل الخطبة عارية عن الوعظ والإرشادات والتذكير والترغيب والترهيب والأمر والنهي -بل جعلها صلاة على النبي ودعاء للسلطان بدعة. "السنن والمبتدعات" الشقيري (ص ٩٠).

• التكلم والإمام يخطب يوم الجمعة. "اللمع" للتركماني (٠/ ١٣٨)، "الحوادث والبدع" الطرطوشي (١٥٣).

• وجلوس الداخلين المسجد عندما يرون الخطب يخطب الخطبة الأولى، ثم إذا جلس وقام للخطبة الثانية قاموا لصلاة التحية. "السنن والمبتدعات" الشقيري (ص ٨٤).

• تسمية الخطبة الثانية بخطبة "النعت" بدعة. "السنن والمبتدعات" الشقيري (ص ٩٠).

• ومن فرط جهل كثير من الخطباء: اعتمادهم على قِطَعٍ من الخشب يسمُّونها:

=

=

سيوفًا؛ ظنًا منهم أن الدين قام بالسيف. "السنن والمبتدعات" الشقيري (ص ٨٨)، "إصلاح المساجد" القاسمي (٤٨).

• والتزامهم السجع والتثليث والتربيع والتخميس في دواوينهم وخطبهم، بدعة. "السنن والمبتدعات" الشقيري (ص ٩١).

• صلاة الظهر بعد الجمعة. "القول المبين" مشهور حسن (٢٧٠، ٢٧٢)، "إصلاح المساجد" القاسمي (ص ٤٩، ٥٢)، "فتاوى محمد رشيد رضا" (٣/ ٩٤٢)، (٤/ ١٥٥٠ -١٥٥١)، (٥/ ١٩٦٥ -١٩٦٦)، "السنن والمبتدعات" (ص ٨٤٢، ١٥٧، ١٦٢، ١٨١) (١/ ١٢٣)، "الأجوبة النافعة" (ص ٤٦، ٧٤)، "مجلة المنار" (٢٣/ ٢٥٩، ٤٩٧)، (٣٤/ ١٢٠)، "الدين الخالص" (٤/ ١٧٥، ١٨٢)، "الموعظة الحسنة" (ص ١٥ -١٦)، "إعلام العابد في حكم تكرار الجماعة في المسجد الواحد" مشهور حسن، "مجموع الفتاوى" (٢٠٣/ ٢٤)، "تطهير الجنان والأركان عن درن الشرك والكفران" (ص ١٤٣)، "فقه السنة" سيد سابق (٢/ ٢٥٦)، "المسجد في الإسلام" خير الدين وانلي (١٨٢).

• قراءة سجدة غير سجدة {الم تَنْزِيْلُ} في صلاة الصبح يوم الجمعة. "بدع القراء" محمد موسى (٢٧)، "التبيان في آداب حملة القرآن". (ص ٩٤).

• الصلوات الأسبوعية والحولية، كصلاة يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت. "السنن والمبتدعات" الشقيري (ص ١٧٩).

• بدعة سنة الجمعة القبلية. "الفتاوى" ابن تيمية (٢٤/ ١٨٨ -١٩٤)، "تصحيح الأخطاء والأوهام الواقعة في فهم أحاديث النبي -عليه السلام-" لابن أبي علفة (١/ ٨٥ -٩٢)، "السنن والمبتدعات" الشقيري (٨٤)، "فقه السنة" سيد سابق (٢/ ٢٨٣)، "المسجد في الإسلام" خير الدين وانلي (١٨٥).

• ومنها قول بعض العامة عقب الفراغ من صلاة الجمعة مع رفع الصوت:

=

=

(الفاتحة) لسيدي أحمد البدوى، أو سيدى إبراهيم الدسوقي. "الإبداع في مضار الإبتداع" الشيخ علي محفوظ (ص ٢٦٨).

• والمواظبة على صيغة "اللهم يا غني يا حميد يا مبدئ يا معيد أغنني بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك" بعد الجمعة واعتقادهم أن من واظب عليها أغناه الله ورزقه، أيضًا ما ذكر عن بعض الشيوخ أن من قال بعضها في صلاة الجمعة سبعين مرة. "السنن والمبتدعات" الشقيري (ص ٨٥).

• قراءة {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ} ألف مرة يوم الجمعة. "بدع القراء" محمد موسى (٣٧)، "تحذير المسلمين" (٢٤٦).

• وقراءتهم سورة الاخلاص ثلاثًا أثناء الجلوس بين الخطبتين من يوم الجمعة، جهل بالسنّة وبدعة. "السنن والمبتدعات" الشقيري (ص ٨٩).

• اجتماع الصوفية للذكر والرقص بعد الجمعة بالشخير والنخير والإلحاد في اسم الله الكبير. "السنن والمبتدعات" الشقيري (ص ٨٦).

• بدعة قراءة سورة (الإخلاص) في صلاة المغرب ليلة الجمعة. "بدع القراء" بكر أبو زيد (١٩).

• بدعة قراءة سورة (الكهف) يوم الجمعة على المصلين قبل الخطبة بصوت مرتفع "بدع القراء" بكر أبو زيد (٢٠)، "الإبداع في مضار الإبتداع" علي محفوظ (١٧٧)، "السنن والمبتدعات" الشقيري (٤٩).

• قراءة سورة (الكهف) بعد عصر يوم الجمعة في المسجد. "الفتاوى" للشاطبي (١٩٧ -٢٠٠)، "بدع القراء" بكر أبو زيد (٢١).

• بدعة قراءة القارئ يوم الجمعة عشرًا من القرآن عند خروج السلطان. "الحوادث والبدع" (١٥٢).

• قراءة (الجمعة) و (المنافقين) في صلاة عشاء ليلة الجمعة باستمرار. "الضعيفة"

=

=

(٢/ ٣٥).

• قراءة (الفاتحة) و (المعوذتين) سبعًا سبعًا بعد صلاة الجمعة. "بدع القراء" محمد مرسى نصر (٣٧)، "تحذير المسلمين" (٢٤٦).

• قراءة (المعوذتين) بعد صلاة الصبح من يوم الجمعة ودعاء الجمعة. "تلبيس إبليس" ابن الجوزي (ص ١٤٣).

• العدول عن السنّة في القراءة لصلاة الجمعة وقراءة ما يراه الإمام من آيات وسور متناسبًا مع موضوع الخطبة. "بدع القراء" بكر أبو زيد (٥٩).

• وقول بعض الجهلة بعد الجمعة: الفاتحة على هذه النية، أو: الفاتحة لسيدنا الحسين أو الولي الفلاني، بدعة منكرة. "السنن والمبتدعات" الشقيري (ص ٨٤).

• حرص كثير من المتعبدين على صلاة الجمعة بمسجد الحسين أو الشافعي أو السيدة زينب مع بعد ديارهم عنها، بدعة. "السنن والمبتدعات" الشقيري (٨٤).

• إنكار الناس على الإمام الذي لم يقرأ بآية السجدة في صلاة صبح الجمعة، مع ظن بعضهم اختصاصها بزيادة سجدة، خطأ وجهل، واقتصار كثير من الأئمة على قراءة بعض السورتين، خلاف السنّة، تقصير وبدعة، وعدول غالب الأئمة عن قراءة سورة (الجمعة) و (المنافقين) أو (سبح) و (الغاشية) أو الاقتصار على بعضهم في صلاة الجمعة بدعة. "السنن و"المبتدعات" الشقيري (ص ٨٤).

• اجتماع الفقراء ليالي الجمعات في بعض المساجد أو البيوت للرقص "باه إه اله إه إه اللوح اللوح أح لح" بدعة وضلال. "السنن والمبتدعات" الشقيري (ص ٨٣).

• ومن أوهامهم: أنه إذا أصيب الطفل بمرض الكساح -ويسمى عند الأطباء (لين العظام) -تذهب به أمه يوم الجمعة، وتضعه على باب المسجد مقيد الرجلين

=

=

بحبل من الصوف. "الإبداع في مضار الإبتداع" الشيخ علي محفوظ (ص ٤٣١).

• ترك المرازقة: الجمعة، والجماعة مع جماعة المسلمين، والصلاة وحدهم. "اللمع" التركمانى (١/ ٢٦٦).

• ومن البدع المتعلقة بيوم الجمعة: توهمّ كثير من العامة أنه إذا جاء فيه أحد العيدين؛ كان شؤمًا على السلطان بموتٍ أو غيره. "الإبداع في مضار الإبتداع" الشيخ علي محفوظ (ص ٢٦٦).

• يحرِّمون الخياطة يوم الجمعة ويوم عرفات، ويمنعون الإبرة والمنخل ليلًا؛ تشاؤمًا. "السنن والمبتدعات" الشقيري (ص ٣٣٤).

• تحويطة آخر جمعة من رمضانا "وهي لا آلاء إلا آلاؤك كعسهلون". " السنن والمبتدعات" الشقيري (ص ٣٢٩).

• ومن البدع: ما اعتاده بعض العامة أيضًا من إفراد يوم الجمعة بصيام. "الإبداع في مضار الإبتداع" الشيخ علي محفوظ (ص ٢٦٦).

• ومن البدع المنكرة بلا خلاف: كتب الأوراق التي يسمونها "حفائظ" في آخر جمعة من رمضان (الجمعة اليتيمة) حال الخطبة. "الإبداع في مضار الإبتداع" الشيخ علي محفوظ (ص ١٧٧).

• قولهم: إن الميت إذا لم يُخرج إلى زيارته ليلة الجمعة؛ بقي خاطره مكسورًا بين الموتى، ويزعمون أنه يراهم إذا خرجوا من سُورِ البلد. "المدخل" لابن الحاج (٣/ ٢٧٧)، "أحكام الجنائز" الألباني (٢٥٨).

• قول بعضهم: إن مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة؛ يكون له عذاب القبر ساعةً واحدةً، ثم ينقطع عنه العذاب ولا يعود إلى يوم القيامة. "حكاه الشيخ عليُّ القارى في شرح الفقه الأكبر" (ص ٩٦)، "أحكام الجنائز" الألباني (٢٤٦).

• انطلاق النساء يوم الجمعة لمزارات في الصالحية "بدمشق" ومشاركتهن في ذلك

=

سورة المنافقون[١]

=

الرجال على طبقاتهم. "إصلاح المساجد" (٢٣١)، "أحكام الجنائز" الألباني (٢٦٠).

• انطلاق النساء في الأردن يوم الجمعة إلى ما يسمى بقبر شعيب وما يفعلنه هناك من الذبح والطواف بالقبر وغيره.

• ومن البدع: تهافت الناس على زيارة موتاهم يوم الجمعة. "الإبداع في مضار الإبتداع" الشيخ علي محفوظ (ص ٢٦٦).

• زيارة قبر الأبوين كل جمعة. "أحكام الجنائز" الألباني (٢٥٨).

• وقراءة هذين البيتين كل جمعة بعد الصلاة خمس مرات، اعتقادًا بأن من واظب عليها توفاه الله على الإسلام، شرع باطل، وظن عاطل، لم يعمل به أحد من الأوائل، فكان الترك واجبًا على كل عاقل. وهما:

إلهي لست للفردوس أهلًا... ولا أقوى على نار الجحيم

فهب لي توبة واغفر ذنوبي... فإنك غافر الذنب العظيم

" السنن والمبتدعات" الشقيري (ص ٨٥).

• والشحاذة في المسجد يوم الجمعة وغيره مذمومة. "السنن والمبتدعات" الشقيري (ص ٨٧).

• اجتماع كبير من العامة ليلة الجمعة في بعض المساجد أو المساكن، يذكرون الله تعالى. "الإبداع في مضار الإبتداع" علي محفوظ (ص ٢٦٤).

(١) قال الفيروزآبادي:"السورة مدنية بالاتفاق".

قال ابن الجوزي:"وهي مدنيّة بإجماعهم، وذكر أهل التفسير أنها نزلت في عبد الله بن أبي ونظرائه".

=

=

قال ابن عاشور:"الصحيح أنها نزلت في غزوة بني المصطلق ووقع في «جامع الترمذي» عن محمد بن كعب القرظي «أنها نزلت في غزوة تبوك». ووقع فيه أيضا عن سفيان: أن ذلك في غزوة بني المصطلق» وغزوة بني المصطلق سنة خمس، وغزوة تبوك سنة تسع.

ورجح أهل المغازي وابن العربي في «العارضة»، وابن كثير: أنها نزلت في غزوة بني المصطلق وهو الأظهر. لأن قول عبد الله بن أبي ابن سلول: «ليخرجن الأعز منها الأذل»، يناسب الوقت الذي لم يضعف فيه شأن المنافقين وكان أمرهم كل يوم في ضعف وكانت غزوة تبوك في آخر سني النبوءة وقد ضعف أمر المنافقين".

* آياتها إِحدى عشرة. كلماتها مائة وثمانون. حروفها سبعمائة وست وسبعون. فواصل آياتها (نون).

* سميت هذه السورة في كتب السنة وكتب التفسير «سورة المنافقين» اعتبارا بذكر أحوالهم وصفاتهم فيها، ووقع هذا الاسم في حديث زيد بن أرقم: قوله: «فلما أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين». ووقع في «صحيح البخاري» وبعض كتب التفسير تسميتها «سورة المنافقون»، على حكاية اللفظ الواقع في أولها، وكذلك ثبت في كثير من المصاحف المغربية والمشرقية.

* معظم مقصود السّورة: تقريع المنافقين وتبكيتهم، وبيان ذلِّهم وكذبهم، وذكر تشريف المؤمنين وتبجيلهم، وبيان عزّهم وشرفهم، والنَّهى عن نسيان ذكر الحقِّ تعالى، والغفلة عنه، والإِخبار عن ندامة الكفَّار بعد الموت، وبيان أَنَّه لا تأْخير ولا إِمهال بعد حلول الأَجل، فى قوله: {وَلَن يُؤَخِّرَ الله نَفْساً} الآية.

* المتشابهات: قوله: {ولاكن المنافقين لاَ يَفْقَهُونَ} وبعده: {لاَ يَعْلَمُوْنَ}، لأَنَّ الأَوّل متّصل بقوله: {وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ السماوات والأرض} وفى معرفتها غموض يَحتاج إِلى فطنة، والمنافق لا فطنة له؛ والثانى متّصل بقوله: {وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ

=

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١).

{إِذَا جَاءَك الْمُنَافِقُونَ قَالُوا} بِأَلْسِنَتِهِمْ عَلَى خِلَاف مَا فِي قُلُوبهمْ {نَشْهَد إِنَّك لَرَسُول الله وَاَلله يَعْلَم إِنَّك لَرَسُوله وَاَلله يَشْهَد} يَعْلَم {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} فِيمَا أَضْمَرُوهُ مُخَالِفًا لِمَا قالوه.

اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢).

{اتَّخَذُوا أَيْمَانهمْ جُنَّة} سُتْرَة عَلَى أَمْوَالهمْ وَدِمَائِهِمْ {فَصَدُّوا} بِهَا {عَنْ سَبِيل الله} أَيْ عَنْ الجهاد فيهم {إنهم ساء ما كانوا يعملون}.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣).

{ذَلِكَ} أَيْ سُوء عَمَلهمْ {بِأَنَّهُمْ آمَنُوا} بِاللِّسَانِ {ثُمَّ كَفَرُوا} بِالْقَلْبِ أَيْ اسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرهمْ بِهِ {فَطُبِعَ} خُتِمَ {عَلَى قُلُوبهمْ} بِالْكُفْرِ {فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} الْإِيمَان

وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤).

{وَإِذَا رَأَيْتهمْ تُعْجِبك أَجْسَامهمْ} لِجَمَالِهَا {وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَع لِقَوْلِهِمْ}

=

وَلِلْمُؤْمِنِينَ ولاكن المنافقين لاَ يَعْلَمُونَ} أَى لا يعلمون بأَنَّ الله مُعِزّ لأَوليائه ومذِلٌّ لأَعدائه.

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

لِفَصَاحَتِهِ {كَأَنَّهُمْ} مِنْ عِظَم أَجْسَامهمْ فِي تَرْك التَّفَهُّم {خُشْب} بِسُكُونِ الشِّين وَضَمّهَا {مُسَنَّدَة} مُمَالَة إلَى الْجِدَار {يَحْسَبُونَ كُلّ صَيْحَة} تُصَاح كَنِدَاءٍ فِي الْعَسْكَر وَإِنْشَاد ضَالَّة {عَلَيْهِمْ} لِمَا فِي قُلُوبهمْ مِنْ الرُّعْب أَنْ يَنْزِل فِيهِمْ مَا يُبِيح دِمَاءَهُمْ {هُمْ الْعَدُوّ فَاحْذَرْهُمْ} فَإِنَّهُمْ يُفْشُونَ سِرّك لِلْكُفَّارِ {قَاتَلَهُمْ الله} أَهْلَكَهُمْ {أَنَّى يُؤْفَكُونَ} كَيْفَ يُصْرَفُونَ عَنْ الْإِيمَان بَعْد قيام البرهان[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قال: كنت في غزاة، فسمعت عبد الله بن أُبيّ يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله؛ حتى ينفضوا من حوله ولئن رجعنا من عنده؛ ليخرجن الأعز منها الأذل؛ فذكرت ذلك لعمي أو لعمر فذكره للنبي ﷺ؛ فدعاني؛ فحدثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أُبيّ وأصحابه فحلفوا ما قالوا، فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه؛ فأصابني هَمّ لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك؛ فأنزل الله تعالى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ}؛ فبعث إليَّ النبي ﷺ فقرأ، فقال: "إن الله قد صدقك يا زيد! ".

أخرجه البخاري (رقم ٤٩٠٠، ٤٩٠١، ٤٩٠٣، ٤٩٠٤)، ومسلم (رقم ٢٧٧٢) من طريق أبي إسحاق السبيعي أنه سمع زيد به.

وأخرجه البخاري (رقم ٤٩٠٢) وغيره من طريق محمد بن كعب القرظي عن زيد بن أرقم؛ قال: لما قال عبد الله بن أُبيّ: لا تنفقوا على من عند رسول الله، وقال -أيضـًا-: لئن رجعنا إلى المدينة؛ أخبرت به النبي ﷺ؛ فلامني الأنصار، وحلف عبد الله بن أبيّ ما قال ذلك، فرجعت إلى المنزل فنمت، فدعاني رسول الله ﷺ؛ فأتيته، فقال: "إن الله قد صدقك"، ونزل: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا}.

=

=

وأخرج عبد بن حميد في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٨/ ١٧١) -وعنه الترمذي (٥/ ٤١٥ -٤١٧ رقم ٣٣١٣) -، والطبراني في "المعجم الكبير" (٥/ ١٨٦، ١٨٧ رقم ٥٠٤١)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٤٨٨، ٤٨٩)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٤/ ٥٤، ٥٥)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٨٧) من طريق إسرائيل عن السدي عن أبي سعد الأزدي عن زيد بن أرقم؛ قال: غزونا مع رسول الله ﷺ وكان معنا أناس من الأعراب، فكنا نبتدر الماء وكان الأعراب يسبقونا إليه، فسبق أعرابي أصحابه، فسبق الأعرابي فيملأ الحوض ويجعل حوله حجارة ويجعل النطع عليه حتى يجيء أصحابه، قال: فأتى رجل من الأنصار أعرابياً فأرخى زمام ناقته لتشرب، فأبى أن يدعه؛ فانتزع قباض الماء فرفع الأعرابي خشبته فضرب بها رأس الأنصاري؛ فشجه، فأتى عبد الله بن أُبيّ رأس المنافقين فأخبره وكان من أصحابه؛ فغضب عبد الله بن أُبيّ، ثم قال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله؛ يعني: الأعراب، وكانوا يحضرون رسول الله ﷺ عند الطعام، فقال عبد الله: إذا انفضوا من عند محمد؛ فأْتوا محمداً بالطعام فلياكل هو ومن معه، ثم قال لأصحابه: لئن رجعتم إلى المدينة؛ ليخرجن الأعز منها الأذل، قال زيد: وأنا ردف رسول الله ﷺ، قال: فسمعت عبد الله بن أبيّ؛ فأخبرت عمي، فانطلق فأخبر رسول الله ﷺ، فأرسل إليه رسول الله ﷺ؛ فحلف وجحد، قال: فصدقه رسول الله ﷺ وكذبني، قال: فجاء عمي إليّ، فقال: ما أردت إلا أن مقتك رسول الله ﷺ وكذبك والمسلمون، قال: فوقع عليّ من الهم ما لم يقع على أحد، قال: فبينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ في سفر قد خفقت برأسي من الهم؛ إذ أتاني رسول الله ﷺ فعرك أذني وضحك في وجهي، فما كان يسرني أن لي بها الخلد في الدنيا، ثم إن أبا بكر لحقني فقال: ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قلت: ما قال شيئاً؛ إلا أنه عرك أذني وضحك في وجهي، فقال: أبشر، ثم

=

=

لحقني عمر، فقلت له مثل قولي لأبي بكر، فلما أصبحنا؛ قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين.

وهذا سند حسن. قال الترمذي: "هذا حديث حسن صحيح". وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وأخرجه الطحاوي في "مشكل الآثار" (١٥/ ١١٧، ١١٨ رقم ٥٨٨٥)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٥/ ١٩٦ رقم ٥٠٧٣) من طريق قيس بن الربيع عن الأغر بن الصباح عن خليفة بن حصين عن زيد بن أرقم؛ قال: كنت جالساً مع عبد الله بن أُبيّ بن سلول، فمر رسول الله ﷺ، وأناس من أصحابه، فغمزوا، فلما مضى رسول الله ﷺ؛ قال عبد الله: لئن رجعنا إلى المدينة؛ ليخرجن الأعز منها الأذل، فأتيت سعد بن عبادة، فأخبرته، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له؛ فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أُبيّ، فأوعده، فحلف له عبد الله بالذي أنزل النبوة عليه ما تكلم بهذا، فنظر رسول الله ﷺ إلى سعد بن عبادة، فقال سعد: يا رسول الله! إنما أخبرنيه الغلام لزيد بن أرقم، فجاء سعد، فأخذ بيدي، فانطلق بي، فقال: هذا حدثني، فانتهرني عبد الله بن أُبيّ، فأجهشت إلى رسول الله ﷺ، فبكيت، فقلت: والذي أنزل عليك النبوة لقد قال، فأنصت عنه نبي الله؛ فأنزل الله تعالى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١)} إلى آخر السورة. وهذا سند ضعيف؛ قيس بن الربيع؛ ضعيف.

وأعله الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٢٥) بالراوي عن قيس، وهو ابن أبي مريم، ولم يصب؛ لأنه متابع عند الطبراني نفسه.

وأخرجه البخاري في "صحيحه" -معلقاً-(بعد حديث رقم ٤٩٠٢) ووصله النسائي في "تفسيره" (٢/ ٤٣١ رقم ٦١٤)، والطبري في "جامع البيان" (٢٨/

=

=

٧٢)، والطبراني في "المعجم الكبير" (٥/ ١٦٩ رقم ٤٩٧٩)، وأبو نعيم في "المستخرج على البخاري"، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تغليق التعليق" (٤/ ٣٤١، ٣٤٢) من طريق يحيى بن أبي زائدة ثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن زيد؛ قال: لما قال عبد الله بن أُبيّ ما قال؛ جئت رسول الله ﷺ فأخبرته، فحلف أنه لم يقل؛ فجعل الناس يقولون: تأتي رسول الله ﷺ بالكذب؛ حتى جلست في البيت مخافة إذا رأوني الناس أن يقولوا كذبت، حتى أنزل الله ﷻ هذه الآية: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١)}. وسنده صحيح على شرط الشيخين.

وأخرجه عبد الله بن أحمد في "زوائد المسند" (٤/ ٣٧٠) -وعنه الطبراني في "المعجم الكبير" (٥/ ١٧٧ رقم ٥٠٠٣) -من طريق شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي حمزة طلحة بن يزيد عن زيد؛ قال: سمعت عبد الله بن أُبيّ يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، وأتاه ابن أُبيّ فحلف له أنه لم يقل ذلك، وأتاني أصحاب النبي ﷺ فلاموني، فأتيت منزلي فنمت قال: كأنه كئيب، فأرسل إليّ النبي ﷺ -أو قال-، فأتيت النبي ﷺ فقال: "إن الله قد صدقك وعذرك"، وتلا هاتين الآيتين: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ} حتى ختم الآيتين.

وهذا سند صحيح رجاله ثقات.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ}؛ قال: نزلت هذه الآية بعد الآية التي في سورة التوبة: {إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ} [التوبة: ٨٠]؛ فقال رسول الله ﷺ: "زيادة على سبعين مرة"؛ فأنزل الله ﷻ: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ}.

=

=

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٧٢). وسنده ضعيف جداً؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وعن قتادة في قوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ} الآية كلها قرأها إلى {الْفَاسِقِينَ}: أنزلت في عبد الله بن أُبيّ، وذلك أن غلاماً من قرابته انطلق إلى رسول الله ﷺ فحدثه بحديث عنه وأمر شديد، فدعاه رسول الله ﷺ؛ فإذا هو يحلف ويتبرأ من ذلك، وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعذلوه، وقيل لعبد الله: لو أتيت رسول الله ﷺ فجعل يلوي رأسه؛ أي: لست فاعلاً، وكذب عليّ؛ فأنزل الله ما تسمعون.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٧١): ثنا بشر العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن قتادة؛ قال: قال له قومه: لو أتيت النبي ﷺ فاستغفر لك؛ فجعل يلوي رأسه؛ فنزلت فيه: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٧١): ثنا ابن عبد الأعلى ثنا ابن ثور عن معمر عن قتادة به. وهذا مرسل رجاله ثقات.

وعن قتادة؛ قال: اقتتل رجلان: أحدهما من جهينة، والآخر من غفار، وكانت جهينة حليف الأنصار فظهر عليه الغفاري، فقال رجل منهم عظيم النفاق: عليكم صاحبكم، عليكم صاحبكم؛ فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك، أما والله؛ لئن رجعنا إلى المدينة؛ ليخرجن الأعز منها الأذل، وهم في سفر، فجاء رجل ممن سمعه إلى النبي ﷺ فأخبره ذلك، فقال عمر: مر معاذاً يضرب عنقه، فقال: "والله لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه"، فنزلت: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ} وقوله: {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}.

=

=

أخرجه الطبري (٢٨/ ٧٤) بنفس السند السابق. وهذا مرسل رجاله ثقات.

وعن الحسن: أن غلامـًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! إني سمعت عبد الله بن أُبيّ يقول كذا وكذا، قال: "فلعلك غضبت عليه؟ "، قال: لا، والله لقد سمعته يقول، قال: "فلعلك أخطأ سمعك؟ "، قال: لا، والله يا نبي الله! لقد سمعته يقوله، قال: "فلعله شبه عليك؟ "، قال: لا والله، قال: فأنزل الله تصديقـًا للغلام: {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ}؛ فأخذ النبيّ ﷺ بأذن الغلام، فقال: "وعت أذنك، وعت أذنك يا غلام! ".

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٧٤): ثنا ابن عبد الأعلى ثنا ابن ثور عن معمر عن الحسن به. وهذا مرسل رجاله ثقات.

وعن عكرمة؛ قال: لما نزلت: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} [التوبة: ٨٠]؛ قال النبي ﷺ: "لأزيدن على السبعين"؛ فأنزل الله ﷻ: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦)} الآية.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٧٣): ثني أحمد بن منصور الرمادي ثنا إبراهيم بن الحكم ثني أبي عن عكرمة به. وهذا ضعيف؛ لإرساله، وضعف إبراهيم بن الحكم.

وعن عروة؛ قال: لما نزلت: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} [التوبة: ٨٠]؛ قال النبي ﷺ: "لأزيدن على السبعين"؛ فأنزل الله: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ} الآية.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢١٣، ٢١٤) ونسبه لابن المنذر. وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن مجاهد في قوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا

=

=

رُءُوسَهُمْ}؛ قال: عبد الله بن أُبيّ قيل له: تعال ليستغفر لك رسول الله ﷺ؛ فلوى رأسه، وقال: ماذا قلت.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٧١) من طريقين عن ابن أبي نجيح عن مجاهد به.

وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن سعيد بن جبير: أن النبي ﷺ كان إذا نزل منزلاً في السفر لم يرتحل منه حتى يصلي فيه، فلما كان غزوة تبوك؛ نزل منزلاً، فقال عبد الله بن أُبيّ: لئن رجعنا إلى المدينة؛ ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ؛ فارتحل ولم يصل، فذكروا ذلك له؛ فذكر قصة ابن أُبيّ، ونزل القرآن: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ}، وجاء عبد الله بن أُبيّ إلى النبي ﷺ فجعل يلوي رأسه؛ فأنزل الله ﷻ: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (١/ ١٧٤) ونسبه لعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: نزلت هذه الآية: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا} في عسيف لعمر بن الخطاب.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٧٦) ونسبه لابن مردويه والضياء في "المختارة".

* قوله تعالى: (إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ....) إذا هنا ظرف للزمان الماضي، بقرينة كون جملتيها ماضيتين، وجواب «إذا» قوله قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ... والخطاب للرسول ﷺ.

أى: إذا حضر المنافقون إلى مجلسك-أيها الرسول الكريم-قالوا لك على سبيل

=

=

الكذب والمخادعة والمداهنة.. نشهد أنك رسول من عند الله تعالى، وأنك صادق فيما تبلغه عن ربك.

وعبروا عن التظاهر بتصديقهم له ﷺ بقولهم نَشْهَدُ-المأخوذ من الشهادة التي هي إخبار عن أمر مقطوع به-وأكدوا هذه الشهادة بإنّ واللام، للإيهام بأن شهادتهم صادقة، وأنهم لا يقصدون بها إلا وجه الحق، وأن ما على ألسنتهم يوافق ما في قلوبهم.

قال الشوكاني: أكدوا شهادتهم بإنّ واللام، للإشعار بأنها صادرة من صميم قلوبهم، مع خلوص نياتهم، والمراد بالمنافقين، عبد الله بن أبى وأتباعه.

ومعنى نشهد: نحلف، فهو يجرى مجرى القسم، ولذا يتلقى بما يتلقى به القسم ...

ومثل نشهد: نعلم، فإنه يجرى مجرى القسم كما في قول الشاعر:

ولقد علمت لتأتين منيتي ... إن المنايا لا تطيش سهامها

وقوله: وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ جملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها، من كونه ﷺ رسول من عند الله تعاليحقا.

وجملة: وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ معطوفة على قوله: قالُوا نَشْهَدُ.

أى: إذا حضر المنافقون إليك-أيها الرسول الكريم-قالوا كذبا وخداعا: نشهد إنك لرسول الله، والله تعالىيَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ حقا سواء شهدوا بذلك أم لم يشهدوا، فأنت لست في حاجة إلى هذه الشهادة التي تخالف بواطنهم.

وَاللهُ تعالىيَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ في قولهم: نشهد إنك لرسول الله، لأن قولهم هذا يباين ما أخفته قلوبهم المريضة، من كفر ونفاق وعداوة لك وللحق الذي جئت به.

والإيمان الحق لا يتم إلا إذا كان ما ينطق به اللسان، يوافق ويواطئ. ما أضمره

=

=

القلب، وهؤلاء قد قالوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فثبت كذبهم في قولهم: نشهد إنك لرسول الله..

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: أي: فائدة في قوله تعالى: وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ؟ قلت: لو قال: قالوا نشهد إنك لرسول الله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون، لكان يوهم أن قولهم هذا كذب، فوسط بينهما قوله: وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ليميط هذا الإيهام.. .

وجيء بالفعل يَشْهَدُ في الإخبار عن كذبهم فيما قالوه، للمشاكلة، حتى يكون إبطال خبرهم مساويا لإخبارهم ولما نطقوا به.

قوله تعالى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ} [المنافقون: ١].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ} يا محمد {قَالُوا} بألسنتهم {نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ}".

سئل حذيفة ابن اليمان عن المنافق فقال: "الذي يصف الإسلام ولا يعمل به، وهم اليوم شر منهم على عهد رسول الله ﷺ، لأنهم كانوا يكتمونه وهم اليوم يظهرونه".

قوله تعالى: {وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ} [المنافقون: ١]، أي:"والله يعلم إنك لرسول الله".

قال الطبري: يقول: " {وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ} قال المنافقون ذلك أو لم يقولوا".

قوله تعالى: {وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} [المنافقون: ١]، أي:"والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فيما أظهروه من شهادتهم لك، وحلفوا عليه بألسنتهم، وأضمروا الكفر به".

قال الطبري: " يقول: والله يشهد إن المنافقين لكاذبون في إخبارهم عن أنفسهم

=

=

أنها تشهد إنك لرسول الله، وذلك أنها لا تعتقد ذلك ولا تؤمن به، فهم كاذبون في خبرهم عنها بذلك".

قال الزمخشري:"أرادوا بقولهم: {نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ}، شهادة واطأت فيها قلوبهم ألسنتهم".

قال الزجاج:"أَكْذَبَهمْ فيما تَعتقده قلوبُهمْ، وفي أنهم يحلفون باللهِ إنهم لمنكم. ويحلفون بالله ما قالوا، ولقد قالوا كلمة الكفر".

قال سهل:"لأنهم أقروا بألسنتهم ولم يعرفوا بقلوبهم، فلذلك سماهم منافقين. ومن عرف بقلبه، وأقر بلسانه، ولم يعمل بأركانه ما فرض الله عليه من غير عذر، كان كإبليس لعنه الله، عرفه وأقربه ولم يعمل بأمره. قال: والنفاق على ضربين، عقد بالقلب وإظهار خلافه باللسان، كما قال تعالى: يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ [الفتح: ١١] والضرب الآخر نفاق نفس الطبع مع صاحبها، وهو الذي قال النبي ﷺ: «الشرك الخفي في أمتي أخفى من دبيب النمل على الصفا في الليلة الظلماء» ".

قال الزمخشري:"لو قال: قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يشهد إنهم الكاذبون، لكان يوهم أنّ قولهم هذا كذب، فوسط بينهما قوله: {وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ}، ليميط هذا الإيهام".

ثم بين-سبحانه-جانبا من الوسائل التي كانوا يستعملونها لكي يصدقهم من يسمعهم فقال تعالى: (اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً..).

والأيمان: -بفتح الهمزة-جمع يمين، والجنّة-بضم الجيم-ما يستتر به المقاتل ليتقى ضربات السيوف والرماح والنبال..

أى: أن هؤلاء المنافقين إذا ظهر كذبهم، أو إذا جوبهوا بما يدل على كفرهم ونفاقهم، أقسموا، بالأيمان المغلظة بأنهم ما قالوا أو فعلوا ما يسيء إلى النبي ﷺ

=

=

أو إلى المؤمنين..

فهم يستترون بالحلف الكاذب، حتى لا يصيبهم أذى من المؤمنين، كما يستتر المقاتل بترسه من الضربات.

والفاء في قوله تعالى: فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ... للتفريع على ما تقدم.

أي: اتخذوا أيمانهم الفاجرة ذريعة أمام المؤمنين لكي يصدقوهم، فتمكنوا عن طريق هذه الأيمان الكاذبة، من صد بعض الناس عن الصراط المستقيم، ومن تشكيكهم في صحة ما جاء به النبي ﷺ.

فهم قد جمعوا بين رذيلتين كبيرتين: إحداهما: تعمّد الأيمان الكاذبة، والثانية: إعراضهم عن الحق، ومحاولتهم صرف غيرهم عنه.

وقوله-سبحانه-: إِنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ تذييل قصد به بيان قبح أحوالهم، وسوء عاقبتهم.

و «ساء»: فعل ماض بمعنى بئس في إفادة الذم، و «ما» موصولة والعائد محذوف.

أي: إن هؤلاء المنافقين بئس ما كانوا يقولونه من أقوال كاذبة، وساء ما كانوا يفعلونه من أفعال قبيحة، سيكونون بسببها يوم القيامة في الدرك الأسفل من النار.

قال الطبري: يقول: " اتخذ المنافقون أيمانهم جنة-وهي حلفهم-أي: سترة يستترون بها كما يستتر المستجنّ بجنته في حرب وقتال، فيمنعون بها أنفسهم وذراريهم وأموالهم، ويدفعون بها عنها".

قال الضحاك:"يقول: حلفهم بالله إنهم لمنكم جنة"، "ليعصموا بها دماءهم وأموالهم".

عن قتادة: " {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً}، أي: حلفهم جنة".

عن مجاهد في قول الله: " {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً}، قال: يجتنون بها، قال ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا".

=

=

قال الزمخشري:"قوله: {وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ}، ليميط هذا الإيهام {اتَّخَذُوا أَيْمانَهُمْ جُنَّةً} يجوز أن يراد أنّ قولهم: «نشهد إنك لرسول الله» يمين من أيمانهم الكاذبة، لأنّ الشهادة تجرى مجرى الحلف فيما يراد به من التوكيد، يقول الرجل: أشهد وأشهد بالله، وأعزم وأعزم بالله في موضع أقسم وأولى. وبه استشهد أبو حنيفة رَحِمَهُ اللهُ على أن «أشهد» يمين. ويجوز أن يكون وصفا للمنافقين في استجنانهم بالأيمان".

وقرئت: «اتَّخَذُوا إِيْمَانَهُمْ»، بكسر الهمزة -أي: إظْهَارَهُم الإيمَانَ {جُنَّةً}.

قوله تعالى: {فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ} [المنافقون: ٢]، أي:"ومنعوا أنفسهم، ومنعوا الناس عن طريق الله المستقيم".

قال الطبري: " يقول: فأعرضوا عن دين الله الذي بَعَث به نبيه ﷺ وشريعته التي شرعها لخلقه".

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [المنافقون: ٢]، أي:"إنهم بئس ما كانوا يعملون".

قال الطبري: " يقول: إن هؤلاء المنافقين الذين أتخذوا أيمانهم جنة ساء ما كانوا يعملون في اتخاذهم أيمانهم جُنة، لكذبهم ونفاقهم، وغير ذلك من أمورهم".

قال الزمخشري: أي: "من نفاقهم وصدهم الناس عن سبيل الله. وفي ساءَ معنى التعجب الذي هو تعظيم أمرهم عند السامعين ذلِكَ إشارة إلى قوله ساءَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ أى ذلك القول الشاهد عليهم بأنهم أسوأ الناس أعمالا".

عن السدي: {وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ} [الحج: ٢٥]،" يعني: ويمنعون الناس عن دين الله الإسلام".

قال السدي:"أما {سبيل الله}: فمحمد-ﷺ-".

عن سعيد بن جبير:"{في سبيل الله}، قال: في طاعة الله".

=

=

واسم الإشارة في قوله تعاليبعد ذلك: (ذلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا) يعود إلى ما تقدم ذكره من الكذب، ومن الصد عن سبيل الله، ومن قبح الأقوال والأفعال.

أى: ذلك الذي ذكر من حالهم الذي دأبوا عليه من الكذب والخداع والصد عن سبيل الله ... سببه أنهم آمَنُوا أى: نطقوا بكلمة الإسلام بألسنتهم دون أن يستقر الإيمان في قلوبهم، ثم كفروا، أى: ثم ارتكسوا في الكفر واستمروا عليه، وظهر منهم ما يدل على رسوخهم فيه ظهورا جليا، كقولهم: أَنُؤْمِنُ كَما آمَنَ السُّفَهاءُ ... وكقولهم للمجاهدين:)لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ....)

فَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ أى: فختم الله تعاليعليها بالكفر نتيجة إصرارهم عليه، فصاروا، بحيث لا يصل إليها الإيمان.

فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ أى: فهم لا يدركون حقيقة الإيمان أصلا، ولا يشعرون به، ولا يفهمون حقائقه لانطماس بصائرهم.

وقوله: ذلِكَ مبتدأ، وقوله بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ... خبر: والباء للسببية.

وثُمَّ للتراخي النسبي، لأن إبطان الكفر مع إظهار الإيمان أعظم من الكفر الصريح، وأشد ضررا وقبحا.

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا} [المنافقون: ٣].

قال الطبري: يقول: " إنهم ساء ما كانوا يعملون هؤلاء المنافقون الذين اتخذوا أيمانهم جُنة من أجل أنهم صدّقوا الله ورسوله، ثم كفروا بشكهم في ذلك وتكذيبهم به".

قال الزمخشري:"أي: بسبب {بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا}، أو إلى ما وصف من حالهم في النفاق والكذب والاستجنان بالأيمان، أي: ذلك كله بسبب أنهم آمنوا ثم كفروا.

فإن قلت: المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم، فما معنى قوله:

=

=

{آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا} ؟

قلت: فيه ثلاثة أوجه:

أحدها: آمنوا، أى: نطقوا بكلمة الشهادة وفعلوا كما يفعل من يدخل في الإسلام، ثم كفروا: ثم ظهر كفرهم بعد ذلك وتبين بما أطلع عليه من قولهم: إن كان ما يقوله محمد حقا فنحن حمير، وقولهم في غزوة تبوك: أيطمع هذا

الرجل أن تفتح له قصور كسرى وقيصر هيهات. ونحوه قوله تعالى: {يَحْلِفُونَ بِاللهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ} ، أي: وظهر كفرهم بعد أن أسلموا. ونحوه قوله تعالى: {لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ} ؟

والثاني آمنوا: أي نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالإسلام، كقوله تعالى: {وَإِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا} ، إلى قوله تعالى: {إِنَّما نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُنَ} .

والثالث: أن يراد أهل الردة منهم".

قوله تعالى: {فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ} [المنافقون: ٣]، أي:"فختم الله على قلوبهم بسبب كفرهم".

قال الطبري: " يقول: فجعل الله على قلوبهم خَتما بالكفر عن الإيمان".

قال الزمخشري:"فجسروا على كل عظيمة".

قوله تعالى: {فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} [المنافقون: ٣]، أي:"فهم لا يفهمون ما فيه صلاحهم".

قال الطبري: يقول: " فهم لا يفقهون صوابًا من خطأ، وحقًّا من باطل لطبع الله على قلوبهم".

قال قتادة: " أقروا بلا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، وقلوبهم منكِرة تأبى ذلك".

=

=

وقوله (خُشُبٌ)-بضم الخاء والشين-جمع خشبة-بفتحهما-كثمرة وثمر.
وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: كأنهم خشب-بضم الخاء وسكون الشين-كبدنة وبدن.
أى: وإذا رأيت-أيها الرسول الكريم-هؤلاء المنافقين، أعجبتك أجسامهم، لكمالها وحسن تناسقها، وإن يقولوا قولا حسبت أنه صدق، لفصاحته، وأحببت الاستماع إليه لحلاوته.
وعدى الفعل «تسمع» باللام، لتضمنه معنى تصغ لقولهم.
وجملة: كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ مستأنفة، أو خبر لمبتدأ محذوف.
أى: كأنهم وهم جالسون في مجلسك، مستندين على الجدران، وقد خلت قلوبهم من الخير والإيمان، كأنهم بهذه الحالة، مجموعة من الأخشاب الطويلة العريضة، التي استندت إلى الحوائط، دون أن يكون فيها حسن، أو نفع، أو عقل.
فهم أجسام تعجب، وأقوال تغرى بالسماع إليها، ولكنهم قد خلت قلوبهم من كل خير، وامتلأت نفوسهم بكل الصفات الذميمة. فهم كما قال القائل:
لا بأس بالقوم من طول ومن غلظ ... جسم البغال وأحلام العصافير
وشبههم-سبحانه-بالخشب المسندة على سبيل الذم لهم، أى: كأنهم في عدم الانتفاع بهم، وخلوهم من الفائدة كالأخشاب المسندة إلى الحوائط الخالية من أية فائدة.
ويجوز أن يراد بالخشب المسندة الأصنام المنحوتة من الخشب، المسندة إلى الحيطان، وشبهوا بها في حسن صورهم، وقلة جدواهم، والخطاب للرسول ﷺ أو لكل من يخاطب...
فأنت ترى القرآن الكريم وصفهم بتلك الصفة البديعة في التنفير منهم وعدم الاغترار بمظهرهم لأنهم كما قال القائل:

=

=

لا تخدعنك اللحى ولا الصور ... تسعة أعشار من ترى بقر
تراهم كالسحاب منتشرا ... وليس فيه لطالب مطر
في شجر السرو منهم شبه ... له رواء وماله ثمر

ثم وصفهم-سبحانه-بعد ذلك بالجبن والخور فقال: يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ....

والصيحة: المرة من الصياح، والمراد بها ما ينذر ويخيف أى: يظنون لجبن قلوبهم ولسوء نواياهم، وخبث نفوسهم-أن كل صوت ينادى به المنادى، لنشدان ضالة، أو انفلات دابة ... إنما هو واقع عليهم ضار بهم مهلك لهم..

قال الآلوسى: قوله: يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ أى: واقعة عليهم، ضارة لهم، لجبنهم وهلعهم.

وقيل: كانوا على وجل من أن ينزل الله تعاليفيهم ما يهتك أستارهم، ويبيح دماءهم وأموالهم.

والوقف على «عليهم» الواقع مفعولا ثانيا ل «يحسبون» وهو وقف تام.

وقوله تعالى: هُمُ الْعَدُوُّ استئناف. أى: هم الكاملون في العداوة، والراسخون فيها، فإن أعدى الأعداء، العدو المداجى.

فَاحْذَرْهُمْ لكونهم أعدى الأعداء، ولا تغترن بظواهرهم.. .

وقوله-سبحانه-: قاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ دعاء عليهم بالطرد من رحمة الله تعالى، وتعجيب لكل مخاطب من أحوالهم التي بلغت النهاية في السوء والقبح.

عن ابن عباس أن معنى قاتَلَهُمُ اللهُ طردهم من رحمته ولعنهم، وكل شيء في القرآن قتل فهو لعن...

وأَنَّى بمعنى كيف، ويُؤْفَكُونَ بمعنى يصرفون، من الأفك-بفتح الهمزة والفاء-بمعنى الانصراف عن الشيء.

=

=

أي: لعن الله تعاليهؤلاء المنافقين، وطردهم من رحمته، لأنهم بسبب مسالكهم الخبيثة، وأفعالهم القبيحة، وصفاتهم السيئة ... صاروا محل مقت العقلاء، وعجبهم، إذ كيف ينصرفون عن الحق الواضح إلى الباطل الفاضح، وكيف يتركون النور الساطع، ويدخلون في الظلام الدامس؟!!.

قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ} [المنافقون: ٤]، أي:"وإذا نظرت إلى هؤلاء المنافقين تعجبك هيئاتهم ومناظرهم".

قال الطبري: " يقول جلّ ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإذا رأيت هؤلاء المنافقين يا محمد تعجبك أجسامهم لاستواء خلقها وحسن".

قال الزجاج:"كأنه وصفهم بتمام الصوَرِ وَحُسْنِ الإِبَانة".

قال ابن عطية:"توبيخ لهم لأنهم كانوا رجالا أجمل شيء وأفصحه، فكان نظرهم يروق وقولهم يخيب".

قال مقاتل في بيان سبب نزولها: "يعني عبد الله بن أبي، وكان رجلا جسيما صبيحا ذلق اللسان".

قوله تعالى: {وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ} [المنافقون: ٤]، أي:"وإن يتحدثوا تسمع لحديثهم ؛ لفصاحة ألسنتهم".

قال الطبري: " يقول جلّ ثناؤه: وإن يتكلموا تسمع كلامهم يشبه منطقهم منطق الناس".

قال الزمخشري:"كان عبد الله بن أبيّ رجلا جسيما صبيحا، فصيحا، ذلق اللسان وقوم من المنافقين في مثل صفته، وهم رؤساء المدينة، وكانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيستندون فيه، ولهم جهارة المناظر وفصاحة الألسن فكان النبي ﷺ ومن حضر يعجبون بهياكلهم ويسمعون إلى كلامهم".

قوله تعالى: {كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ} [المنافقون: ٤]، أي:"وهم لفراغ قلوبهم من

=

=

الإيمان، وعقولهم من الفهم والعلم النافع كالأخشاب الملقاة على الحائط، التي لا حياة فيها".

قال الطبري: " يقول كأن هؤلاء المنافقين خُشُب مسنَّدة لا خير عندهم ولا فقه لهم ولا علم، وإنما هم صور بلا أحلام، وأشباح بلا عقول".

قال الزجاج:"ثم أعلم أنهم في تركهم التَّفهُّمَ والاستبصار بمنزلة الخشب".

قال ابن عطية:"جعلهم «كالخشب المسندة»، وإنما هي أجرام لا عقول لها، معتمدة على غيرها، لا تثبت بأنفسها، ومنه قولهم: تساند القوم إذا اصطفوا وتقابلوا للقتال، وقد يحتمل أن يشبه اصطفافهم في الأندية باصطفاف الخشب المسندة وخلوهم من الأفهام النافعة خلو الخشب من ذلك".

عن ابن عباس في قوله: " {كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ}، قال: نخل قيام".

قال الزمخشري:"شبهوا في استنادهم-وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير-بالخشب المسندة إلى الحائط ولأنّ الخشب إذا انتفع به كان في سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع، وما دام متروكا فارغا غير منتفع به أسند إلى الحائط، فشبهوا به في عدم الانتفاع. ويجوز أن يراد بالخشب المسندة: الأصنام المنحوتة من الخشب المسندة إلى الحيطان، شبهوا بها في حسن صورهم وقلة جدواهم".

قال رجل لابن سيرين: "رأيتني في النوم محتضنا خشبة، فقال ابن سيرين: أظنك من أهل هذه الآية وتلا: {كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ}".

وقرأ ذلك الأعمش والكسائي: «خُشْبُ»، بضم الخاء وسكون الشين.

قوله تعالى: {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} [المنافقون: ٤]، أي:"يظنون كل صوت عال واقعًا عليهم وضارًا بهم؛ لعلمهم بحقيقة حالهم، ولفرط جبنهم، والرعب الذي تمكَّن من قلوبهم".

=

=

قال الطبري: " يقول جلّ ثناؤه: يحسب هؤلاء المنافقون من خُبثهمْ وسوء ظنهم، وقلة يقينهم كلّ صيحة عليهم، لأنهم على وجل أن يُنزل الله فيهم أمرا يهتك به أستارهم ويفضحهم، ويبيح للمؤمنين قتلهم وسبي
ذراريهم، وأخذ أموالهم، فهم من خوفهم من ذلك كلما نزل بهم من الله وحي على رسوله، ظنوا أنه نزل بهلاكهم وعَطَبهم".

قال مقاتل:"يقول: إذا نادى مناد في العسكر أو أفلتت دابة أو أنشدت ضالة، ظنوا أنما يرادون بذلك مما في قلوبهم من الرعب".

قال الزجاج:"وصفهم الله تَعَالى بِالجُبْنِ، ويكون أمر كل من خاطب النبي عليه السلام فإنَّمَا يخاطبه في أمرهم بكشف نِفَاقِهِمْ".

قال الزمخشري:"أي: يحسبون كل صيحة واقعة عليهم وضارة لهم، لجبنهم وهلعهم وما في قلوبهم من الرعب: إذا نادى مناد في العسكر أو انفلتت دابة أو أنشدت ضالة: ظنوه إيقاعا بهم. وقيل: كانوا على وجل من أن ينزل الله فيهم ما يهتك أستارهم ويبيح دماءهم وأموالهم، ومنه أخذ الأخطل:

مَا زِلْتَ تَحْسَبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ... خَيْلاً تكرُّ عَلَيْهِمُ ورِجَالا".

وفي تفسير قوله تعالى: {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} [المنافقون: ٤]، ثلاثة أوجه:

أحدها: أنهم لوجلهم وخبثهم يحسبون كل صيحة يسمعونها -حتى لو دعا رجل صاحبه أو صاح بناقته -أن العدو قد اصطلم وأن القتل قد حل بهم، قاله السدي.

الثاني: {يحسبون كل صيحة عليهم} كلام ضميره فيه ولا يفتقر إلى ما بعده، وتقديره: يحسبون كل صيحة عليهم أنهم قد فطن بهم وعلم فقال: {هم العدو فاحذرهم} وهذا معنى قول الضحاك.

الثالث: يحسبون كل صيحة يسمعونها في المسجد أنها عليهم، وأن النبي ﷺ قد

=

=

أمر فيها بقتلهم، فهم أبدا وجلون ثم وصفهم الله بأن قال: {هم العدو فاحذرهم} حكاه عبد الرحمن بن أبي حاتم.

قوله تعالى: {هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ} [المنافقون: ٤]، أي:"هم الأعداء الحقيقيون شديدو العداوة لك وللمؤمنين، فخذ حذرك منهم".

قال الطبري: " يقول الله جلّ ثناؤه لنبيه ﷺ: هم العدوّ يا محمد فاحذرهم، فإن ألسنتهم إذا لَقُوكم معكم وقلوبهم عليكم مع أعدائكم، فهم عين لأعدائكم عليكم".

قال الزجاج:"أَي: هم العدو الأدنى، فاحذرهم لأنهم كانوا أَعداء النبي ﷺ ويظهرون أَنَّهم مَعَهُ".

قال الأوسي:"أي: هم الكاملون في العداوة والراسخون فيها، فإن أعدى الأعادي العدو المداجي، الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوي، ككثير من أبناء الزمان. {فاحذرهم} لكونهم أعدى الأعادي ولا تغترن بظاهرهم.

لا تقنع بأول ما تراه... فأول طالع فجر كذوب".

قوله تعالى: {قَاتَلَهُمُ اللهُ} [المنافقون: ٤]، أي:"أخزاهم الله وطردهم من رحمته".

قال ابن عباس، وأبو مالك:"معناه: لعنهم الله".

قال الطبري: " يقول: أخزاهم الله".

قال الأوسي:"أي: لعنهم وطردهم، فإن القتل قصارى شدائد الدنيا وفظائعها، وكذلك الطرد عن رحمة الله تعالى والبعد عن جنابه الأقدس منتهى عذابه ﷻ، وغاية نكاله جل وعلا".

قوله تعالى: {أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المنافقون: ٤]، أي:"كيف ينصرفون عن الحق إلى ما هم فيه من النفاق والضلال؟".

=

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥).

{وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا} مُعْتَذِرِينَ {يَسْتَغْفِر لَكُمْ رسول الله لووا} بالتشديد والتخفيف عطفوا {رؤوسهم ورأيتهم يصدون} يعرضون عن ذلك {وهم مستكبرون}

سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦).

{سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْت لَهُمْ} اُسْتُغْنِيَ بِهَمْزَةِ الِاسْتِفْهَام عن همزة الوصل {أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين.

هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ

=

قال الطبري: يقول: " إلى أيّ وجه يصرفون عن الحقّ".

قال الزجاج:"من أين يصرفون عن الحق إلى الباطل".

عن ابن زيد، في قول الله: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ}... الآية، قال: هؤلاء المنافقون".

عن ابن عباس، وأبي مالك:"{أنى يؤفكون}: كيف يؤفكون؟".

عن قتادة:"{فأنى يؤفكون}، قال: من أين".

وفي قوله تعالى: {أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المنافقون: ٤]، وجوه:

أحدها: معناه: كيف يكذبون، قاله ابن عباس، وأبو مالك.

الثاني: معناه: يعدلون عن الحق، قاله قتادة.

الثالث: معناه: يصرفون عن الرشد، قاله الحسن.

الرابع: معناه: كيف يضل عقولهم عن هذا، قاله السدي.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧).

{هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ} لِأَصْحَابِهِمْ مِنْ الْأَنْصَار {لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْد رَسُول الله} مِنْ الْمُهَاجِرِينَ {حَتَّى يَنْفَضُّوا} يَتَفَرَّقُوا عَنْهُ {وَلِلَّهِ خَزَائِن السَّمَاوَات وَالْأَرْض} بِالرِّزْقِ فَهُوَ الرَّازِق لِلْمُهَاجِرِينَ وَغَيْرهمْ {ولكن المنافقين لا يفقهون}.

يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨).

{يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا} أَيْ مِنْ غَزْوَة بَنِي الْمُصْطَلِق {إِلَى الْمَدِينَة لَيُخْرِجَن الْأَعَزّ} عَنَوْا بِهِ أَنْفُسهمْ {مِنْهَا الْأَذَلّ} عَنَوْا بِهِ الْمُؤْمِنِينَ {وَلِلَّهِ الْعِزَّة} الْغَلَبَة {وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يعلمون} ذلك[1].

---

(١) أخرج البخاري ومسلم عن زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: كنت في غزاة، فسمعت عبد الله بن أبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله؛ حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده؛ ليخرجن الأعز منها الأذل؛ فذكرت ذلك لعمي أو لعمر فذكره للنبي ﷺ؛ فدعاني؛ فحدثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا، فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه؛ فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك؛ فأنزل الله تعالى: {إذا جاءك المنافقون}؛ فبعث إلي النبي ﷺ فقرأ، فقال: "إن الله قد صدقك يا زيد!".

قوله تعالى: وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ، لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ.. بيان لصفة أخرى من صفات المنافقين، تدل على عنادهم وإصرارهم على كفرهم ونفاقهم.

والقائل لهم: تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ جماعة من المؤمنين، على سبيل =

=

النصح لهؤلاء المنافقين لعلهم يقلعون عن كفرهم وفجورهم.

والمراد باستغفار رسول الله ﷺ لهم: توبتهم من ذنوبهم، وتركهم لنفاقهم، وإعلان ذلك أمامه ﷺ لكي يدعو الله تعاليلهم بقبول توبتهم.

وقوله: (لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ) من اللى بمعنى الإمالة من جانب إلى آخر، يقال: لوى فلان رأسه، إذا أمالها وحركها، وهو كناية عن التكبر والإعراض عن النصيحة.

أى: وإذ قال قائل لهؤلاء المنافقين: لقد نزل في شأنكم ما نزل من الآيات القرآنية التي تفضحكم.. فتوبوا إلى الله توبة نصوحا، وأقلعوا عن نفاقكم، وأقبلوا نحو رسول الله ﷺ بقلب سليم، لكي يستغفر الله تعاليلكم، بأن يلتمس منه قبول توبتكم..

ما كان من هؤلاء المنافقين، إلا أن تكبروا ولجوا في طغيانهم، وأمالوا رءوسهم استهزاء وسخرية ممن نصحهم.

وَرَأَيْتَهُمْ أيها المخاطب يَصُدُّونَ أى: يعرضون عن النصيحة وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ عن قبولها، لانطماس بصائرهم، وإصرارهم على ما هم فيه من باطل وجحود للحق.

قال الآلوسى ما ملخصه: روى أنه لما صدق الله تعاليزيد بن أرقم فيما أخبر به عن ابن أبى، مقت الناس ابن أبى، وقال له بعضهم: امض إلى رسول الله ﷺ واعترف بذنبك، يستغفر لك، فلوى رأسه إنكارا لهذا الرأى، وقال لهم: لقد أشرتم على بالإيمان فآمنت، وأشرتم على بأن أعطى زكاة مالي فأعطيت.. ولم يبق لكم إلا أن تأمرونى بالسجود لمحمد ﷺ.

وفي حديث أخرجه أحمد والشيخان.. أن رسول الله ﷺ دعاهم ليستغفر لهم، فلووا رءوسهم...

وقوله: يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ ... مجزوم في جواب الأمر، وهو قوله: تَعالَوْا وقوله: لَوَّوْا رُؤُسَهُمْ جواب إِذا.

=

=

والتعبير بقوله: تَعالَوْا تتضمن إرادة تخليص هؤلاء المنافقين مما هم فيه من ضلال، وإرادة ارتفاعهم من انحطاط هم فيه إلى علو يدعون إليه، لأن الأصل في كله «تعال» أن يقولها من كان في مكان عال، لمن هو أسفل منه.
والتعبير بقوله تعالى، وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ يرسم صورة بغيضة لهم وهم يتركون دعوة الناصح لهم، بعناد وتكبر وغرور، وبراهم الرائي بعينه وهم على تلك الصورة المنكرة، التي تدل على جهالاتهم وإعراضهم عن كل خير.
قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ} [المنافقون: ٥].
قال الطبري: يقول: " وإذا قيل لهؤلاء المنافقين تعالوا إلى رسول الله يستغفر لكم لووا رءوسهم، يقول حرّكوها وهزّوها استهزاء برسول الله ﷺ وباستغفاره".
قال مقاتل:"يعني: عطفوا رءوسهم رغبة عن الاستغفار".
عن مجاهد، في قوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ}، قال: عبد الله بن أُبَيّ، قيل له: تعالَ ليستغفر لك رسول الله ﷺ، فلوى رأسه وقال: ماذا قلت؟".
عن قتادة -من طريق سعيد-في الآية، قال: "نزلت في عبد الله بن أُبيّ؛ وذلك أنّ غلامًا من قرابته انطلَق إلى رسول الله ﷺ بحديث وتكذيب شديد، فدعاه رسول الله -ﷺ-، فإذا هو يَحلِف ويتبرّأ من ذلك، وأَقبلت الأنصار على ذلك الغلام، فلامُوه وعذَلوه، وقيل لعبد الله: لو أتيتَ رسول الله ﷺ فاستَغفَر لك. فجعل يَلوي رأسه، ويقول: لستُ فاعلًا، وكذب عليّ. فأنزل الله ما تسمعون".
عن قتادة، قال: قال له قومه: لو أتيت النبيّ ﷺ فاستغفر لك، فجعل يلوي رأسه، فنزلت فيه: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ}".
عن ابن جُرَيْج، في قوله: " {وإذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا

=

=

رُءُوسَهُمْ}، قال: حرّكوها استهزاء".

قوله تعالى: {وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} [المنافقون: ٥]، أي:"وأبصرتهم -أيها الرسول- يعرضون عنك، وهم مستكبرون عن الامتثال لما طُلِب إليهم".

قال الطبري: يقول: " ورأيتهم يُعْرضون عما دُعوا إليه بوجوههم وهم مستكبرون عن المصير إلى رسول الله ﷺ ليستغفر لهم، وإنما عُنِي بهذه الآيات كلها فيما ذُكر، عبدُ الله بن أُبيّ ابن سَلُول، وذلك أنه قال لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، وقال: {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ}، فسمع بذلك زيد بن أرقم، فأخبر به رسول الله ﷺ، فدعاه رسول الله ﷺ، فسأله عما أخبر به عنه، فحلف أنه ما قاله، وقيل له: لو أتيت رسول الله ﷺ، فسألته أن يستغفر لك، فجعل يلوي رأسه ويحرّكه استهزاء، ويعني ذلك أنه غير فاعل ما أشاروا به عليه، فأنزل الله ﷻ فيه هذه السورة من أوّلها إلى آخرها".

وقوله -سبحانه-: (سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ..).

تيئيس له ﷺ من إيمانهم، ومن قبولهم للحق.

ولفظ «سواء» اسم مصدر بمعنى الاستواء، والمراد به الفاعل. أى: مستو، ولذلك يوصف به كما يوصف بالمصدر، كما في قوله تعالى: قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ ... أى: مستوية.

أى: إن هؤلاء الراسخين في الكفر والنفاق، قد استوى عندهم استغفارك لهم وعدم استغفارك، فهم لتأصل الجحود فيهم صاروا لا يفرقون بين الحق والباطل، ولا يؤمنون بثواب أو عقاب ... ولذلك فلن يغفر الله تعاليلهم مهما حرصت على هدايتهم وصلاحهم.

وقوله -سبحانه-: إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ تعليل لانتفاء المغفرة من الله

=

=

تعاليلهم.

أي: لن يغفر الله تعاليلهم، لأن سنته-سبحانه-قد اقتضت أن لا يهدى إلى طاعته، وأن لا يشمل بمغفرته، من فسق عن أمره، وآثر الباطل على الحق، والكفر على الإيمان، لسوء استعداده، واتباعه لخطوات الشيطان.

قوله تعالى: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ} [المنافقون:].

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: سواء يا محمد على هؤلاء المنافقين الذين قيل لهم تعالوا يستغفر لكم ر سول الله {أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ} ذنوبهم {أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ}، لن يصفح الله لهم عن ذنوبهم، بل يعاقبهم عليها".

قال الزمخشري:"{سَواءٌ عَلَيْهِمْ} الاستغفار وعدمه، لأنهم لا يلتفتون إليه ولا يعتدون به لكفرهم. أو لأن الله لا يغفر لهم".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} [المنافقون:]، أي:"إن الله لا يوفّق للإيمان القوم الكافرين به، الخارجين عن طاعته".

قال الطبري: "يقول: إن الله لا يوفِّق للإيمان القوم الكاذبين عليه، الكافرين به، الخارجين عن طاعته".

قال السمعاني:"أي: المنافقين، وهم كفار وفساق ومنافقون".

عن ابن زيد:"{والله لا يهدي القوم الفاسقين}، قال: الكاذبين".

وحكى بعضهم عن حذيفة بن اليمان:"أنه قيل له: من المنافق؟ قال: الذي يصف الإيمان ولا يعمل به".

عن عمر رضي الله عنه قال: إني لا أخاف عليكم مؤمنا تبين إيمانه، ولا كافرا تبين كفره، وإنما أخاف عليكم كل منافق عليم اللسان".

وقوله-سبحانه-: (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى

=

=

يَنْفَضُّوا...).

كلام مستأنف جار مجرى التعليل لفسقهم، وحكاية لجانب من أقوالهم الفاسدة ...

والقائل هو عبد الله بن أبى، كما جاء في روايات أسباب النزول لهذه الآيات، والتي سبق أن ذكرنا بعضها.

ونسب-سبحانه-القول إليهم جميعا، لأنهم رضوا به، وقبلوه منه.

ومرادهم بمن عند رسول الله ﷺ: المهاجرون الذين تركوا ديارهم في مكة، واستقروا بالمدينة.

أى: إن هؤلاء المنافقين لن يغفر الله تعاليلهم، لأنهم فسقوا عن أمره، ومن مظاهر فسوقهم وفجورهم، أنهم أيدوا زعيمهم في النفاق، عند ما قال لهم: لا تنفقوا على من عند رسول الله من فقراء المهاجرين، ولا تقدموا لأحد منهم عونا أو مساعدة، حتى ينفضوا من حوله. أى: حتى يتفرقوا من حوله. يقال: انفض القوم: إذا فنيت أزوادهم يقال: نفض الرجل وعاءه من الزاد فانفض، إذ انتهى زاده. وليس مرادهم حتى ينفضوا ويتفرقوا عنه، فإذا فعلوا ذلك فأنفقوا عليهم. وإنما مرادهم، استمروا على عدم مساعدتكم لهم، حتى يتركوا المدينة، وتكون مسكنا لكم وحدكم.

وقوله-سبحانه-: وَلِلَّهِ خَزائِنُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ.

والخزائن: جمع خزينة، وهي ما يخزن فيها المال والطعام وما يشبههما، والمراد بها أرزاق العباد التي يمنحها الله تعاليلعباده.

أى: ولله تعاليوحده لا لأحد غيره، ملك أرزاق العباد جميعا: فيعطى من يشاء، ويمنع من يشاء، ولكن المنافقين لا يفقهون ذلك ولا يدركونه، لجهلهم بقدرة الله تعالى، ولاستيلاء الجحود والضلال على نفوسهم.

قوله تعالى: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا}

=

=

[المنافقون: ٧].

قال الطبري:"يعني: المنافقين الذين يقولون لأصحابهم: {لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ} من أصحابه المهاجرين حتى يتفرّقوا عنه".

قال الزمخشري:"{يَنْفَضُّوا}، يتفرقوا. وقرئ: «ينفضوا»، من انفض القوم إذا فنيت أزوادهم. وحقيقته: حان لهم أن ينفضوا مزاودهم".

عن ابن عباس، قوله: " {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا}، قال: لا تطعموا محمدًا وأصحابه حتى تصيبهم مجاعة، فيتركوا نبيهم".

قال قتادة:"وهذا قول عبد الله بن أُبي لأصحابه المنافقين لا تنفقوا على محمد وأصحابه حتى يدعوه، فإنكم لولا أنكم تنفقون عليهم لتركوه وَأَجَلوا عنه".

قال قتادة:"إن عبد الله بن أُبيّ ابن سلول قال لأصحابه، لا تنفقوا على من عند رسول الله، فأنكم لو لم تنفقوا عليهم قد انفضوا".

عن الضحاك، قوله:"{لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا}، يعني: الرَّفد والمعونة، وليس يعني: الزكاة المفروضة؛ والذين قالوا هذا هم المنافقون".

عن زيد بن أرقم، قال: "لما قال ابن أُبيّ ما قال، أخبرت النبيّ ﷺ، فجاء فحلف، فجعل الناس يقولون لي: تأتي رسول الله ﷺ بالكذب؟ حتى جلستُ في البيت مخافة إذا رأوني قالوا: هذا الذي يكذب، حتى أُنزل: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ}".

قوله تعالى: {وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [المنافقون: ٧]، أي:"ولله وحده خزائن السموات والأرض وما فيهما من أرزاق، يعطيها من يشاء ويمنعها عمَّن يشاء".

قال الطبري:"يقول: ولله جميع ما في السموات والأرض من شيء وبيده مفاتيح خزائن ذلك، لا يقدر أحد أن يعطي أحدًا شيئًا إلا بمشيئته".

قال الزمخشري:"وبيده الأرزاق والقسم، فهو رازقهم منها، وإن أبى أهل المدينة

=

=
أن ينفقوا عليهم".

قال الزجاج:"أَي: أن الله يرزقهم وهو رازقهم في حال إنفاق هؤلاء عليهم".

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ} [المنافقون: ٧]، أي:"ولكن المنافقين لا يفهمون أن الرزق من عند الله؛ لجهلهم به سبحانه وتعالى".

قال ابن عباس: "لا يفقهون أن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون".

قال الطبري: يقول: " {وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ} أن ذلك كذلك، فلذلك يقولون: لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ حتى ينفضوا".

قال الزمخشري:"ولكن عبد الله وأضرابه جاهلون لا يَفْقَهُونَ ذلك فيهذون بما يزين لهم الشيطان".

ثم حكى-سبحانه-قولا آخر من أقوالهم القبيحة فقال: (يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ....)

والقائل هو عبد الله بن سلول، ولكن القرآن نسب القول إليهم جميعا لأنهم رضوا بقوله، ووافقوه عليه.

وجاء الأسلوب بصيغة المضارع، لاستحضار هذه المقالة السيئة، وتلك الصورة البغيضة لهؤلاء القوم.

والأعز: هو القوى لعزته، بمعنى أنه يغلب غيره، والأذل هو الذي يغلبه غيره لذلته وضعفه.

وأراد عبد الله بن أبى بالأعز، نفسه، وشيعته من المنافقين، وأراد بالأذل، الرسول ﷺ ومن معه من المهاجرين وغيرهم من المؤمنين الصادقين.

والمراد بالرجوع في قوله لَئِنْ رَجَعْنا الرجوع إلى المدينة بعد انتهاء غزوة بنى المصطلق.

أى: يقول هؤلاء المنافقون-على سبيل التبجح وسوء الأدب-لئن رجعنا إلى
=

=

المدينة بعد انتهاء هذه الغزوة، ليخرجن الفريق الأعز منا الفريق الأذل من المدينة، حتى لا يبقى فيها أحد من هذا الفريق الأذل، بل تصبح خالية الوجه لنا. وقد رد الله تعاليعلى مقالتهم الباطلة هذه بما يخرس ألسنتهم فقال: وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ، وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ.

أي: لقد كذب المنافقون فيما قالوه، فإن لله تعاليوحده العزة المطلقة والقوة التي لا تقهر، وهي -أيضا- لمن أفاضها عليه من رسله ومن المؤمنين الصادقين، وهي بعيدة كل البعد عن أولئك المنافقين.

وقال -سبحانه-: وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ بإعادة حرف الجر، لتأكيد أمر هذه العزة، وأنها متمكنة منهم لأنها مستمدة من إيمانهم بالله تعاليوحده.

وقوله تعالى: وَلكِنَّ الْمُنافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ استدراك قصد به تجهيل هؤلاء المنافقين، أي: ليست العزة إلا لله تعاليولرسوله وللمؤمنين، ولكن المنافقين لا يعلمون ذلك، ولا يعرفونه لاستيلاء الجهل والغباء عليهم، لأنهم لو كانت لهم عقول تعقل، لعلموا أن العزة لدعوة الحق، بدليل انتشارها في الآفاق يوما بعد يوم، وانتصار أصحابها على أعدائهم حينا بعد حين، وازدياد سلطانهم وقتا بعد وقت.

قال الرازي: العزة غير الكبر، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه -لغير الله- فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه، وإكرامها عن أن يضعها في غير موضعها اللائق بها، كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه، وإنزالها فوق منزلتها. فالعزة تشبه الكبر من حيث الصورة، وتختلف من حيث الحقيقة، كاشتباه التواضع بالضعة، فالتواضع محمود، والضعة مذمومة، والكبر مذموم والعزة محمودة.. .

قوله تعالى: {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} [المنافقون: ٨]، أي:"يقول هؤلاء المنافقون: لئن عُدْنا إلى «المدينة» ليخرجنَّ فريقنا الأعزُّ منها فريق المؤمنين الأذل".

=

=

قال الطبري: " يقول تعالى ذكره: يقول هؤلاء المنافقون الذين وَصف صفتهم قبل {لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ مِنْهَا الأذَلَّ} فيها، ويعني بالأعزّ: الأشدّ والأقوى".

عن ابن عباس، قوله: " {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ}... إلى {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ} قال: قال ذلك عبد الله بن أُبيّ ابن سلول الأنصاري رأس المنافقين، وناس معه من المنافقين".

قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [المنافقون: ٨]، أي:"ولله تعالى العزة ولرسوله ﷺ، وللمؤمنين بالله ورسوله لا لغيرهم".

قال الطبري: "قال الله جلّ ثناؤه: {وَلِلَّهِ} الشدة والقوة {وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} بالله".

قال الزجاج:"فأعلم الله أَنه مظهر دينه على الدين كله ومعزٌّ رسوله ومن معه من المؤمنين".

قال الزمخشري:"{وَلِلَّهِ} الغلبة والقوّة، ولمن أعزه الله وأيده من رسوله ومن المؤمنين، وهم الأخصاء بذلك، كما أنّ المذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين".

وعن بعض الصالحات:"-"وكانت في هيئة رثة-ألست على الإسلام؟ وهو العز الذي لا ذل معه، والغنى الذي لا فقر معه".

قال سعيد بن المسيب: " {إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}؛ يعني إن الله يعز من يشاء؛ كما قال في آية أخرى {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} وعزة الرسول والمؤمنين بالله تعالى، فهي كلها لله، قال الله تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠)}. {وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}".

عن الحسن بن على رضي الله عنهما: "أنّ رجلا قال له. إنّ الناس يزعمون أنّ فيك تيها، قال:

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩).

{يَا أَيّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ} تَشْغَلكُمْ {أَمْوَالكُمْ وَلَا أَوْلَادكُمْ عَنْ ذِكْر الله} الصَّلَوَات الخمس {ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون}.

وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠).

{وَأَنْفِقُوا} فِي الزَّكَاة {مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْل أَنْ يَأْتِي أَحَدكُمْ الْمَوْت فَيَقُول رَبّ لَوْلَا} بِمَعْنَى هَلَّا أَوْ لَا زَائِدَة وَلَوْ لِلتَّمَنِّي {أَخَّرْتنِي إِلَى أَجَل قَرِيب فَأَصَّدَّق} بِإِدْغَام التَّاء فِي الْأَصْل فِي الصَّاد أَتَصَدَّق بِالزَّكَاةِ {وَأَكُنْ من الصالحين} بأن أحج قال بن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَا قَصَّرَ أَحَد فِي الزَّكَاة وَالْحَجّ إلَّا سَأَلَ الرَّجْعَة عِنْد الموت.

وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١).

{وَلَنْ يُؤَخِّر الله نَفْسًا إذَا جَاءَ أَجَلهَا وَاَللَّه خَبِير بِمَا تَعْمَلُونَ} بِالتَّاءِ وَالْيَاء[1].

=

ليس بتيه، ولكنه عزة، وتلا هذه الآية".

وكان جعفر الصادق رَحِمَهُ اللَّهُ، يقول: "من مثلي ورب العرش معبودي، من مثلي وأنت لي". قوله تعالى: {وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [المنافقون: ٨]، أي: "ولكن المنافقين لا يعلمون ذلك؛ لفرط جهلهم".

قال الطبري: يقول: " {وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ} ذلك".

(١) المقصود من هذه الآيات الكريمة نهى المؤمنين عن التشبه بالمنافقين الذين سبق الحديث عنهم بصورة مفصلة، وحضهم على الاستجابة لما كلفهم الله تعاليبه.

=

=

أى: يا من آمنتم بالله تعاليإيمانا حقا، لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ … أى: لا تشغلكم أموالكم التي تهتمون بجمعها وتحصيلها.. ولا أولادكم الذين هم أشهى ثمرات حياتكم.. لا يشغلكم ذلك عن أداء ما كلفكم-سبحانه-بأدائه من طاعات، فالمراد بذكر الله، ما يشمل جميع التكاليف من صلاة وزكاة وصيام وحج، وغير ذلك من الطاعات التي أمر الله تعاليبها.

وخص الأموال والأولاد بتوجه النهى عن الاشتغال بهما اشتغالا يلهى عن ذكر الله، لأنهما أكثر الأشياء التي تلهى عن طاعة الله تعالى..

فمن أجل الاشتغال بجمع المال، يقضى الإنسان معظم حياته، وكثير من الناس من أجل جمع المال، يضحون بما يفرضه عليهم دينهم من واجبات، ومن أخلاق، ومن سلوك وآداب..

ومن أجل راحة الأولاد قد يضحى الآباء براحتهم، وبما تقضى به المروءة، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «الولد مجبنة مبخلة».

والتعبير بقوله تعالى: لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ يشعر بأن المسلم إذا اشتغل بجمع المال. وبرعاية الأولاد، دون أن يصرفه ذلك عن طاعة الله، أو عن أداء حق من حقوقه تعالى، فإن هذا الاشتغال لا يكون مذموما، بل يكون مرضيا عنه من الله تعالى.

واسم الإشارة في قوله-سبحانه-: وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ يعود إلى ما سبق ذكره من اللهو عن ذكر الله، بسبب الأموال والأولاد.

أى: ومن يشغله حبه لماله وأولاده عن ذكر الله، وعن أداء ما كلفه-سبحانه-به، فأولئك هم البالغون أقصى درجات الخسران والغفلة. لأنهم خالفوا ما أمرهم به ربهم، وآثروا ما ينفعهم في عاجلتهم الفانية، على ما ينفعهم في آجلتهم الباقية.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [المنافقون: ٩].

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله".

قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا :"ما أنزل الله آية في القرآن، يقول فيها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، إلا كان على شريفها وأميرها".

قال ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، فأرعها سمعك [يعني: استمع لها]؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه".

قوله تعالى: {لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ} [المنافقون: ٩]، أي:"لا تَشْغَلْكم أموالكم ولا أولادكم عن عبادة الله وطاعته".

قال الزمخشري: أي: "لا تشغلكم {أَمْوَالُكُمْ} والتصرف فيها: والسعى في تدبير أمرها: والتهالك على طلب النماء فيها بالتجارة والاغتلال، وابتغاء النتاج والتلذذ بها، والاستمتاع بمنافعها، {وَلا أَوْلادُكُمْ} وسروركم بهم، وشفقتكم عليهم، والقيام بمؤنهم، وتسوية ما يصلحهم من معايشهم في حياتكم وبعد مماتكم، وقد عرفتم قدر منفعة الأموال والأولاد، وأنه أهون شيء وأدونه في جنب ما عند الله {عَنْ ذِكْرِ اللهِ}، وإيثاره عليها".

قال ابن كثير:"يقول تعالى آمرًا لعباده المؤمنين بكثرة ذكره وناهيا لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ومخبراً لهم بأنه من التَهَى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خُلِقَ له من طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة".

قال الزجاج:"حَضهم الله على إدامة الذِكر له وأن لا يضنوا بأموالهم".

قال الطبري:"يقول: لا توجب لكم أموالكم {وَلا أَوْلادُكُمْ} اللهو {عَنْ ذِكْرِ اللهِ}، وقيل: عُنِي بذكر الله جلّ ثناؤه في هذا الموضع: الصلوات الخمس".

عن الضحاك: " {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ}، قال: الصلوات الخمس".

=

=

وعن الحسن: جميع الفرائض". قال الزمخشري: "كأنه قال: عن طاعة الله".
وعن الكلبي: "الجهاد مع رسول الله ﷺ".
قال سهل:"عن أداء الفرائض في مواقيتها، فإن من شغله عن ذكر الله وخدمته عرض من عروض الدنيا شيئًا لشهوته، ووجد في عبادته نشاطًا فهو مخدوع، إلا الذي يأخذها الله ﷻ .
وقد حكي أن سلمان دخل عليه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يعوده فبكى سلمان فقال: ما يبكيك يا أبا عبد الله، توفي سيدنا رسول الله ﷺ وهو عنك راض، وتلقى أصحابك وترد حوضه. فقال سلمان: أما إني لست أبكي جزعًا على الموت، ولا حرصًا على الدنيا، ولكن رسول الله ﷺ عهد إلينا عهداً فقال: «ليكن بلغة أحدكم من الدنيا مثل زاد الراكب»، وحولي هذه الأوساد-جمع وسادة-وإنما كان حوله لحافه ومطهرته وجفنته. فقال سعد: يا أبا عبد الله، اعهد إلينا عهداً نأخذه بعدك. فقال: يا سعد، اذكر الله تعالى عند همك إذا هممت، وعند حكمك إذا حكمت، وعند يدك إذا أقسمت".
قوله تعالى: {وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المنافقون: ٩]، أي:"ومن تشغَله أمواله وأولاده عن ذلك، فأولئك هم المغبونون حظوظهم من كرامة الله ورحمته".
قال الطبري:"يقول: ومن يلهه ماله وأولاده عن ذكر الله {فَأُولَئِكَ} هم المغبونون حظوظهم من كرامة الله ورحمته تبارك وتعالى".
قال الزمخشري: " {وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ}، يريد الشغل بالدنيا عن الدين {فَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ} في تجارتهم حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني".
ثم حضهم-سبحانه-على الإنفاق في سبيله فقال: (وَأَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ

=

=

الصَّالِحِينَ).

والمراد بالإنفاق: إنفاق المال في وجوه الخير والطاعات، فيشمل الزكاة المفروضة، والصدقات المستحبة، وغير ذلك من وجوه البر والخير.

و «من» في قوله تعاليمِمَّا رَزَقْناكُمْ للتبعيض إذ المطلوب إنفاقه بعض المال الذي يملكه الإنسان، وليس كله، وهذا من باب التوسعة منه تعاليعلى عباده، ومن مظاهر سماحة شريعته-ﷻ.

والمراد بالموت: علاماته وأماراته الدالة على قرب وقوعه.

وقوله فَيَقُولَ معطوف على قوله أَنْ يَأْتِيَ ومسبب عنه.

ولَوْلا بمعنى هلا فهي حرف تحضيض.

وقوله: فَأَصَّدَّقَ منصوب على أنه في جواب التمني، وقوله: وَأَكُنْ بالجزم، لأنه معطوف على محل فَأَصَّدَّقَ كأنه قيل: إن أخرتنى إلى أجل قريب أتصدق وأكن من الصالحين.

والمعنى: يا من آمنتم بالله حق الإيمان، لا تشغلكم أموالكم ولا أولادكم عن طاعة الله تعاليبل داوموا عليها كل المداومة، وأنفقوا بسخاء وسماحة نفس مما أعطيناكم من أرزاق كثيرة، ومن نعم لا تحصى، وليكن إنفاقكم من قبل أن تنزل بأحدكم أمارات الموت وعلاماته ...

وحينئذ يقول أحدكم يا رب، هلا أخرت وفاتي إلى وقت قريب من الزمان لكي أتدارك ما فاتنى من تقصير، ولكي أتصدق بالكثير من مالي، وأكون من عبادك الصالحين.

وقال-سبحانه-مِمَّا رَزَقْناكُمْ فأسند الرزق إليه، لكي يكون أدعى إلى الامتثال والاستجابة، لأنه-سبحانه-مع أن الأرزاق جميعها منه، إلا أنه-فضلا منه وكرما-اكتفى منهم بإنفاق جزء من تلك الأرزاق.

=

=

وقدم-سبحانه-المفعول وهو «أحدكم» على الفاعل وهو «الموت»، للاهتمام بالمفعول، وللإشعار بأن الموت نازل بكل إنسان لا محالة.

والتعبير بقوله: لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ ... يشعر بأن القائل قد قال ذلك زيادة في تأميل الاستجابة، فكأنه يقول: يا رب ألتمس منك أن تؤخر أجلى إلى وقت قريب لا إلى وقت بعيد لكي أتدارك ما فاتنى في هذا الوقت القريب الذي هو منتهى سؤالى، وغاية أملى..

قوله تعالى: {وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ} [المنافقون: ١٠].

قال الطبري: يقول: " وأنفقوا أيها المؤمنون بالله ورسوله من الأموال التي رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت".

قال الزجاج:"أي: من قبل أن يُعاين ما يعلم معه أَنَه مَيَت".

قال الزمخشري: «من» في {مِمَّا رَزَقْناكُمْ}، للتبعيض، والمراد: الإنفاق الواجب {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ} من قبل أن يرى دلائل الموت، ويعاين ما بيأس معه من الإمهال، ويضيق به الخناق، ويتعذر عليه الإنفاق ويفوت وقت القبول، فيتحسر على المنع، ويعضّ أنا مله على فقد ما كان متمكنا منه".

قوله تعالى: {فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ} [المنافقون: ١٠]، أي:"فيقول نادمًا: ربِّ هلا أمهلتني، وأجَّلت موتي إلى وقت قصير".

قال الطبري: أي:"فيقول إذا نزل به الموت: يا ربّ هلا أخرتني فتُمْهَلَ لي في الأجل إلى أجل قريب".

قوله تعالى: {فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ} [المنافقون: ١٠]، أي:"فأتصدق من مالي، وأكن من الصالحين الأتقياء".

قال الطبري: " يقول: فأزكي مالي وأعمل بطاعتك، وأؤدّي فرائضك، وقيل: عنى

=

=

بقوله: {وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ} وأحجّ بيتك الحرام".

قال ابن كثير:"فكل مُفَرِّط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة ولو شيئا يسيرًا، يستعتب ويستدرك ما فاته، وهيهات! كان ما كان، وأتى ما هو آت، وكل بحسب تفريطه، أما الكفار فكما قال الله تعالى: {وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ} [إبراهيم: ٤٤] وقال تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]".

عن ابن عباس، قوله:"{لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ} ... إلى قوله: {وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ}، قال: هو الرجل المؤمن إذا نزل به الموت وله مال لم يزكه ولم يحجّ منه، ولم يعط حقّ الله فيه، فيسأل الرجعة عند الموت ليتصدّق من ماله ويزكي، قال الله: {وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا}".

عن الضحاك بن مزاحم في قوله: " {لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ}، قال: فأتصدّق بزكاة مالي {وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ}، قال: الحجّ".

عن سفيان: " {فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ}، قال: الزكاة والحج".

عن عبيد، قال: "سمعت الضحاك يقول في قوله: {لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ}، إلى آخر السورة: هو الرجل المؤمن نزل به الموت وله مال كثير لم يزكه، ولم يحجّ منه، ولم يعط منه حق الله يسأل الرجعة عند الموت فيزكي ماله، قال الله: {وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا}".

وقد بين-سبحانه-بعد ذلك أنه لا تأخير في الأجل متى انتهى لا من قريب ولا من بعيد.. فقال: (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْساً إِذا جاءَ أَجَلُها ...).

=

=

أي: ولن يؤخر الله تعالىنفسا من النفوس، متى انتهى أجلها في هذه الحياة، وانقضى عمرها من هذه الدنيا، كما قال-سبحانه-: فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ.

وقوله: وَاللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ أى: والله تعاليمطلع اطلاعا تاما على أعمالكم الظاهرة والباطنة، وسيجازيكم عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب.

قوله تعالى: {وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا} [المنافقون: ١١].

قال الطبري:"يقول: لن يؤخر الله في أجل أحد فيمد له فيه إذا حضر أجله، ولكنه يخترمه".

قال ابن كثير:"أي: لا ينظر أحدًا بعد حلول أجله، وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقًا في قوله وسؤاله ممن لو رُدّ لعاد إلى شر مما كان عليه".

قال الزمخشري:"{وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ} نفى للتأخير على وجه التأكيد الذي معناه منافاة المنفي الحكمة. والمعنى: إنكم إذا علمتم أنّ تأخير الموت عن وقته مما لا سبيل إليه. وأنه هاجم لا محالة".

قال الضحاك:"كل نفس أجلها الموت، {ولن يؤخر الله نفسًا إذا جاء أجلها}".

عن أبي الدرداء، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: ذكرنا عند رسول الله ﷺ الزيادة في العمر فقال: " إن الله لا يؤخر نفسًا إذا جاء أجلها، وإنما الزيادة في العمر أن يرزق الله العبدَ ذُرية صالحة يدعون له، فيلحقه دعاؤهم في قبره".

قوله تعالى: {وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المنافقون: ١١]، أي:"والله سبحانه خبير بالذي تعملونه من خير وشر، وسيجازيكم على ذلك".

عن قتادة، قوله: " {خَبِيرٌ}، قال: " خبير بخلقه".

قال الطبري:"يقول: والله ذو خبرة وعلم بأعمال عبيده هو بجميعها محيط، لا يخفى عليه شيء، وهو مجازيهم بها، المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته".

=

=

قال الزمخشري: أي: " عليم بأعمالكم فجاز عليها، من منع واجب وغيره: لم تبق إلا المسارعة إلى الخروج عن عهدة الواجبات والاستعداد للقاء الله".

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: قوله تعالى: (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ) (المنافقين: ٧)، ثم قال تعال: (يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ) (المنافقين: ٨)، للسائل أن يسأل عن نفي الفقه عنهم أولاً ونفي العلم في الآية الثانية؟ وهل كان يمكن وقوع ما نفي في الأولى منفياً في الثانية ووقوع ما نفي في الثانية في الأولى؟

والجواب، والله أعلم: أن الاعتزار بالدين والاطلاع على تشريف المؤمن به واعتزازه بسببه أمر لا يوصل إليه إلا بعلم ويقين لا طريق لمنافق إليه ما دام على نفاقه، وإنما يعلمه ويصل إلى رحمة الله به المؤمن العالم حق العلم بما منح الله المؤمنين، من الاعتزاز بدينه سبحانه، والاعتصام بإتباع نبيه صلي الله عليه وسلم، والتمسك بما جاء به، فنفي ذلك عن المنافقين بين لا خفاء فيه، ولا يناسب سواه. وأما ما رامه من قطع الرفد والإنفاق وما يرجع إلى ذلك عن المؤمنين حتى يتفرقوا عن رسول الله صلي الله عليه وسلم ويفردوه، فإن ذلك أمر لو تثبتوا فيه مع كفرهم ونفاقهم وأمعنوا النظر لعلموا بجري العادة أن أرزاق العالم لا تتوقف على منع مانع منهم، بل مشيئة جميعهم في هذا غير نافذة، وأن وصول أرزاق العباد إليهم أمر ليس لمخلوق (فيه) كنزول المطر وإرسال الرياح، وذلك مما لا طمع لمخلوق في إرساله ولا إمساكه. فلو فقه المنافقون، وتفهموا السنة الجارية لما فاهوا بمقالهم، (وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ)، فنفي الفقه عنهم هنا أنسب شئ، فلا يلائم وقوع أحد المنفيين في موضع الآخر، والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل

=

سُورَة التغابن(١)

=

(٢/ ٤٧٤).

(١) قال الفيروزآبادي:"السورة مكية، إلا آخرها: {إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ} [التغابن: ١٤]، إلى آخر السورة".

وقال القرطبي:"سورة التغابن مدنية في قول الأكثرين".

وقال ابن عاشور:"هي مدنية في قول الجمهور".

* آياتها ثمان عشرة. وكلماتها مائتان وإِحدى وأَربعون. وحروفها أَلف وسبعون. فواصل آياتها (من درّ) وعلى الدّال آية واحدة: حميد.

* سميت هذه السورة «سورة التغابن»، ولا تعرف بغير هذا الاسم، ووجه التسمية وقوع لفظ: {التَّغَابُنِ} [التغابن: ٩] فيها ولم يقع في غيرها من القرآن.

* معظم مقصود السّورة: بيان تسبيح المخلوقات، والحكمة فى تخليق الخَلْق، والشكاية من القرون الماضية، وإِنكار الكفَّار البعثَ والقيامة، وبيان الثواب والعقاب، والإِخبار عن عداوة الأَهل والأَولاد، والأَمر بالتَّقوى حسب الاستطاعة، وتضعيف ثواب المتَّقين، والخبر عن اطِّلاع الحقّ على علم الغيب فى قوله: {عَالِمُ الغَيْبِ} الآية.

* المتشابهات: قوله: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض} وبعده: {يَعْلَمُ مَا فِي السماوات والأرض وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} إِنَّما كرّر (ما) فى أَوّل السّورة لاختلاف تسبحي أَهل الأَرض وأَهل السّماءِ فى الكثرة والقِلَّة، والبعد والقرب من المعصية والطَّاعة. وكذلك اختلاف ما يُسرّون وما يعلنون؛ فإِنهما ضدّان. ولم يكرّر مع (يعلم) لأَنَّ الكلّ بالإِضافة إِلى علم الله سبحانه جنس واحد؛ لا يخفى عليه شئ.

=

بسم الله الرحمن الرحيم[1]

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١).

{يُسَبِّح لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْض} يُنَزِّههُ فَاللَّام زَائِدَة وَأَتَى بِمَا دُون من تغليبا للأكثر {له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير}.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢).

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِر وَمِنْكُمْ مُؤْمِن} فِي أَصْل الْخِلْقَة ثُمَّ يُمِيتكُمْ وَيُعِيدكُمْ عَلَى ذلك {والله بما تعملون بصير}.

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣).

{خلق السماوات وَالْأَرْض بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَركُمْ} إذْ جَعَلَ شكل الآدمي أحسن الأشكال {وإليه المصير}.

يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤).

=

قوله: {وَمَن يُؤْمِن بالله وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً} ومثله فى الطَّلاق سواءً؛ لكنَّه زاد هنا {يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ}؛ لأَنَّ هذه السّورة بعد قوله: {أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا} الآيات، فأَخبر عن الكفَّار بسيّئات [تحتاج إلى تكفير إذا آمنوا بالله، ولم يتقدّم الخبر عن الكفار بسيِّئات] فى الطلاق فلم يحتج إلى ذكرها. ا. هـ من بصائر ذوي التمييز (١/ ٤٦٧).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

{يعلم ما في السماوات وَالْأَرْض وَيَعْلَم مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاَللَّه عَلِيم بِذَاتِ الصُّدُور} بِمَا فِيهَا مِنْ الْأَسْرَار والمعتقدات.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥).

{أَلَمْ يَأْتِكُمْ} يَا كُفَّار مَكَّة {نَبَأ} خَبَر {الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْل فَذَاقُوا وَبَال أَمْرهمْ} عُقُوبَة الْكُفْر فِي الدُّنْيَا {وَلَهُمْ} فِي الْآخِرَة {عَذَاب أَلِيم} مُؤْلِم.

ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللهُ وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦).

{ذَلِكَ} أَيْ عَذَاب الدُّنْيَا {بِأَنَّهُ} ضَمِير الشَّأْن {كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلهمْ بِالْبَيِّنَاتِ} الْحُجَج الظَّاهِرَات عَلَى الْإِيمَان {فَقَالُوا أَبَشَر} أُرِيدَ بِهِ الْجِنْس {يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا} عَنْ الْإِيمَان {وَاسْتَغْنَى الله} عَنْ إيمَانهمْ {وَاَللَّه غَنِيّ} عَنْ خَلْقه {حَمِيد} مَحْمُود فِي أفعاله(١).

---

(١) قوله تعالى يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ.. أى: ينزه الله تعاليعن كل نقص، ويجله عن كل ما لا يليق به، جميع الكائنات التي في سماواته-سبحانه- وفي أرضه.

كما قال-ﷻ: تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ، إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً.

وجيء هنا وفي سورة الجمعة بصيغة المضارع يُسَبِّحُ للدلالة على تجدد هذا التسبيح، وحدوثه في كل وقت وآن.

وجيء في سورة الحديد، والحشر، والصف، بصيغة الماضي سَبَّحَ. للدلالة على أن التسبيح قد استقر وثبت لله تعاليوحده، من قديم الزمان.

وقوله-سبحانه-: لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مؤكد لما قبله، =

=

من بيان أن جميع الكائنات تسبح لله تعاليلأنه مالكها وصاحب الفضل المطلق عليها.

وتقديم الجار والمجرور لَهُ لإفادة الاختصاص والقصر.

أى: له-سبحانه-وحده ملك هذا الكون، وله وحده الحمد التام المطلق من جميع مخلوقاته، وليس لغيره شيء منهما، وإذا وجد شيء منهما لغيره فهو من فيضه وعطائه، إذ هو-سبحانه-القدير الذي لا يقف في وجه قدرته وإرادته شيء.

قوله تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [التغابن: ١].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يسجد له ما في السموات السبع وما في الأرض من خلقه ويعظمه".

قال ابن كثير:"أي: من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها، كما قال: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ} [الإسراء: ٤٤]".

قال القشيري:"المخلوقات كلّها بجملتها لله سبحانه مسبّحة، ولكن لا يسمع تسبيحها من به طرش النكرة. ويقال: الذي طرأ صممه فقد يرجى زواله بنوع معالجة، أمّا من يولد أصمّ فلا حيلة في تحصيل سماعه. قال تعالى: {فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى} [الروم: ٥٢] وقال تعالى: {وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ} [الأنفال: ٢٣]".

قال النحاس:"{يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ} يكون هذا تمام الكلام، وقد يكون متصلا ويكون له ما في السموات، ويكون {لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ} في موضع الحال، أي: سلطانه وأمره وقضاؤه نافذ فيهما".

قال الزمخشري:"قدم الظرفان ليدل بتقديمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله ﷻ، وذلك لأنّ الملك على الحقيقة له، لأنه مبدئ كل شيء ومبدعه، والقائم به، والمهيمن عليه، وكذلك الحمد، لأنّ أصول النعم وفروعها

=

=

منه. وأما ملك غيره فتسليط منه واسترعاء، وحمده اعتداد بأن نعمة الله جرت على يده".

عن ابن عباس: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، قال: " صلى لله {مَا فِي السَّمَاوَاتِ} ممن خلق، وهم الملائكة، {وَالْأَرْضِ} من شيء فيه رُوح أو لا رُوح فيه.

عن الضحاك: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} " أنه الصلاة، سميت تسبيحا لما تتضمنه من التسبيح".

عن أبي الأسود الدُّؤلي، قال:"قال رأس الجالوت: إنما التوراة ككتابكم مِن الحلال والحرام، إلا أنّ كلامكم في كتابكم جامع: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما في السَّماواتِ وما في الأَرْضِ}. وفي التوراة: يُسبّح لله الطير والسّباع".

عن ميمون بن مهران: {سبحان الله}: اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء".

عن المسيّب -من طريق الهُذيل-قال: " {سُبْحانَ اللهِ} إنصاف لله من السوء".

قال ابن الجوزي:"فإن قيل: فما الفائدة في إعادة ذكر التسبيح في هذه السورة؟

فالجواب: أنّ ذلك لاستفتاح السّور بتعظيم الله ﷻ، كما تستفتح ب «بسم الله الرحمن الرحيم» وإذا جلّ المعنى في تعظيم الله، حسن الاستفتاح به".

قوله تعالى: {لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ} [التغابن: ١]، أي:"له سبحانه التصرف المطلق في كل شيء، وله الثناء الحسن الجميل".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: له ملك السموات والأرض وسلطانه ماض قضاؤه في ذلك نافذ فيه أمره، وله حمد كلّ ما فيها من خلق، لأن جميع من في ذلك من الخلق لا يعرفون الخير إلا منه، وليس لهم رازق سواه فله حمد جميعهم".

قال ابن كثير:"أي: هو المتصرف في جميع الكائنات، المحمود على جميع ما يخلقه ويقدره".

=

=

عن عثمان بن سعيد، قال جبريل: "يا محمد، لله الخلق كله والسموات كلهن ومن فيهن والأرضون كلهن ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم".

قوله تعالى: {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التغابن: ١]، أي:"وهو -سبحانه- على كل شيء قدير لا يعجزه أمر أراده".

قال الطبري:"يقول: وهو على كلّ شيء ذو قدرة، يقول: يخلق ما يشاء، ويميت من يشاء، ويغني من أراد، ويفقر من يشاء ويعزّ من يشاء، ويذلّ من يشاء، لا يتعذّر عليه شيء أراده، لأنه ذو القدرة التامة التي لا يعجزه معها شيء".

قال ابن كثير:"أي: مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع، وما لم يشأ لم يكن" (٣).

قال الشوكاني:"أي: بليغ القدرة، لا يعجزه شيء من الأشياء، يتصرف في ملكه كيف يريد من إنعام وانتقام، ورفع ووضع، وإعطاء ومنع".

قال النحاس:"أي: ذو قدرة على ما يشاء يخلق ما يشاء ويحيي ويميت ويعزّ ويذلّ لا يعجزه شيء لأنه ذو القدرة التامة".

قال ابن إسحاق:"أي: إن الله على كل شيء ما أراد بعباده من نقمة أو عفو فهو قدير".

عن عطاء بن أبي رباح، في قوله تعالى: {وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى}:"كلمة التقوى: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له المُلك وله الحمد، وهو على كلّ شيء قدير.

ثم بين-سبحانه-أقسام خلقه في هذه الحياة فقال: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافِرٌ، وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ). والخطاب في قوله: خَلَقَكُمْ لجميع المكلفين من هذه الأمة.

والفاء في قوله: فَمِنْكُمْ كافِرٌ للتفريع المشعر بالتعجب من وجود من هو كافر بالله تعاليمع أنه-سبحانه-هو الذي خلقه، وخلق كل شيء.

وقدم ذكر الكافر، لأنه الأهم في هذا المقام، ولأنه الأكثر عددا في هذه الحياة.

أى: هو-سبحانه-الذي خلقكم بقدرته، دون أن يشاركه في ذلك مشارك، وزودكم

=

=

بالعقول التي تعينكم على معرفة الخير من الشر، والنافع من الضار وأرسل إليكم رسوله محمدا ﷺ لكي يخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وأنزل معه الكتاب الذي يدلكم على أنه رسول الله ﷺ وأنه صادق فيما يبلغه عن ربه، وأمركم هذا الرسول الكريم بإخلاص العبادة لله تعاليوحده، ولم يترك رسولنا ﷺ وسيلة تهديكم إلى الحق إلا وأرشدكم إليها ...

ومع ذلك وجد منكم المختار للكفر بالحق، المعرض عن الإيمان بوحدانية الله تعاليوكان منكم المستجيب للحق باختياره المخلص في عقيدته لله تعاليالمؤمن بوحدانيته، المؤدى لجميع التكاليف التي كلفه-سبحانه-بها.

وقوله: وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ أى: والله تعاليلا تخفى عليه خافية من أعمالكم، وسيحاسبكم عليها يوم القيامة، وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى.

قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ} [التغابن: ٢].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: الله {الَّذِي خَلَقَكُمْ} أيها الناس".

قال مقاتل:"من آدم وحواء، وكان بدء خلقهما من تراب".

قوله تعالى: {فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ} [التغابن: ٢]، أي:"فبعضكم جاحد لألوهيته، وبعضكم مصدِّق به عامل بشرعه".

اختلف أهل العلم في تفسير قوله تعالى: {فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ} [التغابن: ٢]، على أقوال:

أحدها: معناه: "فمنكم كافر بالله مؤمن بالكوكب، ومنكم من يؤمن بالله كافر بالكوكب، يعني: في شأن الأنواء". قاله عطاء بن أبي رباح.

الثاني: "فمنكم كافر في السر، مؤمن في العلانية كالمنافق، ومنكم مؤمن في السر كافر في العلانية كعمّار وذويه -رضي الله عنهم-". قاله الضحاك.

=

=

الثالث: معناه: مؤمن بأن الله خلقه وكافِر بأن الله خلقه. رواه عطية عن ابن عباس، وبه قال الطبري، والزجاج، والنحاس، وابن كثير، وغيرهم.

قال الزجاج:"ودليل ذلك أقوله سبحانه،: {قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩)] [عبس: ١٧ -١٩]، وقال: {أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا} [الكهف: ٣٧] ".

قال الطبري:"فمنكم كافر بخالقه وأنه خلقه؛ ومنكم مصدّق به موقن أنه خالقه أو بارئه".

قال النحاس:" {وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ}، أي: مصدّق يوقن أنه خالقه وإلهه لا إله له غيره ".

قال ابن كثير:"أي: هو الخالق لكم على هذه الصفة، وأراد منكم ذلك، فلا بد من وجود مؤمن وكافر".

الرابع: معناه: "فمنكم مؤمن يكفر، ومنكم كافر يؤمن". رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس.

الخامس: معناه: خلقكم كفارا وخلقكم مؤمنين. وهذا قول ابن عباس.

قال ابن عباس:"إن الله سبحانه بدأ خلق ابن آدم مؤمنًا وكافرًا، كما قال جل ثناؤه: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ} [سورة التغابن: ٢].

قال ابن عباس: بدأ الله خلق بني آدم مؤمنا وكافرا، ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمنا وكافرا".

قال السمعاني: "وهو المعروف، وقد أيد هذا المعنى قوله تعالى: {أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا} [آل عمران: ٣٩]، فأخبر أن الله تعالى خلقه كذلك.

قال القشيري:"منكم كافر في سابق حكمه سمّاه كافرا، وعلم أنه يكفرو أراد به

=

=

الكفر، وكذلك كانوا. {وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ} في سابق حكمه سمّاه مؤمنا، وعلم في آزاله أنه يؤمن وخلقه مؤمنا، وأراده مؤمنا".

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «السعيد من سعد في بطن أمه».

عن أبي الطفيل عامر بن واثلة قال: "كان عبد الله بن مسعود يخطبنا بالكوفة، فيقول: الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من سعد في بطن أمه، فقال حذيفة بن أسيد، رجل من أصحاب النبي ﷺ: عجبا من أمر هذا، يقول: السعيد من سعد في بطن أمه، والشقي من شقي في بطن أمه فقال عبد الله: يا حذيفة، وما يعجبك من هذا؟ ثم قال: ألا أحدثك بالشفاء من ذاك؟ ثم رفع الحديث، فقال: «إن ملكا موكلا بالرحم، إذا أراد الله ﷻ أن يخلق شيئا بإذن الله، فيقول: يا رب أجله، فيقضي ربك ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب رزقه، فيقضي ربك ويكتب الملك، ثم يقول: شقي أم سعيد؟ فيقضي ربك ويكتب الملك، فيكون كذلك، ما زاد وما نقص»".

عن مالك بن أنس -من طريق عبد العزيز بن عبد الله الأويسي- قال: "ما أضلَّ مَن كذّب بالقَدَر! لو لم يكن عليهم حُجّةٌ إلا قوله تعالى: {خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن} لكفى بها حُجّة".

عن أُبيّ بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ : «إنّ الغلام الذي قتله الخضِر -عليه السلام- طُبع كافرًا».

قوله تعالى: {وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [التغابن: ٢]، أي: "وهو سبحانه بصير بأعمالكم لا يخفى عليه شيء منها، وسيجازيكم بها".

قال الطبري: "يقول: والله الذي خلقكم بصير بأعمالكم عالم بها، لا يخفى عليه منها شيء، وهو مجازيكم بها، فاتقوه أن تخالفوه في أمره أو نهيه، فيسطوَ بكم".

قال ابن كثير: أي: "وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال، وهو

=

=

شهيد على أعمال عباده، وسيجزيهم بها أتم الجزاء".

قال النحاس:"أي: عالم بأعمالكم فلا تخالفوا أمره ونهيه فيسطو بكم".

قوله تعالى (خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ) أى: خلقهن خلقا ملتبسا بالحق الذي لا يحوم حوله باطل، وبالحكمة التي لا يشوبها اضطراب أو عبث، فالباء في قوله «بالحق» للملابسة.

والمراد بالسموات والأرض: ذواتهن وأجرامهن التي هي أكبر من خلق الناس.

والمراد بالحق: المقصد الصحيح، والغرض السليم، الواقع على أتم الوجوه وأفضلها وأحكمها.

ثم بين-سبحانه-بعض مظاهر نعمه على الناس فقال: وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ.

وقوله: وَصَوَّرَكُمْ من التصوير، وهو جعل الشيء على صورة لم يكن عليها، وهو مأخوذ من مادة صار الشيء إلى كذا، بمعنى تحول إليه، أو من صاره إلى كذا، بمعنى أماله وحوله.

أى: وأوجدكم-سبحانه-يا بنى آدم على أحسن الصور وأكملها وأبدعها وأجملها، بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن يكون على غير صورته التي خلقه الله عليها، كأن يكون على صورة حيوان أو غيره. وصدق الله إذ يقول: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ.

قال الآلوسى: ولعمري إن الإنسان أعجب نسخة في هذا العالم، قد اشتملت على دقائق وأسرار شهدت ببعضها الآثار، وعلم ما علم منها أولو الأبصار، وكل ما يشاهد من الصور الإنسانية حسن، لكن الحسن كغيره من المعاني على طبقات ومراتب.. كما قال بعض الحكماء: شيئان لا غاية لهما الجمال والبيان.

وقوله تعاليوَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ معطوف على ما قبله، لأن التصوير يقتضى الإيجاد، فبين-سبحانه-أن هذا الإيجاد يعقبه الفناء لكل شيء سوى وجهه الكريم.

=

=

أي: وإليه وحده تعاليمرجعكم بعد انتهاء آجالكم في هذه الحياة، لكي يجازيكم على أعمالكم الدنيوية.

قوله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ} [التغابن: ٣]، أي:"خلق الله السموات والأرض بالحكمة البالغة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: خلق السموات السبع والأرض بالعدل والإنصاف".

قال ابن كثير: أي: بالعدل والحكمة".

قال ابن إسحاق:"ابتدع السماوات والأرض ولم يكونا إلا بقدرته، لم يستعن على ذلك بأحد من خلقه ولم يشركه في شيء من أمره بسلطانه القاهر وقوله النافذ الذي يقول به لما أراد أن يكون له كن فيكون ففرغ من خلق السماوات والأرض في ستة أيام".

قوله تعالى: {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ} [التغابن: ٣]، أي:"وخلقكم في أحسن صورة".

قال مقاتل:"يعني: فأحسن خلقكم".

قال الطبري:"يقول: ومثلكم فأحسن مثلكم، وقيل: أنه عُنِيَ بذلك تصويره آدم، وخلقه إياه بيده".

قال ابن كثير:"أي: أحسن أشكالكم، كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ} [الانفطار: ٦ - ٨]، وكقوله: {اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ} الآية [غافر: ٦٤]".

قال الزجاج:"معنى {أَحسَنَ صُورَكم}: خلقكم أحسن الحَيَوَانِ كلِّه. والدليل على ذلك أن الإنسان لا يُسَرُّ بأن يكون صورته على غير صورة الآدميين، فالإنسان

=

=

أحسن الحيوان. وقيل أيضاً «فأحسن صوركم» من أَرَادَ الله أَن يكون أبيض كان أبيض، ومن أراد أنْ يكون أَسودَ كان أَسْوَدَ ومن أَراد أَن يكون دَمِيماً كان دَمِيماً أَو تاماً كان تامًّا. فأحسن ذلك -ﷻ- وأَتى من كل صورةٍ بكل صنف على إرادته".

عن ابن عباس: " {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ}، يعني: آدم خلقه بيده".

قال الزمخشري: "فإن قلت. كيف أحسن صورهم؟ قلت: جعلهم أحسن الحيوان كله وأبهاه، بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور. ومن حسن صورته أنه خلق منتصبا غير منكب، كما قال ﷻ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ. فإن قلت: فكم من دميم مشوّه الصورة سمج الخلقة تقتحمه العيون؟ قلت: لا سماجة ثم ولكن الحسن كغيره من المعاني على طبقات ومراتب، فلانحطاط بعض الصور عن مراتب ما فوقها انحطاطا بينا وإضافتها إلى الموفى عليها لا تستملح، وإلا فهي داخلة في حيز الحسن غير خارجة عن حدّه. ألا ترى أنك قد تعجب بصورة وتستملحها ولا ترى الدنيا بها، ثم ترى أملح وأعلى في مراتب الحسن منها فينبو عن الأولى طرفك، وتستثقل النظر إليها بعد افتتانك بها وتهالكك عليها. وقالت الحكماء: شيئان لا غاية لهما: الجمال، والبيان".

قال القشيري: "{وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ}، لم يقل لشيء من المخلوقات هذا الذي قال لنا".

قال السدي: "إذا وقعت النطفة في الرحم (طارت في الجسد أربعون يوما) ثم تكون علقة أربعين يوما، ثم تكون مضغة أربعون يوما، فإذا بلغ أن يخلق، بعث الله ملكا يصورها، فيأتي الملك بتراب بين أصبعيه فيخلط في المضخة، ثم يعجنه بها، ثم يصورها كما يؤمر فيقول: أذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ وما رزقه؟ وما عمره؟ وما أثره؟ وما مصائبه؟ فيقول الله تعالى، ويكتب الملك، فإذا مات ذلك الجسد،

=

=

دفن حيث أخذ ذلك التراب".

وقرأ أبو رَزِينٍ: «فَأَحْسَنَ صِوَرَكُمْ».

قال الأخفش:"بعض العرب يقول: «صُوَر»، و «صِوَر». والجيدة: «صُوَر»".

قوله تعالى: {وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} [التغابن: ٣]، أي:"إليه المرجع يوم القيامة، فيجازي كلا بعمله".

قال الطبري:"يقول: وإلى الله مرجع جميعكم أيها الناس".

قال ابن كثير:"أي: المرجع والمآب".

ثم بين-سبحانه-شمول علمه لكل شيء فقال: (يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) أي: هو-سبحانه-لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض.

(وَيَعْلَمُ ما تُسِرُّونَ وَما تُعْلِنُونَ)-أيها الناس-والتصريح بذلك مع اندراجه فيما قبله، من علم ما في السموات وما في الأرض، لمزيد التأكيد في الوعد والوعيد.

وَاللهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ والمراد بذات الصدور، النوايا والخواطر التي تخفيها الصدور، وتكتمها القلوب.

أي: والله تعاليعليم علما تاما بالنوايا والخواطر التي اشتملت عليها الصدور، فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على ثلاث جمل، كل جملة منها أخص من سابقتها.

وجمع-سبحانه-بينها للإشارة إلى أن علمه تعاليمحيط بالجزئيات والكليات، دون أن يعزب عن علمه تعاليشيء منها.

وفي هذا رد على أولئك الكفار الجاحدين، الذين استبعدوا إعادتهم إلى الحياة، بعد أن أكلت الأرض أجسادهم، وقالوا-كما حكى القرآن عنهم-أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ.

قوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [التغابن: ٤].

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يعلم ربكم أيها الناس ما في السموات السبع والأرض من شيء، لا يخفى عليه من ذلك خافية".

قال ابن كثير:"أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السمائية والأرضية والنفسية".

قوله تعالى: {وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ} [التغابن: ٤]، أي:"ويعلم ما تخفونه -أيها الناس-فيما بينكم وما تظهرونه".

قال الطبري: يقول:"{وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ} أيها الناس بينكم من قول وعمل، {وَمَا تُعْلِنُونَ} من ذلك فتظهرونه".

قال القشيري:"في قوله: {ما تُسِرُّونَ} أمر بالمراقبة بين العبد وربه. وفي قوله: {ما تُعْلِنُونَ} أمر بالصدق في المعاملة والمحاسبة مع الخلق".

قوله تعالى: {وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} [التغابن: ٤]، أي:"والله عليم بما تضمره الصدور وما تخفيه النفوس".

قال الطبري: " يقول جلّ ثناؤه: والله ذو علم بضمائر صدور عباده، وما تنطوي عليه نفوسهم، الذي هو أخفى من السرّ، لا يعزب عنه شيء من ذلك. يقول تعالى ذكره لعباده: احذَروا أن تسرّوا غير الذي تعلنون، أو تضمروا في أنفسكم غير ما تُبدونه، فإن ربكم لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو محص جميعه، وحافظ عليكم كله".

قال النحاس:"أي: عالم بضمائر صدوركم وما تنطوي عليه نفوسكم الذي هو أخفى من السرّ".

قال الزمخشري:"نبه بعلمه ما في السماوات والأرض، ثم بعلمه ما يسره العباد ويعلنونه، ثم بعلمه ذوات الصدور: أنّ شيئا من الكليات والجزئيات غير خاف عليه ولا عازب عنه، فحقه أن يتقى ويحذر ولا يجترأ على شيء مما يخالف

=

=

رضاه".

عن محمد بن إسحاق -من طريق سلمة-قال: {والله عليم بذات الصدور}، أي: لا يخفى عليه ما في صدورهم مِمّا اسْتَخْفَوْا به منكم".

عن الحسن: " {إنه عليم بذات الصدور}: يعلم تلك الساعة".

ثم وبخهم-سبحانه-على عدم اعتبارهم بالسابقين من قبلهم فقال: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ، فَذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ. وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ).

والاستفهام في قوله أَلَمْ يَأْتِكُمْ.. للتقرير والتبكيت.

والمراد بالذين كفروا من قبل: قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، من الأقوام الذين أعرضوا عن الحق، فكانت عاقبتهم الدمار والهلاك.

والخطاب لمشركي قريش وأمثالهم، ممن استحبوا العمى على الهدى.

والوبال في الأصل: الشدة المترتبة على أمر من الأمور، ومنه الوبيل للطعام الثقيل على المعدة. المضر لها ... والمراد به هنا: العقاب الشديد الذي نزل بهم فأهلكهم، وعبر عن هذا العقاب بالوبال، للإشارة إلى أنه كان عذابا ثقيلا جدا، لم يستطيعوا الفرار أو الهرب منه.

والمراد بأمرهم: كفرهم وفسوقهم عن أمر ربهم، ومخالفتهم لرسلهم.

وقوله فَذاقُوا معطوف على كفروا، عطف المسبب على السبب والذوق مجاز في مطلق الإحساس والوجدان. شبه ما حل بهم من عقاب، بشيء كريه الطعم والمذاق.

وعبر عن كفرهم بالأمر، للإشعار بأنه أمر قد بلغ النهاية في القبح والسوء.

والمعنى: لقد أتاكم ووصل إلى علمكم-أيها المشركون-حال الذين كفروا من قبلكم من أمثال قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، وعلمتم أن إصرارهم على كفرهم قد أدى بهم إلى الهلاك وإلى العذاب الأليم، فعليكم أن تعتبروا بهم. وأن تفيئوا

=

=

إلـى رشـدكم، وأن تتبعـوا رسـول الله ﷺ الـذي أرسـله الله تعـاليلإخراجكم مـن ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

فالمقصود من الآية الكريمة تحذير الكافرين الذين أرسل الرسول ﷺ إليهم من سوء عاقبة إصرارهم على كفرهم.

قوله تعالى: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ} [التغابن: ٥]، أي:"ألـم يـأتكم -أيها المشركون-خبر الذين كفروا من الأمم الماضية قبلكم".

قال مقاتل:"{أَلَمْ يَأْتِكُمْ} يا أهل مكة {نَبَأُ}، يعني: حديث {الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ} أهل مكة: حديث الأمم الخالية كيف عذبوا بتكذيبهم رسلهم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لمشركي قريش: ألم يأتكم أيها الناس خبر الذين كفروا من قبلكم، وذلك كقوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط".

قال الزمخشري:"الخطاب لكفار مكة".

قال القشيري:"المراد من ذلك هو الاعتبار بمن سلف، ومن لم يعتبر عثر في مهواة من الأمل، ثم لا ينتعش إلّا بعد فوات الأمر من يده".

قال الراغب:"النَّبَأُ: خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غَلَبَة ظنّ، ولا يقال للخبر في الأصل نَبَأٌ حتى يتضمّن هذه الأشياء الثّلاثة، وحقّ الخبر الذي يقال فيه نَبَأٌ أن يتعرّى عن الكذب، كالتّواتر، وخبر الله تعالى، وخبر النبيّ عليه الصلاة والسلام، ولتضمُّن النَّبَإِ معنى الخبر يقال: أَنْبَأْتُهُ بكذا كقولك: أخبرته بكذا، ولتضمّنه معنى العلم قيل: أَنْبَأْتُهُ كذا، كقولك: أعلمته كذا. قال الله تعالى: {قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُون}".

قوله تعالى: {فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ} [التغابن: ٥]، أي:"إذ حلَّ بهم سوء عاقبة كفرهم وسوء أفعالهم في الدنيا".

قال الطبري:"فمسّهم عذاب الله إياهم على كفرهم".

=

=

قال الزجاج:"أي: وذاقوا في الدنيا عظيم السطوات".

قال الواحدي:"يعني: ما لحقهم من العذاب في الدنيا".

قال ابن كثير:"أي: وخيم تكذيبهم ورديء أفعالهم، وهو ما حل بهم في الدنيا من العقوبة والخزي".

قوله تعالى: {وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [التغابن: ٥]، أي:"ولهم في الآخرة عذاب أليم موجع".

قال الطبري:"يقول: ولهم عذاب مؤلم موجع يوم القيامة في نار جهنم، مع الذي أذاقهم الله في الدنيا وبال كفرهم".

قال ابن كثير:"أي: في الدار الآخرة مضاف إلى هذا الدنيوي".

ثم بين-سبحانه-الأسباب التي أدت إلى سوء عاقبة هؤلاء السابقين فقال: (ذلِكَ بِأَنَّهُ كانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ، فَقالُوا: أَبَشَرٌ يَهْدُونَنا).

أى: ذلك الذي أصاب الأقوام السابقين من هلاك ودمار، سببه أنهم كانت تأتيهم رسلهم بالآيات البينات، وبالمعجزات الواضحات، الدالة على صدقهم، فما كان من هؤلاء الأقوام إلا أن أعرضوا عن دعوة الرسل، وقال كل قوم منهم لرسولهم على سبيل الإنكار والتكذيب والتعجب: أبشر مثلنا يهدوننا إلى الحق والرشد؟!!.

فالباء في قوله بِأَنَّهُ للسببية، والضمير ضمير الشأن لقصد التهويل والاستفهام في قوله أَبَشَرٌ للإنكار والمراد بالبشر: الجنس، وهو مرفوع على أنه مبتدأ وخبره جملة يَهْدُونَنا.

أى: فكفروا بسبب هذا القول الفاسد: وَتَوَلَّوْا أى: وأعرضوا عن الحق إعراضا تاما وَاسْتَغْنَى اللهُ أى: واستغنى الله تعاليعنهم وعن إيمانهم، والسين والتاء للمبالغة في غناه-سبحانه-عنهم.

=

=

وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ أى: والله تعاليغنى عنهم وعن العالمين، محمود من كل مخلوقاته بلسان الحال والمقال، وهو تعالييجازى الشاكرين له بما يستحقونه من جزاء كريم.

قوله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا} [التغابن: ٦]، أي:"ذلك الذي أصابهم في الدنيا، وما يصيبهم في الآخرة؛ بسبب أنهم كانت تأتيهم رسل الله بالآيات البينات والمعجزات الواضحات، فقالوا منكرين: أبشر مثلنا يرشدوننا؟".

قال الطبري: يقول: " هذا الذي نال الذين كفروا من قبل هؤلاء المشركين من وبال كفرهم، والذي أعدّ لهم ربهم يوم القيامة من العذاب، من أجل أنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات الذي أرسلهم إليهم ربهم بالواضحات من الأدلة والإعلام على حقيقة ما يدعونهم إليه، فقالوا لهم: أبشر يهدوننا، استكبارًا منهم أن تكون رسل الله إليهم بشرًا مثلهم واستكبارًا عن اتباع الحقّ من أجل أن بشرًا مثلهم دعاهم إليه".

قال ابن عطية:"ثم ذكر تعالى من مقالة أولئك الماضين ما هو مشبه لقول كفار قريش من استبعاد بعث الله للبشر، ونبوة أحد من بني آدم، وحسد الشخص المبعوث".

قال ابن كثير:"استبعدوا أن تكون الرسالة في البشر، وأن يكون هداهم على يدي بشر مثلهم".

قال الزمخشري:"أنكروا أن تكون الرسل بشرا، ولم ينكروا أن يكون الله حجرا".

قال البغوي:"ولم يقل: «يهدينا»، لأن البشر وإن كان لفظه واحد فإنه في معنى الجمع، وهو اسم الجنس لا واحد له من لفظه، وواحده إنسان، ومعناه ينكرون ويقولون آدمي مثلنا يهدينا".

=

=

قوله تعالى: {فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا} [التغابن: ٦]، أي:"فكفروا بالله وجحدوا رسالة رسله، وأعرضوا عن الحق فلم يقبلوه".

قال الطبري:"يقول: فكفروا بالله، وجحدوا رسالة رسله الذين بعثهم الله إليهم استكبارًا، وأدبروا عن الحقّ فلم يقبلوه، وأعرضوا عما دعاهم إليه رسلهم".

قال السمعاني:"أي: جحدوا وأعرضوا".

قال ابن كثير:"أي: كذبوا بالحق ونكلوا عن العمل".

قوله تعالى: {وَاسْتَغْنَى اللهُ} [التغابن: ٦]، أي:"واستغنى الله عن طاعتهم وعبادتهم".

قال ابن كثير:"{وَاسْتَغْنَى اللهُ}، أي: عنهم".

قال مقاتل:"واستغنى الله عن عبادتهم".

قال الطبري:"يقول: واستغنى الله عنهم، وعن إيمانهم به وبرسله، ولم تكن به إلى ذلك منهم حاجة".

قال السمعاني:"يعني: أن الله غني عن طاعتهم وعبادتهم وتوحيدهم".

قال ابن عطية:"قوله تعالى: {اسْتَغْنَى اللهُ} عبارة عما ظهر من هلاكهم، وأنهم لن يضروا الله شيئا، فبان أنه كان غنيا أزلا وبسبب ظهور هلاكهم بعد أن لم يكن ظاهرا ساغ استعمال هذا البناء مسندا إلى اسم الله تعالى، لأن بناء استفعل إنما هو لطلب الشيء وتحصيله بالطلب".

قوله تعالى: {وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [التغابن: ٦]، أي:"والله غني، له الغنى التام المطلق، حميد في أقواله وأفعاله وصفاته لا يبالي بهم، ولا يضره ضلالهم شيئًا".

قال مقاتل:"{وَاللهُ غَنِيٌّ} عن عبادة خلقه، {حَمِيدٌ} في سلطانه عند خلقه".

قال الطبري:"يقول: والله غني عن جميع خلقه، محمود عند جميعهم بجميل أياديه عندهم، وكريم فعاله فيهم".

=

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (٧).

{زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ} مُخَفَّفَة وَاسْمهَا مَحْذُوف أي أنهم {لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير}.

فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨)

{فآمنوا بالله ورسوله والنور} القرآن {الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير}.

يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩).

اذكر {يَوْم يَجْمَعكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْع} يَوْم الْقِيَامَة {ذَلِكَ يَوْم التَّغَابُن} يَغْبِن الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ بِأَخْذِ مَنَازِلهمْ وَأَهْلِيهِمْ فِي الْجَنَّة لَوْ آمَنُوا {وَمَنْ يُؤْمِن بِاَللهِ وَيَعْمَل صَالِحًا يُكَفِّر عَنْهُ سَيِّئَاته وَيُدْخِلهُ} وفي قراءة بالنون في الفعلين {جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الْأَنْهَار خَالِدِينَ فِيهَا أبدا ذلك الفوز العظيم}.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ

=

قال السمعاني:"أي: مستغني عن أفعال العباد، مستحمد إلى خلقه بالإنعام عليهم. ويقال: حميد أي: مستحق للحمد. ويقال حميد أي: يحب أن يحمد".

عن الحسن، قوله: {حَمِيدٌ}، قال: "يستحمد إلى خلقه، أي: يعطيهم نعما يستدعي بها حمدهم".

عن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «ما من أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش، وما أحد أحب إليه المدح من الله».

(١٠).

{وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} الْقُرْآن {أُولَئِكَ أَصْحَاب النَّار خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِير} هِيَ.

مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١).

{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَة إِلَّا بِإِذْنِ الله} بِقَضَائِهِ {وَمَنْ يُؤْمِن بِاَللهِ} فِي قَوْله إِنَّ المصيبة بقضائه {يهد قلبه} للصبر عليها {والله بكل شيء عليم}.

وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢).

{وَأَطِيعُوا الله وَأَطِيعُوا الرَّسُول فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا على رسولنا البلاغ المبين} البين.

اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣).

{الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون}(١).

---

(١) الزعم: ادعاء العلم، ومنه قوله ﷺ: «بِئْسَ مَطِيَّةُ الرَّجُلِ زَعَمُوا» وعن شريح: لكل شيء كنية وكنية الكذب زعموا، ويتعدى إلى المفعولين تعدى العلم، كما قال الشاعر:

وإن الذي قد عاش يا أم مالك يموت، ولم أزعمك عن ذاك معزلا

و«أن» مع ما في حيزها قائم مقامهما .

وبَلى حرف يذكر في الجواب لإثبات النفي في كلام سابق، والمراد هنا: إثبات ما نفوه وهو البعث.

أي: زعم الذين كفروا من أهل مكة وأشباههم من المشركين، أنهم لن يبعثوا يوم =

=

القيامة، لأن البعث وما يترتب عليه من حساب، في زعمهم محال.

قل لهم-أيها الرسول الكريم-على سبيل الجزم واليقين، كذبتم فيما تزعمونه من أنه لا بعث ولا حساب.. والله لتبعثن يوم القيامة، ثم لتنبؤن بما عملتموه في الدنيا من أعمال سيئة، ولتحاسبن عليها حسابا عسيرا، يترتب عليه الإلقاء بكم في النار.

وجيء في نفى زعمهم بالجملة القسمية، لتأكيد أمر البعث الذي نفوه بحرف لَنْ ولبيان ان البعث وما يترتب عليه من ثواب وعقاب، أمر ثابت ثبوتا قطعيا. وجملة ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ ارتقاء في الإيطال. وثُمَّ للتراخي النسبي.

أى: قل لهم إنكم لا تبعثون فحسب، بل ستبعثون، ثم تجدون بعد ذلك ما هو أشد من البعث، ألا وهو إخباركم بأعمالكم السيئة، ثم الإلقاء بكم في النار بعد ذلك.

فالمراد بالإنباء لازمه، وهو ما يترتب عليه من حساب وعقاب.

واسم الإشارة في قوله: وَذلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ يعود إلى البعث وما يترتب عليه من حساب.

أى: وذلك البعث والحساب، يسير وهين على الله تعاليلأنه-سبحانه-لا يعجزه شيء، ولا يحول دون تنفيذ قدرته حائل.

فهذا التذييل المقصود به إزالة ما توهموه وزعموه من أن البعث أمر محال، كما قالوا:

أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ.

قوله تعالى: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا} [التغابن: ٧]، أي:"ادَّعى الذين كفروا بالله باطلا أنهم لن يُخْرَجوا من قبورهم بعد الموت".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: زعم الذين كفروا بالله أن لن يبعثهم الله إليه من قبورهم بعد مماتهم".

قال ابن عطية:"يريد قريشا ثم هي بعد تعم كل كافر بالبعث.. ولا توجد «زعم»

=

مستعملة في فصيح من الكلام إلا عبارة عن الكذب، أو قول انفرد به قائله فيريد ناقله أن يبقي عهدته على الزاعم، ففي ذلك ما ينحو إلى تضعيف الزعم".

قال القرطبي:"أي: ظنوا. «الزعم» هو القول بالظن.. قيل: نزلت في العاص بن وائل السهمي مع خباب حسب ما تقدم بيانه في آخر سورة «مريم» ".

قال البيضاوي:"«الزعم»: ادعاء العلم".

قال شريح: "لكل شيء كنية وكنية الكذب زعموا".

قال ابن عمر: " «زعم»: كنية الكذب".

قال ابن الجوزي:"وكان مجاهد يكره أن يقول الرجل: زعم فلان".

عن مجاهد:"أنه كره (زَعَموا)؛ لقول الله: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا} ".

عن أبي مسعود أنه قيل له: "ما سمعتَ النبيَّ ﷺ يقول في (زَعَموا)؟ قال: سمعتُه يقول: «بِئس مَطيّة الرجل»".

وأصل «البَعْث»: إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بَعَثْتُهُ فَانْبَعَثَ، ويختلف البعث بحسب اختلاف ما علّق به.. فالبعث ضربان:

الأول: بشريّ، كبعث البعير، وبعث الإنسان في حاجة.

الثاني: إلهي، وذلك ضربان:

أحدهما: إيجاد الأعيان والأجناس والأنواع لا عن اللزوم، وذلك يختص به الباري تعالى، ولم يقدر عليه أحد.

الثاني: إحياء الموتى، وقد خص بذلك بعض أوليائه، كعيسى ﷺ وأمثاله، ومنه قوله ﷻ : {فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ} [الروم: ٥٦]، يعني: يوم الحشر.

قوله تعالى: {قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ} [التغابن: ٧]، أي:"قل لهم -أيها الرسول-: بلى وربي لتُخْرَجُنَّ من قبوركم أحياء".

قال الطبري:"يقول لنبيه ﷺ: قل لهم يا محمد: بلى وربي لتبعثن من قبوركم".

=

قال ابن كثير:"وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه، ﷻ، على وقوع المعاد ووجوده فالأولى في سورة يونس: {وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} [يونس: ٥٣] والثانية في سورة سبأ: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ} الآية [سبأ: ٣]، والثالثة هي هذه: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ}".

قوله تعالى: {ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ} [التغابن: ٧]، أي:"، ثم لتُخْبَرُنَّ بالذي عملتم في الدنيا".

قال الطبري:"يقول: ثم لتخبرنّ بأعمالكم التي عملتموها في الدنيا".

قال ابن كثير:"أي: لتُخْبَرُنَّ بجميع أعمالكم، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها".

قوله تعالى: {وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ} [التغابن: ٧]، أي:"وذلك على الله يسير هيِّن".

قال الطبري:"يقول: وبعثكم من قبوركم بعد مماتكم على الله سهل هين".

قال ابن كثير:"أي: بعثكم ومجازاتكم".

عن السدي: {ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ}،" يعني: هين عليه وليس بشديد عليه".

قال ابن عباس، في قوله: {يسير}، يعني: هينا".

والفاء في قوله تعالى: (فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنا..) هي الفصيحة، أي: التي تفصح عن شرط مقدر.

والمراد بالنور: القرآن الكريم، كما قال تعالى: (وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ، وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا).

=

=

والمعنى: إذا علمتم ما ذكرناه لكم-أيها المشركون-فاتركوا العناد، وآمنوا بالله تعاليورسوله ﷺ إيمانا حقا، وآمنوا-أيضا-بالقرآن الكريم الذي أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمد ﷺ ليكون هذا القرآن معجزة ناطقة بصدقه ﷺ.

وجملة وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ تذييل قصد به الوعد والوعيد، أى: والله تعاليمطلع اطلاعا تاما على كل تصرفاتكم، وسيمنحكم الخير إن آمنتم، وسيلقى بكم في النار إن بقيتم على كفركم.

قوله تعالى: {فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا} [التغابن: ٨].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فصدّقوا بالله ورسوله أيها المشركون المكذّبون بالبعث، وبإخباره إياكم أنكم مبعوثون من بعد مماتكم، وأنكم من بعد بلائكم تنشرون من قبوركم، وآمنوا بالنور الذي أنزلنا، وهو هذا القرآن الذي أنزله الله على نبيه محمد ﷺ".

قال القرطبي:"أمرهم بالإيمان بعد أن عرفهم قيام الساعة. {وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا}، وهو القرآن، وهو نور يهتدى به من ظلمة الضلال".

قال الزجاج:"أي: وبالقرآن الذي هو نُورٌ وكتابٌ مبين".

قال أبو هلال العسكري:"وسُمِّي نورا للبيان الذي فيه؛ لأنه يهتدي به كما يهتدي بالنور".

قال النسفي:"لأنه يبين حقيقة كل شيء فيهتدي به كما بالنور".

قال ابن عطية:"هذا دعاء إلى الله تعالى وتبليغ وتحذير من يوم القيامة، و «النور» القرآن ومعانيه".

عن سعيد بن جبير:"قوله: {آمِنُوا بِاللهِ}، يعني: بتوحيد الله".

عن قتادة، في قوله:"{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا} [النساء: ١٧٤]: وهو هذا القرآن". عن

=

=

عن مجاهد: "{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا} [النساء: ١٧٤] بينا؛ يعني: القرآن".
وروي عن ابن عباس والحسن وابن جريج مثله.

قال السعدي: "لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأن ذلك منهم موجب كفرهم بالله وآياته، أمر بما يعصم من الهلكة [ص:٨٦٧] والشقاء، وهو الإيمان بالله ورسوله وكتابه، وسماه الله نورًا، فإن النور ضد الظلمة، وما في الكتاب الذي أنزله الله من الأحكام والشرائع والأخبار، أنوار يهتدى بها في ظلمات الجهل المدلهمة، ويمشى بها في حندس الليل البهيم، وما سوى الاهتداء بكتاب الله، فهي علوم ضررها أكثر من نفعها، وشرها أكثر من خيرها، بل لا خير فيها ولا نفع، إلا ما وافق ما جاءت به الرسل، والإيمان بالله ورسوله وكتابه، يقتضي الجزم التام، واليقين الصادق بها، والعمل بمقتضى ذلك التصديق، من امتثال الأوامر، واجتناب المناهي".

قوله تعالى: {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [التغابن: ٨]، أي: "والله بما تفعلون خبير لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأقوالكم، وهو مجازيكم عليها يوم القيامة".

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: والله بأعمالكم أيها الناس ذو خبرة محيط بها، محصٍ جميعها، لا يخفى عليه منها شيء، وهو مجازيكم على جميعها".

قال السعدي: "فيجازيكم بأعمالكم الصالحة والسيئة".

قال النسفي: "فراقبوا أموركم".

عن قتادة، قوله: " {خَبِيرٌ}، قال: " خبير بخلقه".

ثم حذرهم -سبحانه- من أهوال يوم القيامة فقال تعالى: (يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ).

والظرف يَوْمَ متعلق بقوله تعاليقبل ذلك: ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلْتُمْ.

والمراد بيوم الجمع: يوم القيامة. سمى بذلك لأنه اليوم الذي يجتمع فيه الأولون

=

=

والآخرون في مكان واحد للحساب والجزاء.

وسمى-أيضا بيوم التغابن، لأنه اليوم الذي يغبن فيه أهل الحق أهل الباطل.

والتغابن تفاعل من الغبن بمعنى الخسران والنقص، يقال غبن فلان فلانا إذا بخسه حقه، بأن أخذ منه سلعة بثمن أقل من ثمنها المعتاد، وأكثر ما يستعمل الغبن في البيع والشراء، وفعله من باب ضرب، ويطلق الغبن على مطلق الخسران أى: قل-أيها الرسول الكريم-لهؤلاء الجاحدين للبعث: لتبعثن يوم القيامة ثم لتنبؤن بما عملتم يوم القيامة يوم يجتمع الخلائق للحساب فيغبن فيه أهل الحق أهل الباطل، ويغبن فيه المؤمنون الكافرين، لأن أهل الإيمان ظفروا بالجنة، وبالمقاعد التي كان سيظفر بها الكافرون لو أنهم آمنوا، ولكن الكافرين استمروا على كفرهم فخسروا مقاعدهم في الجنة، ففاز بها المؤمنون.

أى: أن أهل الجنة أخذوا الجنة، وأهل النار أخذوا النار على طريق المبادلة فوقع الغبن على الكافرين لأجل مبادلتهم الخير بالشر، والنعيم بالعذاب.

يقال: غبنت فلانا، إذا بايعته أو شاريته، فكان النقص عليه، والغلبة لك.

فإن قيل: فأى معاملة وقعت بينهما حتى يقع الغبن فيها؟ قيل له: هو تمثيل الغبن في الشراء والبيع .

وقال الآلوسى ما ملخصه: ذَلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ أى يوم غبن فيه أهل الجنة أهل النار، فالتفاعل ليس على ظاهره، كما في التواضع والتحامل لوقوعه من جانب واحد، واختير للمبالغة.

وقد ورد هذا التفسير عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. واختاره الواحدي.

وقال غير واحد: ذَلِكَ يَوْمُ التَّغابُنِ أى: اليوم الذي غبن فيه بعض الناس بعضا، بنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء، وبالعكس ففي الحديث الصحيح: «ما من عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار-لو أساء-ليزداد شكرا، وما من

=

=

عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة -لو أحسن ليزداد حسرة- وهو مستعار من تغابن القوم في التجارة، وفيه تهكم بالأشقياء لأنهم لا يغبنون حقيقة السعداء، بنزولهم في منازلهم من النار .

ثم فصل -سبحانه- أحوال الناس في هذا اليوم الهائل الشديد فقال (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً، يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِهِ، وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ).

أى: ومن يؤمن بالله تعاليإيمانا حقا، ويعمل عملا صالحا، يكفر الله تعاليعنه سيئاته التي عملها في الدنيا بأن يزيلها من صحيفة عمله -فضلا منه تعاليوكرما- وفوق ذلك يدخله بفضله وإحسانه جنات تجرى من تحت ثمارها الأنهار خالِدِينَ فِيها أَبَداً أى: خلودا أبديا.

ذلِكَ الذي ذكرناه لكم من تكفير السيئات، ومن دخول الجنات.. هو الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الذي لا فوز يقاربه أو يدانيه.

قوله تعالى: {يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ} [التغابن: ٩].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والله بما تعملون خبير {يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ} الخلائق للعرض".

قال السمعاني:"أي: يوم القيامة، وسمي يوم الجمع؛ لأنه يجتمع فيه الأولون والآخرون، ويجتمع أهل السموات وأهل الأرض".

قال ابن كثير:"هو يوم القيامة، سمي بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد، يسمعهم الداعي وينفُذهم البصر، كما قال تعالى: {ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ} [هود: ١٠٣] وقال تعالى: {قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ} [الواقعة: ٤٩، ٥٠]".

قال السعدي:"يعني: اذكروا يوم الجمع الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، ويقفهم موقفًا هائلا عظيمًا، وينبئهم بما عملوا، فحينئذ يظهر الفرق والتفاوت بين

=

=

الخلائق، ويرفع أقوام إلى أعلى عليين، في الغرف العاليات، والمنازل المرتفعات، المشتملة على جميع اللذات والشهوات، ويخفض أقوام إلى أسفل سافلين، محل الهم والغم، والحزن، والعذاب الشديد، وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم، وأسلفوه أيام حياتهم".

قال قتادة:"هو يوم القيامة، وهو يوم التغابن: يوم غَبن أهلِ الجنة أهلَ النار".

قوله تعالى: {ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ} [التغابن: ٩]، أي:"ذلك اليوم الذي يظهر فيه الغُبْن والتفاوت بين الخلق، فيغبن المؤمنون الكفار والفاسقين: فأهل الإيمان يدخلون الجنة برحمة الله، وأهل الكفر يدخلون النار بعدل الله".

وفي قوله تعالى: {ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ} [التغابن: ٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنه من أسماء يوم القيامة، قاله ابن عباس، ومنه قول الشاعر:

وَمَا أَرْتَجِي بِالْعَيْشِ فِي دَارِ فُرْقَةٍ... أَلَا إِنَّمَا الرَّاحَاتُ يَوْمَ التَّغَابُنِ

عن ابن عباس، في قوله: " {ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ}، من أسماء يوم القيامة، عظَّمه وحذّره عبادَه".

الثاني: لأنه غبن فيه أهل الجنة أهل النار. قاله ابن عباس-أيضا-، ومجاهد، وقتادة، ومنه قول الشاعر:

لعمرك ما شيءٌ يفوتُك نيلُه... بغبْنٍ ولكنْ في العقول التغابنُ

قال الطبري:"يقول: يوم غَبْن أهل الجنة أهلَ النار".

قال الزجاج:"يوم التغابن يومَ يغبن أَهلُ الجنَّةِ أَهلَ النَّارِ، ويغبن من ارتفعت منزلته في الجنة من كان في دُونِ مَنْزِلَتِه".

قال ابن عطية:"وذلك أن كل واحد ينبعث من قبره وهو يرجو حظا ومنزلة، فإذا وقع الجزاء غبن المؤمنون الكافرين لأنهم يحوزون الجنة ويحصل الكفار في النار".

=

=

قال الثعلبي:"«التغابن»: هو «تفاعل» من الغبن، وهو فوت الحظ والمراد".

قال السعدي:"أي: يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلائق، ويغبن المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم على غير شيء، وأنهم هم الخاسرون".

قال ابن عباس:"غَبَن أهلُ الجنة أهلَ النار.

قال ابن عباس: "إن قومًا في النار يعذبون وقومًا في الجنة يتنعمون".

قال مجاهد:"هو غبن أهلَ الجنة أهل النار".

قال قتادة:"هو يوم القيامة، وهو يوم التغابن: يوم غَبن أهلِ الجنة أهلَ النار".

قال محمد بن كعب:"يوم القيامة؛ يَغبن أهلُ الجنة أهلَ النار.

قال مقاتل بن حيان: "لا غبن أعظمُ من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة، ويُذْهَب بأولئك إلى النار".

عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: " لا يدخل أحد النار إلا أري مقعده من الجنة، لو أحسن ليكون عليه حسرة، ولا يدخل الجنة أحد إلا أري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا".

الثالث: لأنه يوم غَبَنَ فيه المظلومُ الظالمَ، لأن المظلوم كان في الدنيا مغبونـًا فصار في الآخرة غابنـًا. حكاه الماوردي.

الرابع: لأنه اليوم الذي أخفاه اللّهُ عن خَلْقه، و «الغبن»: الإخفاء، ومنه: الغبن في البيع، لاستخفائه، ولذلك قيل: مَغابِن الجسد لما خفي منه. أفاده الماوردي.

الخامس: أن الله تعالى سمى لكل أحد من خلقه منزلا في النار ومنزلا في الجنة، فمن كان مؤمنا يرث منزلة الكافر في الجنة، ومن كان كافرا يرث منزل المؤمن في النار، وهو معنى التغابن يوم القيامة. حكاه السمعاني.

قال الزمخشري:"التغابن: مستعار من تغابن القوم في التجارة، وهو أن يغبن بعضهم بعضا، لنزول السعداء منازل الأشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء،

=

=

ونزول الأشقياء منازل السعداء التي كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء. وفيه تهكم بالأشقياء، لأنّ نزولهم ليس بغبن".

قال المفسرون: "من غبن أهله منازله في الجنة فيظهر يومئذ غبن كل كافر ببركة الإيمان، وغبن كل مؤمن بتقصيره في الإحسان وتضييعه الأيام".

السادس: سمي يوم التغبن، لأن المطيع -يومئذ- في غبن، لعدم استكثاره من الطاعة، والعاصي في غبن، لأنه استكثر من الزلّة. أفاده القشيري.

قوله تعالى: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ} [التغابن: ٩]، أي:"ومن يؤمن بالله ويعمل بطاعته، يمح عنه ذنوبه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ومن يصدّق بالله ويعمل بطاعته، وينته إلى أمره ونهيه يمح عنه ذنوبه".

قال السعدي:"فكأنه قيل: بأي شيء يحصل الفلاح والشقاء والنعيم والعذاب؟ فذكر تعالى أسباب ذلك بقوله: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ} أي: إيمانًا تامًا، شاملا لجميع ما أمر الله بالإيمان به، {وَيَعْمَلْ صَالِحًا} من الفرائض والنوافل، من أداء حقوق الله وحقوق عباده [{يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ}]".

عن سعيد بن جبير:"قوله: {آمِنُوا بِاللهِ}، يعني: بتوحيد الله".

عن السُّدِّيّ، في قوله: {والذين آمنوا وعملوا الصالحات}، يعني: أطاعوا الله فيما أمرهم به، وفرض عليهم".

قوله تعالى: {وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [التغابن: ٩]، أي:"ويدخله جنات تجري من تحت قصورها الأنهار".

قال الطبري:"يقول: ويُدخله بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار".

قال السعدي:"فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وتختاره الأرواح، وتحن إليه القلوب، ويكون نهاية كل مرغوب".

=

=

قرأ أهل المدينة والشام -هاهنا-وفي السورة التي تليها: «نكَفِّرْ» و «ندْخِلْهُ» بالنون، والباقون بالياء.

عن السدي:"{جنات}، قال: البساتين".

قال مجاهد:"الجنات: حوائط".

عن أبي مالك قوله: " {تجري من تحتهم الأنهار}، يعني: تحت منازلهم وأرضهم".

قال مسروق: "أنهار الجنة تجري في غير أخدود، ثمرها كالقلال، كلما نزعت ثمرة عادت مثلها أخرى، والعنقود اثنا عشر ذراعا".

قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [التغابن: ٩]، أي:"مقيمين في تلك الجنات أبد الحياة، لا يموتون لا يُخرجون منها".

قال الطبري:"يقول: لابثين فيها أبدًا، لا يموتون، ولا يخرجون منها".

عن سعيد بن جبير، {خَالِدِينَ فِيهَا}، يعني:"لا يموتون".

عن ابن عباس: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}، قال: لا انقطاع".

قوله تعالى: {ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التغابن: ٩]، أي:"ذلك الخلود في الجنات هو الفوز العظيم الذي لا فوز بعده".

قال الطبري:"يقول: خلودهم في الجنات التي وصفنا النجاء العظيم".

قال سعيد بن جبير:"يعني: ذلك الثواب الفوز العظيم".

قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا) بربهم بأن أشركوا معه في العبادة آلهة أخرى.

(وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا) الدالة على وحدانيتنا، وعلى صدق نبينا ﷺ.

أُولئِكَ الكافرون المكذبون هم أَصْحابُ النَّارِ خالِدِينَ فِيها خلودا أبديا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ مصيرهم النار.

ففي هاتين الآيتين الكريمتين، بيان للتغابن، وتفصيل له، لاحتوائهما على بيان

=

=

منازل السعداء والأشقياء، وهو ما وقع فيه التغابن.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [التغابن: ١٠].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والذين جحدوا وحدانية الله، وكذّبوا بأدلته وحججه وآي كتابه الذي أنزله على عبده محمد ﷺ".

قال السعدي:"أي: كفروا بها من غير مستند شرعي ولا عقلي، بل جاءتهم الأدلة والبينات، فكذبوا بها، وعاندوا ما دلت عليه".

عن قتادة قوله: " {وَالَّذِينَ كَفَرُوا}، قال: المشركون من قريش".

عن سعيد بن جبير، قوله: {بِآيَاتِنَا} يعني: القرآن".

عن السدي: "أما آيات الله، فمحمد ﷺ".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا} [التغابن: ١٠]، أي:"أولئك أهل النار ماكثين فيها أبدًا".

قال الطبري:"يقول: ماكثين فيها أبدًا لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها".

قال السعدي:"الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه".

عن أبي مالك في قوله: {أَصْحَابُ النَّارِ}، يعذبون فيها".

عن أنس يرفعه قال: "المخلدون في النار في توابيت من حديد مطبقة".

قوله تعالى: {وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [التغابن: ١٠]، أي:"وساء المرجع الذي صاروا إليه، وهو جهنم".

قال الطبري:"يقول: وبئس الشيء الذي يُصَار إليه جهنم".

قال السعدي:"لأنها جمعت كل بؤس وشدة، وشقاء وعذاب".

قال ابن أبي نجيح:"مصير الكافر إلى النار".

ثم بين-سبحانه-أن كل شيء بقضائه وقدره فقال: (ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ).

=

=

والمراد بالمصيبة: الرزية والنكبة، وكل ما يسوء الإنسان في نفسه أو ماله أو ولده..
والمفعول محذوف، و «من» للتأكيد، ومُصِيبَةٍ فاعل.
أى: ما أصاب أحدا مصيبة في نفسه أو ماله أو ولده.. إلا بإذن الله تعاليوأمره وإرادته، لأن كل شيء بقضائه-سبحانه-وقدره.
قال القرطبي: قيل: سبب نزولها أن الكفار قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقا لصانهم الله تعاليعن المصائب.
فأنزل الله تعاليهذه الآية للرد على المشركين، ولبيان أن كل شيء بإرادته-سبحانه-.
ثم بين-سبحانه-أن الإيمان الحق يعين على استقبال المصائب بصبر جميل فقال: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) أى: ومن يؤمن بالله تعاليإيمانا حقا يهد قلبه الى الصبر الجميل، وإلى الاستسلام لقضائه-سبحانه-لأن إيمانه الصادق يجعله يعتقد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، والله تعاليعليم بكل شيء، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.
قوله تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ} [التغابن: ١١].
قال الفراء:"يريد: إلا بأمر الله".
قال الثعلبي:"بإرادته وقضائه".
قال ابن عباس:"بأمر الله". قال ابن كثير:"يعني: عن قدره ومشيئته".
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: لم يصب أحدًا من الخلق مصيبة إلا بقضاء الله وتقدير ذلك عليه".
قال ابن جزي:"يحتمل أن يريد بالمصيبة الرزايا، وخصها بالذكر لأنها أهم على الناس. أو يريد جميع الحوادث من خير أو شر وبإذن الله عبارة عن قضائه وإرادته تعالى".

=

=

قال السعدي:"هذا عام لجميع المصائب، في النفس، والمال، والولد، والأحباب، ونحوهم، فجميع ما أصاب العباد، فبقضاء الله وقدره، قد سبق بذلك علم الله تعالى، وجرى به قلمه، ونفذت به مشيئته، واقتضته حكمته".

قوله تعالى: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} [التغابن: ١١]، أي:"ومَن يؤمن بالله يهد قلبه للتسليم بأمره والرضا بقضائه، ويهده لأحسن الأقوال والأفعال والأحوال".

وفي قوله تعالى: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} [التغابن: ١١]، وجوه من التفسير:

أحدها: يعني: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه. قاله ابن عباس.

وذكر الأزهري في كتابه أن معنى قوله: {يَهْدِ قَلْبَهُ}، أي: "يجعله مهتديا، وقد أيد هذا القول ما حكي عن ابن جريج أنه قال: من عرف الله فهو مهتدي القلب".

الثاني: يعني: يسترجع، يقول: {إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: ١٥٦]. قاله سعيد بن جبير، ومقاتل بن حيان، والفراء.

قال يحيى بن سلام: "هدى يعني التوفيق.. يعني: يوفِّق قلبه إلى الاسترجاع عند المصيبة فسلَّم ورضي وعرف أَنها من الله".

قال البيضاوي:"يهد قلبه للثبات والاسترجاع عند حلولها".

وفي الحديث المتفق عليه: "عجبًا للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته ضَرَّاء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سَرَّاء شكر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن".

عن عبادة بن الصامت يقول: إن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: "إيمان بالله، وتصديق به، وجهاد في سبيله". قال: أريد أهونَ من هذا يا رسول الله. قال: "لا تتهم الله في شيء، قضى لك به".

الثالث: هو إذا ابتلي صبر، وإذا أنعم عليه شكر وإذا ظُلم غفر، قاله مجاهد،

=

=

والكلبي.

قال ابن قتيبة:"يقال:"إذا ابتُليَ صبرَ، وإذا أُنعِم عليه شكَر، وإذا ظُلم غفَر".

قال الفراء: "يقال: يهد قلبه إِذَا ابتُلي صبر، وإذا أُنعم عَلَيْهِ شكر، وإذا ظُلِمَ غفر، فذلك قوله يهد قلبه".

الرابع: أنه يعلم أنه من عند الله ويرضى ويسلّم، قاله علقمة بن قيس، وسعيد بن جبير.

قال علقمة بن قيس:"هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيسلم ذلك ويرضى".

قال الطبري:"يقول: ومن يصدّق بالله فيعلم أنه لا أحد تصيبه مصيبة إلا بإذن الله بذلك يهد قلبه: يقول: يوفِّق الله قلبه بالتسليم لأمره والرضا بقضائه".

قال ابن أبي زمنين:"أي: إذا أصابته مصيبة سلم ورضي، وعرف أنها من الله".

قال سهل بن عبد الله:"يؤمن بالله أن بلواه من الله يهد قلبه لانتظار الفرج منه".

قال مقاتل:"يعني: ومن يصدق بالله في المصيبة، ويعلم أن المصيبة من الله ويسلم لأمر الله يهده الله تعاليللاسترجاع، فذلك قوله: {يَهْدِ قَلْبَهُ} للاسترجاع. يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون، وفى سورة البقرة يقول {أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة: ١٥٧]، للاسترجاع".

قال ابن كثير:"أي: ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعَوَّضه عما فاته من الدنيا هُدى في قلبه، ويقينا صادقًا، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيرًا منه".

قال أبو بكر الورّاق: " {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ} عند النعمة والرخاء، فيعلم أنّها من فضل الله {يَهْدِ قَلْبَهُ} للشكر، {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ} عند الشدّة والبلاء فيعلم أنّها من عند الله {يَهْدِ قَلْبَهُ} للرضا والصبر".

=

=

وقال أبو عثمان الجيري: "ومن صحّ إيمانه يَهْدِ قَلْبَهُ لاتباع السنّة".
قال ابن جزي:"قيل: معناه من يؤمن بأن كل شيء بإذن الله يهد الله قلبه للتسليم والرضا بقضاء الله، وهذا أحسن إلا أن العموم أحسن منه".
قال السعدي:"والشأن كل الشأن، هل يقوم العبد بالوظيفة التي عليه في هذا المقام، أم لا يقوم بها؟ فإن قام بها، فله الثواب الجزيل، والأجر الجميل، في الدنيا والآخرة، فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك، وسلم لأمره، هدى الله قلبه، فاطمأن ولم ينزعج عند المصائب، كما يجري لمن لم يهد الله قلبه، بل يرزقه الثبات عند ورودها والقيام بموجب الصبر، فيحصل له بذلك ثواب عاجل، مع ما يدخر الله له يوم الجزاء من الثواب كما قال تعالى: {إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ} وعلم من هذا أن من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب، بأن لم يلحظ قضاء الله وقدره، بل وقف مع مجرد الأسباب، أنه يخذل، ويكله الله إلى نفسه، وإذا وكل العبد إلى نفسه، فالنفس ليس عندها إلا الجزع والهلع الذي هو عقوبة عاجلة على العبد، قبل عقوبة الآخرة، على ما فرط في واجب الصبر. هذا ما يتعلق بقوله: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} في مقام المصائب الخاص، وأما ما يتعلق بها من حيث العموم اللفظي، فإن الله أخبر أن كل من آمن أي: الإيمان المأمور به، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وصدق إيمانه بما يقتضيه الإيمان من القيام بلوازمه وواجباته، أن هذا السبب الذي قام به العبد أكبر سبب لهداية الله له في أحواله وأقواله، وأفعاله وفي علمه وعمله، وهذا أفضل جزاء يعطيه الله لأهل الإيمان، كما قال تعالى في الأخبار: أن المؤمنين يثبتهم الله في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأصل الثبات: ثبات القلب وصبره، ويقينه عند ورود كل فتنة، فقال: {يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ} فأهل الإيمان أهدى الناس قلوبًا، وأثبتهم عند المزعجات
=

=

والمقلقات، وذلك لما معهم من الإيمان".

وقرأ عكرمة: «يَهْد قَلْبُهُ»، بفتح الدال ورفع قلبه على أن الأصل فيه يهدى قلبه، من الهدوء أي: يسكن ويطمئن، فأبدل من الهمزة ألفا ثمّ حذفها للجزم.

وهداية الله تعالى للإنسان على أربعة أوجه:

الأوّل: الهداية التي عمّ بجنسها كلّ مكلّف من العقل، والفطنة، والمعارف الضّروريّة التي أعمّ منها كلّ شيء بقدر فيه حسب احتماله كما قال: {رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى} [طه: ٥٠].

الثاني: الهداية التي جعل للناس بدعائه إيّاهم على ألسنة الأنبياء، وإنزال القرآن ونحو ذلك، وهو المقصود بقوله تعالى: {وَجَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا} [الأنبياء: ٧٣].

الثالث: التّوفيق الذي يختصّ به من اهتدى، وهو المعنيّ بقوله تعالى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً} [محمد: ١٧]، وقوله: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} [التغابن: ١١]، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ} [يونس: ٩]، وقوله: {وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا} [العنكبوت: ٦٩]، {وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً} [مريم: ٧٦]، {فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا} [البقرة: ٢١٣]، {وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: ٢١٣].

الرّابع: الهداية في الآخرة إلى الجنّة المعنيّ بقوله: {سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ} [محمد: ٥]، {وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ} [الأعراف: ٤٣] إلى قوله: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا} [الأعراف: ٤٣].

وهذه الهدايات الأربع مترتّبة، فإنّ من لم تحصل له الأولى لا تحصل له الثّانية بل لا يصحّ تكليفه، ومن لم تحصل له الثّانية لا تحصل له الثّالثة والرّابعة، ومن حصل له الرّابع فقد حصل له الثلاث التي قبلها، ومن حصل له الثالث فقد حصل

=

=

له اللّذان قبله. ثمّ ينعكس، فقد تحصل الأولى ولا يحصل له الثاني ولا يحصل الثالث، والإنسان لا يقدر أن يهدي أحدا إلّا بالدّعاء وتعريف الطّرق دون سائر أنواع الهدايات، وإلى الأوّل أشار بقوله: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: ٥٢]، {يَهْدُونَ بِأَمْرِنا} [السجدة: ٢٤]، {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ} [الرعد: ٧]، أي: داع، وإلى سائر الهدايات أشار بقوله تعالى: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} [القصص: ٥٦] وكلّ هداية ذكر الله ﷻ أنه منع الظالمين والكافرين فهي الهداية الثالثة، وهي التّوفيق الذي يختصّ به المهتدون، والرّابعة التي هي الثّواب في الآخرة، وإدخال الجنّة. نحو قوله ﷻ : {كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً} [آل عمران: ٨٦]، إلى قوله: {وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [آل عمران: ٨٦] وكقوله: {ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَياةَ الدُّنْيا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ} [النحل/ ١٠٧]، وكلّ هداية نفاها الله عن النبيّ ﷺ وعن البشر، وذكر أنهم غير قادرين عليها فهي ما عدا المختصّ من الدّعاء وتعريف الطريق، وذلك كإعطاء العقل، والتّوفيق، وإدخال الجنة، كقوله عزّ ذكره: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ} [البقرة: ٢٧٢]، {وَلَوْ شاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدى} [الأنعام: ٣٥]، {وَما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ} [النمل: ٨١]، {إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ} [النحل: ٣٧]، {وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ} [الزمر: ٣٦]، {وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُضِلٍّ} [الزمر: ٣٧]، {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ} [القصص: ٥٦] وإلى هذا المعنى أشار بقوله تعالى: {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [يونس: ٩٩]، وقوله: {مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ} [الإسراء/ ٩٧]، أي: طالب الهدى ومتحرّيه هو الذي يوفّقه ويَهْدِيهِ إلى طريق الجنّة لا من ضادّه، فيتحرّى طريق الضّلال والكفر كقوله: {وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ} [التوبة: ٣٧]، وفي أخرى: {الظَّالِمِينَ} [التوبة:

=

=

١٠٩]، وقوله: {إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفَّارٌ} [الزمر: ٣] الكاذب الكفّار: هو الذي لا يقبل هدايته، فإنّ ذلك راجع إلى هذا وإن لم يكن لفظه موضوعا لذلك، ومن لم يقبل هِدَايَتَهُ لم يهده، كقولك: من لم يقبل هَدِيَّتِي لم أهد له، ومن لم يقبل عطيّتي لم أعطه، ومن رغب عنّي لم أرغب فيه، وعلى هذا النحو: {وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [التوبة: ١٠٩] وفي أخرى: {الْفاسِقِينَ} [التوبة: ٨٠] وقوله: {أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى} [يونس: ٣٥]، وقد قرئ: «يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى»، أي: لا يهدي غيره ولكن يهدى. أي: لا يعلم شيئا ولا يعرف أي لا هداية له، ولو هدي أيضا لم يهتد، لأنها موات من حجارة ونحوها، وظاهر اللّفظ أنه إذا هدي اهْتَدَى لإخراج الكلام أنها أمثالكم كما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ} [الأعراف: ١٩٤] وإنّما هي أموات، وقال في موضع آخر: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلا يَسْتَطِيعُونَ} [النحل: ٧٣]، وقوله ﷻ: {إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ} [الإنسان: ٣]، {وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ} [البلد: ١٠]، {وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الصافات: ١١٨] فذلك إشارة إلى ما عرّف من طريق الخير والشّرّ، وطريق الثواب والعقاب بالعقل والشرع وكذا قوله: {فَرِيقاً هَدى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ} [الأعراف: ٣٠]، {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ} [القصص: ٥٦]، {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} [التغابن: ١١] فهو إشارة إلى التّوفيق الملقى في الرّوع فيما يتحرّاه الإنسان وإياه عنى بقوله ﷻ: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً} [محمد: ١٧] وعدّي الهِدَايَةُ في مواضع بنفسه، وفي مواضع باللام، وفي مواضع بإلى، قال تعالى: {وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ} [آل عمران: ١٠١]، {وَاجْتَبَيْناهُمْ وَهَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأنعام: ٨٧] وقال: {أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ}

=

=

[يونس: ٣٥]، وقال: {هَلْ لَكَ إِلى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلى رَبِّكَ فَتَخْشى} [النازعات: ١٨ -١٩].

وما عدّي بنفسه نحو: {وَلَهَدَيْناهُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً} [النساء: ٦٨]، {وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الصافات: ١١٨]، {اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ [الفاتحة: ٦]، {أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ} [النساء/ ٨٨]، {وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً} [النساء: ١٦٨]، {أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ} [يونس: ٤٣]، {وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً} [النساء: ١٧٥].

قوله تعالى: {وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [التغابن: ١١]، أي:"والله بكل شيء عليم، لا يخفى عليه شيء من ذلك".

قال الطبري:"يقول: والله بكل شيء ذو علم بما كان ويكون وما هو كائن من قبل أن يكون".

قال سعيد بن جبير:"{عليم} يعني: عالما بها".

قال محمد بن إسحاق:"عليم بما يخفون".

ثم ختم-سبحانه-هذه الآيات الكريمة بحض الناس على الطاعة والإخلاص في العبادة، وحذرهم من اقتراف المعاصي فقال: (وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّما عَلى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ) أى: وعليكم-أيها الناس-أن تطيعوا الله تعاليطاعة تامة، وأن تطيعوا رسوله في كل ما يأمركم به أو ينهاكم عنه.

فإن أعرضتم عن ذلك، وانصرفتم عما أمرناكم به أو نهيناكم عنه فلا ضرر على رسولنا بسبب إعراضكم لأن حسابكم وجزاءكم علينا يوم القيامة، وليس على رسولنا ﷺ بالنسبة لكم سوى البلاغ الواضح البين، بحيث لا يترك بابا من أبواب الخير إلا ويبينه لكم، ولا يترك بابا من أبواب الشر إلا وحذركم منه.

قوله (اللهُ تعاليلا إِلهَ إِلَّا هُوَ أى: هو المستحق للعبادة دون غيره، فأخلصوا له هذه

=

العبادة والطاعة وَعَلَى اللهِ تعاليوحده فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ أى: فليفوضوا أمورهم إليه، وليعقدوا رجاءهم عليه فهو-سبحانه-صاحب الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين.

قوله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} [التغابن: ١٢].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {وَأَطِيعُوا اللهَ} أيها الناس في أمره ونهيه {وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} ﷺ".

قال ابن كثير:"أمرٌ بطاعة الله ورسوله فيما شرع، وفعل ما به أمر وترك ما عنه نهى وزجر".

قال السعدي:"أي: في امتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، فإن طاعة الله وطاعة رسوله، مدار السعادة، وعنوان الفلاح".

قال عطاء بن ابي رباح:"طاعة الله: إتباع كتابه، وطاعة الرسول: اتباع سنته.

قوله تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} [التغابن: ١٢]، أي:"فإن أعرضتم عن طاعة الله ورسوله، فليس على رسولنا ضرر في إعراضكم، وإنما عليه أن يبلغكم ما أرسل به بلاغًا واضح البيان".

قال الطبري: يقول:"فإن أدبرتم عن طاعة الله وطاعة رسوله مستكبرين عنها، فلم تطيعوا الله ولا رسوله {فَإِنَّمَا} فليس {عَلَى رَسُولِنَا} محمد إلا {الْبَلاغُ الْمُبِينُ} أنه بلاغ إليكم لما أرسلته به يقول جلّ ثناؤه: فقد أعذر إليكم بالإبلاغ والله وليّ الانتقام ممن عصاه، وخالف أمره، وتولى عنه".

قال ابن كثير:"أي: إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حُمِّل من البلاغ، وعليكم ما حُمِّلْتم من السمع والطاعة".

قال السعدي:"{فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ} أي عن طاعة الله وطاعة رسوله، {فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ} أي: يبلغكم ما أرسل به إليكم، بلاغًا يبين لكم ويتضح وتقوم

=

عليكم به الحجة، وليس بيده من هدايتكم، ولا من حسابكم من شيء، وإنما يحاسبكم على القيام بطاعة الله وطاعة رسوله، أو عدم ذلك، عالم الغيب والشهادة".

قال الزمخشري: "{فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ} فلا عليه إذا توليتم، لأنه لم يكتب عليه طاعتكم، إنما كتب عليه أن يبلغ ويبين فحسب".

قال الزهري: "من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم".

قوله تعالى: {اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [التغابن: ١٣].

قال الطبري: يقول جلّ ثناؤه: معبودكم أيها الناس معبود واحد لا تصلح العبادة لغيره ولا معبود لكم سواه".

قال ابن كثير: "خَبَرٌ عن التوحيد، ومعناه معنى الطلب، أي: وحدوا الإلهية له، وأخلصوها لديه".

قال السعدي: "أي: هو المستحق للعبادة والألوهية، فكل معبود سواه فباطل".

عن محمد بن إسحاق: "{لا إله إلا هو}، قال: ليس معه غيره شريكا في أمره".

عن كعب، قال: " {لا إله إلا الله}: كلمة الإخلاص".

قوله تعالى: {وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [التغابن: ١٣]، أي: "وعلى الله فليعتمد المؤمنون بوحدانيته في كل أمورهم".

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: وعلى الله أيها الناس فليتوكل المصدّقون بوحدانيته".

قال ابن كثير: أي: "وتوكلوا عليه، كما قال تعالى: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلا} [المزمل: ٩]".

قال السعدي: "أي: فيلعتمدوا عليه في كل أمر نابهم، وفيما يريدون القيام به، فإنه لا يتيسر أمر من الأمور إلا بالله، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاعتماد على الله، ولا يتم

=

=

الاعتماد على الله، حتى يحسن العبد ظنه بربه، ويثق به في كفايته الأمر الذي اعتمد عليه به، وبحسب إيمان العبد يكون توكله، فكلما قوي الإيمان قوي التوكل".

قال الزمخشري:"بعث لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم على التوكل عليه والتقوّى به في أمره، حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه".

قال ابن إسحاق: " {وَعَلَى اللهِ}، أي: لا على الناس فليتوكل المؤمنون".

قال محمد بن إسحاق: يقول الله تعالى: {وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}، أي: من كان به ضعف من المؤمنين أو وهن، فليتوكل علي أعنه على أمره وأدفع عنه، حتى أبلغ به وأقويه على نيته".

والتوكل: "هو الاعتماد على الله. قال تعالى: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ} التوكل على الله في تحصيل المنافع أو حفظها بعد حصولها، وفي دفع المضرات ورفعها بعد وقوعها، وهو من أعلى المقامات لوجهين: أحدهما قوله إن الله يحب المتوكلين، والآخر الضمان الذي في قوله: ومن يتوكل على الله فهو حسبه، وقد يكون واجبا لقوله تعالى: {وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} فجعله شرطا في الإيمان، والظاهر قوله جل جلاله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون، فإن الأمر محمول على الوجوب".

واعلم أن الناس في التوكل على ثلاث مراتب:

الأولى: أن يعتمد العبد على ربه، كاعتماد الإنسان على وكيله المأمون عنده الذي لا يشك في نصيحته له، وقيامه بمصالحه.

الثانية: أن يكون العبد مع ربه كالطفل مع أمه، فإنه لا يعرف سواها، ولا يلجأ إلا إليها.

الثالثة: أن يكون مع ربه، كالميت بين يدي الغاسل قد أسلم نفسه إليه بالكلية.

فصاحب الدرجة الأولى له حظ من النظر لنفسه بخلاف صاحب الثانية، وصاحب

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤).

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} أَنْ تُطِيعُوهُمْ فِي التَّخَلُّف عَنْ الْخَيْر كَالْجِهَادِ وَالْهِجْرَة فَإِنَّ سَبَب نُزُول الْآيَة الْإِطَاعَة فِي ذَلِكَ {وَإِنْ تَعْفُوا} عَنْهُمْ فِي تَثْبِيطهمْ إِيَّاكُمْ عَنْ ذَلِكَ الْخَيْر معتلين بمشقة فراقكم عليهم {وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم}.

إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥).

{إِنَّمَا أَمْوَالكُمْ وَأَوْلَادكُمْ فِتْنَة} لَكُمْ شَاغِلَة عَنْ أُمُور الْآخِرَة {وَاَللهُ عِنْده أَجْر عَظِيم} فَلَا تَفُوتُوهُ بِاشْتِغَالِكُمْ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَاد.

فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦).

{فَاتَّقُوا الله مَا اسْتَطَعْتُمْ} نَاسِخَة لِقَوْلِهِ {اتَّقُوا الله حَقّ تُقَاته} {وَاسْمَعُوا} مَا أُمِرْتُمْ بِهِ سماع قبول {وأطيعوا الله وَأَنْفِقُوا} فِي الطَّاعَة {خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ} خَبَر يَكُنْ مُقَدَّرَة جَوَاب الْأَمْر {وَمَنْ يُوقَ شُحّ نَفْسه فَأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ}

=

الثانية له حظ من المراد والاختبار بخلاف صاحب الثالثة، وهذه الدرجات مبنية على التوحيد الخالص الذي في قوله ﷻ: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} الواحد له ثلاثة معان كلها صحيحة في حق الله تعالى: أحدها أنه لا ثاني له، فهو نفي للعدد، والآخر أنه لا شريك له، والثالث أنه لا يتبعض، ولا ينقسم.

وبيّن أهل العلم: أن تحقيق التوكل لا ينافي السعي في الأسباب التي قدر الله سبحانه المقدورات بها وجرت سنته في خلقه بها.

الْفَائِزُونَ.

إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧).

{إِنْ تُقْرِضُوا الله قَرْضًا حَسَنًا} بِأَنْ تَتَصَدَّقُوا عَنْ طِيب قَلْب {يُضَاعِفهُ لَكُمْ} وَفِي قِرَاءَة يُضَعِّفهُ بِالتَّشْدِيدِ بِالْوَاحِدَةِ عَشْرًا إِلَى سَبْعمِائَةٍ وَأَكْثَر {وَيَغْفِر لَكُمْ} مَا يَشَاء {وَاَللَّه شَكُور} مُجَازٍ عَلَى الطَّاعَة {حَلِيم} فِي الْعِقَاب عَلَى الْمَعْصِيَة.

عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨).

{عَالِم الْغَيْب} السِّرّ {وَالشَّهَادَة} الْعَلَانِيَة {الْعَزِيز} فِي ملكه {الحكيم} في صنعه[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وسأله رجل عن هذه الآية: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤)}؛ قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله ﷺ، فلما أتوا رسول الله ﷺ؛ رأوا الناس قد فقهوا في الدين؛ هموا أن يعاقبوهم؛ فأنزل الله عز وجل: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤)}.

أخرجه الترمذي (٣٣١٧)، والطبري في تفسيره (٢٣/ ١٤)، والطبراني في الكبير (١١/ ٢٢)، والحاكم (٢/ ٤٩٠) والحديث قال عنه الترمذي: حسن صحيح، وصححه الحاكم، وأقره الذهبي، وقال العلامة الألباني في صحيح الترمذي (٢٦٤٢): حديث حسن، وأما العلامة الوادعي فقال في الصحيح المسند من أسباب النزول (ص ٢٥٢): والحديث يدور على سماك عن عكرمة ورواية سماك =

=

عن عكرمة مضطربة فالحديث ضعيف، وكذا قال صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٣/ ٣٢١)، وكذا قال الأرنؤوط هو ومن معه في تحقيق سنن الترمذي (٥/ ٥١٠).

وعن عكرمة في قوله: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ}؛ قال: كان الرجل يريد أن يأتي النبي ﷺ فيقول له أهله: أين تذهب وتدعنا؟ قال: وإذا أسلم وفقه؛ قال: لأرجعن إلى الذين كانوا ينهون عن هذا الأمر فلأفعلن ولأفعلن؛ فأنزل الله -جلّ ثناؤه-: {وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٨٠): ثنا هناد السري ثنا أبو الأحوص عن سماك عن عكرمة. وسنده ضعيف كسابقه.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ}: كان الرجل إذا أراد أن يهاجر من مكة إلى المدينة تمنعه زوجته وولده ولم يألوا يثبطوه عن ذلك، فقال الله: إنهم عدو لكم فاحذروهم واسمعوا وأطيعوا وامضوا لشأنكم، فكان الرجل بعد ذلك إذا منع وثبط؛ مر بأهله وأقسم، والقسم يمين: ليفعلن وليعاقبن أهله في ذلك؛ فقال الله -جلّ ثناؤه-: {وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٨٠، ٨١). وسنده ضعيف جداً؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وعن عطاء بن يسار؛ قال: نزلت سورة التغابن كلها بمكة إلا هؤلاء الآيات: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ}: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي كان ذا أهل وولد، فكان إذا أراد الغزو؛ بكوا إليه ورققوه، فقالوا: إلى من تدعنا؟ فيرق ويقيم؛ فنزلت: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ

=

=

أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} الآية كلها بالمدينة في عوف بن مالك وبقية الآيات.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٨١): ثنا ابن حميد ثنا سلمة ثني ابن إسحاق عن بعض أصحابه عنه به. وهذا سند ضعيف جداً؛ فيه علل:

الأولى: الإرسال.

الثانية: جهالة الأصحاب مع ملاحظة أن ابن إسحاق مدلس.

الثالثة: ابن حميد؛ ضعيف اتهم بالكذب.

وعن إسماعيل بن أبي خالد في قوله: {إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ}؛ قال: كان الرجل يسلم؛ فيلومه أهله وبنوه؛ فنزلت {إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٨١)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٨٨) من طريق محمد بن عمر بن علي المقدمي ثنا أشعث بن عبد الله ثنا شعبة عن إسماعيل به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن سعيد بن جبير في قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦)}؛ قال: لما نزلت هذه الآية؛ اشتد على القوم العمل؛ فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم؛ فأنزل الله تعاليهذه الآية تخفيفاً على المسلمين: {فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦)}؛ فنسخت الآية الأولى.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٤٠٢): ثنا أبو زرعة ثني يحيى بن عبد الله بن بكير ثني ابن لهيعة ثني عطاء بن دينار عن سعيد به. وهذا سند ضعيف؛ للضعف المعروف في ابن لهيعة، ويحيى ليس من قدماء

=

=
أصحابه.
ثم إن رواية عطاء عن سعيد من صحيفته؛ كما في "التقريب"، مع التذكير بأنه مرسل.
وعن قتادة: {فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦)}؛ قال: هي رخصة من الله، كان الله قد أنزل في سورة آل عمران: {اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [آل عمران: ١٠٢]، وحق تقاته: أن يطاع فلا يعصى، ثم خفف عن عباده؛ فأنزل الرخصة: {فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦)}؛ قال: والسمع والطاعة فيما استطعت يا ابن آدم عليها، بايع النبي ﷺ أصحابه على السمع والطاعة فيما استطاعوا.
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٨٦، ١٨٧) ونسبه لابن المنذر وعبد بن حميد.
وهو ضعيف؛ لإرساله.
* قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [التغابن: ١٤].
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله".
عن معن وعون، أو أحدهما: "أن رجلا أتى عبد الله بن مسعود فقال: أعهد إلي فقال: إذا سمعت الله يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا}، فأرعها سمعك، فإنه خير يأمره أو شر ينهى عنه".
قوله تعالى: {إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} [التغابن: ١٤]، أي:"إنَّ مِن أزواجكم وأولادكم أعداء لكم يصدونكم عن سبيل الله، ويثبطونكم عن طاعته، فكونوا منهم على حذر، ولا تطيعوهم".
قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد: إن منهم من هو عدو
=

=

الزوج والوالد، بمعنى: أنه يلتهى به عن العمل الصالح، كقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} [المنافقون: ٩]".

قال السعدي:"هذا تحذير من الله للمؤمنين، من الاغترار بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك الشر، ووظيفتك الحذر ممن هذه وصفه والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد، فنصح تعالى عباده أن توجب لهم هذه المحبة الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، ولو كان فيها ما فيها من المحذور الشرعي ورغبهم في امتثال أوامره، وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم المشتمل على المطالب العالية والمحاب الغالية، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية".

وفي قوله تعالى: {إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ} [التغابن: ١٤]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنه أراد قوماً أسلموا بمكة فأرادوا الهجرة فمنعهم أزواجهم وأولادهم منها وثبطوهم عنها، فنزل ذلك فيهم؛ قاله ابن عباس، وعكرمة.

قال ابن عباس:"كان الرجل إذا أراد أن يهاجر من مكة إلى المدينة تمنعه زوجته وولده، ولم يألُوا يثبطوه عن ذلك، فقال الله: إنهم عدوّ لكم فأحذروهم واسمعوا وأطيعوا، وامضُوا لشأنكم، فكان الرجل بعد ذلك إذا مُنع وثبط مرّ بأهله وأقسم، والقسم يمين ليفعلنّ وليعاقبنّ أهله في ذلك، فقال الله جلّ ثناؤه: {وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}".

قال عكرمة:"كان الرجل يريد أن يأتي النبيّ ﷺ فيقول له أهله: أين تذهب وتدعنا؟ قال: وإذا أسلم وفَقِه، قال: لأرجعنّ إلى الذين كانوا ينهون عن هذا الأمر فلأفعلنّ ولأفعلنّ، فأنزل الله جلّ ثناؤه: {وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ

=

=

رَحِيمٌ}".

قال الضحاك:"هذا في أناس من قبائل العرب كان يسلم الرجل أو النفر من الحيّ، فيخرجون من عشائرهم ويدعون أزواجهم وأولادهم وآباءهم عامدين إلى النبيّ ﷺ فتقوم عشائرهم وأزواجهم وأولادهم وآباؤهم، فيناشدونهم الله أن لا يفارقوهم، ولا يؤثروا عليهم غيرهم، فمنهم من يَرقّ ويرجع إليهم، ومنهم من يمضي حتى يلحق بنبيّ الله ﷺ".

وقال قتادة:"ينهون عن الإسلام، ويُبَطِّئُون عنه، وهم من الكفار فاحذروهم".

قال الطبري: أي: " يصدونكم عن سبيل الله، ويثبطونكم عن طاعة الله {فَاحْذَرُوهُمْ} أن تقبلوا منهم ما يأمرونكم به من ترك طاعة الله".

قال الفراء:"نزلت لما أمِر النَّاس بالهجرة من مكَّة إلى المدينة، فكان الرجل إِذَا أراد أن يهاجر تعلقت بِهِ امرأته وولده، فقالوا: أَيْنَ تضعنا، ولمن تتركنا؟ فيرحمهم، ويقيم متخلفًا عَنِ الهجرة".

الثاني: من أزواجكم وأولادكم من لا يأمر بطاعة الله ولا ينهى عن معصيته، قاله قتادة.

قال قتادة:"منهم من لا يأمر بطاعة الله، ولا ينهى عن معصيته، وكانوا يبطِّئون عن الهجرة إلى رسول الله ﷺ وعن الجهاد".

الثالث: أن منهم من يأمر بقطيعة الرحم ومعصية الرب، ولا يستطيع مع حبه ألاّ يطيعه، وهذا من العداوة؛ قاله مجاهد.

وقال مقاتل بن سليمان: "نبئت أن عيسى عليه السلام قال: من اتخذ أهلاً ومالاً وولداً كان للدنيا عبداً".

الرابع: أن منهم من هو مخالف للدين، فصار بمخالفة الدين عدواً، وهو معنى قول ابن زيد.

=

=

قال ابن زيد: "عدوّا لكم في دينكم، فاحذروهم على دينكم".

الخامس: من حملك من أزواجك وأولادك على جمع الدنيا والركون إليها فهو عدو لك، ومن حثك على بذلها وإنفاقها، وذلك على القناعة والتوكل فليس بعدو لك. قاله سهل.

قال سهل: "وحكي عن الحسن أنه قال: يا ابن آدم، لا يغرنك من حولك من السباع الضارية ابنك وحليلتك وكلالتك وخادمك، أما ابنك فمثل الأسد في الشدة والصولة، ينازعك فيما في يدك وأما حليلتك، فمثل الكلبة في الهرير والبصبصة، تهر أحيانـًا وتبصبص أحيانـًا وأما كلالتك، فو الله لدرهم يقع في ميراث أحدهم، أحب إليه من أن لو كنت أعتقت رقبة وأما خادمك، فمثل الثعلب في الحيل والسرقة.

وأقول لك يا ابن آدم، اتق الله، فلا توقر ظهرك بصلاحهم، فإنما لك خطوات إلى منزلك القابل لأربعة أذرع في ذراعين، فإذا وضعوك هناك انصرفوا عنك وصرفوا النيات، وضربوا الدفوف، وضحكوا بالقهقهة، وأنت تحاسب بما في أيديهم".

عبد الله بن بريدة، عن أبيه، قال: "رأيت رسول الله ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين رضي الله عنهما عليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان، فنزل رسول الله ﷺ فأخذهما فرفعهما فوضعهما في حِجْرِهِ ثم قال: "صَدَقَ الله ورَسُولُهُ: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ}، رأَيْتُ هَذْينِ فَلَمْ أَصْبِرْ، ثم أخذ في خطبته" اللفظ لأبي كريب عن زيد".

عن الأشعث بن قيس قال: «قدمت على رسول الله ﷺ في وفد كندة، فقال لي: "هل لك من ولد؟ " قلت: غلام ولد لي في مَخرجَي إليك من ابنة جمد، وَلَوَددْتُ أن بمكانه: شبَعَ القوم. قال: "لا تقولن ذلك، فإن فيهم قرة عين، وأجرًا إذا قبضوا"، ثم قال: "ولئن قلت ذاك: إنهم لمجبنة مَحْزنة"».

=

=

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: "الولد ثمرة القلوب، وإنهم مَجبنة مَبخلة محزنة". قال السمعاني:"معناه: أنه يحمل على البخل والجبن والحزن".

عن أبي مالك الأشعري؛ أن رسول الله ﷺ قال: "ليس عدوك الذي إن قتلته كان فوزًا لك، وإن قتلك دخلت الجنة، ولكن الذي لعله عدو لك ولدك الذي خرج من صلبك، ثم أعدى عدو لك مالُك الذي ملكت يمينك".

قوله تعالى: {وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التغابن: ١٤]، أي:"وإن تتجاوزوا عن سيئاتهم وتعرضوا عنها، وتستروها عليهم، فإن الله غفور رحيم، يغفر لكم ذنوبكم؛ لأنه سبحانه عظيم الغفران واسع الرحمة".

قال الطبري:"يقول: إن تعفوا أيها المؤمنون عما سلف منهم من صدّهم إياكم عن الإسلام والهجرة وتصفحوا لهم عن عقوبتكم إياهم على ذلك، وتغفروا لهم غير ذلك من الذنوب {فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} لكم لمن تاب من عباده، من ذنوبكم، {رَحِيمٌ} بكم أن يعاقبكم عليها من بعد توبتكم منها".

قال مقاتل:"ثم أمرهم بالعفو والصفح والتجاوز".

قال السعدي:"ولما كان النهي عن طاعة الأزواج والأولاد، فيما هو ضرر على العبد، والتحذير من ذلك، قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم، أمر تعالى بالحذر منهم، والصفح عنهم والعفو، فإن في ذلك، من المصالح ما لا يمكن حصره، فقال: {وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}، لأن الجزاء من جنس العمل.

فمن عفا عفا الله عنه، ومن صفح صفح الله عنه، ومن غفر غفر الله له، ومن عامل الله فيما يحب، وعامل عباده كما يحبون وينفعهم، نال محبة الله ومحبة عباده، واستوثق له أمره".

وقوله تعالى: (إِنَّمَا أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ).

=

=

تعميم بعد تخصيص، وتأكيد التحذير الذي اشتملت عليه الآية السابقة.

والمراد بالفتنة هنا: ما يفتن الإنسان ويشغله ويلهيه عن المداومة على طاعة الله تعالى.

أى: إن أموالكم وأولادكم-أيها المؤمنون-على رأس الأمور التي تؤدى المبالغة والمغالاة في الاشتغال بها، إلى التقصير في طاعة الله تعالى، وإلى مخالفة أمره. والإخبار عنهم بأنهم تْنَةٌ

للمبالغة، والمراد أنهم سبب للفتنة أى: لما يشغل عن رضاء الله وطاعته، إذا ما جاوز الإنسان الحد المشروع في الاشتغال بهما.

قال الآلوسى: قوله تعالى: نَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ

أى: بلاء ومحنة، لأنهم يترتب عليهم الوقوع في الإثم والشدائد الدنيوية وغير ذلك. وفي الحديث. يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيقال: أكل عياله حسناته.

قال الجمل: قال الحسن في قوله تعالى: إِنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ أدخل-سبحانه-مِنْ للتبعيض، لأنهم كلهم ليسوا بأعداء، ولم يذكر من في قوله نَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ

، لأنهما لا يخلوان من الفتنة، واشتغال القلب بهما، وقدم الأموال على الأولاد، لأن الفتنة بالمال أكثر. وترك ذكر الأزواج في الفتنة، لأن منهن من يكن صلاحا وعونا على الآخرة .

وقوله-سبحانه-: اللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ

معطوف على جملةنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ.

أى: والله تعاليعنده أجر عظيم، لمن آثر محبة الله تعاليوطاعته، على محبة الأزواج والأولاد والأموال.

قوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ} [التغابن: ١٥].

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ما أموالكم أيها الناس وأولادكم إلا فتنة، يعني: بلاء عليكم في الدنيا".

قال قتادة:"يقول: بلاء".

قال مقاتل:"يعنى: بلاء وشغل عن الآخرة".

قال ابن أبي زمنين:"أي: اختبار؛ لينظر كيف تعملون".

قال الثعلبي:"بلاء واختبار يحملكم على الكسب من الحرام والمنع عن الحقّ".

قال السمعاني:"أي: بلاء ومحنة، ومعنى البلاء والمحنة من الأموال والأولاد أنه يشتغل بهم عن طاعة الله تعالى، ويحمله طلب المال ورضا الأولاد على معصية الله تعالى".

قال ابن قتيبة:"أي: إغرامٌ؛ كما يقال: فُتِنَ فلان بالمرأة وشُغِفَ بها. وأصل «الفتنة»: البلوى والاختبار".

قال ابن كثير: " أي: اختبار وابتلاء من الله لخلقه. ليعلم من يطيعه ممن يعصيه".

قال سهل:"إن أعطاك الله المال تشاغلت بحفظه، وإن لم يعطك تشاغلت بطلبه، فمتى تتفرغ له".

قال الزمخشري:"إنّ من الأزواج أزواجا يعادين بعولتهنّ ويخاصمنهم ويجلبن عليهم، ومن الأولاد أولادا يعادون آباءهم ويعقونهم ويجرعونهم الغصص والأذى، {فَاحْذَرُوهُمْ} الضمير للعدوّ أو للأزواج والأولاد جميعا. أي: لما علمتم أن هؤلاء لا يخلون من عدوّ، فكونوا منهم على حذر ولا تأمنوا غوائلهم وشرهم".

وروى على بن معبد في «الطاعة والمعصية» عن إسحاق بن أبى يحيى عن عبد الملك عن بكير قال: «ينادى مناد يوم القيامة: أين الذين أكلت عيالهم حسناتهم قوموا فان قبلكم الانبعاث».

=

=

قال ابن زيد، في قوله: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَة} [الأنفال: ٢٨]، قال: " «فتنة»: الاختبار، اختبارُهم. وقرأ: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [سورة الأنبياء: ٣٥]".

قال عبد الله: "ما منكم من أحد إلا وهو مشتمل على فتنة، إن الله يقول: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ} [سورة الأنفال: ٢٨]، فليستعذ بالله من مُضِلات الفتن".

قالت الحكماء: "أدخل «من» التبعيض في ذكر الأزواج والأولاد حيث أخبر عن عداوتهم، لأنّ كلّهم ليسوا بأعداء ولم يذكر «من» في قوله: {إِنَّمَا أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ}، لأنّها لا تخلو عن الفتنة واشتغال القلب بها".

قوله تعالى: {وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ} [التغابن: ١٥]، أي:"والله عنده ثواب عظيم لمن آثر طاعته على طاعة غيره، وأدّى حق الله في ماله".

قال الطبري:"يقول: والله عنده ثواب لكم عظيم، إذا أنتم خالفتم أولادكم وأزواجكم في طاعة الله ربكم، وأطعتم الله ﷻ، وأدّيتم حقّ الله في أموالكم، والأجر العظيم الذي عند الله الجنة".

قال ابن كثير: " أي: يوم القيامة {أَجْرٌ عَظِيمٌ}".

قال الواحدي: أي: " ثواب جزيل وهو الجنة، والمعنى: لا تعصوه بسبب الأولاد، ولا تؤثروهم على ما عند الله من الأجر العظيم".

عن أبي هريرة: " {أَجْرٌ عَظِيمٌ}، قال: الجنة".

عن قتادة: " {وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}، وهي الجنة".

عن سعيد بن جبير في قول الله: {أَجْرٌ عَظِيمٌ}، يعني: جزاء وافرا".

والفاء في قوله-سبحانه-(فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) للإفصاح والتفريع على ما تقدم.

ومَا في قوله: مَا اسْتَطَعْتُمْ مصدرية ظرفية.

=

=

والمراد بالاستطاعة: نهاية الطاقة والجهد.

أى: إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من أن المؤمن الصادق في إيمانه هو الذي لا يشغله ماله أو ولده أو زوجه عن ذكر الله تعاليفابذلوا نهاية قدرتكم واستطاعتكم في طاعة الله تعاليوداوموا على ذلك في جميع الأوقات والأزمان.

وليس بين هذه الآية، وبين قوله تعالياتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ تعارض، لأن كلتا الآيتين تأمران المسلم بأن يبذل قصارى جهده، ونهاية طاقته، في المواظبة على أداء ما كلفه الله به، ولذلك فلا يصح قول من قال: إن الآية التي معنا نسخت الآية التي تقول: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ).

وحذف متعلق التقوى، لقصد التعميم، أى: فاتقوا الله مدة استطاعتكم في كل ما تأتون وما تذرون، واعلموا أنه تعالييُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ومن الأحاديث التي وردت في معنى الآية الكريمة، ما رواه البخاري عن جابر بن عبد الله قال: بايعت رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، فلقنني «فيما استطعت».

وعطف قوله تعاليوَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا على قوله فَاتَّقُوا اللهَ من باب عطف الخاص على العام، للاهتمام به.

أى: فاتقوا الله تعاليفي كل ما تأتون وما تذرون، واسمعوا ما يبلغكم إياه رسولنا عنا سماع تدبر وتفكر، وأطيعوه في كل ما يأمركم به أو ينهاكم عنه.

وَأَنْفِقُوا مما رزقكم الله تعاليمن خير، يكن ذلك الإنفاق خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ في دنياكم وفي آخرتكم.

قوله تعالى: (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ) أى: ومن يستطع أن يبعد نفسه عن الشح والبخل.

فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أى: الفائزون فوزا تاما لا نقص معه.

=

=

قولـه تعـالى: {فَـاتَّقُوا اللهَ مَـا اسْـتَطَعْتُمْ} [التغـابن: ١٦]، أي:"فابـذلوا -أيهـا المؤمنون-في تقوى الله جهدكم وطاقتكم".

قـال الطبـري:"يقـول تعـالى ذكـره: واحـذروا الله أيهـا المؤمنـون وخـافوا عقابـه، وتجنبوا عذابه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، والعمـل بمـا يقـرّب إليـه مـا أطقـتم وبلَغه وسعكم".

قال الزجاج:"أي: ما أمكنكم الجهاد والهجرة مع النبي ﷺ فَلاَ يَفْتننكُمْ الميل إلـى الأموال والأَوْلَادِ عن ذلك".

قال ابن أبي زمنين: {مَا اسْتَطَعْتُمْ}، أي:"" ما أطقتم".

قال الربيع: اتقوا الله جهدكم".

عن عُمارة المِعْوَلي، قال: "قلت للحسن [البصري]: قوله -ﷻ-: {فـاتقوا الله مـا استطعتم}؟ قال: تأتي أجْهَد جهدك".

قـال الزمخـشري:"{مَـا اسْـتَطَعْتُمْ}، جهـدكم ووسـعكم، أي: ابـذلوا فيهـا استطاعتكم".

قال ابن كثير:"أي: جهـدكم وطـاقتكم. كمـا ثبـت في الـصحيحين عـن أبـي هريـرة، رضي الله عنه، قـال: قـال رسـول الله ﷺ: "إذا أمـرتكم بـأمر فـائتوا منـه مـا اسـتطعتم، ومـا نهيتكم عنه فاجتنبوه» ".

قال ابن عطية:"قـال قتـادة وفريـق مـن النـاس: إن قولـه: {فَـاتَّقُوا اللهَ مَـا اسْـتَطَعْتُمْ} ناسخ لقوله: {اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ} [آل عمران: ١٠٢]، وروي أن الأمر بحق التقاة نزل، فشق ذلك على النـاس حتـى نـزل: {مَـا اسْـتَطَعْتُمْ}، وذهبـت فرقـة مـنهم أبـو جعفر النحـاس إلـى أنـه لا نـسخ في الآيتين، وأن قولـه: {حَـقَّ تُقاتِـهِ} [آل عمـران: ١٠٢] مقصده «فيما استطعتم»، ولا يعقـل أن يطيـع أحـد فـوق طاقتـه واسـتطاعته، فهذه على هذا التأويل مبينة لتلك، وتحتمل هذه الآية أن يكون: {فَـاتَّقُوا اللهَ} مـدة

=

=

استطاعتكم التقوى، وتكون: {مَا} ظرفا للزمان كله كأنه يقول: حياتكم وما دام العمل ممكنا".

عن سعيد بن جبير في قوله:" {اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} قال: لما نزلت الآية اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم، فأنزل الله تخفيفًا على المسلمين: {فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} فنسخت الآية الأولى".

عن قتادة، في قوله: " {اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}، قال: نسختها: {فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}".

عن قتادة، قوله: " {فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا}، هذه رخصة من الله، والله رحيم بعباده، وكان الله جلّ ثناؤه أنزل قبل ذلك: {اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ}، وحقّ تقاته أن يُطاع فلا يعصى، ثم خفَّف الله تعالى ذكره عن عباده، فأنزل الرخصة بعد ذلك فقال: {فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا}، فيما استطعت يا ابن آدم، عليها بايع رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فيما استطعتم".

قوله تعالى: {وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا} [التغابن: ١٦]، أي:"واسمعوا لرسول الله ﷺ سماع تدبُّر وتفكر، وأطيعوا أوامره واجتنبوا نواهيه".

قال الطبري:"يقول: واسمعوا لرسول الله ﷺ، وأطيعوه فيما أمركم به ونهاكم عنه".

قال الزمخشري:"{وَاسْمَعُوا} ما توعظون به، {وَأَطِيعُوا} فيما تأمرون به وتنهون عنه".

قال السعدي: " {وَاسْمَعُوا} أي: اسمعوا ما يعظكم الله به، وما يشرعه لكم من الأحكام، واعلموا ذلك وانقادوا له {وَأَطِيعُوا} الله ورسوله في جميع أموركم".

قال ابن كثير:"أي: كونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله، ولا تحيدوا عنه يمنة

=

=

ولا يسرة، ولا تقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا تتخلفوا عما به أمرتم، ولا تركبوا ما عنه زُجرتم".

قال القرطبي:"وقد تغلغل في هذه الآية الحجاج حين تلاها وقصرها على عبد الملك بن مروان فقال: {فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا} هي لعبد الملك بن مروان أمين الله وخليفته، ليس فيها مثنوية، والله لو أمرت رجلا أن يخرج من باب المسجد فخرج من غيره لحل لي دمه. وكذب في تأويلها بل هي للنبي ﷺ أولا ثم لأولي الأمر من بعده. دليله: {وأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} [النساء: ٥٩]".

قوله تعالى: {وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ} [التغابن: ١٦]، أي:"، وأنفقوا مما رزقكم الله يكن خيرًا لكم".

قال الطبري:"يقول: وأنفقوا مالا من أموالكم لأنفسكم تستنقذوها من عذاب الله، والخير في هذا الموضع المال".

قال ابن كثير:"أي: وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحَاجات، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن إليكم، يكن خيرًا لكم في الدنيا والآخرة، وإن لا تفعلوا يكن شرًّا لكم في الدنيا والآخرة".

قال السعدي: " {وَأَنْفِقُوا} من النفقات الشرعية الواجبة والمستحبة، يكن ذلك الفعل منكم خيرًا لكم في الدنيا والآخرة، فإن الخير كله في امتثال أوامر الله تعالى وقبول نصائحه، والانقياد لشرعه، والشر كله، في مخالفة ذلك".

قال الزمخشري:"{خَيْراً لِأَنْفُسِكُمْ} نصب بمحذوف، تقديره: ائتوا خيرا لأنفسكم، وافعلوا ما هو خير لها وأنفع، وهذا تأكيد للحث على امتثال هذه الأوامر، وبيان لأنّ هذه الأمور خير لأنفسكم من الأموال والأولاد وما أنتم عاكفون عليه من حب الشهوات وزخارف الدنيا".

=

=

قوله تعالى: {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [التغابن: ١٦]، أي:"ومن سَلِم من البخل ومَنْعِ الفضل من المال، فأولئك هم الظافرون بكل خير، الفائزون بكل مطلب".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ومن يَقِه الله شحَ نفسه، وذلك اتباع هواها فيما نهى الله عنه، فهؤلاء الذين وُقُوا شحّ أنفسهم، المُنجحون الذين أدركوا طلباتهم عند ربهم".

قال السعدي: " فمن وقاه الله شر شح نفسه بأن سمحت نفسه بالإنفاق النافع لها {فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} لأنهم أدركوا المطلوب، ونجوا من المرهوب، بل لعل ذلك شامل لكل ما أمر به العبد، ونهي عنه، فإنه إن كانت نفسه شحيحة، لا تنقاد لما أمرت به، ولا تخرج ما قِبلها، لم يفلح، بل خسر الدنيا والآخرة، وإن كانت نفسه نفسًا سمحة، مطمئنة، منشرحة لشرع الله، طالبة لمرضاة، فإنها ليس بينها وبين فعل ما كلفت به إلا العلم به، ووصول معرفته إليها، والبصيرة بأنه مرض لله تعالى، وبذلك تفلح وتنجح وتفوز كل الفوز".

قال الحسن البصري: " {وأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ} إنها النفقة في سبيل الله".

قال ابن عُيَيْنَةَ: "الشُّح: الظلم".

قال السمعاني: " الشح: البخل، وقيل: هو أقبح البخل، وحقيقته: الحرص على منع الخير".

قال ابن عمر: "ليس الشّح أن يمنع الرجل ماله، وإنّما الشّح أن يطمع الرجل إلى ما ليس له".

عن ابن عباس، قوله: " {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ} ، يقول: هوى نفسه حيث يتبع هواه ولم يقبل الإيمان".

عن ابن مسعود: " {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ} ، قال: أن يعمد إلى مال غيره فيأكله".

=

=

عن عطاء:"{ومَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ}، قال: في النفقة".
ثم ختم-سبحانه-السورة الكريمة بالحض على الإنفاق في سبيله فقال: (إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً، يُضاعِفْهُ لَكُمْ).
أى: إن تبذلوا أموالكم في وجوه الخير التي يحبها الله تعالى، بذلا مصحوبا بالإخلاص وطيب النفس، يضاعف الله تعاليلكم ثواب هذا الإنفاق والإقراض بأن يجعل لكم الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.
وَيَغْفِرْ لَكُمْ فضلا عن ذلك ذنوبكم ببركة هذا الإنفاق الخالص لوجهه الكريم.
وَاللهُ شَكُورٌ أى: كثير الشكر لمن أطاعه حَلِيمٌ لا يعاجل بالعقوبة المذنبين.
عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ أى: هو-سبحانه-يعلم علما تاما ما كان خافيا عليكم وما كان ظاهرا لكم، وهو-ﷻ القوى الذي لا يغلبه غالب، الحكيم في كل أقواله وأفعاله.
قوله تعالى: {إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ} [التغابن: ١٧].
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وإن تنفقوا في سبيل الله، فتحسنوا فيها النفقة، وتحتسبوا بإنفاقكم الأجر والثواب يضاعف ذلك لكم ربكم، فيجعل لكم مكان الواحد سبع مئة ضعف إلى أكثر من ذلك مما يشاء من التضعيف".
قال ابن كثير:"أي: مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه، ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاؤه، ونزل ذلك منزلة القرض له، كما ثبت في الصحيح أن الله تعالى يقول: «من يقرض غير ظلوم ولا عديم»، ولهذا قال: {يُضَاعِفْهُ لَكُمْ} كما تقدم في سورة البقرة: {فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} [البقرة: ٢٤٥] ".
قال الزجاج:"فَاقترض ﷻ مما رزق وأعطى تفضلاً وامتحانا".
قال الزمخشري:"ذكر القرض: تلطف في الاستدعاء، {يُضاعِفْهُ لَكُمْ} يكتب لكم بالواحدة عشرا وأو سبعمائة إلى ما شاء من الزيادة".

=

=

قال السعدي: " رغب تعالى في النفقة فقال: {إِنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حَسَنًا} وهو كل نفقة كانت من الحلال، إذا قصد بها العبد وجه الله تعالى وطلب مرضاته، ووضعها في موضعها {يُضَاعِفْهُ لَكُمْ} النفقة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة".

قال الحسن البصري: "كلّ ما في القرآن مِن القرْض الحسن فهو التطُّوع".

قوله تعالى: {وَيَغْفِرْ لَكُمْ} [التغابن: ١٧]، أي:"ويغفر لكم ذنوبكم".

قال الطبري:"فيصفح لكم عن عقوبتكم عليها مع تضعيفه نفقتكم التي تنفقون في سبيله".

قال ابن كثير:"أي: ويكفر عنكم السيئات".

قال السعدي: أي:"بسبب الإنفاق والصدقة ذنوبكم، فإن الذنوب يكفرها الله بالصدقات والحسنات: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ}".

قال سلمة بن وهرام صاحب طاووس:"أن الله تبارك وتعالى إنما سمى نفسه «العفو»، ليعفو، و «الغفور»، ليغفر".

قوله تعالى: {وَاللهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ} [التغابن: ١٧]، أي:"والله شكور لأهل الإنفاق بحسن الجزاء على ما أنفقوا، حليم لا يعجل بالعقوبة على مَن عصاه".

قال الطبري:"يقول: والله ذو شكر لأهل الإنفاق في سبيله، بحسن الجزاء لهم على ما أنفقوا في الدنيا في سبيله، حليم عن أهل معاصيه بترك معاجلتهم بعقوبته".

قال الزجاج:"يَشْكُر لكم ما عملتم وَيحْلُم عنكم عند استِحقَاقِكم العقوبَةَ على ذنوبِكم".

قال ابن كثير:"{وَاللهُ شَكُورٌ}، أي: يجزي على القليل بالكثير {حليم}، أي: يعفو يصفح ويغفر ويستر، ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات".

قال ابن عطية:"قوله تعالى: {وَاللهُ شَكُورٌ} إخبار بمجرد شكره تعالى على الشيء

=

=

اليسير، وأنه قد يحط به عن من يشاء الحوب العظيم لا رب غيره".

قال السعدي:"لا يعاجل من عصاه، بل يمهله ولا يهمله، {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} والله تعالى شكور يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه الكثير من الأجر، ويشكر تعالى لمن تحمل من أجله المشاق والأثقال، وأنواع التكاليف الثقال، ومن ترك شيئًا لله، عوضه الله خيرًا منه".

قال الحسن:"الحليم: الرحيم".

عن قتادة:"{إنه كان حليما} عن خلقه، فلا يعجل كعجلة بعضهم على بعض".

قوله تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [التغابن: ١٨]، أي:"وهو سبحانه العالم بكل ما غاب وما حضر".

قال الطبري:"يقول: عالم ما لا تراه أعين عباده ويغيب عن أبصارهم وما يشاهدونه فيرونه بأبصارهم".

قال الزجاج:"يعلم ما تُكِّنه الصدورُ مما لا تعلمه الحفظة، ويعلم ما تسقط من وَرَقَةٍ

وما قَطَر مِنْ قَطْرِ المَطَرِ".

قال السعدي:"أي: ما غاب عن العباد من الجنود التي لا يعلمها إلا هو، وما يشاهدونه من المخلوقات".

قال الحسن: "الشهادة: ما قد رأيتم من خلقه، والغيب: ما غاب عنكم ما لم تروه".

قوله تعالى: {الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [التغابن: ١٨]، أي:"وهو سبحانه العالم بكل ما غاب وما حضر".

قال الطبري:"{الْعَزِيزُ}، يعني: الشديد في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره ونهيه،

=

=

{الْحَكِيمُ} في تدبيره خلقه، وصرفه إياهم فيما يصلحهم".

قال السعدي:" {الْعَزِيزُ} الذي لا يغالب ولا يمانع، الذي قهر كل الأشياء، {الْحَكِيمُ} في خلقه وأمره، الذي يضع الأشياء مواضعها".

قال محمد بن إسحاق: " العزيز: في نصرته ممن كفر به إذا شاء"، الحكيم: في عذره وحجته إلى عباده".

قال أبو العالية:" {عزيز} في نقمته إذا انتقم". وروي عن قتادة والربيع بن أنس نحو ذلك.

عن أبي العالية:" {حكيم}، قال: حكيم في أمره".

قال محمد بن جعفر بن الزبير" الحكيم في عذره، وحجته إلى عباده".

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها قوله تعالى: (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (التغابن: ١)، وقال تعالى بعد: (يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ) (التغابن: ٤) للسائل أن يسأل عن تكرر " ما " في أول السورة وتركها في الآية بعدها؟ وهل كانت الفائدة تحصل بعكس ذلك؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن الآيتين معـًا قصد بهما الاستيفاء والإحاطة بكل المسبحين وبما أحاط به علمه سبحانه، وقد اقترن بالآية الثانية واتصل بها قوله سبحانه: (ويعلم ما تسرون وما تعلنون) فحصل من ذلك إحاطة علمه سبحانه بما ظهر وما بطن وما اشتملت عليه السماوات والأرض، فلما اقترن بهذه الآية ما يعطى إحاطة علمه سبحانه بجزئيات " ما" في الجملة وأنه لا يغيب عنه شئ لم يحتج في قوله: (يلم ما في السموات والأرض) إلى إعادة " ما " لأن ذلك يكون كالتكرار الذي لا يحرز معنى.

وأما الآية الأولى فلم يقترن بها ما يعطى ملفوظًا به مع أنه قد قصدت الإحاطة،

=

فلم يكن بد من إعادة –ما –استئناف إحصاء وتأكيد، فلا يلائم كلا من الموضعين إلا ما ورد فيه.

الآية الثانية من سورة التغابن –قوله تعالى (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) (التغابن: ٩)، وفي سورة الطلاق: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) (الطلاق: ١١)، للسائل أن يسأل عن زيادة: "يكفر عنه سيئاته " في سورة التغابن ولم يرد في سورة الطلاق مع أن المقصود واحد في الآيتين؟

والجواب عنه، والله أعلم: أنه لما تقدم في سورة التغابن قوله تعالى مخبراً عن المكذبين: (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا) (التغابن: ٧)، وقوله تعالى على لسان نبيه صلي الله عليه وسلم: (بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ) (التغابن: ٧)، ثم قال تعالى: (فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (التغابن: ٨)، فأعلم تعالى بقوله (والله بما تعملون خبير) وبين أنه تعالى لا يخفى عليه شئ من أعمال المكلفين، وأن المنبأ به كل أعمالهم من غير فوات شيء، ثم ذكر تعالى جمعهم ليوم الجمع، ثم أنس المؤمنين فقال: " ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً "، وفي قوله تعالى: " ويعمل صالحاً " إشارة إلى المؤمنين الموعودين هنا، وليس من شرطهم استيفاء أعمال الطاعات إذ يحرز التنكير في قوله: " ويعمل صالحا" ويشعر بهذا المعنى، وما لم تكن العصمة فالتقصير حاصل، ولا انفكاك عن مجترجات، وقد سمع المؤمن " " لتنبؤون بما عملتم " فأشفق من تقصيره وهناته، وتوقع مخوف سيئاته، وتشوف إلى تعرف تفصيل الحال في المنبأ به من الأعمال ليعلم المآل، فوجوب على الكمال بكيفية ما به تقابل أعماله فقيل: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ) (التغابن: ٩) إذ لابد من محتاج إلى تكفيره إذا كانت السلامة وسبقت السعادة ثم قال: "ويدخله جنات تجري من

سورة الطلاق(١)

=

تحتها الأنهار" إلى آخر الآية، فهذا وجه زيادة قوله تعالى: "يكفر عنه سيئاته" في هذه الآية. ويشهد لهذا المفهوم قوله تعالى: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ) (الأنبياء: ٩٤) إلى غيرها من الآيات.

وأما آية الطلاق فلا داعي فيها إلى زيادة قوله: "يكفر عنه سيئاته" بل سياقها يستدعي ألا يكون ذلك فيها لأن قبلها: (فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) (الطلاق: ١٠)، والأمر بالتقوى يعم ولا يخص، ثم قال تعالى: (قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا) (الطلاق: ١٠ -١١) إلى قوله: (لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) (الطلاق: ١١)، أشار إلى النمط الأعلى من المؤمنين المستوفين أعمال الطاعات، أشار إلى ذلك لفظ: "الصالحات" بالألف واللام، وهذه حال المخلصين المحسنين (من المستجيبين)، ثم تدارك تعالى من لم يبلغ حال هؤلاء من المؤمنين ولحق بهم في النجاة فقال تعالى: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)، فناسب حال المتقدمين من ذوي الإحسان ألا يقع إفصاح يشعر بعصيان " هم القوم لا يشقي بهم جليسهم "، فوقع الاكتفاء بإيماء "ويعمل صالحاً " وقوله " يدخله جنات" وقوله: "قد أحسن الله له رزقا" (الطلاق: ١١) فجاء كل من الآيتين على ما يلائم ويناسب، ولم يكن ليناسب ورود العكس. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٧٥-٤٧٦).

(١) قال الفيروزآبادي:"السورة مدنية بالاتفاق".

وقال ابن عاشور:"هي مدنية بالاتفاق".

* آياتها خمس عشرة فى عَدّ البصرة، واثنتا عشرة عند الباقين. وكلماتها مائتان وأَربعون. وحروفها أَلْف وسِتُّون. والمختلف فيها ثلاث آيات: مخرجًا و

=

=

{واليوم الآخر} {ياأولي الألباب} فواصل آياتها على الألف.

* أسماء السورة:

• أولا:-اسمها التوقيفي: «سورة الطلاق»:

شاعت تسميتها في المصاحف وفي كتب التفسير وكتب السنة: سورة الطلاق ولم ترد تسميتها بهذا في حديث عن رسول الله ﷺ موسوم بالقبول.

وسميت سورة الطلاق، لأنها بيّنت احكام الطلاق والعدة فيها، وافتتحت بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} [الطلاق: ١]، قال المهايمي: سميت به لبيانها كيفية الطلاق السني وما يترتب عليه من العدة والنفقة والسكنى".

وتسمى «سورة النساء الصغرى» ذكر السيوطي في «الإتقان» أن عبد الله بن مسعود سماها سورة «النساء القصرى» أخذا مما أخرجه البخاري وغيره عن محمد بن سيرين، قال: "كنت في حلقة فيها عبد الرحمن بن أبي ليلى، وكان أصحابه يعظمونه، فذكروا له فذكر آخر الأجلين، فحدثت بحديث سبيعة بنت الحارث، عن عبد الله بن عتبة، قال: فضمز لي بعض أصحابه، قال محمد: ففطنت له فقلت: إني إذا لجريء إن كذبت على عبد الله بن عتبة وهو في ناحية الكوفة، فاستحيا وقال: لكن عمه لم يقل ذاك، فلقيت أبا عطية مالك بن عامر فسألته فذهب يحدثني حديث سبيعة، فقلت: هل سمعت عن عبد الله فيها شيئا؟ فقال: كنا عند عبد الله فقال: أتجعلون عليها التغليظ، ولا تجعلون عليها الرخصة، لنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى: {وَأُولاَتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} [الطلاق: ٤]".

وفي «الإتقان» أن الداودي أنكر أن تدعى هذه السورة بالقصرى للتنزه عن وصف القرآن بصفة نقص، وتعقبه ابن حجر بأنه ردّ للأخبار الثابتة بلا مستند، والقصر

=

=

والطول أمر نسبي، أي: ليس مشعرا بنقص على الإطلاق.

قال ابن عاشور:"وابن مسعود وصفها بالقصرى احترازا عن السورة المشهورة باسم سورة النساء التي هي السورة الرابعة في المصحف التي أولها: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [النساء: ١]. وأما قوله «الطولى» فهو صفة لموصوف محذوف، أي: بعد السورة الطولى، يعني: سورة البقرة، لأنها أطول سور القرآن، ويتعين أن ذلك مراده لأن سورة البقرة هي التي ذكرت فيها عدة المتوفى عنها. وقد يتوهم أن سورة البقرة تسمى سورة النساء الطولى من مقابلتها بسورة النساء القصرى في كلام ابن مسعود. وليس كذلك كما تقدم في سورة النساء".

ووجه تسميتها بسورة النساء القصرى، لأنها بيّنت بعض الأحكام الخاصة بالنساء وهي أحكام الطلاق وما يتعلق بها، وخصت بالقصرى تمييزا لها عن سورة النساء، وهذا الاسم من اجتهاد الصحابي ابن مسعود ﵁ إذ وصفها بالقصرى احترازا عن السورة المشهورة باسم النساء، وليس توقيفيّا من رسول الله ﷺ.

* معظم مقصود السّورة: بيان طلاق السُنَّة، وأَحكام العِدَّة، والتَّوكُّل على الله تعالى فى الأُمور، وبيان نفقة النِّساءِ حال الحمل والرّضاع، وبيان عُقُوبة المتعدِّين وعذابِهم، وأَنَّ التَّكليف على قَدْر الطاقة، وللصّالحين الثوابُ والكرامة، وبيان إِحاطة العلم، والقُدْرَة، فى قوله: {لتَعْلَمُوا} الآية.

* ومن المتشابِه: قولُه تعالى: {وَمَن يَتَّقِ الله يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً} أَمر بالتَّقوى فى أَحكام الطَّلاق ثلاث مرّات، ووعد فى كلِّ مرّة بنوع من الجزاءِ، فقال أَوّلاً: {يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً}: يُخرجه ممّا أُدخِل فيه وهو يكرهه، ويُتيح له محبوبه من حيث لا يأمُل. وقال فى الثانى: يسهّل عليه الصّعب من أَمره، ويُتيح له خيراً ممَّن طلَّقها. والثالث وَعَد عليه أَفضل الجزاءِ، وهو ما يكون فى الآخرة من النعماءِ. ا. هـ من

=

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١).

{يَا أَيّهَا النَّبِيّ} الْمُرَاد أُمَّته بِقَرِينَةِ مَا بَعْده أَوْ قُلْ لَهُمْ {إِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاء} أَيْ أَرَدْتُمْ الطَّلَاق {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} لِأَوَّلِهَا بِأَنْ يَكُون الطَّلَاق فِي طُهْر لَمْ تُمَسَّ فِيهِ لِتَفْسِيرِهِ ﷺ بِذَلِكَ رَوَاهُ الشَّيْخَانِ {وَأَحْصُوا الْعِدَّة} احْفَظُوهَا لِتُرَاجِعُوا قَبْل فَرَاغهَا {وَاتَّقُوا الله رَبّكُمْ} أَطِيعُوهُ فِي أَمْره وَنَهْيه {لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتهنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ} مِنْهَا حَتَّى تَنْقَضِي عِدَّتهنَّ {إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ} زِنَا {مُبَيَّنَة} بِفَتْحِ الْيَاء وَكَسْرهَا بُيِّنَتْ أَوْ بَيِّنَة فَيَخْرُجْنَ لِإِقَامَةِ الْحَدّ عَلَيْهِنَّ {وَتِلْكَ} الْمَذْكُورَات {حُدُود الله وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُود الله فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسه لَا تَدْرِي لَعَلَّ الله يُحْدِث بَعْد ذَلِكَ} الطَّلَاق {أَمْرًا} مُرَاجَعَة فِيمَا إِذَا كَانَ وَاحِدَة أَوْ اثْنَتَيْنِ(٢).

=

بصائر ذوي التمييز (١/ ٤٦٩).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) ذكر سبب النزول.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه؛ قال: طلق رسول الله ﷺ حفصة، فأتت أهلها؛ فأنزل الله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ}؛ فقيل له: راجعها؛ فإنها صوامة قوامة وهي من أزواجك ونسائك في الجنة.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٤٠٣): ثنا =

=

محمد بن ثواب بن سعيد ثنا أسباط بن محمد عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس به.

وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: قتادة مدلس وقد عنعن.

الثانية: سعيد بن أبي عروبة اختلط بآخره ولم يذكروا أسباطًا هل روى عنه قبل الاختلاط أم بعده؟ والراجح أنه روى عنه بعد الاختلاط؛ فقد ذكروا ناسًا أعلى طبقة من أسباط رووا عن سعيد بعد الاختلاط -والله أعلم-.

وخالف أسباطًا عبد الأعلي بن عبد الأعلى السامي -راوية سعيد-فرواه عن سعيد عن قتادة به مرسلاً لم يذكر أنسًا.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٨٥): ثنا ابن بشار ثنا عبد الأعلى به.

وهذا مرسل صحيح؛ رجاله ثقات رجال الصحيح، وسماع عبد الأعلى من سعيد قبل الاختلاط وقد أخرج الشيخان في "صحيحيهما" حديثه عنه.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: طلق عبد يزيد أبو ركانة، ثم نكح امرأة من مزينة، فجاءت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله! ما يغني عني إلا ما تغني هذه الشعرة -لشعرة أخذتها من رأسها-وأخذت رسول الله ﷺ حمية عند ذلك؛ فدعا ركانة وإخوته، ثم قال لجلسائه: "أترون كذا من كذا؟ "، فقال رسول الله ﷺ لعبد يزيد: "طلقها"؛ ففعل، فقال لأبي ركانة: "ارتجعها"، فقال: يا رسول الله! إني طلقتها، فقال رسول الله ﷺ: "قد علمت ذلك، فارتجعها"؛ فنزلت: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ}.

أخرجه أحمد (١/ ٢٦٥)، وأبو داود (٢١٩٦)، وأبويعلى (٢٥٠٠)، وعبدالرزاق (٦/ ٣٩٠)، وأبو نعيم في المعرفة (٢/ ١١١٣)، والحاكم (٢/ ٤٩١)، والبيهقي (٧/ ٣٣٩) وغيرهم، والحديث قال عنه الخطابي في معالم السنن (٣/ ١٢٢):

=

=

وكان أحمد بن حنبل يضعف طرق هذه الحديث كلها، ونقل ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ١٥٠) عن أحمد أنه قال: حديث ركانة ليس بشيء، وقال البخاري كما في سنن الترمذي عقب الحديث (١١٧٧): فيه اضطراب، وقال البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٣٣٩): لا تقوم بإسناده حجة، وقال ابن عبد البر في الإستذكار (٥/ ١١): منكر خطأ، وقال ابن بطال في شرح البخاري (٧/ ٣٩١): منكر، وكذا قال الذهبي في تلخيص العلل المتناهية (٢١٦)، وضعفه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ١٥١)، وعبدالحق في الأحكام الوسطى (٣/ ١٩٥)، والخطابي في معالم السنن (٣/ ١٢٠)، وابن حزم في المحلى (١١/ ٤٦٢)، والنووي في شرح صحيح مسلم (١٠/ ٧١)، وكذا ضعفه ابن رجب كما في سير الحاث إلى علم الطلاق الثلاث لابن عبدالهادي ص (٩٦)، وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، فتعقبه الذهبي بقوله: "قلت: فيه محمد بن عبيد الله بن أبي رافع وهو واه، والخبر خطأ، عبد يزيد لم يدرك الإسلام". وضعفه أيضا الأرنؤوط ومن معه في تحقيق سنن أبي داود (٣/ ٥١٨)، وقد خالف هؤلاء، فصحح الحديث أبويعلى، نقله عنه الحافظ في الفتح (٩/ ٣٦٢)، والحاكم بعد إخراجه له، وقد جود إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٣٣/ ٦٧ -٨٥)، وصححه أيضًا ابن القيم في زاد المعاد (٥/ ٢٦٣)، وإغاثة اللهفان (١/ ٣٠٥)، وفي الصواعق المرسلة (٢/ ٦٢٥)، كلاهما صححاه من طريق داود بن الحصين عن عكرمة، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند، وحسنه العلامة الألباني بمجموع طريقيه في الإرواء (٧/ ١٤٤).

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنه طلق امرأته وهي حائض على عهد النبي ﷺ، فانطلق عمر فذكر ذلك له فقال: "مره؛ فليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم يطلقها إن بدا له"؛ فأنزل الله عند ذلك: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ

=

=

لِعِدَّتِهِنَّ}، قال أبو الزبير: هكذا سمعت ابن عمر يقرأها.
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٨٩) ونسبه لابن مردويه.
وعن مقاتل بن حيان؛ قال: بلغنا في قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)} أنها نزلت في عبد الله بن عمرو بن العاص وطفيل بن الحارث وعمرو بن سعيد بن العاص.
ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٨٩)، و"لباب النقول" (ص ٢١٥) ونسبه لابن أبي حاتم.
وهو ضعيف؛ لإعضاله.
وعن ابن سيرين في قوله تعالى: {لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} قال: في حفصة بنت عمر فطلقها النبي ﷺ واحدة؛ فنزلت: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ} إلى قوله: {يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا}؛ قال: فراجعها.
ذكره السيوطي في "لباب النقول" و"الدر المنثور" ونسبه لابن المنذر. وهو ضعيف؛ لإرساله.
وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ قال: نزلت هذه الآية: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)} في رجل من أشجع كان فقيراً، خفيف ذات اليد،

=

=

كثير العيال، فأتى رسول الله ﷺ فسأله؛ فقال له: "اتق الله واصبر"، فرجع إلى أصحابه، فقالوا: ما أعطاك رسول الله ﷺ؟ فقال: ما أعطاني شيئًا، وقال لي: "اتق الله واصبر"، فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء ابن له بغنم له كان العدو أصابوه، فأتى رسول الله ﷺ فسأله عنها وأخبره خبرها، فقال رسول الله ﷺ: "كُلْها"؛ فنزلت: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣)}.

أخرجه الحاكم (٢/ ٤٩٢)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٩٠) من طريق عبيد بن كثير العامري ثنا عباد بن يعقوب ثنا يحيى بن آدم ثنا إسرائيل ثنا عمار بن أبي معاوية عن سالم بن أبي الجعد عن جابر به.

قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"؛ وتعقبه الذهبي بقوله: "قلت: بل منكر؛ فيه عباد بن يعقوب رافضي جبل، وعبيد بن كثير العامري وهو متروك؛ قاله الأزدي".

وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٨٩، ٩٠، ٩٠) من طريقين عن عمار الدهني عن سالم به مرسلاً. وهو أصح من الذي قبله.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا}؛ قال: نزلت هذه الآية في ابن لعوف بن مالك الأشجعي، وكان المشركون أسروه وأوثقوه وأجاعوه، فكتب إلى أبيه: أن ائت رسول الله ﷺ؛ فأعلمه ما أنا فيه من الضيق والشدة، فلما أخبر رسول الله ﷺ؛ قال له رسول الله ﷺ: "اكتب إليه وأخبره ومره بالتقوى والتوكل على الله، وأن يقول عند صباحه ومسائه: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨)} [التوبة: ١٢٨]"، {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)} [التوبة: ١٢٩]"، فلما ورد عليه

=

=

الكتاب؛ قرأه؛ فأطلق الله وثاقه، فمر بواديهم التي ترعى فيه إبلهم وغنمهم فاستاقها فجاء بها إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! إني اغتلتهم بعدما أطلق الله وثاقي، فحلال هي أم حرام؟ قال: "بل هي حلال، وإذا شئنا خمسنا"؛ فأنزل الله: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ} من الشدة والرخاء {قَدْرًا}؛ يعني: أجلاً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من قرأ هذه الآية عند سلطان يخاف غشمه، أو عند موج يخاف الغرق، أو عند سبع؛ لم يضره شيء من ذلك.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٩٦، ١٩٧)، و"لباب النقول" (ص ٢١٦) وقال: "وأخرج الخطيب في "تاريخه" من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن عباس به".

وهذا إسناد ضعيف جداً؛ فيه علتان:

الأولى: جويبر؛ متروك الحديث.

الثانية: الضحاك لم يلق ابن عباس، ولم يدركه.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: جاء عوف بن مالك الأشجعي، فقال: يا رسول الله! إن ابني أسره العدو، وجزعت أمه؛ فما تأمرني؟ قال: "آمرك وإياها أن تستكثرا من: لا حول ولا قوة إلا بالله"، فقالت المرأة: نِعْمَ ما أمرك فجعلا يكثران منها، فتغفل عنه العدو فاستاق غنمهم، فجاء بها إلى أبيه؛ فنزلت: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٩٧)، و"لباب النقول" (ص ٢١٦) وقال: "وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به".

والكلبي كذاب وشيخه -أيضًا- متهم بالكذب.

وعن محمد بن إسحاق مولى أبي قيس بن مخرمة؛ قال: جاء مالك الأشجعي إلى

=

النبي ﷺ فقال له: أسر ابن عوف، فقال له: "أرسل إليه أن رسول الله ﷺ يأمرك أن تستكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله"، وكانوا قد شدوه بالقد فسقط القد عنه، فخرج؛ فإذا هو بناقة لهم، فركبها فأقبل، فإذا بسرح للقوم الذين كانوا أسروه، فصاح بها فأتبع آخرها أولها فلم يفجأ أبويه إلا هو ينادي بالباب، فأتى أبوه رسول الله ﷺ؛ فأخبره؛ فنزلت: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ١٩٧) ونسبه لابن أبي حاتم. وهذا مرسل؛ لا تقوم به حجة، وصرح بإرساله السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢١٦).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ جاء عوف بن مالك الأشجعي إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! إن ابني أسره العدو وجزعت أمه؛ فما تأمرني؟ قال: "آمرك وإياها أن تستكثروا من لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"؛ فانصرف إليها، فقالت: ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قال: "أمرني وإياك أن نستكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"، فجعلا يقولان ذلك، فأتى بها إلى أبيه؛ فنزلت: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}.

رواه الثعلبي في "تفسيره"؛ كما في "تخريج الكشاف" (٤/ ٥٢) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به. وإسناده تالف. قال السيوطي في "اللباب" (ص ٢١٦): "وأخرج الثعلبي من وجه آخر ضعيف".

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ فقال: أتجعلون عليها التغليظ ولا تجعلون الرخصة؟ لنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى: {وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٤٥٣٢، ٤٩١٠).

* في هذه الآية: بيانُ العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء، وتأكيد حق السكنى للمطلقة ما دام لزوجها عليها رجعة، والحث على تعظيم حدود الله.

=

أي: يـا أيهـا النبـي إذا أردتـم -أنـت والمؤمنـون-أن تطلِّقـوا نـساءكم فطلقـوهن مستقبلات لعدتهن -أي في طهر لـم يقـع فيـه جمـاع، أو في حَمْـل ظـاهر-واحفظـوا العـدة؛ لتعلمـوا وقـت الرجعـة إن أردتـم أن تراجعـوهن، وخـافوا الله ربكـم، لا تخرجوا المطلقات من البيوت التي يسكنَّ فيها إلى أن تنقضي عدتهن، وهي ثلاث حيضات لغير الصغيرة والآيسة والحامل، ولا يجوز لهن الخـروج منهـا بأنفسهن، إلا إذا فعلن فعلة منكرة ظاهرة كالزنى، وتلك أحكام الله التي شرعها لعبـاده، ومـن يتجاوز أحكام الله فقد ظلم نفسه، وأوردها مورد الهلاك. لا تدري -أيها المطلِّق- : لعل الله يحدث بعد ذلك الطلاق أمرًا لا تتوقعه فتراجعها.

قوله: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ}.

قال الزجاج: (هذا خطاب للنبي عليه السلام والمؤمنون داخلون معه في الخطاب).

وهو ما قال به النحاس، والجصاص، والواحدي، والسمعاني، وغيرهم.

وهذه الآية صريحة الدلالة على دخـول أمـة محمـد ﷺ في خطابـه لوجـود القرينـة الظاهرة، وهي قوله تعالى: {إذا طلقتم} وما بعدها.

قال السمرقندي: (فالخطاب للنبي ﷺ، والمراد به: هو وأمته، بـدليل قولـه تعـالى: {إذا طلقتم النساء} [الطلاق:١] فـذكر بلفـظ الجماعـة، فكأنـه قـال: يـا أيهـا النبـي ومن آمن بك إذا طلقتم النساء، يعني: أنت وأمتك).

وقـال البيـضاوي: (خـص النـداء وعـم الخطـاب بـالحكم لأنـه أمـام أمتـه، فنـداؤه كندائهم، أو لأن الكلام معه والحكم يعمهم).

وقـال الـسيوطي: (وقـد يعـبر بـالنبي في مقـام التـشريع العـام، لكـن مـع قرينـة إرادة العموم كقوله: {ياأيها النبي إذا طلقتم} [الطلاق:١] ولـم يقل: طلقت).

ومن هنا نستنتج أن الخطاب يوجه للنبي ﷺ وحده والمراد هو والمؤمنون معه.

ومن اللطائف ما قاله القرطبي: (وإذا أراد الله بالخطاب المؤمنين لاطفه بقوله: ...

=

=

{ياأيها النبي} [الطلاق:١]، فإذا كان الخطاب باللفظ والمعنى جميعا له قال: ... {ياأيها الرسول} [المائدة:٤١])، وهذا حكم أغلبي؛ لوجود بعض الآيات بلفظ النبي وهي خطاب له ﷺ باللفظ والمعنى كقوله تعالى: {يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك} [الأحزاب:٥٠].

وقال الجصاص: (يحتمل تخصيص النبي ﷺ بالخطاب وجوها: أحدها: اكتفاء بعلم المخاطبين بأن ما خوطب به النبي ﷺ خطاب لهم إذ كانوا مأمورين بالاقتداء به إلا ما خص به دونهم فخصه بالذكر، ثم عدل بالخطاب إلى الجماعة إذ كان خطابه خطابا للجماعة، والثاني: أن تقديره: يا أيها النبي قل لأمتك إذا طلقتم النساء، والثالث: على العادة في خطاب الرئيس الذي يدخل فيه الأتباع كقوله تعالى: {إلى فرعون وملئه} [الأعراف:١٠٣]).

وقال الآلوسي: (اختير لفظ النبي لما فيه من الدلالة على علو مرتبته). والله أعلم.

وقد أخرج البخاري في كتاب التفسير من صحيحه، عن ابن شهاب قال: أخبرني سالِمٌ: [أنّ عبد الله بن عمرَ رضي الله عنهما أخبره: أنه طَلَّقَ امرأتَهُ وهي حائضٌ، فَذَكَرَ عُمَرُ لرسول الله ﷺ، فتَغَيَّظَ فيه رسول الله ﷺ ثم قال: لِيُراجِعْها ثُمَّ يُمْسِكْها حتى تَطْهُرَ، ثم تحيضَ فتطهُرَ، فإنْ بدا له أن يُطَلِّقها فليطلِّقْها طاهِرًا قَبْلَ أن يَمَسَّها، فتِلك العِدَّةُ كما أَمَرَهُ الله]. ورواه مسلم وفيه: [فتلك العدَّة التي أمر الله أن يطلق لها النساء].

وفي صحيح مسلم عن ابن جُرَيْجٍ قال: [أخبرني أبو الزبير: أنه سَمِعَ عبدَ الرحمن بنَ أيمنَ مولى عَزَّةَ، يسألُ ابنَ عُمَرَ؟ وأبو الزبير يسمع ذلك، كيف ترى في رَجُلٍ طَلَّقَ امرأته حائِضًا؟ فقال: طَلَّقَ ابنُ عمر امرأته وهي حائِضٌ على عهد رسول الله ﷺ، فَسَأَلَ عُمَرُ رسول الله ﷺ؟ فقال: إنَّ عبدَ الله بن عمرَ طَلَّقَ امرأته وهي حائِضٌ، فقال له النبي ﷺ: "لِيُراجِعْها"، فرَدّها، وقال: "إذا طَهُرت فَلْيُطَلِّقْ أو

=

=

لِيُمْسِكْ".

قال ابن عمر: وقرأ النبي ﷺ: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ}].

ورواه أبو داود وفيه: [وقرأ النبي ﷺ: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ} في قُبُلِ، عدتهن].

وعن ابن عباس: ({فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} قال: لا يُطَلِّقها وهي حائضٌ ولا في طُهرٍ قد جامعها فيه، ولكن: يتركُها حتى إذا حاضت وطَهُرت طلَّقَها تطليقةً). وقال عكرمة: ({فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ}، العِدّة: الطهر، والقُرْء الحَيضة، أن يُطَلِّقها حُبْلى مستبينًا حَمْلُها، ولا يُطَلِّقها وقد طاف عليها، ولا يدري حُبْلى هي أم لا).

قال ابن كثير: (ومن هاهنا أخذ الفقهاء أحكامَ الطلاق وقَسَّموه إلى طلاق سُنَّة وطلاق بِدْعَة، فطلاقُ السنة أن يُطلِّقها طاهرًا من غير جِماع، أو حامِلًا قد استبان حَملُها، والبِدْعي: هو أن يُطَلِّقها في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه، ولا يدري أحَمَلت أم لا؟ وطلاق ثالثٌ لا سُنّة فيه ولا بِدعة، وهو طلاقُ الصغيرة والآيِسة، وغير المدخول بها).

وقوله: {وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ}. قال السدي: (احفظوا العدة). وقال النسفي: (اضبطوها بالحفظ وأكملوها ثلاثة أقراء مستقبلات كوامل لا نقصان فيهن، وخوطب الأزواج لغفلة النساء). والمقصود من ذلك: ضبط أول العدة ونهايتها لئلا تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج.

وقوله: {وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ}. أي وخافوا ربكم أيها الناس في ضبط تلك العدة واحذروا معصيته في أي أمر أو حدّ من حدود شرعه.

وقال صديق خان في حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة (ص ٢٣٢): قال تعالى في سورة الطلاق {يا أيها النبي إذا طلقتم النساء} خطاب لرسول الله ﷺ بلفظ الجمع تعظيما له أو خطاب له ولأمته {فطلقوهن لعدتهن} المراد

=

=

بالنساء المدخول بهن ذوات الأقراء وأما غير المدخول بهن فلا عدة عليهن بالكلية وأما ذوات الأشهر فسيأتي ذكرهن في قوله {واللائي يئسن} والمعنى مستقبلات لعدتهن أو في قبل عدتهن أو لقبل عدتهن أو لزمان عدتهن وهو الطهر.

وعن ابن مسعود قال من أراد أن يطلق للسنة كما أمره الله فليطلقها طاهرا في غير جماع وعن ابن عمر أنه طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ ثم قال ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء وقرأ النبي ﷺ هذه الآية أخرجه الشيخان وغيرهما وفي الباب أحاديث {وأحصوا العدة} أي احفظوها واحفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق حتى تتم العدة وهي ثلاثة قروء مستقبلات كوامل لا نقصان فيهن والخطاب للأزواج لغفلة النساء وقيل للزوجات وقيل للمسلمين عامة والأول أولى لأن الضمائر كلها لهم ولكن الزوجات داخلات في هذا الخطاب بالإلحاق بالأزواج لأن الزوج يحصي العدة ليراجع وينفق أو يقطع ويسكن أو يخرج ويلحق نسبه أو يقطع وهذه كلها أمور مشتركة بينه وبين المرأة وقيل أمر بإحصاء العدة لتفريق الطلاق على الأقراء إذا أراد أن يطلق ثلاثا وقيل للعلم ببقاء زمان الرجعة ومراعاة أمر النفقة والسكنى {واتقوا الله ربكم} في تطويل العدة عليهن والإضرار بهن. ا.هـ

وقوله: {لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ}. قال ابن عباس: (هي المطلقة لا تخرج من بيتها، ما دام لزوجها عليها رجعة، وكانت في عدة). فلها حق السكنى أثناء عدتها، وليس لزوجها أن يخرجها كما ليس لها أن تخرج لأنها معتقلة لحق زوجها.

أوجب الشارع على المعتدة أن تعتد في المنزل الذي يضاف إليها بالسكنى حال وقوع الفرقة أو الموت، والبيت المضاف إليها في قوله تعالى {لا تخرجوهن من

=

=

بيوتهن} الطلاق / ١، هو البيت الذي تسكنه، ولا يجوز للزوج ولا لغيره إخراج المعتدة من مسكنها. وليس لها أن تخرج وإن رضي الزوج بذلك، لأن في العدة حقا لله تعالى، وإخراجها أو خروجها من مسكن العدة مناف للمشروع، فلا يجوز لأحد إسقاطه. وهذا في الجملة، لأن المذهب عند الحنابلة: أنه لا يجب على المطلقة البائنة قرارها في مسكن العدة، لحديث فاطمة بنت قيس عند مسلم الذي فيه أن النبي ﷺ قال لها: لا نفقة لك ولا سكنى، وإنما يستحب لها ذلك، خروجا من الخلاف.

وقوله: {إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ} . قال مجاهد: (إلا أن يزنين)، وقال الحسن: (الزنى، فتخرج ليقام عليها الحد). وقال قتادة: (إلا أن يطلقها على نشوز، فلها أن تحول من بيت زوجها). وقال ابن عباس: (والفاحشة: هي المعصية). وقال: (الفاحشة المبينة أن تبذُوَ على أهلها).

والخلاصة من أقوال المفسرين في ذلك: لا يُخْرَجْنَ من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة.

قال صديق خان حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة (ص ٢٣٢): {لا تخرجوهن من بيوتهن} أي التي كنا فيها عند الطلاق ما دمن في العدة {ولا يخرجن} من تلك البيوت ما دمن في العدة إلا لأمر ضروري قال أبو السعود ولو بإذن من الأزواج فإن الإذن بالخروج في حكم الإخراج وقال الخطيب لأن في العدة حقا لله تعالى فلا يسقط بتراضيهما وهذا كله عند عدم العذر أما إذا كان لعذر كشراء من ليس لها على المفارق نفقة فيجوز لها الخروج نهارا وإذا خرجت من غير عذر فإنها تعصي ولا تنتقض عدتها {إلا أن يأتين بفاحشة مبينة} هي الزنى وذلك أن تزني فتخرج لإقامة الحد عليها ثم ترد إلى منزلها وقيل هي البذاء في اللسان والاستطالة بها على من هو ساكن معها في ذلك البيت قال ابن عباس فإذا

=

بذأت عليهم بلسانها فقد حل لهم إخراجها لسوء خلقها {وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا} خلاف ما فعله المتعدي قال أهل التفسير أراد بالأمر هنا الرغبة في الرجعة والمعنى التحريض على الطلاق الواحد أو المرتين والنهي عن الثلاث فلا يجد إلى المراجعة سبيلا.

وقوله: {وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ} أي: شرائعه ومحارمه وما حَدّ لخلقه من الأحكام.

وقوله: {وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}. قال الضحاك: (يقول: تلك طاعة الله فلا تعتدوها. من كان على غير هذه فقد ظلم نفسه). وقال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: ومن يتجاوز حدود الله التي حدّها لخلقه فقد ظلم نفسه، يقول: فقد أكسب نفسه وزرًا، فصار بذلك لها ظالمًا، وعليها متعدّيًا).

وقوله: {لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا}. قال قتادة: (أي مراجعة). قال: (هذا في مراجعة الرجل امرأته). وقال مقاتل: ({بَعْدَ ذَلِكَ} أي بعد طلقة أو طلقتين {أَمْرًا} أي المراجعة من غير خلاف). قال القرطبي: (الأمر الذي يحدثه الله أن يُقَلِّبَ قلبه من بغضها إلى محبتها، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه، فيراجعها).

ومن هنا ذهب الإمام أحمد وطائفة من السلف إلى أن المبتوتة لا تجب لها السكنى ولا النفقة، وقد صحّ بذلك الخبر عن رسول الله ﷺ:

فقد أخرج النسائي في "الكبرى" والطبراني في "الأوسط" بسند حسن عن عامر الشعبي: [أنه دخل على فاطمة بنتِ قيس أُختِ الضّحاك بن قيس القُرَشي، وزوجها أبو عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي، فقالت: إن أبا عمرو بن حفص أرسل إليَّ وهو مُنطلقٌ في جيش إلى اليمنِ بِطَلاقي، فسألتُ أولياءَه النفقة عليَّ والسكنى، فقالوا: ما أرسل إلينا في ذلك شيئًا، ولا أوصانا به، فانطلقتُ إلى

=

رسول الله ﷺ فقُلت: يا رسول الله! إنَّ أبا عَمْرو بن حفص أرسلَ إليَّ بِطَلَاقي، فطلبتُ السكنى والنفقة علي، فقال أولياؤه: لم يُرسِل إلينا في ذلك بشيءٍ. فقال رسول الله ﷺ: إنما السكنَى والنفقةُ للمرأة إذا كان لزوجها عليه رَجْعَةٌ، فإذا كانت لا تحِلّ له حتى تَنكِحَ زوجًا غيره فلا نفقة لها ولا سكنى].

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} [الطلاق: ١]، أي:"يا أيها النبي إذا أردتم -أنت والمؤمنون-أن تطلِّقوا نساءكم فطلقوهن مستقبلات لعدتهن -أي في طهر لم يقع فيه جماع، أو في حَمْل ظاهر-".

قال الطبري:"يقول: إذا طلقتم نساءكم فطلقوهنّ لطهرهنّ الذي يحصينه من عدتهنّ، طاهرًا من غير جماع، ولا تطلقوهنّ بحيضهنّ الذي لا يعتددن به من قرئهنّ".

قال ابن كثير:"خُوطب النبي ﷺ أولا تشريفًا وتكريما، ثم خاطب الأمة تبعًا فقال: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ}.. ومن ها هنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سنة وطلاق بدعة، فطلاق السنة: أن يطلقها طاهرًا من غير جماع، أو حاملا قد استبان حملها. والبدعى: هو أن يطلقها في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه، ولا يدري أحملت أم لا؟ وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة، وهو طلاق الصغيرة والآيسة، وغير المدخول بها، وتحرير الكلام في ذلك وما يتعلق به مستقصى في كتب الفروع".

قال الضحاك:"العدّة: القرْء، والقرء: الحيض. والطاهر: الطاهر من غير جماع، ثم تستقبل ثلاث حِيَض".

عن الضحاك، قوله: " {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ}، يقول: طلِّقها طاهرًا من غير جماع".

قال قتادة:"العدة: أن يطلقها طاهرًا من غير جماع تطليقة واحدة".

عن عبد الله، قال: "الطلاق للعدّة طاهرًا من غير جماع".

=

عن مجاهد: " {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ}، قال: لطهرهن".
عن مجاهد: " {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ}، قال: طاهرًا في غير جماع".
قال الحسن: "طاهرًا من غير حيض، أو حاملا قد استبان حملها".
قال ابن سيرين: "يطلقها وهي طاهر من غير جماع، أو حَبَل يستبين حملها".
قال السدي: "طاهرًا في غير جماع، فإن كانت لا تحيض، فعند غرّةِ كل هلال".
قال ابن زيد: "إذا طلقتها للعدّة كان مِلْكُها بيدك، من طلق للعدة جعل الله له في ذلك فسحة، وجعل له مِلْكًا إن أراد أن يرتجع قبل أن تنقضي العدة ارتجع".
عن عكرمة، عن ابن عباس: "أنه كان يرى طلاق السنة طاهرًا من غير جماع، وفي كلّ طهر، وهي العدة التي أمر الله بها".
ابن عباس قوله: " {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ}، يقول: لا يطلقها وهي حائض، ولا في طهر قد جامعها فيه، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة، فإن كانت تحيض فعدتها ثلاث حيض، وإن كانت لا تحيض فعدتها ثلاثة أشهر، وإن كانت حاملا فعدتها أن تضع حملها".
عن مجاهد: "أن رجلا سأل ابن عباس فقال: إنه طلق امرأته مئة، فقال: عصيت ربك، وبانت منك امرأتك، ولم تتق الله فيجعل لك مخرجًا، وقرأ هذه الآية: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا}، وقال: {يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ فِي قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ}".
عن مجاهد، قال: "كنت عند ابن عباس، فجاءه رجل فقال: إنه طلق امرأته ثلاثًا، فسكت حتى ظننا أنه رادّها عليه، ثم قال: ينطلق أحدكم فيركب الحموقة، ثم يقول: يا ابن عباس يا ابن عباس، وإن الله ﷻ قال: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا}، وإنك لم تتق الله فلا أجد لك مخرجًا، عصيت ربك، وبانت منك امرأتك، قال الله: {يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ فِي قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ}".

=

عن الحكم، قال: "سمعت مجاهدًا يحدّث عن ابن عباس في هذه الآية: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ}، قال ابن عباس: في قبل عدتهنّ".

عن الحسن وابن سيرين:"فيمن أراد أن يطلق ثلاث تطليقات جميعًا في كلمة واحدة، أنه لا بأس به بعد أن يطلقها في قبل عدتها، كما أمره الله؛ وكان يكرهان أن يطلق الرجل امرأته تطليقة، أو تطليقتين، أو ثلاثًا، إذا كان بغير العدّة التي ذكرها الله".

عن معمر، عن قتادة، في قوله: " {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ}، قال: إذا طهرت من الحيض في غير جماع، قلت: كيف؟ قال: إذا طهرت فطلقها من قبل أن تمسها، فإن بدا لك أن تطلقها أخرى تركتها حتى تحيض حيضة أخرى، ثم طلقها إذا طهرت الثانية، فإذا أردت طلاقها الثالثة أمهلتها حتى تحيض، فإذا طهرت طلقها الثالثة، ثم تعتدّ حيضة واحدة، ثم تَنكِح إن شاءت".

عن معمر، قال: "وقال ابن طاوس: إذا أردت الطلاق فطلقها حين تطهر، قبل أن تمسها تطليقة واحدة، لا ينبغي لك أن تزيد عليها، حتى تخلو ثلاثة قروء، فإن واحدة تبينها".

عن ابن عمر، قال: "طلَّقت امرأتي وهي حائض؛ قال: فأتى عمر رسول الله ﷺ يخبره بذلك، فقال: «مُرْه فَلْيُرَاجِعهَا حَتَى تَطْهُر، ثُمَّ تَحِيضَ، ثُمَّ تَطْهُرَ، ثُمَّ إنْ شَاءَ طَلَّقَهَا قَبْلَ أَنْ يُجَامِعَهَا، وإنْ شَاءَ أَمْسَكَهَا، فَإنَها العِدَّةُ التي قال اللُه ﷻ »".

عن نافع، عن ابن عمر: "أنه طلق امرأته وهي حائض، فسأل عُمر النبيّ ﷺ فقال: «مُرْه فَلْيُرَاجِعهَا، ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ، ثُمَّ تَطْهُرَ، ثُمَّ إنْ شَاءَ أَمْسَكَهَا، فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ أَنْ تُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ»".

عن سعيد بن عبد العزيز:"سُئل عن قول الله: {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ}، قال: طلاق السنة أن يطلق الرجل امرأته وهي في قبل عدتها، وهي طاهر من غير جماع واحدة،

=

=

ثم يدعها، فإن شاء راجعها قبل أن تغتسل من الحيضة الثالثة، وإن أراد أن يطلقها ثلاثًا طلقها واحدة في قبل عدتها، وهي طاهر من غير جماع، ثم يدعها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها أخرى، ثم يدعها، حتى إذا حاضت وطهرت طلقها أخرى، ثم لا تحلّ له حتى تنكح زوجًا غيره".

قوله تعالى: {وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ} [الطلاق: ١]، أي:"واحفظوا العدة؛ لتعلموا وقت الرجعة إن أردتم أن تراجعوهن".

قال الطبري: "يقول: وأحصُوا هذه العدّة وأقراءَها فاحفظوها".

قال ابن كثير:"أي: احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها؛ لئلا تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج".

عن السدي، قوله: " {وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ}، قال: احفظوا العدّة".

قوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ} [الطلاق: ١]، أي:"وخافوا الله ربكم، لا تخرجوا المطلقات من البيوت التي يسكنَّ فيها إلى أن تنقضي عدتهن، وهي ثلاث حيضات لغير الصغيرة والآيسة والحامل".

قال الطبري:"يقول: وخافوا الله أيها الناس ربكم فاحذروا معصيته أن تتعدّوا حده، لا تخرجوا من طلقتم من نسائكم لعدتهنّ من بيوتهنّ التي كنتم أسكنتموهنّ فيها قبل الطلاق حتى تنقضي عدتهنّ".

قال ابن كثير:"أي: في مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه، فليس للرجل أن يخرجها، ولا يجوز لها أيضا الخروج لأنها معتقلة لحق الزوج أيضًا".

عن السديّ، قوله: " {وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ}، حتى تنقضي عدتهنّ".

عن ابن جُرَيج، قال: قال عطاء: "إن أذن لها أن تعتدّ في غير بيته، فتعتدّ في بيت

=

=

أهلها، فقد شاركها إذن في الإثم. ثم تلا: {لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ}، قال: قلت هذه الآية في هذه؟ قال: نعم".

عن نافع:"أن عبد الله بن عمر كان يقول في هذه الآية: {لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ}، قال: خروجها قبل انقضاء العدّة.

قال ابن عجلان عن زيد بن أسلم: إذا أتت بفاحشة أخرجت".

عن الضحاك في قوله: " {لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إِلا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ}، قال: ليس لها أن تخرج إلا بإذنه، وليس للزوج أن يخرجها ما كانت في العدّة، فإن خرجت فلا سُكْنى لها ولا نفقة".

عن ابن عباس، قوله: " {وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ}، قال: هي المطلقة لا تخرج من بيتها، ما دام لزوجها عليها رجعة، وكانت في عدّة".

عن قتادة: " {لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ}، وذلك إذا طلقها واحدة أو ثنتين لها ما لم يطلقها ثلاثًا".

قوله تعالى: {وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ} [الطلاق: ١]، أي:"ولا يجوز لهن الخروج منها بأنفسهن، إلا إذا فعلن فعلة منكرة ظاهرة كالزنى".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: لا تخرجوهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة أنها فاحشة لمن عاينها أو علمها".

قال ابن كثير:"أي: لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة، فتخرج من المنزل، والفاحشة المبينة تشمل الزنا".

وفي قوله تعالى: {وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ} [الطلاق: ١]، وجوه:

أحدها: أن الفاحشة يعني: الزنا، والإخراج هو إخراجها لإقامة الحد، قاله ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المُسَيَّب، والشعبي، والحسن، وابن سيرين، ومجاهد، وعِكْرمة، وسعيد بن جبير، وأبو قِلابة، وأبو صالح، والضحاك، وزيد بن

=

أسلم، وابنه، وعطاء الخراساني، والسُّدِّي، وسعيد بن أبي هلال.
عن صالح بن مسلم، قال: سألت عامرًا قلت رجل طلق امرأته تطليقة أيخرجها من بيتها؟ قال: إن كانت زانية".
قال ابن زيد:"فجعل الله سبيلهنّ الرجم، فهي لا ينبغي لها أن تخرج من بيتها إلا أن تأتي بفاحشة مبينة، فإذا أتت بفاحشة مبينة أخرجت إلى الحدّ فرجمت، وكان قبل هذا للمحصنة الحبس تحبس في البيوت لا تترك تنكح، وكان للبكرين الأذى قال الله جلّ ثناؤه: {وَالَّلـذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا} يا زان، يا زانية، {فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّاباً رَحِيماً}، قال: ثم نُسخ هذا كله، فجعل الرجم للمحصنة والمحصن، وجعل جلد مئة للبِكْرَين، قال: ونسخ هذا".
والثاني: أنه البذاء على أحمائها، وهذا قول عبد الله بن عباس، والشافعي.
قال ابن عباس:"الفاحشة المبينة أن تبذُو على أهلها".
الثالث: كل معصية لله، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً.
الرابع: أن الفاحشة خروجهن، ويكون تقدير الآية: إلا أن يأتين بفاحشة مبينة بخروجهن من بيوتهن، قاله ابن عمر، والسدي.
قال ابن عمر:"خروجها قبل انقضاء العدة فاحشة".
الخامس: أن ذلك نشوزها على زوجها، فيطلقها على النشوز، فيكون لها التحوّل حينئذ من بيتها. قاله قتادة.
قال قتادة: "إلا أن يطلقها على نشوز، فلها أن تحوّل من بيت زوجها".
قال الطبري:"الصواب من القول في ذلك عندي قول من قال: عنى بالفاحشة في هذا الموضع: المعصية، وذلك أن الفاحشة هي كلّ أمر قبيح تعدّى فيه حدّه، فالزنى من ذلك، والسرق والبذاء على الأحماء، وخروجها متحوّلة عن منزلها الذي يلزمها أن تعتدّ فيه منه، فأي ذلك فعلت وهي في عدتها، فلزوجها إخراجها

=

من بيتها ذلك، لإتيانها بالفاحشة التي ركبتها".

قوله تعالى: {وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ} [الطلاق: ١]، أي:"وتلك أحكام الله التي شرعها لعباده".

قال الطبري: يقول:"وهذه الأمور التي بينتها لكم من الطلاق للعدّة، وإحصاء العدّة، والأمر باتقاء الله، وأن لا تخرج المطلقة من بيتها، إلا أن تأتي بفاحشة مبينة حدود الله التي حدّها لكم أيها الناس فلا تعتدوها".

قال ابن كثير:"أي: شرائعه ومحارمه".

قال الضحاك:"يقول: تلك طاعة الله فلا تعتدوها".

قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} [الطلاق: ١]، أي:"ومن يتجاوز أحكام الله فقد ظلم نفسه، وأوردها مورد الهلاك".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ومن يتجاوز حدود الله التي حدّها لخلقه فقد ظلم نفسه: يقول: فقد أكسب نفسه وزرًا، فصار بذلك لها ظالما، وعليها متعدّيا".

قال ابن كثير:"{وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ}، أي: يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها، {فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ}، أي: بفعل ذلك".

قال الضحاك:"يقول: من كان على غير هذه فقد ظلم نفسه".

قوله تعالى: {لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا} [الطلاق: ١]، أي:"لا تدري -أيها المطلِّق-: لعل الله يحدث بعد ذلك الطلاق أمرًا لا تتوقعه فتراجعها".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: لا تدري ما الذي يحدث؟ لعل الله يحدث بعد طلاقكم إياهنّ رجعة".

قال ابن كثير:"أي: إنما أبقينا المطلقة في منزل الزوج في مدة العدة، لعل الزوج يندم على طلاقها ويخلق الله في قلبه رَجْعَتَها، فيكون ذلك أيسر وأسهل".

=

=

عن الزهريّ:"أن فاطمة بنت قيس كانت تحت أَبي حفص المخزومي، وكان النبيّ ﷺ أمَّر عليًا على بعض اليمن، فخرج معه، فبعث إليها بتطليقة كانت لها، وأمر عياش بن أبي ربيعة المخزومي، والحارث بن هشام أن ينفقا عليها، فقالا لا والله ما لها علينا نفقة، إلا أن تكون حاملا فأتت النبي ﷺ فذكرت ذلك له، فلم يجعل لها نفقة إلا أن تكون حاملا واستأذنته في الانتقال، فقالت: أين انتقل يا رسول الله؟ قال: "عِنْدَ ابْنِ أُمّ مَكْتُومٍ"، وكان أعمى، تضع ثيابها عنده، ولا يبصرها؛ فلم تزل هنالك حتى أنكحها النبيّ ﷺ أُسامة بن زيد حين مضت عدتها، فأرسل إليها مروان بن الحكم يسألها عن هذا الحديث، فأخبرته، فقال مروان: لم نسمع هذا الحديث إلا من امرأة، وسنأخذ بالعصمة التي وجدنا الناس عليها، فقالت فاطمة: بيني وبينكم الكتاب، قال الله جلّ ثناؤه: {فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} حتى بلغ {لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا}، قالت: فأي أمر يحدث بعد الثلاث، وإنما هو في مراجعة الرجل امرأته، وكيف تحبس امرأة بغير نفقة؟".

عن الضحاك في قوله: " {لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا}، يقول: لعلّ الرجل يراجعها في عدتها".

قال الضحاك:"هذا ما كان له عليها رجعة".

عن السدي:"{لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا}، قال: الرجعة".

عن سفيان:"{لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا}، قال: لعله يراجعها"

قال ابن زيد:"لعلّ الله يحدث في قلبك تراجع زوجتك؛ قال: قال: ومن طلق للعدّة جعل الله له في ذلك فسحة، وجعل له ملكًا إن أراد أن يرتجع قبل أن تنقضي العدّة ارتجع"

عن قتادة:"{لا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا}، أي: مراجعة".

عن قتادة، قوله: " {لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا}، قال: هذا في مراجعة الرجل

=

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢).

{فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلهنَّ} قَارَبْنَ انْقِضَاء عِدَّتهنَّ {فَأَمْسِكُوهُنَّ} بِأَنْ تُرَاجِعُوهُنَّ {بِمَعْرُوفٍ} مِنْ غَيْر ضِرَار {أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ} اُتْرُكُوهُنَّ حَتَّى تَنْقَضِي عِدَّتهنَّ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ بِالْمُرَاجَعَةِ {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْل مِنْكُمْ} عَلَى الْمُرَاجَعَة أَوْ الْفِرَاق {وَأَقِيمُوا الشَّهَادَة لِلَّهِ} لَا لِلْمَشْهُودِ عَلَيْهِ أَوْ لَهُ {ذَلِكُمْ يُوعَظ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِن بِاَللهِ وَالْيَوْم الْآخِر وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَل لَهُ مَخْرَجًا} مِنْ كَرْب الدنيا والآخرة.

وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣).

{وَيَرْزُقهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِب} يَخْطِر بِبَالِهِ {وَمَنْ يَتَوَكَّل عَلَى الله} فِي أُمُوره {فَهُوَ حَسْبه} كَافِيه {إِنَّ الله بَالِغ أَمْره} مُرَاده وفي قراءة بالإضافة {قَدْ جَعَلَ الله

=

امرأته".

قال قتادة:"يراجعها في بيتها هذا في الواحدة والثنتين، هو أبعد من الزنى".

وقال الحسن: "هذا في الواحدة والثنتين، وما يحدث الله بعد الثلاث".

قال أيوب: "سمعت الحسن وعكرمة يقولان: المطلقة ثلاثًا، والمتوفى عنها لا سكنى لها ولا نفقة؛ قال: فقال عكرمة {لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا}، فقال: ما يحدث بعد الثلاث".

لِكُلِّ شَيْءٍ} كَرِخَاءٍ وَشِدَّة {قدرا ميقاتا}[1].

---

(١) قوله تعالى: {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ} [الطلاق: ٢]، أي:"فإذا قاربت المطلقات نهاية عدتهن فراجعوهن مع حسن المعاشرة، والإنفاق عليهن".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فإذا بلغ المطلقات اللواتي هنّ في عدة أجلهنّ وذلك حين قرب انقضاء عددهنّ، فأمسكوهنّ برجعة تراجعوهن، إن أردتم ذلك بمَعْرُوف، يقول: بما أمرك الله به من الإمساك وذلك بإعطائها الحقوق التي أوجبها الله عليه لها من النفقة والكسوة والمسكن وحُسن الصحبة".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: فإذا بلغت المعتدات أجلهن، أي: شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك، ولكن لم تفرغ العدة بالكلية، فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده. {بِمَعْرُوفٍ}، أي: محسنًا إليها في صحبتها".

عن الضحاك، قوله: " {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ}، يقول: إذا انقضت عدتها قبل أن تغتسل من الحيضة الثالثة، أو ثلاثة أشهر إن لم تكن تحيض، يقول: فراجع إن كنت تريد المراجعة قبل أن تنقضي العدّة بإمساك بمعروف، والمعروف أن تحسن صحبتها، {أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ}، والتسريح بإحسان: أن يدعها حتى تمضي عدتها، ويعطيها مهرًا إن كان لها عليه إذا طلقها، فذلك التسريح بإحسان، والمُتعة على قدر الميسرة".

عن السديّ، قوله: " {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ}، قال: إذا طلقها واحدة أو ثنتين، يشاء أن يمسكها بمعروف، أو يسرّحها بإحسان".

قوله تعالى: {أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ} [الطلاق: ٢]، أي:"أو فارقوهن مع إيفاء حقهن، دون المضارَّة لهن".

=

=

قال الطبري: يقول:"أو اتركوهنّ حتى تنقضي عددهنّ، فتبين منكم بمعروف، يعني بإيفائها ما لها من حق قبله من الصداق والمتعة على ما أوجب عليه لها".

قال ابن كثير:"وإما أن يعزم على مفارقتها {بِمَعْرُوفٍ}، أي: من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف، بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن".

قوله تعالى: {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ} [الطلاق: ٢]، أي:"وأشهدوا على الرجعة أو المفارقة رجلين عدلين منكم".

قال الطبري: يقول:"وأشهدوا على الإمساك إن أمسكتموهنّ، وذلك هو الرجعة ذوي عدل منكم، وهما اللذان يرضى دينهما وأمانتهما".

قال ابن كثير:"أي: على الرجعة إذا عَزَمتم عليها".

عن السديّ، قوله: " {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ}، قال: على الطلاق والرجعة".

قال ابن عباس:"إن أراد مراجعتها قبل أن تنقضي عدتها، أشهد رجلين كما قال الله {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ}، عند الطلاق وعند المراجعة، فإن راجعها فهي عنده على تطليقتين، وإن لم يراجعها فإذا انقضت عدتها فقد بانت منه بواحدة، وهي أملك بنفسها، ثم تتزوّج من شاءت، هو أو غيره".

قال إبراهيم النخعي:"العَدْلُ في المسلمين: مَن لم تَظهر منه ريبة".

عن محمد بن سيرين: "أنّ رجلًا سأل عمران بن حُصَين عن رجلٍ طلّق ولم يُشْهِد، وراجَع ولم يُشْهِد. قال: بئسما صنع؛ طلّق في بدعة، وارتَجع في غير سُنّة، فليُشهد على طلاقه وعلى مُراجعته، وليستغفر الله".

عن إبراهيم النَّخْعي -من طريق أبي مَعْشر-:"في رجل طلّق امرأته فأشهَد، ثم راجَعها ولم يُشهِد. قال: لم يكن يَكْرَهُ ذلك تأثُّمًا، ولكن كان يَخافُ أن يَجْحَدَ".

عن عامر الشعبي -من طريق الشيباني-:"أنه سُئِل عن رجل طلّق امرأته، ثم راجَعها، فيَجهل أن يُشهد؟ قال: يُشهد إذا عَلم".

=

=

عن عامر الشعبي -من طريق مُغيرة-:"في الرجل يُطَلِّق امرأته، ثم يُجامعها قبل أن يُشهد على رَجعتها. قال: كيف تقول -يا مُغيرة-في رجل فعل بامرأة قومٍ ليس منها بسبيل؟!".

عن طاووس بن كيسان -:"من طريق سليمان التيمي-قالوا: الجماع رَجعة؛ فلْيُشْهِد".

-عن الحسن البصري -من طريق يونس-:"في الرجل يُطلِّق امرأته، ثم يَغشاها ولم يُشهِد. قال: غِشْيانُهُ لها مراجعة؛ فليُشهِد".

عن الحكم بن عتيبة-من طريق أبي غَنِيَّةَ، عن أبيه-:"في رجل يُراجع امرأته ولا يُشهد. قال: فليُشْهِد على رَجعتها".

عن الحكم بن عتيبة-من طريق شعبة-:"في رجل طلّق امرأته، فحَنث وقد غَشيها في عِدّتها، وقد عَلم بذلك بعد انقضاء العِدّة. قال: غِشْيانُهُ لها مُراجعة".

عن عطاء، قال: "النكاح بالشهود، والطَّلاق بالشهود، والمُراجعة بالشهود".

عن قتادة:"أنّ سُليمان بن يَسار حدّث: أنّ عمر بن عبد العزيز قال: ما رأيتُ مثل القَسامَة قطُّ أُقيدَ بها، والله يقول: {وأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنكُمْ}. وقالت الأسباط: {وما شَهِدْنا إلّا بِما عَلِمْنا وما كُنّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ} [يوسف: ٨١]. وقال الله: {إلّا مَن شَهِدَ بِالحَقِّ وهُمْ يَعْلَمُونَ} [الزخرف: ٨٦]".

قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ} [الطلاق: ٢]، أي:"وأدُّوا -أيها الشهود- الشهادة خالصة لله لا لشيء آخر".

قال الطبري: "يقول: وأشهدوا على الحقّ إذا استشهدتم، وأدوها على صحة إذا أنتم دُعيتم إلى أدائها".

قال مقاتل:"قال للشهود: {وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ} على وجهها".

قال السدي:"أشهدوا على الحق".

=

=

قال الضحاك:"إذا أشهَدتم على شيء فأقيموه".

قال الشافعي:"يقوم بها على والديه وولده، والقريب والبعيد، وللبغيض القريب والبعيد، ولا يكتم عن أحد ولا يحابى بها ولا يمنعها أحداً، ثم تتفرع الشهادات فيجتمعون ويختلفون فيما يلزم منها وما لا يلزم".

عن عبد الله بن عباس: أنّ رجلًا سأل النبيَّ ﷺ عن الشهادة. فقال: «لا تَشهَد إلا على مِثل الشمس، أو دَعْ».

قوله تعالى: {ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [الطلاق: ٢]، أي:"ذلك الذي أمركم الله به يوعظ به مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هذا الذي أمرتكم به، وعرَّفتكم من أمر الطلاق، والواجب لبعضكم على بعض عند الفراق والإمساك عظة منا لكم، نعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فيصدّق به".

قال ابن كثير:"أي: هذا الذي أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة، إنما يأتمر به من يؤمن بالله وأنه شرع هذا، ومن يخاف عقاب الله في الدار الآخرة، ومن ها هنا ذهب الشافعي -في أحد قوليه -إلى وجوب الإشهاد في الرجعة، كما يجب عنده في ابتداء النكاح. وقد قال بهذا طائفة من العلماء، ومن قال بهذا يقول: إن الرجعة لا تصح إلا بالقول ليقع الإشهاد عليها".

عن السديّ: " {مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ}، قالَ: يؤمن به".

قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} [الطلاق: ٢]، أي:"ومن يخف الله فيعمل بما أمره به، ويجتنب ما نهاه عنه، يجعل له مخرجًا من كل ضيق".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: من يخف الله فيعمل بما أمره به، ويجتنب ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجًا بأن يعرّفه بأن ما قضى فلا بدّ من أن يكون، وذلك أن المطلق إذا طلَّق، كما ندبه الله إليه للعدّة، ولم

=

=

يراجعها في عدتها حتى انقضت ثم تتبعها نفسه، جعل الله له مخرجًا فيما تتبعها نفسه. بأن جعل له السبيل إلى خطبتها ونكاحها، ولو طلقها ثلاثًا لم يكن له إلى ذلك سبيل".

قال ابن كثير:"أي: ومن يتق الله فيما أمره به، وتَرَك ما نهاه عنه، يجعل له من أمره مخرجًا".

عن عكرمة: " {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} ، قال: من طلق كما أمره الله يجعل له مخرجًا".

عن قتادة: " {يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} ، قال: من شُبُهَات الأمور، والكرب عند الموت".

عن ابن عباس، قوله: " {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} ، يقول: نجاته من كل كرب في الدنيا والآخرة".

عن الربيع بن خثيم: " {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} ، قال: من كلّ شيء ضاق على الناس".

قال أبو العالية الرِّياحيّ: " {مَخْرَجًا} من كلّ شدة".

عن عبد الله، في قوله: " {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} ، قال: يعلم أنه من عند الله، وأن الله هو الذي يعطي ويمنع".

قال مسروق:"المخرج أن يعلم أن الله تبارك وتعالى لو شاء أعطاه وإن شاء منعه".

عن الضحاك، قوله: " {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يُسرًا، قال: يعني بالمخرج واليُسر إذا طلق واحدة ثم سكت عنها، فإن شاء راجعها بشهادة رجلين عدلين، فذلك اليُسر الذي قال الله، وإن مضت عدتها ولم يراجعها، كان خاطبًا من الخطاب، وهذا الذي أمر الله به، وهكذا طلاق السنة فأما من طلق عند كلّ حيضة فقد أخطأ السنة، وعصى الربّ، وأخذ بالعسر".

=

=

عن السديّ، قوله: " {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} ، قال: يطلق للسُّنة، ويراجع للسُّنة؛ زعم أن رجلا من أصحاب النبيّ ﷺ يقال له عوف الأشجعيّ، كان له ابن، وأن المشركين أسروه، فكان فيهم، فكان أبوه يأتي النبيّ ﷺ، فيشكوا إليه مكان ابنه، وحالته التي هو بها وحاجته، فكان رسول الله ﷺ يأمره بالصبر ويقول له: إن الله سيجعل له مخرجا، فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيرًا إذا انفلت

ابنه من أيدي العدوّ، فمرّ بغنم من أغنام العدوّ فاستاقها، فجاء بها إلى أبيه، وجاء معه بغنًى قد أصابه من الغنم، فنزلت هذه الآية: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ} ".

عن سالم بن أبي الجعد: " {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} ، قال: نزلت في رجل من أشجع جاء إلى النبيّ ﷺ وهو مجهود، فسأله فقال له النبيّ ﷺ: "اتَّقِ اللهَ وَاصْبِرْ"، قال: قد فعلت، فأتى قومه، فقالوا: ماذا قال لك؟ قال: قال: "اتق الله واصبر"، فقلت: قد فعلت حتى قال ذلك ثلاثًا، فرجع فإذا هو بابنه كان أسيرًا في بني فلان من العرب، فجاء معه بأعنز فرجع إلى النبي ﷺ، فقال: إن ابني كان أسيرًا في بني فلان، وإنه جاء بأعنز فطابت لنا؟ قال: "نعم"».

ففي هذه الآيات: أَمْرُ الله تعالى الرجال بالإحسان للزوجات في الإمساك أو الفراق، وبيانُ جائزة التقوى والحث على صدق التوكل على الله ففي ذلك الفلاح والسباق.

فقوله: {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ} . أي المعتدات، إذا قاربن انقضاء العدة. قال ابن جرير: ({أَجَلَهُنَّ} وذلك حين قرب انقضاء عددهن).

وقوله: {فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ} . قال الضحاك: (يقول: فراجع إن كنت تريد المراجعة قبل أن تنقضي العدّة بإمساك بمعروف، والمعروف أن تحسن صحبتها {أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ} والتسريح بإحسان: أن يدعها حتى

=

=

تمضي عدتها، ويعطيها مهرًا إن كان لها عليه إذا طلقها). وقال ابن كثير: {فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ}: أي محسنًا إليها في صحبتها، وإما أن يعزم على مفارقتها {بِمَعْرُوفٍ} أي: من غير مُقَابحةٍ ولا مُشاتمةٍ ولا تعنيف، بل يُطَلِّقها على وَجه جَميل وسبيل حسن).

وقوله: {وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ}. هو على الندب لا على الوجوب، سواء في الطلاق أو الرجعة، كقوله تعالى: {وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ} [البقرة: ٢٨٢]. وهو مذهب أبي حنيفة.

قلت: وإنما يتأكد في حق مَنْ عُرِف بالاستهتار في هذه الأمور وعدم المبالاة.

قال القرطبي: (وفائدة الإشهاد ألا يقع بينهما التجاحد، وألا يُتَّهَمَ في إمساكها، ولئلا يموت أحدهما فيدّعي الباقي ثبوت الزوجية لِيَرث).

وفي سنن أبي داود بسند صحيح عن عمران بن حصين، سئل عن الرجل يطلق امرأته، ثم يقع بها، ولم يشهد على طلاقها، ولا على رجعتها، فقال: [طَلَّقْتَ لغير سُنة، وراجَعْتَ لغير سنة: أَشْهِدْ على طلاقها، وعلى رجعتها، ولا تَعُدْ].

وعن الحسن: ({ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ} قال: من المسلمين). وقال قتادة: (من أحراركم).

ولا خلاف بين الفقهاء في اشتراط عدالة الشهود لأدلة منها:

١ -هذه الآية: {وأشهدوا ذوي عدل منكم} [الطلاق:٢].

٢ -ولقوله تعالى: {ممن ترضون من الشهداء} [البقرة:٢٨٢] والشاهد المرضي هو: الشاهد العدل.

٣ -ولأن الله تعالى أمر بالتوقف عن نبإ الفاسق في قوله سبحانه: {ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا} [الحجرات:٦]، والشهادة نبأ فيجب التثبت.

٤ -ولأن دين الفاسق لم يمنعه من ارتكاب المحظورات، فلا يؤمن أن لا يمنعه

=

=

عن الكذب فلا تحصل الثقة بشهادته.

قال الجصاص: (وقد وصف الله تعالى الشهود المقبولين بصفتين: إحداهما: العدالة في قوله تعالى: {اثنان ذوا عدل منكم} [المائدة:١٠٦] وقوله: {وأشهدوا ذوي عدل منكم} [الطلاق:٢]، والأخرى: أن يكونوا مرضيين لقوله: {ممن ترضون من الشهداء} [البقرة:٢٨٢] والمرضيون لا بد أن تكون من صفتهم العدالة).

واختار أبو حنيفة أن العدالة الظاهرة كافية في قبول الشهادة، أما العدالة الحقيقية وهي الثابتة بالسؤال عن حال الشهود بالتعديل والتزكية فليست بشرط عنده؛ لظاهر قوله تعالى: {وكذلك جعلناكم أمة وسطا} [البقرة:١٤٣]، أي: عدلا.

ولأن العدالة الحقيقية لا يمكن الوصول إليها، فتعلق الحكم بالظاهر.

قال ابن قدامة: (الفسوق نوعان: أحدهما: من حيث الأفعال، فلا نعلم خلافا في رد شهادته، والثاني: من جهة الاعتقاد، وهو اعتقاد البدعة فيوجب رد الشهادة أيضا ...).

وذلك: مثل شرب الخمر، والتساهل في فعل المعاصي، والقول بخلق القرآن، ونحوها، وأشار ابن قدامة إلى أن ظاهر قول أبي حنيفة: قبول شهادة أهل الأهواء، وهذا قول مرجوح، لأنه أحد نوعي الفسق، إلا ألا يكون ذلك ظاهرا كما سبق.

وقوله: {وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ}. قال النسفي: (لوجهه خالصًا، وذلك أن يقيموها لا للمشهود له ولا للمشهود عليه ولا لغرض من الأغراض سوى إقامة الحق ودفع الضرر).

(تنبيه): الشهادة بالرجعة في الطلاق الرجعي خاص بالرجال دون النساء، وهو قول مالك، والشافعي، وأحمد، وأكثر الفقهاء.

ودليلهم نص الآية: {وأشهدوا ذوي عدل منكم} [الطلاق:٢] والعدل إنما يقع

=

=

على الرجال دون النساء، وذوي: مذكر فلا يدخل فيه الإناث.

قال مالك عن شهادة النساء: (لا تجوز إلا حيث ذكرها الله في الدين، أو ما لا يطلع عليه أحد إلا هن للضرورة إلى ذلك).

وذهب أبو حنيفة إلى أنه تقبل في الرجعة شهادة رجل وامرأتين.

استدلالا بقول الله تعالى: {واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ... } [البقرة:٢٨٢].

والصواب ما ذهب إليه جمهور العلماء؛ لأن الله تعالى نص في الشهادة فيما سوى الأموال على الرجال دون النساء كأمور الطلاق والرجعة والوصية؛ فقال تعالى: {فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم} [الطلاق:٢]، وقال سبحانه: {إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم} [المائدة:١٠٦]؛ ولأنها مما يطلع عليه الرجال، فلم يكن للنساء في الشهادة مدخل.

قال ابن حزم: (أما أبو حنيفة: فأجاز شهادة النساء في النكاح، والطلاق، والرجعة مع رجل، وليس هذا في شيء من الآيات، بل فيها: {فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم} [الطلاق:٢]).

وأما الجواب عن آية الدين التي استدل بها أبو حنيفة: فهو أنها نص في الأموال، ولا يصح استعمال العموم فيها، والرجعة ليست بمال، ولا يقصد فيها المال، ولا يصح قياس الرجعة على الأموال لوجود الفارق بينهما، وهو أن الأموال يصح الإبراء منها بخلاف الرجعة، والرجعة من الأمور التي يطلع عليها الرجال فلم يكن للنساء في شهادتها مدخل كالحدود والقصاص. والله تعالى أعلم.

وقوله: {ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} . أي: إنما ينتفع بهذه

=

=

الأحكام والمواعظ من كان يؤمن بالله ويعظم شرعه، ويخاف عقابه في الدار الآخرة.

وقوله: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا}. أصل عظيم من أصول الشريعة المطهرة، فإن التقوى هي مفتاح كل خير، وكل فرج ومخرج من كل أمر عسير.

قال ابن عباس: ({وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} يقول: نجاته من كلّ كرب في الدنيا والآخرة). وعن قتادة: ({يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} قال: من شبهات الأمور، والكرب عند الموت). وقال الحسن: (مخرجًا مما نهى الله عنه). وقال أبو العالية: (مخرجًا من كل شدة). وقال الربيع بن خَيْثَم: ({يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} من كل شيء ضاق على الناس). وقال الكلبي: ({وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ} بالصبر عند المصيبة {يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} من النار إلى العقوبة). وقال الحسين بن الفضل: ({وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ} في أداء الفرائض، {يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} من العقوبة).

وقال سهل بن عبد الله: ({وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ} في اتباع السنة {يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} من عقوبة أهل البدع، ويرزقه الجنة من حيث لا يحتسب).

وقيل: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ} في الرزق بقطع العلائق يجعل له مخرجًا بالكفاية. وقال عمر بن عثمان الصَّدفي: ({وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ} فيقف عند حدوده ويجتنب معاصيه يخرجه من الحرام إلى الحلال، ومن الضّيق إلى السّعة، ومن النار إلى الجنة).

وقوله: {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ}. أي من جهةٍ لا تخطر بباله. قال قتادة: (من حيث لا يرجو ولا يؤمل). وفي الأثر عن أبي ذر قال: (إني لأعلم آية لو أخذ بها الناس لكفتهم -تلا-: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} فما زال يكررها ويعيدها).

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنته، يعطى بها (وفي رواية: يثاب عليها الرزق في الدنيا) ويجزى بها في

=

الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها].

وقوله: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} . أي: ومن يفوِّض أموره إلى الله، ويحسن الاعتماد عليه -سبحانه-فهو كافيه ما أهمه وما أغمّه.

قال الإمام أحمد: (التوكل عمل القلب). وقال سهل: (التوكل الاسترسال مع الله مع ما يريد). وقيل: (هو علم القلب بكفاية الرب للعبد).

قلت: ولا يستقيم التوكل إلا من أهل العمل ومواجهة القدر بالقدر، وإلا كان عجزًا وكسلًا. وقد امتدح الله المؤمنين بهذه الصفة العالية فقال جل ثناؤه: {وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [إبراهيم: ١٢]. وقال جل ذكره: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: ١٥٩].

وقوله: {إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ} . قال ابن كثير: (أي: مُنْفِذٌ قضاياه وأحكامه في خَلْقِه بما يُريده ويشاؤه).

وقوله: {قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} . قال مسروق: (أجلًا). أو قال: (منتهى). قال القرطبي: (أي لكل شيء من الشدة والرخاء أجلًا ينتهي إليه. وقيل: تقديرًا). وفي التنزيل: {وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} [الرعد: ٨].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: [إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة. وكان عرشه على الماء].

ورواه الترمذي بلفظ: [قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرضين بخمسين ألف سنة].

قوله تعالى: {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} [الطلاق: ٣]، أي:"وييسِّر له أسباب الرزق من حيث لا يخطر على باله، ولا يكون في حسبانه".

=

قال الطبري:"يقول: ويسبب له أسباب الرزق من حيث لا يشعر، ولا يعلم".

قال ابن كثير:"أي: من جهة لا تخطر بباله".

عن مسروق:"{وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ}، قال: من حيث لا يدري".

عن قتادة: " {وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ}، من حيث لا يرجو ولا يؤمل". وفي رواية:"لا يأمل ولا يرجو".

عن شُتَير بن شكَل قال:"سمعت عبد الله بن مسعود يقول: إن أجمع آية في القرآن: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ} [النحل: ٩٠] وإن أكثر آية في القرآن فرجًا: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا}".

عن أبي ذر قال: "جعل رسول الله ﷺ يتلو عَلَيَّ هذه الآية: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ} حتى فرغ من الآية، ثم قال: "يا أبا ذر، لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتهم". وقال: فجعل يتلوها ويُرددها علي حتى نَعَست، ثم قال: "يا أبا ذر، كيف تصنع إن أخرجت من المدينة؟. "قلت: إلى السعة والدّعة أنطلق، فأكون حمامة من حمام مكة. قال: "كيف تصنع إن أخرجت من

مكة؟ ". قال: قلت: إلى السعة والدّعة، وإلى الشام والأرض المقدسة. قال: "وكيف تصنع إن أخرجتَ من الشام؟ ". قلت: إذا -والذي بعثك بالحق -أضع سيفي على عاتقي. قال: "أوخير من ذلك؟ ". قلت: أوخير من ذلك؟ قال: "تسمع وتطيع، وإن كان عبدًا حبشيًّا".

عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هَمٍّ فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب".

قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ} [الطلاق: ٣]، أي:"ومن يتوكل على الله فهو كافيه ما أهمَّه في جميع أموره".

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ومن يتق الله في أموره، ويفوّضها إليه فهو كافيه".

عن الشعبيّ، قال: "تجالس شُتير بن شكل ومسروق، فقال شُتير: إما أن تحدّث ما سمعت من ابن مسعود فأصدّقك، وإما أن أحدث فتصدّقني؟ قال مسروق: لا بل حدّث فأصدّقك، فقال: سمعت ابن مسعود يقول: إن أكبر آية في القرآن تفوّضًا: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}، قال مسروق: صدقت".

عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: "من نزل به حاجة فأنزلها بالناس كان قمنًا أن لا تُسَهَّل حاجته، ومن أنزلها بالله أتاه الله برزق عاجل، أو بموت آجل".

عن عبد الله: " {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}، قال: ليس بمتوكل الذي قد قُضيت حاجته، وجعل فضل من توكل عليه على من لم يتوكل أن يكفرَ عنه سيئاته، ويُعظم له أجرًا".

عن عبد الله بن عباس: أنه حدثه أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يومًا فقال له رسول الله ﷺ: "يا غلام، إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك، لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ} [الطلاق: ٣]، أي:"إن الله بالغ أمره، لا يفوته شيء، ولا يعجزه مطلوب".

قال الطبري:"إن الله بالغ أمره بكل حال توكل عليه العبد أو لم يتوكل عليه".

قال ابن كثير:"أي: منفذ قضاياه وأحكامه في خلقه بما يريده ويشاؤه".

قال مقاتل:"فيما نزل به من الشدة والبلاء".

عن مسروق: " {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ}، توكل عليه أو

=

وَاللَّائِـي يَئِـسْنَ مِـنَ الْمَحِـيضِ مِـنْ نِـسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْـتُمْ فَعِـدَّتُهُنَّ ثَلَاثَـةُ أَشْـهُرٍ وَاللَّائِي لَـمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُـنَّ أَنْ يَـضَعْنَ حَمْلَهُـنَّ وَمَـنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤).

{وَاَللَّائِي} بِهَمْزَةٍ وَيَاء وَبِلَا يَاء فِي الْمَوْضِعَيْنِ {يَئِسْنَ مِنْ الْمَحِيض} بِمَعْنَى

=

لم يتوكل عليه، غير أن المتوكل يُكَفِّرْ عنه سيئاته، ويُعظِم له أجرًا".

قوله تعالى: {قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} [الطلاق: ٣]، أي:"قد جعل الله لكل شيء أجلا ينتهي إليه، وتقديرًا لا يجاوزه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قد جعل الله لكلّ شيء من الطلاق والعدّة وغير ذلك حدًا وأجلا وقدرًا يُنتهى إليه".

قال مقاتل: أي:"من الشدة والرخاء {قَدْرًا}، يعني: متى يكون هذا الغني فقيرا؟ ومتى يكون هذا الفقير غنيا؟ فقدر الله ذلك كله، لا يقدم ولا يؤخر".

قال ابن كثير:"{قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا} كقوله: {وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} [الرعد: ٨]".

قال ابن أبي زمنين:"أي: منتهى ينتهى إليه".

قال الثعلبي:"حدا وأجلا ينتهي إليه".

عن مسروق: " {قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}، قال: أجلا". وفي رواية:"منتهى".

عن السديّ، قوله: " {قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}، قال: الحيض في الأجل والعدّة".

قال عبد الرحمن بن نافع: "لما نزلت: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}، قال أصحاب رسول الله ﷺ: حسبنا الله إذا توكلنا عليه فنحن ننسى ما كان لنا ولا نحفظه، فأنزل الله تعالى: {إِنَّ اللهَ بالِغُ أَمْرِهِ}، يعني: منكم وعليكم".

الْحَيْض {مِنْ نِسَائِكُمْ إنْ ارْتَبْتُمْ} شَكَكْتُمْ فِي عِدَّتهنَّ {فَعِدَّتهنَّ ثَلَاثَة أَشْهُر وَاَللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ} لِصِغَرِهِنَّ فَعِدَّتهنَّ ثَلَاثَة أَشْهُر وَالْمَسْأَلَتَانِ فِي غَيْر الْمُتَوَفَّى عَنْهُنَّ أَزْوَاجهنَّ أَمَّا هُنَّ فَعِدَّتهنَّ مَا فِي آيَة يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَة أَشْهُر وَعَشْرًا {وَأُولَات الْأَحْمَال أَجَلهنَّ} انْقِضَاء عِدَّتهنَّ مُطَلَّقَات أَوْ مُتَوَفَّى عَنْهُنَّ أَزْوَاجهنَّ {أَنْ يَضَعْنَ حَمْلهنَّ وَمَنْ يَتَّقِ الله يَجْعَل لَهُ مِنْ أَمْره يُسْرًا} فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة.

ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥).

{ذَلِكَ} الْمَذْكُور فِي الْعِدَّة {أَمْر الله} حُكْمه {أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا[١]}.

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه؛ أنه قال: يا رسول الله! إن عِدداً من عدد النساء لم تذكر في الكتاب: الصغار، والكبار، وأولات الأحمال؛ فأنزل الله: {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤)}.

أخرجه ابن أبي شيبة في "المصنف" (٤/ ٢٩٨)، وإسحاق بن راهويه في "مسنده"؛ كما في "المطالب العالية المسندة" (٩/ ٦٠، ٦١ رقم ٤١٥٤، ٦١، ٤١٥٥)، و"إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ١٧٨، ١٧٩ رقم ٧٨٦٢)، والطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ٩١)، وابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٤٠٧)، والحاكم (٢/ ٤٩٢، ٤٩٣)، والبيهقي (٧/ ٤١٤)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٩٠) من طريق مطرف بن طريف عن عمرو بن سالم أبي عثمان الأنصاري عن أُبيّ به.

قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

=

=

ولكن أبا عثمان الأنصاري لم يدرك أُبيّ بن كعب.

قال ابن أبي حاتم الرازي في "المراسيل" (ص ١٢١ رقم ٢٥٧): "سألت أَبي عن حديث رواه جرير عن مطرف عن عمرو بن سالم عن أُبيّ بن كعب: (وذكر حديثنا هذا). قال أَبي: إنما هو عمرو بن سالم... وهو جد يحيى بن الضريس... ولم يدرك أُبيًّا إنما يحدث عن القاسم بن محمد".

وقال المزي في "تهذيب الكمال" (٣٤/ ٦٩): "روى عن أُبيّ بن كعب مرسلاً".

فالحديث ضعيف.

وعن إسماعيل بن أبي خالد؛ قال: لما نزلت هذه الآية: {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤)}؛ سألوا النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله! أرأيت التي لم تحض والتي قد يئست من المحيض، فاختلفوا فيها؛ فأنزل الله تعالى: {إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} يقول: إن شككتم فعدتهن ثلاثة أشهر، واللائي لم يحضن بمنزلتهن، وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (٢/ ٢٩٨)، وابن المنذر؛ كما في "الدر المنثور" (٨/ ٢٠١) عن الثوري عن إسماعيل به. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

* في هذ الآيات: بيانُ عدة الآيسة -وهي التي انقطع محيضها لكبرها- أنها ثلاثة أشهر عوضًا عن ثلاثة القروء في حق من تحيض، وكذا الصغار اللائي لم يحضن بَعْدُ لصغرهن فعدتهن مثل عدة الآيسة ثلاثة أشهر، وأما الحامل فعدتها تنتهي بوضع الحمل، والفلاح كل الفلاح إنما هو بامتثال التقوى والله عنده أجر عظيم.

فقوله: {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ}. قال القرطبي: (يعني قعدن عن

=

=

المحيض). وقوله: {إِنِ ارْتَبْتُمْ} فيه قولان عند المفسرين يكمل أحدهما الآخر:

القول الأول: أي إن رأين دمًا فشككتم أهو دم حيض أو استحاضة. وهو قول مجاهد وابن زيد.

القول الثاني: إن شككتم فلم تدروا ما الحكم فيهن، فإن عدتهن ثلاثة أشهر.

قال النسفي: ({إِنِ ارْتَبْتُمْ} أي أشكل عليكم حكمهن وجهلتم كيف يعتددن {فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ} أي فهذا حكمهن). وهو اختيار ابن جرير.

وقوله: {وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ}. قال السدي: (الجواري). قال ابن جرير: (يقول: وكذلك عدد اللائي لم يحضن من الجواري الصغار إذا طلقهن أزواجهن بعد الدخول).

وقوله: {وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}. قال ابن كثير: (يقول تعالى: ومن كانت حامِلًا فَعِدّتُها بوضعه، ولو كان بعد الطلاقِ أو الموتِ بِفُواقِ ناقة).

وفي صحيح البخاري عن يحيى قال: أخبرني أبو سلمة قال: [جاء رجلٌ إلى ابن عباس -وأبو هريرة جالِسٌ عِنده- فقال: أَفْتِني في امرأة وَلَدَتْ بَعْدَ زوجها بأربعين ليلة، فقال ابن عباس: آخِرُ الأجَلين. قلت أنا: {وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي -يعني أبا سلمة- فأرسلَ ابنُ عباس غُلامَهُ كُرَيبًا إلى أم سلمة يسألها فقالت: قتِلَ زَوْجُ سُبَيْعَةَ الأسلمية وهي حُبْلى، فوضَعَتْ بَعْدَ موتِه بأربعين ليلة، فَخُطِبَتْ فأنكحها رسولُ الله ﷺ وكان أبو السّنابل فيمن خطبها].

وأخرج البخاري وأحمد والنسائي عن المِسور بن مَخْرمة: [أنَّ سُبَيْعَةَ الأسلمية تُوفي عنها زوجها وهي حامل، فلم تمكُث إلا لياليَ حتى وضعت، فلما تَعَلّت من نفاسها خُطِبَت، فاستأذنت رسول الله ﷺ في النكاح، فَأذِنَ لها أن تُنْكَحَ، فَنُكِحَت].

=

=

وفي صحيح مسلم عن ابن شهاب: حدثني عُبَيْد الله بنُ عبدِ الله بنِ عُتبة بن مسعود، أن أباه كتبَ إلى عمر بن عبد الله بن الأرقم الزُّهري، يأمره أن يَدْخُلَ على سُبَيْعَةَ بِنْتِ الحارِثِ الأَسْلَمِيَّةِ، فيسألَها عن حَديثها وعَمَّا قال لها رسول الله ﷺ حين استَفْتَتْهُ، فكتب عمرُ بن عبد الله إلى عبد الله بن عُتبة يُخْبِرُه أن سُبَيْعَةَ أَخْبَرَتْه، أنها كانت تحت سَعْدِ بن خوْلَةَ، وهو في بني عامرِ بن لؤي، وكان مِمَّن شهد بَدْرًا، فَتُوفي عنها في حَجَّة الوداع وهي حامِلٌ، فَلَمْ تَنْشَبْ أن وَضَعَتْ حَمْلَها بَعْدَ وفاتِه، فلمّا تَعَلَّتْ مِنْ نِفاسِها تَجَمَّلَتْ لِلخُطَّاب، فدخِلَ عليها أبو السّنابِلِ بْنُ بَعْكَكٍ - رجلٌ من بني عبد الدار-فقال لها مالي أَراكِ مُتَجَمِّلةً؟ لعلّك تَرْجين النِّكاح، إنَّك والله! ما أَنْتِ بناكِحٍ حتى تَمُرَّ عليك أربعةُ أَشْهُرٍ وعَشْرٌ. قالت سُبَيْعة: فلما قال لي ذلك، جَمَعْتُ عَليَّ ثِيابي حين أمْسَيْتُ، فأتَيْتُ رسولَ الله ﷺ فسألْتُهُ عن ذلك؟ فأفتاني بأني قدْ حَلَلْتُ حين وَضَعْتُ حَمْلي، وأمَرَني بالتزوُّج إنْ بدا لي]. قال ابن شهاب: (فلا أرى بأسًا أنْ تَتَزَوَّجَ حين وضَعَتْ، وإنْ كانت في دَمِها، غيرَ أنه لا يقرَبُها زوجُها حتى تَطْهُر).

وقوله: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} . قال مقاتل: (ومن يتق الله في اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يُسرًا في توفيقه للطاعة).

والمقصود: تأكيد أن تقوى الله بتعظيم أوامره واجتناب نواهيه مفتاح كل فرج وتيسير، وكل مخرج من أمر عسير.

قوله تعالى: {وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ} [الطلاق: ٤]، أي:"والنساء المطلقات اللاتي انقطع عنهنَّ دم الحيض؛ لكبر سنهنَّ، إن شككتم فلم تدروا ما الحكم فيهنَّ؟ فعدَّتهنَّ ثلاثة أشهر".

قال الطبري: يقول:"واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم بالحكم فيهنّ، وفي عِددهنّ، فلم تدروا ما هنّ، فإن حكم عددهنّ إذا طلقن، وهنّ ممن

=

=

دخل بهنّ أزواجهنّ، فعدتهن ثلاثة أشهر".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مبينًا لعدة الآيسة -وهي التي قد انقطع عنها الحيض لكبرها -: أنها ثلاثة أشهر، عوضًا عن الثلاثة قروء في حق من تحيض، كما دلت على ذلك آية «البقرة» ".

قال قتادة:"وهنّ اللواتي قعدن من المحيض فلا يحضن، واللائي لم يحضن هنّ الأبكار التي لم يحضن، فعدتهنّ ثلاثة أشهر".

قال السدي:"يقول: التي قد ارتفع حيضها، فعدتها ثلاثة أشهر".

عن الضحاك في قوله: {وَاللائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ}،... الآية، قال: القواعد من النساء".

وفي معنى: «الريبة» -ها هنا-، ثلاثة أقوال:

أحدهما: إن ارتبتم فيهن بالدم الذي يظهر منهن لكبرهن فلم تعرفوا أحيض هو أم استحاضة، فعدتهن ثلاثة أشهر، قاله مجاهد، والزهري. وآخرون.

قال مجاهد:"إن لم تعلموا التي قعدت عن الحيضة، والتي لم تحض، فعدتهنّ ثلاثة أشهر".

عن الزهريّ: " {إِنِ ارْتَبْتُمْ}، قال: في كبرها أن يكون ذلك من الكبر، فإنها تعتدّ حين ترتاب ثلاثة أشهر؛ فأما إذا ارتفعت حيضة المرأة وهي شابة، فإنه يتأنى بها حتى ينظر حامل هي أم غير حامل؟ فإن استبان حملها، فأجلها أن تضع حملها، فإن لم يستبن حملها، فحتى يستبين بها، وأقصى ذلك سنة".

قال ابن زيد:"إن ارتبت أنها لا تحيض وقد ارتفعت حيضتها، أو ارتاب الرجال، أو قالت هي: تركتني الحيضة، فعدتهنّ ثلاثة أشهر إن ارتاب، فلو كان الحمل انتَظَرَ الحملَ حتى تنقضي تسعة أشهر، فخاف وارتاب

هو، وهي أن تكون الحيضة قد انقطعت، فلا ينبغي لمسلمة أن تحبس، فاعتدت

=

=

ثلاثة أشهر، وجعل الله جلّ ثناؤه أيضًا للتي لم تحض الصغيرة ثلاثة أشهر".
عن أَبي معبد، قال: "سُئل سليمان عن المرتابة، قال: هي المرتابة التي قد قعدت من الولد تطلق، فتحيض حيضة، فيأتي إبَّان حيضتها الثانية فلا تحيض؛ قال: تعتدّ حين ترتاب ثلاثة أشهر مستقبلة؛ قال: فإن حاضت حيضتين ثم جاء إبان الثالثة فلم تحض اعتدّت حين ترتاب ثلاثة أشهر مستقبلة، ولم يعتدّ بما مضى".
الثاني: إن ارتبتم بحكم عِددهن فلم تعلموا بماذا يعتددن، فعدتهن ثلاثة أشهر. اختاره الطبري، قال ابن كثير:"وهو أظهر في المعنى".
عن عمرو بن سالم، قال: "قال أبيّ بن كعب: يا رسول الله إن عددًا من عدد النساء لم تذكر في الكتاب الصغار والكبار، وأولات الأحمال، فأنزل الله: {وَاللائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}".
الثالث: معنى ذلك: إن ارتبتم مما يظهر منهنّ من الدم، فلم تدروا أدم حيض، أم دم مستحاضة من كبر كان ذلك أو علة؟ وهذا قول قتادة، وعكرمة.
عن عكرمة، قال: إن من الريبة: المرأة المستحاضة، والتي لا يستقيم لها الحيض، تحيض في الشهر مرارًا، وفي الأشهر مرّة، فعدتها ثلاثة أشهر، وهو قول قتادة".
قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصحة قول من قال: عُنِي بذلك: إن ارتبتم فلم تدروا ما الحكم فيهنّ، وذلك أن معنى ذلك لو كان كما قاله من قال: إن ارتبتم بدمائهنّ فلم تدروا أدم حيض، أو استحاضة؟ لقيل: إن ارتبتنّ لأنهنّ إذا أشكل الدم عليهنّ فهنّ المرتابات بدماء أنفسهنّ لا غيرهنّ، وفي قوله: {إِنِ ارْتَبْتُمْ} وخطابه الرجال بذلك دون النساء الدليل الواضح على صحة ما قلنا من أن معناه: إن ارتبتم أيها الرجال بالحكم فيهنّ؛ وأخرى وهو أنه جلّ ثناؤه قال: {وَاللائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ}، واليائسة من المحيض هي التي لا

=

=

ترجو محيضًا للكبر، ومحال أن يقال: واللائي يئسن، ثم يقال: ارتبتم بيأسهنّ، لأن اليأس: هو انقطاع الرجاء والمرتاب بيأسها مرجوّ لها، وغير جائز ارتفاع الرجاء ووجوده في وقت واحد، فإذا كان الصواب من القول في ذلك ما قلنا، فبين أن تأويل الآية: واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم بالحكم فيهنّ، وفي عِددهنّ، فلم تدروا ما هنّ، فإن حكم عددهنّ إذا طلقن، وهنّ ممن دخل بهنّ أزواجهنّ، فعدتهن ثلاثة أشهر".

قوله تعالى: {وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ} [الطلاق: ٤]، أي:"والصغيرات اللاتي لم يحضن، فعدتهن ثلاثة أشهر كذلك".

قال الطبري: " يقول: وكذلك عدد اللائي لم يحضن من الجواري لصغر إذا طلقهنّ أزواجهنّ بعد الدخول".

عن الضحاك:"{وَاللائِي لَمْ يَحِضْن}: لم يبلغن المحيض، وقد مُسِسْن، عدتهنّ ثلاثة".

عن السدي:"{وَاللائِي لَمْ يَحِضْن}، قال: الجواري".

قوله تعالى: {وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} [الطلاق: ٤]، أي:"وذوات الحَمْل من النساء عدتهن أن يضعن حَمْلهن".

قال الطبري:"في انقضاء عدتهنّ أن يضعن حملهنَّ، وذلك إجماع من جميع أهل العلم في المطلقة الحامل،".

وفي قوله تعالى: {وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} [الطلاق: ٤]، وجهان من التفسير:

أحدهما: أنه عام في المطلَّقات والمتوفى عنهنّ.

قال ابن كثير:"يقول تعالى: ومن كانت حاملا فعدتها بوضعه، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفُوَاق ناقة في قول جمهور العلماء من السلف والخلف، كما هو نص

=

=

هذه الآية الكريمة، وكما وردت به السنة النبوية".

عن أُبيّ بن كعب، قال: "لما نزلت هذه الآية: {وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}، قال: قلت: يا رسول الله، المتوفى عنها زوجها والمطلقة، قال: "نَعَمْ". وفي رواية:"أَجَلُ كُلّ حامِلٍ أن تضَعَ مَا فِي بَطْنِهَا".

عن قيس أن ابن مسعود قال: "من شاء لاعنته، ما نزلت: {وَأُولاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}، إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها، وإذا وضعت المتوفى عنها فقد حلت؛ يريد بآية المتوفي عنها: {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا}".

وفي رواية:"«من شاء قاسمته نزلت سورة النساء القُصْرَي بعدها»، يعني: بعد أربعة أشهر وعشرًا".

عن محمد بن سيرين، قال: "لقيت أبا عطية مالك بن عامر، فسألته عن ذلك، يعني عن المتوفى عنها زوجها إذا وضعت قبل الأربعة أشهر والعشر، فأخذ يحدثني بحديث سُبيعة، قلت: لا هل سمعت من عبد الله في ذلك شيئًا؟ قال: نعم، ذكرت ذات يوم أو ذات ليلة عند عبد الله، فقال: أرأيت إن مضت الأربعة أشهر والعشر ولم تضع أقد أحلَّت؟ قالوا: لا قال: أفتجعلون عليها التغليظ، ولا تجعلون لها الرخصة، فو الله لأنزلت النساء القُصْرَى بعد الطُّولَى".

عن الشعبي، قال: "ذكر عبد الله بن مسعود آخر الأجلين، فقال: من شاء قاسمته بالله أن هذه الآية التي أنزلت في النساء القُصْرَى نزلت بعد الأربعة الأشهر، ثم قال: أجل الحامل أن تضع ما في بطنها".

قال الشعبيُّ: "من شاء حالفته لأنزلت النساء القُصْرَى بعد الأربعة الأشهر والعشر التي في سورة البقرة".

عن مُغيرة، قال: "قلت للشعبي: ما أصدّق أن عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يقول: آخر الأجلين

=

=

أن لا تتزوّج المتوفى عنها زوجها حتى يمضي آخر الأجلين؛ قال الشعبيّ: بلى وصدق أشدّ ما صدّقت بشيء قط؛ وقال عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنما قوله: {وَأُولاتُ الأحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} المطلقات، ثم قال: إن عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعبد الله كانا يقولان في الطلاق بحلول أجلها إذا وضعت حملها".

عن السدي:"{وَأُولاتُ الأحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}، قال: للمرأة الحُبلى التي يطلقها زوجها وهي حامل، فعدتها أن تضع حملها".

قال قتادة:"فإذا وضعت ما في رحمها فقد انقضت عدتها، ليس المحيض من أمرها في شيء إذا كانت حاملا".

الثاني: أن ذلك خاصّ في المطلقات، وأما المتوفى عنها فإن عدتها آخر الأجلين، وذلك قول مرويّ عن عليّ وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

عن يحيى قال: "أخبرني أبو سلمة قال: جاء رجل إلى ابن عباس -وأبو هريرة جالس -فقال: أفتني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة. فقال: ابن عباس آخر الأجلين. قلت أنا: {وَأُولاتُ الأحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}، قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي -يعني أبا سلمة -فأرسل ابن عباس غلامه كريبا إلى أم سلمة يسألها، فقالت: قُتِل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت، فأنكحها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها".

عن المسور بن مَخْرَمَة:"أن سُبَيعَة الأسلمية تُوفي عنها زوجُها وهي حامل، فلم تمكث إلا ليالي حتى وضعت، فلما تَعَلَّت من نفاسها خُطِبت، فاستأذنت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النكاح، فأذن لها أن تُنكَح فنُكحت".

قال الطبري:"الصواب من القول في ذلك أنه عامّ في المطلقات والمتوفى عنهنّ، لأن الله جلّ وعزّ، عمّ بقوله بذلك فقال: {وَأُولاتُ الأحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} ولم يخصص بذلك الخبر عن مطلقة دون متوفى عنها، بل عمّ الخبر به

=

عن جميع أولات الأحمال، إن ظنّ ظانّ أن قوله: {وَأُولاتُ الأحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} في سياق الخبر عن أحكام المطلقات دون المتوفى عنهنّ، فهو بالخبر عن حكم المطلقة أولى بالخبر عنهنّ، وعن المتوفى عنهنّ، فإن الأمر بخلاف ما ظنّ، وذلك أن ذلك وإن كان في سياق الخبر عن أحكام المطلقات، فإنه منقطع عن الخبر عن أحكام المطلقات، بل هو خبر مبتدأ عن أحكام عدد جميع أولات الأحمال المطلقات منهنّ وغير المطلقات، ولا دلالة على أنه مراد به بعض الحوامل دون بعض من خبر ولا عقل، فهو على عمومه لما بيَّنا".

قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} [الطلاق: ٤]، أي:"ومن يَخَفِ الله، فينفذ أحكامه، يجعل له من أمره يسرًا في الدنيا والآخرة".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: ومن يخف الله فرهبه، فاجتنب معاصيه، وأدّى فرائضه، ولم يخالف إذنه في طلاق امرأته، فإنه يجعل الله له من طلاقه ذلك يسرًا، وهو أن يسهل عليه إن أراد الرخصة لاتباع نفسه إياها الرجعة ما دامت في عدتها وإن انقضت عدتها، ثم دعته نفسه إليها قدر على خطبتها".

قال البيضاوي:"{وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ}، في أحكامه فيراعي حقوقها. يسهل عليه أمره ويوفقه للخير".

قال ابن كثير:"أي: يسهل له أمره، وييسره عليه، ويجعل له فرجا قريبًا ومخرجًا عاجلا".

وقوله: {ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ}. أي هذا الذي ذُكِرَ من الأحكام الشرعية هو أَمْرُ الله أنزله إليكم من اللوح المحفوظ وبَيّنَه لكم، لتكونوا على بصيرة في أمور دينكم.

وقوله: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا}. أي: ومن يخف الله فيعظم أمر دينه حق التعظيم يمح عنه ذنوبه ويجزل له الثواب على التقوى والعمل

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ

=

الصالح، ويدخله جنته وذلك أعظم الجزاء وأطيب النعيم.

قوله تعالى: {ذَلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ} [الطلاق: ٥]، أي:"ذلك الذي ذُكِر من أمر الطلاق والعدة أمر الله الذي أنزله إليكم -أيها الناس-؛ لتعملوا به".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هذا الذي بيَّنت لكم من حكم الطلاق والرجعة والعدّة، أمر الله الذي أمركم به، أنزله إليكم أيها الناس، لتأتمروا له، وتعملوا به".

قال ابن كثير:"أي: حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسول الله ﷺ".

قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ} [الطلاق: ٥]، أي:"ومن يَخَفِ الله فيتقه باجتناب معاصيه، وأداء فرائضه، يمح عنه ذنوبه".

قال الطبري:"يقول: ومن يخف الله فيتقه باجتناب معاصيه، وأداء فرائضه، يمح الله عنه ذنوبه وسيئات أعماله".

قال القرطبي:"{وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ}، أي: يعمل بطاعته. {يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ} من الصلاة إلى الصلاة، ومن الجمعة إلى الجمعة".

قال ابن كثير:"أي: يذهب عنه المحذور".

قوله تعالى: {وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا} [الطلاق: ٥]، أي:"ويجزل له الثواب في الآخرة، ويدخله الجنة".

قال مقاتل:"يعنى: الجزاء، يعنى: يضاعفه له".

قال القرطبي:"أي: في الآخرة".

قال الطبري:"يقول: ويجزل له الثواب على عمله ذلك وتقواه، ومن إعظامه له الأجر عليه أن يدُخله جنته، فيخلده فيها".

قال ابن كثير: أي: "ويجزل له الثواب على العمل اليسير".

أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى (٦).

{أَسْكِنُوهُنَّ} أَيْ الْمُطَلَّقَات {مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ} أَيْ بَعْض مَسَاكِنكُمْ {مِنْ وُجْدكُمْ} أَيْ سِعَتكُمْ عَطْف بَيَان أَوْ بَدَل مِمَّا قَبْله بِإِعَادَةِ الْجَار وَتَقْدِير مُضَاف أَيْ أَمْكِنَة سَعَتكُمْ لَا مَا دُونهَا {وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ} الْمَسَاكِن فَيَحْتَجْنَ إِلَى الْخُرُوج أَوْ النَّفَقَة فَيَفْتَدِينَ مِنْكُمْ {وَإِنْ كُنَّ أُولَات حَمْل فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلهنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ} أَوْلَادكُمْ مِنْهُنَّ {فَآتُوهُنَّ أُجُورهنَّ} عَلَى الْإِرْضَاع {وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ} وَبَيْنهنَّ {بِمَعْرُوفٍ} بِجَمِيلٍ فِي حَقّ الْأَوْلَاد بِالتَّوَافُقِ عَلَى أَجْر مَعْلُوم عَلَى الْإِرْضَاع {وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ} تَضَايَقْتُمْ فِي الْإِرْضَاع فَامْتَنَعَ الْأَب مِنْ الْأُجْرَة وَالْأُمّ مِنْ فِعْله {فَسَتُرْضِعُ لَهُ} لِلْأَبِ {أُخْرَى} وَلَا تُكْرَه الْأُمّ عَلَى إِرْضَاعه.

لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧).

{لِيُنْفِق} عَلَى الْمُطَلَّقَات وَالْمُرْضِعَات {ذُو سَعَة مِنْ سَعَته وَمَنْ قُدِرَ} ضُيِّقَ {عَلَيْهِ رِزْقه فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ} أَعْطَاهُ {الله} عَلَى قَدْره {لَا يُكَلِّف الله نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ الله بَعْد عُسْر يُسْرًا} وَقَدْ جَعَلَهُ بِالْفُتُوحِ(١).

---

(١) في هذه الآيات: الأَمْرُ بالسكنى والنفقة للمطلقة حتى انقضاء عدتها، والتحذير من التضييق عليها، والحاملُ ينْفق عليها حتى تضع حملها، وأجر الإرضاع على الآباء، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.

فقوله: {أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ}. قال ابن عباس: (يقول: من سعتكم). قال السدي: (المرأة يطلقها، فعليه أن يسكنها، وينفق عليها). قال ابن كثير: (يقول تعالى آمرًا عباده إذا طَلَّقَ أحدُهم المرأة أن يُسْكِنها في منزل حتى =

=

تنقضي عدَّتها، فقال: {أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ} أي: عندكم). وعن قتادة: {مِنْ وُجْدِكُمْ} قال: إن لم تجد إلا جَنْبَ بيتِكَ فأسكنها فيه). وقال السدي: ({مِنْ وُجْدِكُمْ}: من ملككم، من مقدرتكم).

مسألة: سياق الآية قبلها وبعدها هل هو في الرجعيات أم في عموم المطلقات؟.

هذه المسألة اختلف فيها العلماء على قولين:

القول الأول: أن السياق كله في الرجعيات، قالوا: لأن حديث أول السورة كما في قوله تعالى: {لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا (١)} [الطلاق:١] كان في الرجعيات، وإنما نص على نفقة الحامل وإن كانت رجعية؛ لأن الحمل تطول مدته غالبا فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع؛ لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة.

القول الثاني: أن السياق في عموم المطلقات، قالوا: بدليل وجوب النفقة على الرجعية سواء كانت حاملا أو حائلا.

وهذا القول الأخير هو الصواب؛ بدليل أن السياق بعد الآيات الأولى في السورة كان في جميع المطلقات.

قال الجصاص: (وقوله تعالى: {وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن} [الطلاق:٦] قد انتظم المبتوتة والرجعية).

وقال ابن العربي: (وتحقيقه: أن الله تعالى ذكر المطلقة الرجعية وأحكامها حتى بلغ إلى قوله تعالى: {ذوي عدل منكم} [الطلاق:٢] ثم ذكر بعد ذلك حكما يعم المطلقات كلهن من تعديد الأشهر وغير ذلك من الأحكام وهو عام في كل مطلقة، فرجع ما بعد ذلك من الأحكام إلى كل مطلقة).

المسألة الثانية: هل تجب النفقة على البائن الحامل؟.

نقل الاجماع غير واحد من العلماء على وجوب النفقة على البائن الحامل

=

=

مستدلين بهذه الآية.

قال الطبري: (وقوله: {وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن} [الطلاق:٦] يقول تعالى ذكره: وإن كان نساؤكم المطلقات أولات حمل، وكن بائنات منكم، فأنفقوا عليهن في عدتهن منكم حتى يضعن حملهن، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل).

وقال السمرقندي: (وقد أجمعوا أن المطلقة إذا كانت حاملا فلها النفقة).

وقال ابن قدامة في البائن الحامل: (فلها النفقة والسكنى بإجماع أهل العلم).

وقال القرطبي: (أجمع أهل العلم على أن نفقة المطلقة ثلاثا أو مطلقة للزوج عليها رجعة وهي حامل واجبة لقوله تعالى: {وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن} [الطلاق:٦]).

ودليله قوله تعالى: {وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن} [الطلاق:٦]، وفي بعض أخبار فاطمة بنت قيس: " ما لك نفقة إلا أن تكوني حاملا ".

ولأن الحمل ولده، فيلزمه الإنفاق عليه، ولا يمكنه النفقة عليه إلا بالإنفاق عليها فوجب كما وجبت أجرة الرضاع.

والخلاف إنما هو في النفقة على البائن غير الحامل، وهو مبسوط في كتب الفقه وغيرها، والراجح أنه لا نفقة لها ولا سكنى؛ لدلالة الآية السابقة والحديث، ولا معارض لهما. والله أعلم.

وقوله: {وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ}. قال مجاهد: (في المسكن). وقال سفيان: (ليس ينبغي له أن يضارها ويضيق عليها مكانها). وقال مقاتل: (يعني يُضاجِرها لِتَفْتَدِيَ منه بمالها أو تخرجَ من مسكنه). قال القاسمي: ({وَلَا تُضَارُّوهُنَّ} أي لا تستعملوا معهن الضرار {لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ} أي في المسكن

=

=

ببعض الأسباب، من إنزال من لا يوافقهن، أو بشغل مكانهن، أو غير ذلك، حتى تضطروهن إلى الخروج أو الافتداء).

وقوله: {وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} . قال السدي: (ينفق على الحبلى إذا كانت حاملًا حتى تضع حملها). قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وإن كان نساؤكم المطلقات أولات حمل وكنّ بائنات منكم، فأنفقوا عليهن في عدّتهن منكم حتى يضعن حملهن).

وقوله: {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ} . قال القرطبي: {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ} -يعني المطلقات-أولادكم منهن فعلى الآباء أن يعطوهنّ أجرة إرضاعهن).

وقوله: {وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ} . قال النسفي: (أي تشاوروا على التراضي في الأجرة، أو ليأمر بعضكم بعضًا، والخطاب للآباء والأمهات {بِمَعْرُوفٍ} بما يليق بالسنة، ويحسن في المروءة، فلا يماكس الأب ولا تعاسر الأم لأنه ولدهما، وهما شريكان فيه وفي وجوب الإشفاق عليه). وقال القرطبي: ({وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ} هو خطاب للأزواج والزوجات، أي وليَقْبَلْ بعضكم من بعض ما أمره به من المعروف الجميل. والجميل منها إرضاع الولد من غير أجرة. والجميل منه توفير الأجرة عليها للإرضاع).

وقوله: {وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى} . قال السدي: (إن أبت الأم أن ترضع ولدها إذا طلقها أبوه التمس له مرضعة أخرى، الأمّ أحق إذا رضيت من أجر الرضاع بما يرضى به غيرُهَا، فلا ينبغي له أن ينتزع منها).

قوله تعالى: {أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ} [الطلاق: ٦]، أي:"أسكنوا المطلقات من نسائكم في أثناء عدتهن مثل سكناكم على قدر سَعَتكم وطاقتكم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: اسكنوا مطلقات نسائكم من الموضع الذي

=

=

سكنتم من سعتكم التي تجدون؛ وإنما أمر الرجال أن يعطوهنّ مسكنًا يسكنه مما يجدونه، حتى يقضين عِددَهنّ".

قال السدي:"المرأة يطلقها، فعليه أن يسكنها، وينفق عليها".

عن السديّ، قوله: " {مِنْ وُجْدِكُمْ}، قال: من ملككم، من مقدرتكم".

عن ابن عباس، قوله: " {أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ}، يقول: من سعتكم". وروي عن مجاهد وقتادة، مثله.

قال سعيد بن جبير:"فإن لم تجد إلا ناحية بيتك فأسكنها فيه".

قال ابن زيد:"من مقدرتك حيث تقدر، فإن كنت لا تجد شيئًا، وكنت في مسكن ليس لك، فجاء أمر أخرجك من المسكن، وليس لك مسكن تسكن فيه، وليس تجد فذاك، وإذا كان به قوّة على الكراء فذاك وجده، لا يخرجها من منزلها، وإذا لم يجد وقال صاحب المسكن: لا أنزل هذه في بيتي فلا وإذا كان يجد، كان ذلك عليه".

قوله تعالى: {وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ} [الطلاق: ٦]، أي:"ولا تلحقوا بهن ضررًا؛ لتضيِّقوا عليهن في المسكن".

قال الطبري: يقول:"ولا تضاروهنّ في المسكن الذي تسكنونهنّ فيه، وأنتم تجدون سعة من المنازل أن تطلبوا التضييق عليهنّ، لتضيقوا عليهنّ في المسكن مع وجودكم السعة".

قال السعدي:"أي: لا تضاروهن عند سكناهن بالقول أو الفعل، لأجل أن يمللن، فيخرجن من البيوت قبل تمام العدة فتكونوا، أنتم المخرجين لهن، وحاصل هذا أنه نهى عن إخراجهن، ونهاهن عن الخروج، وأمر بسكناهن، على وجه لا يحصل عليهن ضرر ولا مشقة، وذلك راجع إلى العرف".

قال مقاتل بن حيان: "يعني: يضاجرها لتفتدي منه بمالها أو تخرج من مسكنه".

=

=

عن مجاهد: " {وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ}، قال: في المسكن".
عن السدي:"قوله: " {وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ}، قال: لتضيقوا عليهن مساكنهنّ حتى يخرجن".
قال سفيان:"ليس ينبغي له أن يضارّها ويضيق عليها مكانها، {حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} هذا لمن يملك الرجعة، ولمن لا يملك الرجعة".
وقال الثوري، عن منصور، عن أبي الضُّحَى: {وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ} قال: يطلقها، فإذا بقي يومان راجعها".
قوله تعالى: {وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} [الطلاق: ٦]، أي:"وإن كان نساؤكم المطلقات ذوات حَمْل، فأنفقوا عليهن في عدتهن حتى يضعن حَمْلهن".
قال الطبري: يقول: " وإن كان نساؤكم المطلقات أولات حمل وكنّ بائنات منكم، فأنفقوا عليهنّ في عدتهنّ منكم حتى يضعن حملهنّ".
قال الزمخشري:"فإن قلت: فإذا كانت كل مطلقة عندكم تجب لها النفقة، فما فائدة الشرط في قوله: {وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ}، قلت: فائدته أن مدة الحمل ربما طالت فظن ظانّ أن النفقة تسقط إذا مضى مقدار عدة الحائل، فنفى ذلك الوهم".
قال القرطبي:"لا خلاف بين العلماء في وجوب النفقة والسكنى للحامل المطلقة ثلاثا أو أقل منهن حتى تضع حملها. فأما الحامل المتوفى عنها زوجها فقال علي وابن عمر وابن مسعود وشريح والنخعي والشعبي وحماد وابن أبي ليلى وسفيان والضحاك: ينفق عليها من جميع المال حتى تضع. وقال ابن عباس وابن الزبير وجابر بن عبد الله ومالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم: لا ينفق عليها إلا من نصيبها".

=

=

قال السمعاني:"من لم يوجب النفقة للمبتوتة الحامل استدل بهذه الآية:- {وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ} -، وقال: إن الله تعالى: شرط في وجوب النفقة للمبتوتات أن يكن حوامل. ومن

أوجب النفقة لهن قال: قوله: {وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ} [الطلاق: ٦]، أي: في ترك الإنفاق على العموم في المبتوتات".

قد اختلف الفقهاء في المبتوتة، هل لها سكنى، ونفقة في مدة العدة، أم لا؟ وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّ المبتوتة المطلقة ثلاثا لها السكنى، دون النفقة، واحتجوا بأنّ الله تعالى عمّ بالسكنى المطلقات كلّهنّ، وخصّ بالنفقة أولات الأحمال خاصّة قال: {فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}. قاله ابن المسيب، وسليمان بن يسار، وعطاء، والشعبي، والحسن، وهذا مذهب مالك، والشافعي، والأوزاعي، وابن أبي ليلى، وأبو عبيدة.

الثاني: لا سكنى لها ولا نفقة. قاله الحسن، وحماد، وأحمد، وإسحاق، وأبو ثور. واحتجوا بحديث فاطمة بنت قيس أخت الضّحاك بن قيس حين أرسل زوجها المخزومي طلاقها فلم يجعل لها رسول الله ﷺ نفقة وقال لها: إنّما النفقة إذا كانت له عليك الرجعة، وأمرها أن تعتدّ في بيت ابن أم مكتوم.

عن أَبي سلمة بن عبد الرحمن، قال: "حدثتني فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس أن أبا عمرو المخزوميّ، طلقها ثلاثًا فأمر لها بنفقة فاستقلتها، وكان رسول الله ﷺ بعثه نحو اليمن، فانطلق خالد بن الوليد في نفر من بني مخزوم إلى رسول الله ﷺ وهو عند ميمونة، فقال: يا رسول الله إن أبا عمرو طلق فاطمة ثلاثًا، فهل لها من نفقة؟ فقال رسول الله ﷺ: "لَيْسَ لَهَا نَفَقَةٌ"، فأرسل إليها رسول الله ﷺ أن انتقلي إلى بيت أمّ شريك وأرسل إليها أن لا تسبقيني بنفسك، ثم أرسل إليها أنّ أمّ

=

=

شريك يأتيها المهاجرون الأوّلون، فانتقلي إلى ابن أم مكتوم، فإنك إذا وضعت خمارك لم يرك، فزوّجها رسول الله ﷺ أُسامة بن زيد".

الثالث: لها السكنى والنفقة حاملا كانت أو حائلا، وهذا قول عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-. وبه قال سفيان، وأبو حنيفة.

وروي عن إبراهيم، قال: "كان عمر وعبد الله يجعلان للمطلقة ثلاثًا: السكنى، والنفقة، والمتعة. وكان عمر إذا ذكر عنده حديث فاطمة بنت قيس أن النبيّ ﷺ أمرها أن تعتدّ في غير بيت زوجها، قال: ما كنا لنجيز في ديننا شهادة امرأة".

وعن عيسى بن قرطاس، قال: "سمعت عليّ بن الحسين يقول في المطلقة ثلاثًا: لها السكنى، والنفقة والمتعة، فإن خرجت من بيتها فلا سكنى ولا نفقة ولا متعة".

عن إبراهيم، قال: للمطلقة ثلاثًا: السكنى والنفقة".

قال إبراهيم:"إذا طلق الرجل ثلاثًا، فإن لها السكنى والنفقة".

قال الطبري:"الصواب من القول في ذلك عندنا أن لا نفقة للمبتوتة إلا أن تكون حاملا لأن الله جلّ ثناؤه جعل النفقة بقوله: {وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن} للحوامل دون غيرهنّ من البائنات من أزواجهن ولو كان البوائن من الحوامل وغير الحوامل في الواجب لهنّ من النفقة على أزواجهنّ سواء، لم يكن لخصوص أولات الأحمال بالذكر في هذا الموضع وجه مفهوم، إذ هنّ وغيرهنّ في ذلك سواء، وفي خصوصهن بالذكر دون غيرهنّ أدل الدليل على أن لا نفقة لبائن إلا أن تكون حاملا".

واختلفوا في الحامل، والمتوفَّى عنها زوجها، على قولين:

أحدهما: أن نفقتها من جميع المال، قاله ابن مسعود، وابن عمر، وأبو العالية، والشعبي، وشريح، وإبراهيم، وبه قال مالك، وابن أبي ليلى، والثوري.

الثاني: أن نفقتها في مال نفسها، قاله ابن عباس، وابن الزبير، والحسن، وسعيد بن

=

=

المسيب، وعطاء، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه. وعن أحمد كالقولين.

عن ابن عباس، في قوله: " {وَإِنْ كُنَّ أُولاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ}، فهذه المرأة يطلقها زوجها، فيبتّ طلاقها وهي حامل، فيأمره الله أن يسكنها، وينفق عليها حتى تضع، وإن أرضعت فحتى تفطم، وإن أبان طلاقها، وليس بها حبل، فلها السكنى حتى تنقضي عدتها ولا نفقة، وكذلك المرأة يموت عنها زوجها، فإن

كانت حاملا أنفق عليها من نصيب ذي بطنها إذا كان ميراث، وإن لم يكن ميراث أنفق عليها الوارث حتى تضع وتفطم ولدها كما قال الله ﷻ: {وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِك}، فإن لم تكن حاملا فإن نفقتها كانت من مالها".

قوله تعالى: {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ} [الطلاق: ٦]، أي:"، فإن أرضعن لكم أولادهن منكم بأجرة، فوفوهن أجورهن".

قال الطبري: يقول:"فإن أرضع لكم نساؤكم البوائن منكم أولادهنّ الأطفال منكم بأجرة، فآتوهنّ أجورهن على رضاعهنّ إياهم".

قال الزجاج:"أي: فأعطوهن أجْرَةَ رِضَاعهنَّ".

قال ابن كثير:"أي: إذا وضعن حملهن وهن طوالق، فقد بنَّ بانقضاء عدتهن، ولها حينئذ أن ترضع الولد، ولها أن تمتنع منه، ولكن بعد أن تغذيه باللبَأ -وهو باكورة اللبن الذي لا قوام للولد غالبًا إلا به -فإن أرضعت استحقت أجر مثلها، ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجرة".

عن جويبر، عن الضحاك:"أنه قال في الرضاع: إذا قام على شيء فأُمّ الصبيّ أحقّ به، فإن شاءت أرضعته، وإن شاءت تركته إلا أن لا يقبل من غيرها، فإذا كان كذلك أُجْبِرت على رضاعه".

قال قتادة:"ي أحقّ بولدها أن تأخذه بما كنت مسترضعًا به غيرَها".

=

=

عن السديّ: " {فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}، قال: ما تراضوا عليه {عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ}".

عن منصور، عن إبراهيم:"في الصبيّ إذا قام على ثمن فأمه أحق أن ترضعه، فإن لم يجد له من يرضعه أجبرت الأم على الرضاع".

عن سفيان: " {فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ}، قال: إن أرضعت لك بأجر فهي أحقّ من غيرها، وإن هي أبت أن ترضعه ولم تواتك فيما بينك وبينها عاسرتك في الأجر فاسترضع له أخرى".

قوله تعالى: {وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ} [الطلاق: ٦]، أي:"وليأمر بعضكم بعضًا بما عرف من سماحة وطيب نفس".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وليقبل بعضكم أيها الناس من بعض ما أمركم بعضكم به بعضا من معروف".

قال ابن كثير:"أي: ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف، من غير إضرار ولا مضارة، كما قال تعالى في سورة "البقرة": {لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ} [البقرة: ٢٣٣]".

قال الزجاج:"قيل في التفسير: إنه الكسوةُ والدِّثَار، والمعروف -والله أعلم -أن لا يقصِّر الرجلُ في نفقة المرضع التي ترضع ولَدَه إذا كانت هي والدتَه لأن الوالدَةَ أَرأف بولدها من غيرها به، فلا تقصرُ في رضاعه والقيام بشأنه، فحق كل واحد منهما أن يأتمر في الولد بمعروف".

قال السعدي:"أي: وليأمر كل واحد من الزوجين ومن غيرهما الآخر بالمعروف، وهو كل ما فيه منفعة ومصلحة في الدنيا والآخرة، فإن الغفلة عن الائتمار بالمعروف، يحصل فيه من الشر والضرر، ما لا يعلمه إلا الله، وفي الائتمار تعاون على البر والتقوى، ومما يناسب هذا المقام، أن الزوجين عند الفراق وقت العدة،

=

=

خصوصًا إذا ولد لهما ولد في الغالب يحصل من التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلى الولد مع الفراق، الذي في الغالب ما يصدر إلا عن بغض، ويتأثر منه البغض شيء كثير، فكل منهما يؤمر بالمعروف، والمعاشرة الحسنة، وعدم المشاقة والمخاصمة، وينصح على ذلك".

قال الزمخشري:"يقال: ائتمر القوم وتآمروا، إذا أمر بعضهم بعضا. والمعنى: وليأمر بعضكم بعضا، والخطاب للآباء والأمهات بِمَعْرُوفٍ بجميل وهو المسامحة، وأن لا يماكس الأب ولا تعاسر الأم، لأنه ولدهما معا، وهما شريكان فيه وفي وجوب الإشفاق عليه".

عن السديّ، قوله: " {وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ}، قال: اصنعوا المعروف فيما بينكم".

عن سفيان: " {وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ}، حثّ بعضهم على بعض".

قوله تعالى: {وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى} [الطلاق: ٦]، أي:"وإن لم تتفقوا على إرضاع الأم، فستُرضع للأب مرضعة أخرى غير الأم المطلقة".

قال الطبري:"يقول: وإن تعاسر الرجل والمرأة في رضاع ولدها منه، فامتنعت من رضاعه، فلا سبيل له عليها، وليس له إكراهها على إرضاعه، ولكنه يستأجر للصبيّ مرضعة غير أمه البائنة منه".

قال ابن كثير:"أي: وإن اختلف الرجل والمرأة، فطلبت المرأة أجرة الرضاع كثيرًا ولم يجبها الرجل إلى ذلك، أو بذل الرجل قليلا ولم توافقه عليه، فليسترضع له غيرها. فلو رضيت الأم بما استؤجرت عليه الأجنبية فهي أحق بولدها".

قال الزجاج:"معناه: فليرضع الوالد غير والِدَةِ الصبِي، وهذا خبر في مَعْنى الأمْرِ لأن لفظ {فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى} لفظ الخبر ومعناه: فليرضع. ومثله في لفظ الخبر ومعنى الأمر قوله: {وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ}، معناه:

=

=

ولْيُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ".

قال الزمخشري: أي:"فستوجد ولا تعوز مرضعة غير الأم ترضعه، وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاسرة، كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيتوانى: سيقضيها غيرك، تريد: لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم، وقوله لَهُ أي للأب، أي: سيجد الأب غير معاسرة ترضع له ولده إن عاسرته أمه".

قال السعدي:"وهذا حيث كان الولد يقبل ثدي غير أمه، فإن لم يقبل إلا ثدي أمه، تعينت لإرضاعه، ووجب عليها، وأجبرت إن امتنعت، وكان لها أجرة المثل إن لم يتفقا على مسمى، وهذا مأخوذ من الآية الكريمة من حيث المعنى، فإن الولد لما كان في بطن أمه مدة الحمل، ليس له خروج منه، عين تعالى على وليه النفقة، فلما ولد، وكان يمكن أن يتقوت من أمه ومن غيرها، أباح تعالى الأمرين، فإذا كان بحالة لا يمكن أن يتقوت إلا من أمه كان بمنزلة الحمل، وتعينت أمه طريقًا لقوته".

قال السدي:"إن أبت الأم أن ترضع ولدها إذا طلقها أبوه التمس له مرضعة أخرى، الأمّ أحق إذا رضيت من أجر الرضاع بما يرضى به غيرها، فلا ينبغي له أن ينتزع منها".

قال سفيان:"إن هي أبت أن ترضعه ولم تواتك فيما بينها وبينك عاسرتك في الأجر، فاسترضع له أخرى".

عن ابن وهب، قال:"قال ابن زيد في قول الله: {وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ}، قال: فرض لها من قدر ما يجد، فقالت: لا أرضى هذا؛ قال: وهذا بعد الفراق، فأما وهي زوجته فإنها ترضع له طائعة ومكرهة إن شاءت وإن أبت، فقال لها: ليس لي زيادة على هذا إن أحببت أن ترضعي بهذا فأرضعي، وإن كرهت استرضعت ولدي، فهذا

=

=

قوله: {وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى} ".

وقوله: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ} . قال سفيان: (يقول: من طاقته). أي: لينفق على المولود والدُه أو وليُّه، بحسب قدرته وعلى قدر وسعه).

وقوله: {وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا} . قال ابن زيد: (فرض لها من قدر ما يجد). وقال السدي: ({لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا} يقول: لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني). وقال سفيان: {إِلَّا مَا آتَاهَا} يقول: إلا ما أطاقت). وهو كقوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة: ٢٨٦].

وقوله: {سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} قال سفيان: (بعد الشدة الرخاء). قال ابن جرير: ({سَيَجْعَلُ اللهُ} للمقل من المال المقدور عليه رزقه {بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} يقول: من بعد شدة رخاء، ومن بَعد ضيق سعة، ومن بعد فقر غنى).

قلت: والآية وعد من الله تعالى بالفرج على المعسر الممتثل أمر الله في بذل وسعه بأنه سيجعل له بعد الضيق غنى، وبعد الشدة سعة، وبعد العسر يسرًا.

وفي التنزيل: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح: ٥ -٦].

أخرج الخطيب في "التاريخ" بسند رجاله ثقات عن أنس مرفوعًا: [النَّصْرُ مع الصَّبْر، والفرج مع الكرب، وإن مع العُسْر يسرًا].

قوله تعالى: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ} [الطلاق: ٧]، أي:"لينفق الزوج مما وسَّع الله عليه على زوجته المطلقة، وعلى ولده إذا كان الزوج ذا سَعَة في الرزق".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: لينفق الذي بانت منه امرأته إذا كان ذا سعة من المال، وغني من سعة ماله وغناه على امرأته البائنة في أجر رضاع ولده منها، وعلى ولده الصغير".

قال ابن كثير:"أي: لينفق على المولود والده، أو وليه، بحسب قدرته".

=

=

قال الزمخشري: "لينقف كل من الموسر والمعسر ما بلغه وسعه، يريد: ما أمر به من الإنفاق على المطلقات والمرضعات، كما قال: {وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُه}".

قال السعدي:"أي: لينفق الغني من غناه، فلا ينفق نفقة الفقراء".

قال الزجاج:"أَمَرَ أهل التوسِعَةِ أن يُوَسِّعوا على نسائهم المرْضِعَاتِ أَوْلَادَهنَّ على قدر سعتِهن".

عن مجاهد: " {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ}، قال: على المطلقة إذا أرضعت له".

عن السديّ:"{لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ}، قال: من سعة موجده".

قال سفيان:"يقول: من طاقته".

قال ابن زيد:"فرض لها من قدر ما يجد".

وقرئ: «لينفق»، بالنصب، أي: شرعنا ذلك لينفق.

قوله تعالى: {وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ} [الطلاق: ٧]، أي:"ومن ضُيِّق عليه في الرزق وهو الفقير، فلينفق مما أعطاه الله من الرزق".

قال الطبري:"يقول: ومن ضيق عليه رزقه فلم يوسع عليه، فلينفق مما أعطاه الله على قدر ماله، وما أعطى منه".

عن السديّ:"{وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ}، قال: من قتر عليه رزقه".

عن ابن جريج:"{ومَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ} قال: قُتِّر {فَلْيُنْفِقْ مِمّا آتاهُ اللهُ} قال: أعطاه".

قوله تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا} [الطلاق: ٧]، أي:"لا يُكَلَّف الفقير مثل ما يُكَلَّف الغني".

قال الطبري:"يقول: لا يكلف الله أحدًا من النفقة على من تلزمه نفقته بالقرابة والرحم إلا ما أعطاه، إن كان ذا سعة فمن سعته، وإن كان مقدورًا عن رزقه فمما

=

=

رزقه الله على قدر طاقته، لا يُكلف الفقير نفقة الغنيّ، ولا أحد من خلقه إلا فرضه الذي أوجبه عليه".

قال السعدي:"وهذا مناسب للحكمة والرحمة الإلهية حيث جعل كلا بحسبه، وخفف عن المعسر، وأنه لا يكلفه إلا ما آتاه، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، في باب النفقة وغيرها".

عن هشيم: " {لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلا مَا آتَاهَا}، قال: إلا ما افترض عليها".

قال سفيان:"يقول: إلا ما أطاقت".

قال السدي:"يقول: لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغنيّ".

قال ابن زيد:"لا يكلفه الله أن يتصدّق وليس عنده ما يتصدّق به، ولا يكلفه الله أن يزكي وليس عنده ما يزكي".

قوله تعالى: {سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا} [الطلاق: ٧]، أي:"سيجعل الله بعد ضيق وشدة سَعَة وغنى".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {سَيَجْعَلُ اللهُ} للمقلّ من المال المقدور عليه رزقه من بعد شدّة رخاء، ومن بعد ضيق سعة، ومن بعد فقر غنى".

قال الزجاج:"أعلم الله المؤمنين أنهم وَإن كانوا في حالٍ ضَيِّقَةٍ، وقيل كان الغالب على أكثرهم في ذلك الوقت في عهد رسول الله ﷺ الفقر والفاقةُ فأعلمهم ﷻ أنه سَيوسِرُ المسلمون -ففتح الله عليهم بعد ذلك وجعل يُسراً بعد عُسْرٍ".

عن سفيان: " {سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا}، بعد الشدة الرخاء".

قال ابن كثير: هذا" وعد منه تعالى، ووعده حق، لا يخلفه، وهذه كقوله تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح: ٥، ٦]".

قال السعدي:"وهذه بشارة للمعسرين، أن الله تعالى سيزيل عنهم الشدة، ويرفع عنهم المشقة، {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا} [الشرح: ٥ -٦]".

=

عَن معمر، قَالَ: "سَأَلت الزُّهْرِيّ عَن الرجل لَا يجد مَا ينْفق على امْرَأته يفرق بَينهمَا قَالَ: يستأني لَهُ وَلَا يفرق بَينهمَا، وتلا: {لَا يُكَلف الله نفسا إِلَّا مَا آتاها سَيجْعَلُ الله بعد عسر يسرا} قَالَ معمر: وَبَلغنِي أَن عمر بن عبد الْعَزِيز قَالَ مثل قَول الزُّهْرِيّ".

عن أبي هريرة قال: "دخل رجل على أهله، فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البَرِيَّة، فلما رأت امرأته قامت إلى الرحى فوضعتها، وإلى التنور فسَجَرته، ثم قالت: اللهم ارزقنا. فنظرت، فإذا الجفنة قد امتلأت، قال: وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئًا، قال: فرجع الزوج قال: أصبتم بعدي شيئا؟ قالت امرأته: نعم، من ربنا. قام إلى الرحى، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: "أما إنه لو لم ترفعها، لم تزل تدور إلى يوم القيامة".

مسائل في الطلاق.

* طلاق السنة وطلاق البدعة:

قوله تعالى: {فطلقوهن لعدتهن}.

للطلاق عدة وموضع ينزل فيها، وليس للزوج أن يتكلم بالطلاق بهواه وفي الوقت الذي يشاء هو؛ فقد جعل الله للطلاق موضعا، وموضعه أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه، أو يطلقها حاملا قد اتضح حملها.

وقد قال ابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر؛ في قوله تعالى: {فطلقوهن لعدتهن}: إنه في طهر من غير جماع؛ وبه قال عطاء ومجاهد والحسن وعكرمة وميمون بن مهران.

وكل طلاق لم يوافق السنة، فهو طلاق بدعي، أما السني فتقدم، وأما الطلاق البدعي: فهو تطليق الزوجة في حيضها أو نفاسها، أو في طهر قد جامعها فيه، أو يطلقها في زمن عدتها من تطليقة سابقة، أو يطلقها أكثر من طلقة مرة واحدة.

=

وأما الصغيرة والآيسة التي لا تحيض، فلا طلاق بدعيا يتعلق بحيضها ونفاسها؛ وإنما البدعي يتعلق بتطليقها في زمن عدتها من طلقة سابقة، أو تطليقها بأكثر من واحدة مرة واحدة.

ومن الأئمة كالشافعي: من لم يجعل مجرد الطلاق ثلاثا بدعة ما دام طلاقها في طهر لم يجامعها فيه؛ فاعتبر الزمان ولم يعتبر العدد، ولكن أمر النبي ﷺ ابن عمر أن يراجعها، ثم إن الله تعالى قال بعد: {لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا}، والأمر: الرجعة، وهذا يدل على أن المراد بقوله: {فطلقوهن لعدتهن} طلاق الرجعة، وهو الأصل، والثلاث على قوله لا رجعة فيها، وقد أخذ بعموم الآية: {فطلقوهن لعدتهن}، فوسع في عدد الطلقات ما دام في العدة، وقد تقدم الكلام على الطلاق الثلاث بلفظ واحد أو مجلس واحد عند قوله تعالى: {الطلاق مرتان} [البقرة: ٢٢٩].

وقوله تعالى: {وأحصوا العدة} أمر الله بضبط العدة؛ لأن ذلك يتعلق به حقوق واستحلال فروج وتحريمها، ومن ذلك الميراث؛ فلو مات أحد الزوجين في آخر يوم من عدة طلاق الرجعة ولم تخرج منها، فإنهما يتوارثان، وتعتد الزوجة لوفاة زوجها، وبضبط العدة تحفظ الأرحام من أن يكون فيها نطفة لزوج سابق، فتتزوج غيره فينتسب الولد إلى غير أبيه، وكل خطبة لزوجة في عدة طلاقها فهي محرمة؛ لأنها في عصمة زوجها واحتمال رجعتها إليه، فضلا عى حرمة وطء غير زوجها لها -ولو كان بعقد-في أثناء العدة.

* السكنى للمطلقة: قال تعالى: {لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن}، نسب الله البيوت إليهن، فقال: {بيوتهن}؛ ليبين حقهن فيها بالسكنى في أثناء عدتها، فالمطلقة الرجعية لا يجوز لزوجها إخراجها بعد تطليقه لها حتى تخرج من عدتها؛ كما أنه لا يجوز لها أن تخرج هي من بيت زوجها: {ولا يخرجن}؛ لأنها وإن

=

=

كانت مطلقة فهي في عصمة زوجها لا تخرج إلا بإذنه.

وإن خرجت المطلقة من بيت زوجها بغير إذنه، فلا نفقة لها ولا سكنى؛ وهذا مقتضى سياق الآية.

وقوله تعالى: {ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة} بين الله أن المرأة إن أتت بفاحشة بينة، وهي الزنى، فلزوجها إخراجها من منزله؛ لأنها خانت أمانته وعهده معها وميثاق الله الذي أخذه عليها.

وقد فسر الفاحشة بالزنى جماعة، كابن مسعود وابن عباس وجماعة من السلف.

ومن السلف: من حمل الفاحشة هنا على فحش اللسان وبذاءته؛ كأن تتسلط بالفحش على الزوج وعلى أهله كأمه وأبيه؛ وهذا مروي عن ابن عباس.

ومنهم: من حمل الفاحشة على كل معصية، وروي هذا عن ابن عباس أيضا، وصوبه ابن جرير.

وقوله تعالى: {وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه} بيان بأن أحكام الطلاق والعدد والسكنى أحكام لله لا يجوز الخروج عنها مهما بلغت البغضاء بين الزوجين، فأمر الله وحده فوق ذلك كله، ومن خالف تلك الحدود من الزوجين، فظلمه على نفسه؛ فالله لم يشرع الأحكام إلا لمنفعته ولو جهل ذلك أو غابت عنه حكمته، وبيان ذلك في قوله تعالى: {لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا}؛ يعني: أن الله يحدث من تغير الحال والرأي بين الزوجين بعد عجلة الطلاق ما يندمان عليه، فيتراجعان عن قرب قبل خروج الزوجة من بيتها، وقبل انقضاء العدة، فجعل الله العدة أجلا للنظر ومراجعة النفس، فلو تفرق الزوجان من أول وقوع الطلاق، وخرجت الزوجة من بيت زوجها، كانت الرجعة أشق، ومكابرة النفوس وعنادها أشد، فتهلك العجلة أهلها، والله يريد بهم رفقا.

وقد صح عن علي قوله: ما طلق رجل طلاق السنة، فندم.

=

=

وذلك أن الله لم يشرع ذلك ويضع له عدة وحدا إلا لتخرج الزوجة من نفس زوجها، والزوج من نفس زوجته، ولا يجدا ألما وحسرة على الفراق، ولكن يندم الناس على الطلاق بمقدار مخالفتهم لحدود الله فيه.

* السكنى للمطلقة المبتوتة: قد ذكر غير واحد من السلف أن الأمر في قوله تعالى: {لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا} أن المقصود هو الرجعة؛ كما قاله الشعبي وعطاء وقتادة والثوري.

وأخذ غير واحد من الأئمة من لازم هذه الآية ودليل خطابها: عدم وجوب السكنى والنفقة للمطلقة المبتوتة؛ لأن الله لن يحدث لها مع زوجها أمرا فترجع إليه، وبقاؤها في عصمته قد تتبعه مفسدة أن يستحل منها ما حرم عليه كنظر ومباشرة؛ لأنه أجنبي عنها؛ وبهذا القول قال أحمد وجماعة، وقد روى أيوب، قال: سمعت الحسن وعكرمة يقولان: المطلقة ثلاثا، والمتوفى عنها: لا سكنى لها ولا نفقة؛ قال: فقال عكرمة: {لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا}، فقال: ما يحدث بعد الثلاث.

والأئمة الثلاثة -أبو حنيفة، ومالك، والشافعي- يوجبون السكنى للمطلقة ثلاثا، ولكنهم يختلفون في النفقة؛ فأوجبها أبو حنيفة لها، ولم يوجبها مالك والشافعي.

وألحق بذلك في قول أحمد المتوفى عنها زوجها: أنه لا يجب لها سكنى؛ لانتفاء علة الرجعة بموت الزوج، وهي العلة التي أمر الله بعدم إخراجها من بيتها، ونهاها هي عن الخروج منه، وعدم وجوب السكنى لا يعني وجوب إخراجها ولا استحبابه، بل لها من مال زوجها كما لبقية الورثة.

ولم يجعل النبي ﷺ للمبتوتة نفقة ولا سكنى؛ كما في حديث فاطمة بنت قيس الفهرية، حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات، وكان غائبا عنها باليمن، فأرسل إليها بذلك، فأرسل إليها وكيله بشعير -نفقة- فتسخطته،

=

=

فقال: والله ليس لك علينا نفقة، فأتت رسول الله ﷺ، فقال: (ليس لك عليه نفقة ولا سكنى)، وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك، ثم قال: (تلك امرأة يغشاها أصحابي، اعتدي عند ابن أم مكتوم؛ فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك).

وقد جاء عن عمر بن الخطاب، وابن مسعود وابن عباس: أنه للمطلقة المبتوتة حاملا وغير حامل السكنى والنفقة.

ومن العلماء: من لم يجعل للمبتوتة سكنى ولا نفقة إلا إن كانت حاملا؛ لأن الله خصها بالذكر فيما يأتي، وخصوصية الذكر دليل على الاستثناء.

وقوله تعالى: {فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله}: جعل الله نهاية العدة نهاية أجل الإمهال المتعلق بالرجعة وحق الزوجة الرجعية في النفقة والسكنى، وقد أمر الله من رغب في الرجعة أن يرجع زوجته بمعروف، وإن رغب في الفراق أن يفارقها بمعروف بلا أذية ولا سوء.

* الإشهاد على إرجاع المطلقة: أمر الله بالإشهاد على ذلك لمعرفة انقضاء الأجل؛ حتى تتزوج المرأة زوجا غيره إن شاءت، وإن رغب في إرجاعها في العدة، أشهد على ذلك؛ لظاهر الآية، ولا خلاف عند العلماء في مشروعية الإشهاد؛ وإنما خلافهم في وجوبه.

واختلفوا في إيجاب القول بالرجعة، وهل تصح بالفعل وحده؛ كمن يقبل زوجته ويباشرها يريد رجعتها بذلك، أو لا بد من القول؟:

فمن قال بوجوب الإشهاد، فلازم قوله: أن الرجعة لا تصح إلا بالقول، فقد اختلفوا في وجوب الإشهاد على قولين، هما قولان في مذهب أحمد والشافعي:

قال جماعة من العلماء بالوجوب؛ وذلك لظاهر الأمر في الآية، ولما روى أبو داود وغيره، عن عمران بن حصين: أنه سئل عن الرجل يطلق امرأته، ثم يقع بها، ولم

=

=

يشهد على طلاقها، ولا على رجعتها؟ فقال: طلقت لغير سنة، وراجعت لغير سنة، أشهد على طلاقها، وعلى رجعتها، ولا تعد.

وروى ابن جريج، عن عطاء؛ أنه كان يقول في قوله تعالى: {وأشهدوا ذوي عدل منكم}: لا يجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجاع إلا شاهدا عدل؛ كما قال الله ﷻ، إلا أن يكون من عذر.

وذهب جماعة من العلماء: إلى أن الأمر بالإشهاد في الآية على الاستحباب، وأن الأمر للإرشاد؛ كما في الإشهاد في البيع؛ وذلك في قوله تعالى: {وأشهدوا إذا تبايعتم} [البقرة: ٢٨٢]؛ وبهذا يقول أبو حنيفة ومالك، وكذلك الشافعي وأحمد في أحد قوليهما، وهو الأظهر؛ فالرجعة تتعلق بالزوج لا بالزوجة، فتحتاج إلى قبول منها، والقول قوله في ذلك، ولما كان البيع لا يجب فيه الإشهاد، وفيه قبول وإيجاب، وجاء الأمر فيها بصيغة الأمر هنا؛ فالإشهاد في الرجعة من باب أولى أنه للإرشاد والدلالة.

* عدة الحامل من الطلاق والوفاة: أما عدة الحامل، فلا تخلو: إما أن تكون عدة وفاة، أو عدة طلاق.

أما عدة الحامل التي طلقت عند استبانة حملها، فعدتها أن تضع ولدها؛ وهذا في قول عامة السلف، وحكي الإجماع على ذلك؛ حكاه ابن جرير.

وأما عدة الحامل من وفاة زوجها، فعلى حالين:

الأولى: حامل بقي من وضعها فوق أربعة أشهر وعشر؛ تخرج من عدتها بوضع حملها بلا خلاف.

الثانية: حامل وأجل وضع حملها دون أربعة أشهر وعشر؛ فعامة الفقهاء من السلف والخلف: على أنها تخرج من عدة وفاتها بوضع حملها ولو وضعت الحمل بعد الوفاة بساعة؛ لقوله تعالى: {وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن

=

=

حملهن}.

وبهذا قضى عمر وعثمان وزيد وابن مسعود وابن عباس وأبو هريرة، وقد روى البخاري، عن أبي سلمة؛ قال: جاء رجل إلى ابن عباس وأبو هريرة جالس عنده، فقال: أفتني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة، فقال ابن عباس: آخر الأجلين، قلت أنا: {وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن}، قال أبو هريرة: أنا مع ابن أخي -يعني: أبا سلمة-فأرسل ابن عباس غلامه كريبا إلى أم سلمة يسألها، فقالت: قتل زوج سبيعة الأسلمية وهي حبلى، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة، فخطبت، فأنكحها رسول الله ﷺ، وكان أبو السنابل فيمن خطبها.

وروى علقمة بن قيس؛ أن عبد الله بن مسعود قال: من شاء لاعنته، ما نزلت: {وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن} إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها، قال: وإذا وضعت المتوفى عنها زوجها، فقد حلت؛ يريد بآية المتوفى عنها زوجها: {والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا} [البقرة: ٢٣٤].

وقد تقدم الكلام على هذه المسألة، وعموم عدة المتوفى عنها زوجها، في سورة البقرة عند قوله تعالى: {والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا} [٢٣٤].

* قال الله تعالى: {أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى} [الطلاق: ٦].

أمر الله بسكنى المطلقة، وأنه لا يجوز إخراجها حتى تخرج من عدتها، فتستبين أمرها، وإذا أمر الله بإسكان المطلقة في عدتها، فوجوب السكنى على الزوج

=

=

للزوجة مطلقا واجب متعين، وهو أولى.

وقوله تعالى: {من وجدكم} أسكنوهن بحسب قدرتكم وما تجدونه من قوة واستطاعة، وقد جعل الله السكنى بحسب قدرة الزوج، لا بحسب حاجة الزوجة؛ حتى لا يضر بنفسه وولده.

وقوله تعالى: {ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن}: لا تفعلوا شيئا من الضيق والحرج الذي يدفعهن إلى ترك حقهن من السكنى؛ هربا من الأذى، فتكونوا أخرجتموهن ولو لم تنطقوا بذلك، بل هو أشد؛ فقد جمعتم سيئتين، وهما: سيئة الأذى، وسيئة الإخراج.

وقوله تعالى: {وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن}: ذكر الله الحامل وخصها بالذكر هنا؛ لأن أجلها قد يطول، فربما يستثقل بعض الأزواج سكناها ونفقتها تسعة أو ثمانية أشهر إن كان طلاقها بداية حملها، فأمر الله بالإنفاق عليها وإسكانها حتى تضع حملها.

وقوله تعالى: {فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن} يدل هذا على أن المرأة إن كانت في عصمة زوجها لا تستحق أجرة الرضاع؛ وإنما لها النفقة الكافية، ولكن إن كانت مطلقة، فيجب على الزوج إعطاؤها نفقة الرضاع؛ لانقطاع نفقتها الخاصة بها، والولد شرك بين أبويه؛ فكما تستحق زيادة النفقة لأجله وهي في عصمته، فإنها تستحق ذلك القدر بعد طلاقها منه وخروجها من العدة.

وقد حمل بعض السلف وجماعة من العلماء هذه الآية: {وإن كن أولات حمل} على الحامل المطلقة البائن؛ وذلك لأن الرجعية زوجة، فالنفقة عليها كسائر النفقة على الرجعيات سواء كانت حاملا أو غير حامل؛ وبهذا قال ابن عباس.

وقوله تعالى: {وأتمروا بينكم بمعروف}، فيه: وجوب التناصح بين الزوجين حتى بعد الطلاق، وأن يكون بينهما العدل لا الشح والأثرة والطمع، وفي هذا

=

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨).

{وَكَأَيِّنْ} هِيَ كَاف الْجَرّ دَخَلَتْ عَلَى أَيْ بِمَعْنَى كَمْ {مِنْ قَرْيَة} أَيْ وَكَثِير مِنْ الْقُرَى {عَتَتْ} عَصَتْ يَعْنِي أَهْلهَا {عَنْ أَمْر رَبّهَا وَرُسُله فَحَاسَبْنَاهَا} فِي الْآخِرَة وَإِنْ لَمْ تَجِئْ لِتَحَقُّقِ وُقُوعهَا {حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا} بِسُكُونِ الْكَاف وَضَمّهَا فَظِيعًا وَهُوَ عَذَاب النار.

فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩).

{فَذَاقَتْ وَبَال أَمْرهَا} عُقُوبَته {وَكَانَ عَاقِبَة أَمْرهَا خُسْرًا} خَسَارًا وَهَلَاكًا.

أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللهَ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠).

{أَعَدَّ الله لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا} تَكْرِير الْوَعِيد تَوْكِيد {فَاتَّقُوا الله يَا أُولِي الْأَلْبَاب} أَصْحَاب الْعُقُول {الَّذِينَ آمَنُوا} نَعْت لِلْمُنَادَى أَوْ بَيَان لَهُ {قَدْ أَنْزَلَ الله إِلَيْكُمْ ذِكْرًا} هُوَ القرآن.

=

تطهير لقلوب الزوجين من الانتصار للنفس والانتقام من الآخر لما سلف من سوء عشرة.

وقوله تعالى: {وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى}؛ يعني: لم تتوافقوا على أمر الرضاع أو أجرته، فيجب كفايته بمرضعة أخرى، وهذه الآية في إرضاع الأم المطلقة، وقد تقدم في البقرة آية الرضاع عامة، وقد تقدم الكلام على الرضاع وأحكامه عند قوله تعالى: {والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة} [البقرة: ٢٣٣].

رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا (١١).

{رَسُولًا} أَيْ مُحَمَّدًا ﷺ منصوب بفعل مقدر أي وأرسل {يتلوا عَلَيْكُمْ آيَات الله مُبَيِّنَات} بِفَتْحِ الْيَاء وَكَسْرهَا كَمَا تَقَدَّمَ {لِيُخْرِج الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات} بَعْد مَجِيء الذِّكْر وَالرَّسُول {مِنْ الظُّلُمَات} الْكُفْر الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ {إِلَى النُّور} الْإِيمَان الَّذِي قَامَ بِهِمْ بَعْد الْكُفْر {وَمَنْ يُؤْمِن بِاَللهِ وَيَعْمَل صَالِحًا يُدْخِلهُ} وَفِي قِرَاءَة بِالنُّونِ {جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الْأَنْهَار خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ الله لَهُ رِزْقًا} هُوَ رِزْق الْجَنَّة الَّتِي لَا يَنْقَطِع نَعِيمهَا(١).

---

(١) في هذه الآيات: سُنَّةُ الله تعالى في الانتقام من أهل القرى إذا تكبروا على الحق وتمادوا على الرسل غير ما ينتظرهم في الآخرة من العقاب، وامتنان الله سبحانه على المؤمنين بنعمة الوحي والهداية في الدنيا وما أعدَّ لهم في الآخرة من جزيل الثواب.

فقوله: {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ} . قال السدي: (غيَّرت وعصت). وقال ابن زيد: (العتوّ هاهنا الكفر والمعصية، وعتت عن أمر ربها: تركته ولم تقبله). والمقصود: كم من أهل قرية طغوا عن أمر ربهم وتمادوا في تكذيبهم الرسل ولجّوا في الكفر والفساد والمعصية.

وقوله: {فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا} . أي جازيناها بالعذاب في الدنيا. قال ابن عباس: (يقول: لم نرحم). قال القرطبي: (لما ذكر الأحكام ذكر وحذّر مخالفة الأمر، وذكر عُتُوّ قوم وحلول العذاب بهم). وقيل: في الكلام تقديم وتأخير، فعذبناها عذابًا نكرًا في الدنيا بالجوع والقَحْطِ والسيف والخَسْف والمَسْخ وسائر =

=

المصائب، وحاسبناها في الآخرة حسابًا شديدًا. والنُّكر: المنكر.

وقوله: {وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا} . أي في الآخرة، عذبناها عذابًا منكرًا فظيعًا.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وكأين من أهل قرية طغوا عن أمر ربهم وخالفوه، وعن أمر رسل ربهم، فتمادوا في طغيانهم وعتّوهم، ولجوا في كفرهم، فحاسبناها على نعمتنا عندها وشكرها حسابًا شديدًا، يقول: حسابًا استقصينا فيه عليهم، لم نعف لهم فيه عن شيء، ولم نتجاوز فيه عنهم".

عن السدي، قوله: " {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ} ، قال: غَيَّرت وَعَصَت".

قال ابن زيد:"العتو هاهنا الكفر والمعصية، عتُوّا: كفرًا، وعتت عن أمر ربها: تركته ولم تقبله""، قوله: " {فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا} ، قال: لم نعف عنها الحساب الشديد الذي ليس فيه من العفو شيء".

عن ابن عباس، قوله: " {فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا} ، يقول: لم نرحم".

وروي عمرو بن أبي سلمة، قال: "سمعت عمر بن سليمان يقول في قوله: {وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ} ، قال: قرية عذّبت في الطلاق".

قوله تعالى: {وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا} [الطلاق: ٩]، أي:"وعذَّبناهم عذابًا عظيمًا منكرًا".

قال الطبري:"يقول: وعذبناها عذابًا عظيمًا منكرًا، وذلك عذاب جهنم".

وقوله: {فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا} . أي فذاقت غِبَّ مخالفتها، وتجرّعت نتيجة طغيانها. قال ابن زيد: (ذاقت عاقبة ما عملت من الشر. الوبال: العاقبة).

وقوله: {وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا} . أي هلاكًا في الدنيا وألوان العذاب، وفي الآخرة في نار جهنم.

قال الطبري:"يقول: فذاقت هذه القرية التي عتت عن أمر ربها ورسله، عاقبة ما

=

=

عملت وأتت من معاصي الله والكفر به".

قال الزجاج:"أَي: ثِقْلَ عاقبةَ أَمرها".

قال ابن كثير:"أي: غبّ مخالفتها، وندموا حيث لا ينفعهم الندم".

عن السديّ، قوله: " {فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا}، قال: عقوبة أمرها".

قال قتادة:"يقول: عاقبة أمرها".

قال مجاهد:"جزاء أمرها".

قال عطاء الخراساني:"فَذاقتْ جزاء أمرها".

قال ابن زيد:"ذاقت عاقبة ما عملت من الشرّ، الوبال: العاقبة".

قال ابن عباس:"يعني: بـ «وبال أمرها»: جزاء أمرها الذي قد حلّ".

قال ابن قتيبة:"الأمر: الذنب، قال الله تعالى: {فَذاقَتْ وَبالَ أَمْرِها} [الطلاق: ٩]، أي جزاء ذنبها".

قال القشيري:"من زرع الشوك لم يجن الورد، ومن أضاع حقّ الله لا يطاع في حظّ نفسه، ومن اجترأ بمخالفة أمر الله فليصبر على مقاساة عقوبة الله".

قوله تعالى: {وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا} [الطلاق: ٩]، أي:"وكان عاقبة كفرهم هلاكًا وخسرانًا لا خسران بعده".

قال الزجاج:"يعني: في الآخرة".

قال ابن كثير:"أي: في الدار الآخرة، مع ما عَجَّل لهم في الدنيا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وكان الذي أعقب أمرهم، وذلك كفرهم بالله وعصيانهم إياه خسرًا: يعني غَبْنا، لأنهم باعوا نعيم الآخرة بخسيس من الدنيا قليل، وآثروا اتباع أهوائهم على اتباع أمر الله".

وقوله: {أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا} . بيان لذلك الخسران أنه العذاب الشديد في نار الآخرة بعدما حلّ بهم من العذاب في الدنيا.

=

=

وقوله: {فَاتَّقُوا اللهَ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ} . قال السدي: (يا أولي العقول). وقال ابن كثير: (أي: الأفهام المستقيمة، لا تكونوا مثلهم فيصيبَكم ما أصابَهم يا أولي الألباب).

وقوله: {الَّذِينَ آمَنُوا} . بدل من {يَاأُولِي الْأَلْبَابِ} ، أو نعت لهم. أي الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله.

وقوله: {قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا} . يعني القرآن. والمقصود: يا أولي العقول النيرة الذين آمنتم بالله وصدقتم رسوله، اتقوا الله الذي أنزل عليكم القرآن، فخافوه واعملوا بطاعته واحذروا معصيته.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: أعد الله لهؤلاء القوم الذين عتوا عن أمر ربهم ورسله عذابًا شديدًا، وذلك عذاب النار الذي أعدّه لهم في القيامة".

قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} [الطلاق: ١٠]، أي:"فخافوا الله واحذروا سخطه يا أصحاب العقول الراجحة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فخافوا الله، واحذروا سخطه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه يا أولي العقول".

قال ابن كثير:"أي: الأفهام المستقيمة، لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولي الألباب".

قال السعدي:"أي: يا ذوي العقول، التي تفهم عن الله آياته وعبره، وأن الذي أهلك القرون الماضية بتكذيبهم، أن من بعدهم مثلهم، لا فرق بين الطائفتين".

قال الزجاج:"معنى: «أُولِي الْأَلْبَابِ» أصحاب العقول، وواحد «أولي الألباب»: ذُو لُبٍّ، أَي: ذو عَقْلٍ".

عن السديّ، قوله: " {فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الألْبَابِ} ، قال: يا أولي العقول".

قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا} [الطلاق: ١٠]، أي:"أي أنتم يا معشر المؤمنين الذي

=

=

صدقتم بالله ورسوله".

قال الطبري:"يقول: الذين صدقوا الله ورسله".

قوله تعالى: {قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا} [الطلاق: ١٠]، أي:"قد أنزل الله إليكم - أيها المؤمنون-ذكرًا يذكركم به، وينبهكم على حظكم من الإيمان بالله والعمل بطاعته".

قال الطبري:"قد أنزل الله إليكم يا أولي الألباب ذكرًا من الله لكم يذكركم به، وينبهكم على حظكم من الإيمان بالله، والعمل بطاعته".

اختلف أهل التفسير في المعني بـ «الذكر» و «الرسول» في هذا الموضع، على قولين:

أحدهما: أن الذكر هو القرآن، والرسول محمد ﷺ. قاله السدي.

قال ابن عطية:"أبين الأقوال عندي معنى أن يكون الذكر للقرآن والرسول محمد، والمعنى بعث رسولا، لكن الإيجاز اقتضى اختصار الفعل الناصب للرسول ونحا هذا المنحى السدي".

قال ابن كثير:"{قَدْ أَنزلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا} يعني: القرآن. كقوله {إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩]".

عن ابن وهب، قال: "قال ابن زيد، في قول الله ﷻ: {قَدْ أَنزلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا}، قال: القرآن روح من الله، وقرأ: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا} إلى آخر الآية، وقرأ: {قَدْ أَنزلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولا}، قال: القرآن، وقرأ: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ} قال: بالقرآن، وقرأ {إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ}، قال: القرآن، قال: وهو الذكر، وهو الروح".

الثاني: أن الذكر: هو الرسول. حكاه الطبري.

قال الطبري:"الصواب من القول في ذلك أن الرسول ترجمة عن الذكر، ذلك

=

=

نصب لأنه مردود عليه على البيان عنه والترجمة".

قال ابن عطية:"قال بعض حذاق المتأولين الذكر: اسم من أسماء النبي ﷺ: واحتج بهذا القاضي ابن الباقلاني في تأويل قوله تعالى: {ما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ} [الأنبياء: ٢]".

قوله تعالى: {رَسُولًا}. قيل: قد نُصب على أنه بدل اشتمال. وقيل: الرسول تفسير وترجمة عن الذكر -واختاره ابن جرير. وقال الزجاج: (إنزال الذكر دليل على إضمار أرسل، أي أنزل إليكم قرآنًا وأرسل رسولًا). ويجوز أن ينتصب {رَسُولًا} على الإغراء، والتقدير: اتبعوا رسولًا.

وقوله: {يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} أي: يقرأ عليكم آيات القرآن، ويبين لكم ما تحتاجون إليه من الأحكام، ليخرج المؤمنين به من ظلمات الجاهلية والكفر، إلى نور العلم والإيمان.

وقوله: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا}. أي: قد وسع الله عليه من ألوان الرزق والنعيم في الجنات. قال النسفي: ({قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا}. فيه معنى التعجب والتعظيم لما رزق المؤمنين من الثواب).

قال الطبري: يقول:"رسولا يتلو عليكم آيات الله التي أنزلها عليه مبينات لمن سمعها وتدبرها أنها من عند الله".

قال الزجاج:"من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، لأن أدلة الكفر مظلمة غير بَيِّنَةٍ، وأدلة الإسلام واضحة بيِّنَة".

قال السمعاني:"قوله: {يَتْلُو}، يقال: هو محمد، ويقال: هو جبريل عليه السلام".

قوله تعالى: {لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}

=

=

[الطلاق: ١١]، أي:"كي يخرج الذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا بما أمرهم الله به وأطاعوه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قد أنزل الله إليكم أيها الناس ذكرًا رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات، كي يخرج الذين صدّقوا الله ورسوله وعملوا بما أمرهم الله به وأطاعوه من الكفر -وهي الظلمات-، إلى النور، يعني: إلى الإيمان".

قال ابن كثير:"أي: من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم وقد سمى الله تعالى الوحي الذي أنزله نورا لما يحصل به من الهدى كما سماه روحا لما يحصل به من حياة القلوب فقال: تعالى {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: ٥٢]".

قال مجاهد:"{من الظلمات إلى النور} [الأحزاب: ٤٣] قال: «يعني من الضلالة إلى الهدى»".

قوله تعالى: {وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [الطلاق: ١١]، أي: " ومن يؤمن بالله ويعمل عملا صالحًا، يدخله جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار".

قال الطبري:"يقول: ومن يصدّق بالله ويعمل بطاعته يُدخله بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار".

قال السعدي:"فيها من النعيم المقيم، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر".

عن السُّدِّيّ، في قوله: {والذين آمنوا وعملوا الصالحات}، يعني: أطاعوا الله فيما أمرهم به، وفرض عليهم".

عن السدي:"{جنات}، قال: البساتين".

=

اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢).

=

قال مجاهد:"الجنات: حوائط".

عن أبي مالك قوله: " {تجري من تحتهم الأنهار}، يعني: تحت منازلهم وأرضهم".

قال مسروق: "أنهار الجنة تجري في غير أخدود، ثمرها كالقلال، كلما نزعت ثمرة عادت مثلها أخرى، والعنقود اثنا عشر ذراعا".

قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [الطلاق: ١١]، أي:"ماكثين فيها أبدًا".

قال مقاتل:"يعني: مقيمين فيها أبدا".

قال الطبري:"يقول: ماكثين مقيمين في البساتين التي تجري من تحتها الأنهار أبدًا، لا يموتون، ولا يخرجون منها أبدًا".

عن سعيد بن جبير: " {خَالِدِينَ فِيهَا}، يعني: لا يموتون".

قوله تعالى: {قَدْ أَحْسَنَ اللهُ لَهُ رِزْقًا} [الطلاق: ١١]، أي:"قد أحسن الله للمؤمن الصالح رزقه في الجنة".

قال مقاتل:"يعني: به الجنة".

قال الطبري:"يقول: قد وسع الله له في الجنات رزقًا، يعني بالرزق: ما رزقه فيها من المطاعم والمشارب، وسائر ما أعدّ لأوليائه فيها، فطيبه لهم".

قال الزجاج:"أي: رزقه الله الجنة التي لا ينقطع نعيمها، ولا يزول".

قال السعدي:"ومن لم يؤمن بالله ورسوله، فأولئك أصحاب النار، هم فيها خالدون".

قال القشيري:"الرزق الحسن ما كان على حدّ الكفاية لا نقصان فيه تتعطّل الأمور بسببه، ولا زيادة فيه تشغله عن الاستمتاع بما رزق لحرصه".

{الله الَّـذِي خَلَـقَ سَـبْع سَـمَاوَات وَمِـنْ الْأَرْض مِـثْلهنَّ} يَعْنِـي سَـبْع أَرَضِـينَ {يَتَنَـزَّل الْأَمْـر} الْـوَحْي {بَيْنهنَّ} بَـيْن الـسَّمَاوَات وَالْأَرْض يَنْـزِل بِـهِ جِبْرِيـل مِـنْ السَّمَاء الـسَّابِعَة إلَـى الْأَرْض الـسَّابِعَة {لِتَعْلَمُـوا} مُتَعَلِّـق بِمَحْـذُوفٍ أَيْ أَعْلَمَكُـمْ بِذَلِكَ الْخَلْق وَالتَّنْزِيل {إن الله على كل شيء قـدير وأن الله قـد أحـاط بكـل شـيء علما}[1].

(١) هذا إخبار الله تعالى عن قدرتـه التامـة وسـلطانه العظـيم، في خلـق سبع سـماوات وسبع أرضين، يتنزل الأمر بينهن بإذن الواحد القهـار الحكـيم ليكـون ذلـك باعثًا على تعظيم دينه القويم.

فقوله: {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ}. قـال ابـن جريـر: (لا مـا يعبـده المـشركون من الآلهة والأوثان التي لا تقدر على خلق شيء).

وقولـه: {وَمِـنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}. أي: في الخلـق والعـدد. قـال قتـادة: (خلـق سـبع سماوات وسبع أرضين، في كل سماء من سمائه وأرض من أرضه خلـق مـن خلقـه وأمر من أمره وقضاء من قضائه).

قلت: وأما تفصيلِ توضع الأرضين السبع فالله أعلم به، وإنما نسلم لقول الله تعالى في هذه الآية {وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ}، وكذلك لما ثبت في السنة الـصحيحة في آفـاق ذلك من أحاديث، منها:

الحديث الأول: أخرج الإمام مسلم في الصحيح عـن سعيد بـن زيـد قـال: سَـمِعت رسول الله ﷺ يقول: [من أخذ شِبْرًا من الأرض بغير حَقِّهِ، طُوِّقَهُ في سَـبْع أَرَضـين يـوم القيامـة]. وفي لفـظ: [مـن اقتطـع شـبراً مـن الأرض ظُلمًـا، طَوَّقـه الله إيـاه يـومَ القيامة من سَبْعِ أرضين].

الحديث الثاني: خـرّج مسلم -كـذلك- عـن أبـي هريـرة قـال: قـال رسـول الله ﷺ: [لايأخُـذُ أحـدٌ شِـبْرًا مـن الأرض بغيـر حَقِّـهِ، إلا طَوَّقَـهُ الله إلـى سَـبْع أرضـين يـوم =

=

القيامة].

الحديث الثالث: أخرج البخاري في "الأدب المفرد"، وأحمد في المسند، بسند صحيح من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا: [إن نبيَّ الله نوحًا ﷺ لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية، آمرتك باثنتين وأنهاك عن اثنتين، آمرك بـ "لا إله إلا الله"، فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة، ووضعت "لا إله إلا الله" في كفة، رجحت بهن "لا إله إلا الله"، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة قصمتهن "لا إله إلا الله". وسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء، وبها يرزق الخلق. وأنهاك عن الشرك والكبر] (٣).

الحديث الرابع: أخرج النسائي وابن حبان بسند حسن عن عطاء بن أبي مروان عن أبيه، أنّ كعبًا حلف بالذي فلق البحر لموسى: [أنَّ صُهيبًا حدّثه أن محمدًا ﷺ لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها: "اللهم ربَّ السماوات السبع وما أظْلَلْنَ، وربَّ الأرضين السبع وما أَقْلَلْنَ، وربَّ الشياطين وما أَضْلَلْنَ، وربَّ الرياح وما أَذْرَيْنَ، إنا نسألك خيرَ هذه القرية وخيرَ أهلها، ونعوذ بك من شَرِّها وشَرِّ أهلها وشَرِّ ما فيها"].

فهذه الآية مع هذه الأحاديث تثبت وجود الأرضين السبع كما أثبت الوحي من قرآن وسنة وجود السماوات السبع، ومن فسّر الآية من المعاصرين بما يؤول إلى نفي المثلية في العدد اغترارًا بما وصل إليه علم الأوربيين والأمريكان وغيرهم من الرقي وأنهم لا يعلمون سبع أرضين فقد أبعد النُّجْعَة وأغرقَ في النَّزْع وخالف القرآن والحديث بلا مستند. وإنما يقال له: هل علم القوم حقيقة وجود سبع سماوات طباقًا؟ ! الجواب: لا، وإنما هو خبر الله تعالى آمنا به وصدقناه وجاءت به جميع الكتب المنزلة على الرسل. ومن ثم يقال لهؤلاء: أفننكر كلام الله وكلام رسوله بجهل الأوربيين وأقرانهم، مع اعترافهم أنهم كلما ازدادوا علمًا بالكون

=

=

ازدادوا علمًا بجهلهم به، وصدق الله العظيم القائل: {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} [يوسف: ٧٦]، والقائل: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: ٨٥].

وقوله: {يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ}. قال مجاهد: (يتنزل الأمر من السماوات السبع إلى الأرضين السبع). والأمر هنا الوحي أو القضاء والقدر.

وفي قوله تعالى: {بَيْنَهُنَّ} إشارة إلى ما بين الأرض السُّفلى التي هي أقصاها وبين السماء السابعة التي هي أعلاها. وقيل: {يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ} بحياة بعض وموت بعض وغِنى قوم وفقر قوم. وقيل: هو ما يُدَبَّرُ فيهن من عجيب تدبيره، فَيُنزل المطر ويُخرج النبات ويأتي بالليل والنهار، والصيف والشتاء، ويخلق الحيوانات على اختلاف أنواعها وهيئاتها، فينقلهم من حال إلى حال.

وقوله: {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. قال القرطبي: (يعني أن من قدر على هذا الملك العظيم فهو على ما بينهما من خلقه أقدر، ومن العفو والانتقام أمكن، وإن استوى كل ذلك في مقدوره ومُكْنَته).

وقوله: {وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}. -علمًا- نصب على المصدر المؤكد، أو هو تمييز، والتقدير: قد علم كل شيء علمًا، أو أحاط إحاطةً علمًا. قال ابن جرير: (يقول جل ثناؤه: فخافوا أيها الناس المخالفون أمر ربكم عقوبته، فإنه لا يمنعه في عقوبتكم مانع، وهو على ذلك قادر، ومحيط أيضًا بأعمالكم، فلا يخفى عليه منها خاف، وهو محصيها عليكم، ليجازيكم بها، يوم تجزى كل نفس ما كسبت).

قوله تعالى: {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} [الطلاق: ١٢]، أي:"الله وحده هو الذي خلق سبع سموات".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} لا ما يعبده المشركون من الآلهة والأوثان التي لا تقدر على خلق شيء".

=

=

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرا عن قدرته التامة وسلطانه العظيم ليكون ذلك باعثًا على تعظيم ما شرع من الدين القويم {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ} كقوله تعالى إخبارًا عن نوح أنه قال لقومه {أَلَمْ تَرَوا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا} [نوح: ١٥] وقال تعالى {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ والأرْضُ وَمَن فِيهنَّ} [الإسراء: ٤٤]".

قوله تعالى: {وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} [الطلاق: ١٢]، أي:"وخلق سبعًا من الأرَضين".

قال الطبري:"يقول: وخلق من الأرض مثلهنّ لما في كلّ واحدة منهنّ مثل ما في السموات من الخلق".

قال ابن كثير:"أي: سبعا أيضا، كما ثبت في الصحيحين: «من ظلم قيدَ شِبر من الأرض طُوِّقه من سبع أرضين»، وفي صحيح البخاري: «خُسِف به إلى سبع أرضين» ".

قال الزجاج:"ففي كل سماء وكل أرض خلق من خَلْقِه، وأمر نافِذٌ مِن أَمْرِهِ".

عمرو بن عليّ ومحمد بن المثنى، قالا: ثنا محمد بن جعفر، قال: ثنا شعبة، عن عمرو بن مرّة، عن أَبِي الضحى، عن ابن عباس، قال في هذه الآية: " {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأرْضِ مِثْلَهُنَّ} ، قال عمرو: قال: في كل أرض مثل إبراهيم ونحو ما على الأرض من الخلق. وقال ابن المثنى: في كلّ سماء إبراهيم".

عن مجاهد، عن ابن عباس، في قوله: {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأرْضِ مِثْلَهُنَّ} ، قال: لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم وكفركم تكذيبكم بها".

عن سعيد بن جبَير، قال: "قال رجل لابن عباس {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأرْضِ مِثْلَهُنَّ} ... الآية، فقال ابن عباس: ما يؤمنك أن أخبرك بها فتكفر".

عن عبد الله، قال: "خلق الله سبع سموات غلظ كلّ واحدة مسيرة خمس مئة عام،

=

=

وبين كلّ واحدة منهنّ خمس مئة عام، وفوق السبع السموات الماء، والله جلّ ثناؤه فوق الماء، لا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم. والأرض سبع، بين كلّ أرضين خمس مئة عام، وغلظ كلّ أرض خمس مئَة عام".

عن مجاهد، قال: "هذه الأرض إلى تلك مثل الفسطاط ضربته في فلاة، وهذه السماء إلى تلك السماء، مثل حلقة رميت بها في أرض فلاة".

عن الربيع بن أنس، قال: "السماء أوّلها موج مكفوف؛ والثانية صخرة؛ والثالثة حديد؛ والرابعة نحاس؛ والخامسة فضة؛ والسادسة ذهب، والسابعة ياقوتة".

عن مجاهد، قال: "هذا البيت الكعبة رابع أربعة عشر بيتًا في كل سماء بيت، كل بيت منها حذو صاحبه، لو وقع وقع عليه، وإن هذا الحرم حرمي بناؤه من السموات السبع والأرضين السبع".

قال قتادة: "خلق سبع سموات وسبع أرضين في كل سماء من سمائه، وأرض من أرضه، خلق من خلقه وأمر من أمره، وقضاء من قضائه".

قوله تعالى: {يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ} [الطلاق: ١٢]، أي:"، وأنزل الأمر مما أوحاه الله إلى رسله وما يدبِّر به خلقه بين السموات والأرض".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يتنزل أمر الله بين السماء السابعة والأرض السابعة".

قال الزمخشري:"أي: يجرى أمر الله وحكمه بينهن، وملكه ينفذ فيهن.. وقيل: هو ما يدبر فيهنّ من عجائب تدبيره".

قال ابن قتيبة:"الأمر: الوحي".

قال مقاتل:"يعني: الوحي من السماء العليا إلى الأرض السفلى".

قال سعيد بن جبير:"السماء مَكفوفة، والأرض مَكفوفة".

عن مجاهد، قوله: " {يَتَنزلُ الأمْرُ بَيْنَهُنَّ}، قال: بين الأرض السابعة إلى السماء

=

=

السابعة".

قال أهل المعاني: "هو ما يدبر فيهنّ من عجيب تدبيره فينزل المطر ويخرج النبات ويأتي بالليل والنّهار والشتاء والصّيف ويخلق الحيوان على اختلاف هيأتها وأنواعها، وينقلهم من حال إلى حال".

قال ابن كيسان: "وهذا على مجال اللغة واتساعها، كما يقول للموت أمر الله، وللرياح والسحاب ونحوها".

وقال قتادة: "في كل أرض من أرضه وسماء من سمائه خلق من خلقه، وأمر من أمره، وقضاء من قضائه".

عن ابن عباس: أن نافع بن الأزرق سأله هل تحت الأرضين خلق؟ قال: نعم. قال: فما الخلق؟ قال: إما ملائكة أو جنّ".

عن الحسن البصري، في الآية، قال: "بين كلّ سماء وأرض خلْقٌ وأمْرٌ".

وقرئ: «ينزل الأمر».

قوله تعالى: {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الطلاق: ١٢]، أي:"لتعلموا -أيها الناس-أن الله على كل شيء قدير لا يعجزه شيء".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ينزل قضاء الله وأمره بين ذلك كي تعلموا أيها الناس كنه قدرته وسلطانه، وأنه لا يتعذّر عليه شيء أراده، ولا يمتنع عليه أمر شاءه؛ ولكنه على ما يشاء قدير".

قوله تعالى: {وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: ١٢]، أي:"ولتعلموا أن الله قد أحاط بكل شيء علمًا، فلا يخرج شيء عن علمه وقدرته".

قال الطبري:"يقول جلّ ثناؤه: ولتعلموا أيها الناس أن الله بكل شيء من خلقه محيط علمًا، لا يعزُب عنه مثقالُ ذرّة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر: يقول جلّ ثناؤه فحافوا أيها الناس المخالفون أمر ربكم عقوبته،

=

=

فإنه لا يمنعه من عقوبتكم مانع، وهو على ذلك قادر، ومحيط أيضًا بأعمالكم، فلا يخفى عليه منها خاف، وهو محصيها عليكم، ليجازيكم بها، يوم تجزى كلّ نفس ما كسبت".

قال الزجاج: "{عِلْمًا} منصوب على المَصدر المؤكد، لأن معنى: قد علم كل شيء عِلْمًا".

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى -قوله تعالي: (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) (الطلاق: ٢ -٣)، ثم قال: (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) (الطلاق: ٤) ثم قال بعد: (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا) (الطلاق: ٥) للسائل أن يسأل عن تكرر الأمر بتقواه تعالى أثناء ما ذكره سبحانه من الطلاق والعدة وما يرجع إليهما؟ وعن وجه تخصيص هذا العدد والجزاء على ذلك بقوله في الأولى: (يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب) وفي الثانية (يجعل له من أمره يسرا) وفي الثالثة: (يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا).

ويمكن أن يجاب عن ذلك، والله أعلم: بأن الأوامر التى دارت عليها هذه السورة وبنيت عليها ثلاثة، الأول: الأمر بالمحافظة على إيقاع الطلاق إذا ضمت إليه الضرورة في وقته لاستقبال العدة حتى لا يقع إضرار بالمطلقة بتطويل عدتها. والثاني: الأمر بإحصاء العدة والمحافظة عليها، وألا تخرج المعتدة من بيتها حيث وقع عليها الطلاق ولا تبيت عنه، إلى ما يرجع إلى هذا، والثالث: إنفاذ ما يقع الاعتماد عليه في إمساك أو مفارقة، من حسن الصحبة والجميل العشرة إن اعتمد الإمساك (أو بالإمتاع) والتلطف رعيًا لما تقدم من الصحبة إن عول على المفارقة، فعلى هذه القضايا الثلاث بناء هذه السورة، وعلي الوعظ في ذلك والتأكيد بالتزام تقوي الله والتزام ما حد سبحانه فيما ذكر. ولرعي هذه الأوامر

=

الثلاثة ما ورد الإخبار بجزاء من اتقاه سبحانه في ثلاث كرات، فبإزاء أول قضية من أوامر السورة قوله تعالي: " ومن يتق الله "، أي في إيقاع الطلاق في محله ووقته كما أوضح صلي الله عليه وسلم في قضية عبد الله بن عمر المشهورة، " يجعل له مخرجاً " بحكمه نفسه إن لحقه ندم كما قال تعالي: (لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا) (الطلاق: ١) أي من تقلب الأحوال وصيرورة البغض ودا فيجد السبيل إلى المراجعة سهلاً بالتزامه الوجه الجاري على السنة وأخذه بالطاعة فينشرح صدره بتيسير أمره ويكثر رزقه بتقوى ربه: (وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) (الطلاق٢ -٣)، ومن يتق الله في صبره أيام العدة على ما يلزمه من نفقة وسكنى -حيث يلزم ذلك وإن طالت الأيام -فكأن طولها مع ما يتكلفه فيها مظنة للضجر وكرب النفس، فإذا اتقى الله في ذلك (يسر عليه) تلك المشقة. وقرب عليه أمرها وإن بعدت المشقة، وأنسة في وحشتها وجعل له من أمره يسرا. فإذا اتقى الله عند تمامها والإشراف على انفصالها، وأخذ بالسنة، واتقى الله فيما يختاره تعالى له ويقضيه من إمساك أو فراق، فيلتزم المعروف إن أمسك، ويتبع كل سيئة جرت حال طلاقه وغضبه -من قبح كلام أو قصد مضرة وإن كانت بأدنى إيلام أو إساءة معاملة تنافر المجاملة والمكارمة - بحسنة تقابلها وتمحوها من إظهار التندم، وطلاقة البشر، والإغضاء عن كل ما جرى أيام المنافرة، ويستبدل المناقشة بالمياسرة، فإذا فعل هذا واتقى الله في ذلك كفر عنه سيئاته وأعظم أجره جزاء على تلك الأعمال، ويشهد لما تمهد من جزاء تقوى الله سبحانه في تلك الحالات ما أفصح به ما بعد من الآيات، قال تعالى: (أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ) (الطلاق: ٦) إلى قوله سبحانه: (سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا) (الطلاق: ٧)، وتأمل جري هذه الآيات والوصايا

سورة التحريم(١)

=

الجليلة وما تشير إليه من الإشفاق وجميل التجمل والإنفاق مع ما تقدم تجده جاريـاً على أوضح التناسب وألج الإلتئام، والله أعلم بما أراد. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٤٧٧-٤٧٨).

(١) السّورة مدنيّة.

قال القرطبي:"سورة التحريم مدنية في قول الجميع".

وقال ابن الجوزي:"هي مدنيّة كلّها بإجماعهم".

وقال الفيروزآبادي:"السورة مدنية بالاتفاق".

* آياتها اثنتا عشرة. وكلماتها مائتان وأَربعون. وحروفها أَلف وستُّون. وفواصل آياتها (منار) على الأَلف آية فحسب: {أَبْكَاراً}.

* أسماء السورة:

سميت «سورة التحريم» في كتب السنة وكتب التفسير وأكثر المصاحف، ووجه تسميتها لتحريم النبيﷺ شيئا على نفسه، وافتتاح السورة بعتابه بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [التحريم: ١].

وسميت (سورة المتحرم) و (سورة لم تحرم) ، (سورة التحرم)

وقع تسمية السورة بالاسمين الأول والثاني في الإتقان، وذكرها ابن الجوزي في تفسيره، وكذلك الألوسي.

ووجه تسميتها بذلك لافتتاحها بهذا اللفظ: {لِمَ تُحَرِّمُ} [التحريم: ١]، وهو النبيﷺ.

وقد وقع الاسم الثالث في "الدر المنثور"، إذ أخرج ابن الضريس والنحاس وابن =

=

مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: "نزلت سورة التحريم بالمدينة". قال السيوطي:"ولفظ ابن مردويه: «سورة التحرم»".
وتسمى «سورة النبي» أورده بعض المفسرين كالزمخشري، وابن الجوزي، والقرطبي، وغيرهم، كما عدها السخاوي، والبقاعي، اسما آخر للسورة.
ووجه تسميتها بـ «سورة النبي»، لأنها ذكرت لفظ «النبي» في أول آية من آياتها في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التحريم: ١]، وحديثها كان عن النبي ﷺ.
وذكر ابن الجوزي، والألوسي، أن هذه السورة تسمى «سورة النساء»، وقال الآلوسي: "إن ابن الزبير سماها «سورة النساء»".
ولم أقف عليه عند أحد من المفسرين غيرهما، وهذه الأسماء الثلاثة هي اجتهادية من المفسرين ولم يثبت فيها نص من النبي ﷺ.
* معظم مقصود السّورة: عتاب الرّسول ﷺ فى التَّحريم والتحليل قبل ورود وَحْى سماوىّ، وتعيير الأَزواج الطَّاهرات على إِيذائه وإِظهارِ سرّه، والأَمر بالتحرّز والتجنّب من جهنَّم، والأَمر بالتَّوبة النَّصُوح، والوعد بإِتمام النُّور فى القيامة، والأَمر بجهاد الكفَّار بطريق السّياسة، ومع المنافقين بالبرهان والحجّة، وبيان أَنَّ القرابة غير نافعة بدون الإِيمان والمعرفة، وأَن قرب المفسدين لا يَضُرّ مع وجود الصّدق والإِخلاص، والخبر عن الفُتُوّة، وتصديق مريم بقوله: {وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا}.
* المتشابهات: قوله تعالى: {خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ} ذكر الجميع بغير واو، ثم خَتَم بالواو، فقال: {وَأَبْكَاراً} لأَنَّه استحال العطف على {ثَيِّبَاتٍ} فعطفها على أَوّل الكلام. ويحسن الوقف على {ثَيِّبَاتٍ} لَمّا استحال عطف {أَبْكَاراً} عليها. وقول من قال: إنها واو الثمانية بعيد. وقد سبق تعجبنا فيه. والله أَعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١).

{يَا أَيّهَا النَّبِيّ لِمَ تُحَرِّم مَا أَحَلَّ الله لَك} مِنْ أَمَتك مَارِيَة الْقِبْطِيَّة لَمَّا وَاقَعَهَا فِي بَيْت حَفْصَة وَكَانَتْ غَائِبَة فَجَاءَتْ وَشَقَّ عَلَيْهَا كَوْن ذَلِكَ فِي بَيْتهَا وَعَلَى فِرَاشهَا حَيْثُ قُلْت هِيَ حَرَام عَلَيَّ {تَبْتَغِي} بتحريمها {مرضات أَزْوَاجك} أَيْ رِضَاهُنَّ {وَاَللَّه غَفُور رَحِيم} غَفَرَ لَك هَذَا التَّحْرِيم

قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢).

{قَدْ فَرَضَ الله} شَرَعَ {لَكُمْ تَحِلَّة أَيْمَانكُمْ} تَحْلِيلهَا بِالْكَفَّارَةِ الْمَذْكُورَة فِي سُورَة الْمَائِدَة وَمِنْ الْأَيْمَان تَحْرِيم الْأَمَة وَهَلْ كَفَّرَ ﷺ قَالَ مُقَاتِل أَعْتَقَ رَقَبَة فِي تَحْرِيم مَارِيَة وَقَالَ الْحَسَن لَمْ يُكَفِّر لِأَنَّهُ ﷺ مَغْفُور لَهُ {وَاَللَّه مولاكم} ناصركم {وهو العليم الحكيم.

وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣).

{وَ} اذْكُرْ {إذْ أَسَرَّ النَّبِيّ إلَى بَعْض أَزْوَاجه} هِيَ حَفْصَة {حَدِيثًا} هُوَ تَحْرِيم مَارِيَة وَقَالَ لَهَا لَا تُفْشِيه {فَلَمَّا نَبَّأَت بِهِ} عَائِشَة ظَنًّا مِنْهَا أَنْ لَا حَرَج فِي ذَلِكَ {وَأَظْهَرَهُ الله} أَطْلَعَهُ {عَلَيْهِ} عَلَى الْمُنَبَّأ بِهِ {عَرَّفَ بَعْضه} لِحَفْصَةَ {وَأَعْرَض

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

عَنْ بَعْض} تكَرُّمًا مِنْهُ {فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَك هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيم الْخَبِير} أَيْ الله.

إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤).

{إنْ تَتُوبَا} أَيْ حَفْصَة وَعَائِشَة {إلَى الله فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبكُمَا} مَالَتْ إلَى تَحْرِيم مَارِيَة أَيْ سَرَّكُمَا ذَلِكَ مَعَ كَرَاهَة النَّبِيّ ﷺ لَهُ وَذَلِكَ ذَنْب وَجَوَاب الشَّرْط مَحْذُوف أَيْ تَقَبَّلَا وَأَطْلَقَ قُلُوب عَلَى قَلْبَيْنِ وَلَمْ يُعَبِّر بِهِ لِاسْتِثْقَالِ الْجَمْع بَيْن تَثْنِيَتَيْنِ فِيمَا هُوَ كَالْكَلِمَةِ الْوَاحِدَة {وَإِنْ تَظَاهَرَا} بِإِدْغَامِ التَّاء الثَّانِيَة فِي الْأَصْل فِي الظَّاء وَفِي قِرَاءَة بِدُونِهَا تَتَعَاوَنَا {عَلَيْهِ} أَيْ النَّبِيّ فِيمَا يَكْرَههُ {فَإِنَّ الله هُوَ} فَصْل {مَوْلَاهُ} نَاصِره {وَجِبْرِيل وَصَالِح الْمُؤْمِنِينَ} أَبُو بَكْر وَعُمَر رضي الله عنهما مَعْطُوف عَلَى مَحَلّ اسْم إنْ فَيَكُونُونَ نَاصِرِيهِ {وَالْمَلَائِكَة بَعْد ذَلِكَ} بَعْد نَصْر الله وَالْمَذْكُورِينَ {ظَهِير} ظُهَرَاء أَعْوَان لَهُ فِي نَصْره عَلَيْكُمَا.

عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥).

{عَسَى رَبّه إنْ طَلَّقَكُنَّ} أَيْ طَلَّقَ النَّبِيّ أَزْوَاجه {أَنْ يُبَدِّلهُ} بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيف {أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ} خَبَر عَسَى وَالْجُمْلَة جَوَاب الشَّرْط وَلَمْ يَقَع التَّبْدِيل لِعَدَمِ وُقُوع الشَّرْط {مُسْلِمَات} مُقِرَّات بِالْإِسْلَامِ {مُؤْمِنَات} مُخْلِصَات {قَانِتَات} مُطِيعَات {تَائِبَات عَابِدَات سائحات} صائمات أو مهاجرات {ثيبات وأبكارا}[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

=

=

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ قالت: كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش ويمكث عندها، فواطأت أنا وحفصة عن أيّتنا دخل عليها فلتقل له: أكلت مَغافير؟ إني أجد منك ريح مغافير، قال: "لا، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب ابنةِ جحش فلن أعودَ له، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً".

أخرجه البخاري (رقم ٤٩١٢، ٥٢٦٧، ٦٦٩١)، ومسلم (رقم ١٤٧٤/ ٢٠).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ كانت له أَمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها على نفسه؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)}.

أخرجه النسائي في "المجتبى" (٧/ ٧١، ٧٢)، وفي "عشرة النساء" (ص ٥٠ رقم ٢١)، وفي "التفسير" (٢/ ٤٤٩ رقم ٦٢٧)، والحاكم (٢/ ٤٩٣)، والضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (٥/ ٦٩، ٧٠ رقم ١٦٩٤)، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "الدر المنثور" (٨/ ٢١٤) -ومن طريقه الضياء المقدسي (٥/ ٧٠ رقم ١٦٩٥) -من طريق حماد بن سلمة وسليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس به. والحديث قال عنه الحاكم: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، وهو كما قالا. وقال الحافظ في "فتح الباري" (٩/ ٣٧٦): "بسند صحيح". وكذا صححه السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢١٧)

وعن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قال النبي ﷺ لحفصة: "لا تخبري أحداً، وإن أم إبراهيم عليّ حرام"؛ فقالت: أتحرم ما أحل الله لك؟ قال: "فوالله لا أقربها"، قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة، قال: فأنزل الله تعالى: {قَدْ فَرَضَ الله لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ}.

أخرجه الهيثم بن كليب في "مسنده"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٤١٢)، و"مسند الفاروق" (٢/ ٦١٤، ٦١٥) -ومن طريقه الضياء المقدسي في

=

=

"الأحاديث المختارة" (١/ ٢٩٩، ٣٠٠ رقم ١٨٩) -من طريق جرير بن حازم عن أيوب عن نافع عن ابن عمر عن عمر به.

وهذا سند صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح. قال الحافظ ابن كثير: "وهذا إسناد صحيح، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه "المستخرج"، وقال في "مسند الفاروق": "هذا إسناد صحيح على شرطهما...".

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كان رسول الله ﷺ يشرب عند سودة من العسل، فدخل على عائشة، فقالت: إني أجد منك ريحًا، ثم دخل على حفصة، فقالت: إني أجد منك ريحًا، فقال: "إني أراه من شراب شربته عند سودة، والله لا أشربُه"؛ فنزلت هذه الآية: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)}.

أخرجه الطبراني في "الكبير" (١١/ ٩٦ رقم ١١٢٢٦): ثنا معاذ بن المثنى ثنا مسدد ثنا يحيى بن سعيد القطان عن [أبي أبي الخزاز] ثني ابن أبي مليكة عن ابن عباس به.

وصحة الحديث متوقفة على معرفة [أبي أبي الخزاز] ونظنه تصحيفًا من الطابع أو الناسخ، وبحثنا في كتب الرجال فوجدنا رجلاً يكنى بهذه الكنية؛ وهو صالح بن رستم أبو عامر الخزاز، فإن يكن هو؛ فالسند ضعيف؛ لضعف صالح هذا -والله أعلم بالصواب-.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٢٧): "رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح".

وقال السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢١٧)، و"الدر المنثور" (٨/ ٢١٣) بعد زيادة نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه: "بسند صحيح".

=

=

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قال: دخل رسول الله ﷺ بمارية القبطية سريته بيت حفصة بنت عمر، فوجدتها معه، فقالت: يا رسول الله! في بيتي من [بين] بيوت نسائك؟ قال: "فإنها عليّ حرام أن أمسها يا حفصة! واكتمي هذا عليّ"، فخرجت حتى أتت عائشة، فقالت: يا بنت أبي بكر! ألا أبشرك؟ فقالت: بماذا؟ قالت: وجدت مارية مع رسول الله ﷺ في بيتي، فقلت: يا رسول الله! في بيتي من بين بيوت نسائك؟ وبي تفعل هذا من بين نسائك؟ فكان أول السرور أن حرمها على نفسه، ثم قال لي: "يا حفصة! ألا أبشرك؟ "، فقلت: بلى بأبي وأمي يا رسول الله! فأعلمني أن أباك يلي الأمر من بعده، وأن أبي يليه بعد أبيك، وقد استكتمني ذلك؛ فاكتميه؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ في ذلك: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ} أي: من مارية {تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ}؛ أي: حفصة {وَأللهُ غَفُور رَّحِيم}؛ أي: لما كان منك {قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا}؛ يعني: حفصة {فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ}؛ يعني: عائشة {وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ}؛ أي: بالقرآن {عَرَّفَ بَعْضَهُ} عرف حفصة ما أظهرت من أمر مارية {وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ} عما أخبرت به من أمر أبي بكر، وعمر، فلم يثربه عليها {فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ} ثم أقبل عليها يعاتبها، فقال: {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ}؛ يعني: أبا بكر وعمر {وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥)}؛ فوعده من الثيبات: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وأخت نوح، ومن الأبكار: مريم بنت عمران وأخت موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

أخرجه الطبراني في "الأوسط" (٣/ ١٣، ١٤ رقم ٢٣١٦) -ومن طريقه ابن

=

=

مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تخريج الكشاف" (٤/ ٦٠) -، والعقيلي في "الضعفاء الكبير" (٤/ ١٥٥) من طريق هشام بن إبراهيم المخزومي ثنا موسى بن جعفر الأنصاري عن عمه عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن أبي سلمة عن أبي هريرة به.

قال الطبراني: "لا يروى هذا الحديث عن أبي هريرة إلا بهذا الإسناد، تفرد به هشام بن إبراهيم".

وقال العقيلي: "لا يعرف إلا به؛ [يعني: موسى بن جعفر] ". وهذا سند ضعيف جداً؛ فيه علل:

الأولى: هشام بن إبراهيم؛ لم نجد له ترجمة.

الثانية: موسى بن جعفر؛ قال العقيلي: "مجهول بالنقل لا يتابع على حديثه ولا يصح إسناده".

الثالثة: عمه مجهول -أيضًا-؛ قال الحافظ في "لسان الميزان" (٦/ ١١٤): "لم أقف على اسمه ولا عرفت حاله". وقال العقيلي: "لا يصح إسناده".

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٢٧): "رواه الطبراني في "الأوسط" من طريق وسى بن جعفر بن أبي كثير عن عمه، قال الذهبي: "مجهول وخبره ساقط"". ا. هـ.

وقال السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٢١٦)، و"لباب النقول" (ص ٢١٧) بعد أن زاد نسبته لابن مردويه: "بسند ضعيف".

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: نزلت هذه الآية في سُريّته.

أخرجه البزار في "مسنده" (٣/ ٧٦ رقم ٢٢٧٤ -"كشف")، والطبراني في "المعجم الكبير" (١١/ ٧١ رقم ١١١٣٠) من طريق إسرائيل عن مسلم عن مجاهد عن ابن عباس به.

=

=

وهذا سند صحيح رجاله ثقات؛ ومسلم هو ابن عمران البطين.
قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ١٢٦): "رواه البزار بإسنادين والطبراني؛ ورجال البزار رجال الصحيح غير بشر بن آدم الأصغر، وهو ثقة".
والإسناد الثاني الذي أشار إليه الهيثمي هو عند البزار بعد السابق (رقم ٢٢٧٥) بسند ضعيف، فيه قيس بن الربيع وهو ضعيف. وقال السيوطي في "لباب النقول" (ص ٢١٧): "وأخرج البزار بسند صحيح". وقال في "الدر المنثور" (٨/ ٢١٤): "بسند حسن صحيح".
وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: نزلت هذه الآية في المرأة التي وهبت نفسها للنبي ﷺ.
أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره"؛ كما في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٤١٣): ثني أبو عبد الله الطهراني أنا حفص بن عمر العدني أنا الحكم بن أبان أنا عكرمة عن ابن عباس به. وهذا سند ضعيف؛ حفص بن عمر هذا ضعيف؛ كما في "التقريب".
قال الحافظ ابن كثير عقبه: "وهذا قول غريب". وقال السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٢١٧) بعد زيادة نسبته لابن مردويه: "بسند ضعيف". وقال في "لباب النقول" (ص ٢١٨): "غريب -أيضاً-، وسنده ضعيف".
وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا}؛ قال: دخلت حفصة على النبي ﷺ في بيتها وهو يطأ مارية، فقال لها رسول الله ﷺ: "لا تخبري عائشة حتى أبشرك ببشارة؛ فإن أباك يلي من بعد أبي بكر إذا أنا مت"، فذهبت حفصة فأخبرت عائشة أنها رأت النبي ﷺ يطأ مارية، وأخبرتها أن النبي ﷺ أخبرها: "أن أبا بكر يلي بعد رسول الله ﷺ ويلي عمر من بعده"، فقالت عائشة للنبي ﷺ: من أنبأك هذا؟ قال: "نبأني العليم الخبير"، فقالت عائشة: لا أنظر إليك حتى تحرم مارية؛ فحرمها؛ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ

=

=

تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)}.

أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٢/ ٩١، ٩٢ رقم ١٢٦٤٠): ثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهاني ثنا إسماعيل بن عمر البجلي أنا أبو عوانة عن أبي سنان عن الضحاك بن مزاحم عنه به.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٥/ ١٧٨): "رواه الطبراني؛ وفيه إسماعيل بن عمر البجلي وهو ضعيف وقد وثقه ابن حبان، والضحاك بن مزاحم لم يسمع من ابن عباس، وبقية رجاله ثقات".

وقال الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٤١٦): "إسناده فيه نظر".

وعن عبد الله بن رافع؛ قال: سألت أم سلمة عن هذه الآية: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)}؛ قالت: كانت عندي عكة من عسل أبيض يجرس نحله الضرو، فكان النبي ﷺ يلعق منها وكان يحبه، فقالت له عائشة: نحلها تجرس عرفطًا؛ فحرمها؛ فنزلت هذه الآية.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨/ ١٧٠، ١٧١): نا محمد بن عمر ثنا إبرهيم بن محمد بن أبي موسى عن داود بن الحصين عن عبد الله به. وشيخ ابن سعد هو الواقدي وهو متروك؛ فالحديث ضعيف جداً.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: خرجت حفصة من بيتها، وكان يوم عائشة، فدخل رسول الله بجاريته وهي مخمر وجهها، فقالت حفصة لرسول الله ﷺ: أما إني قد رأيت ما صنعت، فقال لها رسول الله ﷺ: "فاكتمي عني، وهي حرام"، فانطلقت حفصة إلى عائشة؛ فأخبرتها وبشرتها بتحريم القبطية فتسلم لهن أيامهن؛ فأنزل الله: {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ الله عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ}؛ يعني: حفصة وعائشة {فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ

=

=

وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ} الآية، فتركهن رسول الله ﷺ تسعًا وعشرين ليلة، ثم نزل: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)}؛ فأمر؛ فكفر يمينه، وحبس نساءه عليه.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات" (٨/ ١٨٥، ١٨٦): نا محمد بن عمر الواقدي ثنا عمر بن عقبة عن شعبة مولى ابن عباس عن ابن عباس به. وهذا سند ضعيف جداً؛ فيه علتان:

الأولى: الواقدي؛ متروك الحديث، متهم بالكذب.

الثانية: شعبة هذا؛ صدوق سيئ الحفظ؛ كما في "التقريب".

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: كنت أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن قول الله ﷻ : {وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ}؛ فكنت أهابه، حتى حججنا معه حجة، فقلت: لئن لم أسأله في هذه الحجة؛ لا أسأله، فلما قضينا حجنا؛ أدركناه وهو ببطن مرو قد تخلف لبعض حاجته، فقال: مرحبًا يا ابن عم رسول الله، ما حاجتك؟ قلت: شيء كنت أريد أن أسألك عنه يا أمير المؤمنين؛ فكنت أهابك، فقال: سلني عم شئت؛ فإنا لم نكن نعلم شيئًا حتى تعلمنا؛ فقلت: أخبرني عن قول الله ﷻ : {وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ} من هما؟ فقال: لا تسأل أحداً أعلم بذلك مني.

كنا بمكة لا تكلم أحدنا امرأته، إنما هن خادم البيت، فإذا كان له حاجة؛ سفع برجليها فقضى منها حاجته، فلما قدمنا المدينة؛ تعلمن من نساء الأنصار، فجعلن يكلمننا ويراجعننا، وإني أمرت غلمانًا لي ببعض الحاجة، فقالت امرأتي: بل اصنع كذا وكذا، فقمت إليها بقضيب؛ فضربتها به، فقالت: يا عجبًا لك يا ابن الخطاب! تريد ألا تكلم؛ فإن رسول الله ﷺ يكلمنه نساؤه، فخرجت فدخلت على حفصة، فقلت: يا بنية! انظري، لا تكلمي رسول الله ﷺ في شيء، ولا تسأليه؛ فإن رسول

=

الله ﷺ ليس عنده دنانير ولا دراهم يعطيكهن، فما كانت لك من حاجة -حتى دهن رأسك-؛ فسليني.

وكان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح جلس في مصلاه، وجلس الناس حوله حتى تطلع الشمس، ثم دخل على نسائه امرأة امرأة، يسلم عليهن، ويدعو لهن، فإذا كان يوم إحداهن جلس عندها، وإنها أهديت لحفصة بنت عمر عكة عسل من الطائف -أو من مكة-فكان رسول الله ﷺ إذا دخل عليها يسلم؛ حبسته حتى تلعقه منها -أو تسقيه منها-، وإن عائشة أنكرت احتباسه عندها، فقالت لجويرية عندها حبشية -يقال لها: خضراء-: إذا دخل على حفصة فادخلي عليها؛ فانظري ما يصنع فأخبرتها الجارية ما يصنع بشأن العسل، فأرسل عائشة إلى صواحبها فأخبرتهن، وقالت: إذا دخل عليكن فقلن: إنا نجد منك ريح مغافير، ثم إنه دخل على عائشة، فقالت: يا رسول الله! أطعمت شيئًا منذ اليوم؟ فإني أجد منك ريح مغافير، وكان رسول الله ﷺ أشد شيء عليه أن يوجد منه ريح شيء، فقال: "هو عسل، والله لا أطعمه أبداً".

حتى إذا كان يوم حفصة، قالت: يا رسول الله! إن لي حاجة إلى أبي، إن نفقة لي عنده، فائذن لي أن آتيه، فأذن لها، ثم إنه أرسل إلى مارية جاريته، فأدخلها بيت حفصة، فوقع عليها، فأتت حفصة فوجدت الباب مغلقًا، فجلست عند الباب، فخرج رسول الله ﷺ -وهو فزع، ووجهه يقطر عرقًا، وحفصة تبكي، فقال: "ما يبكيك؟ "، فقالت: إنما أذنت لي من أجل هذا، أدخلت أمتك بيتي ثم وقعت عليها على فراشي، ما كنت تصنع هذا بامرأة منهن، أما والله؛ ما يحل لك هذا يا رسول الله! فقال: "والله ما صدقت، أليس هي جاريتي قد أحلها الله لي؟ أشهدك أنها عليّ حرام، ألتمس بذلك رضاك، انظري ألا تخبري بهذا امرأة منهن؛ فهي عندك أمانة"، فلما خرج رسول الله ﷺ قرعت حفصة الجدار الذي بينها وبين

=

عائشة، فقالت: إلا أبشري، إن رسول الله ﷺ قد حرم أمته وقد أراحنا الله منها. فقالت عائشة: أما والله لقد كان يريبني أنه يقيل من أجلها؛ فأنزل الله ﷻ : {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ} ثم قرأ رسول الله ﷺ: {وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ}؛ فهي عائشة وحفصة، وزعموا أنهما كانتا لا تكتم إحداهما الأخرى شيئاً.

وكان لي أخ من الأنصار إذا حضرت وغاب في بعض ضيعته حدثته بما قال رسول الله ﷺ، [و] إذا غبت في بعض ضيعتي حدثني، فأتاني يوماً وقد كنا نتخوف جبلة بن الأيهم الغساني فقال: ما دريت ما كان؟ فقلت: وما ذاك، لعل جبلة بن الأيهم الغساني يذكر؟ فقال: لا، ولكنه أشد من ذلك، إن رسول الله ﷺ صلى الصبح فلم يجلس كما كان يجلس، ولم يدخل على أزواجه كما كان يصنع، وقد اعتزل في مشربته، وقد تركت الناس يموجون، ولا يدرون ما شأنه؟ فأتيت والناس في المسجد يموجون ولا يدرون، فقلت: يا أيها الناس! كما أنتم.

ثم أتيت رسول الله ﷺ وهو في مشربته قد جعلت له عجلة فرقي عليها، فقلت لغلام [له] أسود -وكان يحجبه-: استأذن لعمر بن الخطاب، فاستأذن لي فدخلت ورسول الله ﷺ في مشربته، فيها حصير وأُهب معلقة، وقد أفضى بجنبه إلى الحصير، فأثر الحصير في جنبه، وتحت رأسه وسادة من أدم محشوة ليفاً، فلما رأيته؛ بكيت، فقال: "ما يبكيك؟ "، قلت: يا رسول الله! فارس والروم يضطجع أحدهم في الديباج والحرير، فقال: "إنهم عجلت لهم طيباتهم في الدنيا، والآخرة لنا"، ثم قلت: يا رسول الله! ما شأنك؟ فإني قد تركت الناس يموج بعضهم في بعض، فعن خبر أتاك اعتزلتهن؟ فقال: "لا؛ ولكن بيني وبين أزواجي شيء، فأقسمت ألا أدخل عليهن شهراً"، ثم خرجت على الناس، فقلت: يا أيها الناس! ارجعوا؛ فإن رسول الله ﷺ كان بينه وبين أزواجه شيء فأحب أن يعتزل.

ثم دخلت على حفصة، فقلت: يا بنية! أتكلمي رسول الله ﷺ وتغيظين وتغارين

=

=

عليه؟ فقالت: لا أكلمه بعد بشيء يكرهه، ثم دخلت على أم سلمة -وكانت خالتي-، فقلت لها كما قلت لحفصة، فقالت: عجبًا لك يا عمر بن الخطاب! كل شيء تكلمت فيه حتى تريد أن تدخل بين رسول الله ﷺ -وبين أزواجه! وما يمنعنا أن نغار على رسول الله ﷺ وأزواجكم يغرن عليكم؛ فأنزل الله ﷻ: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨)} [الأحزاب: ٢٨] حتى فرغ من الآية.

أخرجه الطبراني في "الأوسط" (٨/ ٣٢٣ -٣٢٦ رقم ٨٧٦٤) من طريق عبد الله بن صالح ثني الليث بن سعد ثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن يزيد بن رومان عن ابن عباس به.

قال الطبراني: "لم يرو هذا الحديث عن يزيد بن رومان إلا سعيد بن أبي هلال ولا عن سعيد إلا خالد بن يزيد تفرد به الليث". وهو ثقة حافظ ثبت لا يضره ذلك؛ لكن الراوي عنه ضعيف، لم يروه عنه أحد من الجهابذة الذين رووا عنه صحيح حديثه.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٥/ ٨ -١٠): "وفيه عبد الله بن صالح كاتب الليث؛ قال عبد الملك بن شعيب بن الليث: ثقة مأمون، وضعفه أحمد وغيره".

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ} إلى قوله: {وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}؛ قال: كانت حفصة وعائشة متحابتين، وكانتا زوجتي النبي ﷺ، فذهبت حفصة إلى أبيها فتحدثت عنده، فأرسل النبي ﷺ إلى جاريته، فظلت معه في بيت حفصة، وكان اليوم الذي يأتي فيه عائشة، فرجعت حفصة فوجدتهما في بيتها، فجعلت تنتظر خروجها، وغارت غيرة شديدة، فأخرج رسول الله ﷺ جاريته، ودخلت حفصة، فقالت: قد رأيت من كان عندك، والله لقد سئتني؛ فقال النبي ﷺ: "والله لأرضينك؛ فإني مسرّ إليك سراً فاحفظيه"، قالت: ما

=

هو؟ قال: "إني أشهدك أن سريتي هذه عليّ حرام؛ رضـًا لك"، وكانت حفصة وعائشة تظاهران على نساء النبي ﷺ، فانطلقت حفصة إلى عائشة، فأسرت إليها أن أبشري: إن النبي ﷺ قد حرم عليه فتاته، فلما أخبرت بسر النبي ﷺ؛ أظهر الله ﷻ النبي ﷺ؛ فأنزل الله على رسوله لما تظاهرتا عليه: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ} إلى قوله: {وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ١٠١). وهو ضعيف جداً؛ لأنه مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: من المرأتان؟ قال: عائشة وحفصة، وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم القبطية أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة في يومها، فوجدته حفصة؛ فقالت: يا نبي الله! لقد جئت إليَّ شيئًا ما جئت إلى أحد من أزواجك بمثله؛ في يومي وفي دوري وعلى فراشي! قال: "ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها"، قالت: بلى، فحرمها، وقال: "لا تذكري ذلك لأحد"، فذكرته لعائشة فأظهره الله ﷻ عليه؛ فأنزل الله: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ} الآيات كلها، فبلغنا أن نبي الله ﷺ كفر يمينه وأصاب جاريته.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ١٠٢) بسند صحيح إلى ابن إسحاق عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس به. وسنده ضعيف؛ ابن إسحاق مدلس وقد عنعن.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٢١٤) وزاد نسبته لابن المنذر.

وأخرج الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٩١) من طريق آخر عن ابن عباس عن عمر؛ قال: دخل رسول الله ﷺ بأم ولده مارية في بيت حفصة، فوجدته حفصة معها، فقالت: أتدخلها بيتي؟ ما صنعت بي هذا من بين نسائك إلا من هواني

=

عليك! فقال لها: "لا تذكري هذا لعائشة، هي عليّ حرام إن قربتها"، قالت حفصة: وكيف تحرم عليك وهي جاريتك، فحلف لها لا يقربها، وقال لها: "لا تذكريه لأحد"، فذكرته لعائشة، فأبى أن يدخل على نسائه شهراً واعتزلهن تسعاً وعشرين ليلة؛ فأنزل الله تبارك وتعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)} الآية. وسنده ضعيف جداً؛ فيه عبد الله بن شبيب وهو واهٍ بمرة.

وعن زيد بن أسلم: أن النبي ﷺ حرّم أم إبراهيم، فقال: "هي عليّ حرام"، قال: "والله لا أقربها"، قال: فنزل: {قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ} . قال مالك بن أنس: فالحرام حلال في الإماء؛ إذا قال الرجل لجاريته: أنت عليّ حرام؛ فليس بشيء، وإذا قال: والله لا أقربك، فعليه كفارة.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨/ ١٨٦): نا الواقدي نا مالك بن أنس عن زيد به.

والواقدي متروك وهو -أيضاً- مرسل؛ فالأثر واهٍ جداً.

وأخرج الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ١٠٠): ثني محمد بن عبد الرحيم البرقي ثني ابن أبي مريم ثنا أبو غسان ثني زيد بن أسلم: أن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم في بيت بعض نسائه، قال: فقالت: أي رسول الله! في بيتي وعلى فراشي؟! فجعلها عليه حراماً، فقالت: يا رسول الله! كيف تحرم عليك الحلال؟ فحلف لها أن لا يصيبها، فأنزل الله ﷻ : {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)} .

قال زيد: فقوله: أنت عليّ حرام لغو. وابن أبي مريم متروك -أيضاً-؛ فلا يعتد به.

وعن مسروق؛ قال: آلى رسول الله ﷺ من أَمته وحرّمها؛ فأنزل الله في الإيلاء: {قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ} ؛ وأنزل الله: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ

=

=

تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ}؛ فالحرام ها هنا حلال.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨/ ١٨٦)، والطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ١٠٠) من طريقين عن الثوري عن داود بن أبي هند عن الشعبي عن مسروق به. وسنده صحيح؛ لكنه مرسل.

وأخرجه الطبري من طريق ابن علية عن داود بنحوه. وهو مرسل صحيح.

وأخرج سعيد بن منصور بسند صحيح إلى مسروق قال: حلف رسول الله ﷺ لحفصة لا يقرب أمته، وقال: "هي عليّ حرام"؛ فنزلت الكفارة ليمينه، وأمر أن لا يحرم ما أحل الله. قاله الحافظ في "الفتح" (٨/ ٦٥٧).

وعن محمد بن جبير بن مطعم؛ قال: خرجت حفصة من بيتها؛ فبعث رسول الله إلى جاريته فجاءته في بيت حفصة، فدخلت عليه حفصة وهي معه في بيتها، فقالت: يا رسول الله! في بيتي وفي يومي وعلى فراشي؟! فقال رسول الله ﷺ: "اسكتي، ذلك الله لا أقربها أبداً، ولا تذكريه"؛ فذهبت حفصة فأخبرت عائشة؛ فأنزل الله: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ} فكان ذلك التحريم حلالاً، ثم قال: {قَدْ فَرَضَ الله لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ}؛ فكفّر رسول الله ﷺ عن يمينه حين آلى، ثم قال: {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا}؛ يعني: حفصة، {فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ} حين أخبرت عائشة، {وَأَظْهَرَهُ الله عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ}؛ يعني: حفصة لما أخبره الله؛ قالت حفصة: من أنبأك هذا؟ قال: نبأني العليم الخبير، {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا}؛ يعني: حفصة وعائشة، {وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ} لعائشة وحفصة، {فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ} الآية، فقال رسول الله ﷺ: "ما أنا بداخل عليكن شهرا".

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨/ ١٨٦، ١٨٧): نا محمد بن عمر ثنا موسى بن يعقوب عن أبي الحويرث عن محمد به. وهذا سند ضعيف جداً؛ فيه

=

=

علل:

الأولى: الواقدي متروك.

الثانية: موسى بن يعقوب الزمعي؛ صدوق سيئ الحفظ.

الثالثة: أبو الحويرث هو عبد الرحمن بن معاوية؛ صدوق سيئ الحفظ.

الرابعة: الإرسال.

وأخرج ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨/ ١٨٧) بسند فيه الواقدي بنحوه عن أم سلمة

وعن عروة بن الزبير؛ قال: انطلقت حفصة إلى أبيها تحدث عنده، وأرسل رسول الله ﷺ إلى مارية فظل معها في بيت حفصة وضاجعها، فرجعت حفصة من عند أبيها وأبصرتهما؛ فغارت غيرة شديدة، ثم إن رسول الله ﷺ أخرج سريته فدخلت حفصة، فقالت: قد رأيت ما كان عندك وقد سؤتني، فقال النبي ﷺ: "فإني والله لأرضيك، إني مسر إليك سراً فأخفيه لي"، فقالت: ما هو؟ قال: "أشهدك أن سريتي عليّ حرام"؛ يريد بذلك: رضا حفصة، وكانت حفصة وعائشة قد تظاهرتا على نساء رسول الله ﷺ، قال: فانطلقت حفصة فحدثت عائشة، فقالت لها: أبشري؛ فإن الله حرم على رسوله وليدته، فلما أخبرت بسر رسول الله ﷺ؛ أنزل الله: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ} إلى قوله: {ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا}.

أخرجه ابن سعد في "الطبقات الكبرى" (٨/ ١٨٧) بسند فيه الواقدي. وهو ضعيف جداً.

وعن الضحاك يقول في قوله: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ الله لَكَ} كانت لرسول الله ﷺ فتاة فغشيها فبصرت به حفصة، وكان اليوم يوم عائشة، وكانتا متظاهرتين، فقال رسول الله ﷺ: "اكتمي عليّ ولا تذكري لعائشة ما رأيت"؛ فذكرت حفصة

=

=

لعائشة؛ فغضبت عائشة، فلم تزل بنبي الله ﷺ حتى حلف أن لا يقربها أبداً؛ فأنزل الله هذه الآية وأمره أن يكفر يمينه ويأتي جاريته.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (٢٨/ ١٠١) وسنده ضعيف جداً.

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر؛ كما في "الدر المنثور" (٨/ ٢١٦) عن الضحاك: أن حفصة زارت أباها ذات يوم، وكان يومها، فجاء النبي ﷺ -فلم يجدها في المنزل، فأرسل إلى أمته مارية، فأصاب منها في بيت حفصة، وجاءت حفصة على تلك الحال، فقالت: يا رسول الله! أتفعل هذا في بيتي وفي يومي؟! قال: "فإنها عليّ حرام، ولا تخبري بذلك أحداً"، فانطلقت حفصة إلى عائشة، فأخبرتها بذلك؛ فأنزل الله تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١)} إلى قوله: {وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ}؛ فأمر أن يكفر عن يمينه ويراجع أمته. وهو ضعيف؛ لإعضاله إن صح الطريق إلى الضحاك.

وعن عائشة رضي الله عنها؛ قالت: لما حلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح؛ فأنزل الله عز وجل: {قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ}؛ فأحل يمينه وأنفق عليه.

أخرجه الحارث بن أبي أسامة في "مسنده" (٢/ ٩١٣ رقم ٩٩٨ -بغية) بسند ضعيف جداً.

وعن عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم؛ قالا: نزلت: {وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ} في أبي بكر وعمر.

أخرجه الطبراني في "الأوسط" (١/ ٢٥٠ رقم ٨٢٠): ثنا أحمد الحلواني نا إسحاق بن المنذر نا فرات بن السائب عن ميمون بن مهران عن ابن عمر وابن عباس به. قال الطبراني: "لم يرو هذا الحديث عن ميمون بن مهران إلا فرات بن السائب". وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٩/ ٥٢): "وفيه فرات بن السائب

=

=

وهو متروك".

وعن سعيد بن جبير؛ قال: نزلت {وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ} في عمر بن الخطاب خاصة.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٨/ ٢٢٣) ونسبه لسعيد بن منصور وابن سعد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر. وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: وجدت حفصة رسول الله ﷺ مع أم إبراهيم في يوم عائشة، فقالت: لأخبرنها، فقال رسول الله ﷺ: "هي عليّ حرام إن قربتها"؛ فأخبرت عائشة بذلك، فأعلم الله رسوله ذلك، فعرّف حفصة بعض ما قالت، فقالت له: من أخبرك؟ قال: نبأني العلم الخبير، فآلى رسول الله ﷺ من نسائه شهراً؛ فأنزل الله تبارك وتعالى: {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤)} الآية.

أخرجه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ٢٩٢، ٢٩٣) من طريق الدارقطني نا المحاملي نا عبد الله بن شبيب ثني أحمد بن محمد بن عبد العزيز قال: وجدت في كتاب أبي عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس. وعبد الله بن شبيب واهٍ؛ فالأثر ضعيف جداً.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ قال: لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه؛ قال: دخلت المسجد، فإذا الناس ينكتون بالحصى ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب، فقال عمر: فقلت: لأعلمن ذلك اليوم، قال: فدخلت على عائشة، فقلت: يا بنت أبي بكر! أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ؟ فقالت: ما لي وما لك يا ابن الخطاب؟! عليك بعيبتك، قال: فدخلت على حفصة بنت عمر؛ فقلت لها: يا حفصة! أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله ﷺ؟ والله؛ لقد علمت أن رسول الله لا يحبك، ولولا أنا؛ لطلقك

=

=

رسول الله ﷺ؛ فبكت أشد البكاء، فقلت لها: أين رسول الله ﷺ؟ قالت: هو في خزانته في المشربة؛ فدخلت، فإذا أنا برباح غلام رسول الله ﷺ قاعداً على أسكفة المشربة مدل رجليه على نقير من خشب، وهو جذع يرقى عليه رسول الله ﷺ وينحدر، فناديت: يا رباح! استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ؛ فنظر رباح إلى الغرفة، ثم نظر إليّ فلم يقل شيئًا. ثم قلت: يا رباح! استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ. فنظر رباح إلى الغرفة، ثم نظر إليَّ فلم يقل شيئًا.

ثم رفعت صوتي؛ فقلت: يا رباح! استأذن لي عندك على رسول الله ﷺ؛ فإني أظن أن رسول الله ﷺ ظن أني جئت من أجل حفصة، والله؛ لئن أمرني رسول الله ﷺ بضرب عنقها؛ لأضربن عنقها، ورفعت صوتي، فأومأ إليّ أن ارقه، فدخلت على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير فجلست، فأدنى عليه إزاره، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله ﷺ فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، ومثلها قرظًا في ناحية الغرفة، وإذا أفيق معلق، قال: فابتدرت عيناي، قال: "ما يبكيك يا ابن الخطاب؟! "، قلت: يا نبي الله! ومالي لا أبكي؟ وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله ﷺ، وصفوته، وهذه خزانتك؛ فقال: "يا ابن الخطاب! ألا ترى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟ "، قلت: بلى، قال: ودخلت عليه حين دخلت وأنا أرى في وجهه الغضب، فقلت: يا رسول الله! ما يشق عليك من شأن النساء؟ فإن كنت طلقتهن؛ فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلما تكلمت -وأحمد الله- بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي الذي أقول، ونزلت هذه الآية: آية التخيير: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥)}.

=

=

وكانت عائشة بنت أبي بكر وحفصة تظاهران على سائر نساء النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله! أطلقتهن؟ قال: "لا"، قلت: يا رسول الله! إني دخلت المسجد والمسلمون ينكتون بالحصى يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساءه، أفأنزل؛ فأخبرهم أنك لم تطلقهن؟ قال: "نعم إن شئت"، فلم أزل أحدثه حتى تحسر الغضب عن وجهه، وحتى كشر فضحك، وكان من أحسن الناس ثغراً، ثم نزل نبي الله ﷺ ونزلت، فنزلت أتشبث بالجذع ونزل رسول الله ﷺ كأنما يمشي على الأرض ما يمسه بيده، فقلت: يا رسول الله! إنما كنت في الغرفة تسعة وعشرين، قال: "إن الشهر يكون تسعاً وعشرين"، فقمت على باب المسجد، فناديت بأعلى صوتي: لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه؛ ونزلت هذه الآية: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} [النساء: ٨٣]؛ فكنت أنا استنبطت ذا الأمر وأنزل الله ﷻ آية التخيير.

أخرجه مسلم في "صحيحه" (رقم ١٤٧٩).

وتقدم في أول سورة البقرة آية رقم (١٢٥) حديث عمر: "وافقت ربي في ثلاث".

قال الشوكاني: في تفسيره: (فهذان سببان صحيحان لنزول الآية، والجمع ممكن بوقوع القصتين: قصةَ العسل وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعًا وفي كل واحد منهما أنه أَسَرَّ الحديث إلى بعض أزواجه).

* وقوله: {وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}. أي غفور يا محمد ذنوب التائبين، وقد غفر لك تحريمك على نفسك ما أحل لك.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ} [التحريم: ١].

قال السعدي:"هذا عتاب من الله لنبيه محمد ﷺ، حين حرم على نفسه سريته "مارية" أو شرب العسل، مراعاة لخاطر بعض زوجاته، في قصة معروفة، فأنزل الله

=

=

تعالى هذه الآيات {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ}، أي: يا أيها الذي أنعم الله عليه بالنبوة والوحي والرسالة {لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ} من الطيبات، التي أنعم الله بها عليك وعلى أمتك".

قال ابن كثير:"ومن هاهنا ذهب من ذهب من الفقهاء ممن قال بوجوب الكفارة على من حرم جاريته أو زوجته أو طعامًا أو شرابًا أو ملبسًا أو شيئًا من المباحات، وهو مذهب الإمام أحمد وطائفة. وذهب الشافعي إلى أنه لا تجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية، إذا حَرَّم عينيهما أو أطلق التحريم فيهما في قوله، فأما إن نوى بالتحريم طلاق الزوجة أو عتق الأمة، نفذ فيهما".

واختلف أهل العلم، هل حرّمها على نفسه بيمين آلى بها أم لا، على قولين:

أحدهما: أنه حلف يمينـًا حرّمها بها، فعوتب في التحريم وأُمر بالكفارة في اليمين، قاله الحسن، والضحاك، وقتادة، والشعبي، وزيد بن أسلم، وابنه.

عن زيد بن أسلم:"قال لها: أنت عليّ حرام، ووالله لا أطؤك".

قال الشعبي:"حلف بيمين مع التحريم، فعاتبه الله في التحريم، وجعل له كفارة اليمين".

الثاني: أنه حرّمها على نفسه من غير يمين، فكان التحريم موجبـًا لكفارة اليمين، قاله ابن عباس.

عن سعيد بن جُبير:"أن ابن عباس كان يقول: في الحرام يمين تكفرها. وقال ابن عباس: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}، يعني أن النبي ﷺ حرّم جاريته، فقال الله جلّ ثناؤه: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ}... إلى قوله: {قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ}، فكفر يمينه، فصير الحرام يمينًا".

قوله تعالى: {تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ} [التحريم: ١]، أي:"تبتغي إرضاء زوجاتك؟".

=

=

قال الزمخشري:" {تَبْتَغِي} إما تفسير لـ «تحرم». أو حال، أو استئناف، وكان هذا زلة منه لأنه ليس لأحد أن يحرّم ما أحلّ الله لأن الله ﷻ إنما أحلّ ما أحل لحكمة ومصلحة عرفها في إحلاله، فإذا حرّم كان ذلك قلب المصلحة مفسدة".

قوله تعالى: {وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [التحريم: ١]، أي:"والله غفور لك، رحيم بك".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والله غفور يا محمد لذنوب التائبين من عباده من ذنوبهم، وقد غفر لك تحريمك على نفسك ما أحله الله لك، رحيم بعباده أن يعاقبهم على ما قد تابوا منه من الذنوب بعد التوبة".

قال الزمخشري:" {وَاللهُ غَفُورٌ} قد غفر لك ما زللت فيه، {رَحِيمٌ} قد رحمك فلم يؤاخذك به".

قال السعدي:"هذا تصريح بأن الله قد غفر لرسوله، ورفع عنه اللوم، ورحمه، وصار ذلك التحريم الصادر منه، سببًا لشرع حكم عام لجميع الأمة".

وقوله: {قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ}.

أي: قد بين الله لكم تحلة أيمانكم، وحدّها لكم أيها الناس، فتحليل اليمين كفارتها. والتحلّة: مصدر بمعنى التحليل. فشرع تحليل الأيمان بحل ما عقدته بالكفارة.

قال الطبري:"يقول:"قد بين الله ﷻ لكم تحلة أيمانكم، وحدّها لكم أيها الناس".

قال ابن قتيبة:"أي: أوجب لكم الكفارة".

قال السعدي:"أي: قد شرع لكم، وقدر ما به تنحل أيمانكم قبل الحنث، وما به الكفارة بعد الحنث، وذلك كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا} إلى أن قال: {فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ

=

أَيَّام ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ} . فكل من حرم حلالا عليه، من طعام أو شراب أو سرية، أو حلف يمينًا بالله، على فعل أو ترك، ثم حنث أو أراد الحنث، فعليه هذه الكفارة المذكورة".

عن مَسروق بن الأَجْدع الهَمداني -من طريق الشعبي-: "أنّ النبي ﷺ حَرّم جاريته، وآلى منها، فجعل الحلال حرامًا، وقال في اليمين: {قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ}".

-عن محمد بن جُبَير بن مُطْعِم -من طريق أبي الحُويرث-قال:... {يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك} فكان ذلك التحريم حلالًا، ثم قال: {قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم} فكفّر رسولُ الله عن يمينه حين آلى".

عن ميمون بن مهران، في قوله: {تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ}، قال: يقول: "قد أحللتُ لك ما مَلكتْ يمينُك، فلِمَ تُحرّم ذلك وقد فَرضتُ لك تَحِلّة اليمين تُكفّر بها يمينك؟! كلّ ذلك في هذا".

قوله تعالى: {وَاللهُ مَوْلَاكُمْ} [التحريم: ٢]، أي:"والله ناصركم ومتولي أموركم".

قال الطبري:"يتولاكم بنصره أيها المؤمنون".

قال السعدي:"أي: متولي أموركم، ومربيكم أحسن تربية، في أمور دينكم ودنياكم، وما به يندفع عنكم الشر، فلذلك فرض لكم تحلة أيمانكم، لتبرأ ذممكم.

قوله تعالى: {وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [التحريم: ٢]، أي:"وهو العليم بما يصلحكم فيشرعه لكم، الحكيم في أقواله وأفعاله".

قال الطبري:"{وَهُوَ الْعَلِيمُ} بمصالحكم، {الْحَكِيمُ} في تدبيره إياكم، وصرفكم فيما هو أعلم به".

قال السعدي:"الذي أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم، وهو الحكيم في جميع ما خلقه وحكم به، فلذلك شرع لكم من الأحكام، ما يعلم أنه موافق لمصالحكم،

=

ومناسب لأحوالكم".

عن محمد بن إسحاق، قوله: " {عليم}، أي: عليم بما تخفون"، "قوله: {حكيم}، في عذره وحجته إلى عباده".

عن أبي العالية في قوله: " {حكيم}، قال: حكيم في أمره".

مسألة: تحريم الحلال لا يجعله حراما: إذا حرم الإنسان حلالا على نفسه، لا يكون ما حرمه محرما في نفسه؛ وإنما الحرام والحلال من مصطلحات الشريعة واختصاص المشرع؛ وذلك أن الله جعل تحريم الحرام أمرا لا يمكن تحقيقه؛ فقد سماه زورا؛ كما في قوله تعالى: {وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا} [المجادلة: ٢]، والزور لا يتحقق، والاستفهام في قوله تعالى: {ياأيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم} استفهام إنكار، ويتضمن إنكارا؛ لأن مضمونه إنشاء.

وتحريم الحلال لا أثر له على العين المحرمة في ذاتها، ولا تحرم به مطلقا باتفاق الأئمة الأربعة، خلافا لقول ينسب إلى أبي حنيفة وميل لأبي الخطاب من الحنابلة.

وقد ذم الله تحريم الحلال وتحليل الحرام وجعلهما في الأمر سواء في مقام المخالفة لتشريعه؛ فقد قال تعالى: {ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب} [النحل: ١١٦]، وقال: {قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون} [يونس: ٥٩]؛ فلو كان تحريم الحلال مؤثرا على العين لمجرد تحريم الإنسان على نفسه، لجاز أن يكون ذلك في تحليل الحرام، فالتغير الذي يلحق العين تشريع، وليس مجرد إلزام بامتناع النفس عنها.

وأما من يجعل العين تحرم بذلك؛ لقوله تعالى: {قد فرض الله لكم تحلة

=

=

أيمانكم} بعدما ذكر الله تحريم نبيه على نفسه، فإن قوله تعالى: {تحلة أيمانكم} ليس المراد به التحليل بعد تحريم، وإنما المراد له الحل بعد عقد؛ فاليمين تعقد؛ كما في قوله تعالى: {عقدتم الأيمان} [المائدة: ٨٩]، فالكفارة تحل ما انعقد عليه القلب، وليس الحكم الذي انعقد على العين.

* تحريم الحلال يمين: من قصد بتحريمه حلال الطعام والشراب واللباس على نفسه أن تكون يمينا تمنعه عن تلك الأشياء، لقد اختلف في جعل تحريم الحلال يمينا، وفي المحلوف به فيها:

فمن العلماء: من كرهها؛ كأحمد وجماعة من أصحابه؛ حيث حملت على مشابهة الحلف بغير الله.

وجمهور العلماء: على جوازها؛ لأن الحالف لم يحلف بمخلوق؛ وإنما هو الزام للنفس بشيء أمام الله، وحاله كحال النذر.

قوله تعالى: {قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم}: لما ذكر الله تعالى تحريم الحلال، ذكر أنه ينعقد على إلزام كاليمين الصريحة، فجعل له حلا في قوله: {تحلة}، ثم سماه الله تعالى يمينا في قوله: {أيمانكم}.

ولكن السلف مختلفون في تحريم النبي ﷺ على نفسه: هل كان تحريما مجردا فتكون التحلة متعلقة بالتحريم المجرد، أو اقترن بيمين فتكون التحلة. في الآية على اليمين لا على التحريم:

فمن السلف: من قال: إنه حرم على نفسه فجعلها الله يمينا ولم يكن معها يمين؛ وهذا ظاهر قول الحسن وقتادة.

ومنهم من قال: إن النبي ﷺ حلف يمينا مع تحريمه؛ وهذا قول الشعبي ومسروق وابن زيد.

وقد اختلف العلماء في كفارة تحريم الحلال المجرد عن لفظ اليمين: هل يلزم

=

=

عليه كفارة أو لا؟

ذهب الحنفية والحنابلة: إلى لزوم الكفارة فيه؛ لما تقدم حيث جعل الله تحريم الحلال يمينا، ثم جعل له تحلة، وله قال عمر؛ رواه عنه عكرمة، وقد صح عن ابن عباس أنه قال: "إذا حرم الرجل عليه امرأته، فهي يمين يكفرها، وقال: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة} [الأحزاب: ٢١] "؛ رواه مسلم.

وجاء عن ابن مسعود، وعائشة: أن فيه كفارة يمين، وقد صح هذا عن جماعة من التابعين، منهم مسروق والحسن وقتادة.

ويدل على ذلك: أن الله تعالى لما ذكر تحريم الحلال، لم يرتب عليه حكما؛ وإنما نهى عنه، ورتب الحكم على اليمين؛ سواء كانت بلفظ اليمين أو لفظ الحرام؛ فإن الله تعالى قال: {ياأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا} [المائدة: ٨٧]، ولم يذكر حكما غير النهي، ثم لما ذكر اليمين بعدها، رتب عليها حكم الكفارة؛ فقال تعالى: {لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته} الآية [المائدة: ٨٩]، وجعل كل يمين لفظا وما قصد به اليمين معنى، أخذ حكمها في الكفارة، والصحابة لم يجعلوا في الحرام سوى الكفارة.

وذهب المالكية والشافعية: إلى أن تحريم الحلال ليس فيه كفارة حتى يكون بلفظ الحلف بالله الصريح، واستدل لذلك بما تقدم من أن الله نهى عن تحريم الحلال، ولم يوجب عليه كفارة، ولما ذكر اليمين أوجب فيها كفارة، وأن النبي ﷺ حلف مع تحريمه ولم يكن تحريما مجردا؛ كما جاء في قول الشعبي وقتادة -في رواية- وزيد بن أسلم، والتحلة في آية التحريم على يمينه، لا على تحريمه.

والأظهر: وجوب الكفارة في التحريم؛ وذلك أن المنع من الفعل بالتحريم كالمنع منه باليمين، وهو قول الصحابة، وليس بينهم اختلاف، وأما ما جاء عن بعض

=

=

السلف: أن النبي ﷺ حلف مع تحريمه، فلا يلزم القول بأنه حلف أن التحريم لا يكون يمينا وحده عندهم، ولكن اليمين تصريح وتأكيد، وقد كان قتادة يروي أن النبي ﷺ حلف مع تحريمه، ومع ذلك يوجب الكفارة في التحريم، ومن الرواة من ينقل الحلف ويجعله هو معنى التحريم ومقتضاه، ولا يريد أن النبي ﷺ حلف بنفسه بلفظ مستقل عن التحريم، وقد روي عن ابن عباس قوله: فصير الحرام يمينا.

وقوله: {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ}. أي: فلما أخبرت بالحديث الذي أسرّ إليها رسول الله ﷺ صاحبتها وأظهر الله نبيّه محمدًا ﷺ على أنها قد أنبأت بذلك صاحبتها {عَرَّفَ بَعْضَهُ} أي عرّف النبي ﷺ حفصة بعض ذلك الحديث وأخبرها به وترك أن يخبرها ببعض.

(فائدة): لما أطلع الله نبيه على ما تظاهرت به عائشة وحفصة، عرف النبي ﷺ حفصة بعض ذلك، وأعرض عن بعضه الآخر؛ أي: أخبرها بشيء من أمرها، ولم يخبرها بشيء آخر.

وفي هذا: أن السنة التغافل عما لا يحسن ذكره، أو ما كان ذكره يحييه ويعظم شأن المذكور وهو دون ذلك، ويكتفى بذكر بعضه، ليسري العلاج على باقيه.

وقوله تعالى: {عرف بعضه وأعرض عن بعض}، فيه: أنه من الحكمة أن بعض الأمور لا يصلح فيها التغافل التام المشعر بالغفلة والبلادة، بل يبين طرفها المشعر بالعلم، ويكتم القدر الذي لا حاجة إليه، أو كانت الحاجة إلى ذكره ضعيفة، أو يكون ضرر إخراجه أشد من ضرر كتمه.

والتغافل ليس على مرتبة واحدة، بل هو على مراتب بحسب الأمر الذي جاء فيه: فمن الأمور:

=

=

ما يستحب التغافل عنه بالكلية.

ومنها: ما يستحب أن يبدي بعضا ويكتم الآخر، ويختلف قدر ما يبديه وما يخفيه؛ كل حاله بحسبها، وهذا يرجع إلى حكمة الإنسان وعلمه، ومن الناس: من يظن أنه إن كان ذا حق، فله أن يبدي من حقه ما يشاء؛ من غير نظر إلى ما يصلح الأمر ولا ما يفسده.

ويعرف العاقل بمقدار غفلته ومواضعها، وكثير من الشرور علاجها بالتعافل، وذكرها يحييها ويذكيها حتى تعظم وتسيطر.

وللتغافل ألم عاجل، ولذة آجلة؛ قال الأعمش: "السكوت جواب، والتغافل يطفئ شرا كثيرا ".

وقد قال محمد بن عبد الله الخزاعي: "سمعت عثمان بن زائدة يقول: العافية عشرة أجزاء، تسعة منها في التغافل، ثم قال: فحدثت به أحمد بن حنبل، فقال: العافية عشرة أجزاء، كلها في التغافل".

ويقول الشافعي: "الكيس العاقل، هو الفطن المتغافل".

وأحوج ما يكون الإنسان إلى التغافل مع من يكثر خلطته؛ كالزوجة والولد والخادم وذوي الأرحام والأصحاب والجيران، فلو تتبع الإنسان كل ما يجد في نفسه منه، لما بقي له عمر، ولم تصلح له حال، ويتحول من فتنة إلى أخرى.

وقوله تعالى: {فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ} . أي: قالت حفصة حين أنبأها ذلك: من أنبأك هذا الخبر وأخبرك به؟ قال النبي ﷺ: خبرني به {الْعَلِيمُ} بسرائر عباده {الْخَبِيرُ} بأمورهم وأحوالهم، لا يخفى عليه شيء.

قوله تعالى: {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا} .

قال الطبري:"والحديث الذي أسرّ إليها في قول هؤلاء هو قوله لمن أسرّ إليه ذلك

=

=

من أزواجه تحريم فتاته، أو ما حرّم على نفسه مما كان الله جلّ ثناؤه قد أحله له، وحلفه على ذلك وقوله: «لا تذكري ذلك لأحد»".

عن ابن وهب، قال: "قال ابن زيد، في قوله: {وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا}، قوله لها: لا تذكريه".

عن محمد بن جُبَير بن مُطْعِم -من طريق أبي الحُويرث-قال: " {وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثًا}، يعني: حفصة".

قال ميمون بن مهران:"أسرّ إليها: «إنّ أبا بكر خليفتي من بعدي»".

قال الضحاك:"أسرّ إلى حفصة بنت عمر أنّ الخليفة مِن بعده أبو بكر، ومن بعد أبي بكر عمر".

عن الضَّحّاك بن مُزاحِم، قال: أتى النبيُّ ﷺ جاريةً له في يوم عائشة، وكانت عائشة وحفصة مُتَحابَّتَيْن، فأَطلعتْ حفصةَ على ذلك، فقال لها: «لا تُخبري عائشة بما كان مِنِّي، وقد حَرّمتُها عَلَيَّ». فأَفشَتْ حفصةُ سِرَّ النبيّ ﷺ؛ فأنزل الله: {يا أيها النَّبِيّ لم تحرم} الآيات".

قوله تعالى: {فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ} [التحريم: ٣]، أي:"فلما أخبرت بذلك السرِّ عائشة- رضي الله عنها -وأفشته لها".

قال الطبري:"فلما أخبرت بالحديث الذي أسرّ إليها رسول الله ﷺ صاحبتها".

قوله تعالى: {وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ} [التحريم: ٣]، أي وأطلع الله نبيه بواسطة جبريل الامين على إفشائها للسرِّ".

قال الطبري: يقول:"وأظهر الله نبيه محمدًا ﷺ على أنها قد أنبأت بذلك صاحبتها".

قوله تعالى: {عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ} [التحريم: ٣]، أي:"أي أعلمها وأخبرها رسول الله ﷺ ببعض الحديث الذي أفشته معاتبًا لها، ولم يخبرها

=

=

بجميع ما حصل منها حياءً منه وتكرمـاً".

قـال الطبـري: " عـرّف النبـيّ ﷺ حفـصة، يعنـي: مـا أظهـره الله عليـه مـن حـديثها صاحبتها، وترك أن يخبرها ببعض".

عن ابن زيد: " {فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ}، وكان كريمًا ﷺ".

عن علي بن أبي طالب، قال:"ما استقصى كريمٌ قطّ؛ لأن الله تعالى يقـول: {عَـرَّفَ بَعْضَهُ وأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ}".

عن محمد بن جُبَير بن مُطْعِم -من طريق أبي الحُويرث-قـال: " {فلمـا نبـأت بـه} حين أخبَرتْ عائشة {وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأهـا به} يعني: حفصة، لما أخبره الله {قالت} حفصة: {من أنبأك هذا قال نبـأني العلـيم الخبير}".

عن مجاهد بن جبر، في قوله: {عَرَّفَ بَعْضَهُ وأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ} قال: الذي عـرَّف أمـر ماريـة، وأعـرض في قولـه: «إنّ أبـاكِ وأباهـا يَلِيـان النـاس بعـدي». مخافـة أن يَفشو".

قـال الحـسن البـصري: مـا استقـصى كـريمٌ قـطّ، قـال الله تعـالى: {عَـرَّفَ بَعْـضَهُ وأَعْرَضَ} وذلك أنّ النبي ﷺ لَمّا رأى الكراهية في وجه حفصة أراد أن يتراضـاها؛ فأَسرّ إليها شيئين: تحريم الأَمَة على نفسه، وتبشيرها بأنّ الخلافة بعده في أبـي بكـر وفي أبيها عمر رضي الله عنهما، فأَخبَرتْ به حفصةُ عائشةَ، وأَطلع اللهُ تعالى نبيَّه عليه".

عن عطاء الخُراسانيّ -من طريق شيخ-قال: ما استقصى حليمٌ قطّ؛ ألم تسمع إلـى قوله: {عَرَّفَ بَعْضَهُ وأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ}".

وقرئ: «عَرَفَ»، بتخفيف الراء، بمعنـى: عـرف لحفـصة بعـض ذلـك الفعـل الـذي فعلته من إفشائها سرّه، وقد استكتمها إياه، أي: غضب مـن ذلـك عليهـا رسـول الله

=

=

ﷺ، وجازاها عليه؛ من قول القائل لمن أساء إليه: لأعرفنّ لك يا فلان ما فعلت، بمعنى: لأجازينك عليه؛ قالوا: وجازاها رسول الله ﷺ على ذلك من فعلها بأن طلقها.

قوله تعالى: {فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ} [التحريم: ٣]، أي:"فلما أخبرها بما أفشت من الحديث".

قال السمعاني:"أي: أخبرها".

قال الطبري:"يقول: فلما خبر حفصة نبيّ الله ﷺ بما أظهره الله عليه من إفشائها سرّ رسول الله ﷺ إلى عائشة".

قوله تعالى: {قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا} [التحريم: ٣]، أي:"قالت: مَن أخبرك بهذا؟".

قال الطبري:"يقول: قالت حفصةُ لرسول الله ﷺ: من أنبأك هذا الخبر وأخبرك به".

قال السمعاني:"أي: من أخبرك بهذا".

قال ابن زيد:"ولم تشكّ أن صاحبتها أخبرت عنها".

قوله تعالى: {قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ} [التحريم: ٣]، أي:"قال: أخبرني به الله العليم الخبير، الذي لا تخفى عليه خافية".

قال الطبري: يقول:"قال محمد نبيّ الله لحفصة: خبرني به العليم بسرائر عباده، وضمائر قلوبهم، الخبير بأمورهم، الذي لا يخفى عنه شيء".

قال السمعاني:"أي: الله، فإنه العليم بالأمور، الخبير بما في الصدور".

قال السعدي:"الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى".

وقوله: {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا}. قال ابن عباس: (يقول: زاغت قلوبكما، يقول: قد أثمت قلوبكما). وقال قتادة: (أي مالت قلوبكما). قال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: إن تتوبا إلى الله أيتها المرأتان فقد مالت قلوبكما إلى

=

=

محبة ما كرهه رسول الله ﷺ من اجتنابه جاريته، وتحريمها على نفسه، أو تحريم ما كان له حلالًا مما حرّمه على نفسه سبب حفصة).

وقال القرطبي: ({إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ} يعني حفصة وعائشة، حَثَّهما على التوبة على ما كان منهما من الميل إلى خلاف محبة رسول الله ﷺ. {فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} أي زاغت ومالت عن الحق. وهو أنهما أَحَبَّتَا ما كرِهَ النبي ﷺ من اجتناب جاريته واجتناب العسل، وكان عليه السلام يحبّ العسل والنساء).

وقوله: {وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ}. أي تتظاهرا على النبي وتتعاونا عليه بالمعصية والإيذاء. قال الضحاك: ({وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ} يقول: على معصية النبي ﷺ وأذاه).

وقوله: {فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ}. أي: الله وليّه وناصره، فلا يضره ذلك، التظاهر منهما، وكذلك جبريل وليه، وكذلك {وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ}. قال عكرمة: (أبو بكر وعمر). فقد كانا عونًا له عليهما وهما أبوا عائشة وحفصة. وقيل: خيار المؤمنين. وقيل الأنبياء. وقال السدي: (هم أصحاب محمد ﷺ).

قلت: واللفظ يعمّ من صيح من المؤمنين ممن آمن وعمل صالحًا.

وقوله: {وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ}. أي: والملائكة على تكاثر عددهم بعد نصرة الله وجبريل وصالحي المؤمنين {ظَهِيرٌ} فوج مظاهر له، أعوان على من آذاه، وأراد مساءته، فما يبلغ تظاهر امرأتين على من هؤلاء ظهراؤه.

قوله تعالى: {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} [التحريم: ٤]، أي:"إن ترجعا -يا حفصة وعائشة- إلى الله فقد وُجد منكما ما يوجب التوبة حيث مالت قلوبكما إلى محبة ما كرهه رسول الله ﷺ، من إفشاء سرِّه".

قال الطبري: يقول تعالى ذكره: إن تتوبا إلى الله أيتها المرأتان فقد مالت قلوبكما إلى محبة ما كرهه رسول الله ﷺ من اجتنابه جاريته، وتحريمها على نفسه، أو تحريم ما كان له حلالا مما حرّمه على نفسه بسبب حفصة".

=

=

قال الزمخشري:"{إِنْ تَتُوبا}: خطاب لحفصة وعائشة على طريقة الالتفات، ليكون أبلغ في معاتبتهما".

قال السعدي:"الخطاب للزوجتين الكريمتين من أزواجه ﷺ عائشة وحفصة رضي الله عنهما، كانتا سببًا لتحريم النبي ﷺ على نفسه ما يحبه، فعرض الله عليهما التوبة، وعاتبهما على ذلك، وأخبرهما أن قلوبهما قد صغت، أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن، من الورع والأدب مع الرسول ﷺ واحترامه، وأن لا يشققن عليه".

قال ابن عباس:"يقول: زاغت قلوبكما، يقول: قد أثمت قلوبكما".

عن قتادة: " {فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا}، أي: مالت قلوبكما".

قال الضحاك:"قول: زاغت".

قال سفيان:"زاغت قلوبكما".

عن مجاهد، قال: كنا نرى أن قوله: {فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا}: شيء هين، حتى سمعت قراءة ابن مسعود: «إن تَتُوبَا إِلى اللهِ فَقَدْ زَاغَتْ قُلُوبُكُمُا»".

قال ابن زيد:"سرهما أن يجتنب رسول الله ﷺ جاريته، وذلك لهما موافق، {صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} إلى أن سرّهما ما كره رسول الله ﷺ".

قوله تعالى: {وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ} [التحريم: ٤]، أي:"وإن تتعاونا على النبي - ﷺ -بما يسوءه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره للتي أسرّ إليها رسول الله ﷺ حديثه، والتي أفشت إليها حديثه، وهما عائشة وحفصة رضي الله عنهما".

قال السعدي:"أي: تعاونا على ما يشق عليه، ويستمر هذا الأمر منكن".

عن الضحاك:"{وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ}، يقول: على معصية النبيّ ﷺ وأذاه".

قال ابن زيد: "قال ابن عباس لعمر: يا أمير المؤمنين إني أريد أن أسالك عن أمر وإني لأهابك، قال: لا تهبني، فقال: من اللتان تظاهرتا على رسول الله ﷺ؟ قال:

=

=

عائشة وحفصة".

قال عمر بن الخطاب: "لما اعتزل نبيّ الله ﷺ نساءه، دخلت عليه وأنا أرى في وجهه الغضب، فقلت: يا رسول الله ما شقّ عليك من شأن النساء، فلئن كنت طلقتهنّ فإن الله معك وملائكته، وجبرائيل وميكائيل، وأنا وأبو بكر معك، وقلما تكلمت وأحمد الله بكلام، إلا رجوت أن يكون الله مصدّق قولي، فنزلت هذه الآية، آية التخيير: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ}، {وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ}... الآية، وكانت عائشة ابنة أَبي بكر وحفصة تتظاهران على سائر نساء النبيّ ﷺ".

عن ابن عباس قال: "لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر ابن الخطاب عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} حتى حج عمر وحججت معه، فلما كنا ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة، فتبرز، ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ، فقلت يا أمير المؤمنين، من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى: {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا} فقال عمر: واعجباً لك يا ابن عباس! قال الزهري: كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه عنه، قال: هي حفصة وعائشة، قال: ثم أخذ يسوق الحديث، قال: كنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، قال: وكان منزلي في بني أميه بن زيد بالعوالي، قال: فتغضبت يوماً على امرأتي، فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك! فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، قال: فانطلقت فدخلت على حفصة، فقلت: أتراجعي رسول الله ﷺ ؟ قالت: نعم، قلت: وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت نعم، قلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر، أفتأمن إحداكنّ أن يغضب الله عليها

=

=

لغضب رسوله، فإذا هي قد هلكت؟ لا تراجعي رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئاً، وسليني ما بدا لك؟ ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله منك، يريد عائشة، قال: وكان لي جارٌ من الأنصار، وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ، فينزل يوماً وأنزل يوماً، فيأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك، قال: وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي يوماً، ثم أتاني عشاء فضرب بابي، ثم ناداني، فخرجت إليه، فقال: حدث أمر عظيم! قلت: وماذا، أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك وأطول، طلق الرسول نساءه، فقلت: قد خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظن هذا كائناً، حتى إذا صليت. الصبح شددت عليّ ثيابي، ثم نزلت، فدخلت على حفصة وهي تبكي، فقلت: أطلقكن رسول الله ﷺ؟ فقالت: لا أدري، هو هذا معتزل في هذه المشربة، فأتيت غلاماً له أسود فقلت: استأذن لعمر، فدخل الغلام ثم خرج إليّ، فقال: قد ذكرتك له فصمت، فانطلقت حتى أتيت المنبر، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم، فجلست قليلاً، ثم غلبني ما أجد، فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل الغلام ثم خرج عليّ فقال: قد ذكرتك له فصمت: فخرجت فجلست إلى المنبر، ثم غلبني ما أجد، فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثم خرج إلي فقال: قد ذكرتك له فصمت، فوليت مدبراً، فإذا الغلام يدعوني، فقال: ادخل فقد أذن لك، فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ، فإذا هو متكيء على رَمل حصير [ح وحدثناه يعقوب في حديث صالح قال: رمال حصير]، قد أثر في جنبه، فقلت: أطلقت يا رسول الله ﷺ نساءك؟ فرفع رأسه إلي وقال: "لا"، فقلت: الله أكبر، لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فتغضبت على امرأتي يوماً فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك! فوالله

=

=

إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل، فقلت: قد خاب من فعل ذلك منهن وخسر، أفتأمن إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت؟ فتبسم رسول الله ﷺ ، فقلت: يا رسول الله، فدخلت على حفصة فقلت لا يغرّك أن كانت جارتك هي أوسم وأحب إلى رسول الله ﷺ منك، فتبسم أخرى، فقلت: أَسْتأَنسُ يا رسول الله؟ قال: "نعم"، فجلست فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رَأيت فيه شيئًا يرد البصر إلا أهبةً ثلاثة، فقلت: ادع يا رسول الله أن يوسع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالسًا، ثم قال: "أفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا"، فقلت استغفر لي يا رسول الله، وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن، حتي عاتبه الله ﷻ ".

قوله تعالى: {فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ} [التحريم: ٤]، أي:"فإن الله وليه وناصره".

قال الطبري:"يقول: فإن الله هو وليه وناصره".

قال يحيى بن سلام:"يعني: وليّه في العون له".

قال أحمد الكرجي القصاب:"قوله: {فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ}، بعد ذكر التظاهر دليل واضح أن «المولى» هو: «الناصر»، لا «المالك»، إذ لو كان مالكًا لما شاركه فيه جبريل، وصالح المؤمنين، فهو -الآن -رد على الرافضة فيما يحملون عليه قول النبي ﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه»، أنها ولاية النصرة، لا ولاية التمليك، وهذا من حماقات الرافضة التي لا تشكل على عالم، ولا جاهل، فلم ابتاع إذًا - ليت شعري -الجواري والمماليك بالأثمان الغالية إن كان على زعمهم مالكهم، ومالك ساداتهم،!. بل لم أصدق حرائره إن كن بالملك جواريه،، أم لم فعله رسول الله ﷺ قبله الذي ورث الولاية عنه، واستحقا به؟!. إن هذا لأقبح مقال، وأجدره بطرق المحال، نعوذ بالله من الضلال".

=

=

قوله تعالى: {وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ} [التحريم: ٤]، أي:"وجبريل كذلك وليه وناصره، والصالحون من المؤمنين".

قال الطبري: يقول: "وخيار المؤمنين أيضًا مولاه وناصره".

وفي قوله تعالى: {وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ} [التحريم: ٤]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنهم الأنبياء، قاله قتادة، وزيد بن أسلم، وسفيان،والعلاء بن زياد العدوي.

الثاني: أبو بكر وعمر، قال الضحاك وعكرمة: "لأنهما كانا أبوي عائشة وحفصة وقد كانا عونا له عليهما".

عن مجاهد، قوله: " {وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ}، قال: أَبو بكر وعمر".

عن الضحاك، قوله: " {وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ}، قال: أَبو بكر وعمر".

قال الضحاك:"خيار المؤمنين أَبو بكر الصدّيق وعمر".

عن عكرمة، وميمون بن مهران -من طريق فُرات-قالا: "أبو بكر، وعمر".

الثالث: أنه عمر رضي الله عنه. قاله الحسن، وسعيد بن جبير.

عن سعيد بن جبير في قوله: " {وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ}، قال: نزلت في عمر خاصة".

الرابع: أنه عليّ رضي الله عنه.

أخرج ابن أبي حاتم:"بسند ضعيف عن علي قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: {وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ}، قال: «هو علي بن أبي طالب»".

عن محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب:"حدّثني رجل ثقة يرفعه إلى علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله ﷺ في قوله الله تعالى: {وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ}، هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه». قال ابن كثير"" إسناده ضعيف. وهو منكر جدًا".

الخامس: أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم. وهذا قول الحسن البصري.

السادس: أنهم أصحاب النبي ﷺ، قاله السدي.

=

=

وقال الكلبي: "هم المخلصون الذين ليسوا بمنافقين".

السابع: أنهم الملائكة، قاله ابن زيد.

الثامن:: أنهم خيار المؤمنين-على العموم-. قاله الضحاك.

قال النحاس:"اختلفوا في «صالح المؤمنين»، فمن أصحّ ما قيل فيه: إنه لكل صالح من المؤمنين، ولا يخصّ به واحد إلّا بتوقيف، وقد روي أنه يراد به عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، وهو كان الداخل في هذه القصة المتكلّم فيها، ونزل القرآن ببعض ما قاله في هذه القصة، وقيل: هو أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وقيل: هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه".

قال الطبري:"الصواب من القول في ذلك عندي: أن قوله: {وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ}، وإن كان في لفظ واحد، فإنه بمعنى الجميع، وهو بمعنى قوله: {إِنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ}، فالإنسان وإن كان في لفظ واحد، فإنه بمعنى الجميع، وهو نظير قول الرجل: لا تقْرَيَنّ إلا قارئ القرآن، يقال: قارئ القرآن، وإن كان في اللفظ واحدًا، فمعناه الجمع، لأنه قد أذن لكل قارئ القرآن أن يقريه، واحدًا كان أو جماعة".

قوله تعالى: {وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ} [التحريم: ٤]، أي:"والملائكة بعد نصرة الله أعوان له ونصراء على مَن يؤذيه ويعاديه".

قال الطبري:"يقول: والملائكة مع جبريل وصالح المؤمنين لرسول الله صلى الله عليه وسلم أعوان على من أذاه، وأراد مساءته. والظهير في هذا الموضع بلفظ واحد في معنى جمع".

قال مقاتل:"يعني: أعوانا للنبي-صلى الله عليه وسلم-عليكما إن تظاهرتما عليه".

قال الزجاج:"أي: والملائكة أيضـًا نصَّارٌ للنبي صلى الله عليه وسلم".

قال ابن زيد:"وبدأ بصالح المؤمنين ها هنا قبل الملائكة، قال: {وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِير}".

قال السعدي:"وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين، حيث جعل الباري

=

=

نفسه الكريمة، وخواص خلقه، أعوانًا لهذا الرسول الكريم".

وقوله: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ}.

روى مسلم في صحيحه عن سِمَاكٍ أَبي زُمَيْل: حدَّثني عبد الله بن عباس: حدّثني عمر بن الخطاب قال: [لمّا اعتزَلَ نبيُّ الله ﷺ نِساءه قال: دخلتُ المسجِدَ، فإذا الناس يَنْكُتون بالحصى ويقولون: طَلَّق رسول الله ﷺ نِساءه، وذلك قبل أَنْ يُؤمَرْنَ بالحجاب -قال عمر- فقلت: لأَعْلَمَنَّ ذلك اليوم -قال-: فَدَخَلْتُ على عائشةَ، فقلت: يا بِنْتَ أبي بكر! أَقَدْ بلغَ مِنْ شأنِكِ أَنْ تُؤذي رسول الله ﷺ؟ فقالت: مالِي ومالَكَ يا ابْنَ الخَطّاب؟ عَليكِ بِعَيْبَتِكَ. قال: فدَخَلْتُ على حفصةَ بنتِ عمرَ، فقلت لها: يا حفصةُ! أَقَدْ بَلَغَ مِنْ شأنِكِ أَنْ تؤذي رسولَ الله ﷺ؟ الله! لقد عَلِمْتِ أنَّ رسولَ الله ﷺ لا يُحِبُّكِ، ولولا أنا لَطَلَّقَكِ رسولُ الله ﷺ، فبَكَتْ أشدَّ البُكاء، فقلت لها: أينَ رسول الله ﷺ؟ قالت: هو في خِزانته في المَشْرُبَة، فدخلت فإذا أنا بِرباحٍ غلامِ رسول الله ﷺ قاعِدًا على أُسْكُفَّةِ المَشْرُبة، مُدَلٍّ رِجليه على نَقيرٍ مِنْ خَشَبٍ، وهو جِذْعٌ يَرْقى عليه رسول الله ﷺ ويَنْحَدِرُ، فنادَيْتُ: يا رباحُ! استأذِن لي عِندك على رسول الله ﷺ، فَنَظَرَ رَباحٌ إلى الغُرْفَةِ ثُمَّ نَظَرَ إليَّ فلم يَقُل شيئًا، ثم رفعتُ صوتي فقُلتُ: يا رباحُ! استأذِن لي عندك على رسول الله ﷺ، فإني أَظُنُّ أَنَّ رسولُ الله ﷺ ظَنَّ أني جِئْتُ مِنْ أجل حَفْصَةَ، والله! لئِن أمرني رسولُ الله ﷺ بضَرْبِ عُنُقِها لأضرِبَنَّ عُنقَها، ورَفَعْتُ صَوْتي، فأَوْمَأَ إليَّ أنِ ارْقَهْ، فدَخلتُ على رسول الله ﷺ وهو مُضْطَجِعٌ على حَصير فَجَلَسْتُ، فأدْنَى عليه إزارَهُ، وليسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وإذا الحصيرُ قد أَثَّرَ في جنبِهِ، فَنَظَرْتُ بِبصري في خِزَانَةِ رسول الله ﷺ، فإذا أنا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ، ومِثْلِها قَرَظًا في ناحية الغُرْفةِ، وإذا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ، -قال-: فابْتَدَرَتْ عَيْنايَ. قال: "ما يبكيك؟ يا ابن الخطاب! " قلت: يا نبيَّ الله! ومالي لا أَبْكي؟ وهذا الحصيرُ قد أَثَّرَ في جَنْبِكَ، وهذه خِزانتك لا أرى فيها إلا ما

=

أرى، وذاكَ قيصرُ وكِسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله ﷺ وصَفْوَتُهُ، وهذِه خِزانَتُكَ. فقال: "يا ابنَ الخطاب! ألا ترضى أن تكون لنا الآخِرةُ ولهم الدنيا؟ " قلت: بلى. قال: ودَخَلْتُ عليه حينَ دخَلْتُ وأنا أرى في وجهه الغضبَ، فقلت: يا رسول الله! ما يَشُقُّ عليك من شأنِ النساء؟ فإن كنتَ طَلَّقْتَهُنَّ فإن الله معك وملائكتَه وجبريلَ وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك، وقلَّما تكَلَّمْتُ - وأحْمَدُ الله -بكلامٍ إلا رَجوْتُ أنْ يكونَ اللهُ يُصَدِّقُ قولي الذي أقولُ. ونزلت هذه الآيَةُ آيَةُ التَّخيير: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ} [التحريم: ٥] {إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ} [التحريم: ٤]، وكانت عائِشةُ بِنْتُ أبي بكر وحفصةُ تَظاهرانِ على سائرِ نساء النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله! أَطَلَّقْتَهُنَّ؟ قال: "لا". قلت: يا رسول الله! إني دخلتُ المسجدَ والمسلمون يَنْكتون بالحصى، يقولون: طَلَّقَ رسولُ الله ﷺ نِساءَه، أَفَأَنْزِلُ فَأُخبِرَهُم أَنَّكَ لم تُطَلِّقهُنَّ؟ قال: "نعم، إن شئت" فلم أزلْ أُحَدِّثُهُ حتى تَحَسَّرَ الغَضَبُ عن وَجْهِهِ، وحتى كَشَرَ فَضحِكَ، وكان مِنْ أَحْسَنِ الناس ثَغْرًا، ثمَّ نزلَ نبيُّ الله ﷺ فنَزلْتُ أَتَشَبَّثُ بالجِذعِ، ونزلَ رسول الله ﷺ كأنَّما يمشي على الأرض ما يَمَسُّهُ بيده، فقلت: يا رسول الله! إنّما كُنْتَ في الغُرْفَةِ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ. قال: "إنَّ الشهر يكون تِسعًا وعِشْرين" فقمت على باب المسجد، فناديتُ بأعلى صوتي: لَمْ يُطَلِّق رسول الله ﷺ نِساءَهُ، ونزلَتْ هذه الآية: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} [النساء: ٨٣]. فكنتُ أنا استنبطْتُ ذلكَ الأمْرَ، وأنزل الله ﷻ آيةَ التَّخْيير].

وفي جاء الترمذي عن عائشة قالت له: يا رسول الله ﷺ لا تخبر أزواجك أني اخترتك، فقال النبي ﷺ: [إنما بعثني الله مُبَلِّغًا ولم يَبْعَثني مُتَعَنِّتًا].

=

وقوله: {مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ}. قال ابن جرير: ({مُسْلِمَاتٍ} يقول: خاضعات لله بالطاعة {مُؤْمِنَاتٍ} يعني مصدقات بالله ورسوله).

وقوله: {قَانِتَاتٍ}. قال ابن زيد: (مطيعات). وكذلك قال قتادة.

وقوله: {تَائِبَاتٍ}. أي: راجعات إلى ما يحبّه الله منهن من طاعته عما يكرهه منهن.

وقوله: {عَابِدَاتٍ}. أي: متذللات لله بطاعته وطاعة رسول ﷺ.

وقوله: {سَائِحَاتٍ}. قال ابن عباس: (صائمات). وقال زيد بن أسلم: (مهاجرات). والأول أرجح. وقد صح عند ابن جرير عن أبي هريرة موقوفًا: [{السَّائِحُونَ} هم الصائمون].

وكان بعض أهل العربية يرى أن الصائم إنما سمي سائحًا لأن السائح لا زاد معه، وإنما يأكل حيث يجد الطعام، فكأنه أُخِذ من ذلك. حكاه ابن جرير وأُثِرَ عن الفَرّاء والقُتَبي وغيرهما.

وقوله: {ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا}. قال ابن كثير: (أي: مِنْهُن ثَيِّباتٍ، ومنهن أبكارًا، أي ليكون ذلك أشهى إلى النفوس، فإن التنوع يَبْسُط النفسَ).

وإنما سميت الثيب ثيبًا لأنها ثابت إلى بيت أبويها، وأما البِكْرُ فهي العذراء، سُمِّيت بِكْرًا لأنها على أوَّل حالتها التي خُلِقَت بها -حكاه القرطبي.

قوله تعالى: {عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ}.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: عسى ربّ محمد إن طلقكنّ يا معشر أزواج محمد ﷺ أن يبدله منكنّ أزواجًا خيرًا منكن".

قال السعدي:"أي: فلا ترفعن عليه، فإنه لو طلقكن، لم يضق عليه الأمر، ولم يكن مضطرًا إليكن، فإنه سيلقى ويبدله الله أزواجًا خيرًا منكن، دينا وجمالا وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده، فإنه ما طلقهن".

=

=

عن أنس بن مالك، قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "اجتمع على رسول الله صلى الله عليه وسلم نساؤه في الغيرة فقلت لهنّ: عسى ربه إن طلقهن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكنّ، قال: فنزل كذلك".

قال ابن كثير:"وقد تقدّم أن عمر رضي الله عنه وافق القرآن في أماكنَ، منها في نزول الحجاب، ومنها في أسارى بدر، ومنها قوله: لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى؟ فأنزل الله: {وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى} [البقرة: ١٢٥]".

وقرئ: «يبدِّله أزواجا»، بتشديد الدال، من التبديل.

قوله تعالى: {مُسْلِمَاتٍ} [التحريم: ٥]، أي:"خاضعات مستسلماتٍ لأمر الله تعالى وأمر رسوله".

قال الطبري:"يقول: خاضعات لله بالطاعة".

قال السعدي: أي:"القيام بالشرائع الظاهرة".

قوله تعالى: {مُؤْمِنَاتٍ} [التحريم: ٥]، أي:"مصدقاتٍ بالله وبرسوله".

قال السعدي:"الإيمان، وهو: القيام بالشرائع الباطنة، من العقائد وأعمال القلوب".

قوله تعالى: {قَانِتَاتٍ} [التحريم: ٥]، أي:"مطيعات لما يُؤمرن به، مواظباتٍ على الطاعة".

قال الطبري:"يقول: مطيعات لله".

عن قتادة، وابن زيد:"{قَانِتَاتٍ}، قال: مطيعات".

قال السعدي: " القنوت: هو دوام الطاعة واستمرارها".

قوله تعالى: {تَائِبَاتٍ} [التحريم: ٥]، أي:"تائباتٍ من الذنوب، ولا يصررن على معصية".

قال الطبري:"يقول: راجعات إلى ما يحبه الله منهنّ من طاعته عما يكرهه منهنّ".

=

=

قال السعدي: " {تَائِبَاتٍ} عما يكرهه الله، فوصفهن بالقيام بما يحبه الله، والتوبة عما يكرهه الله".

قوله تعالى: {عَابِدَاتٍ} [التحريم: ٥]، أي:"متعبدات لله تعالى يكثرن العبادة، كأنَّ العبادة امتزجت بقلوبهن حتى صارت سجيةً لهن".

قال الطبري:"يقول: متذللات لله بطاعته".

قوله تعالى: {سَائِحَاتٍ} [التحريم: ٥]، أي:"مسافراتٍ مهاجراتٍ إِلى الله ورسوله".

وفي قوله تعالى: {سَائِحَاتٍ} [التحريم: ٥]، وجهان من التفسير:

أحدهما: صائمات، وهو قول أم المؤمنين عائشة، وابن مسعود، وأبي هريرة، وابن عباس، والحسن، وإبراهيم النخعي، وأبي عبد الرحمن السلمي، وابن جبير،وأبي الحسن، وأبي عياض، وعطاء، وقتادة، والضحاك،ووهب بن منبه، والربيع بن أنس، وأبي عمرو العبدي، والسدي، وبه قال الفراء، وأبو عبيدة، وابن قتيبة، والطبري،و الزجاج.

قال ابن كثير:"فهذه أصح الأقوال وأشهرها".

قال أبو أحمد السامري بسنده إلى ابن عباس:"يعني: صائمات بلغة هذيل".

قال السجستاني:"السياحة في هذه الأمة الصوم".

قال الفراء:"نرى أن الصائم إنَّما سمّي سائحًا لأن السائح لا زاد معه، وإنما يأكل حيث يجد، فكأنه أخذ من ذلك. والله أعلم".

قال ابن قتيبة: "ويرى أهل النظر: أنه إنما سميَ الصائمُ سائحًا: تشبيهًا بالسائح الذي لا زاد معه".

قال الماوردي:"وقال الزهري: "قيل للصائم سائح لأن الذي كان يسيح في الأرض متعبداً لا زاد معه كان ممسكًا عن الأكل، والصائم يمسك عن الأكل،

=

=

فلهذه المشابهة سمي الصائم سائحـًا، وإن أصل السياحة الاستمرار على الذهاب في الأرض كالماء الذي يسيح، والصائم مستمر على فعل الطاعة وترك المشتهى، وهو الأكل والشرب والوقاع. وعندي فيه وجه آخر وهو أن الإنسان إذا امتنع عن الأكل والشرب والوقاع وسد على نفسه أبواب الشهوات انفتحت عليه أبواب الحكم وتجلت له أنوار المتنقلين من مقام إلى مقام ومن درجة إلى درجة فتحصل له سياحة في عالم الروحانيات".

الثاني: مهاجرات، لأنهن بسفر الهجرة سائحات، قاله زيد بن أسلم، وابنه عبدالرحمن.

عن ابن زيد، في قوله: " {سَائِحَاتٍ} ، قال: مهاجرات، ليس في القرآن، ولا في أمة محمد سياحة إلا الهجرة، وهي التي قال الله: {السَّائِحُونَ} ".

قوله تعالى: {ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا} [التحريم: ٥]، أي:"منهنَّ ثيباتٍ، ومنهم أبكارا".

قال الطبري:" {ثَيِّبَاتٍ} : وهن اللواتي قد افترعن وذهبت عذرتهنّ، {وَأَبْكَارًا} : وهنّ اللواتي لم يجامعن، ولم يفترعن".

قال ابن كثير:"أي: منهن ثيبات، ومنهن أبكارا، ليكون ذلك أشهى إلى النفوس، فإن التنوع يبسُط النفسَ؛ ولهذا قال: {ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا} ".

قال السعدي: " أي: بعضهن ثيب، وبعضهن أبكار، ليتنوع ﷺ، فيما يحب، فلما سمعن -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُن-هذا التخويف والتأديب، بادرن إلى رضا رسول الله ﷺ، فكان هذا الوصف منطبقًا عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين، وفي هذا دليل على أن الله لا يختار لرسوله ﷺ إلا أكمل الأحوال وأعلى الأمور، فلما اختار الله لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه دل على أنهن خير النساء وأكملهن".

عن ابن بُرَيدة، عن أبيه: {ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا} قال: وعد الله نبيه ﷺ في هذه الآية أن يزوجه، فالثيب: آسية امرأة فرعون، وبالأبكار: مريم بنت عمران".

=

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦).

{يَا أَيّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسكُمْ وَأَهْلِيكُمْ} بِالْحَمْلِ عَلَى طَاعَة الله {نَارًا وَقُودهَا النَّاس} الْكُفَّار {وَالْحِجَارَة} كَأَصْنَامِهِمْ مِنْهَا يَعْنِي أَنَّهَا مُفْرِطَة الْحَرَارَة تَتَّقِد بِمَا ذُكِرَ لَا كَنَارِ الدُّنْيَا تَتَّقِد بِالْحَطَبِ وَنَحْوه {عَلَيْهَا مَلَائِكَة} خَزَنَتهَا عُدَّتهمْ تِسْعَة عَشَر كَمَا سَيَأْتِي فِي الْمُدَّثِّر {غِلَاظ} مِنْ غِلَظ الْقَلْب {شِدَاد} فِي الْبَطْش {لَا يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ} بَدَل مِنْ الْجَلَالَة أَيْ لَا يَعْصُونَ أَمْر الله {وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} تَأْكِيد وَالْآيَة تَخْوِيف لِلْمُؤْمِنِينَ عَنْ الِارْتِدَاد وَلِلْمُنَافِقِينَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَلْسِنَتِهِمْ دُون قُلُوبهمْ

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧).

{يَا أَيّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْم} يُقَال لَهُمْ ذَلِكَ عِنْد دُخُولهمْ النَّار أَيْ

=

عن ابن عمر قال: "جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بموت خديجة فقال: إن الله يقرئها السلام، ويبشرها ببيت في الجنة من قَصَب، بعيد من اللهب، لا نَصَب فيه ولا صَخَب، من لؤلؤة جوفاء بين بيت مريم بنت عمران وبيت آسية بنت مزاحم".

عن ابن عباس: "أن النبي ﷺ دخل على خديجة، وهي في الموت فقال: "يا خديجة، إذا لقيت ضرائرك فأقرئيهن مني السلام". فقالت: يا رسول الله، وهل تزوجت قبلي؟ قال: "لا"، ولكن الله زوجني مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وكلثم أخت موسى".

عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: "أُعْلِمتُ أن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران، وكلثم أخت موسى، وآسية امرأة فرعون". فقلت: هنيئًا لك يا رسول الله".

لِأَنَّهُ لَا يَنْفَعكُمْ {إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} أَيْ جَزَاءَهُ.

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨).

{يَا أَيّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى الله تَوْبَة نَصُوحًا} بِفَتْحِ النُّون وَضَمّهَا صَادِقَة بِأَنْ لَا يُعَاد إِلَى الذَّنْب وَلَا يُرَاد الْعَوْد إِلَيْهِ {عَسَى رَبّكُمْ} تَرْجِيَة تَقَع {أَنْ يُكَفِّر عَنْكُمْ سَيِّئَاتكُمْ وَيُدْخِلكُمْ جَنَّات} بَسَاتِين {تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الْأَنْهَار يَوْم لَا يُخْزِي الله} بِإِدْخَالِ النَّار {النَّبِيّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورهمْ يَسْعَى بَيْن أَيْدِيهمْ} أَمَامهمْ {وَ} يَكُون {بِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ} مُسْتَأْنَف {رَبّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورنَا} إِلَى الْجَنَّة والمنافقون يطفأ نورهم {واغفر لنا} ربنا {إنك على كل شيء قدير}[1].

---

(١) أمْرُ الله تعالى عباده المؤمنين الاجتهاد في طاعته هم وذريتهم للنجاة من عذابه الأليم، وتصوير مشهد الخزي يوم القيامة على الكافرين والمنافقين، ومشهد النجاة والسرور والفرح في دخول المؤمنين جنات النعيم.

فقوله: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا}.

وعن ابن عباس: ({قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا} يقول: اعملوا بطاعة الله، واتقوا معاصي الله، ومُروا أهليكم بالذكر يُنْجيكم الله من النار). وقال مجاهد: (اتقوا الله، وأوصوا أهليكم بتقوى الله). وقال قتادة: (يقيهم أن يأمرهم بطاعة الله، وينهاهم عن معصيته، وأن يقوم عليهم بأمر الله يأمرهم به ويساعدهم عليه، فإذا رأيت لله معصية ردعتهم عنها، وزجرتهم عنها). وعن الضحاك: (حقٌّ على المسلم أن يُعَلِّم أهله من قرابتِه وإمائه وعبيده ما فرَض الله عليهم، وما نهاهم الله عنه).

=

=

وفي التنزيل نحو ذلك:

١ -قال تعالى: {وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا} [طه: ١٣٢].

٢ -وقال تعالى: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء: ٢١٤].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: [لما أنزلت هذه الآية: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} دعا رسول الله ﷺ قريشًا فاجتمعوا فعمَّ وخَصَّ، فقال: يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مُرَّة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبدِ شمسٍ أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مَناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحِمًا سأبُلُّها ببلالها].

وفي سنن أبي داود عن سبرة قال: قال النبي ﷺ: [مُروا الصَّبيَ بالصلاة إذا بلغ سَبْعَ سنين، وإذا بلغَ عَشْرَ سنين فاضربوه عليها].

وله شاهد عنده من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ: [مُروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر، وفرقوا بينهم في المضاجع].

قال ابن كثير: (قال الفقهاء: وهكذا في الصوم، ليكون ذلك تمرينًا له على العبادة لكي يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المَعْصية، وتَرْك المنكر، والله الموفق).

وفي صحيح مسلم من حديث عائشة أنّ النبي ﷺ كان إذا أَوْتَرَ يقول: [قومي فَأوتري يا عائشة].

وفي مسند أحمد وسنن أبي داود من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: [رحم الله رجلًا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضحَ في وجهها الماء. رحم الله امرأة قامت من الليل فَصَلّت، وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء].

=

وقوله: {وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}. قال ابن جرير: (يقول: حطبها الذي يوقد على هذه النار بنو آدم وحجارة الكبريت). وعن مجاهد: (هي حجارةٌ من كبريت، أنتنُ من الجيفة).

وقوله: {عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ}. قال القرطبي: (يعني الملائكة الزبانية غِلاظ القلوب لا يرحمون إذا استرحموا، خُلِقوا من الغضب، وَحُبِّبَ إليهم عذابُ الخلق كما حُبِّبَ لبني آدم أكل الطعام والشراب. {شِدَادٌ} أي: شداد الأبدان. وقيل: غِلاظ الأقوال شداد الأفعال. وقيل: غِلاظ في أخذهم أهل النار شداد عليهم). وقيل: {غِلَاظٌ شِدَادٌ} أي: طباعهم غليظة قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله {شِدَادٌ} في تركيبهم ومنظرهم المزعج الرهيب.

وقوله: {لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}. أي: لا يخالفون الله في أمره من زيادة أو نقصان، ولا يتأخرون عن فعل ما يأمرهم طرفة عين، بل يبادرون إلى الامتثال وتنفيذ الأمر بإتقان.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا} [التحريم: ٦]، أي:"يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله".

قوله تعالى: {قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا} [التحريم: ٦]، أي:"احفظوا أنفسكم بفعل ما أمركم الله به وترك ما نهاكم عنه، واحفظوا أهليكم بما تحفظون به أنفسكم من نار حامية مستعمرة".

قال الطبري:"يقول: علموا بعضكم بعضا ما تقون به من تعلمونه النار، وتدفعونها عنه إذا عمل به من طاعة الله، واعملوا بطاعة الله، وعلموا أهليكم من العمل بطاعة الله ما يقون به. أنفسهم من النار".

قال الزمخشري:"{قُوا أَنْفُسَكُمْ} بترك المعاصي وفعل الطاعات، {وَأَهْلِيكُمْ} بأن
=

=

تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم، وفي الحديث: «رحم الله رجلا قال يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم لعلّ الله يجمعهم معه في الجنة»، وقيل: إنّ أشد الناس عذابا يوم القيامة من جهل أهله".

قال السعدي:"وقاية الأنفس بإلزامها أمر الله، والقيام بأمره امتثالا ونهيه اجتنابًا، والتوبة عما يسخط الله ويوجب العذاب، ووقاية الأهل والأولاد، بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمر الله، فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه، وفيما يدخل تحت ولايته من الزوجات والأولاد وغيرهم ممن هو تحت ولايته وتصرفه".

قال مجاهد:"اتقوا الله، وأوصوا أهليكم بتقوى الله".

قال قتادة:"مروهم بطاعة الله، وأنهوهم عن معصيته".

قال قتادة:"يقيهم أن يأمرهم بطاعة الله، وينهاهم عن معصيته، وأن يقوم عليه بأمر الله يأمرهم به ويساعدهم عليه، فإذا رأيت لله معصية ردعتهم عنها، وزجرتهم عنها".

قوله تعالى: {وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [التحريم: ٦]، أي:"حطبها الذي تُسعَّر به نار جهنم هو الخلائق والحجارة".

قال الطبري: يقول:"حطبها الذي يوقد على هذه النار بنو آدم وحجارة الكبريت".

قال ابن كثير:"أي: حطبها الذي يلقى فيها جُثث بني آدم. {وَالْحِجَارَةُ} قيل: المراد بذلك الأصنام التي كانت تعبد لقوله: {إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ} [الأنبياء: ٩٨]".

وفي {الْحِجَارَةُ} [التحريم: ٦]، قولان:

أحدهما: أنها حجارة من كبريت، وهذا قول ابن مسعود، وأبي جعفر الباقر، ومجاهد، والسدي، وابن جريج.

=

=

قـال ابـن مـسعود: "إن الحجـارة التـي سـماها الله في القـرآن: {وَقُودُهَـا النَّـاسُ وَالْحِجَارَةُ}، حجارة من كبريت خلقها الله تعالى عنده كيف يشاء".

عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ: {اتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} [البقرة: ٢٤]، أما الحجارة، فهي حجارةٌ في النار من كَبريت أسْوَد، يُعذبون به مع النار".

قال السدي:"فأما الحجارة فهي حجارة في النار من كبريت أسود يعذبون به مع النار".

قال ابن جريج:"حجارة من كبريت أسودَ في النار".

وقال مجاهد:"حجارة -أنتن من الجيفة- من كبريت".

الثاني: أنها حجارة أصلب من هذه الحجارة التي في الدنيا وأعظم. وهذا قول عمرو بن دينار.

قال الطبري:"يقول: على هذه النار ملائكة من ملائكة الله، غلاظ على أهل النار، شداد عليهم".

قال السعدي:"أي: غليظة أخلاقهم، عظيم انتهارهم، يفزعون بأصواتهم ويخيفون بمرآهم، ويهينون أصحاب النار بقوتهم، ويمتثلون فيهم أمر الله، الذي حتم عليهم العذاب وأوجب عليهم شدة العقاب".

قوله تعالى: {لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ} [التحريم: ٦]، أي:"لا يخالفون الله في أمره".

قال الطبري:"يقول: لا يخالفون الله في أمره الذي يأمرهم به".

قال ابن كثير:"أي: مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه. وهؤلاء هم الزبانية عياذًا بالله منهم".

قوله تعالى: {وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦]، أي:"وينفذون ما يؤمرون به

=

=

بدون إمهال ولا تأخير".

قال الطبري:"يقول: وينتهون إلى ما يأمرهم به ربهم".

قال السعدي:"وهذا فيه أيضًا مدح للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر الله، وطاعتهم له في كل ما أمرهم به".

قال الزمخشري:"فإن قلت: أليست الجملتان [: {لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ}، {وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}] في معنى واحد؟

قلت: لا، فإنّ معنى الأولى أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها ولا يأبونها ولا ينكرونها. ومعنى الثانية: أنهم يؤدون ما يؤمرون به لا يتثاقلون عنه ولا يتوانون فيه".

عن إسماعيل بن عبيد الله، قال: "كان داود -عَلَيْهِ السَّلَامُ- يُعاتَب في كثرة البكاء، فيقول: ذَروني أبكِ قبل يوم البكاء؛ قبل تحريق العظام، واشتعال اللّحى، قبل أنْ يؤمر بي {مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ ويَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ}".

عن عبد العزيز بن أبي رَوّاد، قال: "مرّ عيسى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بجبل مُعلّق بين السماء والأرض، فدخل فيه، وبكى، وتعجّب مَن حوله، ثم خرج إلى مَن حوله، فسأل: ما قصة هذا الجبل؟ فقالوا: مالنا به علم، كذلك أدركنا آباءَنا. فقال: يا ربّ، ائذن لهذا الجبل يُخبرني ما قصّته. فأَذِن له، فقال: لما قال الله: {وقُودُها النّاسُ والحِجارَةُ} طِرتُ؛ خِفتُ أنْ أكون من وقودها، فادعُ الله أن يُؤمّنني. فدعا الله تعالى، فأَمّنه، فقال: الآن قَررتُ. فقرّ على الأرض".

عن كعب الأحبار، قال: "ما بين مَنكِبي الخازن مِن خَزنتها مسيرة سنة، مع كلّ واحد منهم عمود له شُعبتان، يَدفع به الدّفعة، يَصرَع به في النار سبعمائة ألف".

أبي عمران الجَوْنَي، قال:"بلَغنا: أنّ خَزنة النار تسعة عشر، ما بين مَنكِب أحدهم مسيرة مائة خريف، ليس في قلوبهم رحمة، إنما خُلقوا للعذاب، يَضرب المَلك

=

=

منهم الرجل من أهل النار الضّربة فيتركه طحينًا من لدن قَرْنه إلى قدمه".

عن محمد بن أبي عامر المكي، قال: "خلق الله الملائكة من نور، وخلق الجان من نار، وخلق البهائم من ماء، وخلق آدم من طين، فجعل الطاعة في الملائكة، وجعل المعصية في الجن والإنس".

وقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} .

أي: يقال للكفار يوم القيامة: إنه لا ينفعكم عذر اليوم فلا تعتذروا، إنما توفون جزاء أعمالكم التي كنتم تعملونها في الدنيا.

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ} [التحريم: ٧]، أي:"ويقال للذين جحدوا أن الله هو الإله الحق وكفروا به عند إدخالهم النار: لا تلتمسوا المعاذير في هذا اليوم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيله يوم القيامة للذين جحدوا وحدانيته في الدنيا {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا} الله {لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ} ".

قال ابن أبي زمنين:"وهذا يقال لهم يوم القيامة".

قال ابن كثير:"أي: يقال للكفرة يوم القيامة: لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم".

قال السمعاني:"يعني: يقال لهم يوم القيامة: لا تعتذروا، أي: لا عذر لكم فتعتذروا".

قوله تعالى: {إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [التحريم: ٧]، أي:"إنما تعطون جزاء الذي كنتم تعملونه في الدنيا".

قال الطبري:"يقول: يقال لهم: إنما تثابون اليوم، وذلك يوم القيامة، وتعطون جزاء أعمالكم التي كنتم في الدنيا تعملون، فلا تطلبوا المعاذير منها".

قال ابن أبي زمنين:"في الدنيا".

قال السمعاني:"أي: بعملكم في الدنيا".

=

=

قال ابن كثير: أي:"إنما تجزون اليوم بأعمالكم".

وقوله: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا} . إرشاد من الله تعالى عباده المؤمنين للمبادرة إلى التوبة الصادقة قبل فوات الأوان.

عن الحسن: (التوبة النصوح: أن تُبْغِضَ الذنب كما أحببتَه، وتستغفِرَ منه إذا ذكرته).

والتوبة النصوح تكون بخمسة أشياء:

أولًا: أن يكف عن الآثام وينقلع عن المحرمات.

ثانيًا: أن يندم على ما فرط باجتراح السيئات.

ثالثًا: أن يعقد العزم ألا يعود إلى السقوط في هذه الآثام والزلات.

رابعًا: أن يؤدي الحقوق إلى أصحابها وكذلك الأمانات.

خامسًا: أن يترك الصحبة الفاسدة التي تحمله على الموبقات. وأن يهاجر من الأرض والقرية التي يعمل أهلها المنكرات، إلى القرى والبلاد التي يغلب على أهلها فعل الحسنات.

وأما ترتيب أدلتها من الكتاب والسنة:

١ -قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف: ٢٠١].

٢ -أخرج أحمد وابن ماجة بسند حسن عن ابن معقل قال: [دخلت مع أبي على عبد الله، فسمعته يقول: قال رسول الله ﷺ: "النَّدمُ توبة". فقال له أبي: أنت سمعت النبي ﷺ يقول: "الندم توبة"؟ قال: نعم].

ورواه الطبراني من حديث أبي سعيد الأنصاري بلفظ: [الندم توبة، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له].

٣ -قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا

=

=

لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمران: ١٣٥].

٤ -قال تعالى: {إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء: ٥٨].

وفي مسند أحمد بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [نفسُ المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه].

٥ -قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} [النساء: ٩٧].

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري -في قصة الرجل قتل تسعة وتسعين نفسًا ثم كمّل بالراهب مئة، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فنصحه فقال له-: [ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء] الحديث.

وقوله: {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} قال القرطبي: ({عَسَى} من الله واجبة). وقال النسفي: (هذا على ما جرت به عادة الملوك من الإجابة بعسى ولعل ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت).

وقوله: {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ}.

قال الزجاج: (المخزى في اللغة: المذل المحقور بأمر قد لزمه بحجة).

وقال الواحدي: ({يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه} [التحريم:٨]، ... أي: لا يفضحهم ولا يهلكهم).

وقال السمعاني: (وقوله: {يوم لا يخزي الله النبي} [التحريم:٨]، أي: لا يهينه ولا

=

=

يفضحه، وهو إشارة إلى كرامة في الآخرة، يعني: يكرمه ويشرفه في ذلك اليوم ولا يهينه ولا يذله).

وقال الراغب: (خزي الرجل: لحقه انكسار إما من نفسه، وإما من غيره؛ فالذي يلحقه من نفسه هو الحياء المفرط ... والذي يلحقه من غيره، يقال: هو ضرب من الاستخفاف).

وقال القاسمي: (أي لا يذلّهم. تعريض لأعدائهم بالخزي والصغار).

وقوله: {نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ}. قال ابن جرير: (يقول: يسعى نورهم أمامهم {وَبِأَيْمَانِهِمْ} يقول: وبأيمانهم كتابهم).

وقوله: {يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. قال مجاهد: (هذا يقوله المؤمنون حين يرون يوم القيامة نورَ المنافقين قد طفِئ).

أخرج الإمام أحمد بسند حسن في الشواهد عن أبي الدرداء ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: [أنا أوّل من يُؤْذَنُ له بالسجود يومَ القيامة، وأنا أول من يرفع رأسه، فأنظرُ بين يديَّ، فأعرف أمتي من بين الأمم، ومن خلفي مِثْلُ ذلك، وعن يميني مِثْلُ ذلك، وعن شمالي مِثْلُ ذلك. فقال رجل: كيف تعرِف أمتَك يا رسول الله ﷺ من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال: هم غرٌّ مُحَجَّلُون، مِنْ أَثَرِ الوضوء، ليس لأحد كذلك غيرِهم، وأَعْرِفُهُم أنهم يؤتَون كُتُبَهُم بأيمانهم، وأعرفهم تسعى بين أيديهم ذُرِّيَتُهُم]. ورواه محمد بن نصر المروزيّ بنحوه وفي روايته: [غرٌّ مُحَجَّلون من أثر الوضوء، ولا يكون أحدٌ من الأمم كذلك غيرُهم، وأعرفهم أنهم يُؤْتَون كُتُبَهم بأيمانهم، وأعرفهم بسيماهم في وجوههم من أَثَر السجود، وأعرِفُهم بِنُورهم يسعى بين أيديهم].

وأخرج الإمام أحمد بسند رجاله ثقات عن يحيى بن حسان، عن رجل من بني كنانة قال: صلّيت خلف النبي ﷺ عام الفتح فسمعته يقول: [اللهم لا تخزني يومَ

=

=

القيامة].

قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا} [التحريم: ٨]، أي:"يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، ارجعوا عن ذنوبكم إلى طاعة الله رجوعا لا معصية بعده".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ارجعوا من ذنوبكم إلى طاعة الله، وإلى ما يرضيه عنكم، رجوعا لا تعودون فيها أبدا".

قال ابن كثير: " أي: توبة صادقة جازمة، تمحو ما قبلها من السيئات وتلم شعث التائب وتجمعه، وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات.. فأما إذا حَزَم بالتوبة وصَمم عليها فإنها تَجُب ما قبلها من الخطيئات، كما

ثبت في الصحيح: «الإسلام يَجُب ما قبله، والتوبة تجب ما قبلها».

قال الزمخشري:"وصفت التوبة بالنصح على الإسناد المجازى، والنصح: صفة التائبين، وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم، فيأتوا بها على طريقها متداركة للفرطات ماحية للسيئات، وذلك: أن يتوبوا عن القبائح لقبحها، نادمين عليها، مغتمين أشدّ الاغتمام لارتكابها، عازمين على أنهم لا يعودون في قبيح من القبائح إلى أن يعود اللبن في الضرع، موطنين أنفسهم على ذلك".

عن عبد الله: " {تَوْبَةً نَصُوحًا}، قال: يتوب ثم لا يعود".

قال عبد الله:"التوبة النصوح: الرجل يذنب الذنب ثم لا يعود فيه".

عن النعمان بن بشير:"أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سئل عن التوبة النصوح قال: أن يتوب الرجل من العمل السيئ، ثم لا يعود إليه أبدا".

عن النعمان بن بشير، قال: "سُئل عمر عن التوبة النصوح، قال: التوبة النصوح: أن يتوب الرجل من العمل السيئ، ثم لا يعود إليه أبدًا". وفي رواية:"التوبة النصوح: أن تتوب من الذنب ثم لا تعود فيه، أو لا تريد أن تعود". وفي رواية:"يذنب الذنب

=

=

ثم لا يرجع فيه".

قال ابن عباس:"أن لا يعود صاحبها لذلك الذنب الذي يتوب منه، ويقال: توبته أن لا يرجع إلى ذنب تركه".

قال مجاهد:"يستغفرون ثم لا يعودون".

قال الضحاك:"النصوح. أن تحول عن الذنب ثم لا تعود له أبدًا".

وعن حذيفة: "بحسب الرجل من الشر أن يتوب عن الذنب ثم يعود فيه".

قال قتادة:"هي الصادقة الناصحة".

قال ابن زيد:"التوبة النصوح الصادقة، يعلم أنها صدق ندامة على خطيئته، وحبّ الرجوع إلى طاعته، فهذا النصوح".

قال الحسن:"التوبة النصوح: أن تُبغِض الذنبَ كما أحببته، وتستغفر منه إذا ذكرته.

وأخرج ابن أبي حاتم:"بسند ضعيف عن أبي بن كعب قال: سألت النبي ﷺ عن التوبة النصوح فقال: «هو الندم على الذنب حين يفرط منك فتستغفر الله بندامتك عند الحافر ثم لا تعود إليه أبدا»".

وعن شهر بن حوشب: "أن لا يعود ولو حز بالسيف وأحرق بالنار".

وعن ابن السماك: "أن تنصب الذنب الذي أقللت فيه الحياء من الله أمام عينك وتستعد لمنتظرك".

وعن السدى: "لا تصح التوبة إلا بنصيحة النفس والمؤمنين، لأن من صحت توبته أحب أن يكون الناس مثله".

وسئل شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٧): عن قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا} هل هذا اسم رجل كان على عهد النبي ﷺ أم لا؟ وإيش معنى قوله {نصوحا} ؟

فأجاب: الحمد لله، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم

=

=

التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه و " نصوح " هي صفة للتوبة وهي مشتقة من النصح والنصيحة. وأصل ذلك هو الخلوص. يقال: فلان ينصح لفلان إذا كان يريد له الخير إرادة خالصة لا غش فيها وفلان يغشه إذا كان باطنه يريد السوء وهو يظهر إرادة الخير كالدرهم المغشوش ومنه قوله تعالى {ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله} أي أخلصوا لله ورسوله قصدهم وحبهم. ومنه قوله ﷺ في الحديث الصحيح {الدين النصيحة ثلاثا قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم} فإن أصل الدين هو حسن النية وإخلاص القصد؛ ولهذا قال ﷺ {ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم إخلاص العمل لله ومناصحة ولاة الأمور ولزوم جماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من ورائهم} أي هذه الخصال الثلاث لا يحقد عليها قلب مسلم بل يحبها ويرضاها. فالتوبة النصوح هي الخالصة من كل غش وإذا كانت كذلك كائنة فإن العبد إنما يعود إلى الذنب لبقايا في نفسه فمن خرج من قلبه الشبهة والشهوة لم يعد إلى الذنب فهذه التوبة النصوح وهي واجبة بما أمر الله تعالى؛ ولو تاب العبد ثم عاد إلى الذنب قبل الله توبته الأولى ثم إذا عاد استحق العقوبة فإن تاب تاب الله عليه أيضا. ولا يجوز للمسلم إذا تاب ثم عاد أن يصر؛ بل يتوب ولو عاد في اليوم مائة مرة فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن علي عن النبي ﷺ أنه قال: {إن الله يحب العبد المفتن التواب} وفي حديث آخر: {لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار} وفي حديث آخر: {ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم مائة مرة} ومن قال من الجهال: إن " نصوح " اسم رجل كان على عهد النبي ﷺ أمر الناس أن يتوبوا كتوبته: فهذا رجل مفتر كذاب جاهل بالحديث والتفسير جاهل باللغة ومعاني القرآن؛ فإن هذا امرؤ لم يخلقه الله تعالى ولا كان في المتقدمين أحد اسمه نصوح

=

ولا ذكر هذه القصة أحد من أهل العلم ولو كان كما زعم الجاهل لقيل توبوا إلى الله توبة نصوح وإنما قال: {توبة نصوحا} والنصوح هو التائب. ومن قال: إن المراد بهذه الآية رجل أو امرأة اسمه نصوح وإن كان على عهد عيسى أو غيره فإنه كاذب يجب أن يتوب من هذه فإن لم يتب وجبت عقوبته بإجماع المسلمين. والله أعلم ا.هـ

قوله تعالى: {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ} [التحريم: ٨]، أي:"عسى ربكم أن يمحو عنكم سيئات أعمالكم".

قال الطبري:"يقول: عسى ربكم أيها المؤمنون أن يمحو سيئات أعمالكم التي سلفت منكم".

قال ابن كثير:"{عَسَى} من الله موجبة".

قال ابن عباس: " «عسى» من الله واجب".

قوله تعالى: {وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [التحريم: ٨]، أي:"وأن يدخلكم جنات تجري من تحت قصورها الأنهار".

قال الطبري:"يقول: وأن يدخلكم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار".

قوله تعالى: {يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ} [التحريم: ٨]، أي:"، يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه، ولا يعذبهم، بل يُعلي شأنهم".

قال الطبري: يقول:"{يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ} محمدًا ﷺ {وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ}".

قال ابن كثير:"أي: ولا يخزيهم معه يعني: يوم القيامة".

عن يحيى بن حسان، عن رجل من بني كنانة قال: "صليت خلف رسول الله ﷺ عام الفتح، فسمعته يقول: «اللهم، لا تخزني يوم القيامة»".

قوله تعالى: {نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ} [التحريم: ٨]، أي:"نور هؤلاء المؤمنين يسير أمامهم وبأيمانهم حال مشيهم على الصِّراط بقدر أعمالهم".

=

قال الطبري: " يقول: يسعى نورهم أمامهم وبأيمانهم كتابهم".

عن ابن عباس قوله: " {يَوْمَ لا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ} ... إلى قوله: {وَبِأَيْمَانِهِمْ} يأخذون كتابهم فيه البشرى".

عن مجاهد، عن يزيد بن شجرة، قال: "كان يذكّرنا ويبكي، ويصدِّق قولَه فعلُه، يقول: يا أيها الناس، إنكم مكتوبون عند الله -ﷻ- بأسمائكم وسِيماكم، ومجالسكم ونجواكم وخلائكم، فإذا كان يوم القيامة قيل: يا فلان ابن فلان، هاك نورك، ويا فلان ابن فلان، لا نور لك".

قال الطبري: "يقول جلّ ثناؤه مخبرًا عن قيل المؤمنين يوم القيامة: يقولون ربنا أتمم لنا نورنا، يسألون ربهم أن يبقي لهم نورهم، فلا يطفئه حتى يجوزوا الصراط، وذلك حين يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا {انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ}".

عن مجاهد، قوله: " {رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا}، قال: قول المؤمنين حين يُطفأ نور المنافقين".

قال الحسن: "ليس أحد إلا يعطى نورًا يوم القيامة، يعطى المؤمن والمنافق، فيطفأ نور المنافق، فيخشى المؤمن أن يطفأ نوره، فذلك قوله: {رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا}".

عن مجاهد، عن يزيد بن شجرة، قال: "كان يذكرنا ويبكي، ويصدّق قوله فعله، يقول: يا أيها الناس إنكم مكتوبون عند الله ﷻ بأسمائكم وسيماكم، ومجالسكم ونجواكم وخلاتكم، فإذا كان يومُ القيامة قيل: يا فلانُ ابْنَ فلان هاكَ نورَك، ويا فلانُ ابْنَ فلان، لا نور لك".

قوله تعالى: {وَاغْفِرْ لَنَا} [التحريم: ٨]، أي:"واعف عنَّا وتجاوز عن ذنوبنا واسترها علينا".

=

=

قال الطبري:"يقول: واستر علينا ذنوبنا، ولا تفضحنا بها بعقوبتك إيانا عليها".
قوله تعالى: {إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التحريم: ٨]، أي:"إنك أنت القادر على كل شيء، من المغفرة والعقاب، والرحمة والعذاب".
قال الطبري:"يقول: إنك على إتمام نورنا لنا، وغفران ذنوبنا، وغير ذلك من الأشياء ذو قدرة".
قال سلمة بن وهرام صاحب طاووس:"أن الله تبارك وتعالى إنما سمى نفسه «العفو»، ليعفو، و «الغفور»، ليغفر".
(فائدة): قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)} التحريم: ٦، هذه الآية وإن كانت صريحة الدلالة على المطلوب، إلا أنها تردُ على بدعتين متقابلتين، وبيان ذلك فيما يلي:
-أولاً: بيان وجه رد الآية على بدعة التفريط.
في هذه الآية الكريمة ردٌ على الجفاة الذين زعموا أن الملائكة إناثٌ، وقد أخبر الله تعالى أن الإناث جُبلنَ على الضعف، والرقة؛ وفي هذه الآية أخبر سبحانه عن الملائكة أنهم موصوفون بالقوة، والشدة، وضخامة الخلق: {عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ}، لتبين أن هناك فرقـاً بين خلقة الإناث، وخلقة الملائكة، فكان في هذا التناسب بيانٌ لضعف قولهم والرد عليهم.
ثانيـًا: بيان وجه رد الآية على بدعة الإفراط.
كما نصت هذه الآية على أن الْمَلَائِكَة متعبدون، قال تعالى: {لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)}، فكانت رداً على من وصف الملائكة بصفات الألوهية أو الربوبية، فصرف لها شيئـًا مما لا يجوز صرفه إلا لله -عز وجل-.
ثالثـًا: المأخذ الذي انطلقت منه هاتان الطائفتان.

=

=

المأخذ الذي انطلقت منه هاتان الطائفتان هو: اعتمادهم على العقل دون الشرع، حيث وصفوا الملائكة حسب ما تمليه عليهم عقولهم، فمنهم من أفرط فوصفها -حسب ما صور له عقله- بأنها إناث، محاولة منه لإخضاع عوالم الغيب لمقاييسه البشرية الدنيوية، ولقد ضلّ في هذا المجال مشركو العرب الذين كانوا يزعمون أن الملائكة إناث، واختلطت هذه المقولة المجافية للحقيقة عندهم بخرافة أعظم وأكبر؛ إذ زعموا أن هؤلاء الإناث بنات الله.

وناقشهم القرآن في هاتين القضيتين، فبين أنهم -فيما ذهبوا إليه- لم يعتمدوا على دليل صحيح، وهكذا تنشأ الخرافة، وتتفرع في عقول الذين لا يتصلون بالنور الإلهي.

ومنهم من غلا فوصفها بصفات الربوبية وصرف لها الألوهية، وذلك ناتج من عدم التزامهم بما نصت عليه الآيات الكثيرة فكذبوا خبر الله -ﷻ-، وإخبار رسوله ﷺ عنهم، بأنهم عباد مكرمون، ليس لهم من خصائص الربوبية والألوهية من شيء قال تعالى: {وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)} الأنبياء: ١٩ -٢٠، {وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)} الأنبياء: ٢٩.

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " فالملائكة الكرام والأنبياء والأولياء ونحوهم يتبرؤون ممن عبدهم يوم القيامة، ويتنصلون من دعائهم إياهم إلى عبادتهم، وهم الصادقون البارون في ذلك".

فهذه الآية شاهدة على طريقة أهل السنة ومنهجهم العام في باب الإيمان بالملائكة فهم بين الغلو والتقصير؛ لأنهم يعتقدون اعتقاداً جازماً أن لله ملائكة موجودين مخلوقين من نور، غير موصوفين بالذكورة ولا الأنوثة، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم، وأنهم قائمون بوظائفهم التي أمرهم الله بالقيام بها، ولا يصلح أن تصرف

=

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩)

{يَا أَيّهَا النَّبِيّ جَاهِد الْكُفَّار} بِالسَّيْفِ {وَالْمُنَافِقِينَ} بِاللِّسَانِ وَالْحُجَّة {وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} بِالِانْتِهَارِ وَالْمَقْت {وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّم وَبِئْسَ الْمَصِير} هِيَ.

ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠).

{ضَرَبَ الله مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَة نُوح وَامْرَأَة لُوط كَانَتَا تَحْت عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادنَا صالحين فَخَانَتَاهُمَا} فِي الدِّين إذْ كَفَرَتَا وَكَانَتْ امْرَأَة نُوح وَاسْمهَا وَاهِلَة تَقُول لِقَوْمِهِ؟ إنَّهُ مَجْنُون وَامْرَأَة لُوط وَاسْمهَا وَاعِلَة تَدُلّ قَوْمه عَلَى أَضْيَافه إذَا نَزَلُوا بِهِ لَيْلًا بِإِيقَادِ النَّار وَنَهَارًا بِالتَّدْخِينِ {فَلَمْ يُغْنِيَا} أَيْ نُوح وَلُوط {عَنْهُمَا مِنْ الله} مِنْ عَذَابه {شَيْئًا وَقِيلَ} لَهُمَا {اُدْخُلَا النَّار مَعَ الدَّاخِلِينَ} مِنْ كُفَّار قَوْم نُوح وَقَوْم لُوط[1].

=

لهم العبادة، كما لا يصح إيمان عبد حتى يؤمن بوجودهم، وبما ورد في حقهم من صفات وأعمال في كتاب الله سبحانه، وسنة رسوله ﷺ من غير زيادة، ولا نقصان ولا تحريف.

(١) قوله: {يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ}. قال قتادة: (أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن يجاهد الكفار بالسيف، ويغلظ على المنافقين بالحدود). فجهاد الكفار بالسلاح والقتال، وجهاد المنافقين بالوعيد واللسان وبإقامة الحدود عليهم.

=

=

وقوله: {وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ}. قال قتادة: (يقول: واشدد عليهم في ذات الله). وقوله: {وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}. أي: ومكثهم جهنم ومستقرهم إلى النار، وبئس القرار والموضع الذي يصيرون إليه نار السعير.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ} بالسيف، {وَالْمُنَافِقِينَ} بالوعيد واللسان".

قال ابن كثير:"يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، هؤلاء بالسلاح والقتال، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم".

قال الزمخشري:"{جاهِدِ الْكُفَّارَ} بالسيف، {وَالْمُنافِقِينَ} بالاحتجاج.. وقيل: بإفشاء أسرارهم".

عن عبد الله بن مسعود في قوله: {جاهد الكفار والمنافقين}، قال: بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وليلقه بوجه مكفهر".

قال ابن عباس:"فأمره الله أن يجاهد الكفار بالسيف". وروي عن الحسن والضحاك وقتادة ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس: مثله.

قال الحسن:"جاهد الكفار بالسيف، والمنافقين بالحدود، أقم عليهم حدودَ الله".

عن الحسن:"المنافقين بالحدود". وروي عن قتادة: مثله".

قال قتادة:"أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن يجاهد الكفار بالسيف، ويغلظ على المنافقين بالحدود".

قال الربيع:"جهاد المنافقين: ألا تظهر منهم معصية إلا أطفيت، ولا حدا إلا أقيم".

وقال الضحاك:"جاهد الكفار بالسيف، وأغلظ على المنافقين بالكلام، وهو مجاهدتهم".

قال الضحاك:"جاهد المنافقين بالقول". وروي عن مقاتل بن حيان والربيع بن

=

=

أنس: مثله.

قوله تعالى: {وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [التحريم: ٩]، أي:"واستعمل مع الفريقين الشدة والخشونة في جهادهما".

قال الطبري:"يقول: وأشدد عليهم في ذات الله".

قال ابن كثير:"أي: في الدنيا".

قال الضحاك:"واغلظ على المنافقين بالكلام".

قال ابن عباس:"أذهب الرفق عنهم".

قال الزمخشري:"واستعمل الغلظة والخشونة على الفريقين فيما تجاهدهما به من القتال والمحاجة".

قوله تعالى: {وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ} [التحريم: ٩]، أي:"ومسكنهم الذي يصيرون إليه في الآخرة جهنم".

قال الطبري:"يقول: ومكثهم جهنم، ومصيرهم الذي يصيرون إليه نار جهنم".

قال محمد بن إسحاق: "ومأواهم (جهنم)، النار، أي: فلا تظنوا أن لهم عاقبة نصر ولا ظهور عليكم، ما اعتصمتم بي، واتبعتم أمري، للمعصية التي أصابتكم منهم بذنوب قدمتموها لأنفسكم".

قوله تعالى: {وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [التحريم: ٩]، أي:"وقَبُح ذلك المرجع الذي يرجعون إليه".

قال الطبري:"وبئس الموضع الذي يصيرون إليه جهنم".

قال ابن كثير:"أي: في الآخرة".

عن ابن أبي نجيح، قوله: " {وبئس المصير}، قال: مصير الكافر إلى النار، قال ابن أبي نجيح: سمعته من عكرمة فعرضته على مجاهد فلم ينكره".

وقوله: {ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا}. قال ابن كثير: (أي: في مخالطتِهم

=

=

المسلمين ومُعَاشَرتهم لهم، أنَّ ذلك لا يُجْدي عنهم شيئًا، ولا ينفعهم عند الله، إن لم يكن الإيمان حاصلًا في قُلوبهم، ثم ذكر المثل فقال: {امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ}، أي: نبيَّين رسُولَين عندهما في صُحبتهما ليلًا ونهارًا، يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشدَّ العشرة والاختلاط).

وقوله: {فَخَانَتَاهُمَا}، أي في الدين، لم يوافقاهما على الإيمان والرسالة. وليس المقصود الزنا أو الفاحشة، فإن نساء الأنبياء معصومات عن ذلك لحرمة الأنبياء. قال ابن عباس: (ما بغت امرأة نبي قط. إنما كانت خيانتهما في الدين). وقال عكرمة: (وكانت خيانتهما أنهما كانتا مشركتين). وقال الضحاك: (كانتا مخالفتين دين النبي ﷺ كافرتين بالله).

يروي ابن جرير بإسناده عن سفيان عن موسى بن أبي عائشة عن سليمان بن قيس، عن ابن عباس: (قوله {فَخَانَتَاهُمَا}: قال: كانت امرأة نوح تقول للناس: إنه مجنون.

وكانت امرأة لوط تَدُلّ على الضيف). أو قال: (أما امرأة نوح فكانت تُخبر أنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تَدُلُّ قومها على أضيافِه).

وقال العوفي، عن ابن عباس قال: (كانت خيانتُهما أنهما كانتا على غير دينهما، فكانت امرأة نوح تَطّلِعُ على سِرِّ نوح، فإذا آمن معَ نوحٍ أحدٌ أخبرت الجبابرة من قوم نُوح به، وأما امرأة لوطٍ فكانت إذا أضافَ لوطٌ أحدًا أخبرت به أهلَ المدينة ممن يعمل السوء).

وقوله: {فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا}. أي فما نفع هاتين المرأتين إذ عصتا الله أن أزواجهما أنبياء. قال قادة: (هاتان زوجتا نَبِيَّي الله، لما عصتا ربهما لم يغن أزواجهما عنهما من الله شيئًا). وقال: (يقول الله: لم يغن صلاح هذين عن هاتين شيئًا، وامرأة فرعون لم يضرّها كفر فرعون).

=

=

وقوله: {وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ} . قال ابن جرير: (قال الله لهما يوم القيامة: ادخلا أيتها المرأتان نار جهنم مع الداخلين فيها).

قوله تعالى: {ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ} [التحريم: ١٠]، أي:"ضرب الله مثلا لحال الكفرة -في مخالطتهم المسلمين وقربهم منهم ومعاشرتهم لهم، وأن ذلك لا ينفعهم لكفرهم بالله-بحال زوجة نبي الله نوح، وزوجة نبي الله لوط".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: مَثَّل الله مثلا للذين كفروا من الناس وسائر الخلق امرأة نوح وامرأة لوط".

قال ابن كثير:"أي: في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم، أن ذلك لا يجدي عنهم شيئًا ولا ينفعهم عند الله، إن لم يكن الإيمان حاصلا في قلوبهم".

قال الزمخشري:"مثل الله ﷻ حال الكفار-في أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة مثلهم من غير إبقاء ولا محاباة، ولا ينفعهم مع عداوتهم لهم ما كان بينهم وبينهم من لحمة نسب أو وصلة صهر، لأن عداوتهم لهم وكفرهم بالله ورسوله قطع العلائق وبت الوصل، وجعلهم أبعد من الأجانب وأبعد، وإن كان المؤمن الذي يتصل به الكافر نبيا من أنبياء الله-بحال امرأة نوح وامرأة لوط".

قوله تعالى: {كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ} [التحريم: ١٠]، أي:"حيث كانتا في عصمة عبدَين من عبادنا صالحين".

قال الطبري:"وهما نوح ولوط".

قال ابن كثير:"أي: نبيين رسولين عندهما في صحبتها ليلا ونهارًا يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط".

قال الزمخشري:"فإن قلت، ما فائدة قوله: {مِنْ عِبادِنا} ؟

قلت: لما كان مبنى التمثيل على وجود الصلاح في الإنسان كائنا من كان، وأنه

=

=

وحده هو الذي يبلغ به الفوز وينال ما عند الله: قال عبدين من عبادنا صالحين، فذكر النبيين المشهورين العلمين بأنهما عبدان لم يكونا إلا كسائر عبادنا، من غير تفاوت بينهما وبينهم إلا بالصلاح وحده إظهارا وإبانة، لأن عبدا من العباد لا يرجح عنده إلا بالصلاح لا غير، وأن ما سواه مما يرجح به الناس عند الناس ليس بسبب للرجحان عنده".

قوله تعالى: {فَخَانَتَاهُمَا} [التحريم: ١٠]، أي:"فوقعت منهما الخيانة لهما في الدين، فقد كانتا كافرتين".

قال ابن كثير:"أي: في الإيمان، لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدقاهما في الرسالة، فلم يُجْد ذلك كلَه شيئًا، ولا دفع عنهما محذورا.. وليس المراد: {فَخَانَتَاهُمَا} في فاحشة، بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصوماتٌ عن الوقوع في الفاحشة؛ لحرمة الأنبياء".

قال الزمخشري:"نفاقهما وإبطانهما الكفر، وتظاهرهما على الرسولين، فامرأة نوح قالت لقومه: إنه مجنون، وامرأة لوط دلت على ضيفانه. ولا يجوز أن يراد بالخيانة الفجور لأنه سمج في الطباع نقيصة عند كل أحد، بخلاف الكفر فإن الكفار لا يستسمجونه بل يستحسنونه ويسمونه حقا".

قال الطبري:"ذُكر أن خيانة امرأة نوح زوجها أنها كانت كافرة، وكانت تقول للناس: إنه مجنون. وأن خيانة امرأة لوط، أن لوطًا كان يُسِرّ الضيف، وتَدُلّ عليه".

عن عكرمة: " {فَخَانَتَاهُمَا}، قال: في الدين".

قال عكرمة:"وكانت خيانتهما أنهما كانتا مشركتين".

قال الضحاك:"كانتا مخالفتين دين النبيّ ﷺ كافرتين بالله".

قال الضحاك:"ما بغت امرأة نبيّ قط، {فَخَانَتَاهُمَا}، قال: في الدين خانتاهما".

قال ابن عباس:"كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما، فكانت امرأة نوح

=

=

تطلع على سرّ نوح، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به، فكان ذلك من أمرها؛ وأما امرأة لوط فكانت إذا ضاف لوطًا أحد خبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء {فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا}".

عن ابن عباس، قوله: " {فَخَانَتَاهُمَا}، قال: كانت امرأة نوح تقول للناس: إنه مجنون. وكانت امرأة لوط تَدُل على الضيف".

قال ابن عباس:"أما امرأة نوح، فكانت تخبر أنه مجنون؛ وأما خيانة امرأة لوط، فكانت تَدُلّ على لوط".

عن أَبي معاوية البجلي، قال: "سألت سعيد بن جبير: ما كانت خيانة امرأة لوط وامرأة نوح؟ فقال: أما امرأة لوط، فإنها كانت تدلّ على الأضياف؛ وأما امرأة نوح فلا علم لي بها".

عن أشرس الخُراسانيّ، يرفعه إلى النبيِّ ﷺ، أنه قال: «ما بغَت امرأةُ نبيٍّ قطّ».

عن الحسن البصري، قال: "امرأة النبيِّ إذا زَنتْ لم يُغفَر لها".

قوله تعالى: {فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا} [التحريم: ١٠]، أي:"فلم يدفع هذان الرسولان عن زوجتيهما من عذاب الله شيئًا".

قال الطبري:"يقول: فلم يغن نوح ولوط عن امرأتيهما من الله لما عاقبهما على خيانتهما أزواجهما شيئًا، ولم ينفعهما أن كانت أزواجهما أنبياء".

قال ابن كثير:"أي: لكفرهما".

قال الزمخشري:"لما نافقتا وخانتا الرسولين لم يغن الرسولان عنهما بحق ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج إغناء مّا من عذاب الله".

قال قتادة:"يقول الله: لم يغن صلاح هذين عن هاتين شيئًا، وامرأة فرعون لم يضرّها كفر فرعون".

عن قتادة، قوله: {ضَرَبَ اللهُ مَثَلا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ}،... الآية،

=

=

هاتان زوجتا نَبِيَّ الله لما عصتا ربهما، لم يغن أزواجهما عنهما من الله شيئًا".

قوله تعالى: {وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ} [التحريم: ١٠]، أي:"وقيل للزوجتين: ادخلا النار مع الداخلين فيها".

قال الطبري:"قال الله لهما يوم القيامة: ادخلا أيتها المرأتان نار جهنم مع الداخلين فيها".

قال الزمخشري:"{وَقِيلَ} لهما عند موتهما أو يوم القيامة: {ادْخُلَا النَّارَ} مَعَ سائر {الدَّاخِلِينَ} الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء. أو مع داخليها من إخوانكما من قوم نوح وقوم لوط".

قال يحيى بن سلام: "هذا مثل ضربه الله ليحذر به حفصة وعائشة حين تظاهرتا على رسول الله ﷺ، ثم ضرب لهما مثلاً بامرأة فرعون ومريم ابنة عمران ترغيبًا في التمسك بالطاعة".

قال ابن عطية: "وقال بعض الناس: إن في المثلين عبرة لزوجات النبي محمد -عليه السلام-، حين تقدم عتابهن، وفي هذا بعد؛ لأن النص أنه للكفار يبعد هذا".

ونقله أبو حيان "البحر المحيط" مرتضيًا له.

وقال ابن جزي:"وضرب الله المثل بهاتين المرأتين للكفار الذين بينهم وبين الأنبياء وسائل، كأنه يقول: لا يغني أحد عن أحد، ولو كان أقرب الناس إليه كقرب امرأة نوح وامرأة لوط من أزواجهما. وقيل: هذا مثال الأزواج النبي ﷺ فيما ذكر في أول السورة، وهذا باطل؛ لأن الله إنما ضربه للذين كفروا".

والأقرب والله أعلم: أن المثل الأول هو ما ذكره ابن جزي أولًا، وسيقرره المصنف عند آخر كلامه على الآية. وأما المثل الثاني فهو مثل ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم كما قرره الحافظ ابن كثير.

=

وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١).

{وَضَرَبَ الله مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَة فِرْعَوْن} آمَنَتْ بِمُوسَى وَاسْمهَا آسِيَة فَعَذَّبَهَا فِرْعَوْن بِأَنْ أَوْتَدَ يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا وَأَلْقَى عَلَى صَدْرهَا رَحًى عَظِيمَة وَاسْتَقْبَلَ بِهَا الشَّمْس فَكَانَتْ إذَا تَفَرَّقَ عَنْهَا مَنْ وُكِلَ بِهَا ظَلَّلَتْهَا الْمَلَائِكَة {إذْ قالت} في حال التعذيب {رب بن لِي عِنْدك بَيْتًا فِي الْجَنَّة} فَكُشِفَ لَهَا فَرَأَتْهُ فَسَهُلَ عَلَيْهَا التَّعْذِيب {وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْن وَعَمَله} وَتَعْذِيبه {وَنَجِّنِي مِنْ الْقَوْم الظَّالِمِينَ} أَهْل دينه فقبض الله روحها وقال بن كَيْسَان رُفِعَتْ إلَى الْجَنَّة حَيَّة فَهِيَ تَأْكُل وتشرب.

وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢).

{ومريم} عطف على امرأة فرعون {ابنة عِمْرَان الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجهَا} حَفِظَتْهُ {فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحنَا} أَيْ جِبْرِيل حَيْثُ نَفَخَ فِي جَيْب دِرْعهَا بِخَلْقِ الله

=

قال قتادة: "كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم فو الله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها، ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل لا يؤاخذ أحدا إلا بذنبه".

قال ابن كثير:"وقد استدل بهذه الآية الكريمة بعضُ العلماء على ضعف الحديث الذي يأثرُه كثير من الناس: من أكل مع مغفور له غفر له. وهذا الحديث لا أصل له، وإنما يروى هذا عن بعض الصالحين أنه رأى النبي ﷺ في المنام فقال: يا رسول الله، أنت قلت: من أكل مع مغفور له غفر؟ قال: «لا ولكني الآن أقوله» ".

تَعَالَى فَعَلَهُ الْوَاصِل إلَى فَرْجهَا فَحَمَلَتْ بِعِيسَى {وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبّهَا} شرائعه {وَكُتُبه} الْمُنَزَّلَة {وَكَانَتْ مِنْ الْقَانِتِينَ} مِنْ الْقَوْم المطيعين[1].

---

(١) في هذه الآيات: ذِكْرُ الصورة المقابلة من المثل، فالذين آمنوا لا يضرهم مخالطةُ الكافرين إن ضاق الأمر عليهم أو حوصروا أو كانوا محتاجين إليهم، فإن الله تعالى قضى أن لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن لكل نفس ما كسبت، وامرأة فرعون خير مثل في ذلك للمؤمنين، وكذلك مريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها وصبرت على أمر ربها وكانت من القانتين.

فقوله: {وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ} . قال قتادة: (كان فرعون أغنى أهلِ الأرض وأكفره، فوالله ما ضَرَّ امرأته كُفْر زَوجها حين أطاعت رَبَّها لِتَعلموا أن الله تعالى حَكَمٌ عدل، لا يؤاخذ أحدًا إلا بذنبه).

وقوله: {إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ} . قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار. قال النسفي: (فكأنها أرادت الدرجة العالية لأنه تعالى منزه عن المكان، فعبرت عنها بقولها عندك). قال ابن جرير: (فاستجاب الله لها فبنى لها بيتًا في الجنة).

وقوله: {وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ} . قال القرطبي: (تعني بالعمل الكفر. وقيل: من عمله من عذابه وظلمه وشماتته. وقال ابن عباس: الجماع).

وقوله: {وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} . قال مقاتل: (القبط). وقال الكلبي: (أهل مصر). قال ابن جرير: (تقول: وأخلصني وأنقذني من عمل القوم الكافرين بك، ومن عذابهم). وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

أخرج أبو يعلى بسند صحيح عن أبي هريرة مرفوعًا: [إنّ فرعون أَوْتَدَ لامرأتِه أربعة أوتادٍ في يديها ورِجْليها، فكان إذا تفرّقوا عنها ظلّلتها الملائكة، فقالت: {رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ

=

الظَّالِمِينَ}، فكشف لها عن بيتها في الجنة].

وله شاهد عند الحاكم والطبري بسند على شرط الشيخين من حديث سلمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: [كانت امرأة فرعون تُعَذَّبُ بالشمس، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة].

وشاهد عند البيهقي في "شعب الإيمان" عن ثابت عن أبي رافع قال: [وتَدَ فرعون لامرأته أربعة أوتاد، ثم حمل على بطنها رحىً عظيمة حتى ماتت]-وهو مرسل صحيح-.

قوله تعالى: {وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ} [التحريم: ١١]، أي:"وضرب الله مثلا لحال المؤمنين -الذين صدَّقوا الله، وعبدوه وحده، وعملوا بشرعه، وأنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين في معاملتهم-بحال زوجة فرعون التي كانت في عصمة أشد الكافرين بالله، وهي مؤمنة بالله".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وضرب الله مثلا للذين صدقوا الله ووحدوه، امرأة فرعون التي آمنت بالله ووحدته، وصدّقت رسوله موسى، وهي تحت عدوّ من أعداء الله كافر، فلم يضرّها كفر زوجها، إذ كانت مؤمنة بالله، وكان من قضاء الله في خلقه أن لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن لكلّ نفس ما كسبت".

قال ابن كثير:"وهذا مَثَلٌ ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم، كما قال تعالى: {لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً} [آل عمران: ٢٨]".

قال الزمخشري:"ومثل حال المؤمنين-في أنّ وصلة الكافرين لا تضرهم ولا تنقص شيئا من ثوابهم وزلفاهم عند الله-بحال امرأة فرعون ومنزلتها عند الله تعالى، مع كونها زوجة أعدى أعداء الله الناطق بالكلمة العظمى، ومريم ابنة

=

=

عمران وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين، مع أنّ قومها كانوا كفارا. وفي طيّ هذين التمثيلين تعريض بأمّي المؤمنين المذكورتين في أوّل السورة وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله ﷺ بما كرهه وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده، لما في التمثيل من ذكر الكفر. ونحوه في التغليظ قوله تعالى: {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ} وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا في الإخلاص والكمال فيه كمثل هاتين المؤمنتين، وأن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله، فإنّ ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين، والتعريض بحفصة أرجح، لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله، وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدا يدق عن تفطن العالم ويزل عن نبصره".

قوله تعالى: {إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ} [التحريم: ١١]، أي:"حين قالت: رب ابْنِ لي دارًا عندك في الجنة".

قال الطبري:"إذ قالت: {رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ}، فاستجاب الله لها فبنى لها بيتًا في الجنة".

قال الزمخشري:"فإن قلت: ما معنى الجمع بين {عندك} و {في الجنة}؟

قلت: طلبت القرب من رحمة الله والبعد من عذاب أعدائه، ثم بينت مكان القرب بقولها {فِي الْجَنَّةِ}، أو أرادت ارتفاع الدرجة في الجنة وأن تكون جنتها من الجنان التي هي أقرب إلى العرش وهي جنات المأوى، فعبرت عن القرب إلى العرش بقولها: {عِنْدَكَ}".

قال ابن كثير:"قال العلماء: اختارت الجار قبل الدار. وقد ورد شيء من ذلك في حديث مرفوع".

عن سلمان، قال: "كانت امرأة فرعون تعذّب بالشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها

=

=

الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة".

عن قتادة، قوله: " {وَضَرَبَ اللهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ}، وكان أعتى أهل الأرض على الله، وأبعده من الله، فو الله ما ضرّ امرأته كُفر زوجها حين أطاعت ربها، لتعلموا أن الله حكم عدل، لا يؤاخذ عبده إلا بذنبه".

قوله تعالى: {وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ} [التحريم: ١١]، أي:"وأنقذني من سلطان فرعون وفتنته، ومما يصدر عنه من أعمال الشر".

قال القرطبي:"{وَعَمَلِهِ}، تعني: بالعمل الكفر. وقيل: من عمله من عذابه وظلمه وشماتته".

وروي أبو صالح عن ابن عباس: {وَعَمَلِهِ}: "الجماع". وعنه أيضا:"دينه".

وقال مقاتل:"{وَعَمَلِهِ}: الشرك".

قال الطبري:"وتقول: وأنقذني من عذاب فرعون، ومن أن أعمل عمله، وذلك كفره بالله".

قال ابن كثير:"أي: خلصني منه، فإني أبرأ إليك من عمله".

قال الزمخشري: أي: " من عمل فرعون. أو من نفس فرعون الخبيثة وسلطانه الغشوم، وخصوصا من عمله وهو: الكفر، وعبادة الأصنام، والظلم، والتعذيب بغير جرم".

قوله تعالى: {وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [التحريم: ١١]، أي:"وأنقذني من القوم التابعين له في الظلم والضلال، ومن عذابهم".

قال الكلبي، ومقاتل: أهل مصر".

قال الحسن وابن كيسان:"نجاها الله أكرم نجاة، ورفعها إلى الجنة، فهي فيها تأكل وتشرب".

قال الطبري:"تقول: وأخلصني وأنقذني من عمل القوم الكافرين بك، ومن

=

=

عذابهم".

قال الزمخشري: أي: " من القبط كلهم. وفيه دليل على أنّ الاستعاذة بالله والالتجاء إليه ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل: من سير الصالحين وسنن الأنبياء والمرسلين: {فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، {رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ} ".

قال ابن كثير:"وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا".

عن أبي العالية، قال: "كان إيمانُ امرأة فرعونَ من قبل إيمان امرأة خازن فرعون، وذلك أنها جلست تمشط ابنة فرعون، فوقع المشط من يدها، فقالت تعس من كفر بالله؟ فقالت لها ابنة فرعون: ولك رب غير أبي؟ قالت: ربي ورب أبيك ورب كل شيء اللهُ. فلطمتها بنتُ فرعونَ وضربتها، وأخبرت أباها، فأرسل إليها فرعون فقال: تعبدين ربا غيري؟ قالت: نعم، ربي وربك ورب كل شيء الله. وإياه أعبد فعذبها فرعون وأوتد لها أوتادًا فشد رجليها ويديها وأرسل عليها الحيات، وكانت كذلك، فأتى عليها يومًا فقال لها: ما أنت منتهية؟ فقالت له: ربي وربك وربُ كل شيء الله. فقال لها: إني ذابح ابنك في فيك إن لم تفعلي. فقالت له: اقض ما أنت قاض. فذبح ابنها في فيها، وإن روح ابنها بشرها، فقال لها: أبشري يا أمه، فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا. فصبرت ثم أتى عليها فرعون يومًا آخر فقال لها مثل ذلك، فقالت له، مثل ذلك، فذبح ابنها الآخر في فيها، فبشرها روحه أيضًا، وقال لها. اصبري يا أمه فإن لك عند الله من الثواب كذا وكذا. قال: وسمعت امرأة فرعون كلامَ روح ابنها الأكبر ثم الأصغر، فآمنت امرأةُ فرعونَ، وقبض الله روح امرأة خازن فرعون، وكشف الغطاء عن ثوبها ومنزلتها وكرامتها في الجنة لامرأة فرعون حتى رأت فازدادت إيمانًا ويقينًا وتصديقًا، فاطَّلع فرعون على إيمانها،

=

=

فقال للملأ ما تعلمون من آسية بنت مزاحم؟ فأثنوا عليها، فقال لهم: إنها تعبد غيري. فقالوا له: اقتلها. فأوتد لها أوتادًا فشد يديها ورجليها، فدعت آسية ربها فقالت: {رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ} فوافق ذلك أن حضرها، فرعون فضحكت حين رأت بيتها في الجنة، فقال فرعون: ألا تعجبون من جنونها، إنا نعذبها وهي تضحك، فقبض الله روحها، ﵅".

وقوله: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا} . قال ابن كثير: (أي: حَفِظَتْه وصانته. الإحصان: هو العَفاف والحُرمة. {فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا}، أي: بواسِطة المَلَك، وهو جبريلُ، فإن الله بَعَثَهُ إليها فتَمَثَّلَ لها في صورة بَشَر سَوِيٍّ، وأمره الله تعالى أن ينفُخ بفيه في جيب دِرْعِها، فنزلت النفخةُ فَوَلَجَت في فَرْجها، فكان منه الحمل بعيسى ﵇.

وقوله: {وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ} . أي: بقدره وشرعه. قال قتادة: (يقول: آمنت بعيسى، وهو كلمة الله {وَكُتُبِهِ} يعني التوراة والإنجيل).

وقوله: {وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} . أي: من المطيعين المخبتين. قال قتادة: (يقول: وكانت من القوم المطيعين).

قوله تعالى: {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا} [التحريم: ١٢]، أي:"وضرب الله مثلا للذين آمنوا مريم بنت عمران التي حفظت فرجها، وصانته عن الزنى".

قال ابن كثير:"أي حفظته وصانته. والإحصان: هو العفاف والحرية".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {وَضَرَبَ اللهُ مَثَلا لِلَّذِينَ آمَنُوا} {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ} التي منعت جيب درعها جبريل ﵇، وكلّ ما كان في الدرع من خرق أو فتق، فإنه يسمى فَرْجًا، وكذلك كلّ صدع وشقّ في حائط، أو فرج سقف فهو فرج".

=

=

قال الزمخشري:"معنى أحصنته: منعته جبريل، وأنه جمع في التمثيل بين التي لها زوج والتى لا زوج لها، تسلية للأرامل وتطييبا لأنفسهنّ".

قال ابن عباس:"كتب قيصر إلى معاوية: سلام عليك أما بعد.... فأنبئني بأكرم عباد الله عليه وأكرم إمائه عليه، فكتب إليه: أما بعد.. كتبت إلي تسألني فقلت: أما أكرم عباده عليه فآدم خلقه بيده وعلمه الأسماء كلها، وأما أكرم إمائه عليه فمريم بنت عمران التي أحصنت فرجها".

قوله تعالى: {فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا} [التحريم: ١٢]، أي:"فأمر الله تعالى جبريل عليه السلام أن ينفخ في جيب قميصها، فوصلت النفخة إلى رحمها، فحملت بعيسى عليه السلام".

قال الطبري:"يقول: فنفخنا فيه في جيب درعها، وذلك فرجها، من روحنا من جبرئيل، وهو الروح".

قال ابن كثير:"أي: بواسطة المَلَك، وهو جبريل، فإن الله بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشر سَوي، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه في جيب درعها، فنزلت النفخة فولجت في فرجها، فكان منه الحمل بعيسى، عليه السلام".

قال قتادة:"فنفخنا في جيبها من روحنا".

قال الزمخشري:"{فِيهِ} في الفرج. وقرأ ابن مسعود: «فيها»، كما قرئ في سورة الأنبياء، والضمير للجملة.. ومن بدع التفاسير: أنّ الفرج هو جيب الدرع".

قوله تعالى: {وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ} [التحريم: ١٢]، أي:"وصدَّقت بكلمات ربها، وعملت بشرائعه التي شرعها لعباده، وكتبه المنزلة على رسله".

قال الطبري:"يقول: آمنت بعيسى، وهو كلمة الله، {وَكُتُبِهِ}، يعني: التوراة والإنجيل".

قال ابن كثير:"أي: بقدره وشرعه".

=

=

عن الحسن:: {وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ}، " يعني: جميع الكتب".

قرأ عاصم: " {وصَدَّقَتْ بِكَلِماتِ رَبِّها وكُتُبِهِ} بالألف، «وكِتابِهِ» واحدًا".

«وَصَدَّقَتْ»، قرئ بالتشديد والتخفيف على أنها جعلت الكلمات والكتب صادقة، يعني: وصفتها بالصدق، وهو معنى التصديق بعينه.

قوله تعالى: {وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ} [التحريم: ١٢]، أي:"وكانت من القوم المطيعين، العابدين لله ﷻ ".

قال الطبري:"يقول: وكانت من القوم المطيعين".

عن قتادة: " {مِنَ الْقَانِتِينَ}، من المطيعين".

وقال عطاء:"أي: من المُصلّين".

عن الكرماني -من طريق حفص بن مَيسرة-في قول الله: " {وكانَتْ مِنَ القانِتِينَ}، قال: ما بين المغرب والعشاء".

قال الزمخشري:"فإن قلت: لم قيل: {مِنَ الْقانِتِينَ} على التذكير؟

قلت: لأنّ القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين، فغلب ذكوره على إناثه. ومِنْ للتبعيض. ويجوز أن يكون لابتداء الغاية، على أنها ولدت من القانتين، لأنها من أعقاب هرون أخى موسى صلوات الله عليهما".

وقد حفلت السنة الصحيحة بأحاديث كثيرة في فضل آسية بنت مزاحم -امرأة فرعون-وفضل مريم بنت عمران عليهما السلام.

الحديث الأول: أخرج البخاري ومسلم عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: [خير نسائِها مريمُ بنتُ عمران، وخير نسائها خديجةُ بنتُ خُوَيلد].

الحديث الثاني: أخرج أحمد في المسند بسند على شرط الصحيح عن ابن عباس قال: [خطّ رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خُطوطٍ، وقال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلمُ. فقال رسولُ الله ﷺ: أفضلُ نساءِ أهل الجنة خديجة بنتُ

=

=

خُوَيلد، وفاطِمةُ بنتُ محمد، ومريم ابنةُ عِمران، وآسية ابنةُ مزاحمٍ امرأة فِرعون].
وله شاهد في المسند -أيضًا-من حديث أنس بلفظ: [خير نساء العالمين أربع: مريمُ بنتُ عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون].
الحديث الثالث: أخرج البخاري ومسلم وأحمد عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: [كَملَ من الرجال كثير، ولم يكمُلْ من النساء إلا آسية امرأةُ فرعون، ومريم بنتُ عمران -زاد ابن مردويه: (وخديجة بنت خويلد) -وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام].
(فائدة): الإيمان بكتب الله -ﷻ -المنزلة على أنبيائه -عليهم الصلاة والسلام- ركنٌ من أركان الإيمان، وأصل من أصوله العظام التي ينبني عليها، فلا يصح إسلام عبدٍ ولا يثبت إيمانه؛ حتى يؤمن الإيمان الجازم بأن هذه الكتب نزلت من عند الله، وأن الله -ﷻ -تكلم بها حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته، وأن ما تضمنته من وحي الله لأنبيائه حق لا مرية فيه.
ومن المعلوم أن الإيمان بالله لا ينفصل عن الإيمان بكتبه، لذلك فإن مجيء الإيمان بالكتب بعد الإيمان بالله -الذي هو التصديق بوجوده ذاتًا وصفاتًا ونبذ كل ما سواه من المعبودات الباطلة-، وبعد الإيمان بالملائكة -الذي هو اعتقاد وجودهم وأنهم عباد مكرمون ورسله إلى خلقه وأمناؤه على وحيه-في غاية التنسيق؛ لأن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بملائكته وكتبه ورسله، لذا فالكفر بواحد من هذه الكتب يُعد كفراً بالله؛ لأن العقيدة الإسلامية كُلاً لا يتجزأ، ومجموع أركانها يكمل بتوافر جميع أسسها وركائزها، وأن الإيمان بواحد منها يستلزم التصديق بسائرها.
ويحسن قبل الشروع في مباحث هذا الفصل التمهيد بالتعريف وبيان الأهمية.

=

=

أولاً: التعريف بالكتب، ومعنى الإيمان بها:

الكتب في اللغة: جمع كتاب، بمعنى مكتوب؛ لأن الكتاب لفظ عربي مشتق من الفعل "كتب"، يقول ابن فارس: " الكاف والتاء والباء أصل صحيح واحد يدل على جمع شيء إلى شيء، من ذلك الكتاب والكتابة، يقال: كتبت الكتاب أكتبه كتباً".

والمراد بالكتب هنا-التي يجب الإيمان بها-: "هي الكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله، رحمة للخلق، وهداية لهم، ليصلوا بها إلى سعادة الدنيا والآخرة".

أما المراد بالإيمان بالكتب، فهو:

التصديق الجازم بأنها كلها منزل من عند الله -ﷻ- على رسله إلى عباده بالحق المبين والهدى المستبين، وأنها كلام الله -ﷻ- لا كلام غيره، وأن الله تعالى تكلم بها حقيقة كما شاء وعلى الوجه الذي أراد، فمنها المسموع منه من وراء حجاب بدون واسطة، ومنها ما يسمعه الرسول الملكي ويأمره بتبليغه منه إلى الرسول البشري كما قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١)} الشورى: ٥١، ومنها ما خطه بيده -ﷻ-.

والإيمان بها يتضمن ما يلي:

١ -الإيمان بأنها حق من عند الله.

٢ -تصديقُ ما صح وصوله من أخبارها، والإيمان به، وأنه حقٌّ من عند الله تعالى.

٣ -التزام أحكامها ما لم تنسخ، وعلى هذا، فلا يلزمنا أن نلتزم بأحكام الكتب السابقة؛ لأنها كلها منسوخة بالقرآن، إلا ما أقره القرآن. وكذلك لا يلزمنا العمل بما نسخ في القرآن؛ لأن القرآن فيه أشياء منسوخة.

لذا فإن الإيمان بهذه الكتب -أي بجنسها-قبل أن يصيبها ما أصابها واجب على

=

=

المؤمنين. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦)} النساء: ١٣٦.

"وجمهور المفسرين على أن الخطاب فيها للمؤمنين كافة، أمرهم الله أن يجمعوا بين الإيمان به وبرسوله الأعظم خاتم النبيين والقرآن الذي نزل عليه وبين الإيمان بجنس الكتب التي نزلها على رسله من قبل بعثة خاتم النبيين، بأن يعلموا أن الله قد بعث قبله رسلاً، وأنزل عليهم كتباً، وأنه لم يترك عباده في الزمن الماضي سدى، محرومين من البينات والهدى، ولا يقتضي ذلك أن يعرفوا أعيان تلك الكتب ولا أن تكون موجودة، ولا أن يكون الموجود منها صحيحاً غير محرف".

كما أنه "معلوم من دلالات نصوص الوحيين، أن الإيمان قول القلب واللسان والجوارح، والإيمان بالكتب يجري على هذه الثلاث، فهو إيمان القلب واللسان والجوارح بالكتب:

أما صورة إيمان القلب بالكتب، فهي: اعتقاده أنها منزلة من عند الله، وهي كلامه ووحيه لأنبيائه، منه بدأ، ليست من إنشاء الرسل، واعتقاد أنها تضمنت مراد الله من خلقه اعتقاداً وشريعة وسلوكاً، واعتقاد وجوب العمل بمقتضاها وتعبد الله به.

وأما صورة إيمان اللسان، فهي: الإقرار بذلك الذي اعتقده القلب، والإخبار عنه، والشهادة به.

وأما صورة إيمان الجوارح، فهي: امتثالها أوامر الله في كتبه، وكفها عن نواهيها، وتأدبها بآدابها".

كما ورد الأمر بالإيمان بكتب الله جميعاً من غير تفريق، قال الله -ﷻ-: {وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ} الشورى: ١٥، إلا أن القدر الذي تحصل به الركنية الواجبة على كل فرد من آحاد المؤمنين هو أن يؤمن إيماناً مجملاً بأن الله أنزل

=

=

كتباً على أنبيائه فيها مراده من عباده هي وحيه الذي تكلم به وأوحاه إلى رسله، وأنه يجب الإيمان بما ورد في شأنها في كتاب الله المنزل على محمد ﷺ : القرآن، على الوجه الذي ورد به، إجمالاً فيما أجمله، وتفصيلا فيما فصله، وأن يؤمن بأن الإيمان بـ"القرآن" خاصة يجب على التفصيل باعتقاد عقائده والتزام شرعته عملاً بأوامره وانزجاراً عن نواهيه وتأدباً بآدابه.

وهذا القدر المجمل هو الذي يحصل به أصل الواجب وتستوفى به الركنية، ثم المؤمنون يتفاوتون بعد ذلك في استكمال الواجب وتحقيق تمامه، فكل من علم شيئاً من تفاصيل ذلك وجب عليه الإيمان به وزاد به إيماناً على الذي لم يعلمه، فمفردات الإيمان المجمل هي مورد التفاوت.

يقول ابن أبي العز رحمه الله : " وأما الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين، فنؤمن بأن لله تعالى سوى ذلك كتباً أنزلها على أنبيائه، ولا يعرف أسماءها وعددها إلا الله تعالى، وأما الإيمان بالقرآن، فالإقرار به، واتباع ما فيه، وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب".

والكتب المنزلة من عند الله تعالى قسمان:

الأول: ما لم ترد تسميتها في القرآن والسنة، وهي أكثرها، فهذه يجب الإيمان بها إجمالاً؛ لأن الله سبحانه أخبرنا: أن لكل نبي أرسله، رسالة بلغة قومه، فقال: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)} البقرة: ٢١٣.

الثاني: ما ورد تسميته في القرآن والسنة، وهي:

١ -التوراة: المنزلة على موسى -عليها السلام -.

=

=

٢ -الإنجيل: المنزل على عيسى -عليها السلام -.

٣ -الزبور: المنزل على داوود -عليها السلام -.

٤ -صحف إبراهيم وموسى -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ -.

٥ -القرآن العظيم المنزل على نبينا محمد -عليهما السلام -، وهو آخرها.

وأهل السنة والجماعة يؤمنون أن القرآن الكريم هو المهيمن على كل الكتب قبله، بمعنى: أنه أمينٌ عليها، حافظ لها، وشاهدٌ على أنها حقٌ من عند الله تعالى، يُصدق ما فيها من الصحيح، وينفي ما فيها من التحريف والتبديل، ويحكم عليها بالنسخ أو التقرير، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه منها فهو باطل، فصارت له الهيمنة عليها من كل وجه، قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} المائدة: ٤٨.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: " جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها؛ حيث جمع فيه محاسن ما قبله من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً، وأميناً، وحاكماً عليها كلها، وتكفل تعالى حفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} الحجر: ٩".

فهو محفوظ بحفظ الله -عَزَّ وَجَلَّ -إلى قيام الساعة، شاهدٌ على هذه الكتب، مبين ما حُرف منها، وحاكم بما أقره الله وأمر به من أحكامها، وناسخ ما نسخه الله منها، وهو أمين عليها في ذلك كله.

من أجل ذلك فإن المرجع إلى جميع الكتب الإلهية ومصدرها الوحيد المأمون "القرآن الكريم"؛ لأنه أُنزل مصدقاً لما قبله من الكتب السماوية ومهيمنا عليها، يثبت منها ما شاء الله إثباته وينسخ منها ما شاء سبحانه، وهو محفوظ من التغيير والتحريف بحفظه -عَزَّ وَجَلَّ -، فسلم من الزيادة فيه والإضافة عليه والنقص منه

=

=

وتحريفه وتبديله مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } الحجر: ٩، لذا يجب الإيمان بأنه أفضل الكتب وأعظمها، وأعلاها منزلة وأشرفها، وأنه المهيمن عليها المصدق لها، وأن الله قد تكفل بحفظه من التغيير والتبديل والتحريف، كما قال -ﷻ-: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢)} فصلت: ٤١ -٤٢، وكذلك يجب الإقرار به، واتباع ما فيه، بفعل أوامره واجتناب منهياته، وتصديق أخباره.

وجملة القول: أن علاقة القرآن الكريم بالكتب السماوية في حالتها الأولى -التي نزلت بها-هي التصديق والتأييد الكلي، وأن علاقته بها في حالتها الثانية -بعد التحريف-علاقة تصديق لما بقي منها على أصله وتصحيح لما طرأ عليها من تحريف وتبديل.

والواجب على المسلم الإيمان بالأصول الأولى التي أنزلت على النبيين على الوجه الذي تقدم ذكره في صفة الإيمان بالكتب، وأن يعتقد أنها لم تبق كما أنزلت بل دخلها التحريف والتبديل، فاختلط ما أنزل فيها من الله مع ما أحدث فيها، وعليه فما دل كتابنا على صحته وصدقه مما فيها فهو مما أنزل الله، وما دل كتابنا على بطلانه وكذبه بدليل من كتابنا فالمنهج فيه ما في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: ((لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم)).

وهذه الجملة من الحديث فيها الاحتياط التام لصحة الإيمان، فإن كان ما في كتابهم مما لم يقم دليل في كتابنا على صحته صحيحاً فإن هذه الجملة تقتضي إيماننا به وسلامتنا من تكذيب ما أنزل الله، وإن كان كذباً فإن هذه الجملة تقتضي تكذيبنا له وبراءتنا من الإيمان بكذب لم ينزله الله، وكان يجب على أهل الكتاب

=

=

أن يحكموا بما أنزل الله فيها، ولكنهم حرفوها ونبذوها وراء ظهورهم كما أنهم نسوا وأضاعوا جزءاً منها.

* فالإيمان بالكتب هو الركن الذي لا يقوم الدين إلا به، وبه أقام الله -ﷻ- الحجة على خلقه، وحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، بما اشتملته كتبه -ﷻ- من الأوامر والنواهي والتشريعات، التي فيها العدل والقسط في الديانة والمعاملات والجنايات والمواريث وغير ذلك، ليتحاكم بها الناس لإقامة العدل بينهم، كما أن فيها تأييداً لرسل الله وإظهاراً لصحة رسالاتهم وصدق نبواتهم، إلا أن أهل البدع في كتاب الله من المحرفين الغالين، والمنتحلين المبطلين، ومن المؤولين الجاهلين، عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عقال الفتنة، فهم مخالفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، متفقون على مخالفة الكتاب، يقولون على الله، وفي الله، وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن المضلين، الذين حق عليهم قول رب العالمين، ويصدق عليهم عموم آيات القرآن المبين.

ويمكن إرجاع انحراف أصحاب البدع المتقابلة في الإيمان بالكتب، إلى أسباب ثلاثة هي:

١ -اعتمادهم على العقل في فهم نصوص الكتب المقدسة، وتوهمهم أن هناك معارضة بين العقل والنقل، مما أورثهم شبها كثيرة، ضلوا بسببها عن قواعد الشرع، والتزموا قواعدهم البدعية.

٢ -خللهم في باب الإيمان بالله -ﷻ- وربوبيته، بما أحدثوه من طُرقٍ بدعية كالحدوث والإمكان، وهذه "الطريقة هي التي ولّدت بين المسلمين اختلافهم في القرآن، وكلام الله -ﷻ-، حتى صار كثير من الناس -أو أكثرهم-في ذلك إما حائراً، وإما مخطئاً مبتدعاً، وكفر بعضهم بعضا بسبب ذلك".

=

=

٣ -معارضة نصوص الكتب لكثير من أهوائهم وشهواتهم، ما كان سبباً لتحريفهم إياها، لتوافق أهواءهم.

من أجل هذا انقسم هؤلاء المبتدعة إلى طرفين متقابلين، طرف انتهج الغلو والإفراط والزيادة! ! وطرف سلك طريق التقصير والتفريط والنقصان!؛ لإعراضهم عن هدي المرسلين واتباعهم غير سبيل المؤمنين. وبيان ذلك في المطلبين الآتيين.

المطلب الأول: الانحراف المؤدي إلى التفريط في الإيمان بالكتب.

إذا تقرر وجوب الإيمان بالكتب، فإن لهذا الإيمان ما يناقضه، لذلك نجد طوائف كثيرة فرطت في هذا الركن المهم من أركان الإيمان، ومنهم:

١ -اليهود: وذلك بتكذيبهم للقرآن، بل في الحقيقة تكذيب لجميع الكتب السماوية، وقد تفنَّنوا في التزوير، وأضافوا في كتابهم المقدس، وحذفوا منه، واتَّبعوا كافة الأساليب الشيطانية، وقد بين الله في كتابه العزيز أنواعاً من تحريف اليهود للتوراة:

أ-إلباس الحق بالباطل، قال تعالى: {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١)} آل عمران: ٧١.

ب-كتمان الحق، قال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)} البقرة: ١٤٦.

ت-إخفاء الحق، قال تعالى: {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥)} المائدة: ١٥.

ث-لي اللسان، قال تعالى: {وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ

=

=
وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)} آل عمران: ٧٨.
ج-تحريف الكلم عن موضعه، قال تعالى: {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ} المائدة: ١٣.
٢ -النصارى: يقال عنهم ما قيل عن اليهود، فقد حرفوا الإنجيل، وبذلك ابتعدوا عن الصراط المستقيم، قال تعالى: {وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١٤) يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥)} المائدة: ١٤ -١٥.
٣ -الرافضة: وذلك بادعائها أن القرآن ناقص ومحرّف، وأن القرآن الكامل مع الغائب الذي سيخرج في آخر الزمان من سرداب سامراء!.
ثم إنهم ضلوا في هذا الباب بسبب جعلهم تعاليم الإمام مصدراً للتلقي عندهم، وضلوا أيضـاً في تأويل القرآن حيث أغرق الباطنية في تأويله.
٤ -البابية والبهائية: وذلك بادعائها نسخ القرآن الكريم، والشريعة الإسلامية بشريعة الباب والبهاء.
٥ -التيجانية: وذلك بتفضيلها أورادَها وأذكارَها -كصلاة الفاتح-على القرآن الكريم حيث قالوا: إن قراءة صلاة الفاتح مرة واحدة أفضل من قراءة القرآن ستة آلاف مرة.
٦ -غلاة الصوفية عمومـاً: وذلك بادعائهم العلم اللَّدُنِّي الذي يوحى إليهم، ويغنيهم عن القرآن كما يزعمون، إذ مصدر التلقي عندهم ليس القرآن والسنة بل الرؤى والأحلام، والكشف، وغير ذلك مما يخالف ما جاء في القرآن.
٧ -النصيرية والدروز وسائر الفرق الباطنية: وذلك بانحرافهم في تأويل القرآن،
=

=

وإغراقهم في التأويل الباطني، وإخراج القرآن عن معانيه وحقائقه الصحيحة، وكذلك ادعاء بعضهم نسخ الإسلام.
٨ -المشرعون والقانونيون: الذين أعرضوا عن تحكيم القرآن، وعارضوه بأفكارهم، زاعمين أنه لا يناسب العصر الحديث، ولا يفي بحاجاته.
٩ -الخوارج: قامت بتأويل القرآن على حسب أهوائهم كقصْرِ بعضهم الصلاة على ركعة واحدة في الصباح، وواحدة في المساء، وأجاز بعضهم نكاح المحارم كبنات البنين وبنات البنات وبنات بني الأخوة، وبعضهم زاد فأنكر أن تكون سورة يوسف من القرآن لاشتمالها على حد زعمهم على ذكر العشق والحب، والقرآن ليس محله ذلك، ومع ذلك فرطوا في حق الله -ﷻ -وفي حق القرآن الكريم، فلم يتدبروا الأوامر والنواهي والمستحبات والمكروهات ولا غرو في ذلك، فقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ بقوله: (يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان).
١٠ -الملاحدة: وهناك من البشر من أنكر الكتب السماوية جملة، وهم الملاحدة.
١١ -أهل الكلام وقعوا في تحريف معاني كلام الله -ﷻ -كثيراً، وخاصة نصوص صفات الله -ﷻ -.
ومن خلال ما سبق يمكننا الوقوف على طرق الانحراف المؤدية إلى التفريط في الإيمان بالكتب، وهي:
-أولاً: التفريق بين كُتب الله في الإيمان:
التفريق بين كتب الله في الإيمان كفر ينقض أصل الإيمان، وله في الجملة صورتان:
الأولى: الإيمان ببعض الكتب والكفر ببعضها:
ومثال هذه الصورة ما حكاه الله عن اليهود من إيمانهم بالتوراة وكفرهم بالقرآن،
=

=

قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ} البقرة: ٩١، فسجل الله عليهم فعل الكفر بهذا التفريق في الإيمان، وقال سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١)} النساء: ١٥٠ – ١٥١، فسجل سبحانه على المفرقين بين الرسل ورسالاتهم وكتبهم فعل الكفر، فقال " يَكْفُرُونَ " ووصفهم فقال: " أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ " وحقق تسجيل وصفهم بالكفر بقوله: " حَقًّا " ثم توعدهم سبحانه.

وإنما كان الكفر ببعض كتب الله مع الإيمان ببعضها "كفراً بها جميعاً ونقضاً لأصل الإيمان"، لثلاثة أوجه:

١ -أن جميع كتب الله مصدرها واحد، فهي منزلة من عند الله فلا وجه للتفريق بينها، فمن كفر بواحد منها كان هذا كفراً بالجنس الذي اجتمعت عليه، وعاد على جميع الكتب بالكفر. وهذا الوجه ينبه عليه قوله تعالى: {وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنْ كِتَابٍ} الشورى: ١٥، وقوله: {وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦)} البقرة: ١٣٦.

٢ -أن جميع كتب الله اشتملت على أصول اعتقادية وعملية واحدة، وهي جميعها على ملة واحدة، فمن كفر بواحد منها يكون هذا كفراً بالملة التي اشتمل عليها ذات الكتاب الذي ادعى الإيمان به. وكتب الله يصدق بعضها بعضاً فالكفر بواحد منها كفر بالباقي، وينبه إلى هذا الوجه قوله سبحانه: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١)} البقرة: ٩١، قوله: " وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ " تعليل لكفرهم.

=

=

٣ -أن كل كتاب من كتب الله أمر بالإيمان بجميع كتب الله. فإن الإيمان بالكتب من أصول الإيمان التي جاءت بها الملة على لسان كل رسول، فمن كفر بواحد من كتب الله يكون قد كفر بما أمر به في الكتاب الذي ادعى الإيمان به.

هذا ويمكن أن يقال بأن التفريق بين كتب الله في الإيمان يرد من جهتين، من جهة التنزيل، وهذا ككفر اليهود بالقرآن مع إيمانهم بالتوراة فإنهم أنكروا أن يكون القرآن منزلاً أصلاً من عند الله، فهو كفر بأصل الإنزال. ومن جهة التأويل، وهذا ككفر النصارى الذين أقروا بالقرآن كتاباً منزلاً ولكنهم زعموا أنه خاص بالعرب ولا يجب عليهم اتباعه وهم مكتفون بكتابهم، فهؤلاء أثبتوا أصل الإنزال وكفروا من جهة التأويل.

الثانية: الإيمان ببعض الكتاب الواحد والكفر ببعضه:

ومثال هذه الصورة فعل اليهود الذي ذكره الله في قوله: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)} البقرة: ٨٤ -٨٥، والشاهد في الآية قوله: " أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ " أي: تؤمنون ببعض كتابكم وتكفرون ببعضه، وبين وجه هذا الكفر من فعلهم وهو المذكور في الآية، وهو أنه كان حلفاء الخزرج من اليهود يقاتلون مع الخزرج حلفاء الأوس من اليهود أنفسهم في الحرب الدائرة بين الخزرج والأوس، فيقاتل اليهودي اليهودي، فيقتل اليهود بعضهم بعضاً ويخرجون بعضهم بعضاً من ديارهم، وهذا محرم عليهم في كتابهم، ثم إذا أسر

=

=

يهودي من الفريقين كليهما جمعوا له الفدية يفدونه جميعـًا؛ لأن هذا واجب عليهم فعملوا بهذا وتركوا ذاك.

ومن صور الإيمان بالكتاب الواحد والكفر ببعضه، ما عليه الذين يسمون أنفسهم بـ"القرآنيين" الذين يقولون: القرآن يكفينا، وتركون العمل بسنة رسول الله ﷺ، فهؤلاء قد كفروا ببعض القرآن مع دعواهم الإيمان به وهو كفرهم بقول الله في القرآن: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} الحشر: ٧، وقد ورد الخبر عنهم عن رسول الله ﷺ، قال: (لا ألفين أحدكم متكئـًا على أريكته، يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه، فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه) ويلحق بهؤلاء كل من رد خبر الآحاد من المبتدعة المعطلة.

فمنهج المعطلة في الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة النبوية قائم على ردّ النصوص الصحيحة الثابتة، والذي جلب لهم هذا الخلط والاضطراب: توهمهم أن هناك معارضة بين العقل والنقل ولما كان العقل عندهم مقدسـًا منزهـًا عن الخطأ، نفوا وعطلوا وأولوا ما دل عليه النقل، وركنوا إلى قواعدهم العقلية وأصولهم الفلسفية، وجعلوها عمدة في ردّ ما ورد به الشرع بدعوى معارضته لها.

وهكذا نلحظ أن كثيراً ممن انحرف في باب أسماء الله -ﷻ- وصفاته، أنه آل بهم الأمر إلى التفريط في الإيمان بالكتب، فأولوا ما لم يستطيعوا على رده، فوقعوا في الفرقة والضلال، والشك والريبة والوبال، فنعوذ بالله من الخذلان.

ثانيـًا: بدعة القول بخلق القرآن:

تكلف المبتدعة نفي صفة الكلام لله ﷻ، معتقدين أن كلام الله بحرف وصوت لكنه مخلوق، وأوردوا إشكالات لتقوية ما زعموه، وتركوا المضي على عقيدة الفطرة والشرع والعقل بالإيمان بأن الله تكلم حقيقة -لا مجازاً أو خلقـًا- بالكتب السماوية التي أنزلها على رُسله -عليهم الصلاة والسلام-.

=

=

لذا فإن الخلق قد اختلفوا في تنزيل كتابه سبحانه اختلافًا انقسم به الحق والباطل، والسنة والبدعة، وتضاد المؤمن والكافر، والسني والبدعي، ويمكن تصنيف اختلاف الخلق في تنزيل الكتاب إلى نوعين:

الأول: اختلاف في جنس التنزيل، وهو بين المؤمنين والكافرين، فالمؤمنون يؤمنون بأصل التنزيل ويثبتون كتاب الله منزلاً منه سبحانه على رسوله فهو كلام الله والرسول مبلغ، أما الكفار فأنكروا أصل التنزيل وأبطلوه وزعموا أن الكتاب قول الرسول أو تعلمه من بشر.

الثاني: اختلاف في صفة التنزيل، وهو واقع بين أهل السنة وبين أهل البدع والهوى من فلاسفة ومتكلمة، فأهل السنة يقولون: كتاب الله كلامه، خرج منه بحرف وصوت، وسمعه منه جبريل، وبلغه جبريل إلى الرسول ﷺ، وسمعه الرسول ﷺ من جبريل -عليه السلام-، وبلغه الرسول لأمته سمعه منه أصحابه وتلقته الأمة منهم، أما أهل البدع من أهل الكلام فقد اتفقوا على كلمة واحدة هي أن القرآن مخلوق، إما خلقه الله في جبريل أو في محمد أو في جسم آخر غيرهما، أو أن كلام الله معنى قائم بالنفس، كما ظهر من يجعلون كلام الخالق هو عين كلام المخلوق. وأما الفلاسفة فجعلوه فيضًا فاض على نفس النبي ﷺ من العقل الفعال أو غيره. وكلا القولين كفر وضلال.

من أجل ذلك فرط أهل البدع في الإيمان بالكتب، فعارضوا القرآن الكريم -المهيمن على الكتب السابقة- بالآراء والأذواق والعقول والأقيسة والمواجيد.

ومن عارض آيات الله المنزلة بما سبق من غير سلطان أتاه دخل في معنى قوله تعالى: {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣٥)} غافر: ٣٥، وقوله: {إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ

=

=

بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦)} غافر: ٥٦، وهذا مما يبين أنه لا يجوز معارضة كتاب الله إلا بكتاب الله، ولا يجوز معارضته بغير ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: " ومن المعلوم أن كل من عارض القرآن وجادل في ذلك بعقله ورأيه فهو داخل في ذلك؛ وإن لم يزعم تقديم كلامه على كلام الله ورسوله؛ بل إذا قال ما يوجب المرية والشك في كلام الله؛ فقد دخل في ذلك، فكيف بمن يزعم أن ما يقوله بعقله ورأيه مقدم على نصوص الكتاب والسنة".

أما أهل السنة والجماعة فإن أصولهم لا تقبل من أحد أيـاً كان أن يعارض ما جاء في كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ-، لا بـرأي ولا عقلٍ ولا قياسٍ ولا ذوقٍ ولا وجد، قال الطحاوي رَحِمَهُ اللهُ: " ولا نجادل في القرآن، ونشهد أنه كلام رب العالمين، ونزل به الروح الأمين، فعلمه سيد المرسلين

محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آله أجمعين، وهو كلام الله تعالى، لا يساويه شيءٌ من كلام المخلوقين، ولا نقول بخلقه، ولا نخالف جماعة المسلمين".

وأما كون الإيمان بأن القرآن كلام الله داخلا في الإيمان بالكتب؛ فإن الإيمان بها إيمانا صحيحا يقتضي إيمان العبد بأن الله تكلم بها بألفاظها ومعانيها، وأنها جميعا كلامه هو؛ لا كلام غيره، فهو الذي تكلم بالتوراة بالعبرانية، وبالإنجيل بالسريانية، وبالقرآن بلسان عربي مبين.

وبالجملة فإن القول بخلق القرآن أصل البدع، وهذا باب واسع ليس هذا موضعه، إلا أن نعلم أن من قال بهذا القول قد فرط في الإيمان بكتب الله المنزلة.

المطلب الثاني: الانحراف المؤدي إلى الإفراط في الإيمان بالكتب.

من جملة المخالفين لأهل السنة والجماعة في هذا الباب، أصحاب الغلو في الإيمان بالكتب، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: " فلعسر الفرق والتمييز، يميل قوم إلى

=

=

زيادة في الإثبات، وآخرون إلى زيادة في النفي"، "وكلاهما خارج عن السنة والجماعة".

وقد لاحظ كثير من علماء السلف مدى تأثر بعض الفرق الإسلامية بعقائد اليهود والنصارى، فذكروا ما بينهم من تشابه كبير في كثير من الأمور، وهذا كله من قبيل الغلو في الإيمان بالكتب المحرفة، وتصديق قول النبي ﷺ : (لتتبعن سنن من كان قبلكم)، وإذا كانت المتابعة في القليل ذريعة ووسيلة إلى القبائح المحرمة، فكيف إذا أفضت إلى ما هو كفر بالله.

والإيمان بالكتب يقتضي العمل بما فيها من الأمر والنهي؛ لكنه إذا ثبت نسخ الإسلام للأديان السابقة؛ فإن ذلك يعني عدم جواز العمل بتلكم الكتب التي أنزلت من قبل، وهذه الكتب المنزلة الموجودة في زمن النبي ﷺ ، وفي هذا الزمن، شأنها لا يخلو من أمرين:

الأول: ما هو باطل، مما وضعته أيدي المحرفين، أو ليَّتهُ ألسنة الملحدين، فهذا لا شك أن القرآن قد أبطله من كل وجه، وأنه لا يمت إلى الله -ﷻ- بصلة؛ بل هو مضاد لما في القرآن؛ فهذا لا شك أنه باطل، وقد أخبر الله -ﷻ- في أكثر من آية أن أحبار السوء ورهبان الجهل غيروا هذه الكتب بأيديهم وألسنتهم، تحريفا لها وتأويلا فيها، قال الله تعالى: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)} البقرة: ٧٩، والباطل لا ينسب منه إلى الحق شيء.

الثاني: ما هو صحيح؛ فهذا يشهد له القرآن، ويؤكده، وهذا لا يعرف إلا بشهادة كتابنا له، فلا نحتاج إليه، ولهذا جاء في وصف القرآن الكريم قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً

=

=

وَمِنْهَاجًا} المائدة: ٤٨، ففي الآية بيان: أن الكتاب الذي هو القرآن مصدق لما قبله من الكتب المنزلة، وشاهد عليها بالحق، فما في الكتب السابقة مما هو في كتابنا فهذا حق؛ لأن القرآن شهد له بذلك، ولذا لم يكن لنا أن نحكم أو نتحاكم إلا إلى كتابنا المنزل علينا، وذلك لأنه مهيمن على الكتب السابقة، ناسخ لها، إذ جعل الله لكل نبي شرعة ومنهاجا، فشرعة أمة محمد ﷺ القرآن، ومنهجهم الوحي المنزل من الرحمن، فليس لهم أن يلتفتوا إلى غيره.

أما ما في كتبهم مما ليس في كتابنا كأخبار الأمم السابقة، وبعض ملح العلم، مما هو ليس من أساسيات الأديان؛ فهذه قال فيها ﷺ: (لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، و {قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا} البقرة: ١٣٦)، وذلك لأن التصديق قد يقع على المحرف، فنكون صدقنا بالباطل، أو يقع التكذيب بالمنزل فنكون قد وقعنا في الحرج.

ومن أجل هذا فإن الانحراف المؤدي إلى الإفراط في الإيمان بالكتب، يأتي من طريقين، هما:

-أولاً: التبرك بالكتب المنزلة.

من الإيمان بالكتب الإيمان بأن القرآن كلام الله -ﷻ-، وبما أن الكتب المنزلة حرفت عدا القرآن الكريم -بحفظ الله -ﷻ- له-، فإن التبرك يتجه إليه في المقام الأول، لإخبارنا الله -ﷻ- عنه بأنه مبارك، قال تعالى: {وَهَـذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ} الأنعام: ٩٢، وقوله: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} ص: ٢٩، إلا أن تبرك أهل السنة والجماعة بالقرآن مقيد بقيود، فعقيدة أهل السنة والجماعة تثبت أن كلام الله تعالى مكتوب في القراطيس، وأن المكتوب في المصاحف التي بأيدي المسلمين اليوم هو كلام الله -ﷻ- على الحقيقة.

ولم يخالف أهل السنة والجماعة في ذلك إلا الكلابية والأشعرية، الذين أنكروا أن

=

=

يكون كلام الله مكتوباً في المصاحف؛ بناءاً على زعمهم أن كلام الله معنى قائم بالنفس، وأما المكتوب في المصاحف فهو حكاية أو عبارة عن كلام الله.

والتبرك عند أهل السنة والجماعة ينقسم من جهة حكمه إلى قسمين:

أ-تبرك مشروع: وهو أن يفعل المسلم العبادات المشروعة طلباً للثواب المترتب عليها، ومن ذلك أن يتبرك بقراءة القرآن والعمل بأحكامه، فالتبرك به هو ما يرجو المسلم من الأجور على قراءته له وعمله بأحكامه.

ب-تبرك ممنوع: وهو ينقسم من حيث حكمه إلى قسمين:

١ -تبرك شركي: وهو أن يعتقد المتبرِّك أن المتبرَّك به -وهو المخلوق -يهب البركة بنفسه، فيبارك في الأشياء بذاته استقلالاً؛ لأن الله تعالى وحده موجد البركة وواهبها، فقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: (البركة من الله)، فطلبها من غيره، أو اعتقاد أن غيره يهبها بذاته شرك أكبر.

٢ -تبرك بدعي: وهو التبرك بما لم يرد دليل شرعي يدل على جواز التبرك به، معتقداً أن الله جعل فيه بركة، أو التبرك بالشيء الذي ورد التبرك به في غير ما ورد في الشرع التبرك به فيه، وهذا بلا شك محرم؛ لأن فيه إحداث عبادة لا دليل عليها من كتاب أو سنة؛ ولأنه جعل ما ليس بسبب سبباً، فهو من الشرك الأصغر؛ ولأنه يؤدي إلى الوقوع في الشرك الأكبر.

وصور تبرك المخالفين بالقرآن الكريم كثيرة، والبدع فيها غير محصورة، ومنها: كتابة القرآن في الحروز ومعها شيء من الطلاسم الشركية، والحسابات والمبتدعات، والتعاويذ، وتعليقه على الصبيان، والنساء، بل والدواب، وهذا كله زعم منهم أنه من باب التداوي ! !، فيجعل القرآن تلبيسا، والمقصود الشرك تأسيسا، بل ربما كان فيها نوع استعانة بالجن، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: " وعامة ما يقوله أهل العزائم فيه شرك، وقد يقرؤون مع ذلك شيئا من القرآن، ويظهرونه،

=

=

ويكتمون ما يقولونه من الشرك، وفي الاستشفاء بما شرعه الله ورسوله ما يغني عن الشرك وأهله"، كما أن كتابة التمائم من القرآن لم يثبت عن النبي ﷺ، ولو كان هذا سائغا شرعًا، ونافعًا كونا، لأرشد إليه المصطفى ﷺ، ولا شك أن منع التمائم من القرآن وغيره، فيه سد لباب الذرائع، وهو باب عظيم معمول به في الشرع، وقد حمى النبي ﷺ جانب التوحيد، فمنع من الألفاظ الموهمة والمؤدية إلى الشرك، فكيف يجيز ما يكون ذريعة إلى الشرك؟ ووسيلة إليه؟ !.

وقريب من هذا التبرك غير المشروع، ما يفعله بعض أهل البدع من كتابة القرآن على الأثواب، ولبس ذلك لإخراج الجن، أو يكون ذلك تبركا، ولعل هذا كان معروفا في القدم، وهذا يدل أن هناك ثيابا كانت ترقم ويكتب فيها القرآن، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومن ذلك قراءتهم -تبركا-القرآن على الميت! !، ووضع المصحف على القبر، فإن هذا من البدع المنكرة، وليس هذا سبيل التبرك، أو وضع المصحف عند رأس المحتضر تبركًا، قال الشيخ ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا على ما في الفتح: " الأحكام التي تنسب إلى الدين، لا بد من ثبوتها في نصوص الدين، وكل ما لم يكن في زمن التشريع، وفي نصوص التشريع؛ فهو مردود على من يزعمه، وتقدم قول الإمام الشافعي: ولكننا نتبع السنة فعلا وتركًا".

ومن ذلك التبرُكات البدعية بالآيات القرآنية، أو المصحف، أخذهم الفأل من المصحف، أو من الآيات، وذلك بفتح القرآن، ثم ينظر على ماذا يقع عينه، فيتفاءل بذلك، أو يتشاءم! !، ومعلوم أن القرآن الكريم ما أنزل لهذا، ولكن أهل البدع يبتدعون في الدين ما يشتهون، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ : " وأما استفتاح الفأل في المصحف؛ فلم ينقل عن السلف فيه شيء...، وقد حرم الله الاستقسام بها - أي: الأزلام-كالضرب بالحصى، والشعير، واللوح والخشب والورق المكتوب

=

عليه حروف أبجد، وأبيات شعر، ونحو ذلك: منهي عنه؛ لأنها من أسباب الاستقسام بالأزلام".

ومن ذلك تعليق الآيات القرآنية في البيوت، واتخاذها زينة، أو تبركًا، أو كتابتها على الستور، أو اتخاذها رسوما فنية، فهذا كله لم يثبت عن السلف الصالح رضي الله عنهم.

ومن التعظيم الغير مشروع، كتابة القرآن على القبور، أو على الأضرحة، فإن هذه بدعة منكرة.

ومن ذلك جعلهم القرآن الكريم -كلام رب العالمين-، بدلا عن الكلام، وقد نهى عن هذا السلف، قال إبراهيم النخعي رحمه الله : " كانوا يكرهون أن يتلوا الآية عند شيء يَعرِضُ من أمر الدنيا"، فالسلف منعوا الاستشهاد بالقرآن على غير المراد الذي من أجله أنزل، وإيراده اقتباسا أو أساسا على الوجه الذي نزل هو المقصود.

فالتبرك بالقرآن لا يكون بما يستحسنه العقل، ولا بما يقوله بعض الناس من دون دليل من النقل، وفي حقيقة الأمر أن هذا مخالفة للسلف، بل إنه في حد ذاته مخالفة للقرآن الكريم، وطريق للغلو في الإيمان بالكتب.

-ثانيًا: زعم تعظيم القرآن:

إن كثيراً من الفرق الإسلامية المبتدعة يصح أن يقال عنها: إنها كانت نواة للقرآنيين،

فالرافضة بل والشيعة بجميع فرقها لا تقبل السنة التي رويت عن طريق الصحابة رضي الله عنهم، وهكذا الخوارج لا يقبلون ما صح عند أهل السنة من الأحاديث، وهكذا المعتزلة لا يقبلون من السنة إلا ما وافق مذهبهم، وظنوه مؤكدا لمنهجهم.

فنبذ السنة وإظهار تعظيم القرآن الكريم فقط دعوات ظهرت منذ القِدم، تقل وتكثر بحسب ضعف وقوة أهل السنة، والخوارج أول من "ابتدعوا ترك العمل بالسنة المخالفة في زعمهم للقرآن"، وهؤلاء الخوارج وإن كانوا في الظاهر معظمين

=

للقرآن لكنهم في الحقيقة غير معظمين له؛ وذلك لأنهم يفهمونه مجرداً عن بيان السنة النبوية، وبسبب هذا ضل الخوارج، و"صاروا يتبعون المتشابه من القرآن؛ فيتأولونه على غير معرفة بمعناه، ولا رسوخ في العلم، ولا اتباع للسنة، ولا مراجعة لجماعة المسلمين، الذين يفهمون القرآن".

فالدعوة إلى الاكتفاء بالقرآن دون السنة ليست وليدة اليوم، ولم يظهروا كمدرسة هكذا فجأة، وإنما هي ميلاد اجتماع وأخلاط لآراء العقلانيين، الذين ظنوا المخالفة بين العقل والشرع المبين، وحاولوا إبعاد النصوص عن ميادين الدنيا والدين، ومن ذلك القرآن الكريم، ولما كان متواترا ثبوته، وأن رده كفر صريح، فإنهم زعموا أنهم يعتمدون عليه، وذلك حتى يفسروا آياته حسب مشتهياتهم ومراداتهم، فتركوا لذلك السنة، وهذه فكرة عقلانية قديمة أصبحت ظاهرة في هذا العصر في كثير من العقلانيين إن لم يكن في كلهم.

وأصل دين المنكرين للسنة قائم على تعظيم القرآن الكريم، ولكن هذا التعظيم إنما هو ظاهري لا حقيقي، ومموه لا مُذَهَّب.

كما أن المبالغة في مسألة الإعجاز العلمي

للقرآن الكريم ولي أعناق الأدلة، منطلقة من تعظيمهم للقرآن، حيث بالغوا فيه إلى حد يخرجه عن الأصل الشرعي، فدخلوا إلى الرموز الباطنية والإشارات الصوفية ومسألة الأرقام، أو التكهن بالأحداث من خلال ربط الآيات بعضها ببعض، وكل هذا الجهد إنما هو لأجل التوفيق بين ما يسمونه علمًا، وبين ما جاء في القرآن، ولقد كان لهذه القضية سلفٌ كالفلاسفة الذين عاشوا في ظلِّ الإسلام حين أرادوا أن يوفِّقوا بين ما في القرآن وبين ما في الفلسفة مما يسمونه حقيقة.

كما أن من البدع قول: إن الإعجاز واقع بجميع القرآن لا ببعضه كما هو قول بعض المعتزلة، وهو أحد الأقوال في مسألة القدْر المعجز من القرآن، فهو مردود

=

=

بنص القرآن وأن التحدي جاء بسورة واحدة منه.

وكل شيء ينبغي أن يأخذ قدره في البيان، فمسألة الإعجاز من أعظم مسائل الدين؛ لأن القرآن مما اتفق عليه أهل القبلة في الجملة، وأقروا بكونه أظهر معجزات النبي ﷺ، وأبينها، وأعلاها، وأشرفها، قال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤)} الطور: ٣٣ - ٣٤.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " كون القرآن معجزة ليس هو من جهة بلاغته وفصاحته فقط، أو نظمه أو أسلوبه فقط، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط... بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة، من جهة اللفظ، ومن جهة النظم، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى، وأسمائه وصفاته، وملائكته، وغير ذلك، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي، وعن الغيب المستقبل، ومن جهة ما أخبر به عن المعاد، ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية، والأقيسة العقلية، التي هي الأمثال المضروبة... وكل ما ذكره الناس من وجوه إعجاز القرآن هو حجة في إعجازه، ولا تناقض في ذلك، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له".

وقد أكثر أهل العلم ممن صنف في إعجاز القرآن من ذكر أوجه إعجازه، حتى عد السيوطي منها خمسة وثلاثين وجهـًا، وما هذا البحث "الآيات الواردة في الرد على البدع المتقابلة" إلا وجه من وجوه الإعجاز القرآني في الرد على انحراف الفرق عن الحق.

ومما سبق يتضح تفرد منهج أهل السنة بالوسطية بين هذه البدع المتقابلة، فلا إفراط ولا تفريط في الإيمان بكتب الله -عَزَّ وَجَلَّ- المنزلة.

سورة الملك(١)

(١) السّورة مكية.

وقد روي عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: نزلت بمكة: تبارك الملك.

وروي الضحاك عن ابن عباس، قال:"أنزلت تبارك الملك في أهل مكة إلا ثلاث آيات.

قال ابن عاشور:"فيحتمل أن الضحاك عنى استثناء ثلاث آيات نزلت في المدينة. وهذا الاحتمال هو الذي يقتضيه إخراج صاحب «الإتقان» هذا النقل في عداد السور المختلف في بعض آياتها، ويحتمل أن يريد أن ثلاث آيات منها غير مخاطب بها أهل مكة، وعلى كلا الاحتمالين فهو لم يعين هذه الآيات الثلاث وليس في آيات

السورة ثلاث آيات لا تتعلق بالمشركين خاصة بل نجد الخمس الآيات الأوائل يجوز أن يكون القصد منها الفريقين من أول السورة إلى قوله: عذاب السعير [الملك: ٥]".

قال الألوسي:"هي مكية على الأصح. وقيل غير ثلاث آيات منها وأخرج ابن جويبر في تفسيره عن الضحاك عن ابن عباس، وفي قول غريب إنها مدنية".

قال القرطبي:"سورة الملك مكية في قول الجميع".

* آياتها ثلاثون عند الجمهور، وإِحدى وثلاثون عند المكيّين. وكلماتها ثلاثمائة وثلاثون. وحروفها أَلف وثلاثمائة وثلاث عشرة. والمختلف فيها آية {قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ} مجموع فواصل آياتها (تمر) على الميم اثنان: أَليم ومستقيم.

* أسماء السورة:

الاسم الأول: «سورة الملك»:

اشتهرت تسميتها بـ «سورة الملك» وبذلك سميت في أكثر المصاحف وكتب =

=

التفسير، كما ترجم لها الترمذي في جامعه، باب «ما جاء في فضل سورة الملك»، والحاكم في المستدرك، باب «تفسير سورة الملك».

ولم أقف على خبر مأثور عن رسول اللهﷺ صرح فيه تسميتها بهذا اللفظ، وإنما وقعت تسميتها بذلك في كلام الصحابة-رضوان الله عليهم-.

عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: " يؤتى الرجل في قبره فتؤتى رجلاه فتقول رجلاه: ليس لكم على ما قبلي سبيل كان يقوم يقرأ بي سورة الملك، ثم يؤتى من قبل صدره أو قال بطنه، فيقول: ليس لكم على ما قبلي سبيل كان يقرأ بي سورة الملك، ثم يؤتى رأسه فيقول: ليس لكم على ما قبلي سبيل كان يقرأ بي سورة الملك، قال: فهي المانعة تمنع من عذاب القبر وهي في التوراة سورة الملك، ومن قرأها في ليلة فقد أكثر وأطنب".

وعن عبد الله بن مسعود، قال: «كنا نسميها في عهد رسول الله ﷺ المانعة، وإنها لفي كتاب الله سورة الملك من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب».

ووجه تسميتها بذلك لافتتاحها بتقديس وتعظيم الله نفسه الذي بيده الملك وهو في قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الملك: ١].

فسميت بـ «سورة الملك»، لاشتمالها على كثير من آثار المُلك، من كثرة الخيرات وعموم القدرة والإحياء والإماتة، واختبار أعمال الناس، والغلبة، والغفران، وعدم التفاوت في رعاياه، وتزيين بلاده، والقهر على الأعداء، والترحم على الأولياء، والأمن ورخص الأسعار، وألا يقدر أحد على نصر من عاداه، فهذه كلها من آثار الملك، وهذه المعاني في عامتها مما تناولته هذه السورة الكريمة؛ فمن ثم سميت سورة الملك.

وتسمى«سورة تبارك»، لافتتاحها بهذا اللفظ في قوله تعالى {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الملك: ١]، ولم تنفرد هذه السورة بافتتاحها

=

=

بهذا اللفظ، إذ افتتحت سورة «الفرقان» أيضا بلفظ «تبارك»، ولكن غلب هذا الاسم على سورة «الملك»، واشتهرت به كما ورد في كلام الرسولﷺ.

ورد عن النبيﷺ قال:"سورة تبارك هي المانعة من عذاب القبر»، وعنه ﷺ أيضا قال: «أنزلت سورة تبارك وهي ثلاثون آية جملة واحدة».

وتسمى: «سورة تبارك الذي بيده الملك»: سميت هذه السورة بسورة «تبارك الذي بيده الملك» بمسمع من رسول اللهﷺ، فيما رواه ابن عباس، قال: "ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْك} [الملك: ١]، حتى ختمها، فأتى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إني ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر، فإذا فيه إنسان يقرأ سورة تبارك الملك حتى ختمها. فقال رسول الله ﷺ: «هي المانعة، هي المنجية، تنجيه من عذاب القبر» ".

وروي أبو هريرة عن النبيﷺ، قال:"إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له، وهي سورة: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْك}".

عن جابر بن عبد الله: "أن النبي ﷺ، كان لا ينام حتى يقرأ «آلم تنزيل»، و «تبارك الذي بيده الملك».

وعن ابن عباس أنه قال لرجل: "ألا أتحفك بحديث تفرح به قال: بلى قال اقرأ: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْك}، وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك فإنها المنجية والمجادلة يوم القيامة عند ربها لقارئها وتطلب له أن تنجيه من عذاب النار وينجو بها صاحبها من عذاب القبر قال: قال رسول الله ﷺ: لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي".

وتسمى «سورة المنجية» وردت هذه التسمية عن رسول اللهﷺ وأصحابه- رضوان الله عليهم-، كما في الحديث الذي رواه ابن عباسرضي الله عنهما في قصة الرجل

=

=

الذي ضرب خباءه على قبر فسمعه يقرأ سورة الملك... إلى أن قال رسول الله ﷺ: «هي المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر».

وفي "الإتقان" عن تاريخ ابن عساكر من حديث أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ سماها المنجية»، وذكر ابن عطية في تفسيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعا: «إنها لتنجي من عذاب القبر وتجادل عن حافظها حتى لا يعذب».

وعلل المفسرون تسميتها بهذا الاسم، لأنها تنجي قارئها من عذاب القبر:.

وتسمى «سورة تبارك الملك» ورد عن ابن عباس، قال: «نزلت بمكة تبارك الملك».

وردت هذه التسمية عند مقاتل بن سليمان في تفسيره، وفي فضائل القرآن لابن الضريس، كما ذكرها الفيروزآبادي في "البصائر"، والسيوطي في "الإتقان".

وتسمى «سورة الواقية» ذكر هذه التسمية عند جماعة من المفسرين مثل أبو الليث السمرقندي، والماوردي، والواحدي، والزمخشري، والقرطبي، والبيضاوي، وغيرهم.

ووجه تسميتها بذلك لأنها تقي صاحبها من عذاب القبر كما قال المفسرون.

وتسمى «سورة المانعة» سميت بسورة المانعة أخذا من حديث ابن عباس السابق وهو قول الرسول ﷺ «هي المانعة»، كما اخرج الطبراني عن ابن مسعود، قال:"كنا نسميه في عهد رسول الله ﷺ: المانعة".

وجاء في "جمال القراء تسميتها بـ «المنّاعة» بصيغة المبالغة، ونقل عنه السيوطي في الإتقان وهي قريبة من معنى هذا الاسم.

ووجه تسميتها بهذا الاسم، أنها تمنع قارئها من العذاب، وهذا الاسم في التوراة، وقد شمل البقاعي تسميتها بهذه الأسماء الثلاثة: «الواقية، المنجية، المانعة»، يقول: "لأن من لزمها نجا مما يخاف ويمنع من كل هول ووقي كل محذور".

=

=

وتسمى «سورة المجادلة» سماها بذلك ابن عباس في اثر أنه قال لرجل:"عن ابن عباس أنه قال لرجل: ألا أتحفك بحديث تفرح به قال: بلى قال اقرأ {تبارك الذي بيده الملك} وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك فإنها المنجية والمجادلة يوم القيامة عند ربها لقارئها...".

ووجه تسميتها بهذا الاسم، لأنها تجادل عن قارئها يوم القيامة، كما روي جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

وذكر الرازي أن ابن عباس:"كان يسميها المجادلة، لأنها تجادل عن قارئها في القبر، وهي ثلاثون آية مكية". ولم أره لغير الفخر.

وقد ذكر الفيروزآبادي أسماء أخر لهذه السورة منها:

-الدافعة: وعلل تسميتها، بأنها تدفع بلاء الدنيا وعذاب الآخرة عن قارئها.

-الشافعة: لأنها تشفع في القيامة لقارئها.

-المخلّصة: لأنها تخاصم زبانية جهنم، لئلا يكون لهم يد على قارئها، وتفرد الفيروزآبادي بذكر هذه الأسماء ولم يذكر مستندا صحيحا يدل عليه.

* معظم مقصود السّورة: بيان استحقاق الله المُلْك، وخَلْقُ الحياة والموت للتجربة، والنظرُ إِلى السماوات للعِبرة، واشتعال النجوم والكواكب للزينة، وما أُعد للمنكرين: من العذاب، والعقوبة، و (ما) وُعد به المتَّقون: من الثَّواب، والكرامة، وتأْخير العذاب عن المستحقين بالفضل والرّحمة، وحفظ الطُّيور فى الهواءِ بكمال القدرة، واتصال الرّزق إِلى الخليقة، بالنَّوال والمِنَّة، وبيان حال أَهل الضَّلالة، والهداية، وتعجُّل الكفَّار بمجيءِ القيامة، وتهديد المشركين بزوال النعمة بقوله: {فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ}.

* المتشابهات قوله: {فارجع البصر} وبعده: {ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ} أَى مع الكرّة الأُولى. وقيل: هى ثلاث مرّات، أَى ارجع البصر -وهذه مرّة -ثم ارجع

=

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١).

{تَبَارَكَ} تَنَزَّهَ عَنْ صِفَات الْمُحَدِّثِينَ {الَّذِي بِيَدِهِ} في تصرفه {الملك} السلطان والقدرة {وهو على كل شيء قدير}(٢).

=

البصر كرّتين، فمجموعها ثلاث مرّات. قال أبو القاسم الكرماني: ويحتمل أن يكون أربع مرّات؛ لأنَّ قوله {ارجع} يدلُّ على سابقة مرّة.

قوله: {أَأَمِنتُمْ مَّن فِي السمآء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأرض}، وبعده: {أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً} خوّفهم بالخسف أوّلا، لكونهم على الأرض، وأنها أقرب عليهم من السّماءِ، ثم بالحصْب من السماءِ. فلذلك جاءَ ثانية. ا. هـ من بصائر ذوي التمييز (١/ ٤٧٣).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢)عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ (إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر الله له: تبارك الذي بيده الملك)أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٩)، وأبو داود (١٤٠٠)، والترمذى (٢٨٩١)، والنسائى فى الكبرى (١٠٥٤٦)، وابن ماجه (٣٧٨٦)، وابن حبان (٧٨٧)، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة (٦٨٨)، والحاكم (١/ ٧٥٣)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢٥٠٦) وغيرهم والحديث حسنه الترمذي، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وقال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٢/ ٢٧٧): ثابت، وصححه ابن الملقن في البدر المنير (٣/ ٥٦١)، وقال الحافظ في التلخيص (١/ ٢٣٤ رقم ٣٤٩): أعله البخاري في التاريخ الكبير بأن عباس الجشمي لا يعرف سماعه من أبي هريرة ولكن ذكره بن حبان في الثقات وله شاهد من حديث ثابت عن أنس رواه الطبراني

=

=

في الكبير بإسناد صحيح، وحسنه الشيخ ناصر في صحيح الجامع (٢٠٩١)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه فقي تحقيق المسند (١٣/ ٣٥٣): حسن لغيره، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عباس الجشمي -ويقال في اسمه: عياش-فقد روى عنه سعيد الجريري وقتادة، وذكره ابن حبان في الثقات، وخرج له أصحاب السنن الأربعة، وقال الحافظ في التقريب: مقبول، وقال العلامة الوادعي في كتاب الشفاعة (ص ٢٤٢): ضعيف بهذا السند، وقال الشيخ مصطفى العدوي في صحيح تفسير ابن كثير (٤/ ٤٨٤): صححه عدد من العلماء، وفي سنده عباس الجشيمي لم يوثقه معتبر وله طرق قد يصحح بمجموعها، والله أعلم.

قال ابن عاشور: افتتحت السورة بما يدل على منتهى كمال الله تعالى افتتاحاً يؤذن بأن ما حَوتْه يحوم حول تنزيه الله تعالى عن النقص الذي افتراه المشركون لمّا نسبوا إليه شركاء في الربوبية والتصرف معه والتعطيل لبعض مراده.

ففي هذا الافتتاح براعة الاستهلال كما تقدم في طالع سورة الفرقان، وفعل {تَبَارَكَ} يدل على المبالغة في وفرة الخير، وهو في مقام الثناء يقتضي العموم بالقرينة، أي يفيد أن كل وفرة من الكمال ثابتة لله تعالى بحيث لا يتخلف نوع منها عن أن يكون صفة له تعالى.

قوله تعالى: (تبارك) يمجد تعالى نفسه الكريمة.

قوله تعالى (تبارك) البركة لها معنيان: النمو والزيادة، والثاني: ثبوت الخير ودوامه، أي: تعاظم وتعالى وكثر خيره وإنعامه وعم إحسانه.

-افتتاح السورة بقوله (تبارك) فيه الثناء على الله وتمجيده فهو أهل لذلك، ويحتمل أيضا التبرك باسمه سبحانه وتعالى

-والبركة: كثرة الخير.

=

=

-قال الشنقيطي: الأظهر في معنى تبارك بحسب اللغة التي نزل بها القرآن أنه تفاعل من البركة، كما جزم به ابن جرير الطبري.

وعليه فمعنى تبارك: تكاثرت البركات والخيرات من قبله.

وذلك يستلزم عظمته وتقدسه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله ؛ لأن من تأتي من قبله البركات والخيرات ويدر الأرزاق على الناس هو وحده المتفرد بالعظمة، واستحقاق إخلاص العبادة له، والذي لا تأتي من قبله بركة ولا خير، ولا رزق كالأصنام، وسائر المعبودات من دون الله لا يصح أن يعبد، وعبادته كفر مخلد في نار جهنم.

وقد أشار تعالى إلى هذا في قوله (إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون).

وقوله تعالى (ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السماوات والأرض شيئا ولا يستطيعون).

وقوله تعالى (وهو يطعم ولا يطعم).

(الذي بيده الملك) أي: الذي من عظمته أن بيده الملك كله، علويه وسفليه، السموات والأرض ومن فيهن وما بينهن.

قال ابن عباس: بيده الملك، يعز من يشاء ويذل من يشاء، ويحيى ويميت، ويغني ويفقر، ويعطى ويمنع.

كما قال تعالى (ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء).

وقال تعالى (فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون).

وقال تعالى (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير).

-قال الشوكاني: الملك هو ملك السموات والأرض في الدنيا والآخرة، فهو يعز

=

=

من يشاء ويذل من يشاء، ويرفع من يشاء ويضع من يشاء، وقيل: المراد بالملك ملك النبوة، والأول أولى؛ لأن الحمل على العموم أكثر مدحا وأبلغ ثناء، ولا وجه للتخصيص.

(وهو على كل شيء) أيا كان هذا الشيء صغيرا أو كبيرا، خفيا أو جليا، دقيقا أو جليلا.

(قدير) ذو قدرة تامة نافذة، لأنه تعالى لا يعجزه شيء.

كما قال تعالى (له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير).

فالآية عامة، فالله على كل شيء قدير، على ما شاءه وما لم يشأه.

وجرت العادة بذكر قدرته عند الأمور التي لا يستطيعها البشر، كما ذكر ذلك عند نصره لعباده الضعفاء المتمسكين بدينه كقوله تعالى في الأحزاب (وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطأوها وكان الله على كل شيء قديرا) وقال في الحديبية (وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا).

ومن قدرته أنه سبحانه يعز من يشاء ويذل من يشاء ويؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء كما قال تعالى (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير)

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: الآية عامة، فهو قدير على كل شيء، على ما شاءه وما لم يشأه، وبهذا نعرف أن تقييد بعض الناس القدرة بالمشيئة خطأ، لأن الله قادر على ما يشاء وعلى ما لا يشاء، وأما قوله تعالى (وهو على جمعهم إذا يشاء قدير) فالمشيئة هنا ليست عائدة على القدرة، ولكنها عائدة على الجمع، يعني: إذا أراد

=

=

جمعهم وشاء جمعهم فهو قدير عليه لا يعجزه شيء.

قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} [الملك: ١]، أي:"تكاثر خير الله وبرُّه على جميع خلقه، الذي بيده مُلك الدنيا والآخرة وسلطانهما، نافذ فيهما أمره وقضاؤه".

قال ابن عباس:"{تبارك} تَفاعُلٌ مِن البَرَكة". وروى عن أبي مالك الغفاري نحو ذلك.

قال الضحاك: " {تبارك}: تَعَظَّم".

وقال الحسن: "تجيء البركة مِن قِبَلِه".

قال الزجاج: {تَبارَكَ}،" معناه: تعالى وتعاظم".

قال الزمخشري:"{تَبارَكَ} تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين، {الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} على كل موجود".

قال الطبري: يعني: " تعاظم وتعالى {الَّذِي} بيده ملك الدنيا والآخرة وسُلطانهما نافذ فيهما أمره وقضاؤه".

قال سهل:"أي: تعالى الله وتعاظم عن الأشباه والأولاد والأضداد، الذي بيده الملك يقلبه بحوله وقوته، يؤتيه من يشاء، وينزعه ممن يشاء، وهو القادر عليه".

قال ابن كثير:"يمجد تعالى نفسه الكريمة، ويخبر أنه بيده الملك، أي: هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله".

قوله تعالى: {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الملك: ١]، أي:"وهو القادر على كل شيء له القدرة التامة، والتصرف الكامل في كل الأمور، من غير منازع ولا مدافع".

قال الطبري: " يقول: وهو على ما يشاء فعله ذو قدرة لا يمنعه من فعله مانع، ولا يحول بينه وبينه عجز".

=

الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢).

{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْت} فِي الدُّنْيَا {وَالْحَيَاة} فِي الْآخِرَة أَوْ هُمَا فِي الدُّنْيَا فَالنُّطْفَة تَعْرِض لَهَا الْحَيَاة وَهِيَ مَا بِهِ الْإِحْسَاس وَالْمَوْت ضِدّهَا أَوْ عَدَمهَا قَوْلَانِ وَالْخَلْق عَلَى الثَّانِي بِمَعْنَى التَّقْدِير {لِيَبْلُوكُمْ} لِيَخْتَبِركُمْ فِي الْحَيَاة {أَيّكُمْ أَحْسَن عَمَلًا} أَطْوَع لِلَّهِ {وَهُوَ الْعَزِيز} فِي انْتِقَامه مِمَّنْ عَصَاهُ {الْغَفُور} لِمَنْ تَابَ إلَيْهِ[1].

=

قال ابن إسحاق:"أي: إن الله على كل شيء ما أراد بعباده من نقمة أو عفو فهو قدير".

(١) قوله تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} [الملك: ٢]، أي:"الذي خلق الموت والحياة؛ ليختبركم -أيها الناس-: أيكم خيرٌ عملا وأخلصه؟".

قال الطبري: " فأمات من شاء وما شاء، وأحيا من أراد وما أراد إلى أجل معلوم".

قال الزجاج:"خلق لكم الحياة ليختبركم فيها وخلق الموت ليبعثكم ويجازيكم بأعمالكم".

عن قتادة:"{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ}، ذكر أن نبيّ الله ﷺ أكان يقول: «إنَّ الله أذَلَّ ابْنَ آدَمَ بالمَوْتِ»".

قال قتادة:"أذل الله ابن آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ودار فناء، وجعل الآخرة دار جزاء وبقاء".

قال ابن كثير:"واستدل بهذه الآية من قال: إن الموت أمر وجودي لأنه مخلوق. ومعنى الآية: أنه أوجد الخلائق من العدم، ليبلوهم ويختبرهم أيهم أحسن عملا؟

=

=

كما قال: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ} [البقرة: ٢٨] فسمى الحال الأول -وهو العدم -موتًا، وسمى هذه النشأة حياة. ولهذا قال: {ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ} [البقرة: ٢٨]".

قال الطبري: " ليختبركم فينظر أيكم له أيها الناس أطوع، وإلى طلب رضاه أسرع".

قال الزجاج:"المعنى: {لِيَبْلُوَكُم} فيعلم أيكم أحسن عَملاً علم ما وقع، والله ﷻ قد علم ما يكون منهم إلا أَنَّ الجَزَاء يجب بوقوع العَمَلِ منهم".

قال ابن كثير:"أي: خير عملا".

عن قتادة، قوله: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}، يعني: أيكم أتم عملا".

عن سفيان، قوله: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}، أزهدكم في الدنيا".

عن ابن جريج في قوله: {{لِيَبْلُوَكُمْ}، قال: الثقلين".

عن أبي عجلان، قال: قال الله: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}، ولم يقل: أكثر عملا".

قال سهل:"أي: أصوبه وأخلصه، فإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون صواباً خالصاً. والخالص الذي يكون لله تعالى بإرادة القلب، والصواب الذي يكون على سبيل السنة وموافقة الكتاب. وقال مرة أخرى: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}، أي: توكلاً ورضاً علينا، وسياحة بعد الزهد في الدنيا. وإن مثل التقوى واليقين كمثل كفتي الميزان، والتوكل لسانه، يعرف به الزيادة من النقصان. فقيل: وما التوكل؟ قال: الفرار من التوكل، يعني: من دعوى التوكل".

قوله تعالى: {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} [الملك: ٢]، أي:"وهو العزيز الذي لا يعجزه شيء، الغفور لمن تاب من عباده".

قال الطبري: " وهو القويّ الشديد انتقامه ممن عصاه، وخالف أمره {الْغَفُورُ}

=

=

ذنوب من أناب إليه وتاب من ذنوبه".

قال ابن كثير:"أي: هو العزيز العظيم المنيع الجناب، وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأناب، بعدما عصاه وخالف أمره، وإن كان تعالى عزيزا، هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز".

قال سهل: {الْعَزِيزُ}:"يعني: المنيع في حكمه، الحكيم في تدبيره بخلقه، {الْغَفُورُ} للنقصان والخلل الذي يظهر في طاعات عباده".

قال محمد بن إسحاق: "العزيز في نصرته ممن كفر إذا شاء".

قال سلمة بن وهرام صاحب طاووس:"أن الله تبارك وتعالى إنما سمى نفسه «العفو»، ليعفو، و «الغفور»، ليغفر".

وقوله تعالى: (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا) هذا بيان للحكمة من خلق الخلق.

أي أوجد في الدنيا الحياة والموت فأحيا من شاء وأمات من شاء، وهو الواحد القهار.

قال الآلوسى ما ملخصه: والموت عند الأشعرى، كيفية وجودية تضاد الحياة، وعند كثيرين غيره: أنه عدم الحياة عما من شأنه الحياة بالفعل.

وقال بعضهم: المراد بالنفس هنا: النفس الإنسانية لأن الكلام مسوق لنفى خلود البشر.

واختير عمومها لتشمل نفوس البشر والجن وسائر نفوس الحيوان ا. هـ.

قلت الموت أمر وجودي، قال تعالى: {الذي خلق الموت والحياة}، والعدم لا يكون مخلوقًا. وإنما يقول إن الموت زوال الحياة الفلاسفة ومن وافقهم. وقولهم باطل.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:... " واستدل بهذه الآية من قال: إنَّ الموت أمر وجودي؛ لأنه

=

=

مخلوق. ومعنى الآية: أنه أوجد الخلائق من العدم، ليبلوهم ويختبرهم أيهم أحسن عملا؟.

وقال الألوسي: " والموت على ما ذهب الكثير من أهل السنة صفة وجودية تضاد الحياة، واستدل على وجوديته بتعلق الخلق به وهو لا يتعلق بالعدمي لأزلية الإعدام ".

(ليبلوكم أيكم أحسن عملا) اللام للتعليل، أي: لأجل أن يختبركم ويمتحنكم أيكم خير عملا. فيرى المحسن من المسيء.

-قال ابن عطية: وقدم {الموت} في اللفظ، لأنه متقدم في النفس هيبة وغلظة.

-قال القرطبي: وقدم الموت على الحياة:

أ-لأن الموت إلى القهر أقرب؛ كما قدم البنات على البنين فقال (يهب لمن يشآء إناثا).

ب-وقيل: قدمه لأنه أقدم؛ لأن الأشياء في الابتداء كانت في حكم الموت كالنطفة والتراب ونحوه.

ج-وقيل قدم الموت على الحياة، لأن أقوى الناس داعيا إلى العمل من نصب موته بين عينيه؛ فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أهم.... (القرطبي).

-وقال أبو السعود: وتقديم الموت لكونه أدعى إلى إحسان العمل.

-وإحسان العمل يكون بإخلاصه وبموافقته للشريعة.

قال الفضيل (أيكم أحسن عملا) أي: أخلصه وأصوبه، لأن العمل إن كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل وإن كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل.

-قال ابن كثير: (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) أي: ليختبركم (أيكم أحسن عملا) ولم يقل: أكثر عملا، بل أحسن عملا، ولا يكون العمل حسنا حتى يكون خالصا

=

=

لله ﷻ على شريعة رسول الله ﷺ ، فمتى فقد العمل واحدا من هذين الشرطين بطل وحبط.

-قال السعدي: قوله تعالى (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) أي: أخلصه وأصوبه، فإن الله خلق عباده، وأخرجهم لهذه الدار، وأخبرهم أنهم سينقلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره، فمن انقاد لأمر الله وأحسن العمل، أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن مال مع شهوات النفس، ونبذ أمر الله، فله شر الجزاء.

-في هذه الآية الحكمة من خلق الناس وهي إحسان العمل.

كما قال تعالى في أول سورة هود (وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) ثم بين الحكمة فقال (ليبلوكم أيكم أحسن عملا). ولم يقل أيكم أكثر عملا.

وقال تعالى في أول سورة الكهف (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها) ثم بين الحكمة بقوله (لنبلوهم أيهم أحسن عملا).

وقال تعالى هنا (الذي خلق الموت والحياة) ثم بين الحكمة فقال (ليبلوكم أيكم أحسن عملا).

فالإحسان: أن يأتي بالعمل حسنا متقنا لا نقص فيه ولا تقصير، وإحسان العمل لا يمكن إلا بمراقبة خالق هذا الكون.

وبذلك فسر النبي ﷺ الإحسان بقوله لما سأله جبريل ما الإحسان؟ (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك). رواه مسلم

وسؤال جبريل هذا ليعلم أصحاب النبي ﷺ معنى الإحسان، وأن إحسان العمل إنما يكون لمن راقب الله وعلم يقينيا أن الله مطلع عليه.

فالإحسان في عبادة الله: أن تقوم بالعمل متقنا فيه إخلاصا ومتابعة.

=

=

والإحسان إلى المخلوق: بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، وأن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك.

-قال السعدي: والإحسان نوعان:

الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى المخلوق.

فالإحسان في عبادة الخالق: فسرها النبي ﷺ بقوله (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

وأما الإحسان إلى المخلوق: فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل الندى وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبيده.

(فائدة): الابتلاء: الاختبار والامتحان، ويكون بالخير والشر.

قال تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون).

وقال تعالى (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون).

(وهو العزيز) اسم من أسماء الله تعالى، وهو متضمن لصفة العزة الكاملة لله، وهي ثلاثة أنواع:

عزة القدر: بمعنى أن الله ذو قدر شريف عظيم، كما قال النبي ﷺ (السيد الله).

وعزة القهر: بمعنى أن الله القاهر لكل شيء، لا يغلب، كما قال تعالى (وهو القاهر فوق عباده).

وعزة الامتناع: بمعنى أنه يمتنع أن يناله أحد بسوء أو نقص.

=

=
قال السعدي: (العزيز) الذي له العزة كلها: عزة القوة ، وعزة الغلبة ، وعزة الامتناع ، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات ، وقهر جميع الموجودات ، ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته.

(الغفور) اسم من أسماء الله تعالى، وهو الذي يكثر منه الستر على المذنبين من عباده، ويزيد عفوه على مؤاخذته.

قال السعدي: الغفور: الذي لم يزل يغفر الذنوب ويتوب على كل من يتوب.

قال ابن القيم:

وهو الغفور فلو أتى بقرابها... من غير شرك بل من العصيان

لأتاه بالغفران ملء قرابها... سبحانه هو واسع الغفران

متضمن للمغفرة الواسعة كما قال تعالى (فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة)، وقال تعالى (وربك الغفور ذو الرحمة) وقال تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء).

والمغفرة: هي ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن عقوبته، كما في حديث ابن عمر في المناجاة أن رسول الله ﷺ قال (يدني المؤمن يوم القيامة من ربه ﷻ حتى يضع كنفه -أي ستره ورحمته-فيقرره بذنوبه، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي ربي، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال الله: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم). رواه البخاري ومسلم

ومنه سمي المغفر، وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام.

الفهرس

